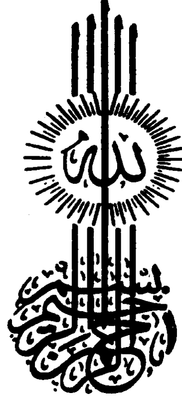


دراسات تاريخ الجزيرة العربية

هذا عنوان لسلسلة من الدراسات في تاريخ الجزيرة العربية ، تحتوي على الأبحاث التي كانت قد قدمت في الندوات العالمية الأربع التي كانت قد نظمت في كلية الآداب بجامعة الملك سعود (الرياض سابقا) ، وعلى الأبحاث التي ستقدم للندوات التي ستنظم مستقبلا بمشيئته تعالى . وكانت الندوة الأولى قد نظمها قسم التاريخ ، بكلية الآداب ، بجامعة الملك سعود (الرياض آنذاك) في جمادى الأولى ١٣٩٧هـ (أبريل / نيسان ١٩٧٧م) ، وموضوعها "مصادر تاريخ الجزيرة العربية " يحوي أبحاثها الكتاب الأول في جزأيه . أما الندوة العالمية الثانية فكان قد اشترك في الإعداد لها وعقدها قسم التاريخ وقسم الآثار والمتاحف بالكلية ذاتها ، في جمادى الأولى ١٣٩٩هـ (أبريل / نيسان ١٩٧٩م) ، وتناولت موضوع "الجزيرة العربية قبل الإسلام ،" ويضم أبحاثها الكتاب الثاني (وهو بجزء واحد) .

أما الندوة العالمية الثالثة والتي نظمها القسمان أيضا ، وعقدت في الفترة ١٥ — ٢١ محرم ١٤٠٤هـ (٢١ — ٢٧ أكتوبر / تشرين الأول ١٩٨٣م) ، وكان موضوعها : "الجزيرة العربية في عصر الرسول والخلفاء الراشدين ،" ويضم أبحاثها الكتاب الثالث في جزأيه .

وأما الندوة العالمية الرابعة والتي نظمها القسمان أيضا وعقدت في الفترة ٧ — ٩ ذي القعدة ١٤٢٠هـ (١٣ — ١٥ فبراير ٢٠٠٠م) . وكان موضوعها " الجزيرة العربية في العصر الأموي ،" فإن أبحاثها يضمها هذا الكتاب .

والقسمان الآن بصدد عقد الندوة الخامسة وموضوعها " الجزيرة العربية من أول العصر العباسي وحتى نهاية القرن ٤هـ" التي ستنشر أبحاثها في الكتاب الخامس إن شاء الله تعالى .

وفيما يلي عناوين كتب السلسلة :

الكتاب الأول : (جزءان) :

مصادر تاريخ الجزيرة العربية

مطابع جامعة الرياض (١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م).

الكتاب الثاني :

الجزيرة العربية قبل الإسلام

مطابع جامعة الملك سعود (١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م) .

الكتاب الثالث :

الجزيرة العربية في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين

مطابع جامعة الملك سعود (١٤١٠هـ / ١٩٨٩م) .

الكتاب الرابع :

الجزيرة العربية في العصر الأموي

النشر العلمي والمطابع ، جامعة الملك سعود (١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م) .

دراسات تاريخ الجزيرة العربية

الأبحاث المقدمة للندوة العالمية الرابعة لدراسات تاريخ الجزيرة العربية في ٧ - ٩ ذي القعدة ١٤٢٠هـ الموافق ١٣-١٥ فبراير ٢٠٠٠م. قسم التاريخ وقسم الآثار والمتاحف، كلية الآداب جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية.

الكتاب الرابع

الجزيرة العربية في العصر الأموي

هيئة التحرير

أ. د. عبد العزيز بن صالح الهلابي

د. عمر بن سليمان العقيلي *د. محمد بن عبد الرحمن الثنيان*



النشر العلمي والمطابع - جامعة الملك سعود

ص.ب ٦٨٩٥٣ - الرياض ١١٥٣٧ - المملكة العربية السعودية

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية للطباعة والنشر

جامعة الملك سعود، كلية الآداب، قسم الآثار والمتاحف

الجزيرة العربية في العصر الأموي. - الرياض، ١٤٢٤هـ

٥٠٩ ص ؛ ٢١ x ٢٨ سم

ردمك : 9960-37-517-X

١ الجزيرة العربية تاريخ العصر الأموي أ. العنوان

ديوي ٩٥٣,٠٣ ١٤٢٣/٦٧٠١

رقم الإيداع : ١٤٢٣/٦٧٠١

ردمك 9960-37-517-X

النشر العلمي والمطابع

١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م

المحتويات

لجان الندوة

أولا: اللجنة التحضيرية

الاسم	الجهة	الصفة
١ - أ.د. محمد بن سعيد الشعفي	(عميد كلية الآداب)	رئيسا
٢ - د. عمر بن سليمان العقيلي	رئيس قسم التاريخ	نائبا للرئيس
٣ - د. خليل بن إبراهيم المعيقل	رئيس قسم الآثار والمتاحف	نائبا للرئيس
٤ - أ.د. عبد القادر بن محمود عبد الله	قسم الآثار والمتاحف	مقررا للجنة
٥ - أ.د. عبد العزيز بن صالح الهلابي	قسم التاريخ	عضوا
٦ - أ.د. عبد الله بن محمد السيف	قسم التاريخ	عضوا
٧ - أ.د. سعد بن محمد الغامدي	قسم التاريخ	عضوا
٨ - أ.د. محمد بن فارس الجميل	قسم التاريخ	عضوا
٩ - د. عبد الله بن إبراهيم العسكر	قسم التاريخ	عضوا
١٠ - د. عبد الله بن علي الزيدان	قسم التاريخ	عضوا
١١ - د. عبد ا لله بن عبد العزيز بن دريس	قسم التاريخ	عضوا
١٢ - د. عبد الغفور بن إسماعيل الروزي	قسم التاريخ	عضوا
١٣ - د. عبد الله بن عثمان الخراشي	قسم التاريخ	عضوا
١٤ - د. عبد الرحمن بن مديرس المديرس	قسم التاريخ	عضوا
١٥ - د. سعيد بن عبد الله القحطاني	قسم التاريخ	عضوا
١٦ - أ.د. أحمد بن عمر الزيلعي	قسم الآثار والمتاحف	عضوا
١٧ - د. علي بن إبراهيم غبان	قسم الآثار والمتاحف	عضوا
١٨ - د. عبد الله بن إبراهيم العمير	قسم الآثار والمتاحف	عضوا
١٩ - د. محمد بن عبد الرحمن الثنيان	قسم الآثار والمتاحف	عضوا
٢٠ - د. مشلح بن كميخ المريخي	قسم الآثار والمتاحف	عضوا
٢١ - د. طلال بن محمد الشعبان	قسم الآثار والمتاحف	عضوا

ثانيا : اللجنة العلمية

الاسم	الجهة	الصفة
١ - أ.د. عبد الله بن محمد السيف	قسم التاريخ	رئيسا
٢ - د. خليل بن إبراهيم المعيقل	قسم الآثار والمتاحف	نائبا للرئيس
٣ - أ.د. عبد العزيز بن صالح الهلابي	قسم التاريخ	عضوا
٤ - أ.د. محمد بن فارس الجميل	قسم التاريخ	عضوا

٥ - د. عبد الله بن إبراهيم العسكر	قسم التاريخ	عضـوا
٦ - د. عبد الله بن إبراهيم العمير	قسم الآثار والمتاحف	عضـوا
٧ - د. عبد الله بن علي الزيدان	قسم التاريخ	عضـوا
٨ - د. عبد الله بن عبد العزيز بن دريس	قسم التاريخ	عضـوا
٩ - د. عمر بن سليمان العقيلي	قسم التاريخ	عضـوا
١٠ - د. محمد بن عبد الرحمن الثنيان	قسم الآثار والمتاحف	عضـوا
١١ - د. مشلح بن كميخ المريخي	قسم الآثار والمتاحف	عضـوا

ثالثا: أمانة الندوة

١ - أ.د. عبد القادر محمود عبد الله	قسم الآثار والمتاحف	أمينـا
٢ - د. عبد الغفور بن إسماعيل الروزي	قسم التاريخ	عضـوا
٣ - د. محمد بن عبد الرحمن الثنيان	قسم الآثار والمتاحف	عضـوا
٤ - د. عبد الله بن عثمان الخراشي	قسم التاريخ	عضـوا
٥ - د. عبد الرحمن بن مديرس المديرس	قسم التاريخ	عضـوا

رابعا : اللجنة المالية

١ - د. علي بن إبراهيم غبان	قسم الآثار والمتاحف	مقـررا
٢ - أ.د. عبد العزيز بن صالح الهلابي	قسم التاريخ	عضـوا

خامسا : لجنة البرنامج

١ - أ.د. عبد القادر محمود عبد الله	قسم الآثار والمتاحف
٢ - د. محمد بن عبد الرحمن الثنيان	قسم الآثار والمتاحف
٣ - د. عبد الله بن عثمان الخراشي	قسم التاريخ
٤ - أ. نور الدين عباس هلال	الجمعية التاريخية

سادسا : لجنة العلاقات : (الفنادق ، السفر ، القاعة .. إلخ)

١ - د. عبد الرحمن بن مديرس المديرس	قسم التاريخ
٢ - د. سعيد بن عبد الله القحطاني	قسم التاريخ
٣ - أ. خالد بن عبد الكريم البكر	قسم التاريخ
٤ - أ. نور الدين عباس هلال	الجمعية التاريخية
٥ - أ. بندر البصيص	الإدارة العامة للإعلام والعلاقات الجامعية
٦ - محبوب الطامي	الإدارة العامة للإعلام والعلاقات الجامعية

لجنة صياغة البيان الختامي للندوة

أ.د. محمد بن سعيد الشعفي

أ.د. صالح بن عبد العزيز الهلابي

أ.د. عبد القادر محمود عبد الله

د. عمر بن سليمان العقيلي

د. خليل بن إبراهيم المعيقل

مقدمو الأبحاث في هذا الجزء

(أسماء مقدمي الأبحاث وعناوينهم عند انعقاد الندوة)

البابطين ، د. إلهام بنت أحمد

قسم التاريخ ، مركز الدراسات الجامعية للبنات ، جامعة الملك سعود ، الرياض

بوتشيش ، أ.د. إبراهيم القادري

قسم التاريخ ، جامعة مولاي إسماعيل ، مكناس ، المغرب

بيطار ، أ.د. أمينة

قسم التاريخ ، مركز الدراسات الجامعية للبنات ، جامعة الملك سعود ، الرياض

الجبر ، حصة بنت عبد الرحمن عبد العزيز

قسم التاريخ ، مركز الدراسات الجامعية للبنات ، جامعة الملك سعود ، الرياض

جريس ، د. غيثان بن علي

قسم التاريخ ، كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية والإدارية ، جامعة الملك خالد ، أبها

الجميح ، د. إبراهيم بن عبد العزيز

قسم التاريخ ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة الملك عبد العزيز ، جدة

الراشد ، أ.د. سعد بن عبد العزيز

وكالة الآثار والمتاحف ، وزارة المعارف ، الرياض .

الروزي ، د. عبد الغفور بن إسماعيل

قسم التاريخ ، كلية الآداب ، جامعة الملك سعود ، الرياض

الزهراني ، أ.د. ضيف الله بن يحيى

قسم الحضارة والنظم الإسلامية ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة

زيود ، أ.د. محمد أحمد

قسم التاريخ ، كلية الآداب ، جامعة الكويت ، الكويت ، دولة الكويت

الشجاع ، أ.د. عبد الرحمن بن عبد الواحد

قسم التاريخ ، كلية الآداب ، جامعة صنعاء ، صنعاء ، اليمن

طاشكندي ، د. فرحات بن خورشيد

قسم العمارة وعلوم البناء ، كلية العمارة والتخطيط ، جامعة الملك سعود ، الرياض .

العسكر ، د. عبد الله بن إبراهيم

قسم التاريخ ، كلية الآداب ، جامعة الملك سعود ، الرياض

العمري ، أ.د. أكرم ضياء

كلية الشريعة والقانون ، جامعة قطر ، الدوحة ، دولة قطر .

العمري ، د. عبد العزيز بن إبراهيم

قسم التاريخ ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض

قريسة ، أ.د. نبيل خلدون

قسم التاريخ ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة السلطان قابوس ، منوبة ، تونس

موسى ، أ.د. عز الدين عمر أحمد

قسم التاريخ ، كلية الآداب ، جامعة الملك سعود ، الرياض

الهلابي ، أ.د. عبد العزيز بن صالح

قسم التاريخ ، كلية الآداب ، جامعة الملك سعود ، الرياض

الوشمي ، د. صالح (رحمه الله)

تمهيــــــد

تتشرف الندوة العالمية لتاريخ الجزيرة العربية بإصدار الجزء الرابع من سلسلة تاريخ الجزيرة العربية وهو يضم معظم أبحاث الندوة العالمية الرابعة وموضوعها: " الجزيرة العربيـة في العصر الأموي " وعقدت في الفترة ٧-٩ ذي القعدة ١٤٢٠هـ (١٣-١٥ فبراير ٢٠٠٠م) وقد اشترك في تنظيمها قسم التـاريخ وقسـم الآثـار والمتاحف بكلية الآداب ، جامعة الملك سعود .

لقد تأجل موعد انعقاد هذه الندوة أكثر من مرة لأسباب خارجة عن إرادة المنظمـين لها ولا علاقة لهم بها . ومن سلبيات هذا التأخير أن حرمنا مشاركة بعض العلماء الأفاضل الذين قدموا أبحاثهم أو ملخصاتها ، وأغتنم هذه الفرصة لأسجل لهم العرفان والتقدير ، وأدعو لمن افتقدناه منهم بالرحمة والمغفرة .

والشكر موصول للأساتذة الكرام من خارج المملكة ومن داخلها الذين أسهموا ببحوثهم القيمة الرصينة في هذه الندوة التي يضمها هذا السفر والذي سوف يكون – إن شاء الله – مثل الأجزاء السابقة مرجعا لا يستغني عنه أي دارس لتاريخ الجزيرة العربية في العصر الأموي .

وإيمانا من أعضاء هيئة التدريس بقسمي التاريخ والآثار والمتاحف بأهمية هذه الندوة وضرورة تواصلها ، فقد قرروا عقد الندوة العالمية الخامسة لتاريخ الجزيرة العربية من أول العصر العباسي وحتى نهاية القرن الرابع الهجري ، وقد أوشكوا على الفراغ من إعداد محاورها وموعد عقدها والذي سوف يكون قريبا إن شاء الله .

والندوة رئيسا وأعضاء مدينون بالشكر والتقدير لمعالي مدير الجامعة الأستاذ الدكتور عبد الله بن محمد الفيصل لبذل كل ما في وسعه في سبيل إنجاح عقدها ، كما يشكرون وكيل الجامعة للدراسات العليا والبحث العلمي الأستاذ الدكتور خالد الحمودي لإسهامه في إنجاحها ، ويخصون بالشكر كذلك عميد كلية الآداب الأستاذ الدكتور محمد بن عبد الرحمن الهدلق الذي ذلل كل العقبات التي اعترضتها وشارك بإيجابية بفعالياتها .

أما زملائي أعضاء اللجنة التحضيرية وهيئة تحرير الأبحاث فنجاح الندوة وصدور أبحاثها في هذا المجلد القيم والطبعة الأنيقة هي المكافأة والشكر الحقيقيان لهم ، فجزاهم الله على جهودهم وإخلاصهم خير الجزاء .

ويطيب لي أن أشيد بالجهود التي بذلها العاملون بالنشر العلمي والمطابع بجامعة الملك سعود بإشراف وتوجيه الزميل الأستاذ الدكتور إبراهيم المهيزع المشرف على النشر العلمي والمطابع لإنجاز طباعة الكتاب بهذا المستوى المشرف .

وختاما أسأل الله تعالى أن يجعل عملنا هذا خالصا لوجهه أنه سميع مجيب .

رئيس الندوة

أ.د. محمد بن سعيد الشعفي

المقدمـــــــة

هذا هو الكتاب الرابع في سلسلة دراسات تاريخ الجزيرة العربية ، وموضوعه : "الجزيرة العربية في العصر الأموي."
تنوعت موضوعات هذا الكتاب ، فمنها ما عالج حالة التحول في الجزيرة من مقر للخلافة ومركز للقرار إلى ولاية تابعة تثور أحيانا على هذا الدور وتنقاد أحيانا أخرى . وعالج بعضها الأوضاع والتحولات الاجتماعية والاقتصادية التي عاشتها الجزيرة مع غيرها من الأقاليم والأمصار في ذلك العهد . وحظيت الجوانب الحضارية خاصة النواحي العلمية والمرافق المدينية بنصيب طيب من البحوث . وضم هذا الكتاب دراسة عن الآثار في الجزيرة العربية في العصر الأموي ذات طابع شمولي لا شك أنها إسهام جدير بالتقدير لإبراز قدر كبير من المنجزات الحضارية التي لا يزال بعضها أو أجزاء منها ماثلة حتى يومنا هذا .

يضم هذا الكتاب (٢٠) بحثا من بحوث الندوة العالمية الرابعة لتاريخ الجزيرة العربية وعددها (٣٠) بحثا التي ألقيت على مدار ٣ أيام . وقد طلبت هيئة التحرير من الباحثين الكرام موافاتها بالأبحاث بشكلها النهائي بعد إجراء التعديلات عليها نتيجة لما تم في الندوة من ملاحظات ومداخلات ، ثم أرسل تذكيران بعد ذلك لكن بعض البحوث لم تصل . وتلافيا لما حدث في إصدار كتاب الندوة الثالثة من تأخير في الطباعة رأينا إعداد ما وصل إلينا والدفع بها للطباعة ، ويمكن إذا وصلتنا الأبحاث المتأخرة مكتملة في وقت معقول أن نصدرها في جزء ثان.

أما عملنا فتمثل في محاولة أن تكون الأبحاث على نسق واحد بقدر ما استطعنا من حيث التوثيق ووضع الإحالات على والمصادر والمراجع في أواخر البحوث . كما التزمنا أن تقتصر تعديلاتنا التحريرية في البحوث على الشكل والصياغة ولا تمس المضمون بحال من الأحوال مثل تصويب أسماء الأشخاص والأمكنة وما إلى ذلك ، فإن كان لنا ملاحظة على المضمون أبديناها على الباحث إن شاء أخذ بها أو صرف النظر عنها .

أما ترتيب الأبحاث فقد خضع لاعتبارين هما التسلسل الزمني والتقارب الموضوعي ، مع ملاحظة أن غياب بعض البحوث سبب بعض الفجوات ، ولكن هذه هي طبيعة البحوث الجماعية .

نتقدم بالشكر الجزيل للزملاء الباحثين على تعاونهم ونعتذر لهم وللقراء جميعا إن شاب عملنا بعض القصور مع حرصنا على أن يخرج بأفضل صورة نستطيع إخراجه بها .

ختاما نشكر كل من ساهم في عقد الندوة وشارك فيها باحثا ومشاركا ومنظما وكل من ساهم في إخـراج هـذا الكتاب ونخص بالشكر مطابع الجامعة والمشرف عليها .

هيئة التحرير

الاثنين ١٤ رجب ١٤٢٢هـ

١ تشرين الأول (أكتوبر) ٢٠٠١م

أولا : الأحوال العامـــــة

الأحوال العامة في الجزيرة العربية عند قيام الدولة الأموية

عبد العزيز بن صالح الهلابي

قسم التاريخ ، كلية الآداب، جامعة الملك سعود

أولا: الأحوال السياسية

كانت إحدى نتائج هجرة الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة أن نشأ أول كيان سياسي للمسلمين وأخذ في النمو شيئا فشيئا. وظل الرسول ﷺ ينشر الإسلام بين القبائل العربية المجاورة للمدينة ونجح في ذلك نجاحا متدرجا.كانت قبيلة قريش الخصم الرئيس للمسلمين ولكن بعد غزوة بدر (رمضان٢هـ/يناير ٦٢٤م) أخذ ميزان القوة في الصراع معها يتحول قليلا قليلا لصالح الرسول ﷺ ، وبدأت القبائل تنجذب نحوه إما بدافع الهداية والقناعة وإما لاعتبارات واقعية وأسباب مصلحية. ولما مكن الله الرسول ﷺ والمسلمين من فتح مكة(رمضان ٨هـ/ فبراير٦٣٠م) بالقوة واعتنق أهلها جميعا الإسلام حسم الموقف كليا لصالح الدولة الناشئة. عندئذ أدركت القبائل العربية في كل أنحاء الجزيرة أنه لم يعد أمامها سوى الاعتراف بالقوة الجديدة ،وأخذت تبعث وفودها ممثلة برؤسائها إلى المدينة المنورة للقاء الرسول ﷺ وإشهار إسلامها أمامه، والاعتراف بسلطة الدولة، والقبول بدفع صدقات أموالها .ترتب على ذلك أن توحدت الجزيرة العربية كلها تحت سلطة واحدة لأول مرة في التاريخ المعروف.

على أن وفاة الرسول ﷺ (١٢ ربيع الأول١١هـ/ يونيو٦٣٢) جعلت الدولة والمجتمع الناشئين أمام خطرين ،أولهما : ملء الفراغ الذي تركه الرسول ﷺ ، وواجهوا هذا التحدي بإجراء سريع وحازم وهو الاتفاق بين عدد من وجوه الصحابة (المهاجرين والأنصار) على اختيار أبى بكر رضي الله عنه خليفة وبايعوه على ذلك ، وأقر عامة المسلمين بالمدينة هذا الاختيار بعد ذلك وبايعوه في المسجد بيعة عامة.

وواجه الخليفة الجديد والأمة في المدينة التحدي الآخر وهو انهيار الوحدة السياسية في الجزيرة العربية التي أنجزت في آخر أيام الرسول ﷺ وتبين أنها وحدة اسميه أكثر منها فعليه. فقد أعلنت الكثير من القبائل والأقاليم مواقف متباينة من الدولة الإسلامية تحت رئاسة أبي بكر ، فبعضها رفض أداء الزكاة باعتبارها رمزا للخضوع لسلطة المدينة ، وأخرى رفضت الإسلام جملة، وثالثة متذبذبة بقيت تنتظر نتائج مواقف هذه القبائل لتكون مع

المنتصر .واجه أبو بكر هذا الموقف في غاية الحزم فأعد الجيوش من المهاجرين والأنصار ومن الثابتين على الإسلام من القبائل الأخرى وسيرها لإخضاع هذه القبائل والأقاليم وقد كان لهذه الانتصارات نتائج أهمها :

١- ترسيخ الإيمان بالعقيدة الإسلامية عن طريق تعلم معظم أفراد القبائل القرآن الكريم وسنن الإسلام.

٢- ترسيخ وحدة الجزيرة العربية سياسيا تحت سلطة مركزية واحدة وكسر شوكة الزعامات القبلية.

٣- بعد أن تم النصر للمسلمين رأى الخليفة أبو بكر والمسلمون أن توجه الجيوش المنتصرة لمواصلة نشر الإسلام في البلاد المجاورة ،ودعي للانضمام لهذه الجيوش جميع أبناء القبائل والأقاليم الذين لم يرتدوا، فلبوا النداء مسرعين ،فوجه بعضهم إلى الشام والبعض الآخر للعراق . وترتب على الاشتراك في الفتوح والجهاد تعزيز الولاء للدولة الإسلامية وتوطيد الوحدة السياسة للجزيرة العربية حيث أصبح جميع أبناء الجزيرة يأتمرون بأمر الدولة المركزية في المدينة ويجمعهم هدف مشترك ومصير مشترك.

أوصى الخليفة أبو بكر بالخلافة من بعده لعمر بن الخطاب رضي الله عنه ،وتم في عهد عمر الذي امتد أكثر من عشر سنوات (من ٢٢ جمادى الآخرة سنة ١٣هـ إلى ٢٧ ذي الحجة ٢٣هـ) فتوحات عظيمة ، وتنظيمات للبلاد المفتوحة واستحداث عدد من المؤسسات لإدارة الدولة ، وحدث في عهده تحول اقتصادي واجتماعي للعرب، سواء داخل الجزيرة العربية أو في مناطق الفتوحات، ولكن مع عظم هذه الإنجازات وغيرها ومع ما تمتع به الخليفة عمر بن الخطاب من عبقرية فذة في إدارة الدولة ، فقد برزت في أواخر عهده بوادر توتر اجتماعي في المركز والأقاليم لأسباب مختلفة ،منها ماله علاقة بتغير أنماط الحياة وأساليبها وما رافقها من بروز بعض الطموحات الفردية أو الجماعية ،ومنها ما كان نتيجة للتفاوت في المستوى المعيشي نتيجة للتفاوت في مقدار العطاء ،ومنها ماله علاقة بصعوبة استيعاب مفاهيم الحكم والدولة المركزية وغيرها .وحفظت لنا مصادرنا بعض النصوص التي يمكن من خلالها الاستدلال على ما ذكرنا ففي المركز (المدينة المنورة)تقول إحدى الروايات : "استأذن قوم من قريش عمر في الخروج إلى الجهاد ، فقال : قد تقدم لكم مع رسول الله . وقال إني آخذ بحلاقيم قريش على أفواه هذه الحرة. "(١) وفي السياق ذاته يحفظ مصدر آخر أنه : " لم يمت عمر رضي الله عنه حتى ملته قريش ،وكان قد حصرهم بالمدينة. "(٢)

أما بالنسبة للأمصار ، فقد كان بروز التوتر الاجتماعي في الكوفة أكثر من غيرها من الأمصار الأخرى ، أو على الأقل عُني الرواة والمؤرخون بتدوينه .ويذكر أنه عندما عزل الخليفة عمر بن الخطاب واليه على الكوفة أبا موسى الأشعري سنة٢٢ هـ تحقيقا لرغبة بعض أهلها خلا في المسجد مهموما في أمر الكوفة ومن يصلح لولايتها لاحظ حاله أحد الصحابة واستفسر قائلا : " ما فعلت هذا يا أمير المؤمنين إلا من أمر عظيم ،فهل نابك نائب؟ قال : وأي نائب أعظم من مائة ألف لا يرضون عن أمير ولا يرضى عنهم أمير! "(٣) وقال مرة أخرى : " من عذيري من أهل الكوفة ، إن استعملت عليهم القوي فَجَّروه ، وإن وَلَّيت عليهم الضعيف حَقَّروه. "(٤)

وعندما طُعِن الخليفة عمر بن الخطاب حاول وهو على فراش الموت ترتيب من يخلفه في رئاسة الدولة والأمة الإسلامية فابتكر آلية جديدة وهي اختيار ستة من كبار المهاجرين من قريش أضاف إليهم ابنه عبد الله وعهد إليهم باختيار أحد الستة خليفة للمسلمين ، وبعد مشاورات طويلة ومعقدة تم اختيار عثمان بن عفان رضي الله عنه . ورث الخليفة الثالث دولة مترامية الأطراف تحفل بالمسؤوليات الجسام في المركز والولايات.وسار على منهج سلفه عمر في تسيير أمور الدولة إلا أن الأحوال المتغيرة والمستجدة استدعت إحداث تغييرات كثيرة واتخاذ سياسات جديدة. وقد انشغل المسلمون في السنوات الست الأولى من خلافة عثمان بالفتوحات وما صحبها من مجد وتضحيات وغنائم ، لكن موجة الفتوحات وصلت نهايتها الطبيعية فوقفت عند الجبال في الشمال ، وسهول آسيا في الشرق وشمالي أفريقيا في الغرب.(٥) ومن الطبيعي أن يؤدي تراجع أو توقف النشاطات العسكرية في جبهات القتال وعودة المقاتلين إلى قواعدهم في المدن إلى أن يشغلوا أنفسهم بالأمور الداخلية خاصة مع نشؤ بعض المصاعب الاقتصادية الناتجة عن قلة أو انعدام الغنائم وتزايد التوتر نتيجة التحولات الاجتماعية. أخذ الفاتحون يدركون أهمية الإنجازات التي قاموا بها في الفتوحات ونشر الإسلام ، كما أدركوا أهميتهم العسكرية وأهمية البلاد المفتوحة اقتصاديا للدولة الإسلامية بيد أن القرار السياسي ظل في المركز (المدينة) التي لم تعد تمتلك أهمية عسكرية أو اقتصادية . وأخذت المعارضة للمركز في التزايد متمثلة في معارضة الولاة وخلق مصاعب لهم خاصة حول توزيع خراج الأرضي المفتوحة (السواد مثلا)الذي يعدونه ملكا لهم بحق الفتح (ما أفاءه الله علينا بأسيافنا).(٦) وأخذوا يعارضون استئثار قريش بمعظم المناصب القيادية خاصة الولاة الذين لم يقدموا للإسلام خدمة متميزة ، ولم يكن لهم رصيد في التجربة الإدارية أو القيادية. أما التوتر الاجتماعي فله أسباب مختلفة منها ماله علاقة بسياسة العطاء وتفاوتها بين أول المشاركين في الفتوحات وبين المتأخرين الذين كان مقدار عطائهم ضئيلا. وتغير أنماط الحياة ومتطلباتها في مدن المعسكرات (الكوفة ، البصرة ، الفسطاط). والتفاوت بين القبائل وخلفياتها ، وتضارب مصالحها أحيانا ، والتفاوت بين القبائل الأعرابية حديثة الهجرة وبين القبائل الأقدم هجرة ، سواء كانت أعرابية أو حضرية. يضاف إلى ذلك التصارع بين المفاهيم الإسلامية والمفاهيم القبلية ، وكون العرب حديثي عهد بنظام الحكم المركزي ، فكانوا من ناحية يتبرمون من الانضباط من خلال الخضوع لنظم الدولة ، ومن ناحية أخرى يطالبون بحكومة مثالية تحقق المساواة المطلقة وتلبي مطالب الجميع بصرف النظر عن ما تواجهه من مصاعب اقتصادية وإدارية.

وامتد الاستياء إلى بعض العناصر في عاصمة الدولة (المدينة) وإن كانت أسبابه في معظمها تختلف عنها بالأمصار ، فظهر بعض النقد لسياسات الخليفة ولأداء بعض ولاته وموظفيه.

إن تفاقم الوضع في الأمصار أصبح يشكل تحديا للخليفة كشخص وللخلافة كمؤسسة ، وما الشكاوي والتهم التي نسبت إلى الخليفة عثمان في معظمها إلا ذرائع تتستر وراءها الرغبة في التغيير ، لكن ما البديل الذي

يسعى إليه المعارضون، إنهم لا يعرفون. ولم يكن الخليفة وولاته على الأمصار قادرين على معالجة الوضع المتفاقم فعندما عقدوا مؤتمرا في المدينة سنة ٣٤ هـ لتدارس الحلول خرجوا من مؤتمرهم دون الوصول إلى أية نتيجة.[٧]

استفحل الوضع بقيام حركة تمرد منظمة تم تنسيقها سرا بشكل جيد بين المعارضين أو المتآمرين في كل من الكوفة والبصرة والفسطاط، وقدموا إلى المدينة وطالبو الخليفة بتحقيق مطالب ذكروها أو التنحي عن الخلافة، ولكنه رفض تحقيق مطالبهم فقتلوه، وكتبوا بفعلهم القبيح نهاية الخلافة الراشدة لأن المدينة أظهرت عجزا وتخاذلا لأخذ المبادرة من أيدي المتمردين كما كانت تفعل في السابق عند ظهور الأزمات الكبرى بعد وفاة النبي ﷺ. ولخص أحد الباحثين مواقف أهل المدينة من هذا الحدث الجلل بالآتي: "وكان أهل المدينة من المهاجرين والأنصار قد وقفوا مواقف مختلفة من هذه الثورة التي أودت بعثمان فأما كثرتهم فكانت ترى وتنكر وتهم بالإصلاح فلا تجد إليه سبيلا، فتسكت سكوت العاجز لا سكوت المقصر، وهناك فرقة شبهت عليهم الأمور فآثروا العافية والتزموا الحيدة، فلزم بعضهم البيوت وترك بعضهم المدينة فارا من الفتنه وتبعاتها. وفريق ثالث . . . سعوا بين الخليفة وخصومه، منهم من ينصح الخليفة ويحاول الإصلاح بينه وبين الثائرين، ومنهم من ينقم عليه فيحرض عليه ويغري به، أو يقف موقفا لا ينكر فيه على الثائرين أو يخذل عن الخليفة."[٨]

ويفسر الدوري أسباب الثورة على الخليفة عثمان على هذا النحو: "إني أراها ناتجة بالدرجة الأولى عن أوضاع ورثها عثمان ولم تكن من صنع يده، ولكن عثمان لم يستطع تغييرها، ولا ينبغي أن ننسى أنه ألزم نفسه قبل البيعة بالسير على سياسة أسلافه وبويع على هذا. لقد ورث عثمان الاتجاهات القبلية الصاخبة في المجتمع، وورث الاتجاه الإسلامي وصراعه مع الاتجاه القبلي، نعم ورث هذين التيارين الرئيسيين اللذين كانا المحرك الأول للتطور، كما ورث تأثيرات الفتوحات الإسلامية ولا سيما النظام المالي الذي استندت إليه الإمبراطورية العربية. وإن نحن أمعنا النظر رأينا في تلك الاتجاهات مكمن الفتنة وأصل الانفجار الذي أودى بعثمان وصدع وحدة الأمة العربية آنئذ."[٩]

إن الدارس لتلك الحقبة نظاما ومجتمعا يلاحظ أن مؤسسة الخلافة فشلت في تطوير ذاتها لتواكب وتستوعب التغيرات الاجتماعية والاقتصادية الكبيرة والمتسارعة، وكان من الطبيعي إذن أن تمر بمأزق منذ أواخر عهد عمر وهو ما أشرنا إليه في صدر هذا البحث. وفي هذا السياق يقول أحد الباحثين: "إن الحكم المركزي، كما هو معروف، لم يكن له أي وجود لأن مثل هذه المؤسسة تتطلب بيروقراطية واسعة في حين أن المدينة لم تكن تملك من ذلك شيئا. وحده كان عمر، خليفة رسول الله، يقف في خضم أحداث من شأنها أن تربك أكثر الحكومات الحديثة تنظيما ومقدرة. ولم يكن بوسعه أن يعتمد إلا على المساعدة والاستشارة اللتين يقدمها آخرون طوعا واختيارا."[١٠]

واجه المسلمون من بعد مقتل الخليفة عثمان (١٨ ذي الحجة سنة ٣٥هـ) مشكلتين خطيرتين، كما حدث بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، أولاهما تتصل بالخلافة، والأخرى تتصل بإقرار النظام، وإذا كان المسلمون قد واجهوا الفراغ في رئاسة الدولة بعد وفاة النبي ﷺ فوفقوا في أن يسدوه في يوم واحد بتقرير نظام الخلافة واختيار أبي بكر والالتفاف حوله، ثم واجهوا معه الثورة التي اشتعلت في الجزيرة العربية على نظام الحكم في المدينة ونجحوا في القضاء عليها، فإنهم هذه المرة واجهوا نفس المشكلتين ولكنهم لم يستطيعوا أن يقيموا خلافة يتحد الناس جميعا تحت لوائها، وإنما أقاموا خليفة رضي عنه قوم، وسخطه آخرون، ثم واجهوا ثورة لم يستطيعوا إخمادها وإنما زادها ضراما ما نشأ بين المؤيدين والساخطين من صراع دموي رهيب.[١١]

ولكن ما هو موقف سكان الجزيرة العربية خارج المدينة من تلك الأحداث؟ يجب أن نقرر منذ البدء أنه من العسير الفصل بقدر كبير من الوضوح بين سكان الجزيرة العربية وسكان الأمصار الإسلامية الجديدة لأن الأخيرين أيضا من الجزيرة. صحيح أنه أصبحت لهم انتماءات إقليمية جديدة ومصالح جديدة ولكن الروابط بينهم لازالت قوية. ومواقف سكان الجزيرة العربية باستثناء المدينة؛ والي حد قليل مكة، من الأحداث يصعب معرفتها، وذلك لأنهم كانوا على هامش الأحداث. وقد تمت الإشارة سابقا إلى موقف أهل المدينة، أما أهل مكة فلم يكن لهم موقف معلن إلا أنه من الواضح أنهم كانوا ضد قتل الخليفة ومن ثم ضد الثوار وأبدوا تعاطفا كبيرا مع حركة المعارضة الجديدة بقيادة طلحة والزبير التي رفعت شعار (الثأر من قتلة عثمان) وانضم إليها بعض الزعماء المكيين مثل عبدالله بن عامر الحضرمي عامل عثمان على مكة،[١٢] وعبد الله بن صفوان الجمحي.[١٣] وقام بعض المكيين مثل يعلى بن أمية (تميمي النسب، مكي النشأة والحلف) وعبد الله بن عامر بن كريز وعبد الله بن أبي ربيعة المخزومي بتجهيز جيش طلحة والزبير من أموالهم.[١٤] ولجأ إلى مكة كل أو معظم المعارضين لخلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

أما موقف أهل الطائف فهو تقليديا ينسجم مع موقف أهل مكة وقد انضم بعض الثقفيين إلى جيش طلحة والزبير في أول الأمر لكنهم عادوا فقرروا الانسحاب منه قبل أن يغادر مكة إلى البصرة.[١٥]

ولا تسجل المصادر لأقاليم اليمامة والبحرين وعمان أي موقف، وإذا جاز لنا تلمس مواقف هذه الأقاليم عن طريق معرفة مواقف القبائل المنتمية لها في الأصل واستوطنت البصرة أو الكوفة وهي مسألة ليست على قدر من الدقة ولا يمكن الجزم بها. فقبيلة عبد القيس في البصرة والكوفة، وهي أصلا من البحرين، كانت أشد القبائل معارضة لسياسات الخليفة عثمان وولاته.[١٦] وكذلك كان موقف قيس بن ثعلبة من بكر بن وائل وكانت من القبائل المرتدة في البحرين[١٧]. وكان تعاطف أزد عمان المقيمين في البصرة مع الخليفة عثمان وانضموا إلى جانب طلحة والزبير ضد الخليفة علي في معركة الجمل بالبصرة.[١٨] ولم يكن موقف قبيلة بني حنيفة جليا سوى أن فئة منهم ممن كان يسكن البصرة اشتركوا في الثورة ضد الخليفة عثمان بن عفان،[١٩] لكن المعروف أن جل بني حنيفة

استوطنوا الكوفة ، لكن لم يبرز أحد منهم إلى جانب الخليفة علي بن أبى طالب في الكوفة مما قد يفسر أن ميلهم كان مع الخليفة عثمان بن عفان ، وأن حنيفة البصرة لصغر حجمها ولأسباب مصلحية جارت بطون ربيعة الأخرى (عبد القيس ، بكر بن وائل) في موقفها من الخليفة عثمان. وجل قبيلة بني أسد كانوا عثمانية وتركوا الكوفة في عهد الخليفة علي بن أبى طالب وسكنوا الجزيرة الفراتية ليكونوا تحت سلطان معاوية ،[٢٠] أما قبيلة طيء فقد انضمت جماعة منهم إلى جيش الخليفة علي بن أبى طالب وهو معسكر بالربذة في طريقه إلى العراق ، [٢١] ولعل موقف أحد زعماء القبيلة ، وهو عدي بن حاتم الطائي المعارض للخليفة عثمان بن عفان ، ثم أصبح لاحقا أحد البارزين في جيش الخليفة علي ما دفعهم إلى تأييد الخليفة علي.[٢٢]

أما اليمن فقد عين عليها الخليفة علي بن أبي طالب واليا هو ابن عمه عبيد الله بن العباس [٢٣] وضم إليه سعيد بن عمران الناعظي من همدان. [٢٤] وكانت اليمن منقسمة حول قتل الخليفة عثمان يظهر ذلك في تعاملهم مع والي الخليفة الجديد .فشيعة عثمان أظهروا المخالفة لعلي والبراءة منه ، فاستدعاهم الوالي عبيد الله بن العباس وتحاور مع بعضهم دون نتيجة ، ثم سجن بعضهم فثار قومهم وطالبوا بإخراجهم من السجن فرفض ، وردا على ذلك أعلنوا الامتناع عن دفع الزكاة للوالي ، وكان ذلك تعبيرا منهم عن عدم الاعتراف بسلطته ، ثم كتبوا في وقت لاحق لمعاوية يستنصرونه فأرسل إليهم القائد بسر بن أبي أرطأة الفهري ونجح في نصرهم وطرد والي الخليفة علي ومطاردة شيعته أنى وجدهم ، وكانت أكثر القبائل اليمنية موالاة للخليفة علي قبيلة همدان. [٢٥]

ثانيا:الأحوال الاجتماعية والاقتصادية

من البديهي القول إن مجتمع الجزيرة العربية عند ظهور الإسلام كان يتكون من حضر ، وهم سكان الواحات ومراكز الاستيطان الأخرى ، ومن بدو وهم الذين يعتمدون في حياتهم على تربية الماشية ، على أن الحضر يشاركون البدو في نشاطهم لكن على نطاق قليل وجميعهم يشتركون في الانتساب إلى قبائل. وقد تعرض مجتمع الجزيرة العربية في أقل من نصف قرن لأحداث وتغيرات كبرى هي ظهور الإسلام وانتشاره ، وأحداث الردة والفتوحات وما ترتب عليها من الانتقال والاستقرار في بلدان الهلال الخصيب ومصر.وإذا عرفنا حجم العرب الذين شاركوا في الفتوح والاستقرار في البلاد المفتوحة حتى سنة٣٦هـ عرفنا مقدار التفريغ السكاني الذي حصل في الجزيرة العربية في كل بلدانها وبواديها.ويصور زعيم قبيلة خثعم [٢٦] اندفاع بعض القبائل للمشاركة في حركة الجهاد في مخاطبته الخليفة أبي بكر : "إنا قد تركنا الديار والأموال والأصول وأقبلنا بنسائنا وأبنائنا و نحن نريد جهاد المشركين." [٢٧] .
ومثل خثعم فعلت القبائل الأخرى ، فقبيلة النخع انضموا إلى الجيوش الفاتحة وعددهم أربعة آلاف وأخذوا معهم نساءهم وذراريهم ، وكذلك فعلت قبيلة بَجيلة ، وكان في النخع سبعمائة امرأة فارغة(غير متزوجة) وفي بجيلة ألف فصاهر هؤلاء ألفا من أحياء العرب وصاهر هؤلاء سبعمائة ، وكانوا يسمون (أصهار المهاجرين) أو(أختان

المهاجرين). (٢٨) .على أنه يلاحظ أن سكان المدينة وما حولها كانوا أكثر تريثا في نقل أسرهم معهم إلى مناطق الفتح يوضح ذلك بعض الإشكالات التي حصلت بسبب طيلة غياب الأزواج في المغازي.(٢٩) ومن الطريف أن نلاحظ أن تسميات مختلفة استعملت لتبين طبيعة حجم هجرة القبيلة، فإذا انضم فخذ بأسره دعي أبناؤها بالبررة، أي الذين أثبتوا ولاءهم وطاعتهم؛ أما إذا التحق قسم من القبيلة فقط فكان أفراده يدعون بالخيرة أي النخبة. (٣٠) وهذا يعكس تشجيع الخلافة عرب الجزيرة على الالتحاق في جبهات القتال تأكيدا لوجهة الجهاد وترسيخا للفتوح. واستمر عرب الجزيرة في النزوح إلى الأمصار وصار يشار إلى الهجرات المتأخرة التي قدمت بعد المعارك والفتوح الرئيسة بالروادف، وصنفوا في سلم العطاء في الأمصار حسب أقدمية وصولهم ، وفرض لمن جاء بعد الرادفة الرابعة وهم أهل هجر مائتا درهم. (٣١) وبعض المؤشرات عن حجم السكان في بعض مناطق الفتوح تساعد على تصور حجم المهاجرين من الجزيرة العربية لغاية الجهاد أو طلب السعة بالرزق أو كليهما معا . فعدد المقاتلين المسجلين في ديوان العطاء بالكوفة في آخر العهد الراشدي ٤٠ ألفا. (٣٢) ثم زاد هذا العدد في عهد معاوية إلى ٦٠ ألفا. (٣٣) وعدد المسجلين في ديوان البصرة في آخر العهد الراشدي ٦٠ ألفا، (٣٤) ثم أصبح في ولاية زياد ٨٠ ألفا. (٣٥)

ويمكن أن نفترض أنه نتيجة لهذا النزوح الكبير حدث خلل في التركيب السكاني وتغير في الخريطة السكانية، (٣٦) وتراجع النشاط الاقتصادي خاصة الزراعي ولو لبعض الوقت ، وأن بعض القبائل أو ما تبقى منها احتاجت إلى تنظيم نفسها مع غيرها من الفروع القريبة لها ، وربما أنها احتاجت لتغيير أماكن إقامتها، وتوسعت ملكيتها الزراعية، وقل نسبيا التنافس على موارد الماء والمراعي. على أنه تم بصورة متدرجة تعويض النقص في الأيدي العاملة بعناصر سكانية جديدة وافدة عن طريق الأرقاء الذين تم سبيهم أصلا أثناء عمليات الفتوح وأنعم على كثير منهم بالحرية ودخلوا في علاقة جديدة مع أولئك الذين أنعموا عليهم بالحرية وهي علاقة الولاء.

وكان أول ما وصل إلى المدينة من هؤلاء سبي عين التمر (٣٧) (سنة ١٢ هـ) وقد منحت الحرية لمعظمهم والكرامة لجميعهم، كما هيأت لهم فرص التعليم والرقي الاجتماعي ، حتى صار أبناء هؤلاء وأحفادهم من المشاهير ، مثل محمد بن سيرين وإخوته ، ويسار جد محمد بن إسحاق مؤلف السيرة النبوية، ونصير أبي موسى بن نصير القائد المشهور وغيرهم كثير.(٣٨)

ولاحظ الخليفة عمر كثرة تدفق الوافدين من البلاد المفتوحة لدرجة أفزعته وخشي من مغبة التغير الديموغرافي خاصة في المدينة فحاول إصدار أمر بمنع دخول الرجال البالغين من السبي إليها ، إلا أنه واجه ضغطا من قبل بعض ذوي المكانة مثل العباس بن عبد المطلب وقالوا : " إن عمل المدينة شديد لا يستقيم إلا بالعلوج." (٣٩) وبعد أن تعرض للطعنات التي أودت بحياته من قبل أحدهم (أبو لؤلؤة) قال لهم معاتبا : " ألم اقل لكم لا تجلبوا

علينا من العلوج أحدا ، فغلبتموني !"[٤٠] فقالوا: " إن شئت فعلنا" أي أخرجناهم" فقال : أبعد أن تكلموا بكلامكم ، وصلوا بصلاتكم ، ونسكوا بنسككم ."[٤١]

على أن دراسة مجتمع الجزيرة العربية في العهدين الراشدي والأموي أثبتت أن مخاوف الخليفة عمر كانت تنبع من تحوطه وشدة حرصه على سلامة المجتمع والأمة ، ولم يحدث شيء مما كان يخشاه ؛ وأصبح الوافدون الجدد عنصرا هاما من عناصر سكان الجزيرة العربية ، "وحملوا معهم معارفهم ومهاراتهم اليدوية والفنية حيث أوكلت لهم مختلف الخدمات الإجتماعية والمهن واستعمل كثير منهم في خدمة الأرض"[٤٢] وغيرها من النشاطات السكانية فشاركوا بإيجابية في كل وجوه الحياة. وأصبحت رابطة الولاء بينهم وبين مواليهم أهل البلاد الأصليين تفوق أحيانا رابطة القرابة النسبية . وفي هذا السياق خلصت دراسة عن مجتمع مكة في تلك الحقبة إلى : " أن التلاحم كان قائما بين الموالي ومن يوالونهم من العرب أكثر مما يكون بين عامة الموالي من جهة وبين عامة العرب من جهة أخرى."[٤٣] وهو استنتاج يمكن تعميمه على مجتمع الجزيرة العربية ككل . فلم ترصد مصادرنا أنهم أوجدوا أي تكتل خاص بهم بل ظل التكاتف والتلاحم بين أهل البلاد الأصليين والوافدين وأبنائهم وأحفادهم في السراء والضراء هو القاعدة. ومن أمثلة ذلك مواجهة الجيش الأموي في عهد يزيد بن معاوية (٦٣هـ) في الحرة ،[٤٤] وانسجمت مواقفهم من حركة ابن الزبير مع مواقف أهل المدينة ومكة فالكثير منهم أيدها والقليل منهم كان متعاطفا مع الأمويين ، ومن هذا القليل الشاعر أبو العباس السائب بن فروخ الذي صرح بحبه لبني أمية في قوله :

فلم أر قوما مثل قومي تحملوا إلى الشام مظلومين منذ بريت
إذا مات منهم ريس قام ريس بصير بأمر المسلمين زميت[٤٥]

وبسبب أن المجتمع فتح أمامهم الفرص دون قيود ، وبسبب طموحهم ودأبهم ، فقد تصدروا في أكثر من مجال في الفعاليات الاجتماعية والاقتصادية ، ولكن الميدان الأبرز الذي تصدروا فيه لاحقا هو الحركة العلمية في كل من مكة والمدينة.[٤٦]

ولم يقتصر تدفقهم على المدينتين المقدستين بل إلى المناطق التي يمكن عدها أقل جذبا إذا قيست بهما مثل اليمامة التي استوطنوها بكثرة جعلت الشاعر جرير يزعم في وقت لاحق أنهم يشكلون في أيامه ثلثي سكانها :

أضحت حنيفة أثلاثا فثلثهم أضحوا عبيدا وثلث من مواليها[٤٧]

وإن كان قول الشاعر لا يؤخذ على إطلاقه لأنه أراد به هجاء بني حنيفة لكن يمكن الاستدلال به على كثرتهم . وطبيعي أن الأجيال الوافدة المبكرة لم تكن تحسن اللغة العربية وبعضهم لم يستطيعوا التحدث بها فوصف أحدهم واقع الحال ، ولربما كان مبالغا في قوله : " ما رأيت هذه العرب في جميع الناس إلا مقدار القرحة في جلد الفرس ولولا أن الله رق عليهم فجعلهم حشاة لطمست العجمان آثارهم."[٤٨]

ولم يقتصر وجودهم على المدن ومناطق النشاط التجاري والزراعي بل حتى في البوادي مع القبائل، وكانوا يقومون رجالا ونساء بالخدمات التي تستدعيها حياة البادية ، ونجد في المصادر إشارة إلى مولى أو أمة بني فلان مثل أمة فزارة [٤٩] وأمة غطفان. [٥٠] ويبدو أن لبس الإماء في البادية متميز عن لبس الحرائر ، فكان أحد الشعراء الأعراب المطلوبين بدم في خلافة عثمان بن عفان هرب إلى البادية (فلبس دراعة أمة وعمامتهاوجعل يستسقي ويتعاجم ويقول :

ما إن يريد القوم الا كتلي (يريد قتلي) . . .

فظنته الرسل أمة عجماء فلم يعرضوا له). [٥١]

وتنوعت أصولهم إذ جاؤا من معظم المناطق التي تم فتحها ، كما أنهم أعطيت لهم الحرية الدينية فلم يكرهوا على الإسلام أحدا ، وهناك عدد من الإشارات إلى الذين احتفظوا بدينهم ، [٥٢] تقول أم المهاجر : "سبيت من الروم مع جواري فعرض علينا عثمان بن عفان الإسلام فما أسلم غيري وغير أخرى ... ." [٥٣]

ومن الظواهر الاجتماعية التي تسترعي الانتباه في العهد الراشدي التوسع في تعدد الزوجات والاستكثار من أمهات الأولاد ، فتراجم الصحابة في آخر العهد الراشدي أو بداية العهد الأموي ، خاصة التراجم المفصلة لكبار الصحابة ، تبين ذلك بوضوح وذلك انعكاس لوفرة الأموال من جهة وكثرة السبي من جهة أخرى . وكانت هذه الظاهرة بالمدينة ولدرجة أقل بمكة أكثر منها بحواضر الجزيرة العربية الأخرى . ومع كثرة السبايا نشأ اعتقاد بأن من لا يولد له من الحرائر فعليه بالتسري واعتقد به الفقهاء في العصر الأموي مثل سعيد بن المسيب ، وكان عمر بن الخطاب يقول : " ليس قوم أكيس من أبناء السراري لأنهم يجمعون بين عز العرب ودهاء العجم." [٥٤] وقد أحصت إحدى الدراسات أبناء أمهات الأولاد من قريش في العهد الراشدي فبلغوا مائتين وستين بينما كان أبناء أمهات الأولاد من الأنصار سبعة وسبعين. [٥٥] وكان من ثمار هذا الزواج المختلط إنجاب أبناء حققوا شهرة في ميادين مختلفة وسادوا في مجتمعاتهم ، منهم في المدينة علي بن الحسين والقاسم بن محمد بن أبي بكر ، وسالم بن عبدالله بن عمر الذين فاقو أهل المدينة فقها وورعا. [٥٦]

أما الأوضاع الاقتصادية فمعلوماتنا عنها قليلة وغير مترابطة وإنما يمكن من خلالها الاستدلال على بعض الجوانب وليس كلها . ولعل أهم عامل حاسم في تحسين أوضاع أهل المدينة ومكة هو العطاء والغنائم من الفتوحات . بدأ العطاء مع بداية عهد الخليفة أبي بكر الصديق وكانت طريقة توزيعه سواسية بين جميع الأفراد بما في ذلك الأرقاء وكان نصيب الفرد عند توزيعه لأول مرة دينارا واحدا. [٥٧]

وفي خلافة عمر تضاعف دخل الدولة وغَيَّر سياسة العطاء وجعلها قائمة على التفضيل استنادا على القرابة من الرسول صلى الله عليه وسلم والسابقة في الإسلام والجهاد في المغازي والفتوح ، [٥٨] وتراوح مقدار العطاء في المدينة بين ٥٠٠٠ آلاف إلى ٢٠٠٠ درهم [٥٩] ثم جعل الناس بابا واحدا فألحق من جاءهم من المسلمين بالمدينة في

٢٥ دينار لكل رجل وفرض للمحررين معهم.[٦٠] وكان عمر يفرض للمنفوس (الوليد) مائة درهم فإذا ترعرع بلغ مائتي درهم ، فإذا بلغ زاده.[٦١]

ويظهر أن عمر في آخر خلافته رأى العدول عن سياسة التفضيل في العطاء وقال : " لئن بقيت إلى الحول لألحقن أسفل الناس بأعلاهم ، "[٦٢] ولكن ظلت هذه السياسة معمولا بها بعد عمر دون تغيير.

ولاشك أن تدفق هذه الأموال كان له آثار اقتصادية واجتماعية ، أوضحنا بعضها فيما سلف ، واستمر الأمر على هذه الحال في خلافة عثمان أو في نصفها الأول ، وتوفرت سيولة نقدية وحدث شئ من التضخم ، يقول أحد المعاصرين لهذه الفترة الزمنية : " لم تكن الدراهم في زمان أرخص منها زمان عثمان رضي الله عنه."[٦٣] وكانت الفرس تباع بخمسين ألف درهم ، والنخلة بألف درهم .[٦٤] واستثمر بعض الصحابة الفرص الاقتصادية المتاحة في الزراعة والتجارة والعقار وغيرها ونجحوا في تكوين ثروات هائلة أفاضت المصادر والدراسات بذكرها ولا داعي لتكرارها هنا ، ونكتفي بمثال متواضع منها . يقول الصحابي خباب بن الأرت (ت٣٧هـ) : " لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ لا أملك دينارا ولا درهما ، وإن في ناحية بيتي في تابوتي لأربعين ألف وافٍ."[٦٥]

على أن هذه الصورة التي أوضحنا جانبا منها لم تكن شاملة لكل مدن وبوادي الجزيرة العربية فلم يكن لهم نصيب من العطاء ،[٦٦] ومن لم يشترك في الفتوحات منهم ليس له نصيب في الغنائم ، ولذا من المحتمل أنه كان هناك تفاوت كبير في الأوضاع الاقتصادية ومن ثم في المستويات المعيشية بين كل من المدينة ، ومكة بشكل أقل ، وبين بلدان وبوادي الجزيرة العربية الأخرى . على أن الدارس يلاحظ أنه ، في أثناء تلك الحقبة ، لم تكن المدينة مركز استقطاب لباقي سكان الجزيرة ، بل كان اتجاه هجرتهم المتأخرة إلى البلدان المفتوحة ، وهو ما أسمته بعض المصادر الروادف (جمع رادفة).[٦٧]

لقد كتبت دراسات متخصصة عن كل إقليم من أقاليم الجزيرة العربية [٦٨] إلا إن هذه الدارسات لم تضف إلا القليل جدا عن أحوالها الاقتصادية في العهد الراشدي وذلك نتيجة شح المعلومات في المصادر.

والمعلومات المتوافرة لدينا عن هذه الفترة الزمنية هي مؤشرات فقط ولا يمكن الركون إليها في بناء رواية متماسكة مقنعة . ومن الأمثلة على هذه المعلومات أن الخليفة أبا بكر كتب لمجاعة بن مرارة الحنفي باثني عشر ألف صاع من صدقة اليمامة تعويضا عن دية أخيه.[٦٩] وهذا الرقم يمثل بعض صدقة القمح دون غيرها من الصدقات . ويذكر أحد المصادر أن خراج اليمامة والبحرين زمن معاوية (٤١-٦٠ هـ /٦٦١ ٦٧٩ م) بلغ خمسة عشر ألف ألف درهم.[٧٠] والمعتقد أن مقدار الأموال المحصلة كصدقات في العهد الراشدي كانت قريبة من هذا الرقم . واختلف في تقدير خراج اليمن في الحقبة التاريخية ذاتها بين تسعمائة ألف دينار وألف ألف ومائتي دينار.[٧١]

الخاتمـــــــة

بدأ البحث بوصف موجز للأحوال السياسية في الجزيرة العربية منذ نشأة الدولة الإسلامية في المدينة ، وتوسع نسبيا بدراسة الأحوال السياسة في عهد الخليفة عثمان ، وبين أن الأمور سارت سيرا طبيعيا في الشطر الأول منها بحيث تابع المسلمون فتوحاتهم التي ساهمت في نشر الإسلام بين أقوام كثيرين وعادت للمسلمين والدولة بخير كثير. إلا أنه في الشطر الأخير منها توقفت الفتوحات أو كادت ، مما أدى إلى فراغ المقاتلين وإلى قلة أو انعدام الغنائم ، وشكل هذا مع الهجرات المتتابعة من الجزيرة العربية والتصارع بين المفاهيم الإسلامية والمفاهيم القبلية ، وعدم التعود على الانضباط لنظم الحكم المركزي ، إضافة إلى إدراك الفاتحين لحجم الإنجازات التي قدموها لخدمة الإسلام في ميدان نشر الإسلام ، وأهمية الأمصار اقتصاديا وعسكريا في مقابل ضعف عاصمة الدولة ومركز الخلافة اقتصاديا وعسكريا . تفاعلت هذه الأمور وقادت إلى توتر سياسي واجتماعي، وفي محاولة لتحميل الخلافة وممثليها (الولاة) مسؤولية تردي الأوضاع ، مع عجز الخلافة عن إيجاد حلول ، بدأت المعارضة للولاة ولم تلبث أن تطورت المعارضة ووجهت ضد الخلافة ، وذهبت مجموعات من الأمصار إلى المدينة وطالبت الخليفة عثمان تحقيق مطالب لهم أو التنحي عن الخلافة . أبدى أهل المدينة عجزا وتخاذلا مكن هؤلاء الأشرار من تنفيذ تهديداتهم وقتل الخليفة ، وأنهوا فعليا مؤسسة الخلافة الراشدة ، وأدخلوا الأمة الإسلامية في دوامة الحرب الأهلية ، وانتقلت العاصمة من المدينة والجزيرة العربية إلى الأمصار . فعلي بن أبي طالب الذي تم اختياره خليفة في غمار هذه الظروف أضطر إلى مغادرة المدينة إلى العراق، والانخراط في حرب أهلية لا خيار له في تفاديها ، وانتهت حياته في ظروف لا تقل مأساوية عن نهاية الخليفة عثمان، وتمكن معاوية بن أبي سفيان والي الشام، بعد ذلك، من توحيد الأمة الإسلامية مرة أخرى تحت حكمه مؤسسا بذلك الدولة الأموية .

وأوضح البحث بعد ذلك أن مجتمع الجزيرة العربية مر بتغيرات اجتماعية واقتصادية نتيجة لحركة الفتوحات التي تشكل كل مقاتلوها من أبناء بلدان وبوادي الجزيرة العربية ، تبعتهم بعد ذلك هجرات متتالية . كل هذا شكل تفريغا سكانيا تم تعويضه بصورة تدريجية من أبناء البلاد المفتوحة الذين جاؤا بخبراتهم وتقاليدهم، وبدأت عملية التفاعل والانصهار خاصة التسري من الإماء والاشتراك في كثير من الميادين مثل العلم والتجارة .

كما بين البحث ازدهار الأحوال الاقتصادية والاجتماعية خاصة في المدينة بسبب استحداث نظام العطاء وتوزيع الخمس من الغنائم ووجود فرص تجارية تمكن بعض الناس من استثمارها فكونوا ثروات كبيرة.

حاول البحث رصد الأحوال الاقتصادية في أقاليم الجزيرة العربية ونظرا للشح في المعلومات فلم يصل إلى أساس قوي يمكن الاستناد إليه في هذا المجال.

التعليقات *

(١) أحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي (ت ٢٩٢ هـ/٩٠٤ م) ، *تاريخ اليعقوبي* ، جزءان (بيروت ، دار بيروت للطباعة والنشر ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م ، جـ ٢ : ١٥٧ ؛ و قارن : عبدالرحمن بن علي بن الجوزي (ت٥٩٧هـ/١٢٠١م) ، *تاريخ عمر بن الخطاب* ، تحقيق أحمد شوحان (دير الزور: مكتبة التراث ، د.ت) ، ١٠٠. قال عمر بن الخطاب : "إن قريشا تريد أن تكون مغويات لمال الله تعالى دون عباده ، أما وأنا حي فلا ، ألا وأني آخذ بحلاقيم قريش عند باب الحرة ...).

(٢) محمد بن جرير الطبري (٢٢٤ -٣١٠ هـ / ٨٣٨ - ٩٢٢ م) ، *تاريخ الرسل والملوك* ، (١٠ أجزاء، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط٣ القاهرة : دار المعارف ، ١٣٨٢ هـ / ١٩٦٢ م)، ٤ :٢٩٧ .

(٣) لطبري،*تاريخ*، ٤ :١٦٥ .

(٤) أحمد بن يحي البلاذري (ت٢٧٩هـ / ٨٩٢ م) ، *فتوح البلدان* ، تحقيق رضوان محمد رضوان (دار الكتب العلمية ، ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م) ؛ وقارن: اليعقوبي *تاريخ*، ٢ : ١٥٥ .

(٥) عبد العزيز الدوري : *مقدمة في تاريخ صدر الإسلام* ، ط٣، بيروت : دار المشرق، ١٩٨٦)، ٥٠ ؛ وقارن : محمد عبد الحي شعبان ، *صدر الإسلام والدولة الأموية* (بيروت ، الأهلية للنشر والتوزيع ، ١٩٨٧ م) ، ٦٦ .

(٦) الطبري، *تاريخ*، ٤ : ٣١٨ ، ٣٢٣ .

(٧) الطبري ، *تاريخ*،٤ : ٣٣٣، ٣٣٥.

(٨) أحمد إبراهيم الشريف ، *دور الحجاز في الحياة السياسية في القرنين الأول والثاني الهجريين* (القاهرة : دار الفكر العربي ، د.ث.) ، ٣٤٢ .

(٩) الدوري ، ص ٥١ .

(١٠) شعبان ، *صدر الإسلام*، ٦٨ .

(١١) الشريف ، *دور الحجاز* ، ٣٤١ .

(١٢) الطبري، *تاريخ*، ٤ : ٤٤٩ .

(١٣) الطبري، *تاريخ*، ٤ : ٤٥٤ .

(١٤) الطبري، ٤ : ٤٥٢ ؛ أحمد بن يحي البلاذري (ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م) ، *أنساب الأشراف*، تحقيق سهيل زكار ورياض زركلي (دار الفكر، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٦م)، ٣ : ٢٧ .

(١٥) الطبري ، *تاريخ*، ٤ : ٤٥٣ .

(١٦) الطبري، *تاريخ*، ٤ : ٣٢٠ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٣٣ ، ٣٤٩ ، ٤٧٥ ؛ البلاذري ،*أنساب* ، ٣ : ٢٧.

(١٧) الطبري، *التاريخ*، ٣ : ٣٠٤ ؛ ٤ : ٣٤٩ ، ٤٧٥ .

(١٨) الطبري ، *تاريخ*، ٤ : ٥٠٣ ، ٥١٦ ، ٥٢٢ ؛ البلاذري ، أنساب، ٣ : ٣٤ .

(١٩) الطبري ، *تاريخ*، ٣ : ٣٤٩ .

(٢٠) المنقري ، نصر بن مزاحم (ت ٢١٢ هـ / ٨٢٧ م) ، *وقعة صفين* ، تحقيق عبد السلام هارون ،ط٣ (القاهرة: مكتبة الخانجي ، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م)، ١٢- ١٣، ١٤٦ .

(٢١) الطبري، *تاريخ*، ٤ : ٤٧٨ ، وعند الطبري (٤ : ٤٨٠) رواية أخرى مفادها : أنه" لما نزل علي بفيد أتته أسد وطيء وعرضوا عليه أنفسهم . فقال : ألزموا قراركم ، في المهاجرين كفاية،" وقارن : البلاذري ، *أنساب الأشراف*، ٣ : ٣١ : "وارتحل علي بن أبي طالب حتى نزل بفيد فأتته جماعة من طيء."

(٢٣) الطبري، *تاريخ*، ٤ : ٤٨٨ ، ٥٢١ .

(٢٤) الطبري، *تاريخ*، ٥ : ٩٢ ، ١٣٤ .

❖ جرى في عدد من الإحالات إضافة بعض الدراسات إلى المصادر ، اعترافا بفضلها لأنها دلت الباحث على مظان المعلومات المحال إليها في المصادر .

(٢٤) محمد بن سعيد بن منيع البصري (ت ٢٣٠ هـ / ٨٨٤ م) ، *الطبقات الكبرى* (بيروت : دار صادر، د.ت.)، ٦ : ٨٤ ؛ عبد الرحمن عبد الواحد الشجاع، *اليمن في صدر الإسلام* ، (دمشق : دار الفكر ، ١٤٠٨ هـ /١٩٨٧ م)، ٣٤٦ .

(٢٥) اليعقوبي، *تاريخ*، ٢ : ١٩٧ ؛ الطبري، *تاريخ*، ٥ : ١٣٩ ؛ الشجاع ، *اليمن*، ٣٤٧ .

(٢٦) كانت مواطن خثعم عند ظهور الإسلام في منطقة عسير ولا زالت بقاياها تقيم في المنطقة ذاتها . وعن أخبار القبيلة انظر: محمد بن جرمان الاكلبي : *تاريخ بني خثعم في الماضي والحاضر* ، (الرياض ، ١٤١٨ هـ/ ١٩٩٧م) .

(٢٧) الأزدي ، محمد بن عبد الله (ت ٢٣١ هـ / ٨٤٥ م) ، *فتوح الشام* ، تحقيق : عبد المنعم عامر (القاهرة : مؤسسة سجل العرب ، ١٩٧٠ م)، ٢٥ ؛ وانظر الطبري، ٣ : ٤٦٤ .

(٢٨) الطبري، *تاريخ*، ٤ : ٤٥٨ ، ٥٨١ ؛ نزار عبد اللطيف الحديثي ، *أهل اليمن في صدر الإسلام* (بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر، د.ت، ١٣١ ، ١٣٥ .

(٢٩) عمر بن شبة النميري (ت ٢٦٢ هـ /٥٨٧ م) ، *تاريخ المدينة* ٤ أجزاء، تحقيق فهيم شلتوت (المدينة المنورة : السيد حبيب محمود، د.ت.) ، ٢ : ٧٥٩ ، ٧٦٢ ؛ البلاذري، *أنساب* ، ١٠ : ٣٣٤ - ٣٣٧ .

(٣٠) الطبري ، *تاريخ*، ٣ : ٣٨٠ ؛ وانظر : شعبان ، *صدر الإسلام*، ٦٤ .

(٣١) الطبري ، *تاريخ*، ٣ : ٦١٤ .

(٣٢) الطبري ، *تاريخ*، ٥ : ٧٩ ؛ صالح العلي ، *امتداد العرب في صدر الإسلام*، ط٢، (بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣ م) ، ٢٥ .

(٣٣) البلاذري ، *فتوح البلدان* ، ٣٤٥ ؛ العلي ، *امتداد العرب* ، ٢٥ .

(٣٤) الطبري ، *تاريخ*، ٥ : ٧٩ .

(٣٥) البلاذري ، *فتوح البلدان* ، ٣٤٤ ؛ العلي ، *امتداد العرب* ، ٢٦ .

(٣٦) أشارت دراستان حديثتان إلى حدوث هذا الأمر في إقليمي البحرين واليمامة ؛ انظر ، عبد الرحمن النجم ، *البحرين في صدر الإسلام وأثرها في حركة الخوارج*(بغداد : وزارة الأعلام ، ١٩٧٣)، ٤٤ ؛ و عبد الله العسكر "سكان اليمامة في العصر الأموي،" المنشور في هذا الكتاب.

(٣٧) البلاذري : *فتوح البلدان* ، ٢٤٨ ؛ الطبري ، ٣ : ٣٧٧ .

(٣٨) ابن سعد ، *الطبقات* ، ٥ : ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ؛ البلاذري، *فتوح البلدان* ، ٤٨ .

(٣٩) ابن شبه ، ٣ : ٨٨٨ .

(٤٠) ابن سعد ، *الطبقات* ، ٣ : ٣٤٨ ، ٣٥٠ ؛ ابن شبه ، ٣ : ٨٩٢ .

(٤١) ابن سعد ، *الطبقات* ، ٣ : ٣٨٨ .

(٤٢) سعيدوني ، ناصر الدين : الفتوحات الإسلامية أثرها في مجتمع الجزيرة العربية ، بحث منشور في : *دراسات في تاريخ الجزيرة العربية* ، الكتاب الثالث .*الجزيرة العربية في عصر الرسول والخلفاء الراشدين* ، الرياض ، جامعة الملك سعود ، ١٤١٠ هـ / ١٩٨٩، ١ : ٢٣٨ .

(٤٣) البابطين ، إلهام : *الحياة الإجتماعية في مكة* ، الرياض ، ١٤١٨ ، ١٠٥ .

(٤٥) ابن سعد ، *الطبقات* ، ٥ : ٨٦ .

(٤٥) ابن سعد ، *الطبقات* ، ٥ : ٤٧٧ ؛ الفاكهي ، محمد بن إسحاق (ت بعد ٢٧٢ هـ / ٨٨٥ م) ، *أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه* (٦ أجزاء) ، تحقيق عبد الملك بن دهيش (مكة المكرمة : مكتبة النهضة الحديثة ، ١٤٠٧ / ١٩٨٨ م) ، ٢ : ٣٣٤ .

(٤٦) أنظر ، الهلابي ، عبد العزيز : الحركة العلمية بمكة في العصر الأموي ، مجلة الدارة ، ع ٣ ، س ١٩ ، رجب ، شعبان ، رمضان ، ١٤١٤ هـ ، ص ص ٥٨ - ٧٤ ؛ والحميدان ، حميدان عبد الله : المراكز العلمية ومشاهير الفقهاء خلال عصر التابعين ، أولا : الحجاز ، مجلة كلية الأدب والعلوم الإنسانية ، جامعة الملك عبد العزيز بجده ، م ٥ ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ ، ٢٥ - ٧٤ .

(٤٧) جرير بن عطية الخطفي (ت ١١٤ هـ / ٧٣٢ م) : *ديوان جرير* ، بيروت ، دار بيروت للطباعة والنشر ، ١٣٨٩ هـ / ١٩٧٨ ، ٤٩٨ ؛ عبدالله محمد السيف ، *الحياة الإقتصادية والإجتماعية في نجد والحجاز في العصر الأموي* ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣م، ٢٥٣.

(٤٨) عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥هـ / ٨٦٧ م)، *رسالة الحنين إلى الأوطان* ، ضمن *رسائل الجاحظ* ، ٤ أجزاء في مجلدين، تحقيق عبد السلام هارون (القاهرة : مكتبة الخانجي ، د.ت.) ، ٢ : ٤٠٥ ؛ الجاحظ : *البيان والتبين* ، ٤ أجزاء في مجلدين ، (د.ت.) ، ٢ : ٧١ ؛ عبد الرحمن إبراهيم الدباسي، *الشعر في حاضرة اليمامة حتى نهاية العصر الأموي* (الرياض : مكتبة الملك عبد العزيز العامة ، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٦)، ٧٠.

(٤٩) ابن شبة ، *تاريخ* ، ٣ : ١٠٦١ .

(٥٠) ابن سعد ، *الطبقات*، ٥ : ٣٠١ .

(٥١) ابن شبة ، *تاريخ*، ٣ : ١٠٦١ .

(٥٢) ابن سعد ،*الطبقات*، ٣ : ٣٥٩ ؛ ٥ : ٢٩ ، ٢٤٨ .

(٥٣) ابن شبة ، *تاريخ*، ٣ : ٩٨٦ .

(٥٤) هدى بنت فهد الزويد "التطور التاريخي للأسرة في الحجاز ،" رسالة دكتوراه غير منشورة ، قسم التاريخ ، كلية الأدب، جامعة الملك سعود ، الرياض ، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م ، ٣٣٣ — ٣٣٤ (وانظر مصادرها) .

(٥٥) عبدالوهاب إبراهيم شيرة، مجتمع المدينة في عهد الخلفاء الراشدين ،" رسالة دكتوراه غير منشورة ، قسم التاريخ، كلية الآداب ، جامعة الملك سعود ، الرياض، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م ، ٢٥٢ ، ٣٦٢ —٣٦٣ .

(٥٦) عبد الله بن مسلم بن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ/ ٨٨٩ م) ، *عيون الأخبار* ، ٤ أجزاء في مجلدين، القاهرة : دار الكتب المصرية ، ١٣٣٤هـ/ ١٩٢٥م ، ٤ :٨ .

(٥٧) اليعقوبي ، *تاريخ*، ٢ : ١٣٤ ، ١٣٦ ؛ وقارن ابن سعد ،*الطبقات*، ٣ : ١٩٣ ؛ الطبري ، *تاريخ*، ٢ : ١٣٤، ١٣٦ .

(٥٨) ابن سعد ، *الطبقات*، ٣ : ٢٩٥ ، ٢٩٦ ؛ أبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤ هـ /٨٣٩ م) ، *كتاب الأموال* ، تحقيق محمد خليل هراس، القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية ، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م)، ٢١٢-٢٣١.

(٥٩) ابن سعد ، *الطبقات*، ٣ : ٢٩٧ ؛ أبو عبيد ، الأموال، ٢١٢ - ٢٣١ .

(٦٠) ابن سعد ، *الطبقات*، ٣ :٢٩٨ .

(٦١) ابن سعد ، *الطبقات*، ٣ : ٢٩٨ .

(٦٢) ابن سعد ، *الطبقات*، ٣ : ٣٠٢ .

(٦٣) ابن شبة ، *تاريخ*، ٣: ١٠٢٢ .

(٦٤) ابن شبة ،*تاريخ*، ٣ : ١٠٢١ .

(٦٥) ابن سعد ، *الطبقات*، ٣ : ١٦٦ .

(٦٦) أبو عبيد ، *الأموال*، ٢١٤ ، ٢١٨ ، ٢٢٠ .

(٦٧) الطبري ، *تاريخ*، ٣ : ٦١٤ .

(٦٨) الحديثي ، *أهل اليمن* ؛ الشجاع ، اليمن ،النجم، *البحرين* ؛ صالح بن سيلمان الوشمي ، *ولاية اليمامة* (الرياض: مكتبة الملك عبد العزيز العامة ،١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م) ؛ نادية حسني *صقر الطائف في العصر الجاهلي وصدر الإسلام*، ط١ (جدة : دار الشروق ، ١٩٨١ م / ١٤٠١ هـ)؛ عبد الجبار منسي العبيدي: *الطائف ودور قبيلة ثقيف العربية* (الرياض : دار الرفاعي للنشر، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م) .

(٦٩) أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ / ١٤٤٨ م) ، *الإصابة في تمييز الصحابة* ، ط١ (بيروت : دار الجيل ، ط ١ (١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م) ، ٣ : ٣٦٢ (ترجمة ٧٧٢٢) ؛ الوشمي ، *ولاية اليمامة*، ١٤٥ .

(٧٠) اليعقوبي ، ٢ : ٢٣٣ ؛ الوشمي ، *ولاية اليمامة*، ١٤٥ .

(٧١) اليعقوبي ، *تاريخ*، ٢ : ٢٣٤ .

ثانيا : الأحوال السياسية في الجزيرة العربية في العصر الأموي

أثر انتقال الخلافة على الحجاز

محمد أحمد زيود

قسم التاريخ ، كلية الآداب، جامعة الكويت

أولاً : الأمويون والشام

عرف الأمويون الشام وارتبطوا معها بعلاقات خاصة منذ العصر الجاهلي ، بدءًا بأُمية بنِ عبدِشمس ، الذي اضطر إلى مغادرة مكة إلى الشام ، إثر منافسته المخفقه لعمه هاشم على النفوذ [١] والجاه.

واستندت العلاقات القديمة بين الأمويين في مكة والشام ، وأهله وحكامه كذلك ، إلى صلات معرفية قديمة قبل الإسلام وجاءت هذه العلاقات مرتكزة على أسس تجارية ، بحكم استقرار قريش في مكة ، واضطرارها بدافع العوز كون مكة أرضًا غيرَ ذى زرع[٢] على الاعتماد على مصدر آخر يؤمن لقريش سبل الحياة والاستمرار فكانت التجارة مصدرهم الفعال. وهكذا اتجهت قريش صوب الشام ، وقد كان جل بنى عبد شمس (الأمويين) قبل الإسلام يعملون بالتجارة ، وبشؤون المال ، وتركوا لبني عمومتهم بني عبدالمطلب ما كانوا يتطلعون إليه من جاه روحي على العرب بقيامهم بشؤون الكعبة والحجاج ، وما يتعلق بهما من سقاية ورفادة. وعلى الرغم من أن قريشًا كلها كانت مضطرة للسعي والعمل في التجارة ، غير أن أمر تنظيمها وقيادتها ، وحماية القوافل الخارجية كانت من سلطة الأمويين وتحت إمرتهم ، ولسنا بحاجة للبحث المضني لنتأكد من ذلك ، فالقافلة الكبيرة التي اعترضتها القوات الإسلامية في العام الثاني للهجرة في معركة بدر الكبرى كانت تحت إمرة أبى سفيان ، ومعظم أموالها كانت للأمويين ، [٣] كما يدل على كبر حجم الأعمال التجارية القرشيه رواية لأبى سفيان عن إحدى رحلاته التجارية ورد بها قوله : "خرجت تاجرًا إلى الشام مع رهط من قريش فوالله ما علمت بمكة امرأة ولا رجلاً إلا وقد حملني بضاعة." وقدر التداول التجاري السنوي لقريش في العام بما قيمته ربع مليون دينار من الذهب وهو رقم قياسي كبير لا يستهان به في ذلك العصر.

هذا التوجه التجاري للأمويين ، ومعرفتهم بالشام وأمورها عمق العلاقة القديمة للأمويين بالقبائل العربية المستقره في الشام وكذلك دعم الروابط بين الأمويين ، وبين حكام الشام من عرب وبيزنطيين ، [٤] وهذه المعرفة

الأموية بالشام وأهلها، أهلتهم لاستلام زمام المبادرة فيها، وقيادة الجيوش الإسلامية، وادارتها منذ التوجه الإسلامي المبكر نحوها.

ففي العصر الإسلامي لقيت هذه العلاقة الأموية الشامية دعما جديدا منذ عصر الرسول ﷺ، حيث أسند إلى كثير من الأمويين أمر الشام (٥) وتأكد هذا التوجه في عهد الخليفة الأول، حيث عهد إلى يزيد بن أبي سفيان بقيادة أحد الجيوش الثلاثة الرئيسة التي كلفت بمهمة تحرير الشام من سيطرة الروم، وكانت دمشق أول ولاية يستلمها يزيد، (٦) ولما توفى سنة ١٨ هـ / ٦٣٩م، أمر الخليفة عمر (١٣ هـ - ٢٣ هـ/٦٣٤م - ٦٤٣م) أخاه معاوية على ما كان ليزيد، ثم ولاه الأردن، (٧) بدلا من شرحبيل بن حسنة، وقد عمل معاوية على كسب رضى الخليفة الفاروق فأبقاه على الشام، وتابع معاوية اهتمامه بالشام. ولم يأت عهد الخليفة عثمان إلا وكان الأمويون وعلى رأسهم معاوية المتصرف الوحيد في أمر الشام وأهله.

وهكذا تأكد التوجه الأموي حيال الشام منذ الأيام الأولى لقيام الدولة الإسلامية، وذلك نتيجة طبيعية لهذه العلاقة المميزة لبني عبدشمس في الشام، وأهلتهم علاقتهم هذه بأن يصبحوا أصلح العرب لقيادة البعوث الحربية وولاية العمالات، واتضح ذلك باسناد معظم العمال على نواحى الشام للأمويين، فمعظم الولاة كانوا من الأمويين، منذ عهد الرسول ﷺ (٨) وكذلك في عهد الخليفه أبى بكر فعمر (رضى)، وقد علق المقريزى على ذلك بقوله: فأنظر كيف لم يكن في عمال الرسول ﷺ ولا في عمل أبي بكر وعمر (رضى) أحد من بنى هاشم .."(٩) كما أورد قائلا: "ما فتحت بالشام كورة من كور الشام إلا وجد عندها رجل من بنى سعيد بن العاص ميتا."

وقد حرص الأمويون منذ عهد الخليفة أبى بكر على توجيه أنظار دولة الإسلام إلى الشام، وبفضل جهودهم، وخبراتهم السياسية والحربية، تم فتح الشام فتحا سريعا ويسيرا بطريقه غير متوقعة، وقد استغل معاوية هذا التوجه، وهذا الجهد، والانتصارات التي تحققت على الجبهة الشامية، والتي كان لجهوده أكبر الأثر فيها فقد عرف عنه إهتمامه بفتح مدن الساحل الشامي كطرابلس، وقيساريه وعسقلان، وأسكنها المرابطين، (١٠) وأوكل بها الحفظة، وعمل وفقا لرأي الخليفة عمر بن الخطاب وتوجيهاته لتحصين الثغور الإسلامية، وإقامة نظام المرابطة على السواحل، وسار معاوية وفق سياسية محكمة مستغلا الظروف والأحداث السياسية والعسكرية والاجتماعية كافة، لصالح حلمه الكبير في قيادة دولة العرب الناشئة وهو حلم قديم غذاه أبوه أبوسفيان، وغرسته أمه هند بنت عتبه بن ربيعة أحد أشراف قريش فكانت تقول له: "ثكلتك أمك إذا لم تحكم العرب." (١١)

واستفاد معاوية من أحلام الأمويين ومجهوداتهم وتراثهم القديم ومجد الإسلام المتصاعد وجهده الشخصي، في تحويل الشام وجعلها كلها أموية، ولم يكن ذلك متيسرا إلا بنقل الخلافة ومقرها إليها، وجعل الدولة شامية، واتخذ من دمشق عاصمة ومقرا لدولة إسلامية كبرى، وبذلك يكون معاوية صاحب المعول الحقيقي الأول في تحويل ونقل الخلافة إلى الشام، مستندا لتأريخ أموي طويل أصيل فخدمه هذا التحول الكبير الذي استغله

أفضل استغلال، ووجه الدولة العربية الإسلامية توجها جديدا، معتمدا على الشام وأهلها، وإمكاناتها، تاركا خلف ظهره الحجاز، واضعا إياه في المرتبة الثانية في الدولة العربية الإسلامية، بعد أن كان يمتلك جميع مقومات هذه الدولة الناشئة، وقد أدى هذا التحول إلى نتائج خطيرة على كافة المستويات السياسية والإدارية والاجتماعية والاقتصادية عامة.

وتطورت الأحداث السياسية والعسكرية لتخدم هذا الأموي الطموح المعروف بأنه أحد دهاة العرب المشهود لهم، بالحنكة والحكمة والصبر، وقد تمكن من استغلال الأحداث السياسية في إقامة الدولة الأموية، التي عدت في مقدمة الدول العربية الإسلامية، بعد حكومة الرسول ﷺ والخلافة الراشدة وكان معاوية مؤسسها الأول بحنكته ودرايته، وشخصيته

ثانيا : انتقال الخلافة

بعد مقتل الخليفة عثمان (رضي) ٣٥ هـ / ٦٥٦م بويع الإمام علي بالخلافة (٣٥ - ٤٠ هـ/٦٥٦ - ٦٦١م)، وقبلها بعد تردد، [١٢] لأنه كان يدرك خطورة الموقف الإسلامي، وكانت بيعة أكثرية الصحابة من المهاجرين والأنصار من أهل الحل والعقد، واجتماعهم على توليته، يحتمان عليه البقاء في المدينة، عاصمة الدولة الأولى ومعقل التوجه الإسلامي، [١٣] غير أن هذا التوجه أخذ يتغير، وبدأت قوة المدينة تضطرب، لا سيما بعد انسحاب كل من طلحة والزبير إلى مكة، ومن ثم خروجهما إلى البصرة، برفقة السيدة عائشة، أم المؤمنين، ففرض هذا التوجه الجديد على الإمام "علي" الخروج بجيش الخلافة الذي كان قد استنفره لمواجهة معاوية الذي أعلن العصيان في الشام، [١٤] إلى تغيير وجهته نحو البصرة، والدخول في حوار مع هذه الفئة الإسلامية التي اتخذت من البصرة معقلا لها ومقرا، وهكذا انتقل الصراع على السلطة إلى خارج الحجاز، بعد أن تم الفرز السياسي على أرضه، وظهر تكتل أكثريه الأنصار إلى جانب علي حيث وجدوا فيه التوجه الإسلامي الصحيح، وتأمينا لمصالحهم.[١٥] ووقفت قريش بغالبيتها (عدا المهاجرين) خلف المعارضة التي بدأت وكأنها منقسمة على أمرها، وهذا ما جعل قادة معركة الجمل يختارون البصرة، محورا لتوجههم، وفرضت هذه الاستراتيجية السياسية والاقتصادية الجديدة إلى نقل المعركه صوب العراق، وحدثت المجابهة بين جيش الخلافة، والخارجين عليها ومعظمهم من قريش (مكه) ، ونشبت معركة الجمل في البصرة، [١٦] حيث خسرت فيها مكة بعضا من زعامتها وحلفائها، وتوجهت بقية المعارضة بعد الجمل إلى معاوية [١٧] في الشام . في حين انتصرت جيوش الخلافة، وحلفاؤها من أنصار المدينة، ومعسكر الكوفة.

ربما كان من أهم النتائج لهذه المعركة خسارة الحجاز مركزه السياسي، فعلى أثر هذه المعركة خرجت الخلافة منه، وتم اتخاذ الكوفة مقرا لها بدلا من المدينة الحاضرة الأولى، وغدت الكوفة الحاضرة الثانية للدولة، وتجمعت فيها رؤوس العرب والعاملون بالسياسة بدلا من المدينة .[١٨]

ولسنا الآن في صدد تفاصيل ما حدث بعد ذلك، ولكننا نريد أن نقول إن هذه الأحداث الكبرى، هزت الخلافة، وكانت من العوامل التي عملت على إضعاف الحجاز وحاضرته الأولى، وبدأ دورها في الأفول رويدا رويدا، وعصفت هذه الأحداث العسكرية المتلاحقة بقوة المدينة، وظهر أن أمر عودة الزعامة إليها ضرب من المحال.

وقد ساهم معاوية مساهمة كبيرة في خسارة الحجاز وذلك بتمركزه في دمشق، وقناعته المطلقة بقيادة الشام وعمله الدؤوب لتثبيت هذه الفكرة، وأخرج معاوية الحجاز من حساباته فيما يتعلق بقيادته السياسية، ووضح ذلك[١٩] بقوله : "كان أهل الحجاز أعلى الناس في أيديهم الحق فلما تركوه صار الحق في أيدي أهل الشام." وعمل معاوية بكل قوة على تحييد الحجاز، ورأى أن ذلك مكسب لسياسته، وإضعاف لخصمه، وعلى الرغم من أنه لم يحقق النجاحات الكبيرة قبل مقتل علي إلا أنه تمكن من أن ينقل أفكاره إلى الحجاز، التي غدت بعد انتصار علي في معركة الجمل بصورة عامة إلى جانبه لاسيما بعد تجديد البيعة له في مكة.[٢٠]

استغل معاوية إخفاق مشروع التحكيم والذي خرجت أحداثه لصالحه، واستثمر الهدنة التي حصلت، والهزة التي لحقت بقوات الخلافة في العراق، وخروج فئة من صفوف علي ودعوتهم القائلة : "لا حكم إلا لله"،[٢١] والارتباك الذي حدث في جبهة الخلافة، فاتجه معاوية إلى الأمصار، بادئا أمره بمصر هادفا فك الحصار المتربص به وبقواته، وتمكن بحنكته السياسية من استلام زمام المبادرة في هذا الإقليم وفك الحصار المفروض عليه، وإخراج مصر من تبعيتها للخلافة وضمها إلى قبضته.[٢٢] وما إن استقرت له الأمور في مصر، حتى اتجه بأنظاره إلى الحجاز، حيث كان يعد أن ضمه إليه، وكسبه إلى جانبه من أبرز اهتماماته، وأن ذلك يؤمن له تفوقا كبيرا، فطفق يداهمه بإرسال الحملات العسكرية إليه منذ عام ٣٩ هـ / ٦٥٩م.[٢٣] وانتقل الصراع بين علي في الكوفة، ومعاوية في دمشق إلى الحجاز وأخذ هذا يوجه الجيوش إلى الحجاز سعيا للسيطرة عليها، وكسب تأييدها، فرد عليه علي بحملات عسكرية معاكسة، واستمر الحال إلى أن كانت طعنة ابن ملجم المرادي في عام ٤٠ هـ / ٦٦٠م لعلي بن أبي طالب أثناء نهوضه للصلاة في مسجد الكوفة فجرا، حيث وضعت هذه الطعنة حدا لبداية النهاية،[٢٤] وكانت بداية لحسم النزاع ، وجاءت لصالح معاوية، وكانت مؤلمة للحجازيين والعراقيين على السواء، حيث تم نقل العاصمة بشكل نهائي إلى الشام واستمرت دمشق طيلة العصر الأموي حاضرة للدولة الإسلامية في العصر الأموي. وأدى ذلك إلى نتائج خطيرة أضرت بالحجازيين في النواحي السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية كافة، حيث انكفأ دور الحجاز بشكل عام والمدينة بشكل خاص، ووضعت في زاوية الإهمال السياسي. ورافق انتقال الخلافة إلى دمشق الإهمال الواضح للحجاز، وتحول جيش الخلافة في بعض الأحيان إلى طبقة خاصة مقاتلة، وأصبح أداة قمع للثورات الداخلية، وتمتع بامتيازات كبيرة،[٢٥] كما سلب الحجاز الكثير من خيراته، التي كانت ترد إلى العاصمة، كما خسر كثيرا من تجارته وفقد جزءا كبيرا من أهميته التجارية، وذلك بانتعاش الطرق التجارية المتجهة إلى الشرق، عن طريق العراق. وخسرت مدنه التجارية، كمكة والمدينة أهميتها بعد أن كانت قبلة الأنظار،

ومركزا للثقل السياسي والتجاري لفترة تزيد على ثلث قرن من الزمن. وعلى أثر الإهمال المتعمد لهذا الإقليم، حدث فراغ وخلل في الأوضاع الاجتماعية، خاصة بين فئات الشباب، ونشأت في الحجاز طبقة من الشباب العاطل عن العمل، فمال إلى حياة الدعة واللهو والزينة، كما اتجه بعضهم صوب النواحي الدراسية والبحوث الدينية الإسلامية، فأدى ذلك إلى ظهور أول مركز لدراسة علم الحديث. وهكذا نشأ في مكة والمدينة مناخان اجتماعيان متناقضان، فقد كانت الحياة العامة حياة ترف ولهو وغناء، وكانت حياة العلماء الموقوفة على العلم منزوية في الظل لا تكاد تلفت النظر. وأصبح الحجازيون بعد انتقال الخلافة إلى الشام يعيشون بعيدا عما يرفل فيه أهل العاصمة من نعم وخيرات مما يجود به عليهم الخليفة والأمراء من أفراد البيت الحاكم، ناهيك أن عاصمة الدولة تستقطب عادة أفضل العلماء وأشهر الصناع وتزدهر فيها الصناعة والتجارة والعمران، انسجاما مع مقولة ابن خلدون: "الدولة السوق الأعظم للتجارة."[٢٦]

ولقد أدى اتخاذ دمشق عاصمة للدولة العربية في العصر الأموي إلى انكفاء الحجاز النسبي بشكل عام والمدينة بشكل خاص، حيث وضعت في زاوية الإهمال السياسي وقنعت باستعادة ذكريات مجدها التليد وسؤددها المنصرم طوال فترة تمكن فيها معاوية بدهائه السياسي وبأمواله من إقناع الناس واحتوائهم في هذا الإقليم وميله إلى السكينة.[٢٧] غير أن "يزيد" لم يكن يمتلك صفات والده لهذا سرعان ما هب الحجازيون يعلنون الثورة في عهده في محاولة منهم لإرجاع الخلافة إلى مقرها القديم.

واستمر الحجازيون يرون أن الخلافة حق لأبناء الصحابة وليس لأبناء الأمويين الذين أسلموا مؤخرا، ولهذا تعاظم التيار المعادي للأمويين والمؤيد لبني هاشم منذ انتقال الزعامة في هذا البيت للحسين المتصلب برأيه وبتوجهه ضد الأمويين وظهر عليه ذلك منذ تنازل أخيه الحسن عن الخلافة لمعاوية،[٢٨] وقاده هذا التوجه للاستشهاد في كربلاء دفاعا عن حقه وحق الحجاز وكانت ثورته أول ردات الفعل الثورية ضد ولاية العهد الأموية.[٢٩]

ثالثا: ولاية العهد وموقف القوى منها

شغل مصير الحكم وما ستؤول إليه الدولة معاوية، فعمل بكل طاقته على إيجاد حل لهذه المعضلة قبل موته بما يخدم التوجهات الأموية، والذي كان أكبر المؤمنين بها، والمخططين والمنفذين لها. ولا شك في أنه نظر إلى الماضي القريب وشاهد ما نزل بالدولة العربية الإسلامية، من فتن وحروب بسبب الحكم، فزاده ذلك تصميما لاختيار من سيخلفه، ولهذا ربما جاء قراره بتوريث الخلافة أمرا طبيعيا وعاديا من وجهة نظره واجتهاده، وبعد أن مهدت الأحداث السياسية له، وتطور الفكر السياسي في الدولة العربية الإسلامية، وبعد أن توطدت الوراثة في الشام، وصارت الزعامة فيها للأمويين ابتداء من إمرة يزيد بن أبي سفيان،[٣٠] وساندت الفئات التي وقفت إلى جانب معاوية يزيد، وقد قام شعراء الدولة الأموية بدورهم الإعلامي وتعبئة جماهير الأمة ومهدوا بذلك لإعلان

البيعة.[٣١] ومهد معاوية لإعلان بيعة يزيد بتهيئته وإظهاره بالمظهر اللائق للمهمة الجديدة، وبالتريث الذي نصح به "زياد بن أبيه."

وقد باركت دمشق هذا العمل، ولعب كل من الضحاك بن قيس زعيم القيسية ، وحسان بن بحدل زعيم الكلبيين "أخوال يزيد" دورا مهما في التبشير بهذه الفكرة بين القبائل العربية. وكان المغيرة ابن شعبة قد تمكن بالدهاء والمال والحنكة من استمالة الناس وأخذ بيعتهم في الكوفة.[٣٢] لكن المعارضة الكبيرة، كانت في الحجاز حيث امتنعت وفودها عن الحضور إلى دمشق لتقديم المباركة والبيعة،[٣٣] وفشل مروان بن الحكم في إقناع زعامة الحجاز ممثلة بالخمسة الكبار أبناء الصحابة وهم : "الحسين بن علي، وعبدالله بن الزبير، وعبدالرحمن بن أبي بكر، وعبدالله بن عمر، وعبدالله بن عباس" وهؤلاء يمثلون التراث الراشدي، ويحملون في أفئدتهم معاناة الحجاز، لاسيما العاصمة الأولى التي رغبت بإعادة مجدها الغابر، ووجد أبناؤها هؤلاء في أنفسهم الحق بالخلافة فيما لو عادت الأمور إلى الشورى، وظهر ردهم بكلمة عبدالرحمن بن أبي بكر الذي حمل بجرأة على "هرقلية الخلافة.[٣٤]

وأثناء وجود معاوية في المدينة ألقى خطبته في المسجد،[٣٥] وأشاد فيها بفضائل يزيد، محاولا إقناع الحجازيين بالحسنى، وقد تغيب عن حضورها زعماء المدينة الذين تركوها إلى مكة، معلنين بذلك تصعيد معارضتهم، فما كان من معاوية إلا أن تبعهم واجتمع بكل منهم على انفراد، محاولا شق جبهتهم وتفريقهم،[٣٦] واستخدم معهم جميع وسائل الصبر والمداهنة، محاولا بذل الأعطيات والأموال التي لم تعط أكلها.[٣٧] وأصر هؤلاء على موقفهم واختاروا ابن الزبير للتحدث عنهم، فاتهم معاوية بالخروج عن سنة الأوائل، وطعن بشكل غير مباشر بالخلافة الأموية وطلب من معاوية اعتماد سنة الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين الأربعة في موضوع الخلافة، وركز ابن الزبير لإعادة الاعتبار للحجاز الذي فقد دوره المركزي وانتقدوا جميعا انفراد فرع واحد من قريش بوراثة الخلافة،[٣٨] وأعلنوا تمسكهم بمبدأ السقيفة الذي يعارض مبدأ ولاية العهد في الأساس. ويظهر أن هذا الرهط من قريش كان يدافع عن مصالح الأكثرية في قريش ضد الأقلية التي استأثرت بالسلطة، وارتبطت مصالحهم بمصلحة الدولة العامة التي سيكون الحجاز مركزها الرئيس كما كانوا يتصورون، ولهذا عملوا على استعادة مركزه الأول وتأكيد دوره وأحقيته.

ولم يكن هؤلاء النفر بنفس الصلابة في خصومتهم للأمويين،[٣٩] وتطورت الأحداث فدفعت كلا من الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير إلى المنافسة الجدية والتطرف في التصدي للأمويين، وهما اللذان كان معاوية يتوجس منهما شرا على دولته وخليفته، وظهر ذلك في وصيته لابنه يزيد وهو على فراش الموت،[٤٠] ولهذا لا نستغرب أن تتفجر الأحداث المؤجلة بعد موت معاوية.

١- ثورة الحســـين

مات معاوية سنة ٦٠ هـ / ٦٨٠م وتولى ابنه يزيد الخلافة، بعد أن مهد له أبوه الأرض وروض الناس على إطاعة ولي عهده. وكان على المدينة آنئذ (الوليد بن عتبة بن أبي سفيان) وعلى مكة (عمرو بن سعيد بن العاص) وكان يشغل بال يزيد بيعة الحجاز له، لهذا كتب إلى واليه على المدينة.[٤١] "أما بعد فخذ حسينا وعبدالله بن عمر وعبدالله بن الزبير بالبيعة أخذا شديدا ليست فيه رحمة حتى يبايعوا والسلام." ولم يأخذ الوليد بكتاب الخليفة ولا بنصيحة مروان بن الحكم أحد أبرز رجالات الأسرة الأموية في الحجاز، والذي أشار عليه بسرعة أخذ البيعة منهم أو ضرب أعناقهم بدون تردد قبل أن يعلم هؤلاء بموت معاوية.[٤٢] وقد تمكن الحسين وابن الزبير من مغادرة المدينة إلى مكة،[٤٣] وتضايق يزيد من والي المدينة فعزله وولى عليها "عمرو بن سعيد بن العاص (الأشدق)." ولم يكد الحسين يصل إلى مكة حتى جاءته رسل كثيرة من الشيعة في الكوفة تحثه على القدوم إليهم معلنة ولاءها التام وبيعتها له ورفضها لخلافة يزيد.[٤٤] ونصح الحسين بعدم الذهاب إلى الكوفة، وذكر بما فعله أهلها بأبيه وأخيه، واقترح عليه (عبدالله بن عباس) إذا كان لابد من ذهابه إلى الكوفة أن يكون ذلك بعد طرد الوالي الأموي فيها وإعلان أهلها الثورة، كما اقترح عليه الذهاب إلى اليمن إذا وجد بقاءه في مكة يشكل خطورة عليه من الولاة الأمويين.[٤٥] غير أن خروج الحسين إلى العراق أصبح أمرا مؤكدا فرضته طبيعة الظروف والأحداث الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعقائدية، ويستدل على كثرة أنصاره في الكوفة من كثرة رسائلهم والتي علق عليها الدينوري بقوله إنها "ملأت خرجين."[٤٦] وما يهمنا من ثورة الحسين أنها في الأساس ثورة حجازية الأهداف والتوجه انطلقت من الحجاز مناوئة للحكم الأموي، وهي وإن دارت رحاها وأحداثها في العراق، فذلك لأن الحجاز والعراق كانا ينظران إلى الحكم الأموي بمنظار المعارض لتوجهاته الدينية والدنيوية.[٤٧] كما أن الحجاز والعراق فقدا الخلافة ومركز الحكم، وبيت المال والثقل المادي والاقتصادي، وتوجه الصناع ورجالات الخبرة والكفاءات والشعراء إلى العاصمة دمشق، وهذا أمر طبيعي.

ومع أن ثورة الحسين انتهت بمأساة كربلاء، وهي وإن لم تتحقق أهدافها، فقد شكلت إحدى ردات الفعل الطبيعية العنيفة ضد الحكم الأموي، ولم يؤد إخفاقها إلى إضعاف التوجه المعارض للأمويين كما اعتقد هؤلاء، وعلى العكس من ذلك كان من أولى نتائج كربلاء أنها كانت نقطة تحول أساسية في تطور الصراع ضد الأمويين حيث أججت الشعور ضد الأمويين في العراق والحجاز على السواء، ودفعت بالأكثرية المكرهة على الصمت إلى إعلان ثورتها ونقمتها وبدا ذلك في ثورة التوابين في العراق، وثورة المدينة في الحجاز، وهكذا كانت ثورة الحسين باكورة ثورات هزت النظام الأموي من أساسه، وجعلته يعيش اضطرابات متلاحقه، وكانت إحدى المحاولات الأولى التي ظهر فيها المطلب السياسي الحجازى الرامي إلى استعادة الخلافة من الشام، كما أن فشلها كان أيضا فشلا للعراق في إعادة دوره السياسي الذي تطلع إليه، وأدى كل ذلك إلى أن يصبح الحجاز محور المعارضة للحكم

الأموي خلال السنين القادمة، ولابد من القول إنه كان بالإمكان تجنب هذه المأساة الكبيرة التي عمقت الخلافات الإسلامية والفكرية، وأزمت المواقف ضد السلطة الأموية الناشئة، التي كانت بغنى عن مأساتها، وأوضحت الأحداث اللاحقة خطأ تصرف القادة العسكريين الأمويين في العراق وعلى رأسهم عبيدالله بن زياد، وعمر بن سعيد بن أبي وقاص الزهري، وشمر بن شرحبيل (ذي الجوشن) الضبابي الكلابي، ومدى مسؤوليتهم الكبيرة والمشتركة، كما لا يمكن أن يبرأ يزيد وهو على رأس النظام الأموي، على الرغم مما أظهره من ندم، وحسرة وتحميل ابن مرجانة (عبيدالله) وزر هذا الحدث المروع.

٢- ثورة المدينــة:

ظهر ارتباك الحكم الأموي في عهد يزيد، من خلال الاضطراب الذي حدث في إدارة المدينة وتذبذب ولاتها وتغيرهم باستمرار.[٤٨] فسرعان ما تضايق يزيد من تساهل واليه على المدينة مع الحسين وابن الزبير، فعزله وعين مكانه "عمرو بن سعيد بن العاص" الملقب بالأشدق، في رمضان من سنة ٦٠ هـ / تموز ٦٨٠م،[٤٩] غير أن هذا الوالي لم يتمكن من أخذ البيعة ليزيد، ولم تستقر الأحوال في المدينة. واستمرت النقمة على بني أمية والتحق بعض أهلها بابن الزبير، ونتيجة لفشله في القضاء على ابن الزبير نقم عليه يزيد وعزله وأعاد الوليد بن عتبة، معتقدا أنه يتمكن من تهدئة الأمور.[٥٠] غير أنه لم يحقق أي مكسب ليزيد، ولهذا فقد خلعه وعين بدلا عنه "عثمان بن محمد بن أبي سفيان" وكان هذا فتى غرا حدثا لم يجرب الأمور ولم تحنكه الأيام، "ولم تضرسه التجارب."[٥١] ويظهر أن سوء إدارته وقصور إدراكه أديا إلى تفجير الثورة في المدينة التي كانت دوافعها كثيرة، وأهمها كره الأنصار للحكم الأموي عامة ويزيد خاصة، إذ أخرج المدينة من دائرة النفوذ والقيادة السياسية والدينية، وجعلها تعيش في الظل وتفقد إمكاناتها المادية وتصبح في ضائقة اقتصادية واضحة، لم يكن بالإمكان السكوت عليها أو تجاوزها. ومن تتبع أحداث معركة "الحرة" عند الطبري وغيره، يلحظ شدة المعارك والحماس المتبادل بين جند الشام بقيادة "مسلم بن عقبة المري، وجند المدينة بقيادة عبدالله بن حنظلة الأنصاري،[٥٢] وهذا ما يدفعنا إلى البحث العميق عن الأسباب الحقيقية لهذه المعركة التي ألهبت حماسة الطرفين المتنازعين. ولابد من أن تكون المطالب السياسية قد ارتبطت بالمطالب الإجتماعية، وبالتغيير الاقتصادي الذي أدى إلى عمق الخلاف. ولعل المشكلة الاقتصادية للمدينة تعود في بداياتها إلى الأيام الأولى لقيام الدولة الإسلامية.[٥٣] لكن الأمويين أكثروا من الاهتمام بالأراضي وامتلاكها في عهد الخليفة عثمان، وزاد امتلاكها في عهد معاوية، مما تسبب في وجود نوع من الاستياء العام لدى سكان أهل المدينة، ويظهر أن سياسة الخليفة عثمان (رضي) وفتح الباب على مصراعيه أمام الأسرة الأموية، كان بداية الأزمة الاقتصادية، وبالتالي فقد فرضت الظروف المادية السيئة على أنصار المدينة بيع ممتلكاتهم لأصحاب السلطة والثراء، وربما يكون الوضع الاقتصادي المتدهور الذي وصل إليه الأنصار هو الدافع وراء موقفهم حيال الأمويين

عامة.[٥٤] ويبدو أن أفراد الأسرة الحاكمة استغلوا أموالهم في شراء الأراضي الزراعية والعقارات، وتمكنوا بظروف استثنائية وتحت ضغط الأحوال السيئة من القيام بعمليات شراء الأراضي بأسعار رمزية، وتم انتقال هذه الأراضي إليهم بصورة ما، وعلى مر الأيام شعر أهل المدينة بالغبن.[٥٥] ولهذا لا نستغرب أن يحاول هؤلاء استعادة حقوقهم في فترة بيعة يزيد، وهناك روايات توضح امتلاك هذه الأراضي والاقطاعات بأثمان بخسة، لعل أوضحها ما ورد في الحوار الحاصل بين أهالي المدينة والوالي "عثمان بن محمد" وقولهم: "قد علمت أن هذه الأموال والمقصود هنا الأراضي كلها كانت لنا وأن معاوية آثر علينا في عطائنا ولم يعطنا قط درهما فما فوقه، حتى مضنا الزمان ونالتنا المجاعة، فاشتراها منا بجزء من مئة من ثمنها."[٥٦] وهذا الأمر وغيره وضع الأنصار في دائرة التبعية السياسية والاقتصادية للدولة. وهناك بعض النصوص التي تقدم لنا إحصائيات عن بعض الممتلكات الأموية وتبين اهتمام معاوية، خاصة بالأرض وتحسين إنتاجها،[٥٧] وتوضح أن معاوية "كان يجد بالمدينة وأعراضها ألف وسق، وخمسين ألف وسق تمرا، ويحصد مئة ألف وسق حنطة"، هذا بالإضافة لصوافيه الكثيرة في المدينة.[٥٨]

ومن هنا لابد من أن تكون هناك علاقة كبيرة بين السيطرة الأموية الاقتصادية على أهالي المدينة، وثورة هؤلاء على هذا الواقع المؤلم. ولعل ذلك يفسر شراسة الموقف العدائي الذي اتخذه كلا الفريقين في قتاله ضد الآخر. ومن هنا يمكن أن نقرر بأن مسألة الصراع بين الحجازيين ولاسيما الأنصار منهم، والأمويين في الشام هي قضية تم فيها دمج المبادئ والقيم بقضايا مصلحية، متصلة بالجور وبالواقع الاقتصادي والاجتماعي للحجاز عامة والأنصار خاصة، وما آلت إليه الأمور من خسارة هؤلاء وكسب كبير للأمويين وأتباعهم.

إذا فثورة المدينة استهدفت إسقاط الحكم الأموي ورفضه، وانطلقت من أسباب متعددة وأسهمت الأمور الاقتصادية، كما أوضحت مصادر متعددة، بدور بارز فيها. فقد جاء في *كتاب المحن*:[٥٩] "أن أول ما هاج أمر الحرة عامل معاوية على الصوافى وممثله على ممتلكاته في المدينة، ومعارضة أهالي المدينة للوالي عثمان الذي حاول الوقوف إلى جانب "ابن مينا" في تصديه لهؤلاء الناس الذين منعوه من حمل ما كان يحمله كل سنة من تلك "الصوافي" من الحنطة والتمر ومنع أهل المدينة له من ذلك." ولم يكن الوالي عثمان بعيد النظر، ولم يسهم في حل الأزمة، بل عمل على تفاقمها وأسهم بقسط كبير في تفجيرها وإعلان الثورة ومن ثم تم إخراجه وإخراج الأمويين من المدينة بالقوة.[٦٠] ويذكر صاحب *المحن* "فأخرجوا آل مروان من بنى أمية ولم يحركوا أحدا من آل عثمان." وزاد الأمر تعقيدا محاولة عامل الصوافي "ابن مينا" استقطاع أراض جديدة في عهد يزيد مستهدفا جماعة بني الحارث الخزرجي.[٦١] ولعل الروايات المتعددة،[٦٢] التي جاءت عند اليعقوبي وابن قتيبة، تؤكد ارتباط الثورة بمسألة الأراضي، وهناك نص ورد عند السمهودي أكثر تفصيلا ووضوحا في الربط بين دوافع الثورة ومسألة الأراضي المفقودة، غير أن ما ورد في *المحن* لأبى العرب لا يدع مجالا للشك بأهمية النواحي الاقتصادية، ويبين صاحب المحن أن رواته جميعا اجمعوا على أهمية هذه النواحي الاقتصادية في إشعال نار الثورة.[٦٣] وهكذا فإن عملية امتلاك

الأرض في المدينة كانت أشبه ما تكون بنظام المصادرة، وذلك تحت اصطفائها للدولة ممثلة بالأسرة السفيانية الحاكمة،" في حين هناك روايات أخرى توضح أن انتقال الأراضي إلى الأمويين، لا سيما إلى معاوية تم بطرق متنوعه وطبيعية.

كما كان لثورة الحسين ومأساة كربلاء صدى عنيف في المدينة وسبب لتأجيج الحماسة على الأمويين، وزاد الاستياء وكما زاد الطين بلة، قيام الهاشميات من أقارب الحسين بالنهوض حاسرات في أحياء المدينة،[٦٤] وساهمن في التحريض ونزع قناع الخوف والتعجيل في الثورة ضد الأمويين. ومما يلفت الانتباه أن التعاون بين ثورة المدينة وابن الزبير في مكة، على الرغم من اتفاق الموقف السياسي والمعاناة المشتركة بين المدينتين، لم يكن واضحا، فقد تجاهل كل منهما الآخر، أو على الأقل لم يكن التعاون بينهما كما يجب، وربما يتحمل ابن الزبير وزر ذلك، ويعد من جملة أخطائه العديدة التي أضعفت الجبهة الحجازية بشكل عام وأدت إلى إخفاق كل منهما، على انفراد،[٦٥] وقد حاول يزيد جاهدا ألا يتم اللقاء بين الثورتين.[٦٦]

وأعلنت الثورة في المدينة هدف إسقاط الحكم الأموي والدعوة إلى الشورى. وظهرت الزعامات الرئيسة الثلاث التقليدية في المدينة،[٦٧] الأنصار برئاسة عبدالله بن حنظلة الأنصاري، المهاجرون بزعامة معقل بن سنان الأشجعي، وترأس القرشيين عبدالله بن مطيع. وتم اختيار الزعيم الأنصارى قائدا للثورة، وربما بويع كذلك بالخلافة في المدينة.[٦٨] وبدأت الثورة بخلع يزيد ومهاجمة الأمويين في دار شيخهم مروان بن الحكم، وقرر الثوار إخراج الأمويين وطردهم من المدينة.

وكان من نتائج معركة الحرة الأولية مقتل كثير، وقد اختلفت الروايات في تحديد أعداد القتلى. فهناك من ذكر سبعمئة رجل وأكثر. سوى من قتل من الأنصار وسائرهم، وقيل بلغوا عشرة آلاف،[٦٩] وهناك من أورد أرقاما أخرى أقل أو أكثر. وذكرت بعض الروايات أنه قتل يوم الحرة ثمانون من أصحاب النبي ﷺ،[٧٠] ولم يبق بعد ذلك بدري، وقيل قتل من حفظة القرآن فيها سبعمئة رجل،[٧١] ومما تؤكده قوائم القتلى الإجماع الذي شهدته المدينة ضد الأمويين، وإسهام كافة القوى السياسية والاتجاهات القبلية على اختلافها في هذه المعركة. كما ظهر تكتل قريش بغالبيتها المطلقة ضد الأمويين.[٧٢] ولعل من أهم نتائج الحرة جرأة الناس على المدينة وفقدانها تلك الهالة التي كانت تحيط بها وتحميها.[٧٣] وكانت هذه المعركة تشبه إلى حد ما معركة كربلاء من حيث الإيمان، والاندفاع، والانتقام، وموقعة الحرة تمثل عمق الصراع وذروة النضال على السلطة والنفوذ بين مكة والمدينة بالحجاز والشام، وأدت هذه المعركة إلى الإحباط في صفوف أهل المدينة وضرب معنوياتهم وإنهاء دورهم السياسي وتحجيمهم، وأبعدوا عن القيادة وخسروا كثيرا مما كان لهم، ولم تقم لهم قائمة بعد ذلك، كما علق على ذلك كثير من المؤرخين والعلماء القدامى والمحدثين.[٧٤] لكن الحرة عملت من ناحية أخرى على تمهيد الطريق لابن الزبير

وساعدته في تقديم الدعم وكانت أحد عوامل نجاح ثورته إلى حين. وضعفت القوة العسكرية للمدينة، وتفرق ثوارها فمال الناس فيها إلى النواحي الفنية والدينية والعلمية .

٣ - ثورة ابن الزبير ومعطياتها

بعد مقتل الحسين، دعا ابن الزبير لنفسه وبايعه الناس، وكان يدرك أنه لا أمل له بالخلافة مع وجود الحسين في مكة، لهذا فقد شجعه للخروج إلى الكوفة بقوله: [٧٥] "أما لو كان لي بها مثل شيعتك ما عدلت بها" وعقب الحسين على كلام ابن الزبير بقوله [٧٦] : "ها إن هذا ليس يؤتاه من الدنيا أحب إليه من أن أخرج من الحجاز إلى العراق"، ولقد استغل ابن الزبير مأساة كربلاء وأخذ يشنع بأهل الكوفة ويهاجم الأمويين ويعرض بيزيد. [٧٧] ويبدو أنه أصبح بطل الحجاز بلا منازع، [٧٨] والأحق بالخلافة بعد استشهاد الحسين وبعد مأساة المدينة، ولهذا اعتبر نفسه ولي الحسين والمطالب بدمه معيدا إلى الأذهان ما ادعاه معاوية يوم مقتل عثمان. وطغت على شخصية ابن الزبير الجوانب العسكرية على السياسية، ولم يكن بعيد النظر.

تأسست دعوة ابن الزبير على المطالب السياسية والاقتصادية لاستعادة دور الحجاز الراشدي، ولهذا طمع بالخلافة وعمل على استعادة الاعتبار لتيار المهاجرين واعتقد أنه بإمكانه إحياء التيار المعتدل في قريش الفاصل بين الهاشميين والأمويين. وحاول أن يربط بشخصه تآلف الجمع من الحجازيين. ولكن ابن الزبير أخطأ إذ لم يتعامل مع المعطيات الجديدة والتطور الذي حدث للدولة العربية والمجتمع الإسلامي ولم يلتصق بالأنصار، وخاصة بالعراق الذي ابتعد عنه. وربما كان خياره الأفضل والوحيد لنجاح ثورته باعتباره العدو العنيد ضد الأمويين، مدفوعا من وراء هذا الابتعاد بحجازيته المفرطة بالتعصب لها، وإيمانه المطلق بعودة قيادتها، ومدعما بالتأكيد الذي حظي به في الحجاز أكثر من سواها، لاعتباره أحد أبناء الصحابة البارزين.

ولعله من المناسب أن نتعرف على مواقف القوى المحيطة بابن الزبير وعلاقته بها وسياسته تجاهها وعلى رأس هؤلاء الأنصار، وهم القوى التي كان يحسب لها الحساب الأول منذ هجرة الرسول ﷺ وحتى معركة الحرة، وقد وجدوا الآن أنفسهم مع ابن الزبير ضد الأمويين وقالوا إنه [٧٩] إذا هلك الحسين عليه السلام فلا أحد ينازع ابن الزبير. وقدمت فلول من الهاربين من الحرة إلى مكة والتحقت بقوى ابن الزبير، وكرهوا غزو مكة وحاولوا منع ذلك دون جدوى.[٨٠] والتف أهل المدينة حول حركة ابن الزبير الحجازية، وأظهروا حماستهم الشديدة نحوه، غير أن هذا الموقف لم يكن الآن قويا بعد أن ضعف أثر المحنة الكبيرة التي حلت بهم بعد الحرة.

أما الموقف الهاشمي في الحجاز وعلاقة ابن الزبير بقيادتهم ، فيتلخص بعدم التزامهم الوقوف إلى جانب ابن الزبير، وانعزالهم في الطائف، وهي المدينة التي حافظت على الولاء للأمويين. وعلى الرغم من أن قوتهم قد دمرت بعد مأساة كربلاء، لكن هؤلاء شعروا بأن ابن الزبير بإعلانه الخلافة لنفسه اعتدى على حقهم فيها، وأظهر

هؤلاء الرفض لابن الزبير وحاول يزيد كسبهم إلى صفه وربما كان أنجح سياسة من ابن الزبير حيالهم، بإظهار التودد إليهم، وتجلى ذلك بإرساله خطاب الشكر إلى عبدالله بن عباس [٨١] وفيه يشكره على موقفه السلبي من ابن الزبير ورفضه البيعة له، وطلب منه أن يحث الناس على بيعته وابتعادهم عن ابن الزبير. لكنه لم يتمكن من كسب ود الزعيم الهاشمي ودماء كربلاء لا تزال غزيرة ولا يمكن أن يوقف نزيفها الدموع ولا الأموال أو الرسائل.

وأما الموقف الرسمي لأبناء الصحابة عدا الهاشميين، فقد اتفق هؤلاء في المعارضة المبدئية لخلافة ابن الزبير مع الهاشميين أيضا، وكان رأيهم بأن حركته ليست البديل المطلوب للحكم الأموي، ومثل هذا التوجه عبد الله بن عمر، الذي وجد في ابن الزبير مجرد ساع من أجل الحكم وحب السيطرة ووصفوا دعوته بأنها تفتقر إلى الحد الأدنى للمطلوب الإصلاحي الذي تقتضيه تلك المرحلة. وهذا ما عبر عنه ابن عمر صراحة بقوله عن ابن الزبير: إنه "لا يطلب سوى الخلافة." [٨٢] وهكذا أخطأ ابن الزبير في كسب المهاجرين من أبناء الصحابة الكبار واستقطابهم وخسر تأييدهم الفاعل في الخلافة، وفقد بذلك مسوغا مهما في مطلبه القاضي بالثورة ضد يزيد، الذي حاول هذا النفوذ إلى صفوفهم وضرب جبهة ابن الزبير وخسارتها في النهاية.

وانطلاقا من مكانة مكة وقداستها، اعتقد ابن الزبير وأصحابه أن الأمويين لن يقدموا على مهاجمتها، وقد لا تتكرر محنة المدينة التي كان لها أسبابها الخاصة، وربما تغافل هؤلاء وغاب عن خلدهم عمق الصراع السياسي وإبعاد التمسك بالنفوذ والسلطة، والأمويون لن يتخلوا عن حق صار مكتسبا لهم مهما كانت التضحيات. وتصوروا أن الجيش الشامي لن تتعدى مهماته محاصرة ابن الزبير والضغط عليه للإستسلام والبيعة ليزيد. لكن المتبصرين السياسيين أدركوا أن يزيد ومعاونيه وما عرف عنهم من تطرف، [٨٣] لن يتقاعسوا عن أي عمل يدرأ الأخطار التي تعترضهم.

وربما كان من أخطاء ابن الزبير التي ارتكبها، قراره إخراج الأمويين من المدينة وايعازه بذلك لواليه عليها عبيدالله بن الزبير، [٨٤] بطردهم منها، ووجد هؤلاء المسوغ لخروجهم بعد أن أصبح أمرا ملحا إثر معركة الحرة، ولم يكن من السهولة العيش بسلام في المدينة، كما غدت الشام تجذبهم نحوها للاشتراك في السلطة والحكم. وسرعان ما تنبه ابن الزبير على خطئه ولم يتمكن من إعادتهم وصدقت توقعات القرشيين، وخشية ابن الزبير من إبعاد هؤلاء الذين وصلوا إلى الشام وهي بأمس الحاجة اليهم وأسهموا كثيرا في حل الأزمة السياسية الكبيرة التي كادت تنهي الدولة الأموية، خاصة بعد موت يزيد المفاجئ في ٦٤ هـ / ٦٨٣م، [٨٥] وخروج الأمويين متحدين في مؤتمر الجابية [٨٦] ثم منتصرين في معركة مرج راهط. [٨٧]

غير أن التصرف الأموي حيال مكة وحصارها، كان له أكبر الأثر على الجبهة الزبيرية وحصولها على التأييد، مستغلا ابن الزبير ببراعة واضحة حريق الكعبة المروع لمصلحته الخاصة. وسواء أكان حريق الكعبة مفتعلا من أنصار ابن الزبير، [٨٨] أم أن ذلك حدث مصادفة وقضاء وقدرا أضرمته شرارة عابرة في يوم الثالث من ربيع

الأول ٦٤ هـ / ٦٣٨م، [٨٩] وقبل وفاة يزيد بأيام، فقد جاء الحدث مؤثرا للغاية في مشاعر المسلمين وكان ذلك لصالح ابن الزبير وكسب الشعور العام نحوه.

هكذا توجهت الأفكار وازداد الناس توجها نحو مكة وازدادوا تعاطفا مع قضية ابن الزبير وخلافته وبعدها بايعت مصر والعراق، [٩٠] والحجاز، وأهل الجزيرة وأهل الشام إلا أهل الأردن، ابن الزبير، ومناطق أخرى.

وعلى إثر وفاة يزيد أعلنت الهدنة العامة بين المقاتلين، وعقد اجتماع في الأبطح، [٩١] بين القائد الشامي الحصين، وابن الزبير لمناقشة الأحداث الطارئة. وكان موقف القائد الحجازي ينم عن تمسكه بالموقف الحجازي، وبعدم الخروج على رأي مستشاريه من الحجازيين وبدأ ذلك بقوله، [٩٢] "إن لي أمراء لست أقطع أمرا دونهم فأنظرهم ثم يأتيك رأيي". وقد صرح أقرب المستشارين لابن الزبير "عبدالله بن صفوان" وهو من أوائل المبايعين له بالخلافة بعد موت [٩٣] يزيد بن معاوية بمعارضة الانتقال إلى الشام، واستبعد هذا الانتقال والخروج إلى الشام، وذلك بدافع التعصب للحجاز وتوجهاتها السياسية.

ويبدو أن إيمان ابن الزبير بحجازيته وبالفكرة التي دافع عنها كانت قوية وقناعته مطلقة وظهر ذلك في حواره مع أمه أسماء بنت أبي بكر، [٩٤] في لحظاته الأخيرة، ولهذا لم يقبل المساومة على هذا الحق رغم الإغراءات الأموية له، لكنه استشهد من أجله، غير أن ابن الزبير لم يتمكن من الاستفادة من الوقت واللحظات الحاسمة وممن أيدوه كرها بالأمويين، وفشل في تجميع القوى المناهضة لهم ولم يوحدها في جبهة واحدة، ويستخدم ذلك ضد عدو مشترك، ولا سيما في فترة دانت له معظم أقاليم الدولة العربية الإسلامية وبايعته بعد موت يزيد، وقد لا يكون السياسي المحنك الذي يستفيد من الظروف الملائمة.

ولم يقتنع مطلقا بأن الحجاز أصبح منطقة غير قادرة على قيادة الدولة العربية الإسلامية ورئاستها، بعد أن أصبح التوجه مفروضا للمراكز الجديدة في العراق والشام، واستمر متمسكا بموقفه مقيما في مكة، وأرسل أخاه مصعبا إلى العراق، حيث قدم له دعما اقتصاديا وبشريا، وشكل مصدر التمويل الأساسي في حركته، كما كان مركز المواجهة الفعلية في الصراع ضد الأمويين، [٩٥] وترك زمام الأمر بالعراق لأخيه الذي لم يكن مطلق الصلاحية فيها، إنما كان محكوما بأوامره وكثيرا ما حدث التناقض بين أوامر الأخوين مما أضعف الجبهة الزبيرية بشكل عام أمام التلاحم الأموي.

لهذا وصف ابن الزبير بأنه لم يكن السياسي الموفق وقال عنه اليعقوبي "لم يصلح أن يكون سائسيا"، [٩٦] كما كانت تعوزه المرونة والدهاء والمبادرة، بالإضافة لما اتصف به من البخل، وهذا ما أبعد عنه الطامعين والشعراء وطالبي المال، ولم يتمكن من فرض العطاء وتقديمه في الوقت المناسب، [٩٧] وعجز عن مجاراة الأمويين في العطاء وكسب وسائل الدعاية والإعلام، خاصة الشعراء، وقد ترك ذلك تأثيره السلبي على وضعه، ولم يتمكن من مجاراة خصمه عبدالملك في استقطاب الناس وجذب الشعراء لبلاطه، وهؤلاء كان لهم دورهم الكبير في التأثير على الناس

والدفاع عن النظام الأموي الذي تمثل في هذه الحقبة بالخليفة القوي عبدالملك بن مروان، ولهذا لا نستغرب أن يكون النصر للأمويين ممثلا في عبدالملك بن مروان وشخصيته الفذة النادرة كرجل دولة بكل ما تعنيه العبارة. والقائد الناجح الذي صقلته الأحداث وخرج من خضم الأهوال ليثبت أنه بطل المرحلة الجديدة.

رابعا : السياسة الأموية في الحجاز في الفترة السفيانية

تنازل الحسن (رضي) عن الخلافة في الكوفة سنة ٤١ هـ / ٦٦١م [٩٨] لمعاوية (رضي)، وكان الوضع في الحجاز يتلخص في موقف قريش في مكة (ما عدا المهاجرين) المؤيد لمعاوية، ويظهر هذا الموقف منذ عهد علي (رضي) وشكواه منهم وخيبة أمله الظاهرة، وقد عبر في أكثر من مناسبة عن مواقف قريش منه، وظهرت في خطبه المرارة والاستياء [٩٩] من هذه المواقف في مناسبات كثيرة. ثم مال هؤلاء بعد التحكيم لصف معاوية، بدون تحفظ. وأما المهاجرون من قريش فقد اعتزل بعضهم السياسة، فحرص معاوية على تدعيم علاقته معهم وكسبهم لصفه ولم يحالفه الحظ باحتوائهم وكسبهم، واشتكى معاوية من موقفهم وقال إنه لم يؤخرهم إلا أنهم انصرفوا عنه. [١٠٠] واستمر الوضع غير العدائي في مكة بصورة عامة حيال معاوية نتيجة لأعتبارات عديدة في مقدمتها العلاقة العضوية بين قريش التي استلمت الزعامة غير أنها نقلتها إلى الشام ولم تكن خسارة مكة تقارن بخسارة المدينة التي كان دورها يختلف عن دور مكة في الدولة الجديدة.

أما سكان المدينة وأنصارها، فقد شكلوا القوة الحقيقية التي تحالفت ضد الأمويين وانتقالهم إلى الشام، وشكلوا النواة القوية والاتجاه المتطرف ضد معاوية . ولم يتمكن معاوية من اختراق صفوفهم أو يتمكن من مساومتهم على مواقفهم، واستمر معظمهم على موقفهم حتى بعد اغتيال الإمام علي وتنازل الحسن لمعاوية، وظهرت مواقفهم برفض قيس بن سعد الأنصاري بيعة معاوية وبقوله لقواته وجماعته[١٠١] "اختاروا الدخول في طاعة إمام ضلالة أو القتال مع غير إمام." وهم بموقفهم هذا رأوا أنهم يناصرون الإسلام ويقفون إلى جانب التيار الإسلامي الذي كان علي يمثله، واستمروا بنصرته حتى بعد رجحان كفة الأمور لصالح معاوية، وانتصار تياره القبلي والأقل تمسكا بالإسلام. وقد ظهرت مواقفهم المبدئية بمناسبات متعددة ولم يشترط قيس بن سعد وأبو أيوب الأنصاري على معاوية أية شروط نفعية خاصة واكتفوا بأخذ الأمان لشيعتهم، [١٠٢] لكنهم دخلوا جميعا في الطاعة، وبايعوا معاوية، واستكانوا له.

وعندما تجمع سكان المدينة من مهاجرين وأنصار شكل هؤلاء اللحمة الاجتماعية التي عارضت الأمويين وقبلوا حكمهم مرغمين، وتوحدت في المدينة مشاعر معظم قاطنيها الذين ربطت بينهم مصالح مشتركة وأضرار واحدة، نتيجة طبيعية لانتقال الحكم إلى الشام وربما كان هذا التضرر وراء الموقف المتلاحم مع الإمام علي ضد الأمويين الذين سلبوهم حقا لهم وامتيازات اكتسبت. وهكذا تجمع أكثر الأنصار الذين لم يتعاونوا أو يستفيدوا من

الأمويين مع مجموعة من أبناء الصحابة الكبار المهاجرين من قريش، وتوحدت عندهم روح التمرد والاستقطاب لجميع العناصر الناقمة على الأمويين لاستئثارهم بالخلافة والحكم، وتجمع هؤلاء في المدينة أكثر من مكة وذلك لأن صلة أهل مكة بالأمويين كانت أقرب، ثم إن بعضا منهم التحق بالأمويين في الشام سعيا وراء السلطة والنفوذ.

أما الطائف: وخاصة سكانها من ثقيف، فرغم أنهم وقفوا على الحياد ولم يشتركوا بالحروب الطاحنة، لكن زعامتها اقتربت من الأحداث السياسية واشترك المغيرة بن شعبة في التحكيم، وكان أحد شهوده لكنه ما إن أدرك أن كفة معاوية قد رجحت حتى مال إليه وكذلك معظم ثقيف، وأعادوا إلى الوجود التحالف القديم بين مكة والطائف. ولم يمض الوقت الطويل حتى غدا الثقفيون شركاء الأمويين في الحكم، وكان لدور بعض زعامتها الأثر الواضح في استقرار الأمور في الدولة العربية الأموية واستمراريتها، وخدم بعض من رجالات ثقيف ممن اشتهروا بالدهاء مصالح الحكم الأموي وبرز منهم نفر من أصحاب المواهب الكبيرة كالمغيرة وزياد والمختار والحجاج ومحمد بن القاسم (١٠٣) وغيرهم كثير ممن طغت أخبارهم على أخبار الخلفاء أنفسهم.

وأحدث انتقال الخلافة إلى الشام انعكاسات مباشرة على الأوضاع العامة في الحجاز وحقق نوعا من التباين بين مدنها وقبائلها وتوجهات أهلها وأدى ذلك إلى قيام جبهتين الأولى معادية للأمويين، وتركزت في المدينة والثانية مؤيدة لهم وتجمعت في مكة والطائف. أما القبائل العربية البدوية التي كانت خارج مدن الحجاز الرئيسة ولم تنهض أثناء عمليات الفتوح وتخرج من الحجاز، فقد تضررت نتيجة لقلة الموارد المالية والغنائم ونقص العطاء، وهي أمور لها أهميتها في موارد هذه التجمعات القبلية، وتذمر هؤلاء من دفع فريضة الزكاة أثر هذا التحول الجديد وما رافقه من ضيق مادي، ولم تنصفهم السياسة الأموية أو تعتمد عليهم كقبائل الشام الحليفة لها بل تجاهلتهم، ولهذا فقد اتخذت هذه القبائل موقفا سلبيا تجاه الأمويين في الشام، واتجهت هذه القبائل مدفوعة خلف مصالحها ووجدت نفسها متجهة لجبهة المدينة ومبتعدة عن جبهة مكة (١٠٤) والطائف الحليفة للأمويين.

ولقد ظهرت سياسة معاوية وتوجهاته حيال الحجاز في أوامره العسكرية الصريحة إلى القادة الذين كلفوا بتطويع الحجاز، وضمه إلى السلطة (١٠٥) الأموية في دمشق وكان الأسلوب العسكري الذي سلكه معاوية في هذا السبيل يعتمد على الضغط الواضح على أهل المدينة، مع استخدام اللين والحذر مع أهل مكة، واستخدم وسائل متعددة للحصول على السلطة والخلافة، ولكن كان السيف هو الحد الفاصل، غير أنه بعد أن استقرت الأمور له نسبيا وبعد بيعة الحسن، أخذ يغير سياسته وينزع إلى السلم مع هذا الإقليم لأسباب كثيرة بعضها معنوي يستند على تراثه الغابر، والمتمثل بأنه منبع الرسالة ورمز الأمة ومركز تجمع الصحابة وأبنائهم.

وأخذ معاوية يميل إلى اللين ورفع السيف عن رقاب الرعية في الحجاز والمعلوم أن معاوية من الرجال القلائل الذين اتصفوا بالحلم وعرف بأنه داهية (١٠٦) ذو حرص وحزم وظهر حلمه في سياسته للحجاز، بمناسبات متعددة لعل في مقدمتها، تحدي قيس بن سعد له بعد بيعة الحسن ومهاجمته علانية، ورغم أن عمرو بن العاص أثار

ضغينته وحرضه على قتاله، لكنه أحجم عن ذلك رغم المقدرة، وذلك تعظيما وتكريما له ولقومه من الأنصار وحرصه الشديد على احتوائهم وكسب مودتهم.[(١٠٧)]

كما ظهر حلمه ومعاملته لأهل الحجاز وبمناسبات أخرى متعددة تصف حلم معاوية خاصة مع الأنصار في المدينة وتبين دهاءه حتى إن ابنه يزيد تضايق وخاف على أبيه أن يتهم بالضعف والجبن.[(١٠٨)] وتابع معاوية سياسته هذه رغم أنه لم ينس الموقف العدائي لأهله خاصة الأنصار منهم وظهر ذلك في مناسبات كثيرة وبين أن موقفه تجاههم وتجاهله لهم يعود لموقفهم السلبي [(١٠٩)] منه وقال عنهم: "والله لقد كنتم قليلا معي كثيرا علي، ولقد فللتم حدي يوم صفين حتى رأيت المنايا تلظى في أسنتكم." [(١١٠)] كما توضح كلمة بسر بن أبي أرطأة لأهل المدينة رغم موقفهم المعادي حلم معاوية وحرصه على استمالتهم من قول بسرلهم: "لولا ماعهد إلي معاوية ما تركت محتلما إلا قتلته." [(١١١)]

لقد كانت السياسة الأموية في الحجاز تنسجم مع أهمية هذا الإقليم وتهدف إلى منع استغلاله لغير مصلحة الخلافة الأموية، كانت أهمية الحجاز تأتي من موقعه والزعامة الغابرة لمكة القديمة، ومن تجمع أبناء الصحابة فيه، ولهذا اهتم معاوية باحتوائهم بعدهم قياداته البارزة، وعمل جاهدا على استقطابهم وحال دون استغلالهم وتحركهم ضد مصالح الدولة وتوجهاتها. وحاول معاوية أن يجعل من هذا الاقليم مجرد تراث قديم. وعلى هذا الأساس حدد معاوية ارتباطه به وعمل جاهدا على مداراته ومنع سفك الدماء فيه، إلا أن هذا الإقليم تعرض بعد معاوية لحملات عسكرية انتقامية خاصة عندما شعر النظام الأموي بخطره عليه، ووضحت هذه السياسة في معركتي الحرة وضرب الكعبة في عهدي كل من يزيد وعبدالملك بن مروان.[(١١٢)]

وفي هذه الفترة أيضا تفوقت المدينة سكانيا على مكة والطائف على أثر الهجرة الكبيرة لأبنائهما إلى الشام نتيجة للعلاقات الحسنة بين قريش وثقيف، ولهذا استمرت المدينة مركزا للحجاز وموطن تجمع واستقطاب للمدينتين مكة والطائف اللتين سارتا في فلكها. واستمر الوضع كذلك حتى ثورة ابن الزبير حيث استقر هذا في مكة لأسباب خاصة به وبثورته التي لم تلق الحماسة الشديدة في المدينة.

واستمرت المدينة مركز الثقل السياسي والإداري والاقتصادي والاجتماعي للحجاز في العصر الأموي، وعلى هذا الأساس ازداد اهتمام الخلفاء الأمويين بها كما كانت هناك أسباب اقتصادية أيضا تتعلق بامتلاك الأمويين لمزارع وممتلكات كثيرة فيها، من أرض وبساتين [(١١٣)] حتى تفوق هؤلاء في ملكيتهم على الأنصار مما أثر على أوضاعهم المادية وزاد في فقرهم وتضررهم، وتأففوا من هذا الوضع، وأظهروا انزعاجهم علانية وأعلنوا ذلك صراحة أمام معاوية عندما قصد الحجاز في سنة ٤٤ هـ / ٦٦٤م [(١١٤)] وقام بزيارة المدينة، وما أن اقترب منها حتى لقيه أهلها ومعظمهم مشاة فقال معاوية: [(١١٥)] "ما منعكم من تلقي من بعد كما تلقاني الناس من بعد؟ فقال ابن لسعد بن عبادة يقال له سعيد: منعنا من ذلك قلة الظهر وخفة ذات اليد بإلحاح الزمان علينا وإيثارك بمعروفك

غيرنا." فأين المدينة الآن من حالها زمن الخليفة عمر، وكيف لا تبدي انزعاجها وقد أصابها هذا الضنك وهذا الإهمال الذي أقلق بعض القادة منها والذين كانوا على علاقة وطيدة بالأمويين ومن القلة الذين التحقوا بمعاوية وعلى رأسهم "النعمان بن بشير" الذي قدم بجماعة من الأنصار إلى معاوية يعرضون له ما وصلوا إليه من فقر وفاقه ولم يستطع هذا الزعيم الأنصاري رغم علاقاته الحسنة بالنظام الأموي أن يحقق لهم مطالبهم ويرفع عنهم هذا الحيف والحرمان.(١١٦) ولم يعطهم معاوية شيئا يذكر وربما كان هذا في بداية حكمه ونتيجة لتأثره بمواقفهم العدائية نحوه، ولكن سرعان ما تغير موقفه بعد أن استقرت له الأمور، وهدأت الأحوال. كما تضايق من وضعهم السيء هذا أنصاري آخر حليف مهم للأمويين هو عبدالرحمن بن حسان بن ثابت، واستفزه ما حل بهم وظهر ذلك واضحا في شعره.(١١٧)

ومما زاد في نقمة أهل المدينة على معاوية أنه كان يجلب الخيرات من مكة والمدينة من حنطة وتمر إلى الشام لنفسه، كما كان يفعل بغيرها حسب ما يورده اليعقوبي، "فقد فعل معاوية بالشام والجزيرة مثل ما فعل بالعراق من اصطفاء ما كان للملوك من الضياع وتصييرها لنفسه خالصة، وأقطعها أهل بيته وخاصته، وكان أول من كانت له الصوافي من جميع الدنيا حتى بمكة والمدينة فانه كان فيها شيء يحمل فيه كل سنة." (١١٨) وكانت هذه الصوافي والأملاك الكبيرة للأمويين وخاصة للخليفة معاوية ومن ثم كان سوء استغلالها، واستياء أهل المدينة من ذلك من الدوافع التي كانت تحرك النقمة على معاوية والسياسة الأموية في الحجاز، والتي وضحت بشكل واضح في معركة الحرة.(١١٩) لكن خلافة معاوية رغم هذا وذاك كانت هدنة وتمكن بفضل سياسته الحكيمة أن يجعل فترة حكمه سلاما شاملا بين جميع الفئات في الحجاز، ولم يسمع عن أحداث كبيرة في مدنه اللهم إلا بعض أنواع من المهاترات كانت تظهر بين حين وآخر بين الشعراء وهجاء بعضهم بعضا، وقد تصدى معاوية لمثل هذه المهاترات وأمر بمعاقبة مثيريها وضربهم بالسياط حتى لا يوقظوا الفتنة والعداءات،(١٢٠) واكتفت المعارضة في الحجاز بالهجوم الكلامي وأبقت السيف جانبا خاصة بعد مبايعة الحسن والتزام الحسين وغيره رغم عدم ارتياحهم للأمويين. وقد عمل الحسن على تهدئة الأحوال في الحجاز.

واستمرت معارضة الحجاز الكلامية طيلة فترة حكم معاوية التي توضح أنهم لم يكونوا على وفاق مع معاوية ولم يظهروا تأييدا واضحا له ولم يتمكنوا من إخفاء شعورهم حيال ذلك.(١٢١) وقد أظهر أهل الحجاز غضبهم واستياءهم إزاء قتل معاوية لحجر بن عدي الكندي ورفاقه وشاركوا الشعور العام الإسلامي لهذه المأساة التي ارتكبها معاوية، واستاؤوا من موقف معاوية وتساءلوا عن غياب حلمه حيال حجر ورفاقه في هذا الموقف، وذلك لما اتصف به حجر من إيمان وصلابة في العقيدة، وحب لآل البيت ونصرة لهم، وظهر استياء الحجاز لمقتل حجر حيث إثار مقتله قرائح الشعراء ونظمت في رثائه قصائد طويلة.(١٢٢)

خامسا: الإدارة الأموية في الحجاز في الفترة السفيانية ونتائجها

وضع معاوية أسس السياسة الإدارية الأموية في الحجاز التي استندت على اهتمام الأمويين بهذه الولاية اهتماما خاصا لأنها كانت العاصمة الأولى للدولة العربية الإسلامية، كما أنها استمرت مركزا للاستقطاب وتجمعا لأبناء الصحابة الكبار الذين تباينت إتجاهاتهم وتطلعاتهم، كما وفد إليها معتزلو السياسة ليكونوا بعيدين عن الضوضاء والاضطراب السياسي. [١٢٣] وقد هدف معاوية إلى جعل هذا الإقليم يتجه نحو الأسرة الحاكمة، وحاول أن يبعده عن الاستغلال.

ولهذا اتجه معاوية لوضع هذا الإقليم تحت الحكم المباشر للعاصمة في دمشق، وذلك بإسناد إدارة هذا الإقليم إلى رجال من الأمويين كان معاوية نفسه صاحب القرار الأول في تعيينهم، ولكي تبقى سلطته قوية على الحجاز سلط سيف العزل على رقاب هؤلاء الولاة الذين كانوا يستمدون سلطتهم من الخليفة، الذي كان يحرص على أن تكون هفواتهم قليلة بعكس ولاة العراق الذين حكموا باستقلالية واستمرارية واستعملوا منتهى العنف والشدة هناك [١٢٤] حتى فاقت أخبارهم أخبار معاوية نفسه.

وربط معاوية الحجاز مباشرة بالعاصمة، بواسطة نفر من الولاة الأمويين من أصحاب الخبرة والقادرين على فهم نفسية الأهالي ومواجهتهم بما يتفق مع ميولهم، وجعل معاوية من مدن الحجاز مدرسة يدرب فيها أبناء البيت الأموي على إدارة تلك الولاية والسماح لهم بالتدرج في تلك الإدارة، وفق خطوات مقررة، فقد أورد الطبري: [١٢٥] " كان معاوية إذا أراد أن يولي رجلا من بني حرب ولاه الطائف، فإن رأى منه خيرا وما يعجبه ولاه مكة معها، فان أحسن الولاية وقام بما ولي قياما حسنا جمع له معهما المدينة، فكان إذا ولى الطائف رجلا قيل: هو في أبي جاد (أي في أول الأمر)، فإذا ولاه مكة قيل: هو في القرآن، فإذا ولاه المدينة قيل: هو قد حذق."

وكان أكثر ما يعيق عمل الولاة عدم البقاء طويلا في السلطة، حيث غدت تناوبية بين شخصية وأخرى، وكان معاوية يهدف إلى تحقيق المراقبة الشديدة لهذا الإقليم، وتحجيم دور قياداته، وكثيرا ما كان يوقع بينها [١٢٦] ويحاول بكل ما يمكن أن يلم بعوامل التذمر، ولا يسمح للولاة باستغلالها وهي سياسة تمكن معاوية من خلالها الحفاظ على وحدة الدولة ومنع الانقسام في عهده.

واشتهر من أمراء هذه الولاية، مروان بن الحكم، وسعيد بن العاص، والوليد بن عتبة بن أبي سفيان، وهؤلاء ولوا على المدينة، ثم خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة المخزومي، [١٢٧] وعتبة بن أبى سفبان، وهؤلاء كانوا على مكة؛ أما الطائف فقد كانت تتبع مكة قبل أن يضم معاوية الحجاز ويبدو أن الحجاز استمر وحدة إدارية طوال العهد السفياني [١٢٨] منذ أن تولى مروان إمرة المدينة لأول مرة سنة ٤٤ هـ. وكان مركز الحجاز المدينة [١٢٩] وغالبا ما أسندت هذه الولاية الموسعة إلى كل من مروان وسعيد بن العاص أبرز الشخصيات الأموية في الحجاز حيث تناوبا السلطة على هذا الإقليم بأمر من معاوية كما حدث في سنة ثمان وأربعين للهجرة عندما عزل مروان

وعين سعيد بن العاص، [١٣٠] وشغلها حتى سنة أربع وخمسين حيث أستبدل بالأول[١٣١] واستمر مروان إلى سنة ٥٧ هـ حيث عزله معاوية وعين ابن أخيه الوليد بن عتبه بن أبي سفيان.[١٣٢] ويظهر أن يزيد سار على سياسة أبيه الإدارية هذه في الحجاز حيث عزل الوليد وأقر عليها عمرو بن سعيد الأشدق في عام ٦٠ هـ [١٣٣] / ٦٧٩م .

لكن سرعان ما استعاد الوليد مركزه في المدينة واستمر فيها مدة سنتين حيث عزله يزيد وعين عثمان بن محمد بن أبى سفيان وهو آخر الولاة الأمويين في العهد السفياني، وشهد هذا الوالي أحداثا هامة وخطيرة في الحجاز ابتداء بخروج الحسين بن علي إلى العراق ومأساة كربلاء إلى ثورة المدينة ومعركة الحرة وانتهاء بحركة عبدالله بن الزبير والتي أدت إلى انفصال الحجاز بكامله عن الدولة الأموية منذ عام ٦٤ هـ حتى سنة ٧٣ هـ (٦٨٣ - ٦٩٢م) . وشملت سلطته في أوج قوته الحجاز والعراق ومصر وبعض مناطق الشام وعدة مناطق أخرى من العالم الإسلامي، [١٣٤] ولم يجمع الناس على عبدالملك إلا بعد مقتل ابن الزبير.

أما الأنصار فقد أبعدوا عن المراكز السياسية والإدارية ماعدا أربعة منهم أشار إليهم معاوية بقوله "صحبني أربعة من الأنصار النعمان بن بشير فوليته حمص، ومسلمة بن مخلد فوليته مصر، وعمرو بن سعيد فوليته فلسطين، وفضالة بن عبيد فوليته القضاء، ولو زادوني لزدتهم." [١٣٥]

ويظهر أن الموقف الأموي تجاه الأنصار اقتصر على الذين تحالفوا مع معاوية وكانوا من قبل مع عثمان، [١٣٦] وهؤلاء قطفوا ثمار التأييد الأموي بينما لاقى البقية منهم العقاب . وهذا ما أدى إلى تقلص نفوذ المدينة وتراجع دورها أنصارا ومهاجرين وخاصة أبناء الصحابة الكبار وغيابهم التام، ولهذا لا نستغرب أن يقف هؤلاء الموقف العدائي من معاوية ودولته ومن بيعة يزيد، والجهر بالعداء الصريح لهذه الدعوة التي اعتبروها خروجا كبيرا عن مسيرة الخلفاء الراشدين [١٣٧] وعن العرف والعادة للحجاز، وتصدوا لقرار معاوية وحاولوا إسقاطه.

أما الطائف، فقد خرجت من عزلتها متجهة إلى الحليف القديم، ونشأت بعد التحكيم، إثر تطور الأمور لصالح معاوية، بين ثقيف في الطائف والأمويين في الشام، علاقة قوية ونادرة في طبيعة العلاقات بين أطراف شبه الجزيرة العربية، [١٣٨] فصارت الطائف مركزا مهما ومميزا للأمويين في الحجاز حيث طغت هذه العلاقة على الروابط بين مكة والأمويين في الشام، نظرا للوضع الديني لمكة وقبولها بعض المؤثرات المعادية للدولة الأموية، فضلا عن تفريغها من الأمويين وحزبهم شأن معظم الحجاز، وهذا ما أبعدها عن الولاء المطلق للخلافة الأموية في الشام وغدت في فترة ما مركزا للثورة والتمرد على الحكم الأموي. [١٣٩] وكذلك تطورت العلاقات الاجتماعية والاقتصادية بين الطائف والأمويين، وشكل الزواج المتبادل دورا كبيرا في تدعيم هذه العلاقات[١٤٠] كما استمرت الطائف بتقديم الدعم الاقتصادي وخاصة الزراعي منه والذي كان واضحا منذ العصر الجاهلي، [١٤١] وإذا كانت الطائف تمكنت بفضل فطنة رجالها ودهائهم كالمغيرة من عدم التورط في الحروب الأهلية، لكن قلة منهم تحالفت مع بني هاشم كسعد بن مسعود الثقفي في العهد الراشدي، والمختار الثقفي في العصر الأموي، [١٤٢] وأكثرهم

انخرط في الصفوف الأموية كالمغيرة وزياد وغيرهما وساهموا مساهمة فعالة في تدعيم المركز الأموي وتثبيته خاصة في العراق.

والنتيجة أن الحجاز فقد أهميته في الإدارة الأموية، التي اقتصر النفوذ فيها على الأسرة الحاكمة، وبعض ممن مثل الاتجاه المتطرف في قريش، الذي شجعته خلافة الشام ودعمت موقفه المؤيد لها.

سادسا : بعض الآثار الاقتصادية والاجتماعية لانتقال الخلافة

نتيجة لانتقال مركز الثقل السياسي والاقتصادي والعسكري إلى خارج الحجاز، وعلى أثر الإهمال الواضح لهذا الإقليم، حدث فراغ وخلل في الأوضاع الاجتماعية، خاصة بين فئات الشباب، وهم مصدر الحياة والحركة، ولم يعد هناك ما يشغل فراغهم، بعد أن انصرف الأمويون عنهم كلية بعد ثورة ابن الزبير. ولهذا فقد نشأ في الحجاز وتحديدا في مكة طبقة من الشباب المترف والعاطل عن العمل كما أشرنا، فمال في حياته إلى الدعة واللهو والزينة، [١٤٣] والبحث عن مناخ للحياة لإشباع الرغبات البشرية ولهذا ظهر في هذه الفترة في الحجاز (مكة، والمدينة) مناخان، أحدهما مال إلى النواحي الدراسيه والبحوث الدينية والإسلامية من قرآن وحديث وتفسير وقراءات، وأدى كل هذا لظهور أول مركز لدراسة علم الحديث، وشغل هذا التوجه مجموعة كبيرة من الناس منهم في المدينة أنس بن مالك المتوفى سنة ٩١ هـ / ٧٠٧م. قدم النبي ﷺ إلى المدينة وله عشر سنين فخدمه فدعا له بكثرة المال والولد والبركة فيهما. ثم عبدالله بن عمر بن الخطاب المتوفى سنة ٧٤ هـ / ٦٩٣م وهو أكبر أبناء الخليفة عمر، وأحد الصحابة المتقدمين في العلوم الإسلامية. أما مدرسة مكة ، فقد رفع من مكانتها عبدالله بن عباس المتوفى سنة ٦٩ هـ / ٦٨٨م أو ٧٨ هـ / ٦٩٧ م وهو جد العباسيين، أعجب الناس به وبعلمه لتبحره في الحديث والفقه ودعي بحبر الأمة لبراعته في تفسير القرآن، وأخذ عنه عطاء بن أبي رباح، وطاووس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعبيدالله ابن عبدالله بن عتبة بن مسعود، وأبو الشعثا جابر بن زيد، وابن أبي مليكة، وعكرمة، وميمون بن مهران، وعمرو ابن دينار وغيرهم .

واكتسبت المدينتان مكة والمدينة صفة جديدة في العهد الأموي، وبدأ يفد إلى العاصمة المهجورة[١٤٤] معظم معتزلي السياسة، وبعض من ملوا من الحروب الأهلية والخلافات السياسية رغبة منهم في العيش بهدوء وراحة، كما توافد إليهما الأثرياء الجدد الذين أغنتهم الفتوحات، وقلدوا الخلفاء بتشييد الأبنية، وهكذا أقيمت في ضواحى المدينتين مكة والمدينة القصور الفخمة التي ملئت بطوائف من الخدم والرقيق ييسرون لهم سبل الحياة المترفة، [١٤٥] فكان ذلك كله إيذانا بظهور المناخ الثاني اللاهى. وكان حظ مكة كالمدينة في هذا السبيل، فزاد الترف في هاتين الحاضرتين، وظهر بنوع خاص في المدينة، فازدادت بيوت القيان وكثر الغناء وساهمت وفود الحجاج في كل سنة بما تنفقه من أموال طائلة في ازدهار المدينتين وتحولهما من حال إلى آخر. وتعمق الاتجاه الثاني الذي نشأ في الحجاز،

وهو الاتجاه نحو الغناء والطرب والشعر والموسيقى، وأخذت المدينة ومكة تهتمان بهذا النوع من الفنون، وقد عمل الأمويون على تشجيع هذا التوجه.[١٤٦]

ومن الواضح أن مدن الحجاز (المدينة ومكة) أخذت تعنى بالغناء في العصر الإسلامي منذ عهد الخليفة عثمان، فقد ظهر طويس، وفند، وغيرهما،[١٤٧] وكانت المدينة أسبق مدن الحجاز إلى العناية بالغناء، ولاشك بأن للغناء علاقة خاصة بالترف، ولعل في هذا ما يؤكد أن المدينة سبقت إلى العناية بالغناء وهذا أمر طبيعي، فهي التي سبقت إلى الثراء والغنى نتيجة للعطاء ومادرته عمليات الفتوح، وهي العاصمة الأولى للدولة العربية، ومركز الثقل السياسي والحضاري. ولهذا فقد تمركزت فيها هذه الموجة من موجات الترف، ومع أن مكة اخذت تعنى بالغناء فيما بعد وغدت تنافس المدينة فيه، وظهر عندها ابن مسجح وتلاميذه.[١٤٨] لكن المدينة كانت السباقة في الغناء وربما جاء هذا الامتياز بسبب وفود الموالي إليها منذ عصر الخلفاء الراشدين وقيام رجالاتها وأشرافها بطلب هؤلاء الموالي، وخير مثال على هؤلاء سيد بني هاشم عبدالله بن جعفر، حيث كان الناس يقصدون بيته لسماع المغنين والمغنيات.[١٤٩] واستمرت المدينة المركز الأول في الحجاز للغناء والمغنين وتخريجهم، ومما يؤكد ذلك أن خلفاء دمشق كانوا يطلبون مغنيهم غالبا من المدينة وكذلك فإن مكة نفسها تقوم بطلب مغنيها من المدينة،[١٥٠] وأول من اتخذ الغناء وآوى المغنين من بني أمية يزيد بن معاوية فقد طلبهم من المدينة، وذهب إليه سائب خاثر مولى عبدالله بن جعفر،[١٥١] "ولم يبق أحد في المدينة ينكره.[١٥٢] وربما كان الأمويون يشجعون شباب مكة والمدينة ليلهوهم عن طلب الملك والخلافة.[١٥٣]

واندفع الموالي وغير الموالي في المدينة من رجال ونساء يتغنون، واشتهر من الرجال كثير، وعقد لهم صاحب *الأغاني* فصولا طويلة في كتابه، واهتم بتسجيل أخبار كثير منهم وأصواتهم وعلى رأسهم طويس، وسائب خاثر، والدلال، ومعبد، وابن عائشة، ومالك بن أبى السمح الطائي، ويونس الكاتب ودحمان، وعطرد، وغيرهم كثر. وأما النساء، فيمكن أن نذكر على رأسهن عزة الميلاء، وكان لها دار يقصدها بعض أهل المدينة لسماع الغناء، وتليها جميلة وكان لها الدار الكبرى للغناء في المدينة، ويورد صاحب *الأغاني* أنها خرجت تحج ويصف موكب حجها ويدل وصفه دلالة واضحة على مدى ما بلغته المدينة في هذا العصر من ازدهار فن الغناء بها، وخرجت جميلة في هذا المهرجان الكبير الذي كان يضم مجموعة من الشعراء على رأسهم الأحوص، كما كان في هذا الركب من القيان زهاء خمسين قينة، وما أن وصل هذا الركب مكة حتى استقبله مغنوها وعلى رأسهم ابن مسجح وابن سريج والغريض ...الخ. وخرج معهم شعراؤها وعلى رأسهم عمر بن أبي ربيعة[١٥٤] وهو يصور مبلغ ما وصلت إليه المدينة في هذا العصر في فن الغناء، وكان هؤلاء المغنون والمغنيات يغنون الناس في المدينة بدون ستارة تفصل بينهم،[١٥٥] ولكن عندما يغنون بحفلة فيها رجال ونساء، كانوا يضعون ستارة كفاصل بين جميع الرجال والنساء، واستعمال الستارة لم يكن من أجل المغني أو المغنية، ولكن كان من أجل النساء اللواتي يحضرن الحفلة.

كما أقدم الأمويون على سياسة كسب الشعراء واستخدامهم كوسائل للدعاية والدفاع عن المصالح الأموية، وأغدقوا عليهم الأموال فظهرت طبقة من الشعراء اهتمت بالنواحي السياسية ودافعت عن الأمويين إما ترغيبا للحصول على العطاء، وإما حماية لأنفسهم من سخط الأمويين، وبالمقابل ظهر شعراء كثر مثلوا الاتجاهات السياسية المختلفة ودافعوا عن توجهاتها السياسية ومعتقداتها، وكثيرا ما كانت تحدث المهاترات بين أصحاب هذه الفئات والأحزاب، وعمل معاوية بطرقه الخاصة لشكمها ومنعها من إيقاظ الفتنة وتأجيج العداء فيما بينها، (١٥٦) واستخدم العديد منهم للإشادة ببني أميه، وخلافتهم وجعل الناس يميلون إليهم.

ويذكر صاحب *الأغاني* أن معاوية بن أبى سفيان لما قام ببناء دوره التي يقال لها الرقط (١٥٧) وهي ما بين الدارين إلى الردم، (١٥٨) أولها الدار البيضاء وآخرها دار الحمام، وهي على يسار المصعد من المسجد إلى ردم عمر، حمل لها بنائين فرسا من العراق فكانوا يبنونها بالجص والآجر، وكان سعيد بن مسجح يأتيهم فيسمع من غنائهم على بنيانهم فما استحسن من ألحانهم أخذه ونقله إلى الشعر العربي، ثم يقوم بصياغته على نحو ذلك، وهو الذي علم الغريض وكان من قديم غنائه الذي صنعه على تلك الأغاني.

وكثيرا ما كان مغنو الحجاز وخاصة من (مكة والمدينة) يقصدون دمشق وقد أحدثوا فيها بفضل زيارتهم وبفضل اهتمام الخلفاء بهم نهضة فنية في الغناء كان من آثارها ظهور أبي كامل الغزيل مغني الوليد بن يزيد (١٥٩) ومن آثارها أيضا الوليد بن يزيد نفسه على نحو ما هو معروف عنه.

ويظهر أن معاوية والأمويين اهتموا بمكة أكثر من اهتمامهم بالمدينة، وهذا ما يظهر في الثراء الواسع الذي ظهر فيها منذ عهد الخليفة عثمان (رض)، فهذا عبدالله بن عامر، وإلى عثمان على البصرة اشترى سوق البصرة من ماله ووهبها لأهلها، ولم يكونوا يؤدون عنها خراجا، (١٦٠) كما اتخذ من مكة حياضا ونخلا بعرفات، وأقام النباج وهي قرية واقعة على طريق بين مكة والبصرة واتخذ قريتين أخريين وزرع بهما النخل وأنبط عيونا، (١٦١) ولهذا لا نستغرب أن يقوم هذا ويشترك بتجهيز الحملة العسكرية في "معركة الجمل" لغناه واقتداره على دفع الأموال. وأورد ابن حبيب قصصا كثيرة عن كرم القرشيين ان دلت على شيء فإنما تدل على الغنى والبذخ في هذه الفترة(١٦٢).

وما إن تستقر الأمور لمعاوية حتى يهتم ببلدته القديمة ومسقط رأسه فأجرى فيها عشر عيون واتخذ فيها البساتين.(١٦٣)

واستمر الأمويون بعد ذلك يغرسون بها الأشجار ويحفرون الخزانات والآبار، (١٦٤) ولعل من أهم المظاهر الحضارية التي تشهد على إهتمام معاوية بمكة اتخاذه القصور وبنائها بالآجر والجص واتخاذ أبوابها من الساج، وبنى لنفسه الدور الرقط المختلفة الألوان.(١٦٥)

وبالغ معاوية في بناء هذه الدور والقصور حتى غدت تنافس دور دمشق وقصورها ويروى أنه اشترى من حويطب بن عبدالعزيز دارا بأربعين ألف دينار. (١٦٦) ومعاوية هو أول من كسا الكعبة الديباج واشترى لها

العبيد.[١٦٧] وقد اتسعت أعمال البناء في مكة في عهد ابن الزبير وجلبت لها الأموال من مصر والعراق، ومن هذه الأموال تمكن ابن الزبير من إعادة بناء الكعبة، [١٦٨] ثم قام بكساء الكعبة بعد أن فرغ من بنائها ومسح بالخلوق داخلها وخارجها فكان أول من خلقها.[١٦٩]

وهكذا فقد وجدت فئة من المسلمين ممن عرفوا كل ضروب النعيم والترف وتأنقوا فيها كما تفننوا في معرفة أنواع الطعام وألوانه المختلفة، [١٧٠] ولبسوا السندس والديباج والاستبرق، ومقطعات الخز والحرير والحلل الموشاة، [١٧١] حتى إبلهم كانوا يضعون فوقها القطوع والديباج ويضعون في أعناق خيولهم أطواقا من الذهب.[١٧٢] وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على مدى الغنى والترف لفئة من المجتمع الإسلامي الذي بدأت فيه الطبقات الاجتماعية تأخذ بالظهور بعد أن كان الإسلام عمل على إزالتها، وتعمقت الفروق بين فئات المجتمع المختلفة لاسيما في النواحي الاقتصادية، وظهرت طبقة من الأغنياء اتسعت قاعدتها خلال المسيرة الإسلامية والتطور الاجتماعي، وقدمت المبررات القوية لزعماء الحركات السياسية والفكرية المعارضة، للتحرك والعمل ضد الأمويين ونظامهم الذي كثر معارضوه، وكان يحمل في طيات نهوضه، بوادر سقوطه، ومبررات معارضته.

التعليقات

(١) البلاذري، *فتوح البلدان*، (القاهرة ١٩٨٧م)، ١١٦؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، (بيروت، ١٩٥٨م)، ٢: ٥٣؛ ابن حبيب البغدادي، *المحبر*، (حيدر آباد، ١٩٦٤م، أعيد طبعه من قبل عالم الكتاب، بيروت، ١٩٨٥م)، ٤٦٤؛ محمد جمال الدين سرور، *قيام الدولة العربية الإسلامية في حياة محمد (ص)*، طبعة ٥ (القاهرة، ١٩٦٦م)؛ عمر رضا كحالة، *معجم قبائل العرب*، (بيروت، ١٩٨٢م)، ٤٣: ١.

(٢) القرآن الكريم، سورة إبراهيم، آية ٣٧.

(٣) ابن هشام، *السيرة النبوية* (القاهرة، ١٩٣٦م)، ٣: ٥٠؛ *تهذيب تاريخ دمشق*، لابن عساكر، (بيروت، ١٩٧٩م)، ٦: ٣٤٤؛ جواد علي، *المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام*، ٧: ٢٩٤-٢٩٥؛ حسين مونس، *تاريخ المسلمين في البحر المتوسط*، (القاهرة، ٩٩١م)، ٤٠؛ إحسان صدقي العمد، الجذور التاريخية للأسرة الأموية، الحولية السابعة عشرة الرسالة الثالثة عشرة بعد المئة، الكويت، ١٩٩٦-١٩٩٧م، ٤٦.

(٤) ابن الأثير، *الكامل*، ٢: ١٤٤-١٤٥. ويظهر ذلك ما حدث بعد الإسلام من سؤال قيصر لأبي سفيان عن حال النبي صلى الله عليه وسلم وهذا يدل على أنه كان محل ثقته. انظر: ابراهيم أحمد العدوي، الأمويون والبيزنطيون (القاهرة، ١٩٥٣م)، ٤٣؛ مؤنس، تاريخ، ٤٠؛ *تاريخ*، العمد، الجذور، ٤٧ نقلا عن ابن عساكر، *تاريخ دمشق الكبير*، ٨: ٢٣٧.

(٥) مؤنس، *تاريخ*، ٤٢-، ٤٤ حيث يذكر أن الرسول صلى الله عليه وسلم عهد إليهم العمالات، وقيادة البعوث، ووجد في ذلك وسيلة لتألف قلوبهم، حتى أبو سفيان، رغم ما عرف عنه من عداوة للإسلام فق ولاه الرسول صلى الله عليه وسلم عماله كبيرة تألفا له م ناحية وانتفاعا بخبرته من ناحية أخرى، العمد، *الجذور*، ٦٥ وما بعدها.

(٧) خليفة بن خياط، *كتاب التاريخ*، تحقيق سهيل زكار (دمشق، ١٩٦٨م)، ٢: ١٥٧؛ العمد، *الجذور*، ٦٥.

(٧) البلاذري، *فتوح البلدان* ١١٦؛ ابن سعد، *الطبقات*، ٧: ٤٠٦-٤٠٧؛ المقريزي، *النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم* (القاهرة، ١٩٣٧)، ٥٥-٥٦؛ ابن عساكر، *تهذيب تاريخ دمشق الكبير*، ١٦: ٦٩٨.

(٨) المقريزي، *النزاع*، ٥٥-٥٦؛ وانظر: مؤنس، *تاريخ*، ٤٢-،٤٣ هامش الصفحات؛ العمد، *الجذور*، ٦٥ ٧٣.

(٨) المقريزي، ٤٧-٤٨؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٢ :٢٨٤؛ مؤنس، *تاريخ*، ٤٢-٤٣؛ العمد، *الجذور*، ٧٠-٧٣.

(١٠) البلاذري، *فتوح البلدان*، ١١٦؛ ابن طباطبا، *الفخري في الآداب السلطانية*، ١٠٤؛ المسعودي، *مروج الذهب*، (بيروت، ١٩٧٣م)، ٢ : ٣٤٣، *إبراهيم الأبياري، معاوية بن أبي سفيان*، سلسلة أعلام العرب القاهرة و؛ عبدالعزيز سالم، التاريخ السياسي والحضاري للدولة العربية، (بيروت)، ٣١٧-٣١٨؛ وانظر: إبراهيم بيضون، *الحجاز والدولة الإسلامية، دراسة في إشكالية العلاقات مع السلطة المركز في القرن الأول الهجري*، (بيروت، ١٩٨٧٣م)، ١٩٢-١٩٣؛ مؤنس، *تاريخ*، ٤٢-٤٣.

(١١) البلاذري، *فتوح البلدان*، ١١٦؛ ابن طباطبا، *الفخري في الآداب السلطانية*، ١٠٤؛ المسعودي، *مروج الذهب* (بيروت، ١٩٧٣م)، ٢ : ٣٤٣، إبراهيم الأبياري، معاوية بن أبي سفيان، سلسلة أعلام العرب القاهرة و؛ عبدالعزيز سالم، *التاريخ السياسي والحضاري للدولة العربية*، (بيروت) ٣١٧-٣١٨؛ وانظر: إبراهيم بيضون، *الحجاز والدولة الإسلامية، دراسة في إشكالية العلاقات مع السلطة المركزية القرن الأول الهجري* (بيروت، ١٩٧٣م)، ١٩٢-١٩٣؛ مؤنس، *تاريخ*، ٤٢-٤٣.

(١٢) الطبري، *تاريخ*، ٤ : ٤٢٧-٤٣٣؛ سيف بن عمر، *الفتنة ووقعة الجمل*، (بيروت، ١٩٧٢م)، خليفة، *تاريخ*، ١٩٨ :١؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٣ :١٩١.

(١٣) الطبري، *تاريخ*، ٤ :٤٧٦؛ سيف، *الفتنة*، ١٣٦؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٣: ١٩٥؛ عبدالعزيز الدوري، *مقدمة*، ط٣ (بيروت، ١٩٨٤م)، ٥٥-٦٦.

(١٥) الطبري، تاريخ، ٤ :٤٥٥؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٣ :٢٠٤-٢٠٥.

(١٥) سيف بن عمر، *الفتنة*، ١٣٦؛ *الطبري*، *تاريخ*، ٤ :٤٥٩-٤٧٩؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٣: ١٩٠، ١٩٨، ٢٢٤؛ الدوري، *مقدمة*، ٥٠-٦٠.

(١٦) عن معركة الجمل، انظر: سيف بن عمر، *الفتنة ووقعة الجمل*، ٩٣ وما بعدها، الطبري، *تاريخ*، ٤ :٥٠٨-٥٣٢؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٣: ،٢٠٥، ٢٢١، ٢٦٠.

(١٧) سيف بن عمر، *الفتنة*، ١١٨-١٣٥.

(١٨) ابن قتيبة، *الإمامة والسياسة* (منسوب إليه) (القاهرة)، ١:٩٤؛ ابن أعثم، *الفتوح*، عن نسخة استانبول رقم ،٢٩٥٦ «تحقيق سهيل زكار» (بيروت: دار الفكر، ١٩٩٢م)، ٢: ٤٣؛ بيضون، *الحجاز*، ١٩٧.

(١٩) ابن قتيبة، *الإمامة والسياسة*، ١:٩٤؛ ابن الأعثم، *الفتوح*، ٢:٤٣٠.

(٢٠) ابن أعثم، *الفتوح*، ٤: ٧١.

(٢١) الطبري، *تاريخ*، ٥: ،٦٧ ٩٣؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٣: ،٣٢٩ ،٣١٩ ٣٧٨ ٣٤١.

(٢٢) اليعقوبي، *تاريخ*، (بيروت، ١٩٨٠م)، ٢: ١٩٣؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٣: ٣٨٣؛ ابن قتيبة، *الأمامة والسياسة*، ١ :٩٤؛ ابن أعثم، الفتوح، ٢:٤٣٠.

(٢٣) الطبري، *تاريخ*، ٥: ،١٣٤ ١٣٩؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٣: ،٣١٦ ،٣٢٩ ،٣٤١ ،٣٧٦ ٣٧٨؛ وانظر: *الغارات*، لأبي اسحق إبراهيم ابن محمد الثقفي، تحقيق عبدالرزاق الحسيني الخطيب، (بيروت، ١٩٨٧م)، ٣٤٤، ٤٠٤؛ بيضون، *الحجاز*، ٢١٠، ٢١١.

(٢٤) الطبري، تاريخ، ٥: ١٤٠؛ اليعقوبي، تاريخ، ٢: ،١٩٣ ١٩٧؛ ابن الأثير، الكامل، ٣ :٣٥٢.

(٢٥) انظر مثلاً: ثورة ابن الأشعث، وثورة كل من المدينة ومكة: الدينوري، *الأخبار الطوال*، ٣١٦؛ الطبري، *تاريخ*، ٦: ٣٢٦؛ المسعودي، مروج الذهب، ٣ :١٤٣؛ فلهاوزن، *الدولة العربية*، ٢٣٤ ٢٣٦. الدوري، *مقدمة*، ٥٥، ٥٦؛ بيضون، *الحجاز*، ١٩٠، ١٩١، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٣٢؛ سهيل زكار، *تاريخ العرب والإسلام* (دمشق، ١٩٨٢)، ٣١٣.

(٢٦) ابن خلدون، *المقدمة*، ٢٣٩.

(٢٧) الطبري، *تاريخ*، ٤: ٦؛ إبراهيم بيضون، *تكون الاتجاهات السياسية في الإسلام الأول* (بيروت، ١٩٨٦م)، ١٤٤ .

(٢٨) المسعودي، *مروج*، ٣: ٨٦.

(٢٩) عن ثورة الحسين، انظر: البلاذري، *أنساب الأشراف*، ٤: ١٠٢-١٠٣؛ خليفة بن خياط، *تاريخ*، ١: ٢٧٨؛ اليعقوبي، *تاريخ*، ٢: ٢٤٣؛ الطبري، تاريخ، ٥: ٤٠٠؛ *مروج الذهب*، ٣: ، ٦٥ ، ٧٥ ؛ ابن طباطبا، *الفخري*، ٩٣، ٩٥؛ السيوطي، *تاريخ الخلفاء*، ٢٠٥، ٢١٠.

(٣٠) خليفة بن خياط، *تاريخ*، ١: ١٥٧؛ رضوان السيد، جدليات العلاقة بين الجماعة والوحدة والشريعة في الفكر السياسي العربي الإسلامي، *مجلة الوحدة*، ٢ (١٩٨٠م)، ١٨؛ بيضون، *الحجاز*، ٢٣٥، نقلاً عن الطبري، *تاريخ*، ٥ : ٨٦ (وج ١٣ مكتبة خياط بيروت)؛ عمر سليمان العقيلي، *يزيد بن معاوية (حياته وعصره)* (الرياض، ١٩٨٨م)، ١٨-٢١.

(٣١) أحمد الشايب، *تاريخ الشعر السياسي إلى منتصف القرن الثاني*، ٢٩١ ، ٢٩٦؛ *ديوان الأخطل* ، ٥٦ ، ٣٣٦ ؛ الأصفهاني، *الأغاني*، ١٥: ٢٩ ، ٦٣ ؛ وانظر: الطبري، *تاريخ*، ٥: ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٣٠٢؛ وبيضون، *الحجاز*، ٢٣٦.

(٣٢) الطبري، *تاريخ* ، ٥: ٣٠٢؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٣: ٥٠٣ ، ٥٠٤ ، ٥٠٨؛ نبيه عاقل، *خلافة بني أمية*، ٩٣ ، ٩٤؛ وعن دور المغيرة في بيعة يزيد انظر: السيوطي، *تاريخ الخلفاء*، ٢٠٥ حيث هناك تفاصيل كاملة عن هذا الدور.

(٣٣) لطبري، *تاريخ*، ٥: ٣٠٤ ، ٣٠٧؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٣: ، ٥٠٦ ، ٥١١.

(٣٤) ابن الأثير، *الكامل*، ٣: ٥٠٦؛ ابن أعثم، *الفتوح* ٤: ٢٣٤، ٢٣٥؛ ابن قتيبة، *الإمامة والسياسة*، ١: ١٦٦.

(٣٥) ابن قتيبة، الإمامة، ١: ٢٩٧؛ ابن عبدربه، *العقد الفريد*، ٢: ٣٧٢.

(٣٦) ابن أعثم، *الفتوح*، ٤: ٢٤٦؛ ابن قتيبة، *الإمامة*، ١: ٢٩٨ ، ١٦٧؛ الطبري، *تاريخ*، ٥: ٣٠٤؛ ابن عبد ربه، *العقد الفريد*، ٤: ٣٧٢.

(٣٧) ابن أعثم، *الفتوح*، ٤: ٢٤٢.

(٣٨) ابن أعثم، *الفتوح*، ٤: ٢٤٦؛ خليفة، *تاريخ*، ١: ٢٥٦؛ بيضون، *الحجاز*، ٢٥٤.

(٣٩) *تاريخ خليفة*، ١: ٢٥٧.

(٤٠) الطبري، *تاريخه*، ٥: ٣٢٢ ، ٣٢٣؛ الدينوري، *الأخبار*، ٢٠٦؛ ابن طباطبا، *الفخري*، ٩٢؛ ابن عبدربه، *العقد الفريد*، ٤: ٨٧؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٤: ٦؛ المسعودي، *مروج الذهب*، ٣: ٣٦ ، ٣٨.

(٤١) البلاذري، *فتوح*، ١: ٤٧٧؛ الطبري، *تاريخ*، ٥: ٣٣٨؛ النويري، *نهاية الأرب*، ٢٠: ٣٧٦؛ العقيلي، *يزيد بن معاوية*، ٣٥، ٢٧.

(٤٢) الطبري، *تاريخ*، ٥: ٣٣٨ ، ٣٣٩؛ خليفة، *تاريخ*، ١: ٢٨٢؛ البلاذري، *الأنساب*، ٤: ٢٣.

(٤٤) الطبري، *تاريخ*، ٥: ٣٣٨ ، ٣٣٩؛ خليفة، *تاريخ*، ١: ٢٨٢؛ البلاذري، *الأنساب*، ٤: ٢٣.

(٤٤) الدينوري، *الأخبار*، ٢٢٨؛ النويري، *نهاية*، ٢٠: ٣٨٦؛ الطبري، *تاريخ*، ٥: ٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٣ ، ٢٨٣؛ العقيلي، *يزيد بن معاوية*، ٣٥، ٣٦.

(٤٥) الطبري، *تاريخ*، ٥: ٣٨٣؛ البلاذري، *أنساب*، ٣: ١٥٨ ، ١٦١؛ عقيلي، *يزيد بن معاوية*، ٤٣.

(٤٦) الدينوري، *الأخبار*، ٢٢٩؛ النويري، *نهاية*، ٢٠: ٣٨٦؛ عاقل، *خلافة*، ١٠١؛ وانظر: العقيلي، *يزيد بن معاوية*، ٣٥-٥٣.

(٤٧) انظر أبحاث كل من الأستاذ الدوري، *مقدمة* ، ٤٠ ، ٦٥ ؛ سهيل زكار، *تاريخ العرب والإسلام*، ٩٢ ، ١٩٠؛ بيضون، *تكون الاتجاهات*، ١٠٧، ١٣٧ ، ١٤٦؛ عاقل، *خلافة*، ٥٢ ، ٥٥ وما بعدها.

(٤٨) البلاذري، *أنساب*، ١: ٤٧٧؛ ٢: ٤: ١٢؛ الطبري، *تاريخ*، ٥: ٣٣٨؛ النيوري، *نهاية*، ٢٠: ٣٧٦.

(٤٩) خليفة، *تاريخ*، ١: ٢٨٣؛ البلاذري، *أنساب الأشراف*، ٤: ٢: ٢٣؛ الطبري، *تاريخ*، ٥: ٣٤٣ ، ٤٧٥.

(٥٠) الطبري، *تاريخ*، ٥: ٣٣٤ ، ٣٤٥؛ البلاذري، *أنساب الأشراف*، ٤: ٢: ٢٩؛ أبو الفدا، *تاريخ*، ١: ١٨٩؛ المسعودي، *مروج الذهب*، ٢: ٨٥.

(٥١) الطبري، *تاريخ*، ٥ :٤٨٠؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٤: ١٠٢ ، ١٠٣.

(٥٢) الطبري، *تاريخ* ، ٥ : ٤٨٨ ، ٤٨٩ ، ٤٩٠ ، ٥٩٥؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٤: ١١٥ ، ١٢٣ .

(٥٣) المبرد، *الكامل في اللغة والأدب*، ٢: ١٥٤؛ صالح أحمد العلي، "ملكيات الأراضي في الحجاز، "*مجلة العرب*، الرياض (١٩٦٩م)، ١٠٤، ١٠٥؛ السيوطي، *تاريخ الخلفاء*، ١٦٨.

(٥٤) البلاذري، *أنساب*، ١: ٤٨٦؛ راجع مقتل عثمان: في *طبقات* ابن سعد، ٣ :٧٢ ، ٧٥؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٣: ١٦٧ ، ١٨٠؛ أبو العرب التميمي، *كتاب المحن*، ٦٣-٧٧.

(٥٥) ابن قتيبة، *الإمامة والسياسة*، ١ :١٨٨.

(٥٦) ابن قتيبة، *الإمامة والسياسة*، ١: ١٨٨؛ انظر: العقيلي، *يزيد بن معاوية*، ٥٩- ٦٢ حيث عالج بشكل واضح انتقال الأراضي إلى معاوية والأمويين بشكل عام.

(٥٧) عبدالحي الكتاني، *نظام الحكومة النبوية والتراتيب الإدارية*، ٢ :٥٠-٥١. والوسق هو ستون صاعاً وهو حمل البعير، والوقر حمل البغل والحمار، انظر: *لسان العرب* (وسق، ووقر)؛ والتميمي، *المحن*، ١٤٦-١٤٧؛ العلي، "ملكيات الأراضي،" ٩٢.

(٥٨) الصوافي: الأملاك والأراضي التي جلا عنها أهلها أو ماتوا ولا وارث لها واحدتها صافية، واستصفى صفو الشيء أخذه، وصفا الشيء، أخذ صفوه، انظر: اللسان، (صفا)؛ وعرف السمهودي الصوافي بأنها جمع مفردها صافية ومعناها النخلة الكثيرة الحمل، انظر: *وفاء الوفاء*، ١ :١٧٢؛ والتميمي، *المحن*، ١٤٦-١٤٧؛ انظر: العقيلي، *يزيد بن معاوية*، ٥٦-٥٧.

(٥٩) التميمي، *المحن*، ١٤٦ وما بعدها.

(٦٠) الطبري، *تاريخ*، ٥ :٤٨٢؛ التميم، *المحن*، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ .

(٦٢) أبو العرب التميمي، *المحن*، ١٤٦-١٥٠؛ العقيلي، *يزيد بن معاوية*، ٥٧.

(٦٢) ابن قتيبة، *الإمامة والسياسة*، ١: ١٧٨؛ اليعقوبي، *تاريخ*، ٢: ٢٥٠؛ السمهودي، *وفاء الوفاء*، ١: ١٢٧.

(٦٣) التميمي، *المحن*، ١٤٦-١٥٠؛ وانظر: العقيلي، *يزيد*، ٥٩-٦٣.

(٦٤) المسعودي، مروج، ٣: ٦٨، ٦٩؛ بيضون، *الحجاز*، ٢٧٠؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٤ :٨٨-٨٩.

(٦٥) الطبري، *تاريخ*، ٥ :٤٨٠-٤٩٠.

(٦٦) الطبري، *تاريخ*، ٥: ٤٨٠؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٤ :١٠٣؛ البلاذري، *أنساب*، ١: ١٢١ ، ٣٢٩؛ بيضون، *الحجاز*، ٢٧٢.

(٦٧) الطبري، *تاريخ*، ٥: ٤٨٧؛ خليفة، *تاريخ*، ١: ٢٩٠.

(٦٨) الطبري، *تاريخ*، ٥: ٤٨٢؛ خليفة، *تاريخ*، ١: ٢٣٧؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٤ :١١؛ ابن سعد، *الطبقات*، ٥ :٦٦-٦٨؛ العقيلي، *يزيد بن معاوية*، ٥٥. ولم تتأكد بيعة عبدالله بن حنظلة بالخلافة، وربما لو انتصرت الثورة لتم له ذلك.

(٦٩) التميمي، *المحن*، ١٥٨.

(٧٠) التميمي، *المحن*، ٢٥٨.

(٧١) التميمي، *المحن*، ١٥٩.

(٧٢) الطبري، *تاريخ*، ٥: ٤٩٠-٤٩١؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٤ :١٢٠-١٢١؛ خليفة، *تاريخ*، ١ :٢٩٢-٣٠٢.

(٧٣) التيميم، *المحن*، ١٧٢؛ الطبري، *تاريخ*، ٤٩٢ :٥؛ ابن الأثير، *الكامل*، ١١٤ :٤-١٢١.

(٧٤) ابن قتيبة، *الإمامة*، ١ :٢٠١؛ طه حسين، *في الأدب الجاهلي*، ١٢٣؛ فلهاوزن، *تاريخ الدولة العربية*، ١٥٨؛ وانظر: العقيلي، *يزيد بن معاوية*، ٦٧-٦٩ حيث حلل نتائج موقعة الحرة.

(٧٥) الطبري، *تاريخ*، ٥: ٣٨٣؛ عاقل، *خلافة*، ١٠٣- ١٥٠.

(٧٦) الطبري، *تاريخ*، ٥ :٣٨٣.

(٧٧) الطبري، *تاريخ*، ٥: ٣٧٤-٣٧؛ عاقل، *خلافة*، ١٠٦.

(٧٨) الطبري، *تاريخ*، ٥ :٤٧٤-٤٧٥.

(٧٩) الطبري، *تاريخ*، ٥ :٤٧٥-٤٨٥؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٤: ١٢٩ : ١٣٠.

(٨٠) البلاذري، *أنساب*، ٤ :٢ : ٢٤ جاء الحدث في أخبار سنة ٦٠هـ، الطبري، *تاريخ*، ٥ :٣٤٦؛ ٢ :٢٢٧ على لسان أبي شريح بـدلا مـن رافع.

(٨٢) اليعقوبي، *تاريخ*، ٢: ٢٤٧-٢٤٨؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٤ :١٢٧-١٢٨.

(٨٢) البياسي، *الإعلام بالحروب الواقعة في صدر الإسلام*، مخطوطة ورقة ٣٢ دار الكتب المصرية رقم ٣٩٩، تاريخ؛ بيضون، *الحجاز*، ٢٩٨.

(٨٣) وعلى رأس هؤلاء، عمر بن سعيد بن العاص، وعبيد الله بن زياد، ومسلم عقبة المري، والحصين بن نمير، انظر: *الطبري*، ٥: ٤٨٤.

(٨٣) الطبري، *تاريخ*، ٥: ٥٣٠؛ ابن الأثير، *الكامل*، *تاريخ*، ٤: ١٤٥.

(٨٤) الطبري، *تاريخ*، ٥: ٥٣٠؛ ابن الأثير، *الكامل*، *تاريخ*، ١: ١٢٥.

(٨٦) الجابية: قرية من أعمال دمشق، من ناحية الجولان، قرب مرج الصفر في شمال حوران – إذا وقف الإنسان في الصنمـين واستقبل الشمال ظهرت له وتظهر في نوى أيضا، بالقرب منها تل يسمى تل الجابية، انظر: ياقوت، معجم، ٢ :٩١ (مادة الجابية).

(٨٧) مرج راهط، بنواحي دمشق، وهو أشهر المروج في الشعر، انظر: ياقوت، معجم، ٥: ١٠١ (مادة مروج)؛ وانظر: ابن الأثير، *الكامل*، ٤: ١٤٧؛ والمسعودي، *مروج*، ٢ :٧٣؛ فلهاوزن، *الدولة العربية*، ١٦٩.

(٨٨) البلاذري، *أنساب*، ١:٣٤٣.

(٨٩) انظر الروايات المختلفة حول هذه الحادثة في كل من: الطبري، *تاريخ*، ٥:٤٩٨؛ الأزرقي، *أخبار مكة*، ١ :١٩٧-١٩٨؛ البلاذري، *فتوح*، ١ :٣١٣-٣٤٥؛ فلهاوزن، *الدولة العربية*، ١٦٢.

(٩٠) ابن الأثير، *الكامل*، ٤ : ١٤٤.

(٩١) البلاذي، *أنساب*، ١ :٣٤٣؛ الطبري، *تاريخ*، ٥ :٥٠٢؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٤ :١٣، ١٢٩.

(٩٢) البلاذري، *أنساب*، ١ :٣٥١.

(٩٣) ابن قتيبة، *الإمامة*، ٢ :١٤؛ ابن أعثم، *الفتوح*، ٤: ١٨٣.

(٩٤) الطبري، *تاريخ*، ٥ :٥٠٢ وما بعدها.

(٩٥) الطبري، *تاريخ*، ٦ :١٥١، ١٦٢؛ فلهاوزن، *الدولة العربية*، ١٩٥.

(٩٦) اليعقوبي، *تاريخه*، ٢: ٢٧٤.

(٩٧) ابن قتيبة، *الإمامة والسياسة*، ٢ :٢٣ «موقفه من وفد العراق الذي اصطحبه أخوه إلى مكـة»؛ وانظر العلي، *العطاء في الإسلام*، ٢٢؛ بيضون، *الحجاز*، ٣١٤، ٣١٦، ٣٤٦.

(٩٨) الطبري، *تاريخ*، ٥ :١٦٣؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٤ :٤٠٥-٤٠٦.

(٩٩) ابن أبي الحيديد، *نهج البلاغة*، ١: ١٠٣؛ ٢ : ٢٢٨؛ ٣ :٣٨.

(١٠٠) فلهاوزن، *الدول العربية*، ١٣٠.

ا(١٠١) لطبري، *تاريخ* ٥ :١٦٠-١٦٤؛ فلهاوزن، *الدولة العربية*، ١٠٠.

(١٠٢) الطبري، *تـاريخ*، ٥ :١٦٠-١٦٤؛ الدنيوري، *الأخبار الطوال*، ٢١٨؛ الأصفهاني، *مقاتل الطالبين*، ٦٥؛ الذهبي، *سير أعلام النبلاء*، ٣:٧٢؛ النويري، *نهاية الأرب*، ٢٨٩ :٢٠.

(١٠٣) الطبري، *تاريخ*، ٥ :٦٧-٧١؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٣: ٣٢٩، ٣٣٠، ٣٣٣؛ فلهاوزن، *الدولة العربية*، ١٠٨. وعن العلاقة بين الأمويين والثقفيين في الطائف يحسن العودة إلى: العمد، *الجذور*، ٥٨-٦٢.

(١٠٤) الطبري، *تاريخ*، ٥ :٤٩١؛ النويري، *نهاية الأرب*، ٢٠ :٤٢؛ بيضون، *الحجاز*، ٢٢٥.

(١٠٥) الطبري، *تاريخ*، ٥: ١٣٩؛ اليعقوبي، *تاريخ*، ٢ :١٩٧؛ البلاذري، *أنساب*، ٤٥٣ (تحقيق المحمودي).

(١٠٦) المسعودي، *التنبيه*، ٢٦١؛ اليعقوبي، *تاريخ*، ٢ :٢١٦.

(١٠٧) الطبري، *تاريخ*، ٥: ١٦٤؛ اليعقوبي، *تاريخ*، ٢: ٢١٧؛ النويري، *نهاية*، ٢ :٢٨٩.

(١٠٨) انظر: الذهبي، سير، ٢ :٣٢٣-٣٢٤؛ السيوطي، *تاريخ الخلفاء*، ١٨٨؛ اليعقوبي، *تاريخ*، ٢ :٢٢٣؛ ابن عبدربه، *العقد الفريد*، ٤ :٤٠١؛ ابن طباطبا، الفخري، ١٠٠؛ أبو الفداء، *المختصر*، ١ :١٨٨.

(١٠٩) المسعودي، *مروج*، ٣ :١٧؛ البلاذري، *أنساب*، ١ :٧١٣؛ ابن عبدربه، *العقد الفريد*، ٤: ١٠٣.

(١١٠)البلاذري، *أنساب*، ١ :٧٥.

(١١١) الطبري، *تاريخ*، ٥: ١٣٩.

(١١٢) الطبري، *تاريخ*، ٥ :٤٩٨؛ الأزرقي، *أخبار مكة*، ١ :١٩٧-١٩٨؛ البلاذري، *أنساب*، ١ :٣٤٣-٣٤٥؛ فلهاوزن، الدولة العربية، ١٦٢.

(١١٣) العلي، "ملكيات الأراضي"، ٩٩٥.

(١١٤) اليعقوبي، *تاريخ*، ٢ :٢٢٢؛ السيوطي، *تاريخ الخلفاء*، ٢٠١.

(١١٥) البلاذري، *أنساب*، ١ :١١٦.

(١١٦) ابن أبي الحديد، *شرح نهج البلاغة*، ٦: ٣٢.

(١١٧) السيوطي، *تاريخ الخلفاء*، ٢٠١-٢٠٢.

(١١٨) اليعقوبي، *تاريخ*، ٢ :٢٣٤؛ التميمي، *المحن*، ١٤٦. انظر فيما سبق ص١٠.

(١١٩) التميم، *المحن*، ١٤٦.

(١٢٠) المبرد، *الكامل*، ١ :١٠٣، ١٥٤؛ ابن عبدربه، *العقد الفريد*، ٤: ١١٦؛ الأصفهاني، *الأغاني*، ٣: ١٥٠، ١٥٢، ١٥٤، ١٤ :١٢٣-١٢٤.

(١٢١) المسعودي، *مروج*، ٣: ٢٦؛ ابن عبد ربه، *العقد الفريد*، ٤: ٩٧-١٠٣.

(١٢٢) ابن سعد، *الطبقات*، ٦ :٢٢٠؛ الطبري، *تاريخ*، ٥ :٢٨٠؛ النويري، *نهاية*، ٢٠: ٣٤٠؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٣: ٢٤٢.

(١٢٣) حتى، *تاريخ العرب مطول*، ط ١٩٥٠م، ٢ :٣٠٥.

(١٢٤) انظر: خليفة، *تاريخ*، ١ :٢٤١؛ الطبري، *تاريخ*، ٥: ١٧٦، ١٧٨، ٢٢٢، ٢٢٥؛ اليعقوبي، *تاريخ*، ٢ :٢٣٢، ٢٣٥؛ الدينوري، *الأخبار اطوال*، ٢٨٠؛ النويري، *نهاية*، ٢٠ :٣٤٠؛ *الكامل*، ٣: ٢٤٢.

(١٢٥) الطبري، *تاريخ*، ٥ :٢٩٦.

(١٢٦) الطبري، *تاريخ*، ٥ :٢٩٣-٢٩٤.

(١٢٧) وهو من بيت حليف لبني عبدشمس قبل الإسلام.

(١٢٨) خليفة، *تاريخ*، ١: ٢٧٨.

(١٢٩) خليفة، *تاريخ*، ١ :٢٣٦؛ البلاذري، *أنساب (المحمودي)*، ١٥٦؛ بيضون، *الحجاز*، ٢٢٦.

(١٣٠) خليفة، *تاريخ*، ١ :٢٣٥؛ الطبري، *تاريخ*، ٥: ٢٣٢ وردت سنة ٤٩؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٣ :٤٦٠.

(١٣١) خليفة، *تاريخ*، ١ :٢٦٥؛ الطبري، *تاريخ*، ٥: ٢٩٣.

(١٣٢) الطبري، *تاريخ*، ٥ :٣٤٣.

(١٣٣) الطبري، *تاريخ*، ٥: ٣٤٣.

(١٣٤) الطبري، *تاريخ*، ٥: ٤٩٦. انظر: البلاذري، *أنساب*، ٥: ٣٠٥، ٣٥٠؛ البلاذري، *فتوح البلدان*، ٤١٤؛ اليعقوبي، *تاريخ*، ٢: ٢٥٥؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٤: ١٢٩، ٣٤٨؛ ابن خلدون، *العبر*، ٣: ٨٢؛ السيوطي، *تاريخ الخلفاء*، ١٩، ٢٧٣؛ المسعودي، *مروج الذهب*، ٣: ٨٤، ١٢٢؛ فلهاوزن، *الدولة العربية*، ١٩٣-١٩٥.

(١٣٥) البلاذري، *أنساب*، (المحمودي)، ١٦٠.

(١٣٦) اليعقوبي، *تاريخ*، ٢: ١٨٨؛ ابن أبي الحديد، *شرح نهج البلاغة*، ٢: ٤٦٦-٤٦٧.

(١٣٧) البلاذري، *أنساب*، ٤: ٨٣، ١٢٣، ١٢٧؛ الدينوري، *الأخبار الطوال*، ٢٢٥-٢٢٧؛ المسعودي، *مروج*، ٣: ٣٦-٣٨؛ ابن قتيبة، *الإمامة والسياسة*، ١٧٥، ١٩٢.

(١٣٨) فلهاوزن، *الدولة العربية*، ١٠٨.

(١٣٩) انظر ثورة ابن الزبير وتمركز ابن الزبير في مكة: الطبري، *تاريخ*، ٥: ٣٧٤، ٤٩٧، ٥٣٠؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٤: ١٤٠-١٤٥.

(١٤٠) البلاذري، *أنساب*، ١: ٥: ٤٧٩؛ الطبري، *تاريخ*، ٦: ١٢٦؛ بيضون، *الحجاز*، ١٢٩؛ وانظر: العمد، *الجذور*، ٥٨-٦٢.

(١٤١) البلاذري، *أنساب*، ١: ٥، ٤٧٩؛ الطبري، *تاريخ*، ٦: ١٢٦؛ بيضون، *الحجاز*، ١٢٩؛ وانظر: العمد، *الجذور*، ٥٨-٦٢؛ اليعقوبي: *البلدان*، ٣١١؛ ياقوت، معجم، ٤: ١٢.

(١٤٢) الطبري، *تاريخ*، ٥: ٥٦٩- ٥٨٢؛ البلاذري، *أنساب الأشراف*، ٥: ٢١٤؛ اليعقوبي، *تاريخ*، ٢: ٢٥٨، ٢٦٤؛ المسعودي، مروج، ٣: ١٠٤-١٠٧؛ الدينوري، *الأخبار الطوال*، ٣٠٦؛ بيضون، *الحجاز*، ٢٣٠.

(١٤٣) شوقي ضيف، *الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية*، ط٤ (القاهرة، ١٩٧٩م)، ١٧٥؛ أحمد أمين، *فجر الإسلام*، ١٧٠-١٩٠، نقلا عن ابن العماد الحنبلي، *شذرات الذهب*، ١٠٠؛ وابن خلكان، *وفيات الأعيان* (بيروت، ١٩٧٠م)، ٣: ٦٢.

(١٤٤) حتى، *تاريخ العربي*، ٣٠١؛ انظر: أحمد أمين، *فجر الإسلام*، ١٧٠-١٩٠؛ ضيف، *الشعر والغناء*، ١٧٦.

(١٤٥) حتى، *تاريخ العرب*، ٣٠٠؛ الأصفهاني، *الأغاني*، ١: ١٩٧.

(١٤٦) انظر فيما سيأتي *والغناء*، ٤٧ نقلا عن المسعودي، *مروج*، ٥: ٣٨٥.

(١٤٧) ضيف، *الشعر والغناء*، ٤٧.

(١٤٨) الأصفهاني، *الأغاني*، ٣: ٢٧٦.

(١٤٩) ضيف، *الشعر والغناء*، ٤٧ نقلا عن المسعودي، *مروج*، ٥: ٣٨٥.

(١٥٠) ابن سريج أهم مغن بعد ابن مسجح أصله من المدينة، انظر: ابن عبدربه، *العقد الفريد*، ٣: ٣٤٢، حيث يجعله تلميذا لطويس؛ وانظر: الأصفهاني، *الأغاني*، ١: ٢٤٩ وكذلك ١: ٢٥١، حيث يجعله مولى لعبدالله بن جعفر، وكذلك كانت مكة تطلب بعض المغنيات من المدينة، انظر: *الأغاني*، ٨: ٣٢٥.

(١٥١) الأصفهاني، *الأغاني*، ٢: ٣٢٤.

(١٥٢) الأصفهاني، *الأغاني*، ٨: ٢٢٤.

(١٥٣) ضيف، الشعر والغناء، ١٧٢؛ وانظر: ابن طباطبا، *الفخري*، ١٢٧؛ وابن عبدربه، *العقد الفريد*، ١: ١٤٥.

(١٥٤) الأصفهاني، *الأغاني*، ٧: ١٢٥، ١٣٤، ١٣٦.

(١٥٥) الأصفهاني، *الأغاني*، ٧: ١٩٧؛ وانظر: ضيف، *الشعر والفنان*، ٥٠.

(١٥٦) انظر فيما سبق من هذا البحث من هؤلاء الشعراء الفرزدق، والأخطل، والأحوص، وليلى الأخيلية. انظر: العمد، الجذور، ١٠٢.

(١٥٧) تعرض الأزرقي في *تاريخ مكة* لدور معاوية وذكر من بينها دار الشمس (الرقطاء) وسميت بذلك لأنها بنيت بالآجر الأحمر والجص الأبيض، ومنها الدار البيضاء وسميت بذلك لأنها بنيت بالجص ثم طليت به وكانت كلها بيضاء، وذكر بقية الدور بأسمائها ولم يذكر أن هناك دورا تسمى (الرقط)، انظر: الأزرقي، *أخبار مكة*، ١: ٢٣٧.

(١٥٨) يريد فيه ردم عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ذكره الأزرقي في *أخبار مكة*، ١ :٢٣٨.

(١٥٩) الأصفهاني، *الأغاني*، ٦:١٢٤؛ ٧: ٣٢، ٤٦، ٩١؛ ٩ :٢٧٤؛ ٦ :١٢٤.

(١٦٠) ابن حبيب، *المحبر*، ١٥٠؛ ضيف، *الشعر والغناء*، ١٧٠.

(١٦١) ابن قتيبة، *المعارف*، ١٦٤؛ الأزرقي، *أخبار مكة*، ١ :٢٢٧؛ ضيف، *الشعر والغناء*، ١٧٠.

(١٦٢) *المحبر*، ص ١٤٦؛ ضيف، *الشعر والغناء*، ١٧٠.

(١٦٣) الأزرقي، *أخبار مكة*، ١ :٢٣٠.

(١٦٤) مكة في *دائرة المعارف الإسلامية*.

(١٦٥) ضيف، *الشعر والغناء*، ١٧١.

(١٦٦) ابن قتيبة، *المعارف*، ١٥٩.

(١٦٧) اليعقوبي، *التاريخ*، ٢ :٢٨٣.

(١٦٨) الدينوري، *الأخبار الطوال*، ٢٨١؛ ضيف، *الشعر والغناء*، ١٧١.

(١٦٩) اليعقوبي، *التاريخ*، ١ :٣١١.

(١٧٠) الأبشيهي، *المستطرف*، ١ :١٦٢.

(١٧١) *الأصفهاني، الأغاني*، ١ :٢١١، ٢٧٨؛ ٥ :٦٦؛ ضيف، *الشعر والغناء*، ١٧٣.

(١٧٢) *الأصفهاني، الأغاني*، ١ :٢٢١-٢٥٩.

الدور التاريخي والحضاري المركزي للجزيرة العربية
في العصر الأموي : قراءة جديدة

نبيل خلدون قريسة

قسم التاريخ ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية،

منوبة ، تونس

أولاً : مقـــــدمـــة

كتب الكثير عن العصر الأموي ، وفصّل المؤرّخون المحدثون مختلف الأحداث التي شهدها ، مكتفين في ذلك بتقليد المصادر التاريخية كالطبري ، وابن الأثير ، واليعقوبي ، وخليفة بن خيّاط وغيرهم أو متّبعين كتابات المستشرقين الذين أعادوا تقسيم الأحداث إلى أطوار تتخلّلها الفتن والحروب الداخلية والخارجية ، وقدّموا لها تأويلات مختلفة اتسمت في بعض الأحيان بالتعاطف مع الأسرة الأموية وفي البعض الآخر بالميل إلى مطالب أحد الأحزاب المعارضة.

لكنّ كلّ هذه الكتابات اجتمعت على تهميش دور الجزيرة العربية في جميع المستويات تقريباً ، عدا استثناءات قليلة ارتبطت بأسماء وبأحداث معيّنة لا تشكّل في الأخير - حسب زعمهم - دوراً منتظما في أحداث العصر أو مظاهره الحضارية العامة . بل على العكس من ذلك ، عدّت الجزيرة العربية منذ انتقال عاصمة الخلافة إلى دمشق مجالا مهمّشا لا يكاد يرقى إلى مستوى أقاليم أخرى من حيث الأهمية والتأثير في سير الأحداث وبلورة الرؤى والتصورات السياسية والثقافية وغيرها .

إنّ هدفنا في هذه المداخلة هو - تحديدا - إثبات عكس هذه الادّعاءات والتأكيد على الدور الحاسم للجزيرة العربية في أحداث العصر الأموي ومظاهر الحضارية أيضاً . لكنّنا سنكتفي الآن بتقديم مجرّد مشروع لقراءة جديدة لهذا العصر ، في انتظار مزيد تعميق النظر في مختلف الإشكاليّات التي اعترضتنا .

ثانياً الإطار العام لمسألة الدور المركزي للجزيرة العربية في العصر الأموي

يبدو من الغرابة بمكان أن نتحدث عن الدور المركزي للجزيرة العربية في العصر الأموي ، نظراً إلى كون القراءات الحالية للتاريخ الإسلامي تعودّت على تقديم العصر الإسلامي المبكّر (أو صدر الإسلام) حسب تسلسل تأريخي ينتقل بنا من مجال جغرافي إلى آخر بصورة تكاد تكون منطقية خالصة لا تقبل التشكيك .

فالعرب المسلمون غادروا شبه جزيرتهم فاتحين لأنهم سئموا العيش في الصحراء وفضلوا الأراضي الخصبة المتاخمة لها في العراق والشام ومصر كما فعل أجدادهم في السابق في إطار موجات مهاجرة نحو الهلال الخصيب طوال التاريخ القديم . كذلك ، فإنّ الخلافة الراشدة كانت عاجزة بحكم طبيعتها البدوية على تسيير إمبراطورية واسعة غلبت عليها المؤثرات الحضارية الراقية للبلدان المفتوحة ، مما حتم انتقال مركز الخلافة إلى إحدى هذه المناطق الأرقى حضارياً وكذلك أوجب تطوير نظام الحكم حسب التنظيمات المحكمة للحضارات المجاورة .

حينئذ ، يقع التأكيد عادة على انتقال مركز الخلافة من الحجاز إلى العراق ثم الشام ، حيث استقر هناك في دمشق طوال العصر الأموي ، كما لو كان ارتقاء سياسياً وحضارياً حتمياً .

وبالتالي ، يلاحظ المتتبع لكتابات المستشرقين حول التاريخ العربي الإسلامي المبكّر التأكيد الدائم على تهميش الجزيرة العربية واعتبارها خارج دائرة الأحداث الكبرى في العصر الأموي ، عدا استثناء وحيد يتمثّل في ثورة ابن الزبير وبعض الأحداث المتفرقة مثل وقعة الحرّة .

ويعبّر كلود كاهن Claude Cahen عن هذه الرؤية بقوله : " لقد استبقى معاوية - بعد تولّيه الخلافة - مقرّ حكمه في دمشق بين عرب الشام المخلصين له ، وبالتالي تأكد زوال أثر الجزيرة العربية من ميدان الأحداث ، كما لو أنّها اقتصرت على أن تقدّم للإنسانية نبياً وجيشاً مقاتلا ثم عادت إلى العزلة والنسيان . بيد أنّ المدن المقدسة - مثل مكة والمدينة - ظلت محافظة على بعض أهميتها السابقة ، فقد استقرت فيها - ولو لفترة من الزمن - تلك الأسر الكبرى التي أثرت من الفتوح وانتظم الحج إليها وصار على صعيد " عالمي." لكن مركز العالم الإسلامي قد تحوّل فعلا إلى خارج الجزيرة العربية ." [١]

ومما يجدر ملاحظته هنا أن " كاهن ، " كمثل غيره من المستشرقين ، بقي متردداً بين حفاظ الجزيرة العربية على أهميتها ولو نسبياً أو فقدانها لها تماماً .

ولقد اتبع المؤرخون العرب نفس التوجه وتبنوا نفس القراءات للتاريخ الإسلامي المبكر بالرغم من بعض الاحترازات والتصحيحات التي قدموها.[٢] ولئن خصّص بعضهم دراسته للجزيرة العربية في العصر الأموي مثل إبراهيم بيضون ، فإنه لم يتمكن من التخلص من هذه الأحكام المسبقة ولو أنه جعلها أقل حدة ، إذا يقول : " انكفأ دور المدينة السياسي الذي بدأ مع النبي وبلغ ذروته في خلافة عمر. وكان ذلك في أعقاب متغيرات الفتوح الجغرافية والاقتصادية ... فلم يعد ممكنا آنذاك استمرار الحكم المركزي في الحجاز بعد تحول طاقاته البشرية أو معظمها إلى

الأمصار في نطاق هجرة استقرار دائمة ، " ثم يضيف " أما العاصمة الأولى المدينة فقد تراجعت ومعها الحجاز إلى الهامش من المحاور الرئيسية التي زحفت إلى الأمصار لا سيما العاصمة المستجدة دمشق ... وكان تحول السلطة المركزية إلى الشام من حتميات المرحلة المتمخضة عن حركة الفتوح وامتداد النفوذ العربي الإسلامي من برقة غرباً إلى ما وراء خراسان في الشرق . ولعل الشام من خلال موقعها المتوسطي أثبتت أنها أكثر كفاءة لحكم هذه الدولة الواسعة . " (٣)

إن الإشكالية الرئيسة التي طرحت هنا هي مدى صحة الادعاء بعدم كفاءة الحجاز لإدارة إمبراطورية واسعة وكذلك الادعاء بفقدان العرب للخبرة الكافية لذلك مما اضطرهم للاستعانة بسكان البلاد المفتوحة الأكثر كفاءة وتحضرا. (٤)

ومن الطريف أن تطرح هذه القضية والجميع يقر بأن الجزيرة العربية لم تكن مجرد نقطة انطلاق للبعثة المحمدية بل كانت مجالا لأول تجربة سياسية إسلامية في عهد الرسولﷺ وخلفائه الراشدين ، كما أنها كانت مصدر الرجال الذين قادوا الأحداث في البلاد المفتوحة وأداروا شؤون الدولة فيها ، وكانت أخيرا منبع الثقافة الإسلامية الناشئة التي استوطنت الأمصار ثم عادت إلى الانطلاق منها إلى آفاق أرحب.

ولكن يبدو أن المصادر العربية نفسها تسند مثل هذه القراءات المعاصرة ، بما أنها تركز بدورها على أحداث الأمصار وعلى تطور أوضاعها ، في حين أنها لا تفرد إلا فقرات قليلة ومقتضبة لأحداث الجزيرة العربية وأوضاعها ، مع اهتمام أوضح بالحجاز . غير أنه علينا ألا نغفل عن حقيقة بديهية وهي أن هذه المصادر التاريخية التي وصلتنا إنما تعود إلى إخباريين ومؤرخين عاشوا تحديدا في الأمصار وخاصة منها العراق حيث كتبوا تاريخ الإسلام المبكر في ظل العباسيين ، وحيث اتسمت مدرستهم التاريخية بالاختصاص في شؤون الفتوحات والخلفاء الأمويين والعباسيين وخصومهم من الشيعة والخوارج وغيرهم في العراق أولاً ثم في غيره من البلاد المفتوحة .

لذلك كله ، يبقى علينا اليوم أن نقوم بمجهود أكبر في مجال البحث " الهستوريوغرافي ، " أي مجال علم الكتابة التاريخية من حيث النقد المنهجي وتحليل الأبعاد التاريخية الخافية ، كي نستعيد شذرات مما بقي من أخبار الجزيرة العربية في العصر الأموي .

وفي الحقيقة ، يجب علينا أن نعود إلى الجذور الأولى التي أعطت المجتمع الإسلامي المبكر صبغته الخاصة به ، وإننا لا نجدها كما يدعي أكثر المؤرخين في التراث الشرقي المحيط بل تحديداً في طيات التاريخ العربي داخل شبه الجزيرة نفسها ، وذلك منذ آلاف السنين كما تدل عليه المكتشفات الأثرية الحديثة ، (٥) بحيث لم يعد من الممكن أن نتجاهل دورها التاريخي العريق ولا أهمية تراثها الحضاري .

وفي عهد الرسول ﷺ بالذات ، أصبحت الجزيرة العربية مجالا واسعاً لاختبار قيمة التراث السياسي والثقافي العربي من خلال التنظيمات الأولى التي أحدثها الرسول ﷺ وكيفية تقبلها في البيئة الاجتماعية العربية بما يدل على

قدرة هائلة على التطور السياسي والتأقلم الحضاري لدى العرب تدحض الزعم ببدائيتهم أو تخلفهم عن الحضارات الشرقية القديمة.[٦]

وأما الطور الأول للخلافة الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين ، فقد كان ثريا بالأحداث الدالة على القدرة الفائقة لدى العرب على التأقلم مع الأوضاع المستجدة وكفاءتهم الكبيرة في الرقي بتنظيماتهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية[٧] وليس كما يدعي البعض من أن هذه التطورات كانت ناجمة عن تأثر البدو الجفاة بالحضارة المتقدمة في البلاد المفتوحة ، فهذا زعم خاطئ لا يستند إلا إلى الوهم والأفكار المسبقة .

ومن ناحية أخرى ، كانت الجزيرة العربية حاضرة بقوة في الأذهان بل وأيضا في مستوى النماذج الفكرية والسياسية التي سار عليها أطراف النزاع حول الخلافة .

إذ نلاحظ منذ أحداث ما سمي بـ "الفتنة" الحضور الدائم لمجال الحجاز والجزيرة العربية عموما في أذهان المتنازعين على الخلافة ، مثلا في رسالة من الإمام علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) إلى معاوية بن أبي سفيان يقول فيها : " أما بعد فإن بيعتي بالمدينة لزمتك وأنت بالشام لأنه بايعني القوم الذي بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بويعوا عليه فلم يكن للشاهد أن يختار ولا للغائب أن يرد وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار ، فإذا اجتمعوا على رجل فسموه إماما كان ذلك لله رضا ، فإن خرج من أمرهم خارج بطعن أو رغبة ردوه إلى ما خرج منه ، فإن أبى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين ، وولاه الله ما تولى ويصليه جهنم وساءت مصيرا ." [٨]

كما يقول في رسالة أخرى : " من علي إلى معاوية بن صخر . أما بعد فقد أتاني كتاب امرئ ليس له نظر يهديه ولا قائد يرشده ، دعاه الهوى فأجابه وقاده فاتبعه . زعمت أنه أفسد عليك بيعتي خطيئتي في عثمان. ولعمري ما كنت إلا رجلا من المهاجرين أوردت كما أوردوا وأصدرت كما أصدروا . وما كان الله ليجمعهم على ضلالة ولا ليضربهم بالعمى وما أمرت فيلزمني خطيئة الأمر ولا قتلت فيجب علي القصاص . وأما قولك إن أهل الشام هم الحكام على أهل الحجاز فهات رجلا من قريش الشام يقبل في الشورى أو تحل له الخلافة ، فإن زعمت ذلك كذبك المهاجرون والأنصار وإلا أتيتك به من قريش الحجاز ." [٩]

وفي رواية أوردها نصر بن مزاحم يقول " لما أراد معاوية السير إلى صفين قال لعمرو بن العاص : إني قد رأيت أن نلقي إلى أهل مكة وأهل المدينة كتابا نذكر لهم فيه أمر عثمان فإما أن ندرك حاجتنا وإما أن يكف القوم عنا." [١٠]

وفي غمار معركة صفين ، تفاخر الرجال بأنسابهم فقال أحد بني طيء ممن كان مع علي من أهل العراق : " نحن طي السهل وطي الجبل ، وطي الممنوع بالنحل ونحن حماة الجبلين ما بين العذيب إلى العين ، طي الرماح وطي البطاح وفرسان الصباح ، " [١١] والأمثلة على ذلك كثيرة حتى أنه نشأ فيما بعد أدب مخصوص سمي بأدب الحنين إلى الأوطان. [١٢]

أما في مستوى النماذج السياسية ، فإن مبدأ الشورى مبدأ عربي نشأ في الجزيرة العربية ثم أخذ صورته الإسلامية في عهد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين . وقد أصبح مرادفاً في العصر الأموي لنمط الحكم الذي ابتعه عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ، حتى أن الرواة نقلوا خبر معاوية بن يزيد حين بويع بالخلافة حيث خطب قائلاً : " أما بعد ، فإني نظرت في أمركم فضعفت عنه ، فابتغيت لكم رجلاً مثل عمر بن الخطاب رحمة الله عليه حين فزع إليه أبو بكر فلم أجده ، فابتغيت لكم ستة في الشورى مثل ستة عمر فلم أجدها ، فأنتم أولى بأمركم فاختاروا له من أحببتم ." (١٣) ويضيف اليعقوبي أن مروان بن الحكم أجابه بقوله : " سنّها فينا عمريّة ، قال : ما كنت أتقلدكم حياً وميتاً ، ومتى صار يزيد بن معاوية(كذا !) مثل عمر ، ومن لي برجل مثل رجال عمر ؟ " (١٤)

ونجد هذا المبدأ يتكرر مع عدد من أطراف النزاع حول الخلافة ، حيث دعا مطرف بن المغيرة بن شعبة الخوارج سنة ٧٧هـ إلى مساندة ثورته بقوله : " فإني أدعوكم إلى أن نقاتل هؤلاء الظلمة العاصين على إحداثهم الذين أحدثوا ، وأن ندعوهم إلى كتاب الله وسنة نبيه ، وأن يكون هذا الأمر شورى بين المسلمين يؤمرون عليهم من يرضون لأنفسهم على مثل الحال التي تركهم عليها عمر بن الخطاب ، فإن العرب إذا علمت أن ما يراد بالشورى الرضا من قريش رضوا وكثر تبعكم منهم وأعوانكم على عدوكم وتم لكم هذا الأمر الذي تريدون ." (١٥)

وقد كان لزاماً على بني أمية العمل بالشورى لتوليف قلوب العرب حول خلافتهم ، وإن أصبحت مجالس الشورى في بعض الفترات صورية. (١٦)

وفي المقابل ، فإن شرعية الخلافة لم تكن أبداً في العصر الأموي محل اتفاق حتى داخل البيت الأموي ، بل كان هناك تردد دائم نجد علامته البارزة في موقف أهل الشام من خلافة ابن الزبير وكذلك من الصراعات داخل البيت المرواني خاصة في أواخر العصر الأموي . (١٧)

كما لم يقع الاتفاق على نهج معين في ولاية العهد ، إذ كانت تارة للإبن وتارة أخرى للأخ أو غيره من الأقارب . ويبدو أن مروان بن الحكم وابنه عبد الملك هما اللذان أكدا على خلافة الأبناء ونجح عبد الملك في فرض ذلك بالقوة اعتماداً على إخلاص الحجاج بن يوسف الثقفي . ولكن البناء من بعد الحجاج تخلخل وعادت الأسرة المروانية إلى الاختلاف والتنازع على السلطة ، مما نتج عنه انهيار دولتهم وزوال خلافتهم .

إن في هذه الاختلافات لدلالة على أن نظام الخلافة الأموية كما تشكل مع معاوية وتطور في العهد المرواني في اتجاه مركزية مطلقة بقي محل جدل نظري طوال العصر الأموي ، ليس فقط لدى المعارضة بل وأيضاً لدى الأمويين أنفسهم . ذلك أن العرب كانوا ينبذون الحكم الإستبدادي ويفضلون النظام القبلي الذي هو نظام اجتماعي متوازن عرفته كل الشعوب منذ ما قبل التاريخ ، والذي يسمح بالمشاركة الواسعة في الحياة السياسية ، مع العلم أن القبلية لا تعني بالضرورة البداوة وهي بالتالي ليست ضد التحضر كما يعتقد عادة. (١٨)

بل إن مبادئ الإسلام السامية وتوقعه إلى العدالة زادهم تشبثاً بهذه الرؤية ، مما ينفي الادعاء الذي نجده عند أكثر المؤرخين بتناقض القبلية والإسلام وتصادمهما في المطلق . وإنما الإسلام نفى العصبية الدموية وأحقاد الجاهلية ولم يتعرض قط للنظام القبلي .

وفي الحقيقة ، لن يتكرّس النموذج الأموي الذي أسسه معاوية ودعمه مروان بشكل نهائي في تاريخ الإسلام إلا في العصر العباسي حيث أقدم العباسيون على وضع أيديهم بسرعة على الحجاز والقضاء على من وصل إليه من بني أمية وغيرهم من الخصوم ،(١٩) كما اتخذوا عاصمة خارج الجزيرة العربية وفي نفس الوقت على أحد أطرافها لإحكام السيطرة على القبائل العربية وعلى طرق الحج والمسالك المؤدية إلى الحجاز ،(٢٠) وأخيراً حرصوا على الإشراف بأنفسهم على مناسك الحج تدعيماً لشرعيتهم الدينية مع التأكيد على هاشميتهم أي قرابتهم من الرسول ﷺ .(٢١)

ثالثاً : موقع الجزيرة العربية من خارطة الأحداث السياسية في العصر الأموي

لم تكن الجزيرة العربية بمعزل عن الأحداث التي هزّت الدولة الأموية ولم تكن أيضاً على هامش الخارطة السياسية الأموية كما يعتقد المؤرخون المحدثون ، بل بالعكس فقد بقيت في المركز كما كانت منذ بدء التاريخ الإسلامي وذلك بحكم مركزية شعائر الحج في حياة المسلمين مهما ابتعدوا عن الحجاز في أقاصي الأرض .

ولقد حرص خلفاء بني أمية بالفعل على أن تكون مواكب الحج دالة على سلطتهم في الحجاز وعلى شرعية خلافتهم .

فقد ولّى معاوية على الحج عتبة بن أبي سفيان بن حرب سنتي ٤١ و ٤٦هـ ،(٢٢) وعنبسة بن أبي سفيان بن حرب سنتي ٤٢ و ٤٧هـ (٢٣) ثم تولاّه مروان بن الحكم سنتي ٤٣ و ٤٥هـ ثم سنتي ٥٤ و٥٥هـ في ولايته الثانية.(٢٤) ثم حجّ بالناس سعيد بن العاص سنتين متتاليتين بعد أن ولاّه معاوية المدينة وعزل عنها مروان بن الحكم سنة ٤٨هـ ثم أقامه أيضا سنتي ٥٢ و ٥٣هـ.(٢٥) وفي سنة ٥٦هـ أقامه الوليد بن عتبة بن أبي سفيان الذي ولاّه المدينة بعد عزل مروان بن الحكم مرة ثانية سنة ٥٧هـ . وبقي الوليد مقيماً للحج إلى وفاة معاوية سنة ٥٩هـ .(٢٦) وكل هؤلاء كانوا من وجوه قريش وتحديداً من بني أمية . كما أقام معاوية الحج بنفسه أو أرسل ولي عهده يزيد في السنوات ٤٤ ، و ٥٠ و ٥١.(٢٧)

ولقد كان كل حزب من الأحزاب المتنافسة على الخلافة في العصر الأموي يحرص على إقامة الحج بالناس ، وقد يجتمع أئمة الأحزاب جميعاً يوم عرفة ولكنهم يمتنعون عن القتال حفاظاً على شرعيتهم أمام المسلمين مثلما حصل عند منازعة معاوية الإمام علي (كرم الله وجهه) أمر الخلافة في حج سنة ٣٩هـ ،(٢٨) وخاصة عندما اشتد

التنافس بين بني أمية وعبد الله بن الزبير والخوارج والشيعة في أيام عبد الملك بن مروان حيث اجتمعت أربعة ألوية للحج يوم عرفة من حج سنة ٦٨هـ ثم افترقت في سلام.[٢٩]

وبما أن الصراع السياسي حول الخلافة اتخذ من القرابة إلى الرسول ﷺ أو القرب منه علامة بارزة لكسب الشرعية السياسية ، فقد أكد بنو أمية دوما على قرشيتهم وسعوا جاهدين إلى السيطرة على الأوضاع في الحجاز موطنهم الأول وتثبيت سلطتهم فيه بكل الوسائل ، بداية من وضع أيديهم على المشاعر المقدسة في مكة والمدينة ثم ضم الطائف إلى حلفهم .

فعندما نازع معاوية الإمام علي (كرم الله وجهه) الخلافة أرسل سنة ٣٩هـ جموعا من العساكر تغير على أطراف الجزيرة العربية لتقطعها عنه وتضمها إليه بالقوة ،[٣٠] ثم سارع سنة أربعين عقب التحكيم - وبالرغم من إصرار الإمام علي (كرم الله وجهه) على محافظته على شرعية خلافته - بإرسال بسر بن أبي أرطأة في ثلاثة آلاف مقاتل لافتكاك الحجاز واليمن وفرض قرار الحكومة بتوليه خليفة جديد هو معاوية ، مستعملا أقصى وسائل القوة والتهديد.[٣١]

ولقد كان الخوارج يدعون إلى محاربة خصومهم بقولهم : " إن في جهاد أهل القبلة الفضل والأجر ، "[٣٢] مما يعني اعتبارهم للأصل الحجازي لخصومهم قبل غيره من الاعتبارات .

وعندما قتل الحسين في كربلاء سنة إحدى وستين ، أظهر عبد الله بن الزبير البيعة في مكة فبايعه الناس ثم تبعهم أهل المدينة ثم أهل الأمصار البصرة ثم الكوفة والفسطاط وأغلب أهل الشام[٣٣] حتى قال فيه العباس بن سهل : " إنه لم يبق حي من أحياء العرب إلا وقد جاء عميدهم وبايع هذا الرجل عبد الله ابن الزبير."[٣٤] وقد كان هذا النجاح دافعا لبني أمية كي يحرصوا على التخلص من المعارضة الحجازية بسرعة وباستعمال كل ما في حوزتهم من القوة ، فكانت معركة مرج راهط الدموية ثم دخول مروان بن الحكم مصر وبعدها دخول عبد الملك العراق لقطع كل احتمالات المدد عن ابن الزبير ، وانتهاء بتسيير الحجاج على رأس جيش كبير إلى الحجاز فقضى بذلك على الثورة سنة ٧٣هـ بعد حصار خانق ورمي بالمنجنيق على الحرم المقدس وربما إسراف في القتل والتمثيل.[٣٥]

كما تبرز هذه الأهمية القصوى للحجاز من خلال بقائه تابعا بصفة مباشرة إلى الخليفة في الشام بحيث لم يكن له ولا لولاته مثل استقلالية العراق ومصر وولاتهما ،[٣٦] بل كان الخليفة الأموي يتولى بنفسه مراقبة الأمور فيه خاصة بمناسبة موسم الحج .

وقد انتدب خلفاء بني أمية عددا من الحجازيين لمهام كبرى وقربوهم إليهم واستأمنوهم على أسرارهم ، حتى اشتهرت بذلك أسر حجازية خاصة من الطائف مثل آل الحجاج بن يوسف الثقفي ، أبنائه وحفدته وأقربائه.[٣٧]

كما كان اختيار الولاة على الحجاز في غاية الدقة ، حيث كان عليهم طاعة الخليفة ومشورته في كل أمر مع ضرورة أن يتسموا خاصة بالحزم والدهاء وأن يتمتعوا في غالب الأحيان بالمكانة المرموقة في قريش مثل مروان بن الحكم وعمر بن عبد العزيز ، وهو ما أعطاهم تأثيرا مميزا في الواقع السياسي بالجزيرة العربية وحتى خارجها .

فقد ولي مروان بن الحكم مرتين على المدينة وكذلك سعيد بن العاص ، وكان معاوية حريصا على دفعهما إلى التشدد حتى أنه امتحن كلاهما بأخذ أموال الآخر. (٣٨) وولى معاوية عبد الرحمن بن خالد بن العاص ابن هشام بن المغيرة على مكة سنة أربعين قبل أن يجمعها والمدينة والطائف لمروان بن الحكم. (٣٩) ولقد تعاظم دور مروان خاصة في أيام يزيد بن معاوية حين حاصر أهل المدينة بني أمية في داره قبل أن يطردوهم منها ، (٤٠) وهكذا أصبح يمثل أحد أبرز وجوه بني أمية حتى رشحه بعضهم لخلافة معاوية ، (٤١) ثم تولاها بالفعل بعد وفاة معاوية بن يزيد وافتراق الناس وإعلان بيعة ابن الزبير فعادت معه السلطة إلى بني أمية بعد أن كادت تفلت منهم. (٤٢)

وعندما ولي عمر بن عبد العزيز الحجاز ، شذ عن القاعدة الأموية فقرب إليه عشرة من وجوه المدينة وكون بذلك مجلس شورى حقيقيا وقال لهم : " إني إنما دعوتكم لأمر تؤجرون عليه وتكونون فيه أعوانا على الحق ، ما أريد أن أقطع أمرا إلا برأيكم أو برأي من حضر منكم ، فإن رأيتم أحدا يتعدى أو بلغكم عن عامل لي ظلامة فأحرج الله على من بلغه ذلك إلا بلغني، " (٤٣) كما انتقد سياسة ا لحجاج في العراق وألجأ إليه الفارين منه فحنق عليه الحجاج وعين الوليد بن عبد الملك خالد بن عبد الله القسري على مكة والطائف فلم يبق لابن عبد العزيز إلا المدينة ثم عزله عنها الوليد أخيرا سنة ٩٣هـ. (٤٤)

ولقد كانت مدن الحجاز الثلاث مجالا لاختبار الولاة الذين سيتولون أصعب المهام ، حتى قال بعضهم : " كان معاوية إذا أراد أن يولي رجلا من بني حرب ولاه الطائف ، فإن رأى منه خيرا وما يعجبه ولاه مكة ، فإن أحسن الولاية وقام بما ولي قياما حسنا جمع له معهما المدينة ، فكان إذا ولى الطائف رجلا قيل هو في أبي جاد (أي في أول الأمر) ، فإذا ولاه مكة قيل هو في القرآن ، فإذا ولاه المدينة قيل هو قد حذق." (٤٥)

ولقد بدأ الحجاج بن يوسف الثقفي حياته السياسية بولاية الحجاز بعد قضائه على ثورة ابن الزبير قبل أن يوليه عبد الملك بن مروان العراق سنة ٧٥هـ. (٤٦) وكذلك ولي خالد بن عبد الله بن يزيد بن أسد القسري على مكة سنة ٨٩هـ ثم عزله سليمان وسجنه سنة ٩٦هـ، وفي سنة ١٠٦هـ ولاه هشام بن عبد الملك العراق فسار فيه بسيرة الحجاج. (٤٧) ثم خلفه سنة ١٢٠هـ يوسف بن عمر الثقفي الذي كان أميرا على اليمن. (٤٨)

كما أن الشدة التي عامل بها بنو أمية منذ وقت مبكر كل التطورات السياسية في الحجاز مهما صغر حجمها (٤٩) كانت نموذجا للعنف الذي سيواجه به قوادهم ولاتهم بعدئذ المعارضات والثورات في العراق والمشرق والتي لم تؤخذ بنفس الحزم إلا في العهد المرواني وخاصة على يدي الحجاج .

فبسر بن أبي أرطأة الذي أرسله معاوية إلى الحجاز دخل المدينة وأعلن دون مقدمات : " يا أهل المدينة ، والله لولا ما عهد إلي معاوية ما تركت بها محتلما إلا قتلته ، " وفرض المبايعة لمعاوية قهرا في كامل الحجاز واليمن [٥٠] قبل أن يرسله إلى العراق في مهمة مماثلة فدخل البصرة وخطب قائلا : " نشدت الله رجلا علم أني صادق إلا صدقني أو كاذب إلا كذبني ، " فلما أجابه أحدهم بقوله : " اللهم إنا لا نعلمك إلا كاذبا " أمر به فخنق فكاد أن يقتل [٥١] . ثم أخذ أكابر أبناء الوالي السابق ، وقد ولاه الحسن (رضي الله عنه) قبل تخليه عن الخلافة ، فحبسهم وهدده بقتلهم إن لم يأت لملاقاة معاوية وتأدية ما عنده من المال. [٥٢]

ثم تولى بسر بعد ذلك قيادة الغزوات على بلاد الروم ، [٥٣] في حين اختار معاوية للبصرة عبد الله بن عامر. لكنه سرعان ما عزله سنة ٤٤هـ لأنه " كان رجلا لينا كريما لا يأخذ على أيدي السفهاء ففسدت البصرة بسبب ذلك أيام عمله بها لمعاوية ، " [٥٤] وولى مكانه زياد بن أبي سفيان (الملقب بابن أبيه) ، [٥٥] فأول ما خطب في الناس قال : " حرم علي الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدما وإحراقا . إني رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله ، لين في غير ضعف وشدة في غير جبرية وعنف . وأني أقسم بالله لأخذن الولي بالولي والمقيم بالضاعن والمقبل بالمدبر والصحيح منكم بالسقيم حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول : أنج سعد فقد هلك سعيد ، أو تستقيم لي قناتكم ، " [٥٦] فخافه أهل البصرة ، وهم لم يتعودوا على مثل ما جاء به من الشدة والحزم ، فاستقام له الأمر فعلا بما أعجب معاوية فألحق بولايته الكوفة وخراسان وسجستان والهند ثم البحرين وعمان. [٥٧]

واستقدم زياد من المدينة سمرة بن جندب وأمره على حرسه فاشتهر بالإسراف في القتل حتى قيل إنه لما كان في طريقه إلى العراق مرورا بنجد جرح رجلا من بني أسد جرحا قاتلا ، فقال : " إذا سمعتم بنا قد ركبنا فاتقوا أسنتنا ، " وسأل أحدهم عنه " هل كان سمرة قتل أحدا ؟ " فقيل له : " وهل يحصى من قتل سمرة بن جندب ؟ استخلفه زياد على البصرة وأتى الكوفة فجاء وقد قتل ثمانية آلاف من الناس ، فقال له : هل تخاف أن تكون قد قتلت أحدا بريئا ؟ قال : لو قتلت إليهم مثلهم ما خشيت أو كما قال." [٥٨]

وإنما أراد معاوية التشدد مع أهل العراق بمثل ما كان يفعل مع أهل الحجاز بحكم تعدد ثورات الخوارج الذين اتخذوا من منطقة البصرة وشرقي الجزيرة العربية قاعدة لهم . كما أن الشيعة عادوا إلى التحرك في العراق فقتل قادتهم وعلى رأسهم حجر بن عدي سنة ٥١هـ قبل أن يستفحل أمرهم ، [٥٩] وكان زياد بن أبيه وراء ذلك بعد أن سالمهم الوالي السابق المغيرة بن شعبة ، [٦٠] وفي الحقيقة كان مقتل حجر أكبر أخطاء معاوية في آخر عهده . [٦١]

وينقل الطبري عن بعض الرواة أن زيادا أراد أن يضم له معاوية بقية الجزيرة العربية لكنه مات سنة ٥٣هـ قبل أن يتم له ذلك. [٦٢]

ولما حضر معاوية الموت أوصى لابنه يزيد الذي كان قد أخذ له البيعة من قبل بأن " انظر أهل الحجاز فإنهم أصلك فأكرم من قدم عليك منهم وتعاهد من غاب . " [٦٣] ولكن ذلك لم يثن يزيد عن محاربة أهل الحجاز ممن

رفض بيعته وأعلن ولاءه لعبد الله بن الزبير ، فسير جيشا بقيادة مسلم بن عقبة المري وقال له : "فإن تقاربت من المدينة فاجعل طريقك عليها ، فإن كان أهل المدينة قتلوا أحدا من بني أمية فادخلها بالسيف وأرق الدماء فيها ثلاثة أيام ثم سر بعد ذلك إلى مكة ، وإن لم يكن أهل المدينة قتلوا أحدا فلا تتعرض لهم إلا بكل خير." (٦٤) فكانت وقعة الحرة (حرة واقم) سنة ٦٣هـ واستباحة المدينة (٦٥) سابقة خطيرة ستتكرر فيما بعد في الكوفة والبصرة وحتى في مكة التي حاصرها الحجاج ثم دخلها سنة ٧٣هـ وأعمل السيف في أتباع ابن الزبير.

وكان في ولاية خالد القسري لمكة بعد القضاء على ثورة ابن الزبير تقليص لنفوذ عمر بن عبد العزيز وفرصة كي يبين مقدرته على التصرف بشدة في الأمور فألزم أهلها الطاعة باستعمال القوة والتهديد وخطب فيهم : " يأيها الناس ، إنكم بأعظم بلاد الله حرمة ، وهي التي اختار الله من البلدان فوضع بها بيته ثم كتب على عباده حجه من استطاع إليه سبيلا . أيها الناس ، فعليكم بالطاعة ولزوم الجماعة وإياكم والشبهات فإني والله ما أوتى بأحد يطعن على إمامه إلا صلبته في الحرم." (٦٦) وعندما ولاه هشام بن عبد الملك العراق سار خالد فيه بسيرة الحجاج وبما عهد عليه في الحجاز من الشدة. (٦٧)

ولقد كانت الجزيرة العربية هي القاعدة الرئيسة لأخطر الثورات في حين كان العراق ساحتها ، حيث اجتمعت فيه الأعداد من المقاتلة العرب ، وهو ما أقر به معاوية في وصيته لابنه يزيد حين قال : " وانظر أهل العراق فإن سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملا فافعل ، فإن عزل عامل أحب إلي من أن تشهر عليك مائة ألف سيف."

وقد انطلقت أبرز القيادات المعارضة من الحجاز واليمامة والبحرين مثل الحسن والحسين (رضي الله عنهما) والمختار بن أبي عبيد الثقفي ، قائد أخطر ثورة شيعية ، وقيادات الخوارج مثل الخطيم الباهلي الذي سيره زياد بن أبيه إلى بلاد البحرين حيث فرض عليه الإقامة الجبرية ثم حين خرج عن طوعه قتله وألقى به إلى أهله هناك ، (٦٨) وخاصة قادة الأزارقة من بني حنيفة الذين اتخذوا من بلدهم الثري اقتصاديا والكثيف ديمغرافيا - اليمامة - قاعدة وملجأ ، كما سيطروا على اليمن وحاولوا التقرب من ابن الزبير والدفاع معه عن مكة ضد جنود يزيد بن معاوية ، ثم عبد الملك بن مروان لكنهم اختلفوا معه فرحلوا إلى العراق حيث كثفوا عملياتهم العسكرية واحتلوا المنطقة الشرقية للجزيرة العربية ومنها دخلوا فارس وكرمان والأهواز. (٦٩)

وكذلك التجأت قيادات المعارضة إلى الجزيرة العربية عند الفشل مثل التجاء ثوار العراق إلى عمر ابن عبد العزيز في المدينة مما تسبب في عزله كما رأينا ، ومثلما لجأ أتباع ابن الأشعث إلى الحجاز سنة ٨٣هـ فرارا من الحجاج ، (٧٠) وكذلك لجأ الثوار الخوارج في فترات مختلفة إلى اليمامة واليمن والبحرين وعمان. (٧١) وهكذا ، أصبحت من ثوابت السياسة الأموية في الحجاز طرد الجماعات المهاجرة إليه من الخوارج بالخصوص ومنع استقرارهم به ، حتى أن عثمان بن حيان المري هدد أهل المدينة حين ولاه إياها الوليد بن عبد الملك خلفا لعمر بن عبد العزيز سنة ٩٣هـ بقوله : " وإني والله لا أوتى بأحد آوى أحدا منهم (أي أهل العراق) أو أكراه منزلا ولا

أنزله إلا هدمت منزله وأنزلت به ما هو أهله ." [٧٢] وتعني هذه الإجراءات التعسفية - وإن هي لم تنجح دوما في بلوغ أهدافها - وجود رابطة عضوية في تصور الأمويين بين الأهداف السياسية والتصرف في الأوضاع الاجتماعية .

رابعا : دور الجزيرة العربية الاجتماعي والاقتصادي في العصر الأموي

الجزيرة العربية هي موطن العرب الأصلي وفي نفس الوقت مجال التنظيمات الاجتماعية العربية المبنية أساسا على شبكات الأنساب التي لم تتغير كثيرا منذ مئات السنين قبل البعثة المحمدية وإن يبدو أن بعضها قد وقع إعادة تشكيله أو تلفيقه في عهود مختلفة وحسب مصالح وأهواء متفاوتة ، ولكن لا مجال - في نظري - إلى الشك فيها جملة وتفصيلا كما يدعي أغلب المستشرقين .

ويلمح المتمعن في خارطة الدولة الإسلامية في القرن الأول للهجرة بيسر توزع الأمصار الإسلامية على أطراف الجزيرة العربية على حدود الأنهار مثل البصرة والكوفة والجابية (والفسطاط أيضا وإن كانت أبعد خارج بلاد العرب) . وتذكر المصادر كما نعلم حرص عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) على ألا يفصل الفاتحين عن عاصمة الخلافة أي نهر أو بحر ، والحقيقة أن العرب كانوا يعدون أنفسهم أثناء الفتوح الأولى متصلين بقواعدهم الأصلية في الجزيرة العربية . كما أن عواصم الخلافة التي يظن المؤرخون أنها انتقلت إلى خارج الجزيرة العربية إنما كانت تعد لدى العرب على أطرافها مثل الكوفة ودمشق ثم الحيرة والأنبار في بداية العصر العباسي . وهي في الواقع كانت دوما تشرف على طرق الحج الرئيسة وتسمح بالسيطرة على الحجاز مباشرة .

ولقد سعى بنو أمية إلى التصرف الذكي في المسألة الديمغرافية والاجتماعية عموما بحيث تخدم قضيتهم السياسية في مواجهة خصومهم في كل الولايات . فلقد فرضوا على العراق قبول الهجرات الجديدة من الجزيرة العربية وخاصة من أواسطها وشرقيها.[٧٣] ولا يمكن تفسير الفائض الديمغرافي في العراق الذي اضطر ولاته في كل مرة إلى نقل أعداد منه إلى الأقاليم الشرقية للخلافة غلا بتواصل الهجرة إليه من الجزيرة العربية بتيسير وتوجيه من الأمويين.[٧٤] .وقد فرض معاوية على قيسية الجزيرة العراقية (جزيرة ابن عمر) قبول موجات جديدة من أبناء عمومتهم ، مما أغضبهم ومهد لثورتهم فيما بعد.[٧٥]

وفي المقابل ، كان بنو أمية حريصين على منع الهجرة إلى الشام أو على الأقل على الحد منها [٧٦] والاستعاضة عنها بسياسة إسكان للفرس ولليهود في المناطق الخالية أو ضعيفة السكن مثل السواحل ،[٧٧] وهكذا بقي أهل الشام من العرب في أعداد محدودة وتمتعوا بمختلف الامتيازات التي جعلتهم أيسر عيشا من غيرهم من العرب الفاتحين والمستوطنين بالأمصار . وبذلك ، حافظ بنو أمية على تكتل الشاميين وولائهم التام لهم .

ويبدو ، بالخصوص ، أن الأمويين حاولوا السيطرة على الأوضاع الاجتماعية داخل الجزيرة العربية من خلال التشجيع على الهجرة خارجها وخاصة نقل المهاجرين الجدد إلى أبعد الأماكن الممكنة عنها في أقاصي المشرق والمغرب .

وبفضل هذه السياسة أمكن لهم التخلص من أعداد كبيرة من الذين كانوا سيمثلون عائقا دون تملكهم التام للمجال الجزيري وقد أصبحوا ضحايا السياسة الاقتصادية التي تستهدفه كما سنرى ،[٧٨] فهجروا جماعات من داخل الجزيرة العربية ومنعوا جماعات أخرى من الاستقرار بها . فهذا سعيد بن عثمان بن عفان قد ولاه معاوية على خراسان سنة ٥٦هـ وقد " كان قوم من الأعراب يقطعون الطريق على الحاج ببطن فلج فقيل لسعيد : إن ها هنا قوما يقطعون الطريق على الحاج ويخيفون السبيل فلو أخرجتهم معك ، قال فأخرج قوما من بني تميم." [٧٩]

كما ضموا إلى ولاية العراق المنطقة الشرقية للجزيرة العربية ، بما فيها اليمامة والبحرين إلى حدود عمان حتى يتم القضاء نهائيا على ثورات القبائل فيها التي تشكل أخطر التهديدات في العراق والحجاز وغيرها من الأقاليم المجاورة.[٨٠] واتخذ بعض ولاة المروانية بالعراق من الحيرة الواقعة على أطراف الجزيرة العربية مركزا بديلا عن الكوفة والبصرة وواسط لمقاومة ثورات العراق ومراقبة أوضاع القبائل العربية المجاورة التي يخشى أن تسند هذه الثورات وتساعد على امتدادها إلى داخل الجزيرة العربية.[٨١]

ولكن ، يبدو أن عمان هي التي ستعصى على السلطة الأموية السيطرة عليها فأصبحت في الأخير ملجأ للمعارضين من الخوارج.[٨٢]

وعلينا ألا نتصور أن الجزيرة العربية أفرغت تماما من سكانها بفعل حركة الفتوح وانتقال أعداد كبيرة من سكانها إلى البلاد المفتوحة وخاصة إلى العراق ،[٨٣] لأن الواقع الديمغرافي كان ، فيما يبدو ، مختلفا عما نتصوره اليوم .

فلقد عرفت الجزيرة العربية نموا ديمغرافيا كبيرا بداية من القرن الثاني أو الأول قبل الهجرة / الخامس أو السادس ميلادية ، وقد يكون ذلك ناتجا عن تحسن في الأوضاع المعيشية العامة للعرب في الحواضر القليلة وخاصة في البوادي بفضل التجارة القرشية وحركية الأسواق الموزعة على أنحاء مختلفة من بلاد العرب ،[٨٤] وكذلك من خلال التحسن النسبي للأوضاع المناخية والذي سيتواصل إلى بداية العصر العباسي قبل أن تبدأ فترة جديدة من الجفاف الشديد.[٨٥] لذلك فإن هجرة العرب إلى الهلال الخصيب لم تكن دوما مرتبطة بالجفاف والتصحر بما أن العربي يحسن التكيف معهما بامتياز ،[٨٦] بل كانت مرتبطة بالخصوص بانخرام توازنات اقتصادية أو سياسية مكتسبة في السابق ، وهو ما نراه بوضوح في العصر الأموي حيث عملت الدولة على الضغط على القبائل التي قد تهدد سيطرتها على الحجاز .

ويكفي للاستدلال على ذلك أن نلاحظ أن عام الرمادة - وهو عام ١٨هـ في أيام عمر بن الخطاب - شهد مجاعة عقبها طاعون عمواس الشهير حيث توفي عدد كبير من الناس في الشام وشمال الجزيرة العربية ، لكنه لم يتسبب في موجات هجرة جماعية ، بل نرى المصادر ، مثل الطبري ، تركز على الاستسقاء وعودة المطر والخير إلى الأرض والعباد بعد طول انتظار.(٨٧) كما عرف العصر الأموي طاعونا مماثلا لم يحدث أي تأثير خاص في الأحداث.(٨٨)

ويبدو أن الجزيرة العربية حافظت على تماسك الروابط الاجتماعية داخلها إلى نهاية القرن الأول للهجرة ، على الأقل ، كما يدل عليه انتظام الهجرات إلى الأمصار في العراق ومصر وأفريقية والبلاد المفتوحة شرقا وغربا طوال العصر الأموي وخاصة اندماج المهاجرين السريع في البيئات الحضرية الجديدة على أساس القرابات النسبية كروادف عشائرية متميزة اجتماعيا بالرغم من اختلاطها الظاهري .

وبالرغم من انعدام وجود دراسات معمقة حول علاقات الجماعات المهاجرة بمجتمعاتها الأصلية في داخل الجزيرة العربية - مما أوهم البعض بأن هذه الهجرات العسكرية المنظمة من قبل الدولة أحدثت تفريغا ديمغرافيا للجزيرة العربية - فإن بعض النصوص المتفرقة تشير إلى تواصل الروابط السياسية والاجتماعية والثقافية و - بصورة أقل - الاقتصادية فيما بينها .

فعلى سبيل المثال ، عندما قامت ثورة الأزارقة اتخذت من اليمامة مركزا لها على أساس الأصول الحنفية لبعض قادتها . كما ارتبط عدد من القادة الخوارج بأهاليهم في المنطقة الشرقية في نفس الوقت الذي اتخذوا من العراق مجال تحرك سياسي وقتالي . ولقد مثلت عمان امتدادا لولاء أزد عمان للأمويين في العراق ، فامتنعت عن الخوارج ردهة من الزمن ، ثم حينما استقروا بها عسر على الأمويين استعادتها بعد أن تحولت سياستهم من دعم اليمانية إلى دعم القيسية .

كذلك ، فإن الحجاز حافظ على استقرار القيادات الشيعية بمدنه وخاصة في مكة إلى العصر العباسي . وفي كل مرة ، تنطلق منه هذه القيادات لتنظيم الثورات في الأمصار ضد الأمويين . ولكنها لم تكن لتتخذ من الحجاز مقرا دائما تماما مثلما فعل الخلفاء الأمويون أنفسهم ، ليس لكونه أصبح مهمشا أو ضعيفا ديمغرافيا أو اقتصاديا ، وإنما لكون أفضل القوات المقاتلة التي يمكن أن تكون دعامة للطموحات السياسية أصبحت مستقرة في الأمصار .

كما أن الأسرة الأموية نفسها حافظت على مركزها الاجتماعي الكبير في الحجاز بل سعت إلى تدعيمه ، مما يعني أيضا حفاظ الحجاز على مركزيته الاجتماعية . وقد تدعم الوجود الأموي في الحجاز من خلال مشاريع كبرى للاستثمار في الزراعة والبناء والتجارة . وقد استقر بنو أمية وأتباعهم ومواليهم في القصور أو الدور الفخمة الواسعة في المدينة والطائف بالخصوص ، وحرصوا على إبراز ثرائهم ونفوذهم وتكريس سلطتهم السياسية والدينية في العهد

المرواني بالخصوص من خلال إعادة بناء مسجد الرسول ﷺ في المدينة في أفخم هيئة. كما تعددت هباتهم وإقطاعاتهم لأتباعهم ومواليهم بالحجاز.[٨٩]

لقد كانت الجزيرة العربية في نهاية عهد الخلفاء الراشدين مركز شبكة اقتصادية في غاية الحيوية مرتكزة أساسا على ما أنشأه عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) من الدواوين حول بيت مال المسلمين حيث تجمع أموال الزكاة والصدقة والغنائم وعائدات البلاد المفتوحة من خراج وجزية قبل توزيعها على مستحقيها من السابقة في الإسلام وأهل الأيام إلى جانب آل الرسول ﷺ .[٩٠] كما أضاف عمر (رضي الله عنه) موردا استراتيجيا لأهل الحجاز وهو الحبوب التي أمر بجلبها مباشرة من مصر كل عام بعد أن كانت الطائف واليمامة مصدرها الرئيس . وساعد أيضا على تنمية موارد البدو حتى تتكافأ ظروف العيش في الحواضر والبوادي ويتم بذلك تثبيت البدو في مراعيهم ومنعهم من دخول المدن إلا عند الحاجة إليهم في الحرب ، ليس احتقارا لهم - كما يظن عادة - بل حفاظا على التوازنات الاجتماعية والاقتصادية.[٩١]

وهكذا أصبح الحجاز في عصر عثمان بن عفان (رضي الله عنه) سوقا تجارية كبيرة لاستهلاك موارد البلاد المفتوحة وشتى التجارات وأيضا - بفضل تشجيعات الخليفة الجديد - مركزا لجمع الثروات والاستثمار في العقارات المتنوعة وخاصة منها الأرض الزراعية في الحجاز بل وفي الأمصار أيضا بفضل إجراء أقدم عليه الخليفة ، حيث سمح بمبادلة ملكيات الحجاز بملكيات جديدة في الأمصار وخاصة في منطقة السواد وقد كانت من قبل فيئا منع عمر (رضي الله عنه) تصرف الأفراد فيه.[٩٢] وبذلك ظهرت الثروات الضخمة والملكيات الزراعية الكبرى ونما الاستثمار في الزراعة وتكثف استعمال العبيد فيها وتنامي دور بيت المال في هذا المجال من خلال توسيع الأحماء مثل حمى الربذة وحمى ضرية وغيرها قرب المدينة وفي قلب نجد . ولئن ساعد تناقص الكثافة السكانية في الجزيرة العربية بفعل الهجرات المتكررة على توسعة مجالات استثمار الدولة ، فإن أكبر المستفيدين كانوا الأفراد من الصحابة ومن أثرياء قريش والمدينة.[٩٣] وبذلك تهيأت الظروف لكي يصبح الحجاز قطبا اقتصاديا هاما ينعم بالاستقلالية الاقتصادية .

غير أن أول إجراء أقدم عليه معاوية بن أبي سفيان عندما تولى الخلافة ، كان قطع إمدادات الحبوب من مصر إلى المدينة وتحويله إلى الشام وذلك لجعل الحجاز تابعا اقتصاديا لمركز الخلافة الجديد ،[٩٤] كما أنه شجع بني أمية وحلفائهم على تعمير الحجاز واحتكار النشاطات الاقتصادية الكبرى في الجزيرة العربية حتى يقوى نفوذهم ويضعف خصومه بأن يعزلهم اقتصاديا ويدفعهم إلى الدخول في الطاعة أو الجلاء عن الحجاز في حالة بقاء طموحاتهم السياسية ،[٩٥] وهو ما وقع فعلا مع زعماء الشيعة والخوارج الذين اضطروا إلى الانتقال إلى العراق واتخاذه مركزا لعملياتهم العسكرية التي تتطلب انفاقات كبيرة توفرها لهم الأمصار . ويذكر المبرد أن معاوية حاول دفع الحسين (رضي الله عنه) الذي كان يشكو من ضائقة مالية إلى بيع ضيعته المسماة عين أبي نيزر ، لكنه

رفض، [٩٦] كما يذكر الطبري شكوى إبراهيم بن محمد بن طلحة إلى هشام ابن عبد الملك مصادرة داره منذ عهد معاوية فهدده بالضرب. [٩٧]

وتذكر الروايات أيضا أن أهل المدينة حين ثاروا على يزيد بن معاوية وتحالفوا مع عبد الله بن الزبير ، اشتكوا لعثمان بن محمد الوالي الأموي من احتكارات الأمويين للملكيات فيها وخاصة منهم معاوية بن أبي سفيان وأسرته حيث قالوا له : " قد علمت أن هذه الأموال كلها لنا ، وأن معاوية آثر علينا في عطائنا ولم يعطنا قط درهما فما فوقه حتى مضنا الزمان ونالتنا المجاعة فاشتراها منا بجزء من مائة من ثمنها، " وهو ما يعني وجود ضغوط على أهل المدينة من أجل التفريط في ممتلكاتهم لصالح الأمويين.

ولكن الرواية التالية تزيد الأمر وضوحا ، حيث نجد فيها الخليفة يزيد يقول لعبد الله بن جعفر وقد جاءه كتاب عثمان بن محمد : " إن ابن الزبير حيث علمت من مكة وهو زعم أنه قد نصب الحرب ، فأنا أبعث إليه الجيوش وأمر صاحب أول جيش أبعثه أن يتخذ المدينة طريقا وأن لا يقاتل ، فإن أقروا بالطاعة ونزعوا عن غيهم وضلالهم فلهم علي عهد الله وميثاقه أن لهم عطائين في كل عام ما لا أفعله بأحد من الناس طول حياتي، عطاء الشتاء وعطاء الصيف، ولهم علي عهد أن أجعل الحنطة عندهم كسعر الحنطة عندنا ، والحنطة عندهم سبعة أصع بدرهم، والعطاء الذي يذكرون أنه احتبس عنهم في زمان معاوية فهو علي أن أخرجه لهم وافرا كاملا، فإن تابوا وقبلوا ذلك جاوز إلى ابن الزبير وإن أبوا قاتلهم " (وهنا يدمج نص رواية ثانية يخاطب فيها يزيد قائد جيوشه إلى الحجاز مسلم بن عقبة ، وقد جاءت بنفس المعنى في الطبري كما رأينا سابقا).[٩٨] ونفهم من هذا أن الحجاز أصبح يعرف نقصا فادحا في الحبوب وغلاء في الأسعار ، ليس بسبب ضعف في الإنتاج بل بسبب احتكار الأراضي الزراعية والمحاصيل، إلى جانب حرمانه من قمح مصر الذي تعود عليه طوال عشرين سنة. كما أن العطاء الذي منعه الأمويون عن أهل المدينة وآثروا تمتيع شيعتهم به قد أصبح في العصر الأموي عنصرا بارزا في الصراع الدائر حول السلطة حتى داخل البيت الأموي.

ويذكر التميمي [٩٩] أن " أول ما هاج أمر الحرة أن ابن مينا (أو ابن ميثا عند كاتب *الإمامة والسياسة*) وكان عاملا على صوافي المدينة (الأملاك التي جلا عنها أهلها أو ماتوا ولا وارث لها) لمعاوية بن أبي سفيان، وبالمدينة يومئذ صواف كثيرة كان معاوية يجد بالمدينة وأعراضها ألف وسق وخمسين ألف وسق تمرا ، ويحصد مائة ألف وسق حنطة ... ، حتى انتهى إلى بلحارث بن الخزرج فنقب النقب فيهم (هدم للبيوت ولعله هنا فتح طريق وسط مساكن وملكيات زراعية) فقالوا ليس ذلك إليك ، هذا حدث وضرر علينا ، فمكثوا على ذلك شهرا يغدو ابن مينا ويروح بعماله فمرة يعمل فيه ومرة يأبون عليه ومرة لا يجد أحدا يريد أن يبني فيعمل حتى يمسي ومرة أخرى يجتمعون فلا يضرب بمعول ولا مسحاة حتى يمسي ... " مما يعني أن الأمر يتعلق تحديدا بوضع الأمويين أيديهم على

الصوافي واستثمارها لصالحهم وربما تجديد البناء فيها على حساب ما تعود عليه أهل المدينة من بقاء الملكيات بشكل جماعي حتى بعد وفاة أصحابها وانقطاع ورثتها.

ومهما يكن الأمر ، فإن الحجاز أصبح رهين الضغوطات والاحتكارات لصالح فئة قليلة من أثرياء قريش وخاصة منهم بني أمية . ولكن هذا لا يمنع من القول بأن الجزيرة العربية كانت قادرة على توفير المحاصيل الزراعية الكافية لاستهلاكها الداخلي على الأقل .

لذلك فإن التحدي الأكبر للسياسة الاقتصادية الأموية في الحجاز جاء من عبد الله بن الزبير الذي آثر عدم الاستسلام لها واتخاذ الحجاز نفسه مسرحا لعملياته السياسية والعسكرية ، تكريسا لشرعيته السياسية واعتمادا في مواجهة بني أمية على أشراف قريش والقبائل العربية المجاورة للأماكن المقدسة .

لذلك عمد بنو أمية في عهد مروان ثم عبد الملك بن مروان إلى حصار ابن الزبير في مكة وقطع مؤونته بوضع أيديهم من جديد على مصر وأيضا على الطائف وتقريب وجوهها من بني ثقيف مثل الحجاج ، وقد أمكنهم هذا الضغط الاقتصادي المميت من بلوغ هدفهم السياسي في الأخير .

خامسا : دور الجزيرة العربية الثقافي في العصر الأموي

حافظت الجزيرة العربية على مركزيتها الثقافية بفضل وجود معالم الحج بها والمواقع المتقدسة المرتبطة بذكرى الرسول ﷺ خاصة في المدينة وما حولها . كما أن الحجاز كان في القرن الأول للهجرة بلد العلماء الأوائل من الصحابة والتابعين (رضوان الله عليهم) الذين بثوا العلم في كل مكان وكونوا جيلا من القراء كان له الدور الحاسم في الأحداث السياسية والإبداعات الفكرية الإسلامية الأولى.[١٠٠]

ففي مجال علوم القرآن نجد عددا من الصحابة بالمدينة جمعوا القرآن الكريم مبكرا ، حيث جاء في رواية عن ابن سيرين قوله : " جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ أربعة لا يختلف فيهم معاذ بن جبل وأبي بن كعب وأبو زيد ، واختلفوا في رجلين من ثلاثة أبي الدرداء وعثمان وقيل عثمان وتميم الداري ، " ويقول السيوطي "المشهورون بإقراء القرآن من الصحابة سبعة عثمان وعلي وأبي وزيد بن ثابت وابن مسعود وأبو الدرداء وأبو موسى الأشعري." [١٠١]

وفي خلافة عثمان (رضي الله عنه) جمع القرآن في مصحف واحد ، على قراءة بوجه واحد توافق لغة قريش ، ثم أرسلت منه عدة نسخ إلى الأمصار وبقيت النسخة المرجعية في المدينة .[١٠٢]

وقد كان من بين أول القراء والمفسرين للقرآن عبد الله بن عباس (ت ٦٨هـ) وعبد الله بن مسعود (ت ٣٢هـ)، وعلي بن أبي طالب (ت ٤٠هـ) وأبي بن كعب (ت ٣٠هـ).[١٠٣]

ثم اشتهر بعدهم أبو العالية الرياحي (ت ٩٣هـ) ، ومحمد بن كعب القرظي (ت ١٠٨ - ١١٨ هـ) وزيد بن أسلم (ت ١٣٦هـ) وقد كانوا أشهر رجال مدرسة المدينة من أتباع أبي بن كعب.(١٠٤)

واشتهر أيضا سعيد بن جبير (ت ٩٥هـ)، ومجاهد بن جبر (ت ١٠٤هـ)، وعكرمة مولى ابن عباس (ت ١٠٥هـ) ،وطاوس بن كيسان اليماني (ت ١٠٦هـ) ، وعطاء بن رباح (ت ١١٤هـ)، وكلهم من رجال مدرسة مكة من تلامذة ابن عباس .(١٠٥)

كما ظهر في الحجاز تيار تفسيري نقل عن أهل الكتاب أخبارهم وأساطيرهم (الإسرائيليات) حسبما يتفق مع مواضيع قصص القرآن ، ومن أبرز رجاله عبد الله بن سلام (ت ٤٣هـ)، وكعب الأحبار (ت ٣٢هـ) ، ووهب بن منبه (ت ١١٠ هـ)، وعبد الملك بن عبد العزيز بن جريج (ت ١٥٠ - ١٥٩هـ).(١٠٦)

لقد كان تدوين تفاسير القرآن محل جدل في الحجاز منذ عهد الخلفاء الراشدين ، وقد يكون عمر ابن الخطاب (رضي الله عنه) نهى عنه حتى لا يختلط بكتاب الله كما جاء في قوله : " ذكرت قوما كتبوا كتابا فأقبلوا عليه وتركوا كتاب الله ،"(١٠٧) ولكن الصحابة لم يمتنعوا في المدينة عن التفسير بالمأثور وتدوينه حتى اشتهرت مدرسة المدينة بذلك.(١٠٨)

وتذكر الروايات " أن أول ما صنف في الإسلام كتاب ابن جريج في الآثار وحروف من التفاسير بمكة ، ثم كتاب معمر بن راشد الصنعاني باليمن جمع فيه سننا منثورة مبوبة ، ثم كتاب الموطأ بالمدينة لمالك ، ثم جمع ابن عيينة كتاب الجامع والتفسير في أحرف من علم القرآن وفي الأحاديث المتفرقة ، وجامع سفيان الثوري صنفه أيضا في هذه المدة وقيل إنها صنفت سنة ستين ومائة ."(١٠٩)

أما الإسرائيليات فإنها لم تكن أجنبية تماما عن البيئة الجزيرية ، بل كانت تمثل تراثا عربيا جنوبيا انتشر بين يهود ونصارى اليمن وربما الحجاز ، ونرى صورة منه في رواية أساطير الخلق وبناء الكعبة وتاريخ ملوك اليمن الأسطوري التي جمعها وهب بن منبه (ت ١١٤هـ) وعبيد بن شرية . وبحكم تعاظم دور اليمانية في العصر الأموي ، أخذت هذه القصص والروايات الأسطورية تنتشر في الأوساط الشعبية وفي حلقات أسمار الخلفاء وأمراء البيت الأموي دون أن تلقى نفس النجاح لدى علماء الحجاز من كبار الصحابة والتابعين ، مع استثناء كبير هو التفسير المنسوب لابن عباس والذي يكثر فيه نقل الإسرائيليات ، لكن لا نجد - في الحقيقة - دليلا على نسبته تلك إلى ابن عباس.(١١٠)

ومثلت مدرسة المدينة في الحديث والفقه أعرق وأهم المدارس في صدر الإسلام وأكثرها تأثيرا ، اشتهر فيها عدد من كبار الصحابة والتابعين الذين كانوا يستقطبون الناس من كل الآفاق لسماعهم وأخذ العلم عنهم.

وكان العلماء الأوائل في الحجاز ، كما رأينا ، يقرنون بين الحديث النبوي والفقه والتفسير وكانوا أيضا يميزون بين رواية الحديث والسنن وبين الفقه والفرائض (وقد يقولون أيضا فقه الحلال والحرام) ، فمثلا يقول ابن

مهدي : " سفيان الثوري إمام في الحديث وليس بإمام في السنة والأوزاعي إمام في السنة وليس بإمام في الحديث ومالك بن أنس إمام فيهما جميعا ." (١١١) ويوصي عبد الملك بن مروان مؤدب أبنائه بقوله : " علمهم كتاب الله حتى يحفظوه وفقههم على ما بين الله فيه من حلال وحرام حتى يعقلوه ." (١١٢)

وفي خصوص علم الحديث ، تميز كبار الصحابة وأبناؤهم ومواليهم ، خاصة في المدينة ، بوضع لبناته الأولى ثم تبعهم في ذلك عدد هام من العلماء الذين نشروا في الأمصار أساليبهم في الرواية والإسناد والتدوين .

ومن أبرز الصحابة من الطبقة الأولى - وإن كان علماء الحديث يقسمونهم بدورهم إلى طبقات قد تبلغ الاثني عشر طبقة كما عند النيسابوري (١١٣) - نجد الخلفاء الراشدين الأربعة (رضي الله عنهم) ثم أبو هريرة (ت ٥٧ - ٥٩هـ)، وعائشة أم المؤمنين (ت ٥٧هـ)، وعبد الله بن عمر (ت ٧٤هـ)، وأبو سعيد الخدري (ت ٧٤هـ)، وزيد بن ثابت (ت ٥٥هـ) ، وكلهم قد عايشوا البعثة المحمدية وعصر الخلفاء الراشدين وبداية الدولة الأموية وساهموا في تأسيس مدرسة المدينة التي تبلورت فيما بعد مع كبار التابعين من أمثال سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، وابن شهاب الزهري، وعبيد الله بن عتبة بن مسعود، وسالم بن عبد الله بن عمر، ومحمد بن المنكدر. (١١٤)

وقد كان أبرزهم الزهري (ت ١٢٤هـ) الذي قال عنه الليث بن سعد : " ما رأيت عالما قط أجمع من ابن شهاب ولا أكثر علما منه ، ولو سمعت ابن شهاب يحدث في الترغيب لقلت لا يحسن إلا هذا ، وإن حدث عن الأنبياء وأهل الكتاب لقلت لا يحسن إلا هذا ، وإن حدث عن العرب و الأنساب قلت لا يحسن إلا هذا ، وإن حدث عن القرآن والسنة كان حديثه بدعا جامعا ،" (١١٥) وفي هذا دلالة على سعة علمه وبالغ تأثيره في علوم عصره.

أما أكبر علماء المدينة فقد كان بلا منازع الإمام مالك بن أنس (ت ١٧٩هـ) ، الذي قال فيه الإمام الشافعي : "إذا جاء الأثر فمالك النجم ... وما أحد أمن على علم الله من مالك بن أنس . وقال أيضا مالك وابن عيينة القرينان لولاهما لذهب علم الحجاز." أما سفيان بن عيينة (ت ١٤٦ - ١٩٨هـ) ، فقد قال في مالك : "يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل يطلبون العلم فلا يجدون عالما أعلم من عالم المدينة." (١١٦)

أما مدرسة مكة ، فقد اشتهر من بين مؤسسيها الصحابي الكبير معاذ بن جبل الذي قال فيه الرسول ﷺ : " اعلم الناس بحرام الله وحلاله ،" (١١٧) وعبد الله بن عباس ، وعتاب بن أسيد وأخوه خالد ابن أسيد ، والحكم بن العاص ، وعثمان بن أبي طلحة ، ثم تبعهم مجاهد ، وعطاء ، وطاوس ، وعكرمة الذين ذكرناهم سابقا .

وفي العصر الأموي ، انتشر عدد غير قليل من الصحابة بين الحجاز والأمصار واشتهروا بنقلهم لعلم الحجاز ، ففي رواية عن اين المديني "آخر من بقى من أصحاب رسول ﷺ بالمدينة سهل بن سعد الساعدي ، وآخر من بقي بالبصرة أنس بن مالك ، وآخر من بقي بالكوفة أبو جحيفة وهب بن عبد الله السوائي من بني سواءة بن

عامر ، وآخر من بقي بالشام عبد الله بن بسر المازني من بني مازن بن منصور ، وآخر من بقي بمصر عبد الله بن الحارث بن جزء."[١١٨] فأنس بن مالك (ت ٩٠ - ٩٣هـ) ، مثلا كان من ألمع علماء عصره وقد كان شيخ الزهري وعلماء آخرين من المدينة ثم تتلمذ عليه عدد كبير من علماء الأمصار ، خاصة وأنه خير الانتقال من المدينة إلى البصرة حيث توفي فيها .

وقد نوقشت مسألة تدوين الأحاديث وقيل إن عمر بن الخطاب هم بذلك ثم أعرض وأن عمر ابن عبدالعزيز هو الذي أمر بتدوين الحديث النبوي ، لكن الروايات لا تتفق إن كان كتب إلى عامله على المدينة أبي بكر محمد بن عمرو الحزمي (أو ابن حزم) " أن أنظر ما كان من سنة أو حديث عمر (يقصد عمر بن الخطاب) فاكتبه ، "[١١٩] أو أكتب إلي بما ثبت عندك من الحديث عن رسول الله ، وبحديث عمرة (يعني عمرة بنت عبد الرحمان وكانت أعلم الناس بحديث عائشة أم المؤمنين) ، "[١٢٠] أو تراه زيد في هذه الرواية أنه طلب جمع أحاديث الرسول ﷺ بحيث " كتب عمر بن عبد العزيز إلى الآفاق انظروا حديث رسول الله ﷺ فاجمعوه."

ولكن المصادر ترجع أقدم جمع للحديث النبوي إلى عالم المدينة ابن شهاب الزهري في عهد عمر بن عبد العزيز ثم تتبعه بعالمها الثاني مالك بن أنس في " الموطأ " الذي يؤب فيه الحديث تبويبا جديدا وأعطى الإسناد لأول مرة الأمية القصوى التي سيعرفها بعد ذلك.[١٢١]

وعلى كل ، فقد بدأت محاولات التدوين مبكرا في الحجاز ، مما يعطيه أسبقية في هذا المجال .

ولعل كراهية كتاب السنة في أول الأمر جاء نتيجة خشية اختلاطها بالإسرائيليات ، كما روى أحدهم قصة محو عبد الله بن مسعود لنص قد كتب على صحيفة قدمت إليه وعلق على ذلك بقوله " يرى أن هذه الصحيفة أخذت من أهل الكتاب فلهذا كره عبد الله النظر فيها ، "[١٢٢] لكن الصحابة لم يمتنعوا عن التدوين مطلقا بل إن عددا من الصحف التي دونوها أصبح متداولا في الأمصار مما سمح بالإطلاع على علم أهل الحجاز وتناقله.

وفي خصوص الفقه ، فقد بقيت مدرسة المدينة إلى منتصف القرن الثاني ، على الأقل ، أبرز مدارس الفقه في الإسلام ، ويذكر النيسابوري أن " الفقهاء السبعة من أهل المدينة فسعيد بن المسيب والقاسم بن أبي بكر ، وعروة ابن الزبير، وخارجة بن زيد بن ثابت ، وأبو سلمة بن عبد الرحمان بن عوف ، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، وسليمان بن يسار ، فهؤلاء الفقهاء السبعة عند الأكثر من علماء الحجاز ، "[١٢٣] وفي رواية عن ابن سعيد القطان يقول : " فقهاء أهل المدينة اثنا عشر : سعيد بن المسيب ، وأبو سلمة بن عبد الرحمان ، والقاسم بن محمد ، وسالم ابن عبد الله بن عمر ، وحمزة بن عبد الله بن عمر ، وزيد بن عبد الله بن عمر ، وعبيد الله بن عبد الله بن عمر ، وبلال بن عبد الله بن عمر ، وأبان بن عثمان بن عفان ، وقبيصة بن ذؤيب ، وخارجة بن يزيد بن ثابت ، وإسماعيل بن زيد بن ثابت .[١٢٤]

ولقد مثل الحجاز وخاصة المدينة مركزاً أساسياً لرواية السيرة ومغازي الرسول ﷺ وأخبار الخلفاء الراشدين في حين كانت الأمصار مراكز مختصة في أخبار الفتوحات وأحداث العصر الأموي ، فمدرسة المدينة في السيرة كانت مرتبطة بمدرستها في الحديث والفقه . ولا غرابة في ذلك ، فأهل المدينة يولون أهمية خاصة للسيرة النبوية بما تميزهم عن بني أمية من حيث تأكيد سابقيتهم في الإسلام ودعمهم للرسول ﷺ في دعوته وجهاده حتى انتصر الدين الجديد ورفعت راياته في أنحاء الجزيرة العربية ، في حين كان الأمويون يتحاشون ذكر مناهضتهم للرسول وحربهم إياه وخاصة أبو سفيان بن حرب الذي لم يسلم حتى فتح مكة.(١٢٥)

وقد اشتهر من بين روّاة السيرة النبوية في المدينة عروة بن الزبير وابن شهاب الزهري.(١٢٦) وتتلمذ على علماء المدينة رجال من الأمصار قرنوا بين رواية أهل المدينة للسيرة وجهودهم الخاصة في كتابة التاريخ العام للعرب والإسلام ، فتهيأ بذلك الوضع كي تبلغ مدرسة المدينة أوج إشعاعها في العصر العباسي مع محمد بن إسحاق الذي استقر أيضاً بالعراق بعد المدينة وأصبح كتابه في السيرة المصدر الأول لكل ما كتب فيها بعدئذ.(١٢٧)

وهكذا بلغت أهمية وشهرة علماء الحجاز أن كانت الركبان ترحل إليهم تباعاً لتتصل بهم وتأخذ عنهم العلم مباشرة كما لو كانت تأخذه عن الرسول ﷺ نفسه ، فعن أبي العالية أنه قال: " كنا نسمع الرواية من أصحاب رسول الله ﷺ بالبصرة ، فلم نرض حتى ركبنا إلى المدينة فسمعناها من أفواههم ،" وفي رواية عن الشعبي (ت ١٠٥هـ) محدث الكوفة " أنه حدث بحديث ثم قال لمن حدثه : أعطيتكه بغير شيء ، وإن كان الراكب ليركب إلى المدينة فيما دونه." (١٢٨)

وكان خلفاء بني أمية يستفتون علماء الحجاز ويستشيرونهم مثلما فعل هشام عندما حج ومر بالمدينة حيث سأل عن أبي الزناد وطلب منه أن يكتب له سنن الحج فكتبها ، وهي من أولى الإشارات إلى كتاب في السنن مصنف حول موضوع محدد.(١٢٩)

وقد عرف عن مروان بن الحكم أنه كان حريصاً ، لما كان مستقراً بالمدينة ، على تتبع علم الحجاز بالتقييد والجمع بالرغم من رفض الصحابة لذلك حتى عده البعض من بين علماء المدينة.(١٣٠)

وكذلك فعل عمر بن عبد العزيز حين كتب إلى أهل المدينة حسب بعض الروايات أن " انظروا حديث رسول الله ﷺ فاكتبوه ، فإني خفت دروس العلم وذهاب أهله ."

وكان عبد الملك بن مروان قد تتلمذ على الصحابة بالمدينة وعرف برواية الحديث عنهم.(١٣١)

وكانت مجالس الخلفاء لا تخلو من علماء الحجاز الذي يستقدمونهم إليهم ويغرونهم بالبقاء عندهم مثل ابن شهاب الزهري الذي قربه إليه كل من عبد الملك بن مروان وهشام بن عبد الملك واستقضاه يزيد بن عبد الملك.(١٣٢)

وقد اتهم بعض علماء الحجاز مثل أبي هريرة والزهري بموالاة الأمويين ولكنهم لئن لم يكونوا من بين رجال المعارضة الصريحة ، فلم يكونوا - على كل - من شيعة الأمويين بل عرفوا بعلاقاتهم المتأزمة مع ولاتهم في الحجاز ، كما يحدثنا الطبري مثلا ، بل كان بعضهم الآخر متشبثا بموقف الاعتزال عن السياسة حتى ضرب بالسياط في ذلك مثل سعيد بن المسيب.[١٣٣]

ولقد اشتهر عدد من علماء الحجاز ، فعلا ، باعتزالهم السياسة واشتغالهم بالعلم وحده مثل عبدالله بن عمر بن الخطاب ،[١٣٤] وسعد بن أبي وقاص ، والوليد بن عقبة ،[١٣٥] ومحمد بن مسلمة الذي كتب إلى معاوية ردا على كتابه له : " أما بعد فقد اعتزل هذا الأمر من ليس في يده من رسول الله ﷺ مثل الذي في يدي. فقد أخبرني رسول الله ﷺ بما هو كائن قبل أن يكون ، فلما كسرت سيفي وجلست في بيتي واتهمت الرأي على الدين ، إذ لم يصح لي معروف آمر به ولا منكر أنهى عنه . وأما أنت فلعمري ما طلبت إلا الدنيا ولا اتبعت إلا الهوى . فإن تنصر عثمان ميتا فقد خذلته حيا . فما أخرجني الله من نعمة ولا صيرني إلى شك . إن كنت أبصرت خلاف ما تحبني به ومن قبلنا من المهاجرين والأنصار ، فنحن أولى بالصواب منك ،"[١٣٦] ولكن لا يصح القول بأن هؤلاء الصحابة كانوا مرجئة أو أصلا للإرجاء بل كانوا رجال علم وزهد في الدنيا.[١٣٧]

يمكن القول ، حينئذ ، بأن الثقافة الإسلامية الناشئة بقيت إلى منتصف القرن الثاني تقريبا مرتبطة ارتباطا كليا بتراث الجزيرة العربية العلمي ، وبعدها تأخذ الأمصار وعاصمة الخلافة العباسية (بغداد) المشعل بإرادة سياسية واضحة من الخلفاء العباسيين الذين سعوا أكثر من الأمويين إلى أن تكون لديهم إيديولوجيا سياسية وفكرية منبثقة من الدين الإسلامي تخدمهم وتغلبهم على خصومهم .

من ناحية أخرى ، كانت الجزيرة العربية موطن اللغة العربية الفصحى وعلماء اللغة الأوائل مثل أبي عمرو بن العلاء الذي ولد ونشأ بمكة قبل أن ينتقل بدوره إلى العراق حيث توفي بالبصرة سنة ١٥٤هـ ، وتتلمذ عليه بالعراق بالخصوص الخليل بن أحمد الفراهيدي ، ويونس بن حبيب النحوي ، والأصمعي ، وسيبويه ، كما كانت الجزيرة العربية مقصد علماء الأمصار الذين كانوا يزورونها تباعا لأخذ قواعد اللغة ، وتعلم اللهجات ، وحفظ قوائم الأنساب ، وجمع الشعر وأخبار العرب والأمثال والحكم والأساطير وغيرها.[١٣٨]

وقد أولى الخلفاء الأمويون أنفسهم أهمية كبرى لعملية جمع تراث الجزيرة العربية تكريسا لشرعيتهم السياسية والحضارية من خلال استضافة رواة الشعر والأخبار ، وعقد المسامرات والمناظرات ، وتبريز أعوانهم في إجادة اللغة ومعرفة الشعر والأنساب ، حتى أصبحت من شروط تولية المناصب في الدولة.[١٣٩]

وكان علماء الأمصار وأدباؤها يستلهمون من تراث الجزيرة العربية النماذج الأدبية والفنية وكذلك التعابير والصور الشعرية .[١٤٠]

وبذلك عرفت مختلف مناطق الجزيرة العربية تواصل إشعاعها الأدبي إلى العصر العباسي ، فبلاد أسد واليمامة ونجد عموما بقيت مواطن حفظ لمخزن أدبي وخاصة لغوي أساسي . ولن يتناقص إشعاعها إلا في فترات متأخرة حين عم التدوين وشمل معظم ما تبقي من هذا المخزون الأدبي وحين اختلط سكان البادية بسكان الحواضر خاصة على الأطراف فدخلهم اللحن بدورهم وفقد آدابهم ولهجاتهم تألقها وصفاءها الأول .

لقد كان الحجاز أيضا بلد الشعر والغناء، وقد استقطبت قصور الأمويين والأثرياء عددا من الشعراء والمغنين والمغنيات ، وكان الحج فيما يبدو مناسبة للاتجار بالجاريات المغنيات ، لكن لا يعني هذا أن المدينة أصبحت قطبا للغناء في العصر الأموي كما توهمنا بذلك بعض الروايات المتأخرة التي يوردها صاحب *الأغاني*.[١٤١]

وأخيرا ، فقد كانت الجزيرة العربية ثرية بآثار الحضارات والممالك القديمة في جزئها الجنوبي (اليمن) وكذلك في مختلف أرجائها الأخرى، مثل واحات الأحساء، ووادي القرى، واليمامة، وتيماء، ودومة الجندل، والحيرة وغيرها ، وقد تذاكر العرب تواريخها وزاروا معالمها في أسفارهم وتجاراتهم وحجهم. ووصفها الشعراء والرحالة والجغرافيون والمؤرخون وأخذ الفنانون والمعماريون منها نماذج لبناءاتهم كما استنبطوا منها فنونا عديدة ، لكن البحث العلمي لم يعط إلى اليوم هذه المصادر الفنية العربية الجزيرية الأهمية التي تستحقها في فهمنا لأصول الفنون والعمارة الإسلامية في صدر الإسلام.[١٤٢]

في نهاية الأمر ، يمكن الجزم بأن تراث الجزيرة العربية العلمي والأدبي والفني تراث هام ومتنوع وأن إسهامها في صنع الثقافة الإسلامية في صدر الإسلام كان حاسما . ولئن لم نعمق تحليل هذه الجوانب المضيئة ، بل اكتفينا في معظم الأحيان بالتلميح والإشارة ، فإننا على كل أدركنا مدى ارتباطها بالأوضاع السياسية والاجتماعية الخاصة بالجزيرة العربية ، مما يفند الادعاء القائل بتبعيتها إلى ثقافات أجنبية وفدت عليها بعد الفتوحات وتأسيس الأمصار والاختلاط السكاني بها ، دون أن ننكر طبعا وجود أية تأثيرات خارجية بالمرة . ذلك أن الثقافة التي لا تتأثر لا تؤثر بدورها ، فالتثاقف روح كل ثقافة حية ثرة .

خاتمة

يبدو الآن من خلال هذا البحث المقتضب أن الجزيرة العربية ساهمت بكثافة واقتدار في بلورة الرؤى والمواقف السياسية والاجتماعية والثقافية في العصر الأموي .

بل يمكننا التأكيد على أن الجزيرة العربية كانت هي المركز الحقيقي للأحداث السياسية والمظاهر الحضارية العامة في العصر الأموي بل وفي صدر الإسلام عموما ، أي إلى تاريخ قد يستحيل علينا الآن تحديده بدقة لكنه لا يتجاوز في أغلب الظن القرن الثالث للهجرة .

ويبدو لي أن قطيعة ما حصلت ما بين القرنين الثاني والرابع بين عرب الجزيرة وعرب البلاد المفتوحة من ناحية ، ومن ناحية أخرى بين العرب المسلمين عموماً وأجدادهم الذين عاصروا الدعوة المحمدية وأحداث القرن الأول للهجرة من الردة إلى الفتوحات إلى الصراعات حول الخلافة .

ويبدو لي ، بالخصوص ، أنه لم يعد مهما الآن أن نركز كما يفعل جل المؤرخين على هذه الصراعات حول الخلافة والتي يطلقون عليها تسمية "الفتنة" (مع أنها لفظة عامة لا تخص أحداثاً بعينها) فيجعلونها ثلاث فتن - وكان بإمكانهم أن يجعلوها أربع أو خمس فتن - ولكن المهم فعلا هو متابعة مسالك تحول صورة نظام الخلافة في أذهان الموالين والمعارضين للبيت الأموي على السواء .

كما أن الأهم هو فهمنا لظاهرة ابتعاد عاصمة الخلافة نهائياً عن الجزيرة العربية ، ليس بسبب تهميشها لصالح مناطق أكبر وزنا ، وإنما على العكس من ذلك بسبب هروب إلى الأمام اضطر إليه خلفاء بني أمية ، حين لم يعودوا يجدون في الجزيرة العربية إلا المعارضة الشديدة أكثر بكثير من عهد معاوية أو ابنه يزيد ، بحيث أصبح مستحيلا على الخلافة في صورتها الأموية أن تعود مطمئنة آمنة على موطنها الأصلي (الجزيرة العربية) ، خاصة وقد لقي أهله من الخيبات والهزائم وشتى الضغوطات والاضطهادات ما لقوا على أيدي عمال بني أمية ، فأصبحوا هدفا سهلا للدعوتين الخارجية والشيعية اللتين انتشرتا في نهاية العصر الأموي انتشاراً كبيراً .

لكن الخلفاء الأمويين لن يبتعدوا أكثر من اللازم عن الجزيرة العربية وخاصة عن القطب الحجازي الذي مثل دوما بالنسبة إليهم مركز الثقل في بنائهم السياسي العام ، فاختيار دمشق كان لهذه الغاية الاستراتيجية الحيوية ، تماماً مثلما كان لغاية السيطرة على بلاد الشام التي مثلت بدورها مجالهم الأمني المباشر .

وإذا كان نفس هذا الهدف الإستراتيجي شغل العباسيين ، أيضا ، عندما لم ينقلوا عاصمة خلافتهم إلى خراسان ، مثلا ، أو إلى أي مكان آخر من المشرق وخيروا الوجه الجزيري للعراق قبل أن يحتموا أكثر ببغداد ثم سامراء ، فإننا نتساءل منطقيا عن سبب عدم عودة الخلافة إلى مركزها الحجازي في العصر العباسي .

والجواب فيما يبدو هو إبقاء العباسيين على النموذج الأموي في الحكم ، مما يعني استحالة إدماجه أيضا في البيئة العربية الأصلية ، لكن هذا لم يمنع العباسيين من نهج نفس سياسة الأمويين تجاه الجزيرة العربية وذلك بالإسراع إلى السيطرة عليها حتى يكتسبوا الشرعية التامة لخلافتهم الإسلامية .

التعليقات

(١) كلود كاهن ، *تاريخ العرب والشعوب الإسلامية منذ ظهور الإسلام حتى بداية الإمبراطورية العثمانية* ، ترجمة بدر الدين القاسم ، ط٣ (بيروت : دار الحقيقة ، ١٩٨٣م) ٢٧ . ويمكن متابعة نفس التصورات أو أكثر منها تطرفا عند عدد غير قليل من المستشرقين لا يسعنا المجال هنا لاستعراضهم. غير أني أخص بالذكر أفضل عملين حديثين يعطياننا صورة متكاملة عن آرائهم : G.R. Hawting, *The First Dynasty of Islam. The Umayyad Caliphate*, London - Sydney: Croom Helm, 1986), R. Marin - Guzman, *Popular Dimensions of the Abbasid Revolution. a Case Study of Medieval Islamic* (Cambridge , Mass. : Fulbright - Laspau, 1990).

(٢) يقول محمد عبد الحي شعبان في *التاريخ الإسلامي في تفسير جديد* ، ترجمة عبد المجيد حسيب القيسي (دار الدراسات الخليجية -دار الوفاق، د.ت.: " وكان النظام الذي أسس بالمدينة له طبيعته الخاصة فلا هو يلائم ولا قصد به أن يطور القوة للسيطرة على دوامة السياسة الإمبراطورية ، وكان سلاح عمر الوحيد للنزال والسيطرة على هذه الدوامة القوية من الأحداث هو مركزه كمستشار وقد بدأ الآن يتضح بما لا يقبل الشك عدم كفاية هذا السلاح " (ص ٩٨) و كذلك يقول : " لا ريب أنه ما من حكم أصلح من عمر نفسه للحكم على النظام الذي رأسه عشر سنوات ، وما امتناعه عن ترشيح خلف له إلا حكم منه على هذا النظام.. فما من سبب لامتناعه هذا إلا اعتقاده بأن منصب " أمير المؤمنين " لم يعد قادراً على مواجهة المتطلبات الجديدة الكثيرة للإمبراطورية الواسعة وبالتالي فإنه أي عمر لم يكن مستعداً للقول باستمراره " (ص ١٠١) ، ويقول أيضاً : " وكان نظام المدينة قد أفلس ، زال ادعاء قريش في الحكم ، واعتبرت خلافة علي نوعاً من السقوط المؤسي ، وصار على معاوية الآن أن يبتكر أنماطا جديدة للحكم يدير بها هذه الإمبراطورية الواسعة " (ص ١٢١) ، ويقول أخيراً : " وكانت سياسة معاوية تستند على التأييد الصلب للسوريين أنفسهم ولكن مما ساعده أيضاً أنه ورث عن الروم نظاما إدارياً فعالاً في الشام في حين لم يكن لأهل المدينة مثل هذه الميزات " (ص ١٦٥) .

(٣) إبراهيم بيضون ، *الحجاز والدولة الإسلامية ، دراسة في إشكالية العلاقة مع السلطة المركزية في القرن الأول الهجري* (بيروت : المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، ١٩٨٣م)، ١٨٩ ، ٢٢١ - ٢٢٢ .

(٤) لقد حاولت في عمل سابق تفنيد هذه الادعاءات في مستوى حضاري عام : نبيل قريسة ، نمط المدينة الأموية والجزيرة العربية ، في : إفريقية (دورية المعهد الوطني للتراث بتونس) ، ع ١٤ ، ١٩٩٦م، ص ٢٧ - ٨٤ .

(٥) انظر على سبيل المثال : محمد أحمد بدين وعبد الرحمان بكر كباوي ، *دراسات في آثار المملكة العربية السعودية* ، جـ١ (الرياض : إصدارات المهرجان الوطني للتراث والثقافة ، (١٤١٢هـ - ١٩٩١م) ؛ وكذلك أعداد حولية *أطلال* الصادرة عن الإدارة العامة للآثار والمتاحف بالمملكة العربية السعودية منذ سنة ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م .

(٦) عبد الله عبد العزيز بن ادريس ، *مجتمع المدينة في عهد الرسول* (الرياض : عمادة شؤون المكتبات ، جامعة الملك سعود ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م).

(٧) عبد العزيز الدوري ، "الجزيرة العربية في عصر الخلفاء الراشدين (نظرة شاملة)، في *الجزيرة العربية في عصر الرسول والخلفاء الراشدين*، أعمال الندوة العالمية الثالثة التي نظمها قسم التاريخ وقسم الآثار والمتاحف بجامعة الملك سعود (سنة ١٤٠٤هـ / ١٩٨٣م) (الرياض : مطابع جامعة الملك سعود، ١٤١٠هـ / ١٩٨٩م)، ١: ١٨٥ - ٢١٤ .

(٨) نصر بن مزاحم المنقري ، *وقعة صفين* ، بيروت : دار الجيل ، ١٩٩٠م ، ص ٢٩ .

(٩) المنقري ، *وقعة صفين* ، ٥٧ - ٥٨ .

(١٠) المنقري ، *وقعة صفين* ، ٦٢ - ٦٣ .

(١١) المنقري ، *وقعة صفين* ، ٢٧٩. والخبر كذلك مع اختلاف طفيف في : أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، *تاريخ الأمم والملوك* (بيروت: دار سويدان ، ١٩٦٤ م)، ٥ : ٣٠ - ٣١ .

(١٢) جليل العطية ، *"كتاب الحنين إلى الأوطان* لأبي منصور محمد بن سهل بن المرزبان الكرخي البغدادي ،" في *المورد* ، ١٦ ، ع١(١٩٨٧م) ١٢٩ - ١٧٤ .

(١٣) الطبري ، *تاريخ* ، ٥ : ٥٣٠ - ٥٣١ .

(١٤) أحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي ، *تاريخ اليعقوبي* (بيروت : دار صادر)، ٢ : ٢٥٤ .

(١٥) الطبري ، *تاريخ*، ٦ ، ٢٨٧ .

(١٦) حسين عطوان ، *الشورى في العصر الأموي* (بيروت : دار الجيل ، ١٩٩٠م).

(١٧) شعبان ، *التاريخ الإسلامي* ، (الفصلان التاسع والعاشر : انهيار المروانية ونهاية العهد) ، ٢١٩ - ٢٦٢.

(١٨) عبد العزيز الدوري ، *التكوين التاريخي للأمة العربية ، دراسة في الهوية والوعي* (بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٨٤م)، ١٥ - ٣٣ / الفضل شلق ، الأمة والدولة ، جدليات الجماعة والسلطة في المجال العربي الإسلامي ، بيروت ، دار المنتخب العربي ، ١٩٩٣م)؛ الفصل الأخير " القبيلة والدولة والمجتمع " ، ٢٦٥ - ٢٨٥ .

(١٩) الطبري ، ٧ : ٤٥٩ ؛ حسين عطوان ، *الدعوة العباسية ، تاريخ وتطور* (بيروت : دار الجيل ، ١٩٨٤م) ، ٤٣٥ - ٤٣٧ .

(٢٠) تردد أبو العباس المشهور بالسفاح في بداية الأمر بين الكوفة والحيرة والأنبار ، ويذكر الطبري (*تاريخ*، ٧ : ٤٦٥) أنه " ضرب المنار من الكوفة إلى مكة والأميال " سنة ١٣٤هـ أول ما استقام له الأمر .

(٢١) ذكر الطبري (تاريخ ، ٧ : ٤٧٣) أن أبا جعفر المنصور حج بالناس في أول سنة له ف الخلافة سنة ١٣٥هـ .

(٢٢) خليفة بن خياط ، تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق سهيل زكار ، دمشق : وزارة الثقافة السورية، ١٩٦٧ ، القسم ١ ، ص ٢٣٦ و ٢٤٣ .

(٢٣) ابن خياط ، *تاريخ* ، ١ : ٢٣٧ ، ٢٤٤ .

(٢٤) ابن خياط ، *تاريخ* ، ١ ، ٢٣٨ ، ٢٤١ ، ٢٦٥ ، ٢٦٧ .

(٢٥) ابن خياط ، *تاريخ* ، ١ ، ٢٤٥ - ٢٤٦ ، ٢٥٩ ، ٢٦٤ .

(٢٦) ابن خياط ، *تاريخ* ، ١ ، ٢٦٨ - ٢٧٠ .

(٢٧) ابن خياط ، *تاريخ* ، ١ ، ٢٤٠ ، ٢٥٠ ، ٢٥٨ .

(٢٩) الطبري ، *تاريخ*، ٥ : ١٣٦ ؛ ابن خياط ، تاريخ، ١ : ٢٢٦.

(٣٠) الطبري ، *تاريخ*، ٦ : ١٣٨ - ١٣٩ ؛ ابن خياط *تاريخ*، ١: ٣٣٣ يذكرها في أخبار سنة ست وستين .

(٣٠) الطبري ، *تاريخ*، ٥ : ١٣٣ - ١٣٥ .

(٣١) الطبري ، *تاريخ*، ٥ : ١٣٩ - ١٤٠ .

(٣٢) الطبري ، *تاريخ*، ٥ : ١٧٤ ؛ وفي *الفتوح* لابن أعثم الكوفي (بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٩٨٦م) ، ٣ : ١٢٤ ، قال محمد بن علي عندما طلب منه رفض مبايعة يزيد وقبول بيعة ابن الزبير : " والله لا أقاتل أهل القبلة ولا أتبع موليا ولا أجهز على جريح ولا أدخل دارا إلا بإذن أهله ."

(٣٣) شعبان ، *التاريخ الإسلامي* ، ١٤٠ - ١٤٨ ؛ بيضون ، الحجاز ، ٣٠٧-٣١٢ ، ٣٢١ ؛ نجدت خماش ، *الشام في صدر الإسلام ، الفتح حتى سقوط خلافة بني أمية ، دراسة للأوضاع الاجتماعية والإدارية* (دمشق : دار طلاس ، ١٩٨٧م)، ١٥٩ - ١٦٣ .

(٣٤) ابن أعثم ، *الفتوح* ، ٣ : ١٦٩ ؛ وعلق الطبري بقوله : " فاجتمع لابن الزبير أهل الكوفة وأهل البصرة ومن بالقبلة من العرب وأهل الشام وأهل الجزيرة إلا أهل الأردن ،" ٥ : ٥٢٩ - ٢٣٠ .

(٣٦) الطبري ، *تاريخ* ، ٦ : ١٧٤ - ١٧٨ ، ١٨٧ - ١٩٢ ؛ بيضون ، *الحجاز* ، ٣١٥-٣٤٨ .

(٣٦) بيضون ، *الحجاز* ، ٢٢٥ وما بعدها .

(٣٧) نادية حسني صقر ، *الطائف في العصر الجاهلي وصدر الإسلام* (جدة : دار الشروق ، ١٩٨١م)، ١٤٠ - ١٥٦ ؛ عبد الجبار منسي العبيدي ، *الطائف ودور قبيلة ثقيف العربية* (الرياض : دار الرفاعي، ١٩٨٢م) ، ٢٣٤ - ٢٣٩ ؛ بيضون ، *الحجاز* ، الملحق الأول، ٣٦٩ - ٣٧٠ .

(٣٨) الطبري ، *تاريخ* ، ٥ : ٢٩٣ - ٢٩٥ .

(٣٩) ابن خياط ، *تاريخ* ، ١ : ٢٣٥ - ٢٣٦ .

(٤٠) الطبري ، *تاريخ* ، ٥ : ٤٨٢ - ٤٨٥ .

(٤١) شعبان ، *التاريخ الإسلامي* ، ١٣٧ .

(٤٢) الطبري ، *تاريخ* ، ٥ : ٥٣٠ .

(٤٣) الطبري ، *تاريخ* ، ٦ : ٤٢٧ - ٤٢٨ .

(٤٤) الطبري ، *تاريخ* ، ٦ : ٤٨١ - ٤٨٢ .

(٤٥) الطبري ، *تاريخ* ، ٥ : ٢٩٦ .

(٤٦) الطبري ، *تاريخ* ، ٦ : ٢٠٢ .

(٤٧) الطبري ، *تاريخ* ، ٦ : ٤٤٠ (ويعود فيذكر توليته في أخبار سنة ٩١هـ ، ص ٤٦٤) ، و ٥٢٢ ، وكذلك : ٧ : ٢٦ - ٢٨ .

(٤٨) الطبري ، *تاريخ* ، ٧ : ١٥٠ ؛ عبد القادر المعاضيدي ، *واسط في العصر الأموي (٨١ -١٣٢ هـ)* (بغداد : دار الحرية ، ١٩٧٦م)، ٢٠٩ - ٢١٨ .

(٤٩) محمد بن أحمد بن تميم التميمي ، *كتاب المحن* ، تحقيق يحيى وهيب الجبوري (بيروت : دار الغرب الإسلامي ، ١٩٨٣م).

(٥٠) الطبري ، *تاريخ* ، ٥ : ١٣٩ .

(٥١) الطبري ، *تاريخ* ، ٥ : ١٦٨ .

(٥٢) الطبري ، *تاريخ* ، ٥ : ١٦٧ - ١٧٠ .

(٥٣) الطبري ، *تاريخ* ، ٥ : ١٨١ - ٢١٢ .

(٥٤) الطبري ، *تاريخ* ، ٥ : ٢١٢ .

(٥٥) الطبري ، *تاريخ* ، ٥ : ٢١٦ - ٢١٧ .

(٥٦) الطبري ، *تاريخ* ، ٥ : ٢١٩ .

(٥٧) الطبري ، *تاريخ* ، ٥ : ٢١٧ .

(٥٨) الطبري ، *تاريخ* ، ٥ : ٢٣٦ - ٢٣٧ .

(٥٩) الطبري ، *تاريخ* ، ٥ : ٢٣٥ - ٢٨٥ .

(٦٠) لطبري ، *تاريخ* ، ٥ : ٢٥٥ .

(٦١) شعبان ، *التاريخ الإسلامي* ، ١٣٧ ، حيث يقول : وكانت هذه المرة الأولى في الإسلام التي يبيح بها أمير المؤمنين لنفسه حق الحكم بالإعدام ."

(٦٢) الطبري ، *تاريخ* ، ٥ : ٢٨٨ - ٢٨٩ .

(٦٣) الطبري ، *تاريخ* ، ٥ : ٣٢٣ .

(٦٤) ابن أعثم ، *تاريخ* ، ٣ : ١٧٩ - ١٨٠ ؛ وفي الطبري (*تاريخ* ، ٥: ٤٨٤) " قال له ادع القوم ثلاثا فإن هم أجابوك وإلا فقاتلهم ، فإن أظهرت عليهم فأبحها ثلاثا ، فما فيها من مال أو رق أو سلاح أو طعام فهو للجند ، فإذا مضت الثلاث فاكفف عن الناس."

(٦٥) الطبري ، *تاريخ* ، ٥ : ٤٨٧ - ٤٩٥ ؛ ابن أعثم ، *الفتوح* ، ٣ : ١٨١ - ١٨٥ ؛ التميمي ، *المحن* ، ١٥٩ - ١٨٣.

(٦٦) الطبري ، *تاريخ* ، ٦ : ٤٦٤ .

(٦٧) المعاضيدي ، *واسط* ، ١٩٥ - ٢٠٩ .

(٦٨) الطبري ، *تاريخ* ، ٥ : ٢٢٨ .

(٦٩) نايف معروف ، *الخوارج في العصر الأموي ، نشأتهم ، تاريخهم ، عقائدهم ، أدبهم* ، ط٣ (بيروت : دار الطليعة ، ١٩٨٦م) ، ١٣٦ - ١٥٠ .

(٧٠) المعاضيدي ، *واسط* ، ١٩٧ ؛ الطبري ، *تاريخ* ، ٦ : ٤٨٨ .

(٧١) الطبري ، *تاريخ* ، ٦ : ١١٧ و ١٧٤ و ٧ : ٣٥٣ ؛ شعبان ، *التاريخ الإسلامي*، ١٥٦ ؛ المعاضيدي ، *واسط* ، ص ٢٣٤.

(٧٢) الطبري ، *تاريخ* ، ٦ : ٤٨٥ .

(٧٣) شعبان ، *التاريخ الإسلامي* ، ١٣٣ ؛ هشام جعيط ، *الفتنة ، جدلية الدين والسياسة في الإسلام المبكر* ، ترجمة خليل أحمد خليل ، (بيروت : دار الطليعة ، ١٩٩٢م) .
H.Djait, *Al-Kufa, naissance de la ville islamique*, Paris : Maisonneuve et Larose, 1986

(٧٤) شعبان ، *التاريخ الإسلامي* ، ١٣٤ - ١٣٥ .

(٧٥) شعبان ، *التاريخ الإسلامي* ، ١٢٩ ، ١٤٠ .

(٧٦) شعبان ، *التاريخ الإسلامي* ، ١٢٨ ، ١٥٢ -١٥٣

(٧٧) أبو الحسن البلاذري ، *فتوح البلدان* (بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٩٨٣م)، ١٢٤ ، ١٣٣ واليعقوبي ، *البلدان* ، ٣٢٧ ؛ عمر عبد السلام تدمري ، "الفتح الإسلامي وسياسة الإسكان لساحل دمشق ، " لبنان " في : *المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام ، جامعة اليرموك* ، (عمان : مطبعة الجامعة الأردنية ، ١٩٨٧م) ، ٢ : ٣٣٣ - ٣٧٣ .

(٧٨) الدوري ، *التكوين التاريخي* ، ٦١ .

(٧٩) الطبري ، *تاريخ* ، ٥ : ٣٠٥ - ٣٠٦ .

(٨٠) عندما قامت ثورة يزيد بن المهلب في البصرة وخلع الخليفة الأموي يزيد الثاني ، بعث بعماله فيما بعث إلى عمان والبحرين (ابن أعثم ، *الفتوح* ، ٤ : ٢٤٣) ؛ عبد القادر المعاضيدي ، *واسط* ، ١٨٤ .

(٨١) المعاضيدي ، *واسط* ، ١٨٩ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢٢٠ .

(٨٢) الطبري ، *تاريخ* ، ٧ : ٣٥٣ ؛ المعاضيدي ، *واسط* ، ٢٣٤ ؛ شعبان ، *التاريخ الإسلامي* ، ١٥٦ ، لكن في المقابل استعمل ولاة بني مروان في العراق جنودا من أزد عمان لمقاتلة الخوارج .

(٨٣) الدوري ، *التكوين التاريخي* ، ٥٧ - ٧٠ .

(٨٤) فيكتور سحاب ، *إيلاف قريش ، رحلة الشتاء والصيف* (بيروت : المركز الثقافي العربي ، ١٩٩٢م) .

(٨٥) نبيل قريسة ، "تكون الواحات في الجزيرة العربية وظهور الحضارة البدوية ،" في ندوة " المجتمعات والمجالات الواحية في المغرب العربي ، " كلية الآداب بمنوبة - تونس ، ١٩٩٥م (لم تنشر بعد).

(٨٦) بشير إبراهيم بشير ، "الطعام في الحياة الاقتصادية والدينية والاجتماعية في العصر النبوي وعصر الخلفاء الراشدين ،" في *الجزيرة العربية في عصر الرسول والخلفاء الراشدين* ، ٢ : ٢٥٢ - ٢٥٤ .

(٨٧) الطبري ، *تاريخ* ، ٤ : ٥٧ - ٦٣ ، ص ٩٦ - ١٠١ ؛ أبو زيد عمر بن شبة ، *تاريخ المدينة المنورة* ، تحقيق فهيم محمد شلتوت (بيروت : دار التراث ، ١٩٩٠م)، ٢ : ٧٣٦ - ٧٤٥ .

(٨٨) الطبري ، *تاريخ* ، ٥ : ٦١٢ - ٦١٣ .

(٨٩) شعبان ، *التاريخ الإسلامي* ، ١٧٢ - ١٧٣ .

(٩٠) الدوري ، "الجزيرة العربية ،" *التاريخ الإسلامي* ، ١٩٧ .

(٩١) يذكر أبو عبيد القاسم بن سلام في *كتاب الأموال* (دمشق : دار الحداثة ، ١٩٨٨م ،) ٢٣٦ - ٢٣٧ عن ابن عباس قوله : " ترك رسول الله ﷺ الناس يوم توفي على أربع منازل : مؤمن مهاجر والأنصار وأعرابي لم يهاجر إذا استنصره النبي ﷺ نصره وإن تركه فهو إذن لـه وإن استنصروا النبي ﷺ كان حقا عليه أن ينصرهم ... والرابعة التابعون بإحسان " ويذكر أيضا رواية لقبيصة وهو أحد الأعراب من بني هلال قال : " أتيت رسول الله ﷺ في حمالة (أي دية) فقال : أقم حتى تأتينا الصدقة فإما أن نعينك عليها وإما أن نحملها عنك ، فإن المسألة لا تحل إلا لثلاثة : رجل تحمل بحمالة بين قوم فيسأل حتى يؤديها ثم يمسك ، ورجل أصابته جائحة فاجتاحت ماله فيسأل حتى يصيب قواما من عيش أو سدادا ثم يمسك ، ورجل أصابته فاقة حتى يشهد له ثلاثة من ذوي الحجي من قومه أن قد أصابته فاقة وأن قد حلت له المسألة فيسأل حتى يصيب قواما من عيش أو سدادا من عيش فيمسك ، وما سوى ذلك من المسائل سحت يأكله صاحبه يا قبيصة سحتا."

ويعلق ابن سلام في هذا الباب بقوله : " فهذه الحقوق الثلاثة هي التي تجب لهم (يعني أهل البادية) في الكتاب والسنة : الجائحة والفتق وغلبة العدو من المشركين ".

(٩٢) الدوري ، *الجزيرة العربية* ، ص ٢٠٣ ؛ ناصر الدين سعيدوني، "الفتوحات الإسلامية وأثرها في الجزيرة العربية ،" في *الجزيرة العربية في عصر الرسول والخلفاء الراشدين*، ١ : ٢٣٥ - ٢٣٦ ؛ محمد أمين صالح ، "النظام المالي والإقتصادي بالجزيرة العربية في العصر النبوي وعصر الخلفاء الراشدين ، في : الجزيرة العربية ،" ١ : ٣١٨ - ٣١٩ .

(٩٣) الدوري ، -الجزيرة العربية - ٢٠٤ - ٢٠٧ ؛ *نجمان ياسين، تطور الأوضاع الاقتصادية في عصر الرسالة والراشدين* ، (بغداد، ١٩٩١م).

(٩٤) الطبري ، *تاريخ* ، ٥ :٩٤ - ١٠٥ .

(٩٥) بيضون ، *الحجاز* ، ٢٦١ .

(٩٦) محمد بن يزيد المبرد ، *الكامل في اللغة والأدب* (القاهرة ، مكتبة نهضة مصر ، ١٩٥٦ م)، ٢ : ١٥٤ .

(٩٧) الطبري ، *تاريخ* ، ٧ : ٣٦ .

(٩٨) مجهول ، *الإمامة والسياسة* (منسوب إلى ابن قتيبة) (بيروت : دار المعرفة، د.ت .) ١ : ١٧٦ - ١٧٧ .

(٩٩) التميمي ، *المحن* ، ١٥٩ - ١٦٠ .

(١٠٠) سامي خماس الصقار ، " لمحات عن نشوء الحركة العلمية في الحجاز في صدر الإسلام ودور المسجد في حياة المسلمين ، ولا سيما في الحياة العلمية خلا تلك الفترة ،" في : *الجزيرة العربية في عصر الرسول والخلفاء الراشدين* ، ٢: ٣٥ -٩٣ ؛ وعن دور القراء في القرن الأول للهجرة انظر : جعيط ، *الفتنة* ، خاصة الصفحات ٩٦ - ١٠٦ ؛ بيضون ، *الحجاز* ، ١٧٥ - ٢١٠ ؛ رضوان السيد، *مفاهيم الجماعات في الإسلام دراسة في السوسيولوجيا التاريخية للاجتماع العربي الإسلامي* (بيروت : دار المنتخب العربي ، ١٩٩٣م)، ٤٣ - ٦٨ .

(١٠١) جلال الدين السيوطي ، *الاتقان في علوم القرآن* ، (بيروت : دار الهلال ، د.ت .) ١ : ٧٢ .

(١٠٢) السيوطي ، *الإتقان* ، ٥٩ - ٦٠ .

(١٠٣) محمد حسين الذهبي ، *التفسير والمفسرون* ، (القاهرة : دار الكتب الحديث ، ١٩٦١م)، ١: ٦٢ - ٩٦ ؛ تواريخ الوفيات مأخوذة عن: أبو الحسن علي بن الأثير ، *أسد الغابة في معرفة الصحابة* (بيروت: المكتبة الإسلامية ، ١٢٨٦هـ)، وكذلك : محمد بن سعد ، *الطبقات الكبرى* (بيروت : دار صادر ، ١٩٥٨م)، وأيضا : أبو محمد عبد الله ابن قتيبة ، *المعارف* ، تحقيق ثروت عكاشة، (*القاهرة : دار المعارف* ، ١٩٨١م)؛ ط٢ وأخيرا : جلال الدين السيوطي ، *طبقات الحفاظ* (مكتبة وهبة ، ١٩٧٣م) .

(١٠٤) الذهبي ، *التفسير* ، ١١٥ - ١١٧ .

(١٠٥) الذهبي ، *التفسير* ، ١٠١ - ١١٤ .

(١٠٦) الذهبي ، *التفسير* ، ١٥٦ - ٢٠٣ .

(١٠٧) ابن سعد ، *الطبقات* ، ٣ : ٢٠٦ .

(١٠٨) في تعريف التفسير بالمأثور يقول الذهبي (*التفسير* ، ١٥٢): " يشمل التفسير بالمأثور ما جاء في القرآن نفسه من البيان والتفصيل لبعض آياته وما نقل عن الرسول ﷺ وما نقل عن الصحابة رضوان الله عليهم وما نقل عن التابعين من كل ما هو بيان وتوضيح لمراد الله تعالى من نصوص كتابة الكريم ."

(١٠٩) جلال الدين السيوطي ، *تنوير الحوالك ، شرح على موطأ مالك* (بيروت : دار الكتب العلمية ، د.ت .)، ٦ .

(١١٠) الذهبي ، *التفسير* ، ١٩٥ - ١٩٧ ، حيث يدافع عن ابن منبه على أساس أنه من التابعين " وقد وثقه الجمهور " ؛ يوسف هوروفيتس، *المغازي الأولى ومؤلفوها* ، ترجمة حسين نصار (القاهرة، ١٩٤٩م)، ٢٧ - ٣٦ ، حيث يدافع بدوره عن وهب .

(١١١) السيوطي ، *تنوير الحوالك* ، ١ : ٣ .

(١١٢) أبو الفداء بن كثير ، *البداية والنهاية في التاريخ* (بيروت : مكتبة المعارف ، ١٩٦٦م)، ٩ : ٦٦ .

(١١٣) الحافظ النيسابوري ، *كتاب معرفة علوم الحديث* (بيروت : دار إحياء العلوم ، ١٩٨٦م)، ٢٢ - ٢٤ .

(١١٤) محمد عجاج الخطيب ، *السنة قبل التدوين* (بيروت : دار الفكر ، ١٩٩٠م)، ١٦٤ - ١٦٦ .

(١١٥) ابن كثير ، *البداية* ، ٩ : ٣٤٢ .

(١١٦) السيوطي ، *تنوير الحوالك* ، ٩: ٣ .

(١١٧) شمس الدين الذهبي ، *سير أعلام النبلاء* (القاهرة : دار المعارف ، ١٩٥٥م)، ١: ٣٢٠ .

(١١٨) النيسابوري ، *علوم الحديث* ، ٤٣ .

(١١٩) السيوطي ، *تنوير الحوالك* ، ٥ .

(١٢٠) الخطيب ، *السنة* ، ٣٢٩ ، ٣٣١ (والهامش رقم ٣) .

(١٢١) السيوطي ، *تنوير الحوالك* ، ٥ - ٧ .

(١٢٢) الخطيب ، *السنة* ، ٣١٣ .

(١٢٣) النيسابوري ، *علوم الحديث* ، ٤٣ .

(١٢٤) النيسابوري ، *علوم الحديث* ، ٤٤ .

(١٢٥) حسين عطوان ، *رواية الشاميين للمغازي والسير في القرنين الأول والثاني الهجريين* (بيروت: دار الجيل ، ١٩٨٦م)، ١٣ - ٣٦ (يبدو أن عمر بن عبد العزيز شذ مرة أخرى عن القاعدة وأولى اهتماما وتشجيعا كبيرين لرواية السيرة النبوية) .

(١٢٦) عبد العزيز الدوري ، *بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب* (بيروت: دار المشرق ، ١٩٨٣م)، خاصة الصفحات ٦١ - ١٠٢ ؛ هوروفتس ، المغازي الأولى ص ١ - ٦٨ ؛ سهيل زكار ، *مقدمة تحقيق المغازي النبوية للزهري* ، (دمشق : دار الفكر ، ١٩٨١م)، ٧ - ٣٥ ؛ *عطوان، رواية الشاميين للمغازي والسير* ، ٧١ - ١٥٠ .

(١٢٧) هورفتس ، المغازي الأولى ، ٧٥ - ٩٦ ؛ عطوان ، *رواية الشاميين للمغازي والسير* ، ١٥٣ - ١٧٨ ؛ مطاع الطرابيشي ، *رواة محمد بن إسحاق بن يسار في المغازي والسير وسائر المرويات* ، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدبي (بيروت - دمشق : دار الفكر المعاصر - دار الفكر ، ١٩٩٤م .

(١٢٨) الخطيب ، *السنة* ، ١٧٨ - ١٧٩ .

(١٢٩) الطبري ، تاريخ، ٧ : ٣٥ - ٣٦ .

(١٣٠) الإمام محمد بن إسماعيل البخاري ، *التاريخ الكبير* (حيدر آباد الدكن ١٣٦٠ - ١٣٦١هـ)، ٤ : ٣٦٨ ؛ الخطيب ، *السنة* ، ٣١٣ ؛ حسين عطوان ، *الرواية الأدبية في بلاد الشام في العصر الأموي* (بيروت : دار الجيل ، ١٩٨٨م)، ١٧٧ - ١٨٢ .

(١٣١) ابن سعد ، *الطبقات* ، ٥ : ٢٣٤ ؛ عطوان ، *الرواية الأدبية* ، ١٨٢ - ١٨٤ .

(١٣٢) ابن قتيبة ، *المعارف* ، ٤٧٢ .

(١٣٣) ابن قتيبة ، *المعارف*، ٤٣٧ - ٤٣٨ .

(١٣٤) نقل الجاحظ في كتاب *العثمانية* (بيروت : دار الجيل ، ١٩٩١م)، ١٧٥ ، قول عبد الله بن عمر لعلي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) حين أراده على بيعته " إني لن أنزع يدي من جماعة وأضعها في فرقة." ولمن قال له بعد ذلك " لو بايعت أخاك عبد الله بن الزبير قال : إن أخي وضع يده في فرقة وإني لن أنزع يدي من جماعة وأضعها في فرقة ،" وروي عنه قوله أيضا : " لا أقاتل في الفتنة وأصلي وراء من غلب،" ابن سعد ، *الطبقات* ، ٤ : ١٤٩. ويروى أن الحجاج أمر بقتله فقتل برمح مسموم ؛ أبو عبد الله المصعب الزبيري ، *كتاب نسب قريش* (القاهرة : دار المعارف ، ١٩٨٢م)، ٣٥١ .

(١٣٥) ابن سعد ، *الطبقات* ، ٣ : ١٤٣ و ٢ : ٢٤ ، حيث يقول ابن سعد: " لما كان من علي ومعاوية ما كان خرج الوليد بن عقبة إلى الرقة معتزلا لهما فلم يكن مع واحد منهما حتى تصرم الأمر ومات بالرقة ، " وينقل نصر بن مزاحم المنقري ، "*وقعة صفين* ، ٧٥ ، قول سعد بن أبي وقاص لمعاوية الذي دعاه للثأر من قتلة عثمان : " أما بعد ، فإن عمر لم يدخل في الشورى إلا من يحل له الخلافة من قريش ، فلم يكن أحد منا أحق بها من صاحبه إلا باجتماعنا عليه ، غير أن عليا قد كان فيه ما فينا ولم يك فينا ما فيه . وهذا أمر قد كرهنا أوله وكرهنا آخره . فأما طلحة والزبير فلو لزما بيوتهما كان خيرا لهما والله يغفر لأم المؤمنين ما أتت ."

(١٣٦) المنقري ، وقعة صفين ، ٧٦ - ٧٧ .

(١٣٧) ينقل الدكتور حسين عطوان في *الفرق الإسلامية في بلاد الشام في العصر الأموي* (بيروت : دار الجيل ، ١٩٨٦م)، ٢٣ ، عن مخطوطة التيمورية من *تاريخ دمشق* لابن عساكر خبر الغزاة الذين عادوا بعد الفتح زمن عثمان إلى المدينة ورفضوا الانخراط في الفتنة فلقبوا بالشكاك وقالوا: " نرجئ أمرهما (أي عثمان وعلي) إلى الله حتى يكون الله هو الذي يحكم بينهما ، " وبذلك عدوا أصل المرجئة ، لكنه لا يميز بينهم وبين أبناء الصحابة العلماء الذين ذكرناهم .

(١٣٨) عبد الله محمد الأسطى ، *أبو عمرو بن العلاء اللغوي النحوي ومكانته العلمية* (طرابلس ليبيا : الدار الجماهيرية للنشر ، ١٩٨٦م)؛ عبد الحميد الشلقاني ، الأصمعي اللغوي ، *صور عراقية في القرن الثاني الهجري* (القاهرة : دار المعارف ، ١٩٨٢م) ؛ عبد الحميد الشلقاني ، *الأعراب الرواة* ، ط٢ (طرابلس ليبيا : المنشأة العامة للنشر ، ١٩٨٢م) ؛ أحمد محمد قدور ، *مدخل إلى فقه اللغة العربية* ، (بيروت : دار الفكر المعاصر ، ١٩٩٣م) ، ٧٢ وما بعدها ؛ أحمد علم الدين الجندي ، *اللهجات العربية في التراث* (تونس - طرابلس ليبيا : الدار العربية للكتاب، ١٩٨٣م) ١ : ١٣٥ - ٢٣١ ؛ ناصر الدين الأسد ، *مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية* (بيروت : دار الجيل ، ١٩٥٦)، ١٣٤ - ٢٥٤ ؛ محمد عجينة ، *موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها* (بيروت - تونس : دار الفارابي - العربية محمد علي الحامي للنشر ، ١٩٩٤م)، ١ : ٧٧ - ١١٤ .

(١٣٩) عطوان ، *الرواية الأدبية* ، ١٤ - ١٦ .

(١٤٠) حسين عطوان ، *مقدمة القصيدة العربية في العصر الأموي* (بيروت : دار الجيل ، ١٩٨٧ م) ؛ محمد عبد المنعم خفاجي ، *الأدب العربي وتاريخه في العصرين الأموي والعباسي* ط٢ ، (بيروت : دار الجيل ، ١٩٩٠م) .

(١٤١) انظر النقاش الممتاز لمسألة الغناء في الحجاز عند : محمد ضيف الله بطاينة ، *الحياة الاجتماعية في صدر الإسلام* (المدينة المنورة : مكتبة دار التراث ، ١٩٨٨م)، ٢٤٨ - ٢٥١ .

(١٤٢) قريسة ، "نمط المدينة الأموية والجزيرة العربية ،" ٥٥ - ٥٨ . ومن البحوث التي تعيد للتراث الجزيري مكانته داخل التراث الفني الإسلامي في صدر الإسلام : سعد عبد العزيز الراشد ، " الآثار الإسلامية في الجزيرة العربية في عصر الرسول والخلفاء الراشدين (رضي الله عنهم)، في *الجزيرة العربية في عصر الرسول والخلفاء الراشدين* ، ٢ : ١٤٥ - ١٩٩ ؛ وحسن الباشا ، "أثر عمارة عثمان في المسجد الحرام في تخطيط المساجد وفي العمارة الإسلامية ،" في *الجزيرة العربية* ، ٢: ٢٣٥ - ٢٤٧ .

دور الأنصار في الحياة العامة
في عهد معاوية بن أبي سفيان وابنه يزيد

أمينة بيطار

قسم التاريخ ، مركز الدراسات الجامعية للبنات، جامعة الملك سعود

الأنصار جماعة من أهل المدينة من الصحابة ونسلهم من أولاد الأوس والخزرج ، قيل لهم الأنصار لنصرتهم رسول الله ﷺ .[١] وقال الله تعالى يصفهم : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ ﴾ [٢] ، وقال عز من قائل : ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ ﴾ [٣] ، وقال الله تعالى : ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ [٤] .

أخلص الأنصار للإسلام ، وللدولة الإسلامية ، ومدوا يد العون للخلفاء الراشدين على الرغم من أنهم لم يحصلوا على ما يغوه من اجتماع سقيفة بني ساعدة. إلا أن لهم موقفاً من الخليفة عثمان بن عفان ، فبعد أن بايعوه أخذ عليه غالبيتهم بعض التصرفات التي أقرها ، وعلى رأس ذلك عدم انتقامه من عبيد الله بن عمر بن الخطاب الذي اتهم بقتل الهرمزان ، وايثاره وتقديمه لأقاربه عليهم ،[٥] فقد قبل اعتزال عمير بن سعد الأنصاري عن حمص وقنسرين لمرضه ، ولم يعين مكانه أنصارياً آخر ، بل ضم حمص وقنسرين إلى معاوية بن أبي سفيان.[٦]

وإذا كان غالبية الأنصار من معارضي سياسة الخليفة عثمان بن عفان ، إلا أن بعضهم أيدها. فقد ذكر الواقدي أن كلا من زيد بن ثابت ، وأبي أسيد الساعدي ، وكعب بن مالك بن أبي سلمة ، وحسان بن مالك ، وحسان بن ثابت الأنصاري ومحمد بن مسلمة أيدوا الخليفة عثمان بن عفان ، وأضافت رواية أبي مخنف إلى هؤلاء رفاعة بن رافع الأنصاري وكان بدريا ، والحجاج بن غزية وكانت له صحبة ، ومن المرجح أن مؤيدي الخليفة عثمان ابن عفان من كبار الأنصار جاوز عددهم الخمسين ، وقام هؤلاء الأنصار بمحاولة رد الثوار عنه. وقد ذكر ابن سيرين رواية تدل على أن الأنصار كانوا مؤيدين للخليفة عثمان ، حين ذكر أن زيد بن ثابت جاء إليه قائلا : " إن الأنصار

بالباب يقولون إذا شئت كنا أنصارا لله مرتين فقال عثمان أما القتل فلا ." (٧) وقد يكون زيد بن ثابت قصد الأنصار من مؤيدي الخليفة عثمان ، الذين رأوا أنه خليفة له بيعة في الأعناق، ويتمتع بخلق حسن، ويرعى الإسلام والمسلمين، كما أنه استمال عدداً من الأنصار بالمال والمناصب. فقد ذكرت المصادر أنه أعطى زيد بن ثابت مئة ألف درهم، وجعله خازن بيت المال. (٨) ولما قتل الخليفة عثمان رثاه كل من حسان بن ثابت وكعب بن مالك، (٩) وأبدوا أسفهم لتقاعس بعض أقاربهم عن نصرته. (١٠)

هذا ما كان من مؤيدي الخليفة عثمان من الأنصار؛ أما من كان منهم ضد سياسته، فقد عملوا على التحريض على تصرفاته. فقد حرض أنس بن مالك أهالي البصرة، وفعل عبادة بن الصامت وأبو الدرداء في الشام مثل ذلك، (١١) وكذلك فعل محمد بن أبي حذيفة في مصر، (١٢) وعمرو بن حزم في المدينة. (١٣) ومد بعض الأنصار يد العون للثوار. (١٤) وقد أدى موقفهم هذا إلى اتهام الخليفة معاوية بن أبي سفيان لهم بخذلان الخليفة عثمان، وعصيان الله في ذلك. (١٥)

كان موقف الأنصار من الخليفة عثمان بن عفان مقدمة لموقفهم من الأمويين، فقد رأى غالبية الأنصار أن علي بن أبي طالب أحق الناس بالخلافة، (١٦) وأن تأييد حقه استمرار لنصرة الرسول ﷺ وبايعوه بالخلافة، ولم يتخلف عن بيعته أحد من الأنصار. فقد ذكرت المصادر أن ثابت بن قيس بن شماس الأنصاري أيد بيعته باسم الأنصار، كذلك فعل خزيمة بن ثابت الأنصاري ذو الشهادتين. (١٧) وذكرت مصادر أخرى أن بعض مؤيدي الخليفة عثمان بن عفان لم يبايعوه، فقد جاء في رواية عن عبد الله بن الحسن أن كلا من حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، ومسلمة بن مخلد، وأبي سعيد الخدري، ومحمد بن مسلمة، والنعمان بن بشير، وزيد بن ثابت، ورافع بن خديج، وفضالة بن عبيد، وكعب بن عجرة كانوا عثمانية، (١٨) وبالتالي فإنهم لم يبايعوا لعلي وقد ذكر معاوية بن أبي سفيان صحبة أربعة منهم له حين قال: "صحبني أربعة من الأنصار النعمان بن بشير فوليته حمص، ومسلمة بن مخلد فوليته مصر، وعمرو بن سعيد فوليته فلسطين، وفضالة بن عبيد فوليته القضاء، ولو زادوني لزدتهم، ولأنا خير لهم من أبي بكر وعمر." (١٩)

وأحسن علي بن أبي طالب لمن كان معه من الأنصار، وولى من كان أهلا منهم، الولايات. فقد استعمل عثمان بن حنيف على البصرة، الذي ثبت على ولائه لعلي بن أبي طالب، ولم تفلح محاولة أصحاب الجمل عن ثنيه عن ذلك على الرغم من استخدام العنف معه. (٢٠)

كما استعمل قيس بن سعد بن عبادة على مصر، فضبطها له، ووقف في وجه معاوية حتى وفاته. ووجه علي سهل بن حنيف على الشام إلا إنه لم يتمكن من دخولها لمعارضة معاوية وأهل الشام. (٢١) وجعل قرظة بن كعب الأنصاري على الكوفة، وعزل عنها أبا موسى الأشعري، (٢٢) كما جعل رسوله إلى معاوية الحجاج بن غزية

الأنصاري،[٢٣] وهو الذي قال لعلي في موقعة الجمل: " لأرضينك بالفعل كما أرضيتني بالقول، والله لأنصرن الله عز وجل كما سمانا أنصاراً."[٢٤] وكانت استعانة علي بن أبي طالب بهم لكفاءتهم .

وهكذا فإن الأنصار أيدوا خلافة علي بن أبي طالب، ووقفوا إلى جانبه ضد خصومه، وعملوا على حمايته بأنفسهم ، فحين أراد التوجه لقتال الخارجين عليه في موقعة الجمل سنة ٣٦هـ / ٦٥٦م، حاولوا ثنيه عن الخروج بنفسه وأعلنوا أنهم سيكفونه مؤونتهم، وحين رأوا إصراره على المسير بنفسه تتابعوا إليه، وقالوا فأحسنوا القول،[٢٥] وسار معه سبعمئة رجل،[٢٦] كان من بينهم أبو الهيثم بن التيهان وهو بدري، وخزيمة بن ثابت ذو الشهادتين،[٢٧] وأبو عمرة بن عمرو بن محصن الأنصاري،[٢٨] وقد عملوا على الدفاع عنه وأناب علي عنه في المدينة سهل بن حنيف الأنصاري وكلفه بإدارة شؤون المسلمين في غيابه.[٢٩] ويبدو أن عدد من كان معه منهم أكثر من ذلك، أو أن هذا العدد ازداد بمن انضم إليه منهم ممن كان في العراق.[٣٠]

كان معاوية بن أبي سفيان يشعر بأن مولاة غالبية الأنصار للخليفة علي بن أبي طالب سيكون لها أثر في صعوبة تحقيق أهدافه فيها، ولذلك فإنه كان يتمنى أن يجعل قيساً من أنصاره، وحاول إغراءه واستمالته ففشل. وتمكن أخيراً من الإيقاع بينه وبين علي بن أبي طالب الذي عزله عن مصر، وعين مكانه محمد بن أبي بكر.[٣١]

تقبل قيس بن سعد قرار عزله عن مصر برحابة صدر، ولم ينقلب على علي . ونصح محمد بن أبي بكر - الوالي الجديد الذي حل محله - بالطريقة التي يمكن اتباعها في حكم مصر، وظل مخلصاً لعلي بن أبي طالب، ووقف إلى جانبه في حروبه ضد معاوية ، الذي غضب على رجاله في المدينة المنورة لأنهم تركوا قيس بن سعد يلتحق بعلي بن أبي طالب، وخاطب مروان بن الحكم، والأسود بن أبي البختري قائلاً: (أمددتما علياً بقيس بن سعد ورأيه ومكايدته ، فوالله لو أنكما أمددتماه بمئة ألف مقاتل ما كان بأغيظ إلي من إخراجكما قيس بن سعد إلى علي) .وأدرك علي بعد فوات الأوان ما كان قيس بن سعد يفعله للاحتفاظ بحكم مصر لصالحه. فقد كان " يوازي أموراً عظاماً من المكايدة، وأن من كان يشير عليه بعزله لم ينصح له ."[٣٢] وكان يماثله في رأيه ومكايدته سهل بن حنيف.[٣٣]

ساعد جلة الأنصار علي بن أبي طالب في قتاله لمعاوية بن أبي سفيان في صفين . فقد ذكرت المصادر أنه لم يكن مع معاوية منهم إلا اثنان فقط، وهما النعمان بن بشير، ومسلمة بن مخلد.[٣٤] وفي هذا مبالغة لا يمكن تصديقها، ذلك لأن معاوية نفسه اعترف بانضمام أربعة من قيادي الأنصار له. ولا بد من أن يكون أنصار عثمان بن عفان قد انضموا إليه .

أناب علي بن أبي طالب عنه في الكوفة - حين خرج إلى صفين - أبا مسعود الأنصاري (عقبة بن عمرو)،[٣٥] وسار إليها بالمهاجرين والأنصار على حد قول اليعقوبي.[٣٦] وأقام قبل أن يبدأ القتال بالعمل على حل الخلاف بالطرق السلمية. فقد أجرى الكتب بينه وبين معاوية وعمرو بن العاص سبعة عشر شهراً[٣٧] فقد أرسل

أبا عمرة الأنصاري إلى معاوية ليحاوره ويطلب منه حقن دماء المسلمين ، وإعادة الوحدة إلى الخلافة الإسلامية ، فلم يفلح. كما أن معاوية كان يدرك مكانة الأنصار في جيش علي بن أبي طالب ، فحاول ثنيهم عن قتاله ، وتثبيط هممهم. فقد كتب إلى محمد بن مسلمة الأنصاري يدعوه فيه إلى نهي أهل الصلاة عن قتال بعضهم بعضاً ، بعد أن يئس من الحصول على بيعته.[٣٨] كما أنه احتج وأظهر غضبه من انضمامهم لعلي بن أبي طالب حين خاطب النعمان بن بشير الأنصاري بقوله : "لقد غمني ما لقيت من الأوس والخزرج صاروا واضعي سيوفهم على عواتقهم يدعون إلى النزال ، حتى والله جبّنوا أصحابي ، الشجاع والجبان حتى والله ما أسأل عن فارس من أهل الشام إلا قالوا قتلته الأنصار. أما والله لألقينهم بحدي وحديدي ولأعبين لكل فارسٍ منهم فارساً ينشب في حلقه ، ثم لأرمينهم بأعدادهم من قريش." وقد دفع هذا القول النعمان بن بشير الأنصاري - وهو من مؤيدي معاوية - إلى الغضب من قوله ، فأجابه موضحاً سبب موقف الأنصار هذا ، كما أجابه قيس بن سعد ووضح مكانة الأنصار ، وسبب انضمامهم إلى علي ووقوفهم ضده.[٣٩]

لم يكتف معاوية بذلك بل أرسل النعمان بن بشير إلى قومه ليقنعهم برغبته بانضمامهم إليه ، فكان ردهم على لسان مقدمهم قيس بن سعد بأن الأنصار بقيادة علي بن أبي طالب ، أو بقيادة غيره ، على استعداد لقتال معاوية بمفردهم حتى لو اجتمعت العرب على بيعته.[٤٠] وذلك لخروجه عن الطاعة ، وعدم أحقيته بالخلافة.

وهكذا بدأ العداء سافراً بين الأنصار ممن انضم إلى علي بن أبي طالب ، وبين معاوية بن أبي سفيان الذي ألقى تبعة قتل عثمان بن عفان عليهم. ولذلك فإنه ما أن انتهى تحكيم الحكمين لصالحه ، حتى فكر في جعل الحجاز تحت حكمه ، فأرسل إليها حملة في ثلاثة آلاف رجل بقيادة بسر بن أبي أرطأة ، وأمره قائلاً : " سر حتى تمر بالمدينة ، فاطرد أهلها ، وأخف من مررت به ، وانهب مال كل من أصبت له مالاً ، ممن لم يكن دخل في طاعتنا ، وأوهم أهل المدينة أنك تريد أنفسهم ، وأنهم لا براءة لهم عندك ولا عذر ."[٤١] وعمل بسر بوصية معاوية ، فلما دخل المدينة ، خاف أبو أيوب الأنصاري - عامل علي عليها - فخرج منها ، فدخلها بسر دون قتال وأراد أن يظهر فضل معاوية عليهم ، فأعلن أنه لن يترك بها محتلماً إلا قتله لولا عهد معاوية إليه بألا يفعل . ومع ذلك فإنه أنذر من لم يبايع من الأنصار من أمثال جابر بن عبد الله وعشيرته جميعاً من بني سلمة ، وأعلن أنهم ليس لهم عنده أمان إن لم يبايعوا ، مما اضطر جابر بن عبد الله إلى بيعته.[٤٢]

تسلم قيس بن سعد وسهل بن حنيف قيادة فرق من جيش علي المقاتل في صفين ، وحمل صغار الأنصار سناً وكبارهم على جيش معاوية .[٤٣] وكانوا معه في التحكيم مع أنهم لم يكونوا راغبين به.[٤٤] فقد حضر منهم أبو أسيد مالك بن ربيعة الأنصاري ، وسهل بن حنيف ، وأبو اليسر عمرو الأنصاري ، ورفاعة بن رافع بن مالك الأنصاري ، والنعمان بن عجلان الأنصاري ،[٤٥] وأضاف الطبري[٤٦] حضور سبيع بن يزيد الأنصاري ، وعلقمة بن يزيد الأنصاري. بينما لم يرد أسماء أحد الأنصار إلى جانب معاوية في التحكيم.[٤٧]

كما كان الأنصار مع علي بن أبي طالب في النهروان، وتسلموا قيادة الجيوش . فقد كان أبو أيوب الأنصاري على الخيل، وأبو قتادة الأنصاري على الرجالة ، وقيس بن سعد على أهل المدينة وهم سبعمئة أو ثمانمئة. (٤٨) .وبعد مقتل علي بن أبي طالب أيد الأنصار بقيادة قيس بن سعد ابنه الحسن، ولم يقبل قيس الانضمام إلى معاوية على الرغم من الظروف السيئة التي أحاطت به بعد تنازل الحسن بن علي عن الخلافة .(٤٩) وحين أرسل له معاوية سجلاً مختوماً في أسفله، يطلب فيه ما يشاء، فإنه لم يطلب إلا الأمان له ولشيعة علي على ما أصابوا من الدماء والأموال .(٥٠)

استخدم معاوية مع الأنصار بعد تنازل الحسن بن علي، سياسة الرفق واللين تارة والشدة تارة أخرى عسى أن يجعلهم إلى جانبه وقد أفلحت هذه السياسة بانضمام بعضهم إليه، (٥١) ولكنه لم يتمكن من ضم كل المناهضين. (٥٢) وتبدو محاولة استمالة معاوية لهم بالرفق واللين أحياناً، مما ذكره الشعبي قائلاً: "إن معاوية بعث إلى رجل من الأنصار بخمسمئة دينار فاستقلها، وأقسم على ابنه أن يأتي معاوية فيضرب بها وجهه، فانطلق الابن حتى دخل على معاوية، فلما رآه قال : ما جاء بك يا ابن أخي؟ قال: إن لأبي طيرة وفيه حدة، وقد قال لي كيت وكيت ... فوضع معاوية يده على وجهه وقال: افعل ما أمرك به أبوك، وارفق بعمك . "فرمى الدنانير، وأمر معاوية للأنصاري بألف دينار." (٥٣)

وقد اعترف معاوية بقلة من كان من معه من الأنصار في خلافه مع علي بن أبي طالب، حين خاطب جماعة منهم قائلا لهم: " يا معشر الأنصار !! بم تطلبون ما قبلي ؟ فوالله لقد كنتم قليلا معي، كثيرا علي. ولفللتم حدي يوم صفين، حتى رأيت المنايا تتلظى في أسنتكم، وهجوتموني في أسلافي بأشد من وخز الأسل، حتى إذا أقام الله ما حاولتم ميله، قلتم: ارع فينا وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم. هيهات بأبي الحقين العذرة ." فأجابه قيس بن سعد قائلا : " نطلب ما قبلك بالإسلام الكافي به الله ... وأما فلنا حدك يوم صفين، فإنا كنا مع رجل نرى طاعته طاعة الله . وأما وصية رسول الله بنا، فمن آمن به رعاها بعده ، وأما قولك بأبي الحقين العذرة ، فليس دون الله يد تحجزك منا يا معاوية ."(٥٤)

ويتضح من ذلك أن موقف الأنصار السياسي أصبح ضعيفا بعد مقتل علي بن أبي طالب، وتنازل ابنه الحسن عن الخلافة وأصبحوا يرجون حفظ وصية رسول الله ﷺ فيهم : " استوصوا بالأنصار خيرا" ولم يستطع معاوية على الرغم من كل محاولاته أن يجعل قائدهم وزعيمهم قيس بن سعد من أنصاره، بل رضي قيس أن يبقى في الظل في المدينة المنورة، ولا يصبح رجلا من رجال معاوية، على الرغم من كل الإغراءات التي قدمها معاوية، وبقي كذلك حتى توفي في سنة ٦٠هـ /٦٨٠م في حياة معاوية .(٥٥)

ولما توفي معاوية بن أبي سفيان وتولى ابنه يزيد الخلافة لم يجتمع رأي المسلمين على خلافته، فقد خرج عليه الحسين بن علي مطالبا بالخلافة ،وخرج معه عدد من الأنصار أمثال عمرو بن قرظة الأنصاري، وعمرو بن كعب

الأنصاري الذي جعله الحسين رسوله إلى عمرو بن سعد قائد جيش يزيد بن معاوية أثناء المفاوضات التي جرت بين الطرفين قبل بدء القتال.(٥٦)

ومما يذكر هنا موقف النعمان بن بشير الأنصاري والي الكوفة من قبل معاوية ثم ابنه يزيد، فعلى الرغم من أنه كان من الأنصار الموالين لمعاوية والأمويين، فإنه تعاطف مع مسلم بن عقيل الذي أرسله الحسين لمعرفة موقف أنصاره من الشيعة، ونسب إليه أنه قال: "لابن بنت رسول الله ﷺ أحب إلينا من ابن [بنت] بحدل - ويقصد يزيد." (٥٧) ولاحظ أنصار يزيد بن معاوية تهاون النعمان في القبض على مسلم، فأرسلوا إلى يزيد يعلمونه بموقف النعمان، فعزله عن الكوفة، وضمها إلى عبيد الله بن زياد، وكلفه بملاحقة مسلم بن عقيل وقتله،(٥٨) ثم تلا ذلك معركة كربلاء ومقتل الحسين بن علي على يد أنصار يزيد، وكان مقتله من أكبر الأسباب التي أدت إلى ثورتهم عليه، وقد قتل مع الحسين أربعة من الأنصار على رأسهم عمرو بن قرظة بن كعب الأنصاري الذي قاتل دون الحسين حتى قتل.(٥٩)

انضم الأنصار إلى الحركات المضادة للأمويين، فقد وقفوا إلى جانب عبد الله بن الزبير، لأنهم وجدوا أن لا أحد ينازعه بعد مقتل الحسين، (٦٠) وكاشفوا يزيد بن معاوية بالعداوة ولما أراد عمرو بن سعيد الأشدق والي المدينة ليزيد إرسال جيش لقتال ابن الزبير، منعوه وخاطبه رافع بن خديج الأنصاري قائلا: "اتق الله، ولا تغز الجيوش مكة، فإن الله حرمها، ولم تحل لنبيه إلا ساعة من نهار، ثم عادت حرمتها" ولكنه لم يستمع إليه، وقال له: "وما أنت وهذا؟ لقريش علم لا تبلغه أنت ولا أصحابك."(٦١)

ومع اهتمام عمرو بن سعيد بالقضاء على ثورة عبد الله بن الزبير، فإن الخليفة يزيد كان يرى أنه قصر فيما يجب عليه، فعزله وعاتبه على تقصيره في أشياء كان يأمره بها في ابن الزبير فلا ينفذ منها إلا ما أراد، ووضح عمرو بن سعيد موقفه ليزيد قائلا: "يا أمير المؤمنين: الشاهد يرى مالا يرى الغائب، وإن جل أهل مكة وأهل المدينة قد كانوا مالوا إليه وهووه وأعطوه الرضا، ودعا بعضهم بعضا سرا وعلانية، ولم يكن معي جند أقوى بهم عليه لو ناهضته." (٦٢)

عانت المدينة المنورة من ضائقة اقتصادية أدت إلى غلاء الأسعار، وتعود أسباب هذه الضائقة إلى سياسة يزيد نفسه، وأخرى تمتد جذورها إلى عهد أبيه. ومن تلك التي تعود إلى خلافة معاوية، أنه حبس عطاء أهل المدينة، ونقل نتاج الصوافي إلى دمشق، واشترى أراضي الصوافي من أهل المدينة بجزء من مئة من ثمنها.(٦٣) وقد ذكر اليعقوبي (٦٤) أن معاوية "كان أول من كانت له الصوافي .... حتى بمكة والمدينة، فإنه كان فيها شئ يحمل في كل سنة من أوساق التمر والحنطة."

هذا وقد استمر حبس عطاء أهل المدينة في مطلع خلافة يزيد، فقد حبسه عنهم عمرو بن سعيد،(٦٥) فاحتج أهاليها من هذا التصرف إلى عثمان بن محمد بن أبي سفيان - واليها الجديد بعد عمرو بن سعيد - قائلين له: " قد

علمت أن هذه الأموال كلها لنـا ، وأن معاوية آثر علينا في عطائنا ، ولم يعطنا قط درهما فما فوقه ، حتى مضنا الزمان ونالتنا المجاعة ، فاشتراها منا بجزء من مئة من ثمنها." وكان معاوية قد "اكتسب أموالا ونخيلا يجد منها مئة ألف وسق وستين ألفا." (٦٦)

استغل الأنصار ضعف الوالي الأموي عثمان بن محمد بن أبي سفيان ، فأرادوا أن يستعيدوا حقوقهم واجتمع أمرهم على منع ابن مينا القيم على هذه الصوافي منذ أيام معاوية بن أبي سفيان من دخول هذه الأراضي ، فلم يكن منه إلا أن أعلم والي المدينة بأن أهالي المدينة منعوه من أن يحمل ما كان يحمله في كل سنة من تلك الصوافي من الحنطة والشعير. فأرسل عثمان إلى جماعة منهم ، وأنبهم على ما فعلوه ، وكلمهم بكلام غليظ ، (٦٧) وكتب إلى يزيد بن معاوية بذلك ، (٦٨) وصور له الأضغان القديمة التي لم تزل في صدور الأنصار.

ومما يؤكد سوء وضع الأنصار الاقتصادي ما ذكره البلاذري (٦٩) عن قلة ما عند الأنصار من الخيول وغيرها. والتي ظهرت واضحة حين حج معاوية بن أبي سفيان ، وقرب من المدينة المنورة ، فخرج الناس للقائه من مسافات بعيدة ، وتلقته الأنصار وأكثرها مشاة ، فقال لهم معاوية : "ما منعكم من تلقي من بعد كما تلقاني الناس من بعد ،" فأجابه سعيد بن سعد بن عبادة : "منعنا من ذلك قلة الظهر ، وخفة ذات اليد بإلحاح الزمان علينا ، وإيثارك بمعروفك غيرنا ."

ولما أدرك يزيد ضيق أهل المدينة الاقتصادي ، وموالاتهم لابن الزبير ، أراد أن يستوعبهم ويحول دون ثورتهم ، فكتب إلى واليه على المدينة ، طالبا منه أن يوجه وفدا من أهاليها من المهاجرين والأنصار ليسمع مقالتهم ، ويستميل قلوبهم إليه. فأرسل له وفدا ، حصل على إكرام يزيد ، وعلى الأموال والهدايا ، (٧٠) فأعطى عبد الله بن حنظلة الغسيل الأنصاري مئة ألف ، وقيل خمسين ألفا . (٧١) وأعطى بنيه كل واحد منهم عشرة آلاف سوى كسوتهم وحملانهم ، فلما قدم عبد الله بن حنظلة المدينة ، أتاه الناس يسألونه عما وراءه ، فقال يصف يزيد : "أتيتكم من عند رجل والله لو لم أجد إلا بني هؤلاء لجاهدته بهم. قالوا : فإنه بلغنا أنه أكرمك وأعطاك ، قال : قد فعل ، وما قبلت ذلك منه إلا أن أتقوى به عليه." (٧٢)

أخذ عبد الله بن حنظلة يحض الناس على الخروج على يزيد ، وقتال بني أمية وشيعتهم حتى تعود الأمور إلى نصابها ، وبدأ أهل المدينة بالعمل على إخراج الأمويين منها ، وعلم يزيد بما حل بأفراد الأسرة الأموية في المدينة عن طريق واليه عليها عثمان بن محمد . (٧٣) فحاول تهدئة الفتنة سلما ، ورأى أن يرسل إليهم رجلا منهم ، فأرسل النعمان بن بشير الأنصاري طالبا منه أن يحذرهم مغبة الفتنة ، ويدعوهم إلى الطاعة ولزوم الجماعة ، موضحا أن غالبية أهل المدينة من الأنصار بقوله : "إن عدد الناس بالمدينة الأنصار من قومك ، فأتهم فافثأهم عما يريدون." (٧٤)

وقدم النعمان إلى المدينة فاجتمع بأهلها من أنصار ومهاجرين ، وحذرهم قوة جنود أهل الشام ، ونتائج الخروج على طاعة الخلفاء ، ورغبهم في بيعة يزيد ، فأجابه عبد الله بن مطيع القرشي قائلا : "يا نعمان قد جئتنا بأمر تريد به تفريق جماعتنا ، وإفساد ما قد أصلح الله من أمرنا." ولكن النعمان طلب منه ألا يتكلم باسم الأنصار ، لأنه حين يجد الجد ، ويحمى الوطيس ، يكون أول من يترك المدينة ويلتحق بمكة ، ويدع الأنصار وحدهم يقتلون في سكك المدينة ومساجدها .(٧٥) كما أن الأنصار لم يجيبوه إلى ما أراد ، ووضحوا أنهم لا يريدون خلافة يزيد بن معاوية .

وهكذا فشل النعمان بن بشير في وساطته ، ويبدو أن يزيد كان قد حمله كتابا إلى أهل المدينة ليقرأه عليهم إذا لم يستجيبوا لوساطته ، يهددهم فيها باستخدام القوة والعنف معهم ، وينذرهم معلنا لهم عن فراغ صبره ، ومما جاء في هذا الكتاب : "أما بعد ، فقد أنظرتكم حتى لانظرة ، ورفقت بكم حتى عجزت عندكم ، وحملتكم على رأسي ثم على عيني ، ثم على نحري ، وأيم الله لئن وضعتكم تحت قدمي ، لأطأنكم وطأة أجعلكم بها أحاديث تؤثر مع أحاديث عاد وثمود ." (٧٦) ومع ذلك فإن تهديدات يزيد لم تجد نفعا ، بل يمكن القول إنها أسرعت بانفجار الثورة ، وطرد والي المدينة والأمويين منها. (٧٧)

وبدأ يزيد بتجهيز جيش لقتال أهل المدينة ، وقبل قبل إرسال هذا الجيش وساطة عبد الله ابن جعفر بن أبي طالب (ت ٨٠ هـ / ٦٩٩م)، الذي طلب منه الرفق بأهل المدينة لأنهم أهله وعشيرته ، وأنه إن قتلهم يقتل بهم نفسه ، فلم يزل يلح عليه ويرفقه بهم ، حق قال له : "إن إبن الزبير حيث علمت من مكة ، وهو زعم أنه قد نصب الحرب ، فأنا أبعث إليه الجيوش ، وآمر صاحب أول جيش أبعثه أن يتخذ المدينة طريقا ، وأن لا يقاتل ، فإن أقروا بالطاعة ، ونزعوا من غيهم وضلالهم ، فلهم علي عهد الله وميثاقه أن لهم عطاءين في كل عام، مالا أفعله بأحد من الناس طول حياتي ، عطاء في الشتاء ، وعطاء في الصيف ، ولهم علي أن أجعل الحنطة عندهم كسعر الحنطة عندنا " والحنطة عندهم سبع آصع بدرهم " والعطاء الذي يذكرون أنه احتبس عنهم في زمان معاوية فهو علي أن أخرجه لهم وافرا كاملا ، فإن أنابوا وقبلوا ذلك، جاوز إلى ابن الزبير ، و إن أبوا قاتلهم."(٧٨) كما وعدهم برد العطاء الذي حبسه عنهم عمرو بن سعيد الأشدق. (٧٩)

وهكذا عاد عبد الله بن جعفر إلى منزله ، وكتب إلى أهل المدينة من ليلته كتابا أعلمهم فيه بقول يزيد ، وحضهم على الطاعة والتسليم والرضا والقبول لما بذل لهم ، ونهاهم أن يتعرضوا لجيوشه ، وحمل كتابه إلى رسول حضه على أن يجهد السير حتى يصل إلى المدينة بسرعة ، فوصلها في عشرة أيام، ولكن أهل المدينة رفضوا ما جاء في هذا الكتاب ، وقالوا : "لا يدخلنها عنوة أبدا." (٨٠)

رفض أهالي المدينة طاعة الخليفة يزيد كما رفضوا عروضه على الرغم من أن فيها حلولا لكل معاناتهم، مما يدل على أن أهالي المدينة لم يكونوا راغبين بحكم يزيد ، وأنهم أرادوا الخروج عليه، وقد يكون ذلك لأنهم كانوا

يريدون إعادة مركز الثقل إلى المدينة إذا ناصروا عبد الله بن الزبير. أما بالنسبة للخليفة يزيد بن معاوية ، فقد تكون عروضه لهم حتى لا يضيف إلى تاريخه نقطة سوداء أخرى بعد ما حدث في كربلاء .

ويبدو أن رفض أهالي المدينة لوساطة عبد الله بن جعفر دفعت يزيد إلى مخاطبته قائلا له : " ألم أجبك إلى ما طلبت ، وأسعفتك فيما سألت ، فبذلت لهم العطاء ، وأجزلت لهم الإحسان ، وأعطيت العهود والمواثيق على ذلك؟" فما كان من عبد الله بن جعفر إلا أن أجابه قائلا : "فمن هنالك استرجعت ، وتأسفت عليهم إذ اختاروا البلاء على العافية ، والفاقة على النعمة ، ورضوا بالحرمان دون العطاء." (٨١)

وحدثت معركة الحرة ، واستشهد فيها العديد من الأنصار الذين اختلفت المصادر في تقدير عددهم ، فكانوا بين مكثر ومقل ، فجعل بعضهم العدد سبعمئة من المهاجرين والأنصار(٨٢) وآخرون ثلاثمئة وستة رجال من الأنصار. (٨٣) ووصل العدد عند البعض الآخر إلى ألف وسبعمئة من المهاجرين والأنصار وخيار التابعين. (٨٤) وأكثر من عشرة آلاف من الموالي والعبيد والصبيان والنساء. (٨٥)

وهكذا فإن الأوضاع الاقتصادية في المدينة ، وشعور أهل المدينة بفقدان مركزهم الذي كان لهم فيما سبق ، إضافة إلى محاولة عبد الله بن الزبير ضمهم إلى صفه ، كان لها أكبر الأثر في خروج الأنصار خاصة ، وأهالي المدينة عامة على الأمويين في خلافة يزيد .

ومهما يكن الأمر ، فإنه يمكن القول إن سكان المدينة بكافة فئاتهم ، وعلى رأسهم الأنصار الذين كانت لهم القيادة العامة في المعركة ، وقفوا ضد بني أمية ، وحاولوا الاستقلال عنهم ، وكانت هذه المعركة آخر محاولة جادة قام بها الأنصار للتخلص من الحكم الأموي . ويبدو أنهم أخذوا منذ ذلك الوقت يصرفون جل اهتمامهم إلى الزراعة. (٨٦) وانصرفوا عن السياسة والتدخل في شؤون الحكم إلى حد كبير . وقد قال عبد الله بن أبي بكر مؤكدا ذلك : " كان أهل المدينة أعز الناس وأهيبهم ، حتى كانت الحرة فاجترأ الناس عليهم ، فهانوا." (٨٧)

وبعد وفاة يزيد بن معاوية انضم الأنصار إلى عبد الله بن الزبير وبايعوه بمن فيهم أنصار الأمويين ، وعلى رأسهم النعمان بن بشير الأنصاري ، مما أدى إلى قتله على يد أشياع الأمويين . (٨٨) وهكذا انتهت حياة أكثر الأنصار تأييدا للخلافة الأموية ، فقد ساند قبل قيام الخلافة الأموية الخليفة الراشدي عثمان بن عفان ، ثم انضم إلى معاوية وابنه يزيد ، وقاتل مع معاوية في كل المعارك التي خاضها ضد علي بن أبي طالب ، ولم يشجع عبد الله بن الزبير على الثورة ضد يزيد طالما أنه كان حيا . وأيد حركته بعد وفاته وتنازل ابنه معاوية الثاني عن الخلافة ، فنال عقابه على يد الفرع المرواني من الأمويين .

ومهما كان موقف الأنصار من الخليفة معاوية وابنه يزيد ، فإنهم لم يتخلوا عن الجهاد في سبيل الله . فقد كانوا يقومون بواجبهم هذا دون النظر إلى القائد الذي يقود القتال . فقد شاركوا في الحملات العسكرية تحت قيادة

غيرهم ، كما قاد عدد منهم الغزوات، [٨٩] إضافة إلى أنهم شاركوا في الجيوش التي قاتلت في صفين والحرة وغيرها .

وممن شارك من الأنصار في الجهاد ضد الروم (البيزنطيين) خالد بن زيد المعروف بأبي أيوب الأنصاري (ت ٥٢هـ / ٦٧٢م) ، وهو ممن شهد العقبة وسائر المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . كان محبا للغزو والجهاد ، غزا القسطنطينية تحت قيادة يزيد بن معاوية ، ومرض أثناء الحصار ، ودفن في أصل حصن القسطنطينية ، وهو إلى جانب حبه للجهاد من علماء المسلمين في الحديث ، له مئة وخمس وخمسون حديثا.[٩٠]

أما شداد بن أوس بن ثابت الخزرجي الأنصاري (ت٥٨هـ / ٦٧٧م)، فهو ممن برز في الجهاد في سبيل الله ، وتولى الولايات ، إضافة إلى كونه من علماء الحديث والفقه ، قال عنه أبو الدرداء : " لكل أمه فقيه ، وفقيه هذه الأمة شداد بن أوس." له في كتب الحديث خمسون حديثا. تولى إمارة حمص لعمر بن الخطاب ، واعتزل الفتنة حين قتل عثمان بن عفان ، وعكف على العبادة ، توفي في القدس عن خمس وسبعين سنة. [٩١]

ويعد عبادة بن الصامت بن قيس الأنصاري الخزرجي ، والذي عاش بين سنتي (٣٨ ق.هـ - ٣٤هـ /٥٨٦-٦٥٤ م) من سادات الصحابة ومن القادة الشجعان ، شارك في الغزو والجهاد أثناء ولاية معاوية بن أبي سفيان للشام . فقد غزا جزيرة قبرص ، وشارك في فتح مصر مع عمرو بن العاص ، وسبق له أن شهد المشاهد مع الرسول ﷺ مثل العقبة وبدر وغيرها . وصف بالورع والتقوى والعلم والفقه ، مما دفع معاوية إلى تعيينه على قضاء فلسطين ، وهو أول من ولي القضاء بها . كان محدثا له مئة وواحد وثمانون حديثا.[٩٢]

واشتهر عبد الله بن حنظلة (ابن عبد عمرو) بن صيفي بن النعمان الأوسي الذي عاش بين سنتي (٤-٦٣هـ / ٦٢٦ - ٦٨٣م) بالشجاعة . فقد كان من أعلام التابعين وشجعانهم المعدودين. فلما ثار أهل المدينة يوم الحرة ، وأخرجوا عمال بني أمية من المدينة أجمعوا عليه وولوه أمرهم ، فبايعهم على الموت ، ولما دنا جيش يزيد بن معاوية من وادي القرى ، صلى بالناس وخطبهم ، فحضهم على الثبات في قتال الأمويين ، وظل يقاتل حتى قتل.[٩٣]

وممن اشتهر بالعلم إضافة إلى الشجاعة والمقدرة العسكرية عبد الله بن زيد بن عاصم بن كعب الأنصاري الخزرجي ، عاش بين سنتي (٧ ق.هـ - ٦٣هـ /٦١٦-٦٨٣م) صحابي من أهل المدينة ، كان شجاعا ، شهد بدرا ، وقاتل يوم الردة ، وكان في الجيش الذي توجه إلى بني حنيفة ، نسب إليه قتل مسيلمه الكذاب يوم اليمامة ، قاتل الأمويين يوم الحرة فقتل. له ثمان وأربعون حديثا .[٩٤]

وكان عبد الله بن يزيد بن زيد الأوسي الأنصاري (ت نحو ٧٠هـ / ٦٩٠م) ممن شهد الحديبية وهو صغير السن، وقف مع علي بن أبي طالب ضد معاوية ، فشهد الجمل وصفين ، انضم بعد ذلك إلى عبد الله بن الزبير ، فولاه مكة مدة يسيرة ، ثم الكوفة فتوفي بها. [٩٥]

أما عثمان بن حنيف بن وهب الأنصاري الأوسي (ت بعد ٤١هـ / بعد ٦٦١م) فقد شهد أحدا وما بعدها. كان من الولاة المشهود لهم بالكفاءة ، تولى السواد لعمر بن الخطاب ، حيث كلفه بمسح الأراضي غربي دجلة ، وتقدير الخراج عنها مع حذيفة بن اليمان . انضم إلى علي بن أبي طالب في خلافه مع معاوية بن أبي سفيان فولاه البصرة . ولما نشبت فتنة الجمل بين عائشة وعلي دعاه أنصار عائشة إلى الخروج معهم على علي ، فامتنع ، فنتفوا شعر رأسه ولحيته ، وحاجبيه ثم أطلقوه فلحق بعلي وحضر معه الوقعة . سكن في الكوفة ، توفي في خـــلافة معاوية. (٩٦)

وممن اشتهر بالأعمال العسكرية عمارة بن عمرو بن حزم الأنصاري الخزرجي(ت٧٣هـ/ ٦٩٢م) من خيرة أصحاب عبد الله بن الزبير ، خرج معه على الخلافة الأموية ، وقتل بمكة يوم قتل عبد الله بن الزبير ، وحمل رأسه مع رأسي عبد الله بن الزبير، وعبد الله بن صفوان إلى المدينة ، فنصبت مدة ، ثم أرسلت إلى عبد الملك بن مروان بالشـام. (٩٧)

أما عمير بن سعد بن عبيد الأوسي (ت نحو ٤٥هـ / ٦٦٥م) ، فهو من الصحابة المجاهدين، الذين تولوا الولايات، شهد فتوح الشام ، وغزا البيزنطيين ، تولى أمرة حمص لعمر بن الخطاب . كان من الزهاد الذين أحسنوا السيرة في ولاياتهم ، مما جعل عمر يقول : " وددت لو أن لي رجالا مثل عمير بن سعد أستعين بهم على أعمال المسلمين ." (٩٨)

وكان فضالة بن عبيد الأنصاري الأوسي (ت ٥٣هـ / ٦٧٣م) ممن بايع تحت الشجرة، وشهد أحدا وما بعدها . شارك في فتح الشام ومصر ، واستقر في الشام. كان له دور كبير في الغزو البحري. وفوق ذلك فهو من العلماء المشهود لهم بالفقه. ولاه معاوية قضاء الشام لذلك. كما أنه كان من المحدثين، وله خمسون حديثا . (٩٩)

أما أبو قتادة بن ربعي الأنصاري الخزرجي السلمي والذي عاش بين سنتي (١٨ق. هـ - ٥٤هـ / ٦١٤-٦٧٤م) ، فقد كان فارس رسول الله صلى الله عليه وسلم. شهد الوقائع معه ابتداء من أحد. انضم إلى علي بن أبي طالب في خلافه مع معاوية ، فولاه مكة، شهد صفين معه، ومات بالمدينة. (١٠٠)

وكان مسلمة بن مخلد بن صامت الأنصاري الخزرجي ، والذي عاش بين سنتي (١-٦٢ هـ / ٦٢٢ - ٦٨٢م) من الولاة والقادة. وفد على معاوية قبل أن يستتب له الأمر ، فشهد معه صفين. تولى مصر لمعاوية ســــنة (٤٧هـ / ٦٦٧م)، فسير الجيوش إلى المغرب في البحر والبر. ولما توفى معاوية أقره يزيد، فاستمر في الإمارة إلى أن توفي. (١٠١)

وكان النعيمان بن عمرو بن رفاعة (ت بعد ٤١هـ / بعد ٦٦١ م) من الصحابة ومن شجعان الأنصار ، شهد بدرا وأحدا والخندق والمشاهد كلها ، توفي في خلافة معاوية . (١٠٢)

وإلى جانب من تولى قيادة الجيوش من الأنصار ، برز عدد منهم في إدارة الدولة الإسلامية . ولكن معاوية وابنه يزيد لم يولونهم على المدينة المنورة، التي جعلت ولايتها لأفراد من الأسرة الأموية. كما اتبع معاوية بالنسبة لولاية المدينة سياسة تبديل الولاة، حتى لا تصبح للوالي مكانة عند أهالي المدينة، ولكي لا يجعل نفسه حبيسا لأقاربه كما حدث لعثمان بن عفان.(١٠٣) وكثيرا ما كان يعمل على إحداث الخلاف بينهم لتصفو له الأمور. فقد أغرى بين مروان بن الحكم وسعيد بن العاص حين كتب إلى سعيد بن العاص يأمره بقبض أموال مروان كلها، فيجعلها صافية، بما فيها فدك التي كان معاوية نفسه قد وهبها له. فراجعه سعيد بن العاص بالقرابة، فكتب إليه ثانية يأمره باصطفاء أموال مروان، فأبى. وأخذ سعيد الكتابين فوضعهما عند أحد الرجال الأمناء، فلما عزل معاوية سعيد عن المدينة وولاها إلى مروان بن الحكم أمره بقبض أموال سعيد ابن العاص بالحجاز، فأراد مروان تنفيذ وصية الخليفة، فراجعه سعيد، وطلب منه عدم تنفيذ ما جاء في كتاب معاوية، فأعلمه مروان بأنه لو كان شيئا غير كتاب أمير المؤمنين لتجاهله. عند ذلك دعا سعيد بن العاص بالكتابين اللذين كتب بهما معاوية إليه في أموال مروان، فكف مروان عن قبض أموال سعيد، وأدرك أن معاوية أراد أن يغري بينهما.(١٠٤)

وممن برز في تولي الولايات سواء للخليفتين معاوية ويزيد أم لمن عاصرهما، رويفع بن ثابت بن السكن الأنصاري الخزرجي (ت ٥٦هـ / ٦٧٦م). كان من الصحابة ومن الخطباء المبرزين. نزل مصر، تولى طرابلس الغرب لمعاوية بن أبي سفيان سنة (٤٦هـ / ٦٦٦م)، فغزا أفريقية، توفي ببرقة وهو أمير عليها من قبل مسلمة بن مخلد، وقبره مشهور في الجبل الأخضر ببرقه.(١٠٥)

وتولى السائب بن خلاد بن سويد بن ثعلبة الأنصاري الخزرجي (ت ٧١هـ / ٦٩٠ م) اليمن لمعاوية وهو من الصحابة ، شهد بدرا وله أحاديث.(١٠٦)

وتولى سليمان بن خالد الزرقي الأنصاري (ت ٧٣هـ / ٦٩٢ م) على خيبر وفدك لعبد الله بن الزبير، وهو من النساك الصالحين، قتل في حرب عبد الملك وابن الزبير.(١٠٧)

وكان قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري الخزرجي (ت ٦٠هـ / ٦٨٠ م) من دهاة العرب وذوي النجدة والرأي والمكيدة في الحرب. شارك مع رسول الله صلى الله عليه و سلم في الغزوات. وكان يحمل راية الأنصار بين يديه. صحب علي بن أبي طالب فجعله على ولاية مصر، ثم عزله بمحمد بن أبي بكر، وبقي معه، فشهد صفين والنهروان. ولما استشهد علي كان مع ابنه الحسن حتى صالحه معاوية، فعاد إلى المدينة، توفي في أواخر خلافة معاوية. روى الحديث وله ستة عشر حديثا.(١٠٨)

استعان معاوية بن أبي سفيان و ابنه يزيد بالنعمان بن بشير الأنصاري الخزرجي، الذي عاش بين سنتي (٢ - ٦٥ هـ / ٦٢٣ - ٦٨٤م). وكان النعمان قبل ذلك من أنصار الخليفة عثمان بن عفان ، وهو الذي حمل قميص عثمان إلى معاوية في الشام. و قف إلى جانب معاوية ضد علي بن أبي طالب، فشهد معه صفين. تولى القضاء في

دمشق سنة ٥٣ هـ / ٦٧٣ م بعد فضالة بن عبيد . كما تولى ولاية اليمن لمعاوية ، ثم تولى الكوفة تسعة أشهر، فنقل بعدها إلى حمص وبقي فيها إلى أن توفي يزيد بن معاوية ، فبايع لابن الزبير، تمرد عليه أهل حمص ، فخرج هاربا ، فلحق به بعضهم فقتله. لم يكن النعمان واليا وقائدا فقط ، بل كان من العلماء، فهو محدث و فقيه و خطيب ، و صف بأنه من أخطب العرب ، كما كان شاعرا له ديوان شعر مطبوع. تنسب إليه معرة النعمان ، وكانت تعرف بالمعرة فقط.[١٠٩]

برز الأنصار في العلم ، و خاصة في علم الحديث ، كما كان بعضهم من الشعراء والفقهاء والمؤرخين وغير ذلك . ومن أشهر علمائهم في الحديث أنس بن مالك الأنصاري الخزرجي . عاش بين سنتي (١٠ق.هـ - ٩٣ هـ / ٦١٢ - ٧١٢م) . روى عن رسول الله ﷺ ألفين ومئتين وستة وثمانين حديثا. ولد في المدينة المنورة وأسلم صغيرا. كان صاحب رسول الله وخادمه ، رحل إلى دمشق بعد وفاة ﷺ ، ومنها إلى البصرة حيث توفي.[١١٠]

كما كان البراء بن عازب الخزرجي (ت ٧١ هـ / ٦٩٠م) من المحدثين له ثلاثمئة وخمسة أحاديث . صحابي من أصحاب الفتوح. أسلم صغيرا ، و غزا مع رسول الله ﷺ خمس عشرة غزوة ، أولها غزوة الخندق. تولى على الري من قبل الخليفة عثمان بن عفان ، فغزا العديد من المناطق حولها ، ونتج عن غزواته فتح أبهر و قزوين وزنجان ، استقر في الكوفة ، أصيب بالعمى قبل وفاته.[١١١]

أما ثابت بن الضحاك بن خليفة الأنصاري الأوسي (ت ٤٥ هـ / ٦٦٥ م)، فله أربعة عشر حديثا. بايع الرسول ﷺ تحت الشجرة ، و كان رديفه يوم الخندق ، و دليله إلى حمراء الأسد.[١١٢]

وكان جابر بن عبد الله الأنصاري الخزرجي الذي عاش بين سنتي (١٦ق.هـ - ٧٨هـ/٦٠٧ - ٦٩٧ م) من المكثرين في الرواية عن الرسول ﷺ . له ألف وخمسمئة وأربعون حديثا ، روى عنه جماعة من الصحابة ، ألف مسندا وقد يكون أقدم مسند. غزا مع رسول الله ﷺ تسع عشرة غزوة ، وكانت له في أواخر أيامه حلقة في المسجد النبوي يدرس العلم فيها.[١١٣]

ولرافع بن خديج الأنصاري الأوسي (ت ٧٤ هـ / ٦٩٣ م) ثمانية وسبعون حديثا. وهو ممن شهد الغزوات مع رسول الله ﷺ .[١١٤] وكان لرفاعة بن رافع الأنصاري (ت ٤١ هـ / ٦٦١ م) أربعة وعشرون حديثا في كتب الحديث ، شهد بدرا مع رسول الله ﷺ ، وصحب عليا ، فشهد معه الجمل وصفين.[١١٥]

و كان لسعد بن مالك المعروف بأبي سعيد الخدري (ت ٧٤ هـ / ٦٩٣ م) مساهمة كبيرة في علم الحديث. فقد كان ملازما لرسول الله ﷺ ، روى عنه ألفا ومئة وسبعين حديثا ، غزا مع رسول ﷺ اثنتي عشرة غزوه.[١١٦]

كما ساهم سهل بن سعد بن عبادة (ت ٩١ هـ / ٧١٠ م) في علم الحديث ، وله مئة وثمانية وثمانون حديثا ، عمر طويلا. وكان عدي بن ثابت الأنصاري (ت ١١٦ هـ / ٧٣٤ م) من علماء الحديث ، و من المشـــهود له بالعلم.[١١٧]

أما عقبة بن عمرو الأنصاري (ت ٤٠ هـ / ٦٦٠ م)، فقد كان له مئة حديث و حديثان ، وهو ممن شهد العقبة وأحدا وبقية المشاهد. نزل في الكوفة ، وكان مع علي بن أبي طالب ، فاستخلفه على الكوفة حين سار إلى صفين.[١١٨]

وكان لمالك بن ربيعة الخزرجي (ت٦٠ هـ / ٦٨٠م) ثمانية وعشرون حديثا. وهو الذي حمل راية بني ساعدة يوم فتح مكة.[١١٩]

وقد جمع بعض الأنصار بين علم الحديث و علوم أخرى. فمنهم من جمع بين علم الحديث وقراءة القرآن والفقه والفرائض أمثال زيد بن ثابت الأنصاري الخزرجي الذي عاش بين سنتي (١١ق.هـ - ٤٥ هـ / ٦١١-٦٦٥م . تعلم وتفقه في الدين ، كان أحد العلماء الذين يؤخذ العلم عنه ، و يقول : (العلم يؤتى ولا يأتي). له في كتب الحديث اثنان وتسعون حديثا. كان زيد أحد من جمع القرآن في عهد رسول ﷺ . وعرضه عليه العرضة الأخيرة ، وهو الذي كتبه في المصحف لأبي بكر ثم لعثمان حين جهز المصاحف إلى الأمصار.[١٢٠]

و جمع عبد الرحمن بن يزيد بن جارية الأنصاري (ت ٩٨ هـ / ٧١٦م) بين الحديث و الفقه وهو أخو عاصم بن عمر بن الخطاب لأمه. تولى القضاء لعمر بن عبد العزيز ، قيل إنه لم يكن رجلا بعد الصحابة أفضل منه.[١٢١]

وهناك من جمع بين علم الحديث والتاريخ ، ومن هؤلاء سعيد بن سعد بن عبادة الخزرجي. فقد روى الحديث ، ودون بعض المعلومات عن سيرة رسول الله ﷺ كتبها لنفسه. وكانت النسخة التي كتبها بخطه عند حفيده سعيد بن عمرو بن سعيد في أوائل العصر العباسي . وبقي لنا من آثار سعيد العلمية نصوص محدودة في مسند ابن حنبل ، وتاريخ الطبري.[١٢٢]

أما سهل بن أبي خيثمة الأنصاري المولود في حياة رسول الله ﷺ سنة (٣هـ / ٦٢٥ م) والمتوفى في خلافة معاوية بن أبي سفيان ، فقد كان محدثا ومؤرخا ، كتب سيرة رسول الله ﷺ ومغازيه ، وبقيت كتاباته عند حفيده محمد بن يحيى بن سهل. وقد استفاد منها كل من الواقدي ، والبلاذري في أنساب الأشراف ، وابن سعد في الطبقات ، والطبري في تاريخه.[١٢٣]

وكتب عبد الله بن كعب بن مالك الأنصاري (ت ٩٧هـ / ٧١٠م) كتابا في المغازي ، روى عنه ابن إسحاق ، ونقل عنه الطبري. كان عالما بالحديث ، وصفه ابن إسحاق بأنه أحد كبار علماء الأنصار.[١٢٤]

وقد جمع بعض علماء الأنصار بين الحديث والشعر ، ومن هؤلاء كعب بن مالك بن عمرو الأنصاري (ت ٥٠هـ / ٦٧٠م) ، الذي كان له ثمانون حديثا ، وله ديوان شعر مطبوع. كان من شعراء رسول الله صلى الله عليه و سلم ، شهد أكثر الوقائع معه ، وأصبح من أصحاب الخليفة عثمان بن عفان ، وممن نصره ، وحرض الأنصار على نصرته ، ورثاه بعد مقتله ، وانضم إلى معاوية بن أبي سفيان.[١٢٥]

وقد برز بعض الأنصار في قراءة القرآن ، ومن هؤلاء مجمع بن جارية الأنصاري الأوسي (ت نحو سنة ٥٠هـ / ٦٧٠م) . وهو أحد من جمع القرآن عن رسول الله ﷺ . بعثه عمر بن الخطاب إلى الكوفة ليعلم أهلها القرآن ، توفي في المدينة في خلافة معاوية .(١٢٦)

وبرز بعض علماء الأنصار في علم الفقه ، ومن هؤلاء خارجة بن زيد بن ثابت الأنصاري ، الذي عاش بين سنتي (٢٩-٩٩هـ / ٦٥٠ - ٧١٧م) ، كان أحد الفقهاء السبعة في المدينة ، وتوفي بها.(١٢٧)

وقد برز بعض الأنصار في الشعر ومن أمثال هؤلاء حسان بن ثابت (ت ٥٤هـ/٦٧٤م) شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم، اشتهرت مدائحه في الغساسنة وملوك الحيرة في الجاهلية. عمر طويلا ، فقد ذكر أنه عاش ستين سنة في الجاهلية ، وعاش ما يقاربها في الإسلام.(١٢٨)

ومن شعرائهم الأحوص عبد الله بن محمد (ت ١٠٥هـ / ٧٢٣م) الذي كثرت أخباره وانتشرت ، عاصر كل من جرير والفرزدق، له ديوان شعر.(١٢٩)

هذا وقد برز عدد من موالي الأنصار في الحياة العلمية ، ومن هؤلاء محمد بن سيرين البصري (ت ١١٠ هـ/ ٧٢٩ م) كان أبوه مولى لأنس بن مالك . اشتهر بأنه إمام عصره في علوم الدين . تفقه وروى الحديث، وله معرفة بتعبير الرؤيا ، ينسب له كتاب في هذا المجال ذكره ابن النديم.(١٣٠)

كما اشتهر من مواليهم بالعلم كعب بن عجرة بن أمية البلوي (ت ٥١هـ / ٦٧١م) الذي شهد المشاهد مع رسول الله ﷺ ، توفي في المدينة عن عمر يناهز الخامسة والسبعين عاما. له سبعة وأربعون حديثا.(١٣١)

ومن أبرز النساء العالمات من الأنصار في العصر الأموي ، عمرة بنت عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة التي عاشت بين سنتي (٢١-٩٨هـ/٦٤٢-٧١٦ م)، فقيهة عالمة بالحديث، صحبت عائشة أم المؤمنين وأخذت الحديث عنها . كتب عمر بن عبد العزيز إلى أبي بكر بن محمد بشأن علمها في الحديث: (انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ ، أو سنة ماضية ، أو حديث عمرة، فاكتبه، فإني خشيت دروس العلم وذهاب أهله).(١٣٢)

كما كانت عمرة بنت النعمان بن بشير (ت ٦٧هـ / ٦٨٧م) من ذوات الآداب ، أخلصت لزوجها المختار بن أبي عبيد الثقفي ، وأثنت عليه في حضور مصعب بن الزبير بعد مقتله، فقتلها.(١٣٣)

وكانت الربيع بنت معوذ بن عفراء التي عاشت إلى خلافة معاوية بن أبي سفيان ممن مهر في التمريض . فكانت تسقي القوم وتخدمهم وتداوي الجرحى في أثناء غزوات رسول الله ﷺ .(١٣٤)

أما حميدة بنت النعمان بن بشير (ت نحو ٨٥هـ / ٧٠٤ م) فقد كانت شاعرة ، عاشت في دمشق لها مساجلات شعرية.(١٣٥)

وبرزت عزة الميلاء مولاة الأنصار بالغناء الموقع (ت نحو ١١٥ هـ / ٧٣٣م) . فقد كانت تضرب بالعيدان والمعازف في المدينة . سمعها معبد المغني ، وزارها النعمان بن بشير الأنصاري وسمع غناءها في أيام يزيد بن معاوية وابن الزبير ، تعلم منها ابن سريج ، كانت من أهل الخير تأمر به وتنهى عن السوء.[١٣٦]

يتضح مما سبق أن غالبية الأنصار من الناحية السياسية وقفوا ضد خلافة كل من معاوية ابن أبي سفيان وابنه يزيد ، وكانوا مناصرين لعلى بن أبي طالب وأبنائه وأحفاده في ثوراتهم ضد الأمويين . وحاول الأنصار أن يعيدوا للحجاز أهميته ومكانته السياسية ، ففشلوا ، وانهزموا في موقعة الحرة التي قتل فيها أعداد كبيرة منهم ، كما أنهم عجزوا عن إثبات مكانتهم وحقهم بتأييد حركة عبد الله بن الزبير ، فأقروا ضمناً أن الحجاز فقد مكانته السياسية .

هذا وقد تولى الأنصار مناصب إدارية خارج المدينة المنورة ، سواء لعلي بن أبي طالب ، أم لمعاوية بن أبي سفيان وابنه يزيد ، وكذلك لعبد الله بن الزبير. كما قادوا الجيوش في بعض المعارك الداخلية ، وجاهدوا البيزنطيين ، وبرزوا في العديد من العلوم وخاصة علم الحديث .

الهوامش

(١) عبدالكريم بن محمد بن منصور السمعاني (ت ٥٦٢هـ) ، *الأنساب* ، تقديم وتعليق عبدالله عمر البارودي، ط١ (بيروت : دار الجفان (١٩٨٨م) ، ١ : ٢١٩ .

(٢) سورة الأنفال ، آية ٧٢ .

(٣) سورة التوبة ، آية ١١٧ .

(٤) سورة التوبة ، آية ١٠٠ .

(٥) عن إيثار عثمان لأقاربه ، انظر: محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) ، *تاريخ الرسل والملوك* ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط٢ (القاهرة : دار المعارف) ، ٤ : ٢٨٩ ؛ محمد بن سعد (ت ٢٣٠) ، *الطبقات الكبرى* (بيروت : دار صادر) ، ٣ : ٦٤ ؛ عبدالله بن مسلم ؛ ابن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦هـ) ، *الإمامة والسياسة* (منسوب إليه) ، تحقيق ، طه الزيني (القاهرة ، مطبعة البابي ، ١٩٦٩م) ، ١ : ٣٢-٣٣ ؛ ابن أبي الحديد (ت ٦٥٥هـ) : شرح *نهج البلاغة* ، تحقيق: نور الدين شرف الدين وزميله (بيروت : دار الفكر، ١٩٥٤ م)، ٢ : ٢٨٧ - ٢٩٠ .

(٦) الطبري : *تاريخ* ، ٤ : ٢٨٩ ؛ كرد علي ، *خطط الشام* ، ط٢ (بيروت : دار العلم للملايين، ١٩٦٩م)، ١ : ١٠٠ .

(٧) أحمد بن يحيى البلاذري (ت ٢٧٩هـ) ، *أنساب الأشراف* ، تحقيق: إحسان عباس (بيروت : المطبعة الكاثوليكية)، ٤ : ١ ، بنو عبد شمس ، ٥٤٩ ، ٥٥١ ؛ الطبري : *تاريخ* ، ٤ : ٣٣٧ ، ٣٥٧ ، ٣٥٩ ، ٥٤٩ ؛ ابن أبي الحديد : شرح *نهج البلاغة* ، ١ : ١٩٢ .

(٨) البلاذري ، *أنساب* ، ٤ : ١ : ٥٤١ ، ٥٤٨ ، ٥٦٣ ؛ أحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي (ت ٢٩٢هـ) ، *تاريخ اليعقوبي* (بيروت : دار صادر، ١٩٦٠م) ، ٢ : ١٦٨ – ١٦٩ ؛ الطبري : *تاريخ* ، ٤ : ٤٣٠ .

(٩) عمر بن شبة (ت ٢٦٢هـ) ، *تاريخ المدينة المنورة* ، تحقيق : فهيم شلتوت ، ط ٢ ، ٤ : ١٢١٠ ؛ الطبري ، *تاريخ* ، ٤ : ٤٢٣ .

(١٠) الطبري ، *تاريخ* ، ٤ : ٢٣٧ ؛ علي بن الحسين الأصفهاني (ت ٣٥٦هـ)، *الأغاني* (بيروت : دار صعب ، مصورة عن طبعة بولاق) ، ١٩ : ٩٦ - ٩٧ ؛ أحمد عبدالوهاب النويري (ت ٧٣٣هـ) ؛ *نهاية الأرب* ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٥م)، ١٩ : ٤٦٩ .

(١١) سيف بن عمر (ت ٢٠٠هـ) ، *الفتنة ووقعة الجمل* ، جمع وتصنيف أحمد راتب عرموش ، ط٢ (بيروت : دار النفائس ، ١٩٧٧م) ، ٦٢ .

(١٢) البلاذري ، *أنساب* ، ٤ :١: ٥٥٠ ؛ الطبري ، *تاريخ* ، ٤ : ٣٧١ ؛ النويري ، *نهاية الأدب* ، ١٩ : ٤٩٠ .

(١٣) الطبري ، *تاريخ* ، ٤ : ٣٧١ ؛ النويري ،*نهاية الأرب*، ١٩ : ٤٩٠ .

(١٤) عمر بن شبة ، *تاريخ* ، ٤ : ١٢٨١ ، ١٢٧٨ - ١٢٧٩ ؛ محمد بن سعد ، *الطبقات* ، ٣ : ٧٣ ؛ البلاذري ، *أنساب* ، ٤ :١ : ٥٤٩ ، ٥٥٩، ٥٧٠ ، ٥٩١ ؛ الطبري ، *تاريخ* ، ٥ : ٣٨٢ - ٣٨٣.

(١٥) نصر بن مزاحم المنقري (ت٢١٢هـ) ، *وقعة صفين* ، تحقيق : عبدالسلام محمد هارون (القاهرة: مكتبة الخانجي ، ١٩٨١م) ، ٧٦ .

(١٦) اليعقوبي ، *تاريخ* ، ٢ : ١٢٧ ، ١٢٨ ؛ عمر فروخ ، *تجديد التاريخ في تعليله وتدوينه* (بيروت : دار الباحث ، ١٩٨٠م) ، ١٣٣ .

(١٧) اليعقوبي ، *تاريخ* ، ٢ : ١٣٩ ؛ الطبري ، *تاريخ* ، ٤ : ٤٣١ في رواية عن طلحة بن عبيدالله .

(١٨) الطبري ، *تاريخ* ، ٤ : ٤٢٩ - ٤٣٠ ، ٥٦٢ .

(١٩) البلاذري ، *الأنساب والأشراف* ، ٤ :١ : ١٦٠ .

(٢٠) ابن قتيبة، *الإمامة والسياسة* ، ١ : ٦٦ ؛ الطبري ، *تاريخ* ، ٤ : ٤٧٤ - ٤٧٥ ، ٤٤٣ ، ٤٨٠ .

(٢١) أبو حنيفة الدينوري (ت ٢٨٢هـ) ، *الأخبار الطوال* (بيروت : دار المسيرة)، ١٤١ ؛ سيف بن عمر ، *الفتنة*، ٤ : ٤٤٢ .

(٢٢) الطبري ، *تاريخ* ، ٤ : ٤٩٩ - ٥٠٠ .

(٢٣) أبو حنيفة الدينوري ، *الأخبار الطوال* ، ١٤١ ؛ سيف بن عمر ، *الفتنة* ، ٩٩ . وقد اختلف في اسم رسول علي أهو غزيه الأنصاري، أم سبرة الجهني ، وقد يكون أرسل أكثر من وفد للمفاوضة مع أكثر من رسول .

(٢٤) الطبري ، *تاريخ* ، ٤ : ٤٧٩ .

(٢٥) ابن قتيبة، *الإمامة والسياسة* ، ١: ٥٣ ؛ أبو حنيفة الدينوري ، *الأخبار الطوال* ، ١٤٣.

(٢٦) النويري ، *نهاية الأرب* ، ٢٠ : ٤٢ ؛ وقد ذكر الطبري ، *تاريخ* ، ٥٠٦ على لسان محمد بن الحنفية قوله : أقبلنا من المدينة بسبعمئة رجل ولم يحدد قبائلهم .

(٢٧) وهو غير ذي الشهادتين الذي توفي في خلافة عثمان بن عفان ، انظر: الطبري ، *تاريخ* ، ٤ : ٤٤٧ .

(٢٨) قيل اسمه بشير وقيل بشر . انظر: البلاذري : *أنساب* ، تحقيق : محمد باقر المحمودي ، ط١ (بيروت : دار التعاطف للمطبوعات ، ١٩٧٧م) ، ١٨٥ ، ١٨٧ .

(٢٩) الطبري ، *تاريخ* ، ٤ : ٤٥٢ - ٤٥٣ رواية الزهري ، على حين ذكر في نفس الجزء ص ٤٤٥ رواية عن السري ، فيها أنه جعل على المدينة قثم بن عباس ؛ ابن قدامة المقدسي (ت ٦٢٠هـ) ، *الاستبصار في نسب الصحابة من الأنصار*، تحقيق علي نويهض (بيروت: دار الفكر ، ١٩٧١م) ، ٣٢١ ؛ النويري : *نهاية الأرب* ، ٢٠ : ٤٢ .

(٣٠) أبو الفداء ، إسماعيل بن علي (ت ٧٣٢هـ) ، *مختصر تاريخ البشر* (بيروت: دار المعرفة)، ١ : ١٧٣ .

(٣١) محمد بن يزيد المبرد (ت ٢٥٨هـ) ، *الكامل في اللغة والأدب* (بيروت : دار المعارف)، ١ : ٣٠٩ ؛ اليعقوبي ، *تاريخ* ، ٢ : ١٨٦ - ١٨٧ ؛ الطبري ، *تاريخ* ، ٤ : ٥٥٠ - ٥٥٥ ؛ علي بن الحسين المسعودي (ت ٣٤٦هـ) ، *مروج الذهب ومعادن الجوهر* ، تحقيق: محمد محيي الدين ، ط٤، (القاهرة : مطبعة السعادة ، ١٩٦٤م) ، ٣ : ٢٠ ؛ ابن أبي الحديد : *شرح نهج البلاغة* ، ٢ : ٣٨ ؛ النويري ، *نهاية الأرب* ، ٢٠ : ١٩٥ .

(٣٢) الطبري ، *تاريخ* ، ٥ : ٩٤ .

(٣٣) ابن مزاحم ، *وقعة صفين* ، ٩٣ ؛ الطبري ، *تاريخ* ، ٤ : ٥٥٥ ؛ ابن قدامة ، *الاستبصار* ، ٩٨ ؛ النويري ، *نهاية الأرب* ، ٢٠ : ١٩٥ .

(٣٤) اليعقوبي ، *تاريخ* ، ٢ : ١٨٨ ؛ ابن أبي الحديد ، *شرح نهج البلاغة* ، ٢ : ٤٦٦ - ٤٦٧ .

(٣٥) الطبري ، *تاريخ* ، ٥ : ٩٣ .

(٣٦) اليعقوبي ، *تاريخ* ، ٢ : ١٨٧ .

(٣٧) ابن مزاحم ، *وقعة صفين* ، ٨٠ .

(٣٨) ابن قتيبة ، *الإمامة والسياسة* ، ٩٠ - ٩١ .

(٣٩) البلاذري ، *أنساب* ، تحقيق المحمودي ، ٤٤٥ - ٤٤٧ .

(٤٠) ابن مزاحم ، *وقعة صفين* ، ٤٤٥ ، ٤٤٩ ؛ ابن أبي الحديد ، *شرح نهج البلاغة* ، ٢ : ٤٦٨ .

(٤١) اليعقوبي ، *تاريخ* ، ٢ : ١٩٧ .

(٤٢) اليعقوبي ، *تاريخ* ، ٢ : ١٩٨ ؛ الطبري : *تاريخ* ، ٥ : ١٣٩ ؛ المسعودي، *مروج الذهب* ، ٣ : ٣٠ .

(٤٣) أبو حنيفة الدينوري ، *الأخبار الطوال* ، ١٨٤ .

(٤٤) الطبري ، *تاريخ* ، ٥ : ٦١ .

(٤٥) ابن مزاحم ، *وقعة صفين* ، ٥٠٦ - ٥٠٧ .

(٤٦) الطبري ، *تاريخ* ، ٥ : ٥٤ .

(٤٧) ابن مزاحم ، *وقعة صفين* ، ٥٠٦ - ٥٠٧ .

(٤٨) الطبري ، *تاريخ* ، ٥ : ٨٥ ؛ على حين ذكر ابن مزاحم ، *وقعة صفين*، ٢٠٨ ، أن قيس بن سعد كان على رجالة أهل البصرة .

(٤٩) عن تنازل الحسن بن علي عن الخلافة ، انظر: اليعقوبي ، *تاريخ* ، ٢ : ٢١٤ ، ٢١٥ ، الطبري ، *تاريخ* ، ٥ : ٥٨ - ١٦٠ ؛ النويري ، *نهاية الأرب* ، ٢٠ : ٢٢٦ - ٢٣٠ .

(٥٠) الطبري ، *تاريخ* ، ٥ : ١٥٩ ، ١٦٤ ؛ النويري ، *نهاية الأرب*، ٢٠ : ٢٨٩ .

(٥١) المبرد ، *الكامل* ، ١ : ٣٠٩ .

(٥٢) الطبري : *تاريخ* ، ٥ : ٢٨٠ ؛ ابن قدامة : *الاستبصار* ، ١٢٢ ؛ ابن الأثير : *الكامل* ، ٣ : ٢٥٦ .

(٥٣) البلاذري ، *أنساب* ، ٤ : ١ : ٧٩ .

(٥٤) البلاذري ، *أنساب* ، ٤ : ١ : ٥٧ ؛ و ٣: ٢٦ ؛ المسعودي : *مروج الذهب*، ٣ : ٢٦ .

(٥٥) الدينوري ، *الأخبار الطوال* ، ٢٢٥ ؛ الطبري ، *تاريخ* ، ٥ : ٣١٥، ٣٥٥ - ٣٥٦ ، ٥٣٩ ؛ ابن قدامة ، *الاستبصار* ، ١٢٢ .

(٥٦) الطبري ، *تاريخ* ، ٥ : ٤١٣ .

(٥٧) ابن قتيبة ، *الإمامة والسياسة* ، ٢ : ٤ ؛ النويري : *نهاية الأرب* ، ٢٠: ٣٨٨ . أما الطبري : *تاريخ* ، ٥ : ٣٤٨ ، فقد أجاب رجلا نقد سياسته مع مسلم بن عقيل بقوله : "أن أكون ضعيفا وأنا في طاعة الله ، أحب إلي من أن أكون قويا في معصية الله ، وما كنت لأهتك سترا ، ستره الله ."

(٥٨) ابن قتيبة ، *الإمامة والسياسة* ، ٢ : ٤ ؛ الطبري ، *تاريخ* ، ٥ : ٣٨٤ ؛ الفاسي ، *العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين* ، تحقيق فؤاد سيد (القاهرة : مطبعة السنة المحمدية)، ٤ : ٢٠٣ .

(٥٩) عن مقتل الحسين انظر : البلاذري ، *أنساب* ، تحقيق المحمودي ، ١٩١ - ١٩٢ ؛ الطبري ، *تاريخ* ، ٥ : ٤٥٣ وماقبلها ؛ المسعودي ، *مروج الذهب* ، ٣ : ٧١ . وقد ذكر مقتل أربعة من الأنصار في معركة كربلاء مع الحسين دون ذكر أسمائهم ؛ النويري ، *نهاية الأرب* ، ٢٠ : ٣٨٢ .

(٦٠) الطبري ، *تاريخ* ، ٥ : ٤٧٥ ، كان هذا الموقف من الأنصار من أهم أسباب تسيير الجيوش إلى المدينة ، انظر: نور الدين علي السمهودي (ت ٩١١هـ) ، *وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى* ، تحقيق : محمد محيي الدين عبدالحميد ، ط٤ (بيروت : دار إحياء التراث اللبناني ، ١٩٨٤م)، ١ : ١٢٥ - ١٢٦ .

(٦١) البلاذري ، *أنساب* ، ١ : ٣١٢ ؛ ٢ : ٢٤ .

(٦٢) الطبري : *تاريخ* ، ٥ : ٤٧٨ .

(٦٣) ابن قتيبة ، *الإمامة والسياسة* ، ١ : ١٧٦ ؛ اليعقوبي ، *تاريخ* ، ٢ : ٢٥٠ ؛ السمهودي ، *وفاء الوفاء* ، ١ : ١٢٧ - ١٢٨ .

(٦٤) السمهودي ، *وفاء الوفا* ، ٢ : ٢٣٤ .

(٦٥) ابن قتيبة ، *الإمامة والسياسة* ، ٢ : ٨ .

(٦٦) ابن قتيبة ، *الإمامة والسياسة* ، ١ : ١٧٦ ؛ اليعقوبي ، *تاريخ* ، ٢ : ٢٥٠ .

(٦٧) اليعقوبي ، *تاريخ* ، ٢ : ٢٥٠ .

(٦٨) ابن قتيبة ، *الإمامة والسياسة* ، ١ : ٢٠٦ ؛ اليعقوبي ، *تاريخ* ، ٢ : ٢٥٠ .

(٦٩) البلاذري ، *الأنساب* ، ٤ : ١ : ١١٦ .

(٧٠) ابن خياط ، *تاريخ* ، ٢ : ٢٨٩ ؛ البلاذري ، *أنساب* ، ٤ : ١ : ٣١٩ - ٣٢٠ ؛ ٤ : ٢ : ٣١ .

(٧١) البلاذري ، *أنساب* ، ٤ : ١ : ٣١٩ - ٣٢٠ ، رواية خلف وأحمد ابني إبراهيم ، على حين أنه يذكر ص ٣٢٠ ، نقلا عن الواقدي أنه أعطاه خمسين ألفا ؛ الطبري ، *تاريخ* ، ٥ : ٤٨٠ ؛ ابن عساكر القاسم ، علي بن الحسين (ت٥٧١هـ) ، *تاريخ دمشق* (دمشق : طبعة مجمع اللغة العربية ، ١٩٨١م) ، ٢١٠ ؛ مجلد عبد الله بن جابر - عبد الله بن يزيد ويجعل ما أخذه عبد الله بن حنظلة مئة ألف ؛ السمهودي ، *مموج الذهب* ، ١ : ١٢٧ .

(٧٢) البلاذري ، *أنساب* ، ٤ : ١ : ٣٢٠ .

(٧٣) ابن قتيبة ، *الإمامة والسياسة* ، ٢ : ٧ .

(٧٤) البلاذري ، *أنساب* ، ٤ : ١ : ٣٢١ ؛ ٤ : ٢ : ٣٢ ؛ الطبري ، *تاريخ* ، ٥ : ٤٨١ ؛ النويري ، نهاية *الأرب* ، ٢٠ : ٤٨٧ .

(٧٥) البلاذري ، *أنساب* ، ٤ : ١ : ٣٢١ ؛ و ٢ : ٣٢ . وأورد الطبري ، *تاريخ* ، ٥ : ٤٧١ ، نصا يحمل نفس المعنى نقلا عن أبي مخنف .

(٧٦) ابن قتيبة ، *الإمامة والسياسة* ، ١ : ١٧٧ ؛ البلاذري ، أنساب ، ٤ : ١ : ٣٢١ ؛ و ٤ : ٢ : ٣٢ ؛ أحمد بن علي القلقشندي (ت ٨٢١هـ) ؛ *مآثر الأنافة في معالم الخلافة* ، تحقيق : عبدالستار أحمد فراج (الكويت)، ٣ : ٢٣٨ .

(٧٧) البلاذري ، *أنساب* ، ٤ : ١ : ٣٢١ - ٣٢٢ ، ٤ : ٢ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ١٣٦ ؛ الطبري ، *تاريخ* ، ٥ : ٤٨٥ ؛ السمهودي ، *وفاء الوفا* ، ١ : ١٢٨ .

(٧٨) ابن قتيبة ، *الإمامة والسياسة* ، ١ : ١٧٦-١٧٧ ؛ ٢ : ٩-١٠.

(٧٩) ابن قتيبة ، *الإمامة والسياسة* ، ٢ : ٨ ، وذكر أن عمرو بن سعيد اشترى بالعطاء المحبوس عبيدا لنفسه .

(٨٠) ابن قتيبة ، *الإمامة والسياسة* ، ١ : ١٧٧ - ١٧٨ .

(٨١) ابن قتيبة ، *الإمامة والسياسة* ، ١ : ١٨٦ .

(٨٢) ابن قتيبة، *الإمامة والسياسة* ، ١ : ١٨٥ ؛ علي بن الحسين المسعودي (ت ٣٤٦هـ) ، *التنبيه والإشراف* (بيروت : دار التراث، ١٩٦٨م) ، ٢٦٤ ؛ إسماعيل بن عمر بن كثير (ت ٧٧٤هـ) ، *البداية والنهاية* (بيروت : مكتبة المعارف ، ١٩٦٦م)، ٨ : ٢٢١ ؛ أبوالفداء ، *مختصر تاريخ البشر* ، ١ : ١١٦ .

(٨٣) الحنبلي ، *شذرات الذهب في أخبار من ذهب* (بيروت : دار المسيرة ، ١٩٧٩م) ، ٧٠ - ٧١ .

(٨٤) السمهودي ، *وفاء الوفا* ، ١ : ١٢٦ .

(٨٥) ابن قتيبة، *الإمامة والسياسة* ، ١ : ١٨٥ ؛ السمهودي ، *وفاء الوفا* ، ١: ١٣٢.

(٨٦) ابن الفقيه الهمذاني ، *مختصر كتاب البلدان* ، (ليدن ، ١٣٠٢هـ) ، ٢٢ .

(٨٧) ابن قتيبة، *الإمامة والسياسة* ، ١ : ١٨٨ .

(٨٨) ابن سعد ، *الطبقات* ، ٦ : ٥٣ ؛ البلاذري ، *أنساب* ، ٥ :١٤٧ ؛ اليعقوبي: *تاريخ* ، ٢ : ٢٥٦ ؛ الطبري ، *تاريخ*، ٥ : ٥٣٩.

(٨٩) ابن سعد ، *الطبقات* ، ٧ : ٤٠١ ؛ ابن قدامة ، *الاستبصار* ، ٤٠ ؛ النويري، *نهاية الأرب* ، ١٩ : ٣٣٢ .

(٩٠) أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني (ت ٤٣٠هـ) ، *حلية الأولياء وطبقات الأصفياء*، القاهرة (١٣٥١هـ) ، ١ : ٣٦١ ؛ عبدالرحمن بن علي بن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) ، *صفة الصفوة* ، (حيدر آباد - الدكن ، ١٣٥٥هـ) ، ١ : ١٨٦ ؛ ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) ، *الإصابة في تمييز الصحابة* (مصر، ١٩٣٩م)، ١ : ٤٠٥ .

(٩١) الأصفهاني ، *حلية الأولياء* ، ١ : ٢٦٤ ؛ ابن الجوزي ، *صفة الصفوة* ، ١ : ٢٩٦ ؛ ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) ، *تهذيب التهذيب* (حيدرآباد - الدكن ، ١٣٢٧هـ) ٤: ٣١٥ .

(٩٢) ابن حبيب ، محمد بن حبيب (ت ٢٤٥هـ) ، *المحبر* (حيدرآباد - الدكن ، ١٩٤٢م) ، ٢٧٠ ؛ ابن حجر العسقلاني ، *تهذيب التهذيب*، ٥ : ١١١ ؛ أحمد بن عبدالله الخزرجي (ت بعد سنة ٩٢٣هـ) ، *خلاصة تهذيب الكمال في أسماء الرجال* (١٣٢٢هـ)، ١٥٩ .

(٩٣) الطبري : *تاريخ* ، ٥ : ٤٨٥ - ٤٩٢ .

(٩٤) أحمد بن علي المقريزي (ت ٨٤٥هـ) ، *إمتاع الأسماع* (القاهرة ، ١٩٤١م) ، ١ : ١٤٨ - ١٤٩ ؛ ابن حجر العسقلاني ، *تهذيب التهذيب* ، ٦ : ٢٢٣ .

(٩٥) ابن حجر العسقلاني : *تهذيب التهذيب* ، ٦ : ٧٨ .

(٩٦) أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن الأثير (ت ٦٣٠هـ) ، *الكامل في التاريخ* (القاهرة، ١٣٠٣هـ)، حوادث سنة ٣٦هـ؛ ابن حجر العسقلاني : *تهذيب التهذيب* ، ١ : ١١٢ .

(٩٧) شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (ت ٧٤٨هـ) ، *تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام* (القاهرة د.ت.) ، ٣ : ١١٥ ؛ ابن حجر العسقلاني : *تهذيب التهذيب* ، ٧ :٤٢٠.

(٩٨) الأصفهاني ، *حلية الأولياء* ، ١ : ٢٤٧ ؛ ابن الجوزي ، *صفة الصفوة* ، ١ : ٢٩١.

(٩٩) ابن حبيب ، *المحبر* ، ٢٩٤ ؛ ابن حجر العسقلاني ، *تهذيب التهذيب* ، ٨ : ٢٦٧.

(١٠٠) ابن حجر العسقلاني ، *الإصابة* ، ٤ : ١٥٨ .

(١٠١) محمد بن يوسف الكندي (ت بعد ٣٥٥هـ)، *الولاة والقضاة* (بيروت ١٩٠٨م) ، ٣٨-٤٠ ؛ ابن الأثير ، *الكامل في التاريخ* ، ٤ : ٤٤ .

(١٠٢) محمد بن محمد بن الأثير (ت ٦٣٠هـ) ، *أسد الغابة في معرفة الصحابة* (القاهرة، ١٢٨٠هـ) ، ٥ : ٣٦ .

(١٠٣) عبدالمنعم ماجد : *التاريخ السياسي للدولة العربية* ، *عصر الخلفاء الأمويين* ، ط٣ (بيروت: مكتبة الجامعة العربية ، ١٩٦٦م) ، ٣٠ .

(١٠٤) البلاذري ، *أنساب* ، ٤:١: ٣ ؛ الطبرى ، *تاريخ* ، ٥ : ٢٩٤.

(١٠٥) أحمد بن حسين الأنصاري ، *المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب* (الأستانة، ١٣١٧هـ) ١ :٢١ ؛ ابن حجر العسقلاني ، *تهذيب التهذيب* ، ٣ : ٢٩٩ ؛ عبدالرحمن بن محمد الدباغ، *معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان* (تونس ، ١٣٢٠هـ) ، ١ : ١٠١ .

(١٠٦) ابن حجر العسقلاني ، *الإصابة* ، ترجمة رقم ٣٠٥٦ .

(١٠٧) ابن الأثير ، *الكامل* ، ٤ : ١٣٥ .

(١٠٨) ابن حبيب ، *المحبر* ، ١٥٥ ؛ ابن الجوزي : *صفة الصفوة* ، ١ : ٣٠٠ ؛ ابن حجر العسقلاني ، *تهذيب التهذيب* ، ٨ : ٣٩٥ .

(١٠٩) ابن الأثير ، *أسد الغابة* ، ٥ : ٢٢ ؛ ابن حجر العسقلاني ، *تهذيب التهذيب* ، ١٠ : ٤٤٧ .

(١١٠) ابن الجوزي ، *صفة الصفوة* ، ١ : ٢٩٨ ؛ عبدالقادر بدران : *تهذيب تاريخ ابن عساكر* (دمشق، ١٣٢٩ - ١٣٥١هـ)، ٣ : ١٣٩ .

(١١١) صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت ٧٦٤هـ) ، *نكت الهميان في نكت العميان* (القاهرة، ١٣٢٩هـ)، ١٢٤ .

(١١٢) ابن حجر العسقلاني ، *تهذيب التهذيب* ، ٢ : ٨ ؛ *والإصابة* ، ١ : ١٩٣ .

(١١٣) ابن حجر العسقلاني ، *الإصابة* ، ١ : ٢١٣ .

(١١٤) ابن الأثير ، *أسد الغابة* ، ٤ : ١٤١ ؛ ابن حجر العسقلاني ، *تهذيب التهذيب* ، ٣: ٢٢٩ ؛ *والإصابة* ، ٢ : ١٨٦ .

(١١٥) ابن حجر العسقلاني ، *تهذيب التهذيب* ، ٣ : ٢٨١ .

(١١٦) الأصفهاني ، *حلية الأولياء* ، ١ : ٣٦٩ ؛ ابن الجوزي ، *صفة الصفوة* ، ١ : ٢٢٩ ؛ ابن حجر العسقلاني ، *تهذيب التهذيب* ، ٣: ٤٧٩ .

(١١٧) الذهبي ، *دول الإسلام* ، ١ : ٦٠ ؛ شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (ت ٧٤٨هـ) ، *ميزان الاعتدال في نقد الرجال* (القاهرة، ١٣٢٥هـ)، ٢ : ١٩٣ .

(١١٨) ابن حجر العقسلاني ، *الإصابة* ، ترجمة ٥٦٠٨ .

(١١٩) ابن حجر العسقلاني ، *تهذيب التهذيب* ، ١٠ : ١٥ ؛ الخزرجي : *خلاصة تهذيب الكمال*، ٣١٣ .

(١٢٠) ابن الجوزي : *صفة الصفوة* ، ١ : ٢٩٤ - ٢٩٥ ؛ ابن الجزري محمد بن محمد ابن الجزري (ت ٨٣٣هـ) ، *غاية النهاية في طبقات القراء* (القاهرة، ١٣٥١هـ)، ١ : ٢٩٦ .

(١٢١) ابن حجر العسقلاني ، *تهذيب التهذيب* ، ٦ : ٢٩٨ .

(١٢٢) ابن حجر العسقلاني ، *الإصابة* ، ٢ : ١٢٢٣ ؛ شاكر مصطفى : *التاريخ العربي والمؤرخون* ، ط٢ (بيروت: دار العلم للملايين ، ١٩٧٨م) ، ١ : ١٥١ .

(١٢٣) مصطفى ، *التاريخ العربي* ، ١ : ١٥١ .

(١٢٤) مصطفى : *التايخ العربي* ، ١ : ١٥٤ .

(١٢٥) محمد بن سلام الجمحي (ت ٢٣٢هـ) ، *طبقات الشعراء* (ليدن، ١٩١٣م)، ١٨٣ - ١٨٥ ؛ الصفدي ، *نكت الهميان* ، ٢٣١ ؛ الخزرجي : *خلاصة تذهيب الكمال* ، ٢٧٣ .

(١٢٦) ابن الجزري ، *غاية النهاية* ، ٢ : ٤٢ ؛ الخزرجي ، *خلاصة تذهيب الكمال* ، ٢١٦ .

(١٢٧) الأصبهاني ، *حلية الأولياء* ، ٢ : ١٨٩ .

(١٢٨) ابن قتيبة ، *الشعر والشعراء* ، ٢٠٧ - ٢٠٩ ؛ الجمحي ، *طبقات الشعراء* ، ٥٢ .

(١٢٩) ابن قتيبة ، *الشعر والشعراء* ، ٣٨٠ - ٣٨٢ .

(١٣٠) ابن حبيب ، *المحبر* ، ٣٧٩ ، ٤٨٠ ؛ ابن حجر العسقلاني ، *تهذيب التهذيب* ، ٩: ٢١٤ .

(١٣١) يحيى بن شرف النووي (ت ٦٧٦هـ) ، *تهذيب الأسماء واللغات* (القاهرة، د.ت.)، ٢ : ٦٨ .

(١٣٢) ابن حجر العسقلاني ، *تهذيب التهذيب* ، ١٢ : ٤٣٨ ؛ الخزرجي ، *خلاصة تذهيب الكمال* ، ٤٢٥ .

(١٣٣) الطبري ، *تاريخ* ، ١ : ١١٢ ؛ ابن الأثير ، حوادث سنة ٦٧هـ ؛ زينب فواز : *الدر المنثور في طبقات ربات الخدور* (القاهرة، ١٣١٢هـ) ، ٣٥٣ .

(١٣٤) النووي ، *تهذيب الأسماء* ، ٢ : ٣٤٣ ؛ ابن حجر العسقلاني ، *الإصابة* ، ٨ : ٧٩.

(١٣٥) فواز ، *الدر المنثور* ، ١٧١ .

(١٣٦) فواز ، *الدر المنثور* ، ٣٤١ .

أثر الفتوحات الأموية في ترسيخ الصلات الحضارية بين الجزيرة العربية وشبه القارة الهندية

ابراهيم القادري بوتشيش

جامعة مولاي إسماعيل، مكناس ، المغرب

يجمع الدارسون العرب والمستشرقون المنصفون على أن الفتوحات الإسلامية لم تكن ذات طابع عسكري فحسب ، بل كانت أيضا فتحا حضاريا للبلاد المفتوحة ؛ وأن النهج الإنساني الذي سار على هديه الفاتحون المسلمون أسهم في نسج خيوط علاقات وطيدة مع البلدان التي فتحوها ، ناهيك عن الفتوحات السلمية التي تبلورت عن طريق التجارة والدعوة . ورغم خصوصية الفتوحات الأموية التي تميزت بغلبة الطابع العسكري ، فإنها كانت تحمل في جوفها بذور التعايش والعلاقات الودية ، بل إنها تحولت في عهد بعض الخلفاء الأمويين كالخليفة عمر بن عبد العزيز إلى فتح سلمي حضاري سرعان ما أصبح يشكل وعاء من العلاقات الإنسانية مع البلدان المفتوحة شملت العنصر البشري والاقتصادي والروحي . وبما أن شبه القارة الهندية كانت أقرب المناطق جغرافيا للجزيرة العربية ، فإنها كانت مرشحة أكثر من غيرها للحصول على النصيب الأوفر من هذه التأثيرات الحضارية . غير أن الفتوحات الأموية لم تشمل كل أراضي شبه القارة الهندية ، بل اقتصرت على بعض المناطق التي فتحت عسكريا أو سلميا ، ولذلك سنكتفي بدراسة العلاقة التي ربطت الجزيرة العربية بهذه المناطق المفتوحة ، وما نجم عنها من صلات حضارية .

لا سبيل لإنكار بعض العقبات التي تقف في وجه الباحث في دراسته لهذا الموضوع ، لعل أبرزها يكمن في ندرة المادة التاريخية وتشتتها في أمهات المصادر التاريخية ، وهو أمر يعزى إلى أن التدوين التاريخي العربي ـ الإسلامي لم يبدأ إلا في العصر العباسي ، علما أن دولة العباسيين جاءت على أنقاض دولة الأمويين ، لذلك لم يكن غريبا أن يشاطر معظم مؤرخيها الموقف العدائي للأمويين ، ومن ثم العمل عن قصد على تهميش أخبارهم والتعتيم على إنجازاتهم ، ناهيك عن التقصير المتعمد أحيانا في ذكر بعض الجوانب الهامة من تاريخهم ، مما يشكل خسارة للباحث الذي يطمح للحصول على أجوبة شافية يتطلبها البحث العلمي في هذا المجال .

مع ذلك ، يمكن في ضوء ما توفره المصادر التاريخية على قلتها ، وعلى هدي المادة المتاحة في مصادر أخرى غير تاريخية مثل كتب الجغرافيا والرحلات ، رسم الصورة العامة للعلاقات بين الجزيرة العربية وبعض المناطق من شبه القارة الهندية في العصر الأموي .

والجدير بالذكر أن علاقة الجزيرة العربية ببلاد الهند تمتد بجذورها إلى أقدم العصور ، غير أنها تجذرت وأصبحت أكثر رسوخا وجنوحا نحو الانصهار الحضاري مع مرحلة انتشار الإسلام ، خاصة إبان الحكم الأموي الذي أفلح في القيام بفتوحات عسكرية ناجحة انتهت بضم أجزاء منها إلى حظيرة الخلافة الأموية .

والملاحظ أن المنطقة الشرقية من جزيرة العرب والمتمثلة في منطقة الخليج العربي لعبت دورا حاسما في نسج خيوط هذه العلاقة نظرا لموقعها الاستراتيجي ونفوذها القوي في رسم منحنياتها . فما هي التفسيرات والمقاربات التي تجعل تلك العلاقات في منطقة الضوء ؟ وما هي النتائج التي تمخضت عنها لتعطي للجزيرة العربية بعدا هاما في العلاقات الدولية آنذاك وتجعل من الحكم الأموي قطبا من الأقطاب الفاعلة والمؤثرة في صياغة نمط حضاري إسلامي وعالمي؟

إن هدف هذه الدراسة لا يكمن في نبش الرصيد المرجعي حول دور الجزيرة العربية في الفتوحات العسكرية التي أنجزت بشبه القارة الهندية فحسب ، بل يطمح كذلك إلى محاولة تفسير العلاقات التاريخية التي نجمت عن تلك الفتوحات ، وطرح إشكاليات قد تؤدي إلى لمس خيوط جديدة وتساؤلات لم يسبر غورها بشكل عميق . ولعلّ أهم التساؤلات التي تفرض نفسها عند دراسة أي علاقة بين طرفين يكمن في الآتي : هل كان التلاقي بين الجزيرة العربية وشبه القارة الهندية حتمية تاريخية حدثت داخل نسق تطوري أم كان ذلك أمرا عفويا ؟ ثم ما هي النتائج الحضارية التي تمخضت عن ذلك؟

أولا : انفتاح الجزيرة العربية على شبه القارة الهندية خلال العصر الأموي : هل كان حتمية تاريخية؟

كلما تناول الباحث دراسة المعطيات التي جعلت الجزيرة العربية توجه اهتمامها نحو شبه القارة الهندية خلال العصر الأموي لمعرفة ما إذا كانت تلك العلاقات حتمية أم جاءت في سياق عفوي ، إلا وتعددت أمامه المقاربات والتفسيرات المتنوعة ، والتي يمكن تناولها على الشكل الآتي .

١ ــ المقاربة التاريخية

لا يمكن إدراك علاقة الجزيرة العربية بشبه القارة الهندية إبان العصر الأموي دون الرجوع إلى الرصيد الذي أفرزه الواقع التاريخي قبل ظهور الإسلام ، ذلك أن هذا الرصيد شكل أرضية تاريخية انطلقت منها العلاقات بين المنطقتين . وفي هذا الصدد أثبتت الدراسات الأثرية أن الجزء الشرقي من الجزيرة العربية قام منذ الألف الثالث قبل

الميلاد بدور الوسيط التجاري بين شمال الجزيرة والساحل الغربي لشبه القارة الهندية ، فكان ذلك فرصة للاحتكاك بحضارة هرابا الناشئة في حوض السند.[١] واستمر التواصل بين المنطقتين مع تعاقب حكم دول بلاد الرافدين من العصر السومري القديم حتى الألف الأول قبل الميلاد.[٢]

وإذا صحت افتراضات ويلر Weeler من أن موضع "ملوخا" يقع في الجزء الأدنى من حوض السند ، فان ذلك ينهض دليلا على وجود علاقات قديمة بين المنطقة الشرقية من الجزيرة العربية والعالم الهندي ، يؤيد ذلك ما كشفت عنه الوثائق السومرية والأكادية من وجود علاقات بين ملوخا المذكورة ومنطقة ديلمون وماجان (البحرين وعمان حاليا).[٣]

و بالمثل لعبت هذه المنطقة دور الوسيط بين شرق إفريقية وشبه القارة الهندية ، وحسبنا أن زراعة الذرة انتقلت إليها من إفريقيا الشرقية بواسطة عمان . ومن الراجح أن هذه الأخيرة صدرت إليها - على غرار المجتمعات الشرقية - النحاس الذي كان يفيض عن حاجتها.[٤]

وثمة سلع أخرى شكلت موضوع مبادلات تجارية بين المنطقتين في هذه العصور الباكرة تكشف عنها نصوص " لارسا " المدونة في المرحلة التي أعقبت انهيار مملكة أور الثالثة ، ومنها الخشب الأسود والحجر الأحمر والمرجان وغيرها.[٥]

ولم تتأسس هذه العلاقات القديمة عن طريق البحر فحسب ، بل لعبت الطرق البرية خيطا موجها لذات الأهداف ، خاصة الطرق التي تخترق بلاد الساحل الشمالي للخليج ومحطاتها الأساسية عيلام وكرمان وبلوجستان، وهي محطات تقع على طرق المواصلات التاريخية البرية بين الجزيرة العربية والعالم الهندي.[٦] لذلك لم يكن من قبيل الصدفة أن يحدث تفاعل حضاري بين المنطقتين ، تجلى خصوصا في الجانب اللغوي، وظهور الأختام الهندية في شمال منطقة الخليج العربي ، فضلا عن بعض الأوزان الواردة من حوض السند إلى البحرين.[٧]

ومما زاد هذا التواصل تجذرا ورسوخا ، الهجرات القديمة التي حدثت على شكل موجات بشرية متلاحقة بين عرب الجزيرة ، والجاليات الهندية كالزط والأساورة والسيابجة والبياسرة الذين استقروا بشواطئ الخليج العربي.[٨]

من خلال هذه المعطيات ، نستشف أن أسس العلاقات التاريخية بين الجزيرة العربية والقارة الهندية نشأت في نسق تطوري ، وقد هيأ هذا الرصيد من العلاقات القديمة الأرضية المناسبة لدخولها مرحلة النضج والاكتمال في العصر الإسلامي ، خاصة العصر الأموي الذي يهمنا في هذه الدراسة .

٢ ــ المقاربة الدينية

إن الرصيد التاريخي لمرحلة ما قبل الإسلام شكل المقدمة الطبيعية لنمو العلاقات بين المنطقتين. وبمجيئ الإسلام أصبح هذا الرصيد التاريخي يشكل مخزونا ثريا وخصبا لتعميق التواصل بينهما ، خاصة أن الديانة

الإسلامية جاءت تحمل معها مبدأ التعايش بين الشعوب وتسعى إلى تكوين إطار عالمي إنساني بغض النظر عن الجنس أو العرق ، مما ساهم في وضع علاقات الجزيرة العربية مع الهند في مسار واضح وصلب.

ومن المعلوم أن الفتوحات الإسلامية شكلت برنامجا سياسيا طموحا وهدفا استراتيجيا في مشروع الخلافة الأموية . ولّما كانت شبه القارة الهندية لا تزال معقلا من معاقل الوثنية كما يؤكد ذلك ابن خلدون،[٩] فقد بات بديهيا أن توجه إليها الدولة الأموية كل اهتمامها لاحتوائها داخل المجال الإسلامي . ولعبت بلدان الخليج دورا بارزا في هذا الصدد ، إذ يشير البلاذري[١٠] إلى دور والي البحرين وعمان في بداية بلورة فكرة فتح السند خلال العصر الراشدي الباكر، ومن ثم أصبحت شبه القارة الهندية من البلدان المندرجة في برنامج الفتوحات الأموية، لذلك لا سبيل لإنكار دور الإسلام في نسج خيوط العلاقات بين المنطقتين في إطارها الجديد . وإذا كانت هذه الفتوحات عسكرية ظاهريا ، فإنها حملت في عمقها بذور الإستقرار والتعايش السلمي.

٣ ـــ المقاربة البيئية والبعد الاستراتيجي

ترى مدرسة الحوليات الفرنسية ورواد التاريخ الجديد أن الجغرافيا والوسط البيئي يشكلان خيطا موجها لمجمل الأحداث والتقلبات في مختلف المسارات التاريخية . ونحن نتفق على صحة هذه المقولة بالنسبة لموضوع دراستنا، ذلك أن قرب الجزيرة العربية من شبه القارة الهندية من جهة ، وتوفرهما على سواحل بحرية أمر ساهم دون شك في صياغة علاقاتها ونسج خيوط مصالحهما المشتركة. وإذا كانت الشعوب البحرية سباقة إلى الانفتاح على العالم الخارجي والاتصال بحضاراته على تنوع مشاربها ، فان المنطقتين المذكورتين لم تشذا عن هذه القاعدة . فوضعيتهما البحرية جعلتهما غير منغلقتين أو متقوقعتين، بل حتمت عليهما الانفتاح على الخارج والاتصال بشعوب المعمور . وبما أن الجزء الشرقي من بلاد الجزيرة العربية كان يسيطر آنذاك على زمام البحار، خاصة الخليج والمحيط الهندي،[١١] ونظرا لما كانت تحتله شبه القارة الهندية من مكانة متميزة في التجارة البحرية الآسيوية ، بل العالمية، فمن البديهي أن تنفتح المنطقتان على بعضهما البعض، خاصة وأن كليهما يعتبر طرفا مكملا للآخر، ناهيك عن القرب الجغرافي بين المنطقتين، فعامل الجوار عادة ما يكون حافزا لإقامة علاقات بين منطقتين، ولا نعتقد أن هذا العامل الجغرافي لم يكن حاضرا لدى الحكم الأموي، بل نميل إلى الظن أن المخططين لسياسة الأمويين كانوا يأخذون هذا العامل بعين الاعتبار، وهو ما ساهم في نظرنا في جعل العلاقات بين الجزيرة العربية وشبه القارة الهندية أمرا حتميا.

أما من الزاوية الاستراتيجية فقد ظل الأمويون متطلعين إلى السيطرة على المحيط الهندي فضلا عن الخليج وذلك لإتمام فتوحاتهم العسكرية . ولا يخامرنا شك في أنهم أولوا الجزء الشرقي من الجزيرة العربية كل اهتمامهم بسبب إشراف هذه المنطقة على الخليج الذي ظل طيلة العصور الوسطى حلقة وصل بين الهند والجزيرة العربية . كما

أنه بقي طيلة تلك الحقبة ممرّا مائيا خطيرا يحظى بأهمية دولية بوصفه شريانا رئيسا يربط المحيط الهندي وعالم جنوب آسيا وشرقها وبالجزيرة العربية . ولم يفلح البحر الأحمر في منافسته إلا في أواخر العصور الوسطى عندما تمكن المغول من فرض هيمنتهم على معظم بلاد فارس والعراق ، فعرقلوا - بسبب نزعتهم الفوضوية - التبادل التجاري بين الشرق والغرب ، فتدنت أهمية الخليج آنذاك.[١٢]

وبقدر ما كان الخليج يشكل نقطة استراتيجية حساسة بالنسبة للحكم الأموي ، فقد كان هذا الأخير ينظر نفس النظرة لشبه القارة الهندية التي كانت تجسد بدورها موقعا حيويا في المحيط الهندي. ومما زاد في أهميتها توفرها على مادة افتقرت إليها أوروبا افتقارا مدقعا ، ألا وهي مادة التوابل التي كانت تستغل في تجهيز الأطعمة وحفظ اللحوم ، لذلك أولى الأفرنج اهتمامهم للهند والخليج العربي باعتباره معبرا حيويا . وهذا ما حتم على الأمويين في معركة كسب المواقع الاستراتيجية أن يسعوا لاحتكار المنطقتين معا ضد خصومهم البيزنطيين وغيرهم .

٤ ــ المقاربة الاقتصادية

ومما زاد في حتمية الصلات بين المنطقتين ، حاجة كل طرف لمنتوجات الطرف الآخر انطلاقا من قاعدة التكامل الاقتصادي . فبتأمل ما كانت تنتجه شبه القارة الهندية ، يتضح أنها تمثل مواد نادرة بالنسبة للجزيرة العربية . وبرجوع الباحث إلى الصورة التي يقدمها الجغرافيون عن السند فإنه يستشف توافرها على منتوجات هامة رخيصة الأسعار . ويذكر في هذا الصدد بعض المناطق المتميزة برخص سلعها مثل المنصورة[١٣] والملتان[١٤] وبسمد وكيزكانان.[١٥]

إلى جانب الأسعار الرخيصة التي جلبت اهتمام تجار الجزيرة العربية ، فإن ما تزخر به الهند من ثروات معدنية شجعتهم على الاهتمام بها.[١٦] ولعل أهم تلك المعادن الطيب والجواهر واليواقيت والألماس وغيرها من المعادن الثمينة.[١٧] وتذكر المصادر الجغرافية بعض السلع التي كان يجلبها التجار العرب من الهند وخاصة القسط والقنا والخيرزان ،[١٨] فضلا عن الصندل والكافور والماكافور والجوزبوّا والقرنفل والقاقلة والكبابة.[١٩] كما أن صناعة السفن العربية كانت في أمس الحاجة الى خشب الساج ، فكان ساحل ملابار الهندي يمدهم بهذه البضاعة الهامة.[٢٠]

ونفس القول ينسحب على شبه القارة الهندية التي كانت في أمس الحاجة إلى منتوجات الجزيرة العربية ، خاصة اللؤلؤ واللبان والبخور[٢١] المنتشرة في منطقة القطيف واليمن والبحرين والجزر المحاذية للساحل العماني ،[٢٢] وهذا ما يفسر وجود الجاليات الهندية - خاصة فئة التجار - بكثرة في منطقة الخليج للحصول على هذه المواد التي كثر عليها الطلب حتى أن عمان أصبحت "مرسى السفن من السند والهند" على حد قول القلقشندي.[٢٣] ومن

ثم نعتقد أن الحاجة الاقتصادية لكلا الطرفين - الجزيرة العربية وشبه القارة الهندية - حتمت وجود علاقات بينهما سواء على صعيد المعاملات التجارية أو على المستويات الأخرى.

غير أن أهم معدن حفز الأمويين على نسج صلاتهم مع شبه القارة الهندية يتمثل في ما تشتمل عليه هذه الأخيرة من كميات وافرة من الذهب. وهذا ما يفسر استقطاب شبه القارة الهندية اهتمام الأمويين لما كانت تحويه من ذخائر هذا المعدن النفيس . ويكفي دليلا على ذلك وصف أحد الجغرافيين[٢٤] لها بقوله : " وحسبك ببلاد في بحرها الدر ، وفي برّها الذهب وفي جبالها الياقوت والماس". ويشيد في موضع آخر بكثرة الذهب في مدينة قنوج الهندية.[٢٥] لذلك لاغرابة أن يخلص المقدسي [٢٦] إلى القول وهو بصدد الحديث عن إقليم السند إنه " إقليم الذهب والتجارات."

وفي نفس المنحى يذكر القلقشندي [٢٧] نقلا عن ابن سعيد وهو بصدد الحديث عن جزيرة المهراج - إحدى جزر شبه القارة الهندية - أن صاحبها " من أغنى ملوك الهند وأكثرهم ذهبا ،" مما يعكس وفرة مادة الذهب بهذه الجزيرة .ولا نعدم روايات أخرى تؤكد وفرة الذهب ؛ فالرحالة الادريسي[٢٨] يذكر أن مدينة الملتان سميت " بفرج بيت الذهب " لكثرة الذهب فيها . ويحدد جغرافي آخر [٢٩] هذه الكمية بأربعين بهارا ، والبهار ثلاثة وثلاثون منا ،[٣٠] أي ما يعادل حسب هذا الجغرافي ألفي ألف وثلاثمائة ألف وسبعة وتسعين ألفا وستمائة مثقال ،[٣١] وهو رقم لا يمكن إلا أن يعطي شحنة تدفع بالعلاقات العربية الهندية إلى التجدر والرسوخ .

وإلى جانب الذهب لا تفوتنا الإشارة كذلك إلى وجود الفضة ، فحسب ابن سعيد[٣٢] وجد بإحدى المدن الهندية ملك يقال أنه كان يفرش أرض قصره بالفضة . فإذا جردنا هذه الرواية وغيرها من الروايات السالفة الذكر من طابع المبالغات والشطط ، أمكن فهم الحوافز الاقتصادية في نشأة العلاقات بين المنطقتين ، وهذا ما حدا بأحد الباحثين [٣٣] إلى القول بأن " شبه القارة الهندية التي كان العرب يعرفون سعة أرجائها وثرواتها الطائلة كانت محط الأنظار وقبلة الأحلام." .

وبالمثل فإن ازدهار المراكز التجارية في كل من شبه الجزيرة الهندية والجزيرة العربية زاد من تمتين هذا التكامل الاقتصادي ، الأمر الذي كان له تأثير واضح في توجه المنطقتين نحو بعضهما البعض. فمدينة الروز في الهند حسب وصف الجغرافيين " رفهة كثيرة التجارة ."[٣٤] أما مدينة الديبل فهي حسب تعبير الإصطخري[٣٥] " متجر عظيم وتجارتها من وجوه كثيرة ،" فضلا عن كونها مركزا ومحطة تجارية نشيطة كان يقصدها التجار العمانيون بانتظام ،[٣٦] وهذا ما يؤكده ويزكيه ابن سعيد[٣٧] مضيفا أنها تعد أهم ميناء في شبه القارة الهندية . وفي نفس السياق يصف هذا الجغرافي جزائر الديباجات على ساحل البحر الهندي بأنها " منازع للمراكب."[٣٨]

وعلى نفس المنوال غصت الجزيرة العربية ، خاصة ساحلها الشرقي بالمراكز التجارية كالأبلة ومسقط وصحار وغيرها من المدن العمانية حتى أن ياقوت الحموي أورد حديثا منسوبا إلى النبي (ص) بأن " من تعذر عليه

الرزق فعليه بعمان ." (٣٩) وزاد اليهود الرذانية من تنشيط حركة الخط التجاري الرابط بين الخليج العربي والهند والشرق الأقصى. (٤٠)

وثمة عامل اقتصادي آخر يفسر لنا حتمية علاقات الجزيرة العربية بشبه القارة الهندية ، ويتمثل ذلك في ميزة ميزت الحقبة موضوع الدراسة ، وهي هيمنة الملاحة البحرية على حساب التجارة البرية في العالم الآسيوي. فقد أكدت الدراسات المتخصصة أن المواصلات البرية فقدت أهميتها في هذه المرحلة وأصبحت ضئيلة بالمقارنة مع حركة الملاحة الواسعة. (٤١) ولما كانت الجزيرة العربية وشبه القارة الهندية منطقتين بحريتين تسيطران على شرايين الملاحة البحرية ، فمن الطبيعي أن تتضافر أنشطتهما البحرية وأن تصبح العلاقات بينهما حتمية تاريخية تعد انعكاسا لعصر الملاحة البحرية خاصة بعد بناء الأسطول الإسلامي في العصر الأموي.

يتضح مما تقدم أن العلاقات بين الجزيرة العربية وشبه القارة الهندية في العصر الأموي جاءت إفرازا طبيعيا لمجموعة من المعطيات التي وفرتها ظرفية ذلك العصر ، ومن ثم يمكن اعتبارها وليدة حتمية تاريخية وانعكاسا أمينا لمصالح استراتيجية مشتركة ، فكيف بدأت تلك العلاقات في العصر الأموي؟ إن الجواب على ذلك يكمن في الفتوحات الأموية لشبه القارة الهندية ، وهو ما سنتناوله في القسم الموالي .

ثانيا : الفتوحات الأموية لشبه القارة الهندية ودورها في ارتباطها بالجزيرة العربية

قبل تناول إسهامات الأمويين في فتح شبه القارة الهندية التي كانت تمهيدا لقيام علاقات متينة بينها وبين الجزيرة العربية ، لا بد من تسطير الملاحظات الآتية :

١ - يمكن اعتبار انتقال الجيش الأموي إلى شبه القارة الهندية وفتحها بداية لمرحلة متميزة من علاقاتها الحضارية مع الجزيرة العربية وتتويجا للمقاربات التي ورد ذكرها في القسم الأول من هذا البحث.

٢ - رغم الاختيار العسكري الذي تبنته الدولة الأموية في علاقتها مع شبه القارة الهندية ، فإن هذا الاختيار تحول مع مرور الزمن إلى علاقات حضارية استفاد منها الجانبان معا كما سنرى من خلال عرض النتائج .

٣ - إن أوضاع شبه القارة الهندية كانت تستلزم قوة منقذة تحولها نحو منعطف تاريخي إيجابي ؛ ولا غرو فإن استقصاء أوضاع شبه القارة الهندية قبل مجيئ العرب إليها كاف للدلالة على أن الفتح العربي جاء بردا وسلاما على شعوب المنطقة ، وحسبنا أن الضعف كان ينخر الإمبراطورية الهندية منذ القرن الخامس الميلادي بسبب غزوات الهون . وأسفر هذا الضعف عن تفكك أوصال تلك الإمبراطورية التي أصبحت تعيش على التشرذم والانقسام سياسيا ودينيا . (٤٢) ومن المعلوم أن الديانة البوذية كانت قد تراجعت بسبب الاضطهاد الذي مارسه البراهمة والتفرقة الطبقية التي طبقوها ، وحسبنا أنهم شكلوا أقلية استأثرت بزبد الخيرات ، بينما ظل السواد الأعظم من المهمشين والمنبوذين يعيشون تحت وطأة الفقر والبؤس . وبما أن الإسلام يلغي الطبقية ويدعو للعدل والمساواة ، فإن

هذا المناخ السائد كان ملائما للتقارب بين شعوب الهند والشعوب العربية التي جاءت تبشر بهذين المبدأين. وإذا أضفنا إلى ذلك الحرية الدينية التي أقرها الفاتحون في طول شبه القارة الهندية وعرضها خاصة في عهد الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز، أمكن إدراك خيوط هذا التقارب . فمثل هذه الحرية أعطت لأهالي المنطقة انطباعا جيدا عن المسلمين الذين أوفوا بوعودهم باحترام أموال الناس، وإبقائهم على النظم الإدارية التي اعتاد عليها الأهالي، واستخدامهم وإشراكهم في الحكم.(٤٣)

في ضوء هذه الملاحظات يمكن فهم الإيقاع السريع الذي سارت به العلاقات الحضارية بين الجزيرة العربية وبعض المناطق من شبه القارة الهندية ، ونجاح الأمويين في السيطرة على المنطقة المذكورة. إلا أن ثمة عاملا آخر يفسر لنا سهولة اجتياح الجيش الأموي لها ، وتتجلى في ما يمكن أن نطلق عليه المرحلة التمهيدية للفتح والتي دشنت مراحلها الأولى في العصر الراشدي . ذلك أن هذه الفترة شهدت مرحلة جس النبض قبل أن تتحول إلى فتح منظم في العصر الأموي، وكان من نتائجها " تدويخ " المنطقة وتسهيل أمرها للأمويين . ولا غرو فقد بدأت المحاولات الأولى منذ عهد الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب حسبما يذكره المؤرخ البلاذري (٤٤) الذي يؤكد أن هذا الأخير ولى عثمان بن العاص الثقفي ولاية البحرين وعمان سنة ١٥هـ / ٦٣٦ م ، فوجه هذا الأخير أخاه الحكم إلى البحرين، ومضى إلى عمان فأقطع جيشا إلى تانة ، وعزم على تنفيذ خطة لفتح الجزء الأسفل من نهر السند، غير أن الخليفة عمر لم يشجع هذه المبادرة لقساوة بلاد الهند .

ولما تسنم عثمان بن عفان سدة الخلافة ، وجه إلى عامله بالعراق أمرا لاختبار أحوال ثغر الهند ، فأرسل إليها هذا الأخير مبعوثا ليستكشف أحوالها وإمكانياتها العسكرية . فلما رجع وصفها لعثمان بقوله : " ماؤها وشل، وثمرها دقل ، ولصها بطل ، إن قل الجيش فيها ضاعوا ، وأن كثروا جاعوا."(٤٥)

وفي عهد الخليفة علي بن أبي طالب خرج القائد الحارث بن مرة سنة ٣٩هـ في حملة عسكرية وصفت بأنها " الفتح الإسلامي العظيم، "(٤٦) وأسفرت عن بعض الغنائم ، لكن العملية انتهت باستشهاد هذا القائد .

ويبدو أن الأمويين سعوا لتجاوز هذا الفتح بصورته السريعة إلى الفتح المنظم المرتكز على الاستقرار في البلاد المفتوحة ، وإن كان ذلك يتطلب مرحلة من الزمن . والملاحظ أن أهالي الجزء الشرقي من الجزيرة العربية لعبوا دورا طلائعيا في هذه الفتوحات ، فمعظم الحملات العسكرية اعتمدت على عرب عمان والبحرين ، وهو أمر يفسر بأنهم كانوا أكثر بلاد عرب الجزيرة معرفة بركوب البحر دون أن نستثني دورهم في الحملات البرية في مكران والسند. وترد في هذا الصدد أسماء بعض القبائل التي كان لها باع طويل في فتوحات الهند منذ عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان ، ونذكر من بينها قبائل بني ناجية والأزد العمانيين وبني عبد القيس وبني تميم.(٤٧) وحسب ما يذكره بعض المؤرخين فإن والي العراق- زياد بن أبيه - عين راشد بن عمر الجديدي على ثغر الهند ، وأن هذا الأخير نظم حملات عسكرية أوغل فيها إلى السند.(٤٨)

وإبان ولاية عبد الله بن سوار على ثغر الهند سنة ٤٥هـ ، تطالعنا المصادر بحاتم بن قبيصة بن المهلب كقائد عماني اعتمد عليه عبد الله بن سوار .(٤٩) وحسب ما يذكره صاحب كتاب *فتح السند* ، فإن ثغر الهند قد أسند بعد استشهاد عبد الله بن سوار إلى سنان بن سلمة الذي عينه زياد بن أبيه ، ثم عزله ليتولى راشد بن عمرو الجديدي أمور ثغر الهند مرة ثانية.(٥٠) ويفهم من خلال المرويات التاريخية أن ثغر الهند ظل يأخذ قسطا وافرا من اهتمامات معاوية بن أبي سفيان ، وأنه كان يحسب كل الحسابات قبل الإقدام على أي خطة عسكرية . فقد استدعى راشد الجديدي إلى مجلسه واستشاره في أمر ثغر الهند ثم طلب من الجنود ضرورة الانضباط إليه والاستماع إلى أوامره.(٥١)

وبهذه الخطة المحكمة انطلق راشد في حملته العسكرية إلى أن وصل إلى جبال البابه فأجبر أهله على دفع الجزية المقررة ، ثم قاد حملة أخرى داخل أرض القيقان وغنم غنائم كثيرة.(٥٢)

وفي السنة الموالية تصدى للخارجين عن السلطة الأموية ، ولكنه لقي حتفه في كمين نصب له أمام جبل المنذر حيث فاجأه جيش مؤلف من خمسين ألف من سكانه.(٥٣)

وبعد استشهاد راشد الجديدي تولى سنان بن سلمة قيادة ثغر الهند للمرة الثانية قبل أن يلقى حتفه ويخلفه المنذر بن الجارود بن بشر سنة ٦١ هـ ليتولى بعده القائد الحكم مواصلة الفتوحات في تلك الأصقاع .(٥٤)

ورغم أن الفتوحات العسكرية في ثغر الهند في عهد معاوية بن أبي سفيان لم تصل إلى مستوى الاستقرار ، فانه نجح في اختراقها حتى أن المؤرخ " جيبون " Gibbon أقر بأن " بلاد الهند كانت ترتعش في أيامه ."(٥٥) ولا غرو فقد كان لقائديه المهلب بن أبي صفرة وعبد الله بن سوار جولات عسكرية موفقة . بيد أن جهود القائدين لم تحقق استقرارا عربيا ببلاد الهند .(٥٦)

ولم يبدأ الفتح المنظم لشبه القارة الهندية إلا في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك الذي أوكل أمر الفتوحات بهذه المنطقة إلى عامله بالعراق الحجاج بن يوسف الثقفي . وقد وجه هذا الأخير عدة حملات عسكرية ، لكنها لم تصل إلى مستوى الرغبة في استقرار المسلمين بتلك الديار ؛(٥٧) لذلك فكر في حملة كبيرة جيدة الإعداد ، أسند قيادتها إلى ابن أخيه محمد بن القاسم الثقفي وذلك سنة ٩٢هـ . وتجنبا لأي هزيمة محتملة أو انتصار سريع لا يسعى إلى توطيد الحكم الأموي في شبه القارة الهندية ، أولى الحجاج بن يوسف كل اهتمامه بهذا الجيش من ناحية الإعداد الجيد والتسليح القوي ، فزوده بكل المعدات والمؤن ، بل حتى الخيوط والقطن المحلوج المنقوع في الخل .(٥٨) ولعل هذا الاستعداد المكثف قبل الإقدام على خطوة في مستوى الفتح المنظم يدحض ما أوردته بعض المصادر من أسباب ساذجة كانت وراء توجيه الحجاج بن يوسف هذه الحملة ، وتتمثل في أن امرأة مسلمة وقعت في سبي قراصنة من الهنود الذين حاولوا اغتصابها ، فاستغاثت بالحجاج الذي بعث من معسكره بشيراز القائد محمد بن

القاسم الثقفي.[٥٩] فحتى لو صحت هذه الرواية فإنها لا تعدو أن تكون مجرد سبب ثانوي عجّل بالحدث الذي كان مبرمجا ومعدا له سلفا.

على كل حال تجمعت قوات الأمويين في شيراز ومن هناك انطلقت في حشود كبيرة نحو مكران ثم إلى مدينة الديبل . وحسب المصادر فإن هذه المدينة كانت قد استعصت فيما قبل على الأمويين ، ذلك أن قائدا من أزد عمان يدعى بديل بن طهفة البجلي كان قد بعثه الحجاج بن يوسف سنة ٩٢ هـ لفتحها ، لكن حملته انتهت بمصرعه.[٦٠]

وأثناء الزحف انضم إلى الجيش الأموي العديد من الشعوب الهندية المعروفة بالزط والتي كانت تعاني من ويلات الحكومة البرهمية ، وهذا ما يؤكد أثر العامل التاريخي الاجتماعي في تسهيل الفتوحات الأموية ، وهو ما أبرزناه سلفا .

كانت المعركة الحاسمة مع الملك داهر ملك السند ، وكانت معركة ضارية استخدم فيها الجيش الأموي أسلحة قوية من بينها منجنيق يدعى العروس كان يديره خمسمائة جندي ، وأسفرت المعركة عن انتصار بيّن للمسلمين الذين استولوا على مدينة الديبل .[٦١] ويخبرنا البلاذري[٦٢] أن محمد بن القاسم اغتنم فرصة انتصاراته ليبني مسجدا بالمدائن التي فتحها. ورغم هذا الانتصار المظفر ، فإن الجو لم يصف للأمويين ، ذلك أن داهر لم يستسلم ، بل اتجه إلى المناطق الداخلية ليعيد ترتيب أموره و ينظم صفوفه من جديد استعدادا لمقاومة النفوذ الأموي ، فأعد قوة عسكرية كبيرة تجمعت في شرق مصب السند ، اعتقادا من الملك داهر أن النهر يعرقل عبور المسلمين له ، غير أن هذا التوقع فشل إذ نجح محمد بن القاسم في العبور مع جيشه بواسطة الزوارق الحربية.ولما أحس داهرا بدنو قوات الأمويين ، حاول أن يتحصن بحصن الروم ، لكن الجيش الأموي اقتحم الحصن بواسطة الحيلة والمباغتة ، مما زرع الذعر والهلع في جيش داهر.[٦٣] ورغم أن هذا الجيش كان يعتمد على الفيلة كقوة حربية مؤثرة ، فإنه انهزم تحت ضربات محمد بن القاسم ، وتمكن من استئصال شأفة الملك داهر الذي قتل على يد محارب عربي من قبيلة بني كلاب حسب رواية المدائني ، ويحدد ابن الكلبي اسمه فيذكره باسم القاسم بن ثعلبة بن عبد الله ابن حصن الطائي ،[٦٤] ونجح القائد الأموي بعد ذلك في الاستيلاء على برهماناد ، ثم تقدم صوب الشمال يستولي على المناطق الواصلة بين هذه المدينة والملتان إلى أن تمكن من الاستيلاء عليها عنوة.[٦٥]

كان لسقوط مدينة الملتان أهمية كبيرة في مشروع الفتوحات الأموية ببلاد الهند ، ذلك أن هذه المدينة كان لها قيمة دينية وروحية هامة ، إذ كانت توجد بها معابد الهنود وأصنامهم ،[٦٦] وكانت تقام بها الطقوس الدينية ، فكان استيلاء الأمويين عليها ضربة قاصمة لأعدائهم. ومما رفع من وتيرة نجاح الأمويين ، ترحيب الشعوب المفتوحة بهم ترحيبا منقطع النظير إذ أقبلوا على محمد بن القاسم يدقون الأجراس ويقرعون الطبول ويرقصون رقصاتهم الشعبية تعبيرا عن ابتهاجهم بمقدمه.[٦٧]

بعد ذلك أخذ القائد الأموي محمد بن القاسم يخطط للاستيلاء على مملكة قنوج التي كانت تعتبر أكبر إمارات الهند . غير أن المشروع الأموي عرف انكفاء وتراجعا في بلاد الهند بسبب أحداث لعبت دورا سلبيا فيه ، فقد توفي الحجاج بن يوسف سنة ٩٥ هـ وأعقبه وفاة الخليفة الوليد بن عبد الملك وخلافة أخيه سليمان له . وكان هذا الأخير معارضا لسياسة الحجاج فعزل كل المقربين إليه بما في ذلك محمد بن القاسم ، بل ألقى عليه القبض وزج به في السجن ، وبقي هناك إلى أن اخترمته المنية.(٦٨)

إن المؤرخ المنصف لا يمكن إلا أن يعتبر هذا السلوك مضرا بالعلاقات العربية الهندية من جهة ، وخسارة للعرب المسلمين من جهة أخرى ، ذلك أن القوى المتمردة في هذه البلاد خلعت طاعتها للأمويين ، مما أدى إلى تراجع وتيرة علاقات الجزيرة العربية مع بلاد الهند ، واكتفى الأمويون بالمحافظة على بعض الممتلكات التي بقيت لهم هناك.(٦٩)

وتذكر المراجع أن الأمويين قاموا بمحاولات عسكرية محتشمة إذ بعثت الخلافة الأموية القائد حبيب بن مهلب بن أبي صفرة مرة أخرى لثغر الهند بعد مقتل واليها يزيد بن أبي كبشة.(٧٠) والراجح أن هذا القائد لم يحقق فتوحات تذكر لقصر مدة ولايته التي لم تتجاوز سنتين ، فقد تم عزله وولي مكانه قائد آخر.(٧١)

وإبان خلافة عمر بن عبد العزيز(٩٩ - ١٠١ هـ)، عادت العلاقة بين جزيرة العرب وبلاد الهند إلى النمو ، ذلك أن هذا الخليفة الورع دشن مرحلة من سياسة التسامح مع الأهالي من غير العرب ، ولم يعوّل على استعمال القوة ، بل أرسل كتبا إلى أمراء الهند يدعوهم بالحسنى والموعظة . وقد أثمرت هذه السياسة ، فأسلم حليشة بن داهر وغيره من الأمراء الهنود الذين تسموا بأسماء عربية.(٧٢)

وحسبما يستشف من المصادر، فإن الوجود الأموي ببلاد الهند عرف انحسارا واضحا في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك (١٠٥-١٢٥ هـ) . إذ ارتد في عهده عدد من أهالي الهند عن الإسلام.(٧٣) وعندما عين الحكم بن عوانة الكلبي على ثغر الهند ، بنى وراء البحيرة مما يلي الثغر مدينة أطلق عليها اسم " المحفوظة " لتكون قاعدة خلفية للمسلمين المستقرين هناك.(٧٤)

ومن خلال هذا العرض الموجز للعلاقات العسكرية بين الجزيرة العربية وبلاد الهند في العصر الأموي يتضح ما يلي :

١ - لم تعرف هذه العلاقات منحنى تصاعديا وإنما تميز هذا المنحنى بالتغير ، وكان في أعلى قمته إبان ولاية محمد بن القاسم الثقفي .

٢ - رغم أن الوجود الأموي ببلاد الهند كان يتعرض أحيانا لبعض الهزات العنيفة ، فإنه لم يتراجع نهائيا .

٣ - كانت فترة حكم عمر بن عبد العزيز مرحلة متميزة من الصلات الحضارية بين الجزيرة العربية و بلاد الهند ، إذ كان يحكمها طابع التسامح والروح الإسلامية بعيدا عن كل نفوذ أو هيمنة .

٤ ـ وجدت بعض المثبطات التي كانت تعرقل الفتوحات في بلاد الهند خلال العصر الأموي نذكر من بينها :

ـ الثورات ضد الحكم الأموي و المتمثلة في ثورات الخوارج والشيعة والزبيريين والموالي ، مما أضعف الجبهة الداخلية طيلة العصر الأموي ، وكلما كانت هذه الجبهة ضعيفة كلما انعكس ذلك سلبا على الفتوحات .

ـ تبني الفتوحات من طرف بعض البيوتات بمعزل عن الحكم الأموي ، ففي ما بين سنتي ٦٥ و ٧٨ هـ وهي الفترة التي شهدت ذروة الصراعات الداخلية ، ظهرت في منطقة ثغر الهند أسرة العلافيين (نسبة إلى معاوية ومحمد بن الحارث من بني علاف) ، [٧٥] التي نجحت في السيطرة على ثغر الهند حوالي عقد من الزمن وإن كنا لا نعرف عنها الشيء الكثير نظرا لصمت المصادر عن ذكر أخبارها ، وكل ما نعرفه هو أن الحجاج بن يوسف وجه محمد بن هارون النميري الذي نجح في القضاء عليهم. [٧٦] فلو تضافرت جهود الطرفين لأدى ذلك إلى مزيد من الفتوحات في بلاد الهند.

ـ نكبة محمد بن القاسم الثقفي التي تعتبر ضربة موجعة للفتوحات في تلك الديار الهندية ، إذ أن هذا الشاب المحنك كان قد خبر المعارك فيها ، ولو قدر له الاستمرار في الفتوحات لأسدى خدمة لا تقدر بالنسبة لطرفي العلاقة معا .

ومهما كان الأمر، ورغم أن الفتوحات كانت بهذا الحجم المتواضع ، إلا أنها شكلت الحلقة الرئيسة لارتباط شبه الجزيرة العربية ببلاد الهند حضاريا . ولا شك أن البحث عن النتائج المتمخضة عن الفتوحات تؤكد بداية ولادة صلات حضارية بين الطرفين ، وهو ما سنعالجه الآن .

ثالثا : نتائج الفتوحات الأموية على العلاقات الحضارية بين الجزيرة العربية وبلاد الهند

إذا كان من الصعب رصد النتائج المتمخضة عن العلاقات التاريخية التي نشأت بين الجزيرة العربية وبلاد الهند طيلة العصر الأموي نظرا لقصر مدة الحكم الأموي وعدم ظهور النتائج الحضارية إلى غاية القرون اللاحقة من حكم العباسيين ، فإن ذلك لا يحول دون تسطير بعض النتائج التي بدأت إرهاصاتها الأولى تتشكل لتكتمل في العصور اللاحقة .

على المستوى السياسي أصبحت بعض المناطق من شبه القارة الهندية مرتبطة سياسيا بالدولة الأموية ، وأصبح التقارب بين الجانبين أكثر وضوحا من الفترات السابقة ، وفي هذا السياق أورد المؤرخ علي بن حامد الكوفي خبر السفينة الكبيرة التي بعثها ملك سرانديب (سيلان) إلى الحجاج بن يوسف الثقفي محملة بالتحف والهدايا والياقوت والجواهر الثمينة والعبيد والغلمان ، فضلا عن الهدايا التي بعثها للخلافة الأموية تعبيرا عن العلاقات الودية بين الجانبين. [٧٧] كما صار الأمويون يعينون ولاتهم على بعض المقاطعات الهندية باعتبارها من المقاطعات الإسلامية . ولا شك أن الارتباط بين المنطقتين زاد الدولة الأموية قوة وهيبة ، ووسع رقعة خريطتها السياسية .

أما على المستوى الديني فقد تمخض عن الفتوحات الأموية انتشار الإسلام في شبه القارة الهندية. وقد سبق القول إن حليشة بن داهر وغيره من زعماء الهنود اعتنقوا الإسلام عن طواعية في عهد عمر بن عبد العزيز. وكان لحركة بناء المساجد في أهم المدن الهندية المفتوحة أثر في كثرة أعداد الداخلين في الديانة الإسلامية، خاصة في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز الذي رفع الجزية على كل من أسلم من الهنود وغيرهم.

وعلى الصعيد الاقتصادي، لا يخامرنا شك في أن مداخيل الدولة الأموية نمت بفضل موارد المناطق الهندية، فضلا عن الضرائب والجزية التي كان يؤديها غير المسلمين، حتى أن الحجاج بن يوسف لما بعث إليه برأس الملك داهرا مع العبيد والسبايا والأموال خرّ ساجدا شاكرا لله قائلا: "بهذا وصلت إلى جميع خزائن وأموال وملك الدنيا." (٧٨) كما حدث تكامل بين موارد اقتصاد الجزيرة العربية وشبه القارة الهندية، وكان للغنائم التي حصل عليها الأمويون و خاصة الذهب أثر إيجابي في تنمية بيت المال الأموي. وفي هذا الصدد ذكر البلاذري أن الحجاج ابن يوسف وجد أن مداخيل فتوحات محمد بن القاسم الثقفي درت عليه ضعف مصاريف النفقات التي أنفقها على الجيش وتجهيزاته. (٧٩) وفي نفس المنحى يزودنا ابن خلدون (٨٠) برواية حول الغنائم التي حصل عليها الأمويون في مدينة الملتان (كراتشي حاليا)، فيذكر أن الفاتحين وجدوا بها كميات كبيرة من الذهب في بيت طوله عشرة أذرع وعرضه ثمانية.

وبفتح الهند انفتحت أسواق ومراكز تجارية جديدة، وانفتح الطريق أمام الهجرة الجماعية للتجار العرب نحو السواحل الهندية. ومع مضي الزمن، أخذت البضائع والسلع تحل محل القوة والسيف، وأخذت المنطقتان تتبادلان وفود التجار، حتى أن عمان أصبحت "مرسى السفن من السند والهند،" (٨١) بينما أصبحت مدينة الديبل منطقة جذب للتجار العمانيين وغيرهم من العرب بكيفية منتظمة، (٨٢) فضلا عمّا كانت تمثله الأبلة وبغداد من محطات رئيسة في طريق التجار اليهود الرذانية الذين كانوا يعبرون من هذه المناطق الخليجية نحو الهند والشرق الأقصى. (٨٣)

ولا تعوزنا الدلائل الأخرى عن توافد التجار العرب الخليجيين على شبه القارة الهندية، فعندما زار المسعودي مدينة صيمور سنة ٣٠٤هـ، التقى بمجموعة من التجار فعدّهم بأسمائهم، (٨٤) ورغم أن هذا النص يعود إلى العصر العباسي، فلا شك أن الجذور الأولى لهذه الصلات التجارية ترجع إلى العصر الأموي. وكانت مدينة جاليور معروفة لدى التجار العرب الذين يمرون عبرها من كنبابية إلى دلهي. (٨٥)

ولا يخامرنا شك في أن المصالح التجارية بين المنطقتين أفرزت مناخا من التسامح والتعايش السلمي بينهما، فالتجار العرب استقروا في منطقة السند في جو من الأمن، وامتزجوا مع الأهالي، وسمح لهم ببناء المساجد وممارسة الشعائر الدينية في جو من الحرية. (٨٦)

أما بخصوص النتائج الإجتماعية المترتبة على علاقة الجزيرة العربية بثغر الهند في العصر الأموي فتتجلى بصورة أوضح لأن الفتوحات الأموية لم تكن عسكرية الطابع فحسب . فرغم بعض التجاوزات ، فإنها كانت فتحا حضاريا ؛ ولا غرو فإن الفاتح الكبير محمد بن القاسم " كان يراعي آداب وقواعد البلاد ، فدانت له الممالك جميعا وقهر الأعداء واستمال الرعية وهذب أخلاق العامة ، ولم يتعرض لأصحاب المصالح والعمال."(٨٧) وتروي المصادر كيف كان يعطي الأمان للأهالي وكيف كان يحتفظ للبراهمة بمناصب الولايات والحكم ،(٨٨) مما جعل معظم الأهالي يطمئنون للفاتحين الجدد ، بل أن بعض قبائل سمه استقبلت محمد بن القاسم بالرقصات والأهازيج الشعبية تعبيرا عن فرحها بمقدمه كمحرر.(٨٩) وقد ترجم هذا الانصهار الاجتماعي في عملية الزواج التي كانت تتم بين العرب والهنديات ، حسبنا دليلا على ذلك زواج أحد أفراد حاشية الخليفة الأموي الوليد ويدعى كعب الراسبي بإحدى بنات أخت ملك الهند داهرا ، (٩٠) فضلا عن اتخاذ الجواري الهنديات اللاتي أصبحن أمهات أولاد.

من ناحية ثانية ، كانت الهجرات المتبادلة إحدى قنوات هذا الاندماج الاجتماعي ، حيث أصبحت كل من شبه القارة الهندية وبلاد الجزيرة العربية موطنين لاستقرار العرب والهنود . ولا غرو فقد أبحر العديد من عرب الجزيرة نحو شبه القارة الهندية واستوطنوا مع الأهالي وعاشوا بين ظهرانيهم. وفي هذا السياق ، يذكر ابن المجاور (٩١) عن مدينة المنصورة بالسند أن " جميع سكانها حضارم انتقلوا من بلادهم وسكنوا بها." كما أن قبيلة بني هاشم التي أجلاها الحجاج بن يوسف اختارت غرب الهند موطنا ، في حين استوطن بعضها بساحل بومباي.(٩٢)

ويبدو أن المناطق الأخرى من شبه القارة الهندية لم تخل من وجود الجاليات من سكان الجزيرة العربية . مصداق ذلك ما شاهده المسعودي (٩٣) ووقف عليه بالعيان حين زار الهند فذكر أن بها " من المسلمين نحو عشرة آلاف قاطنين ، بياسرة وسيرافيين وعمانيين وبصريين وبغداديين ، وغيرهم من سائر الأمصار ممن قد تأهل وقطن تلك البلاد." وهو نص رغم أنه يرجع إلى فترة العباسيين ، فإن الوضع ما كان ليتحول و يصبح على هذه الشاكلة لو لم توجد الإرهاصات الأولية في عصر الأمويين . وقد تمخض عن الزواج بين عرب الجزيرة والهنديات ظهور طائفة تسمى البياسرة وهم المولدون من آباء عرب وأمهات هنديات.(٩٤)

وعلى نفس النهج ، أبحر سكان شبه القارة الهندية نحو منطقة الخليج العربي وكونوا بها جاليات هامة اشتغلت في صناعة السفن ،(٩٥) بل أن بعض ذوي الخبرة الإدارية منهم أفادوا الدولة الأموية . وفي هذا الصدد يذكر البلاذري (٩٦) أن أربعين أو أربعمائة من السياجبة كانوا يشتغلون في بيت مال البصرة خلال عهد خلافة علي بن أبي طالب ، ولا شك أنهم استمروا في عهد معاوية بن أبي سفيان الذي حكم بعده مباشرة ، وربما في عهد خلفائه لأنه من غير المعقول أن يحدث انقطاع ظاهرة مثل هذه بشكل مفاجئ . ونذكر من ضمن النتائج الاجتماعية الأخرى كذلك انتشار أعداد كثيرة من الرقيق الهندي بالجزيرة العربية بفضل السبايا التي كانت تعقب كل غزوة.(٩٦)

ونظرا لكثافة الجالية العربية في شبه القارة الهندية ، فقد أسست لنفسها نظاما خاصا يعرف بالهزمة وتعني " رآسة المسلمين يتولاها رجل منهم عظيم من رؤسائهم تكون أحكامهم مصروفه إليه."[٩٨] ولعلّ هذا النظام يعكس ذروة التعايش والعلاقات الحسنة بين الجانبين .

ومن البديهي أن تتمخض عن هذا التعايش بين شعوب المنطقتين عادات وتقاليد اجتماعية مشتركة . ونسوق في هذا الصدد ما ذكر عن تأثر مدينة قنوج الهندية بأنواع الأطعمة العربية ،[٩٩] كذا تأثر أزياء أهل المنصورة بالزي العراقي ،[١٠٠] وعادة الهنود في اتخاذ أسماء عربية.[١٠١]

نستنتج من ذلك أن توافد الجاليات من كلتا المنطقتين وزواجهما واختلاطهما أدى إلى امتزاج الدم العربي بالهندي ، مما جسد معلمة بارزة من معالم علاقات التعايش بين الطرفين .

يضاف إلى نتائج الفتوحات توطيد الصلات العلمية بين الجزيرة العربية وشبه القارة الهندية ، إذ لم يتوان العلماء المسلمون عن تبليغ رسالتهم الثقافية إلى شعوب تلك المنطقة . وحسبنا أنهم كانوا يتخذون من تعليم الدين حرفة لهم واحتسابا لله تعالى.[١٠٢] وقد لاحظ الرحالة والجغرافيون كثرة العلماء العرب ببلاد الهند ؛ وهذا ما يفسر قول أحدهم[١٠٣] عن مدينة قنوج الهندية : " وبها علماء أجلة ." و تجلت جهود هؤلاء العلماء في اهتمامهم وحرصهم على تشييد المساجد واتخاذها منابر لنشر العلم والمعرفة . وفي ذات الوقت ، كان سلوكهم الأخلاقي مدعاة لدخول عدد من شعوب القارة الهندية في الإسلام ، سواء من الأهالي المعتنقين للبوذية أو من البراهمة أنفسهم . ولعل ظاهرة الاعتناق الجماعي للإسلام من قبل هؤلاء يعكس قوة الانصهار الديني والثقافي.[١٠٤]

وتمخض عن التلاقح الثقافي بين المنطقتين امتزاج لغوي عبّر عنه أحد الجغرافيين[١٠٥] بقوله وهو يتحدث عن أهل مدينة الديبل في منطقة السند : " كلامهم سندي عربي." ومما يؤكد انتشار اللغة العربية في هذه المدينة أن مدير سجن قلعتها تحول بعد فتحها من طرف محمد بن القاسم إلى مشرف على شؤونها الاقتصادية ، ثم تم تعيينه مترجما لرئيس الوفد الذي أرسله محمد بن القاسم إلى داهر ملك السند ، وهو ما يعني أنه كان يحسن العربية . ومن المحتمل أن يكون قد تعلمها من العرب الذين أقاموا في سجنه بالقلعة المذكورة.[١٠٦] والجدير بالإشارة أن الأرقام الهندية انتقلت إلي الجزيرة العربية بفعل الانصهار الحضاري ، حيث لا تزال تستخدم حتى الوقت الراهن.[١٠٧]

ولا تفوتنا الإشارة كذلك إلى بعض التأثيرات العمرانية ، فقد كان الحضور الأموي مناسبة لاستبحار العمران في بلاد الهند إذ شيدت بعض المدن واتخذت أسماء عربية نذكر من بينها مدينتي المحفوظة ،[١٠٨] والمنصورة التي سميت نسبة إلى " منصور بن جمهور عامل بني أمية." [١٠٩] كما نمت حركة بناء المساجد التي كانت حركة مصاحبة لعمليات الفتح ، وفي هذا الصدد ذكر أحد المؤرخين أن محمد بن القاسم بعد أن أعطى الأمان لأهالي الملتان "بنى المساجد والمنارات وعمّر المدينة."[١١٠]

من حصاد ما تقدم نصل إلى القول إن العلاقات الحضارية بين الجزيرة العربية وشبه القارة الهندية علاقة متجذرة في القدم ، إلا أن الإسلام زادها رسوخا عندما طالها الفتح الأموي. وقد شملت كل الجوانب لأنها لم تكن عدوانية الطابع ، بل اتسمت بروح التعايش والفتح الحضاري ، فكانت خيرا على المنطقتين معا ، وأثرت إيجاباً على صيرورتهما التاريخية. وقد عبّر البلاذري تعبيرا رائعا عن الانصهار الذي وقع بين الطرفين بقوله وهو بصدد الحديث عن سجن محمد بن القاسم الثقفي وموقف أهل الهند منه : " فبكى أهل الهند على محمد وصوروه بالكيرج ، " [١١١] وهو نص يحمل أبعادا ودلالات عميقة تعكس بالملموس ما كانت تختزنه الذاكرة الشعبية الهندية من شحنة المحبة للمسلمين وقائدهم العربي الشهير الذي نحت اسمه في مسار التاريخ الهندي .

التعليقات

(١) محمد فرزات ، "العلاقات الحضارية بين بلاد الخليج العربي وشبه القارة الهندية حتى الألف الأول قبل الميلاد ،" *مجلة دراسات تاريخية* ، ٧٣١ .

(٢) فرزات ، "العلاقات ،" ٧٤.

(٣) فرزات ، "العلاقات ،" ٧٤.

(٤) سعيد عبد الفتاح عاشور وعوض محمد خليفات ، *عمان والحضارة الإسلامية* ، ط٩ (مسقط ، ١٩٩٤)، ١٢ .

(٥) فرزات ، "العلاقات ،" ٧٦.

(٦) فرزات ، "العلاقات ،" ٧٦.

(٧) C.J. Jadd, "Seals of Ancient Indian Style," *PBA*, 8, 191-210.
اقتباسا من : فرزات ، "العلاقات ،" ٧٦ ، ٧٧ .

(٨) الشيخلي والآلوسي ، *تاريخ الإسلام في إفريقيا وجنوب شرق آسيا* (بغداد ، ١٩٨٩م)، ١٦١.

(٩) يذكرعن مدينة الديبل أنه كان بها صنم كبير يعبده الأهالي وقد حطمه الفاتحون العرب ، انظر : *تاريخ ابن خلدون* (بيروت ، ١٩٧٩)، ٣ : ٦٠ .

(١٠) *فتوح البلدان* (بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٩٧٨م)، ٤٢٠ .

(١١) محمد كريم إبراهيم ، العلاقات التجارية بين عدن والهند خلال القرنين السادس والسابع الهجريين ١٢|١٣م ،" *مجلة المؤرخ العربي* ، ٣٣ (١٩٨٧م)، ٢٢٥ .

(١٢) عاشور وخليفات ، *عمان* ، ٥ .

(١٣) ابن حوقل ، *صورة الأرض* (بيروت : مكتبة دار الحياة ، ١٩٧٩م) ، ٢٧٧ .

(١٤) ابن حوقل ، *صورة الأرض* ، ٢٧٨ .

(١٥) ابن حوقل ، *صورة الأرض* ، ٢٧٩-٢٨٠.

(١٦) الإصطخري ، *المسالك والممالك* (ليدن : بريل ، ١٩٦٧م) ، ٦٥ .

(١٧) ابن الفقيه ، *مختصر كتاب البلدان* (ليدن : بريل ، ١٩٦٧ م) ٢٣٠ .

(١٨) ابن خرداذبه ، *المسالك والممالك* ، تحقيق محمد مخزوم (بيروت : دار احياء التراث العربي ، ١٩٨٨م)، ٢٦ ، ١٣١ . والقسط بضم القاف : عود هندي عربي ، مدر نافع للكبد والمغص والزكام ؛ أما القنا فتطلق على القصب.

(١٩) ابن خرداذبه ، *المسالك والممالك* ، ٦٧ . والصندل شجر مشهور بخشبه المتين . والماكافور والجوزبوا هي شجرة من فصيلة جوز الطيب لها بزوز وأغلفة والقاقلة هي الهال . أما الكبابة فهي ثمار نبات من الفصيلة الفلفلية .

(٢٠) الندوي ، *تاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية* (بيروت ، د.ت.) ، ٤٨ .

(٢١) القلقشندي ، *صبح الأعشى* ، تحقيق نبيل خالد الخطيب (بيروت ، ١٩٨٧م)، ٥ :١٤ .

(٢٢) البكري ، *جزيرة العرب ، من كتاب الممالك والمسالك* ، تحقيق عبد الله يوسف الغنيم ، ط١ (الكويت : ذات السلاسل ، ١٩٧٧م)، ٣٤-٣٥.

(٢٣) القلقشندي ،*صبح الأعشى* ، ٥ :٥٣ .

(٢٤) القلقشندي، *صبح الأعشى*، ٥ : ٥٨ ؛ وينقل روايته عن الجغرافي العمري .

(٢٥) القلقشندي، *صبح الأعشى*، ٥ : ٥٨.

(٢٦) المقدسي، *أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم* (ليدن: بريل، ١٩٦٧م)، ٤٧٤ .

(٢٧) القلقشندي، *صبح الأعشى*، ٥٧.

(٢٨) الإدريسي، *نزهة المشتاق في اختراق الآفاق* ، منشورات المعهد الجامعي الشرقي بنابولي ، ط٢ (نابولي ـ روما ، د. ت.)، ٢ : ١٧٧ ؛ المقدسي ، *أحسن التقاسيم*؛ ياقوت الحموي ، *معجم البلدان* (بيروت ، د.ت.) ، ٥ : ٢٢٧.

(٢٩) ابن خرداذبة ، *المسالك والممالك*، ٥٦.

(٣٠) المن : كيل قديم وهو وزن ٢٥٧ درهما وسبع درهما ، و بالمثاقيل ١٨٠ مثقالا . انظر : أحمد قدامة ؛ *قاموس الغذاء* ، عن محقق كتاب ابن خرداذبة ، *المسالك والممالك*، هامش ٢ ، ٥٦ .

(٣١) المثقال : عيار وزن بحساب الدرهم: " درهم وثلاثة أسباع الدرهم ". وبحساب الشعيرة ٩٩ شعيرة . وفي اصطلاح صاغة الحلي: "درهم ونصف الدرهم ". انظر : *قاموس الغذاء* ، ٧٧ ، عن المحقق ، ٥٦ ، هامش ٣ .

(٣٢) *كتاب الجغرافيا أو جغرافية ابن سعيد* ، تحقيق إسماعيل العربي (بيروت، ١٩٧م)، ١٠٧ .

(٣٣) انظر : العربي ، مقدمة التحقيق *لجغرافية ابن سعيد* ، ٣٠ .

(٣٤) ابن حوقل ، *صورة الأرض*، ٢٧٩ .

(٣٥) الإصطخري ، *المسالك والممالك*، ١٧٥ .

(٣٦) الحميري ، *الروض المعطار* ، تحقيق إحسان عباس، ط٢ (بيروت، ١٩٨٤م) ، ٢٥٠ .

(٣٧) *كتاب الجغرافيا* ، ٢٥٠ .

(٣٨) *كتاب الجغرافيا* ، ٢٥٠ .

(٣٩) ياقوت، *معجم البلدان* ، ٤ : ١٥٠ .

(٤٠) ابن خرداذبه ، *المسالك والممالك*، ١٣١ .

(٤١) هايد ، *تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى* (القاهرة، ١٩٨٥ م)، ٥٣.

(٤٢) عن التشرذم الديني يذكر الحميري أن لأهل الهند اثنتين وأربعين ملة . *انظر : الروض المعطار في خبر الأقطار*، تحقيق احسان عباس (بيروت، ١٩٨٤م) ، ٥٩٧ ؛ وعن التشرذم السياسي انظر : عبد الشافي عبد اللطيف ، *العالم الإسلامي في العصر الأموي: دراسة سياسية* (د.م: دار الوفا للطباعة، ١٩٨٤م) .

(٤٣) عبد اللطيف، *العالم الإسلامي*، ٤٤٩ - ٤٥٠ .

(٤٤) البلاذري، *فتوح البلدان*، ٤٢٠ ؛ عبد المنعم ماجد، *التاريخ السياسي للدولة العربية : عصر الخلفاء الأمويين* (القاهرة: دار الطباعة الحديثة، ١٩٨٢ م)، ٢٣٣ .

(٤٥) البلاذري، *فتوح البلدان*، ٤٢١.

(٤٦) علي بن حامد الكوفي، *فتح السند*، تحقيق سهيل زكار، ط١ (بيروت: دار الفكر، ١٩٩٢ م)، ٧٧ .

(٤٧) S.S. Al-Humaidi, "Makran and Baluchistan from the Early Islamic Conquests down to the Mongol Invasion," unpublished PhD. Thesis, Victoria University of Manchester, 1988, 3.

(٤٨) الذهبي، *العبر في خبر من غبر*، تحقيق صلاح الدين المنجد، ط٢ (الكويت، ١٩٨٤ م)، ١ :٥١ ؛ خليفة بن خياط، *تاريخ خليفة بن خياط*، تحقيق أكرم ضياء العمري، ط٢ (الرياض، ١٩٨٥م)، ٢٠٥ .

(٤٩) قاضي المباركبوري، *العقد الثمين في فتوح الهند ومن ورد فيها من الصحابة والتابعين*، (القاهرة: دار الأنصار، ١٣٩٩ هـ)، ١٠٥-١٠٦ .

(٥٠) الكوفي، *فتح السند*، ٨٠ - ٨١ .

(٥١) خليفة ابن خياط، *تاريخ*، ٢١٢ ؛ اليعقوبي، *تاريخ اليعقوبي* (بيروت: ١٩٨٠م)، ٢: ٢٧٨.

(٥٢) الكوفي، *فتح السند*، ٨١ .

(٥٣) الكوفي، *فتح السند*، ٨١ .

(٥٤) الكوفي، *فتح السند*، ٨٢-٨٤ .

(٥٥) Gibbon, *The Decline and Fall of the Roman Empire* (London, 1950), 5: 388.

(٥٦) الشيخلي والآلوسي، *تاريخ الإسلام*، ١٦٣ .

(٥٧) حسن إبراهيم حسن، *تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي*، ط٧ (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٤م)، ١: ٣٠٧ .

(٥٨) الكوفي، *فتح السند*، ١٤٧ ؛ Lane Poole, *Medieval India under Mohamedan Rule* (New York, 1962), 8 .

(٥٩) الحميري، *الروض المعطاء*، ٢٥٠ ؛ الكوفي، *فتح السند*، ٩٠.

(٦٠) البلاذري، *فتوح البلدان*، ٤٢٣ .

(٦١) عصام الدين الفقي، *بلاد الهند في العصر الإسلامي* (القاهرة: عالم الكتب، ١٩٨٠م)، ٩ .

(٦٢) البلاذري، *فتوح البلدان*، ٤٢٧ .

(٦٣) انظر تفاصيل المعركة ضد الملك داهر عند الكوفي، *فتح السند*، ١٦٣ ومابعدها .

(٦٤) وردت الروايتان معا عند البلاذري، *فتوح البلدان*، ٤٢٦ ؛ انظر كذلك: حسن، *تاريخ الإسلام*، ٢٥٢ .

(٦٥) البلاذري، *فتوح البلدان*، ٤٢٥ .

(٦٦) يصف ياقوت الحموي الصنم الذي كان يعبد في الملتان وصفا دقيقا . انظر: *معجم البلدان*، ٥ : ٢٢٧

(٦٧) Lane Poole, *Medieval India*, 10. ـ الكوفي، *فتح السند*، ٢١١ .

(٦٨) البلاذري، *فتوح البلدان*، ٤٢٨.

(٦٩) الفقي، *بلاد الهند*، ١١ .

(٧٠) اليعقوبي، *تاريخ*، ٢: ٢٩٦ .

(٧١) خليفة بن خياط، *تاريخ*، ٣٢٢ .

(٧٢) حسن، *تاريخ الإسلام*، ٣٠٨ .

(٧٣) حسن، *تاريخ الإسلام*، ٣٠٨.

(٧٤) البلاذري ، *فتوح البلدان*، ٤٣٠ - ٤٣١ .
(٧٥) الكوفي ، *فتح السند*، ١٣٨ ، ١٥٧ .
(٧٦) AL – Humaidi , "*Makran*," 263 - 64 .
(٧٧) الكوفي ، *فتح السند*، ٨٨ .
(٧٨) الكوفي ، *فتح السند*، ٨٨ ، ١٨٧ ، ويذكر نصوصا أخرى حول الأموال التي كان يبعثها القائد محمد بن القاسم إلى الحجاج بن يوسف . انظر : الكوفي، *فتح السند*، ٢٣٣ .
(٧٩) البلاذري ، *فتوح البلدان* ، ٤٢٧ .
(٨٠) *تاريخ* ابن خلدون ، ٦١ .
(٨١) القلقشندي ، *صبح الأعشى*، ٥٣ .
(٨٢) الحميري ، *الروض المعطار*، ٢٥٠ .
(٨٣) ابن خرداذبه ، *المسالك والممالك*، ١٣١ .
(٨٤) المسعودي، *مروج الذهب* (القاهرة، ١٩٦٤ م)، ١: ٢١٣ .
(٨٥) ابن سعيد ، *كتاب الجغرافيا*، ١٢٠ .
(٨٦) يذكر أن كنبابية من بلاد الجزرات الهندية "مشهورة يقصدها تجار الهند ، وفيها المسلمون ولهم فيها مساجد." انظر : *كتاب الجغرافيا* ، ١٢٠ .
(٨٧) الكوفي ، *فتح السند* ، ١٩١ .
(٨٨) الكوفي ، *فتح السند* ، ١٩٩_٢٠٠ .
(٨٩) الكوفي ، *فتح السند* ، ٢١١ .
(٩٠) الكوفي ، *فتح السند* ، ١٨٤ ، ويورد رواية أخرى يذكر فيها أن الذي تزوجها هو علي بن عبد الله بن العباس .
(٩١) *صفة بلاد اليمن* ، نشرها وصححها أوسكر لوففرين ، ط٢ (منشورات المدينة، ١٩٨٦م) ، ٢٦٥.
(٩٢) الندوي ، *تاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية* (بيروت، د.ت.) ، ١٦٨ .
(٩٣) المسعودي، *مروج الذهب* ، ١: ٢١٣ .
(٩٤) المسعودي، *مروج الذهب* ،١: ٢١٠ .
(٩٥) أحمد مقبول ، العلاقات التجارية بين الهند والعرب ، *مجلة ثقافة الهند* ، ١ (١٩٦٥ م)، ١٦ .
(٩٦) البلاذري، *فتوح البلدان* ، ٤٦٢ .
(٩٧) انظر : البلاذري ، *فتوح البلدان*، ٤٣١ . ويذكر علي بن حامد الكوفي أن عدد الأسرى بلغ ٣٠ ألفا. انظر : *فتح السند*، ١٨٦ .
(٩٨) المسعودي : *مروج الذهب*، ٢١٠ .
(٩٩) المقدسي ، *أحسن التقاسيم*، ٤٧٩ .
(١٠٠) الحميري ، *الروض المعطار*، ٥٤٩ .
(١٠١) عبد اللطيف ، *العالم الإسلامي*، ٤٤٨ .
(١٠٢) الشيخلي والآلوسي ، *تاريخ الإسلام*، ١٥٣ .
(١٠٣) ابن سعيد ، *كتاب الجغرافيا* ، انظر مقدمة التحقيق لإسماعيل العربي ، ٣٣ .
(١٠٤) لمزيد من التفاصيل حول اعتناق أهالي شبه القارة الهندية الإسلام ، انظر : عبد اللطيف ، *العالم الإسلامي*، ٤٤٤_٤٤٧ .
(١٠٥) المقدسي، *أحسن التقاسيم* ، ٤٨٠ .

(١٠٥) المقدسي ، *أحسن التقاسيم* ، ٤٨٠ .

(١٠٦) عبد اللطيف ، *العالم الإسلامي*، ٤٤٥ .

(١٠٧) عاشور و خليفات ، *عمان*، ٥٦ .

(١٠٨) البلاذري ، *فتوح البلدان*، ٤٣٠ .

(١٠٩) ياقوت ، *معجم البلدان*، ٢١١ .

(١١٠) الكوفي ، *فتح السند*، ٢٣٣ .

(١١١) البلاذري ، *فتوح البلدان* ، ٢٢٨ .

إسهامات مهاجري الجزيرة العربية *
في فتوح المغرب والأندلس

عبد الغفور بن إسماعيل روزي
قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة الملك سعود

تبين القراءة الفاحصة والمتابعة لمسارات فتوح المغرب والأندلس ووقعائها العسكرية ، أن لهذه الفتوح قراءتان ، قراءة عامة ، وقراءة خاصة ، لا تختلفان من حيث الجوهر ، ولكنهما مختلفتان من حيث التفصيلات والمضمون ، والخلاصات الدائرة حولهما .

تتمثل القراءات العامة في إيحاءات النهج الانطباعي الذي تبنته الحوليات التاريخية العامة مثل *الكامل في التاريخ* لابن الأثير ، و *البيان المغرب* لابن عذاري المراكشي ، و *كتاب التأريخ* لعبد الملك بن حبيب،[1] على سبيل المثال .

بينما تتمثل القراءات الخاصة فيما تسجله كتب الفتوح ، مثل كتاب *فتوح مصر والمغرب* لابن عبدالحكم ، *وطبقات علماء إفريقية وتونس* لأبي العرب محمد بن أحمد بن تميم القيرواني ، و *تاريخ افتتاح الأندلس* لابن القوطية ، ويلحق بهذا التصنيف أيضاً كتب الطبقات والتراجم الأخرى ، مثل *رياض النفوس* للمالكي ، *وترتيب المدارك* لعياض السبتي ، وهذا أيضاً على سبيل المثال لا الحصر .

في تمييز الفارق بين القراءتين - المشار إليهما - والتعريف بهما ، يمكن القول بأن القراءة العامة تتبنى التفسير القائل بأن فتوح المغرب والأندلس ما هي إلا جهد أموي صرف ، قدمت فيها الدولة الأموية دعمها الكامل لفتوح تلك الجهات ، بجهود متواصلة ، وباهتمام مباشر .

وتلمع القراءة الخاصة في المقابل ، وذلك بما ترصد من تفصيلات ودقائق معلومات ، لا سيما في حرصها على رصد المعلومات الخاصة عن المنجزين لتلك الفتوح والمساهمين فيها ، إلى الخلاصة القائلة بأن فتوح المغرب والأندلس ، فضلاً عن أثر الأمويين في تحقيقها ، كانت أيضاً ثمرة جهود ومساهمات فعالة اضطلعت بها القوى

المحلية التي استقرت في مصر أولاً ، ومن ثم القيروان ثانياً ، بمعنى أن القراءات العامة تقدم الخطوط العريضة لتاريخ تلك الفتوح ، بينما تقدم القراءة الخاصة التفصيلات الشارحة .

وبرغم أن القراءتين ، وكما أسلفنا ، لا تختلفان في جوهر طروحاتهما ، إلا أن الضرورة تستوجب منا الالتفاتة الجادة إلى ما يطرحه أصحاب القراءة الخاصة ، ليس لأمر سوى أن القراءة العامة ، ومن خلال الشيوع لطروحاتها بين المؤرخين بالتناقل غدت لها الذيوع والتقبل ، بينما قصرت القراءة الخاصة عن اللحاق بها ، وعرض رأيها بما يتوازى مع أهمية المعلومات التي تطرحها ، والتفصيلات التي تحويها ، وهذا هو الذي سوف يهدف البحث إلى الالتفاتة إليه في الصفحات التالية .

هدف البحث ، بطبيعة الحال ، ليس هو تخطئة إحدى القراءتين ، أو تفضيل إحداهما على الأخرى ، أو حتى المفاضلة بينهما ، وتغليب قراءة على قراءة ، بل الهدف هو محاولة الاستدلال على العناصر المكملة للقراءتين ، والوصول بعد ذلك إلى تحديد الأسباب التي جعلت من هذه الفتوح ، برغم طولها الزمني ، وكلفتها البشرية والمادية ، من أن تكون من أنجح الفتوحات الإسلامية قاطبة ، وأثبتها استقراراً ، وذلك بما نلمسه من شواهدها إلى وقتنا الحاضر في الغرب الإسلامي ، وإن فقدنا الجزء الأندلسي منه .

وفي سبيل إيجاد مدخل للبحث ، ومن أجل توفير سلاسة لطروحاته ، تقتضي الضرورة تقسيم محاوره إلى محطات متوالية ، يتم فيه شرح فكرة كل محور على حدة ، مع استخلاص النتيجة المباشرة لها ، ومن ثم يفضي بنا ذلك إلى الخروج بالخلاصة النهائية التي يرمي البحث الوصول إليها .

المحطة الأولى : مصر من الفتح وبعده

من الأمور التي تدعو إلى التعجب والتساؤل ، أن النهج الذي رسمه ابن عبد الحكم في ربطه بين فتوح مصر والمغرب والأندلس ، وجعله فتحاً متوالياً يتبع أحده الآخر ، كما هو واضح تماماً من عنوان كتابه ،[٢] لم يجد المتابعة من قبل من أرخوا لهذه الفتوح تالياً ، فهؤلاء على نقيض ما أقر به ابن عبدالحكم فصلوا بين هذه الفتوح ، وجعلوا فتح مصر فتحاً قائماً بذاته ، وجعلوا من فتح المغرب والأندلس فتحاً مستقلاً . إن مثل هذا الفصل لم يؤد إلى تجاهل الروابط العضوية لهذه الفتوح فحسب ، بل أدى إلى تضييق منافذ الرؤية الشاملة لمساراته التي لم تكن في حقيقة الأمر سوى فتوحٍ متعاقبة يفتح كل فتح طريقاً لفتح آخر .

ولعل مما أدى إليه الفصل للروابط المتعاقبة لهذه الفتوح هو تغليب الرأي السائد بأن فتوح المغرب والأندلس ليست إلا فتوحاً كان للأمويين المبادرات الحصرية والمساهمة الأولى فيها ، وذلك لأن الفتحين أنجزا على أيامهم . ومثل هذا التغليب أدى بدوره إلى تجاهل دور من كان لهم النصيب الأوفى في تحقيقها ، وبهؤلاء نعني الجماعات التي هاجرت من الجزيرة العربية مع أمواج المجاهدين الأوائل ، واستقرت في مصر مع الفتح وبعده ،

ليشكلوا بذلك الرافد الأهم الذين تم على أيديهم فتح ما يلي مصر غرباً ، وإلى الأندلس ، كما تقر بأدوارهم القراءة الخاصة .

إقراراً بسبقه في الطرح المشار إليه ، لم يؤطر ابن عبد الحكم للفهم الأسلم لمسارات فتوح المغرب والأندلس فحسب ، بل نبهنا إلى تلمس واقع لا يسهل إنكاره ، وذلك بما رصد من أدلة وبراهين دقيقة ، وهي أن مصر بُعيد الفتح الإسلامي لها ، وبالأخص بعد إنشاء فاتحها عمرو بن العاص عاصمتها الفسطاط ، واستقبال هذه العاصمة أفواج المجاهدين الذين فضلوا الاستقرار فيها ، مع من لحق بهم من أفواج أخرى قادمة من الجزيرة العربية ، كانت قد غدت فعلاً قاعدة الانطلاقة الكبرى لفتوح ما يلي مصر غرباً ، وهي الحقيقة التي أصاب محمود علي مكي في الإشارة إليها في عبارة بسيطة ، لكنها معبرة للواقع دون مواربة.[٣] وفي الواقع ، إن الأرتباط الاجتماعي العضوي الذي نشأ بين المدينة ومصر منذ الفتح ، واستمرار ذلك بصورته ، ليس في العصر الراشدي - عصر عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رضي الله عنهما فحسب ، بل في العصور الأموية المبكرة ، كان كافياً لتهيئة دور عسكري قوي للقادمين من الجزيرة إلى مصر في خطط الجهاد المستقبلية مما يليها غرباً .

وصف عمرو بن العاص مصر بقوله : " ولاية مصر جامعة تعدل خلافة ."[٤] ولعل تلك العبارة لم تكن انحيازاً منه لبلد فتحها ، أو مباهاة منه لأرض تولى أمرها بعد ذلك ، فما قاله لا يبعد عن الحقيقة التي يعززها ابن عبدالحكم بشواهده التي تندرج من الإحصاء الدقيق ، والوصف المقرّب ، والتصوير التقريري ، وهي كلها براهين يمكن الاستخلاص منها بأن ظاهرة التوجه إلى مصر والاستقرار فيها كانت قد غدت ظاهرة تتصاعد وتيرتها مع مرور الوقت ، وهي وإن كان لها ما يماثلها في أمصار أخرى اتجه إليها المجاهدون من الجزيرة العربية مثل العراق والشام ، إلا أن الظاهرة المسجلة في مصر مع ذلك كانت فريدة في غير وجه ، وتستحق الوقوف عندها بعض الشيء.

ففي الجانب العسكري ، بدأت طلائع الواصلين إلى مصر من الجزيرة العربية في الوصول إليها مع طلائع أفواج المجاهدين الأوائل الذين صحبوا عمرو بن العاص حيث تم على يدهم فتح مصر ، في أيام الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ويشير ابن عبدالحكم إلى مجمل عددهم أنه كان حوالي الاثني عشر ألفاً .[٥] وقد عزز هذا العدد ، في أيام الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه في ولاية عبدالله بن سعد أبن ابي سرح على مصر ، بجيش يصفه ابن عذارى المراكشي " بالجيش العظيم " حيث أعان فيه عثمان بألف بعير.[٦]

وبجمع عدد هذين الجيشين الكبيرين ، فضلا على من التحق بهما طواعية من المدينة بين المددين ، لأمكن الوصول إلى مجمل عدد الجيش التقريبي في مصر على أنه كان يفوق الثلاثين ألفا. ومن دلائل استمرار عدد هذا الجيش دون نقص يذكر من جراء المشاركات العسكرية سواء أثناء فتح مصر ، أو في خلال الغارات الأولى على أطراف المغرب ، أن المصادر التاريخية تشير إلى أن الخسائر البشرية في صفوف جيش المسلمين كانت متدنية إلى حد ،

فابن عبدالحكم يذكر أن قتلى المسلمين في فتح الإسكندرية كان اثنين وعشرين رجلاً ، [٧] كما يذكر أيضاً أن جيوش الإغارة على أطراف المغرب ، خلال هذه المراحل المبكرة ، كانت تعود إلى الفسطاط بعد الغارات دون أن تسجل خسائر تذكر .

من كل هذا ، يمكن الوصول إلى خلاصة بأن مصر خلال العصر الراشدي ، وتحديداً في أيام كل من عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رضي الله عنهما ، كان قد اجتمع فيها جيش كبير ومستقر ، كان بمقدوره ليس المحافظة عليها فحسب ، بل مستعداً لتحمل واجباته العسكرية فيما وراءها .

أما عن التكوين الاجتماعي لهذا الجيش ، وخلفيات من قدم مصر منهم واستقر بها لاحقاً ، فإنها ضمت ، برغم أنها لم تمثل قيادات فيها بل أفراد مكونة لها ، صفوة من أسماء مشهورة . فابن عبدالحكم ، برغم الحرص الذي يبديه بتأكيده بأنه لم يذكر سوى من تأكد بنفسه من دخوله مصر ، [٨] يصنف أسماء أربع وسبعين من الصحابة ، وعدد أكبر من التابعين . ويضيف كل من أبي العرب القيرواني ، والمالكي أسماء إضافية لقائمة ابن عبدالحكم ، لا سيما الصحابة والتابعين الذين تحولوا للاستقرار في المغرب لاحقاً [٩] مما يرجح الظن بأن أعداد الصحابة والتابعين ، سواء من كانوا في مصر ، أو ممن انتقلوا منها إلى إفريقية ، أو ممن أتوا من المدينة مباشرة إلى إفريقية ، كانت أكبر ممن حوتهم قائمة ابن عبدالحكم ، ولربما حتى الآخرين .

ونظراً لكثرة أسماء النخبة من الصحابة أو التابعين أو من وجوه القبائل أو أفراد الأسر المعروفة التي استقرت في مصر أو شاركت في الجيوش المنطلقة إلى أفريقية ، فإنه يشاع بين المؤرخين الإشارة إليهم بعبارات مثل " جيش الأشراف ، " و " شيوخ الجيش ، " أو " وجوه الجيش ، " و " وجوه أهل مصر ، " أو مثلما شاع لاحقاً " وجوه أهل إفريقية ."

وفيما يتعلق بالمشاركة القبلية لجيش الفتح لمصر والمستقر فيها تالياً ، وكذلك عن التكوينات القبلية لجيوش المدد اللاحقة ، التي كانت آخذة في التوغل صوب أطراف المغرب ، فإن الكتابات التاريخية تمدنا بشيء واف عنها . وعلى الرغم أن دراسة عبدالواحد ذنون طه المتخصصة في موضوع الاستقرار القبلي القادم من الجزيرة العربية في مصر والمغرب والأندلس [١٠] حصرت جملة انتماءات القبائل الوافدة إلى مصر والمغرب إلى القبائل اليمانية مثل مهرة وحضرموت وخولان ومعافر ولخم وصدف ، أو إلى أفراد ينتمون إلى عشائر الحجاز مثل فهر وبني عبدالعزى من قريش ، وكذلك الأنصار ، أو مثلما كان الحال تحديداً في جيش عثمان ، الذي تكون فيه الجيش من رجال القبائل المحيطة بالمدينة من الحجاز ، مثل عشائر مزينة ، وجهينة ، وسليم ، وأسلم ، وغفار ، وغطفان ، وفزارة ، إلا أن الإشارات للمشاركات القبلية كما صنفها ابن عبدالحكم هو في الواقع أوسع من ذلك بكثير ، ويكاد أن يشمل تقريباً معظم القبائل المعروفة في الجزيرة العربية ، بدرجة تمثيل متفاوتة ، بعضها أكبر من بعض ، ولكنها

ممثلة على أية حال.[11] ففي جيش عمرو بن العاص الذي قدم معه للفتح مثلاً كان ثلث الجيش تقريباً ، حوالي الأربعة آلاف ، من غافق ،[12] كما أن بلي كانت من أكثر القبائل التي امتدت منازلها في خطط الفسطاط ، وكذلك همدان ، التي لاشك بسبب كثرتهم ، كانت قد اعتزلت بنفسها في الجيزة ، مما يلي النيل غرباً ، وقد كره الخليفة عمر رضي الله عنه ذلك ، عندما أُخبر به ، لأن مساكنهم يفصلها عن الفسطاط النيل ، وخيّر عمر بين نقلهم إلى الفسطاط ، أو بناء حصن لهم هناك ، وقد اختارت همدان البناء في الجيزة ، وبُني لهم الحصن ،[13] وفي مقابل الأعداد الكبيرة لبعض القبائل مثلت قبائل أخرى بأعداد محدودة ، يستدل عليهم من أماكن دورهم التي اختطوها في الفسطاط.[14]

إن تدفق المهاجرين من الجزيرة العربية إلى مصر مع فتحها ، وتفضيلهم الاستقرار فيها بعدئذٍ ، عبر عن نفسه في غير ظاهرة ملموسة . وتأتي ظاهرة الحرص على اتخاذ المساكن في خطط الفسطاط لربما في مقدمتها ، فابن الحكم ، بتسجيله المعلومات الوافرة الغنية والدقيقة عمن حرص على الاختطاط ، يرسم في أذهاننا خريطة ناطقة عن مساجد الفسطاط ودورها ودكاكينها وحماماتها وشوارعها وأزقتها والأماكن العامة فيها ، وهو بهذا يرشح الفسطاط لتبدو واحدة من أكبر المدن الإسلامية المبكرة التي تقدم نفسها بوصفها نموذجاً للتعايش الحضري بكل فئاته ، الطبقي والقبلي ، وبمختلف عناصره في نطاق حيز مدني محدد . كما أن التزاحم السكاني الذي نتج من الحرص على اختطاط المنازل هناك يمكن تلمسه من شواهد كثيرة قدم المؤرخون صوراً عنها . لقد سبقت لنا الإشارة إلى تفضيل همدان الاعتزال بنفسها في الجيزة بعيداً عن زحمة الفسطاط ، ولعل في منح عمرو بن العاص الخيار لهم في التحول إلى الفسطاط أو البقاء في منازلهم في الجيزة ، كما وجهه بذلك الخليفة عمر رضي الله عنه ، دليلاً على اكتفاء خطط الفسطاط بساكنيها ، وكان ذلك عذراً مرضياً للجانبين ، همدان في إصرارهم على البقاء في دورهم ، وعمرو بن العاص في عدم إجبارهم على التحول إلى الفسطاط ، والاكتفاء بتنفيذ أمر الخليفة ببناء حصن لهم هناك في الجيزة .

ويعزز ابن عبدالحكم صور الازدحام الذي حدث في الفسطاط بتقديم مزيد من التفصيلات عنها ، فمما نستشفه من تلك الصور ، أنه فضلاً عن مسجد عمرو بن العاص ، وهو المسجد الجامع ، الذي احتكر الخطط حوله ذوي المكانة من الصحابة والقادة ، ومن ذوي الثقل القبلي ، غدا لكل حي مسجد[15] ويواصل ابن عبدالحكم تصوير الوضع ، أن منازل القبائل توسعت حتى زاحمت بعضها في أطراف الصحاري ، حيث يستعمل في وصفها عبارة " حتى أصحروا ، " مثلما كان الحال عند سبأ ومعافر ، أو عبارة " حتى قطعوا الجبال " كما فعلت يحصب وخولان ، وتجنباً للحال الذي آل إليه أمر هؤلاء القبائل ، يبدو أن قبائل أخرى ، مثل مراد وعبس ،

فضلت الأنزواء في الصحاري ، وتخطيط منازلها بعيداً ، بيد أن مراد وعبس بعملهم هذا ، حالوا دون قبائل أخرى مثل معافر ومذحج من التوسع والتعمق في جهات الصحاري المحيطة بالفسطاط .

ومن جهة النيل ، امتدت منازل وائل حتى شارعوا النيل ، أو مثلما حدث مع يحصب الذين برزوا إلى أرض الحرث والزرع ، في زمن عثمان رضي الله عنه ، وبسبب استمرار وصول جيوش المدد وتزاحمهم على الاستقرار ، امتلأت الفضاءات التي كانت قد تركت بين القبيل والقبيل ، وذلك لأن كل قوم رغبوا أن يوسعوا لبنى أبيهم وإضافة البنيان إليهم . وأمام هذا لم يعد من حل للقضاء على التزاحم سوى اللجوء إلى نظام " الأخائذ " و "القطائع وذلك في الأحواز البعيدة من الفسطاط ، ويشير ابن عبد الحكم أن أجزاء من الإسكندرية نالت نصيبها منها.[١٦]

ومن الظواهر الجديرة بالاهتمام ، وترتبط مباشرة بظاهرة استقرار مهاجري الجزيرة العربية في مصر ، هي ظاهرة اتخاذ هؤلاء المهاجرين من مصر مربعاً لهم . وقد أولى بعض المؤرخين من أمثال ابن عبد الحكم وابن تغري بردي ، جزءاً وافراً من اهتمامهم للحديث عن هذه الظاهرة ، فمما يقوله ابن عبد الحكم ، " أن مصر كانت قد غدت مربعاً للجند ،" فهم كانوا ينتشرون فيها بخيولهم إذا أتى الربيع ، سواء من كان منهم في مصر ، أو القادمين إليها ، لذات الغرض من خارجها ، حيث يمتد بهم المقام في أماكن نزولهم إلى أشهر الصيف ، ويضيف قائلاً أن أهل الفسطاط كانوا يرتحلون إلى الإسكندرية في أشهر الصيف.[١٧] ويناقش عبد الله خورشيد البري ، معتمداً على معلومات أوردها ابن تغري بردي في *النجوم الزاهرة* ظاهرة "الارتباع " العربي في مصر ، فيذكر أن المرتبعين كانوا ينتقلون كل ربيع إذا " تدلت - حسب أوصاف ابن تغري يردي - الجوزاء ، وذكت الشعرى ، وأقلعت السماء ، وارتفع الوباء ، وقل الندى ، وطاب المرعى ، ووضعت الحوامل ، ودرجت السخائل " إلى القرى المصرية يطلقون خيولهم في حقول البرسيم ترعى حتى تسمن ، يصطادون ، ويشربون اللبن ، ويأكلون الخراف .[١٨] ويستحسن أن نحيل القارئ إلى خطبة الجمعة التي ألقاها عمرو بن العاص على الجند بمناسبة بدء موسم الارتباع والتي نظم فيها هذه الظاهرة ، ووضع فيها شروطاً ألزم المتربعين التقيد بها ، لأنها لم توضع إلا لإراحة الجند ، وإطعام الخيل وتقويتها.[١٩] ويضيف عبدالله خورشيد البرى أن ارتباع الجند العربي كان من العوامل التي قوت علاقتهم بأهل مصر من الأقباط ، وساعدت لاحقاً إلى انتشار مساكنهم في الأرياف المصرية ،[٢٠] الأمر الذي أدى -حسب رأي البرى - إلى تمصر العرب الذين وفدوا إلى مصر وتعرب المصريين أيضاً .[٢١]

ومن النتائج المباشرة للاستقرار العربي في مصر ، ومن العوامل المرسخة لتعزيزه هو التزاوج النشط الذي انتشر بين الجيوش الوافدة ، وأغلبها تركت أوطانها في الجزيرة دون أهلها ، وبين نساء مصر ، فابن عبدالحكم يذكر أمثلة لذلك ، ويخص منهم نساء سلطيس.[٢٢] ويمكن الاستشهاد على هذا الأمر أيضاً مما يروى عن عبدالله بن عمرو بن العاص قوله لعقبة بن نافع ، في ولايته الثانية ، عندما كان يهم بالخروج بالجيش من مصر إلى المغرب ،

إياك أن تكون لعنة أرامل أهل مصر ، فإني لم أزل أسمع أنه سيخرج رجل من قريش في هذا الوجه _ المغرب _ ويهلك فيه ، " وكان معه خمسة آلاف من أهل مصر ، كما يذكر ابن عبدالحكم. (٢٣) كما أن الدلائل المرصودة عن حرص جند فتوح إفريقية ، حال الانتهاء من أعمالهم ، على العودة إلى مصر ، بالأخص خلال المراحل المبكرة من الفتوح هناك ، لربما يمكن عزوه لهذا السبب أيضاً .

أخيراً يتبنى البحث طوال تقسيمه إلى محطات ، فكرة أن فتوح ما يلي مصر غرباً وإلى الأندلس ، كان مما عزز نجاحها هو انتقال قواعد الفتح غرباً كلما تعمقت مسارات الفتوح في ذلك الصوب . وبمقتضى هذا الرأي ، يمكن القول إن مصر بُعيد فتحها ، وما صاحبها من استقرار عربي واسع فيها ، غدت ليس مركزاً أولياً لانطلاقة جند الفتوح منها غرباً فحسب ، بل القاعدة التي غذّت تلك الفتوح لمحطات تالية ، وذلك بما حوت من قوى بشرية من أصول مهاجرة ومستقرة ، أصبحت لها صفة المحلية مع تقادم العهد بها في مصر .

المحطة الثانية : إسهامات فتوح المغرب في العهد الراشدي

" وُصفت أرض مصر بالقوراء والغوراء ، بمعنى الواسعة ، والواسعة الجوف ، " (٢٤) ولعل واصفها كذلك للخليفة عمر رضي الله عنه عنى منها امتداد أراضيها ، واندثار حدودها ، ولربما هذا ما بدا من أمرها للمسلمين الفاتحين لها ، فهم وجدوا أراضيها تمتد جنوباً وغرباً . بالنسبة للجنوب فقد تمكن الفاتحون منها ، فقد تولى ولايتها ، صوب بلاد النوبة عبدالله بن سعد ابن أبي سرح ، نيابة عن عمرو بن العاص ، بعد أن فتحها معاوية بن حديج ، وصالحهم عليها عبيدالله الحبحاب . (٢٥)

أما الأراضي الواقعة من مصر غرباً ، فهي التي امتدت أمام المسلمين ، لا يعرفون فيما إذا كانت تابعة لمصر أو حدوداً لها . فمما هو معروف ، أن الفاتحين لمصر كانوا قد ميزوا بدء حدود إفريقية وسعوا إلى السير لفتحها بوصفها منطقة تالية بعد فتح مصر ، ولكن ما صعب عليهم تحديد تبعيتها كانت تلك الأراضي الواقعة ما بين مصر غرباً وأفريقية شرقاً . فالاحتمال أن التقسيمات السياسية التي كانت عليها المنطقة من خلال تنظيمات الحكم البيزنطي ، هي التي أدت بفاتحي مصر أن يعتبروها امتداداً لأراضي مصر ، فبرقة ولوبيا ، كما يحددهما ابن عبدالحكم ، هما كورتان من كور مصر الغربية ، مما يشرب من السماء ، ولا ينالها النيل. (٢٦) ولكن برغم هذه الإعتبارات ، إلا أنه فيما يبدو كان لدى المسلمين ظن أن هذه الأراضي لربما كانت أراضي تابعة لأفريقية وليست لمصر ، وإلا كانوا قد ساروا إلى فتحها مباشرة ، على اعتبار أنها جزء من فتوح مصر ، لكن على النقيض من ذلك تطلب الأمر رسم سياسة فتح جديدة من قبل قادة فتح مصر ، كما استدعى الأمر طلب إذن من الخلافة ، والخلافة بدورها أبدت تحذيرات من فتحها .

يتناقل المؤرخون ما نسب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه كراهيته لفتح إفريقية بالاستشهاد بقوله : " لا إنها ليست بإفريقية ، ولكنها المفرقة غادرة مغدور بها ، لا يغزوها أحد ما بقيت." [٢٧] وذلك عندما استأذنه عمرو ابن العاص بفتحها ، ولعل السبب هذا هو الذي يوقع المؤرخين في الظن فيما حدث لاحقاً بأن عمر رضي الله عنه ، وأمام تعظيم عمرو من شان الفتح سمح له بالتوجه ، وعقد له على أربعة آلاف رجل من جند مصر ، أو كما يضيف عبدالواحد ذنون طه " من مختلف القبائل التي ساهمت في فتح مصر ، وبشكل خاص أولئك الذين جاءوا مع الزبير بن العوام والذين يسمون بالمددين." [٢٨] والواقع يشير إلى أن رأي الخليفة ظل قائماً دون تغيير ، كما يشير إلى التزام عمرو بن العاص به تماماً ، فجيوش المدديين الذين أمد بهم عمر لم يكن الهدف منه السير بهم إلى أفريقية ، بل استخدامهم في شن الغارات على المنطقة التي كان تبعيتها غامضة كما أشرنا إلى ذلك سابقاً ، أو كما تشير إلى ذلك المصادر بقولها " على جرائد الخيل " بمعنى حملات غارات سريعة الهدف منها في المقام الأول الاستطلاع ، وليس الفتح . ولكن فيما يبدو أن غارات عمرو بن العاص في المنطقة المشار إليها تحديداً ، لم تكن غارات بالمعنى المتعارف عليه ، أي الإغارة على الأطراف ، واستكشاف المعالم ، بل غارات موجهة إلى عمق المنطقة ، وإلى مدنها الرئيسة مثل برقة وطرابلس ، التي دخلها عمرو فاتحاً . ولكنه تخلى عنهما مقابل جزية معلومة ، وعاد الجيش إلى مصر ، تحقيقاً لرغبة الخليفة . والذي يمكن قوله هنا إن النشاط العسكري اقتصر في هذه المرحلة على المنطقة الواقعة ما بين مصر غرباً حتى ما قبل إفريقية شرقاً ولكنه بأي حال لم يمتد إلى إفريقية نفسها .

بمجيء الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى الخلافة ، وتعيين عبدالله بن أبي سرح لقيادة جيش إفريقية ، وعزل عمرو بن العاص ، أخذت فتوح إفريقية بعداً جديداً . وكان العامل الأهم في هذا التحول ، أن الخليفة شخصياً قد تبنى فكرة الفتح ، وجهز له جيشاً تقاطر إلى الانضمام فيه رجال القبائل المحيطة بالمدينة وجهز عثمان الجيش ، كما أشرنا إلى ذلك سابقاً ، بألف بعير ، ويتوسع النويري في تقديم هذا الجيش شارحاً :

" فندب - عثمان رضي الله عنه - الناس إلى الغزو ، فكان الجيش يسمى "جيش العبادلة ،" خرج فيه من بني هاشم : عبدالله بن عباس ، وكان والياً على المسلمين وعبيدالله بن عباس ، ومن بني تيم ، عبدالرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهما ، وعبد الرحمن بن صبيحة في عدة من قومه ، ومن بني عدي : عبدالله بن عمر ابن الخطاب ، وعبدالرحمن بن زيد بن الخطاب ، وعبيدالله بن عمر ، وعاصم بن عمر في عدة من قومه ، ومن بني سهم : عبدالله بن عمرو بن العاص والمطلب بن السائب بن أبي وداعة ، في عدة منهم ، وخرج في الجيش مروان ابن الحكم ، وأخوه الحارث ، وجماعة من بني أمية ، والمسور بن مخرمة ابن نوفل ، وعبدالرحمن بن الأسود بن عبد يغوث ، وعدة من بني زهرة ، ومن بني عامر بن لؤي بن غالب : السائب بن عامر بن هاشم ، وبسر بن أرطاة ، وعدة من بني هذيل ، منهم أبو ذويب خويلد الهذلي ، وعبدالله بن أنيس ، وأبو ذر الغفاري ، والمقداد بن عمرو البهراني ، وبلال بن الحارث المزني ، وعاصم ، ومعاوية بن حديج ، وفضالة بن عبيد ، ورويفع بن ثابت ،

وجرهد بن خويلد ، وأبو زمعة البلوي ، والمسيب بن حزن ، وجبلة بن عمرو الساعدي ، وزياد بن الحارث الصدائي ، وسفيان بن وهب ، وقيس بن يسار بن مسلمة ، وزهير بن قيس ، وعبدالرحمن بن صخر ، وعمرو بن عوف وعقبة بن نافع الفهري ، وخرج من جهينة ستمائة رجل ، ومن أسلم حمزة بن عمرو الأسلمي ، وسلمة بن الأكوع في ثلاثمائة رجل ، ومن مزينة ثمانمائة رجل ، ومن بني الدِّيل وضمرة وغفار خمسمائة رجل ، ومن غطفان ، وأشجع وفزارة سبعمائة رجل ، ومن كعب بن عمر أربعمائة رجل ، وذلك في المحرم سنة عشرين."[٢٩]

وبانضمام عشائر جند مصر إلى هذا الجيش ، تكون جيش قوامه العشرون ألفاً ، حوى في صفوفه نفراً غير قليل من مشاهير الصحابة وأولادهم[٣٠] وقد تمكن هذا الجيش الكبير من استعادة مواقعة التي اضطر إلى التخلي عنها في برقة وطرابلس ، ثم سار صوب عمق أفريقية ، حيث قضى على جرجير (جيرجوريس) ، رمز الوجود البيزنطي في إفريقية في معركة " سبيطلة ."

لم تتح الظروف اللاحقة في المشرق ، مقتل عثمان رضي الله عنه ، واشتعال الفتنة بين علي ومعاوية رضي الله عنهما ، لجيش الفتوح في إفريقية من تثبيت نفسه في مواقعه الجديدة في إفريقية . فقد اضطر الجيش مرة أخرى إلى التخلي عن إنجازاته ، والانزواء إل مصر من جديد ، ولكن هذا الواقع لم يصل إلى درجة تلاشي أثر المسلمين من المواقع التي فتحوها في تلك الجهات ، رغم اضطرارهم إلى التخلي عنها أكثر من مرة ، كما أن الأمر لم يصل إلى الحد الذي كان فيه ممكناً للبيزنطيين أن يستعيدوا مواقعهم التي فقدوها في إفريقية ، كما خلص إلى ذلك مؤرخ محدث.[٣١] فالواقع كان يقول إن أثر الفتح كان قد ترسخ في مناطق إفريقية على الأقل من الناحية السياسية ، وأن ضعف من الناحية العسكرية ، فمناطق إفريقية ، مثل سوسة ، التي فتحها عبدالله بن الزبير ، وجلولاء ، التي فتحها عبدالملك بن مروان لاحقاً ، فضلاً عن المناطق المفتوحة سلفاً مثل برقة وطرابلس ، كان المسلمون قد ملأوا الفراغ السياسي الذي كان قد شغر فيها بعد انحسار النفوذ البيزنطي المحلي ، وغياب نفوذ سياسي للقوى السياسية بين البربر ، وظهور بدايات اعتناق الإسلام بينهم ، في مقابل ذلك كان البيزنطيون أضعف من أن يتمكنوا من استعادة وجودهم الزائل في إفريقية والعودة إليها ، فهم كانوا قد فقدوا قوتهم البحرية المتحركة في شرق المتوسط بعد معركة " ذات السواري ،" ووهنت قواعدهم في صقلية. وانحسرت انطلاقة قوتهم البحرية إلى عاصمتهم القسطنطينية البعيدة عن مواقع الأحداث .

المحطة الثالثة : الأمويون وفتوح المغرب

بانتقال الخلافة إلى الأمويين ، وتولي معاوية بن أبي سفيان مسؤولية مباشرة الفتوح في أفريقية والمغرب ، يثار بين المؤرخين خلاف حول طبيعة المساهمة الأموية العسكرية في هذه الفتوح ، فهناك فريق يقوده كل من المالكي

وابن عذاري ، يؤكدون على قوة المساهمة الأموية العسكرية ، ويستند هذا الفريق في رأيه على ما ذكره ابن عبدالحكم من أن معاوية أمد في مستهل حكمه حامية الإسكندرية بعشرة آلاف من أهل الشام وخمسة آلاف من أهل المدينة ، فكان فيها ، أي الإسكندرية ، سبعة وعشرون ألفاً .[٣٢]

بيد أن فريقاً آخر ، جلهم من المحدثين ، يتحفظون ليس على عدد الجيش المرسل من الشام ، بل على إرسال معاوية هذا الجيش الكبير ، عبدالواحد ذنون طه ، الذي تابع تفصيلات الفتح والاستقرار الإسلامي في المغرب والأندلس ، يخلص إلى رأي بأن الجند الشامي لم يدخل المغرب ويشارك في فتوحها إلا في عهد الخليفة عبدالملك بن مروان (٦٥- ٨٦هـ) ، وذلك لأن ذنون باستقصائه أسماء قادة الجند المشاركين والانتماءات المكانية والقبلية للجيوش التي شاركت في حملات معاوية بن حديج وعقبة بن نافع ، وهم القادة الذين من المتوقع أن تشارك جيوش الشام في حملاتهم على إفريقية ، يرى أن الجيش الشامي لا يسجل لمساهميه حضوراً في التكوين الكلي لجيش الفتح في إفريقية ، بل تغلب على متابعته لتكوينات الجيش غلبة العناصر القديمة وهم جند مصر وإفريقية ،[٣٣] ويدلي متابع آخر لقضايا المساهمات القبلية في فتوح المغرب والأندلس ، مصطفى أبو ضيف أحمد ، برأيه في حقيقة المساهمة العسكرية الأموية ، ويرجح أن مسألة مساهمة جيش الشام في المرحلة المعنية ، لاسيما بعدده المرتفع ذاك ، فيه تساؤلات قد يكون مرجعها الخلط بين معاوية ، ويزيد بن معاوية الذي يذكر أنه أعاد عقبة بن نافع إلى المغرب ، في ولايته الثانية ومعه عشرة آلاف ،[٣٤] مع العلم أن الرأي الذي يبديه مصطفى أحمد أيضاً يؤدي أيضاً إلى تساؤلات محددة في هذه القضية التي تباينت الآراء حولها ، سوف يناقشها البحث لاحقاً . ويسهم عبدالله خورشيد البري برأيه في الخلاف الدائر مبدياً شكوكه هو الآخر من أن يكون معاوية حقيقة قد أرسل جنداً أموياً من الشام إلى إفريقية ، ويقدم حياله تفسيراً مقبولاً إلى حدٍ ما يقول فيه " قد يكون معاوية قد أرسل فعلاً أربعة آلاف من المدينة ، ولكن بما يخص إرساله جيشاً من الشام فإن الأمر لاينبغي اعتباره إرسالاً فعلياً ، فعلى حسب تقديرات البري ، أن معاوية كان قد أوعز أمره إلى أربعة آلاف فارس ممسكين بأعنة خيولهم في الرملة - أي في حالة طوارئ دائمة - أن يعبروا إلى حامية الإسكندرية متى بلغهم فزع."[٣٥] بمعنى أن جيش الشام لم يصل حتى إلى مصر . واستند البري في خلاصته إلى معلومة حوتها رسالة علقمة بن يزيد الغطيفي ، قائد حامية جيش معاوية في مصر ، إلى معاوية " يشكو قلة من معه من الجند حتى ما يكاد بعضهم يرى بعضا ، ويبدي تخوفه على نفسه وعليهم."[٣٦] ويتوجب أن نشير إلى أن معاوية كانت له مصلحة خاصة في إرساله جيشاً من المدينة ، وهو أمر لا يود البحث الخوض فيه.

والأرجح هنا ، أن معاوية إبان صعوده إلى الخلافة وتوليه الإشراف الرسمي لسير الفتوح في إفريقية ، لربما أنه لم يرسل ذلك العدد الكبير من جيش الشام ، كما يرجح ذلك كل من المالكي وابن عذاري ، بل أرسل جيشاً

معنوياً قوامه بضع مئات ، مستهلاً بذلك سنة أموية تكررت لاحقاً ، سواءً حين تعين ولاة للمغرب أو الأندلس . فالعادة جرت أن يرافق الوالي المعين جيش محدود العدد من أجل توفير دعم رسمي للوالي المعين ، وكذلك لإضفاء الصفة الرسمية والشرعية لتعيينه . ولكن في الغالب لا يرقى العدد إلى ذلك العدد المرتفع الكبير .

إن ترجيح البحث لآراء المستبعدين لإرسال الخلافة الأموية جيشاً أموياً إلى إفريقية مع بداية توليهم مسئولية فتوح تلك الجهات يمليه مساندة هذا الترجيح للقرائن المتوافرة وللأحداث المصاحبة ، فإذا صح - كما قيل - أن الأمويين أرسلوا مدداً عسكرياً إلى مصر والمغرب ، لكان من الطبيعي أن يسجل هذا المدد حضوراً له ضمن العدد الكلي في صفوف جيش إفريقية ، سواءً من حيث العدد الذي من البديهي أن يتضاعف ولا يبقى في حدود العدد المسجل السابق ، أو من حيث أسماء القيادات التي من المفترض أن تظهر في صفوفه . فجيش إفريقية يبقى في حدود العشرة آلاف ، والظن هنا أنه هو نفسه جيش إفريقية القديم ، ولا يرتفع مثلما توحي إليه تقديرات المالكي وابن عذاري إلى الواحد والعشرين ألفاً ، في حالة إضافة عدد جيش الأمويين بحسب هذا التقدير .

بيد أن أقوى الشواهد الداعمة للترجيح الذي أخذ به البحث ، وهو الاعتماد الحصري لمعاوية لعناصر مهاجري الجزيرة التي كانت قد اتخذت من مصر موطناً ، يتجلى في اختياره لاثنين من هؤلاء لقيادة جيش الفتوح في إفريقية وما يليها ، وهما معاوية بن حديج الكندي أولاً ، وعقبة بن نافع من بعده ، وهما اللذان كانت تضمهما قائمة جيش المددين الذين أرسلوا إلى مصر في الحملة التي أرسلها عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وإن كان هناك من يرجح بأن دخول عقبة ، كما يشير إلى ذلك صاحب *أسد الغابة في معرفة الصحابة* ، كان أقدم ، حيث دخلها أيام ولاية خاله عمرو بن العاص يافعاً ومع جيش الزبير بن العوام تحديداً.(٣٧) ومما نعرفه لاحقاً أن الاثنين الكندي وعقبة شاركا ، بالأخص عقبة بن نافع في عمليات الفتوح في أفريقية ، واكتسبا من خلال ذلك الخبرة العسكرية ومعرفة بأرض أفريقية وأهلها .

ومن المتوقع لذلك ، أن كلاً من معاوية بن حديج وعقبة بن نافع بدورهما كانا يعتمدان في تجهيز جيوشهما إلى عناصر المستقرين من مهاجري الجزيرة العربية ، لاسيما أن هؤلاء اكتسبوا مع بعضهما خبرة العمل سوياً ، بالإضافة إلى المدد الذي مدوا به من المدينة أثناء قيادة الإثنين للجيوش ، فالإثنان يسجل لهما المؤرخون غير حملة على أطراف أفريقية في أيام انشغال علي ومعاوية بمواجهتهما الداخلية ، صاحبهما فيها عدد من الصحابة وغيرهم من التابعين وصفوة من خيار أهل المدينة من أبناء الخلفاء وكبار بني أمية .(٣٨) وفيها كان فتح مدن العمق الأفريقي وترسيخ الحضور الإسلامي فيها .

المحطة الرابعة : بناء القيروان وانتقال مركز الإمداد

برغم أن البحث قد أسلف الحديث عن عقبة بن نافع في المحطة السابقة ، إلا أن بناء عقبة لمدينة القيروان يمثل حدثاً يستحق إفراد محطة خاصة به ، وذلك لأن فكرة بناء هذه القاعدة الجديدة تقع في صميم ما يطرحه البحث بأن فتوح المغرب والأندلس ما هي إلا نتيجة لحركة القواعد العسكرية من فسطاط مصر غرباً ، والتي مثلت فيها القيروان الدور الأهم ، سواءً في عصر الفتوحات ، أو في العصور اللاحقة التالية فيما يعرف بعصر الولاة ، كما أن تاريخ بناء المدينة (سنة ٥٠ هـ) يمثل زمناً وسطاً بين انطلاقة فتوح المغرب بعيد فتح مصر (سنة ٢١هـ) وفتح الأندلس (سنة ٩١هـ) ، وما بين التاريخين ، تاريخ البدء ، وتاريخ الانتهاء من الفتوح ، يمثل بناء القيروان ، حسب رأي حسين مؤنس ، المنعطف الأهم في مسار فتوح المغرب .

فتأسيس هذه المدينة هو الحد الفاصل بين المحاولات الأولى التي تقدمتها والتي لم تنته إلى شيء ، والأعمال التي ستليها والتي ستنتهي بفتح البلاد فتحاً ثابتاً دائماً يجعل منها بلاداً إسلامية صرفة ، إذ إن جند المسلمين كانوا قبل ذلك يخرجون من مصر للإغارة على ما يستطيعون من بلاد إفريقية ثم يعودون إلى مصر أو إلى برقة محملين بالغنائم - أو من غير غنائم - دون أن يخلفوا في البلاد أثراً ودون أن يكون في غاراتهم معنى الفتح."[٣٩]

إن النقلة الحاسمة التي نتجت من بناء القيروان تمثلت ليس في الدور الجديد الذي أنيط بها من رفع كاهل مسؤولية فتوح المغرب من مصر فحسب ، بل في نقل مركز الجهاد إلى عمق أفريقية ، ووضعه في مواجهة مباشرة مع دفاعات القوى المحلية من البربر ، سواء فيما يلي إفريقية غرباً فيما بين الأطلسين الشمالي والجنوبي وإلى بحر المحيط (الأطلسي) ، أوحتى في مناطق العمق الصحراوي في الجنوب ، خاصة بعد انحسار قوة البيزنطيين في السواحل ، فالمسلمون الآن ، بعد ثبات موقفهم في مدينتهم الحصينة الجديدة كانوا قد وضعوا أنفسهم في خط المواجهة مع المغربين الأوسط والأقصى ، كما تنامت لديهم الثقة بأن مدينتهم الآن أيضاً هي خط الدفاع عن أراضيهم فيما دون إفريقية شرقاً حتى مصر ، التي طالما أجبروا على التراجع عنها . وفي هذا لم تعد مصر قاعدة الانطلاقة لجيوشهم، بل العمق الاستراتيجي الأخير ، ولقد عبر ابن حيان الحضرمي عن الأهمية الجديدة للقيروان بقوله لزهير بن قيس البلوي ، عندما أراد التخلي عن القيروان ، والعودة إلى مصر بعد سماعه بمقتل عقبة بن نافع وأبي المهاجر دينار في " تهودة " على يد كسيلة بن لمزم - قائد البربر : " لا تفعل فإنها هزيمة لمصر ."[٤٠]

هدف عقبة بن نافع من بنائه للقيروان ، نفس ما هدفه عمرو بن العاص ببنائه الفسطاط ، مركزاً لتجمع الجند ، ومخزناً للسلاح أيضاً . فالقيروان لم تبن على غرار خطة الفسطاط فحسب ، بل ماثلتها فيما اضطلعت به من أدوار . فهي منذ الانتهاء منها غدت ، مثل الفسطاط ، مدينة جذب للوافدين ، ومستقراً للساكنين . وفي صورة مماثلة لما قدم به ابن عبدالحكم الفسطاط والأوصاف الدقيقة التي رسمها عنها ، قدم كل من أبي العرب القيرواني وأبي بكر المالكي نهجاً مشابهاً عن القيروان . ومن المقارنة لنهج هؤلاء يمكن القول إن المدينتين حاكتا بعضهما

عمرانيا واجتماعيا وعسكريا . ومثلما اكتظت الفسطاط بمن هاجروا إليها واستقروا فيها ، ازدحمت القيروان أيضا بمن تحولوا إليها من مصر ، أو بمن واصلوا الترحل إليها من الجزيرة العربية وغيرها مباشرة ، ومثلما أبدى ابن عبدالحكم اهتماما في تسجيل من استقر من الصحابة والتابعين في مصر ، انتهج كل من أبي العرب القيرواني والمالكي النهج ذاته ، حيث أحصى الاثنان عدد الصحابة والتابعين في القيروان على النحو التالي : (٤١)

	الصحابة	التابعون	تابعون (طبقة ثانية)
أبو العرب القيرواني	٢١	٣٥	عدد أكبر
أبو بكر المالكي	٢٩	٤١	عدد أكبر

وإذا كان هناك ما يمكن الاستفادة منه من الأرقام السابقة بوصفها دلالة على الارتحال والاستقرار في القيروان ، برغم أن الأعداد المذكورة خاصة بشريحة من النخبة التي قد لا تعكس بأي حال التوجه الجماعي الكامل، إلا أنها لاجدال تعكس صورة لها . وعلى الرغم أن القيرواني يهمل ذكر أماكن وفاة الصحابة والتابعين في قائمته ، مما يؤدي إلى صعوبة مدى معرفتنا بثبات استقرار هؤلاء في القيروان ، على اعتبار أن مكان الوفاة عادة هو القياس للتأكد من هذا الأمر ، إلا أن المالكي يعزز الصورة بتسجيله أن أربعة عشر من التسعة والعشرين توفوا في القيروان ، و يذكر أيضا أن عددا غير قليل من التابعين كانت القيروان مدينة مستقرهم الأخيرة ، مما يساعد على القول بأن الوافدين إلى القيروان قد اتخذوا من المدينة منطقة استقرار نهائي لهم .

ولعل السبب في زيادة عدد الصحابة والتابعين في قائمة المالكي ، عن قائمة القيرواني ، هو ما يشير إليه المؤرخون من توافد وصول القادمين من المدينة إلى القيروان مباشرة ، وليس إلى مصر كما كان الحال في السابق ، ومرد ذلك قد يعود إلى رغبة هؤلاء القادمين إلى التعمق في ترحلهم إلى العمق الأفريقي ، والبعد ما أمكن من مناطق نفوذ الأمويين المباشرة مثل مصر ، لأن أسباب خروجهم من المدينة كانت أساسا بسبب السياسة الأموية هناك ، فبعد " وقعة الحرة " كما درس ذلك مصطفى أبو ضيف أحمد ، فر عدد كبير من أهل المدينة ، والتحقوا بالجيش الأفريقي ، وبعضهم الآخر انتقل إلى إفريقية واستقر بها خاصة بعد مقتل عبدالله بن الزبير وتنكيل عبدالملك بن مروان بالزبيريين . (٤٢) وتواصل الحال نفسه لاحقا بسبب ممارسات بعض ولاة الأمويين لاسيما تجاه المهاجرين والأنصار في المدينة . (٤٣) ولا شك أن تلك الأسباب مجتمعة هي التي تجعل المؤرخين يكررون عبارة ، " ومضى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من المهاجرين ناس كثير " سواء ممن كانوا في جيش معاوية بن حديج ، أو مع عقبة بن نافع قبيل وأثناء بنائه القيروان . (٤٤) وتكرر ذلك لاحقا للأسباب المشار إليها .

عندما عُزل عقبة بن نافع عن ولاية إفريقية (سنة ٥٠ هـ) وعين مسلمة بن مخلد الأنصاري ، الذي جمعت ولاية مصر وإفريقية لأول مرة له ، وعين الأنصاري بدوره مولاه أبا المهاجر دينار على إفريقية ، بدا وكأن التنسيق العسكري في فتوح المغرب قد عاد مجدداً قوياً بين مصر وإفريقية بسبب الروابط التي من المفروض أنها كانت قائمة بين الأنصاري ودينار ، من الناحية الإدارية لربما كان هذا الأمر صحيحاً ، لكن من الناحية العسكرية الفعلية يبدو أن ديناراً كان مستقلاً بقراراته فيما يخص شؤون إفريقية . صحيح أن أبا المهاجر كان مولى للأنصاري ، وأنه كما يذكر ، كان أصلاً من مصر ، [٤٥] لكن الشواهد تشير إلى أنه فيما عدا تقريبه للأنصار في جيشه ، إلا أنه لم يعتمد في تنظيمات جيشه إلا على من كانوا في إفريقية من العرب المستقرين هناك . وقد أراد أن يرمم النقص المتوقع حدوثه في صفوف جيشه من هذا الإجراء ، أمام تنامي قوة البربر ، أن يتقرب إلى البربر أنفسهم ويستميلهم إلى جانبه ، لاسيما زعامتهم الكبيرة مثل كسيلة بن لمزم . وتؤكد الشواهد نجاحه في هذا الجانب ، فالجيش الذي نزل به عاصمته الجديدة " تيكروان " حيث لم يفضل النزول في عاصمة عقبة " القيروان " كان يضم العرب الأفارقة في الغالب وإلى جانبهم أعداد من البربر .

المحطة الخامسة : وقع الهزيمة وتجربة الانحسار

ألقى استشهاد عقبة بن نافع وأبي المهاجر دينار في " تهودة " على يد البربر بقيادة زعيمهم كسيلة بن لمزم ظلاً قاتماً على خطط المسلمين لفتح المغرب ، وأفقد وقع الخبر توازن القائمين على أمر الفتوح ليس في إفريقية ومصر فحسب ، بل في دار الخلافة نفسها في دمشق ، وذلك لأن أخبار ما جرى أتت إلى هذه المراكز في الوقت الذي كان فيه الجميع يتوقعون نقيضها . فعقبة وأبو المهاجر ، بعد انتصارهما على كسيلة ، والتمكن من أسره ، كانا قد انطلقا ، دون معارضة تذكر ، حتى وصلا فاتحين أقاصي المغرب ، رافعين بهذا الوصول فتوح المغرب إلى ذروتها . وكان عقبة قد جسد هذا الأمر عندما ، كما قيل ، غاص بفرسه في مياه الأطلسي معلناً : " يا رب لولا هذا البحر المحيط لمضيت في البلاد إلى ملك ذي القرنين ، مدافعاً عن دينك ومقاتلاً من كفر بك وعبد غيرك." [٤٦]

في الحقيقة ، لا يسلم عقبة بن نافع من اللوم لما جرى له ولأبي المهاجر ، فالمؤرخون يقدمون تبريرات لذلك منها : إساءته للبربر ، وعلى الأخص لزعيمهم كسيلة برغم نصائح أبي المهاجر له بالعدول عن ذلك ، وعدم أخذه للاحتياطات بعد فرار كسيلة من أسره ، وتسريحه للجند وهو في طريق العودة من أقاصي المغرب إلى إفريقية .

لا جدال أن عقبة يتحمل نتائج تلك التبعات ، فهي مسجلة عليه عند أغلب المؤرخين ، بيد أن مسألة تسريح الجند من الواضح أن دوافعها لا تقع على عقبة وحده ، بل يشارك الجند لربما في المسؤولية بنفس القدر ، لأنه فيما يبدو أن عقبة لم يبادر إلى السماح لجنده بسبقه إلى القيروان ، اطمئناناً منه لسلامة طريقه ، لكن يبدو أن

الجند ألحو عليه بالسماح لهم بسبقه استعجالاً منهم للعودة إلى موطن استقرارهم القريبة منهم ، وهي القيروان وغيرها ، واللحاق بأهاليهم هناك ، لاسيما أن فتوحات عقبة في جهات المغرب استغرقت زمناً طويلاً ، قرابة العامين .

جرت تنظيمات الأمويين في الفتوح على إعطاء ولاتهم مسؤولية تنظيم الجهاد في المناطق التالية لمناطق ولاياتهم ، فوالي العراق مثلاً كان تقع عليه مسؤولية فتوح ما يليه ، وكذلك الأمر بالنسبة لوالي مصر ، إذ كانت عليه مسؤولية فتوح إفريقية والمغرب ، وذلك قبل أن تنتقل المسؤولية لاحقاً ، مع تقدم الفتوح وإنشاء القيروان ، إلى والي إفريقية فيما يخص فتح ما يليها من أراضي المغرب . لكن صدمة استشهاد عقبة بن نافع وأبي المهاجر دينار وهما ولاة تلك الجهات ، جعلت الأمويين يشعرون بعظم المسؤولية الملقاة على عاتقهم في هذا الأمر ، لاسيما أن كسيلة كان قد أحل نفسه الآن في القيروان ولم يكن هناك ما يضمن عدم توجهه شرقاً إلى مصر إن أمكن ، مع الضعف الحاصل في ولاية إفريقية نفسها.

ولكن ، وبرغم تجسد المسؤولية التي كانت ملقاة على عاتق الأمويين وتناميها لمواجهة الأخبار السيئة التي كانت ترد إليهم من المغرب ، إلا أن ظروف الأمويين نفسها كانت تكبل أيديهم ، وتمنعهم من الالتفاتة المطلوبة ، فهم حينذاك كانت تواجههم معضلة حركة عبدالله بن الزبير في الحجاز وشقيقه مصعب في العراق .

لذا لم يكن أمام الأمويين سوى الاعتماد مرة أخرى على جند مصر وإفريقية القدامى ، فضلاً عن الجيش الذي كان مع زهير بن قيس البلوي ، خليفة عقبة على القيروان ، والذي كان حينذاك قد انسحب بجيشه إلى برقة ، ويشير المالكي أن عماد جيش زهير كان من عشائر بلى ، [٤٧] ولعل من الطبيعي أن لا يكون جيش زهير قد اقتصر على هؤلاء فحسب ، بل الأرجح أنه ضم أيضاً الجيش الذي كان مع عقبة أثناء توغله في المغرب وسرح قبيل استشهاده ، كما أسلفنا .

مع اضطرار الخلافة الأموية إلى مواجهة محنة استشهاد عقبة ودينار ، ومحاولتها إعادة فتوح المغرب إلى مسارها السابق ، وضع زهير بن قيس البلوي على رأس جيش الإنقاذ المكون ، ويشير إلى ذلك ابن الرقيق بقوله : " صاحب عقبة وأعرف الناس بسيرته وتدبيره وأولاهم بثأره ، أحد قدامى مصر. " [٤٨]

استطاع زهير ، بما تكون له من جيش خبير بنزلات المغرب ، فضلاً عن خبرته ، بالقضاء على كسيلة واستعادة القيروان ، وإعادة بادرة الفتوح بذلك إلى معسكر المسلمين ثانية ، وذلك قبل أن يلقى هو مصيره سنة ٧١هـ ، على يد الروم ، كما يرجح ذلك أغلب المؤرخين .

المحطة السادسة : المساهمة الأموية

إن فقدان جيش فتوح المغرب لثلاثة من قواده بالتوالي، أدى إلى فقدانه قوة المبادرة التي امتلك ناصيتها في السابق ؛ فضلا عن ذلك ، إن استمرار اعتماد الفتوح على القوى القديمة ، أدى إلى إنهاكها. وأظهر كل ذلك الحاجة إلى تعزيز الفتوح في المغرب بدماء أموية جديدة . وأخذ أهل المغرب البادرة هنا، وارتحلوا إلى عاصمة الخلافة لعرض الصورة كاملة على عبدالملك بن مروان ، صاحب المساهمات القديمة في فتوح المغرب ، ويلتقط ابن الرقيق وصل الحديث بقوله :

ومضى المسلمون إلى دمشق ، فدخلوا على عبدالملك ، فأخبروه أن أميرهم زهير بن قيس ، وأشراف رجالهم قد استشهدوا . فعظم ذلك عليه ، وبلغ منه ، لفضله ودينه . وكانت مصيبته مثل مصيبة عقبة - رحمهم الله - على الناس . وغضب أشراف المسلمين وسألوا عبدالملك بن مروان أن ينظر إلى إفريقية من يسد ثغرها، ويصلح أمرها . فقال لهم عبدالملك : ما أعرف أحدا كفؤا لأفريقية كحسان بن النعمان الغساني.[(٤٩)]

وزاد المالكي مكملا ، " وكان _ مشيرا إلى حسان _ أول من دخل إفريقية من أهل الشام في زمن بني أمية. "[(٥٠)]

في الحقيقة ، أن الموانع التي كانت تعيق الأمويين من الالتفات الكامل لتقلبات أوضاع الفتوح في المغرب كانت قد تلاشت حينذاك في أيام عبدالملك بن مروان ، فعبدالملك استطاع أخيرا القضاء على حركة ابن الزبير في الحجاز ، كذلك نجح في إضعاف الثوار الشيعة ، ولذا لم يكن هناك ما يعيقه من وضع ثقل الدولة لوضع حد للهزائم المتكررة في المغرب بإرسال قوة جديدة من خارج دائرة قدامى المستقرين في مصر ، الذين بقيت قيادة جيوش المغرب محصورة عليهم طوال الحقب السابقة .

لم يكن اختيار حسان بن النعمان لقيادة جيش المغرب هو التحول الوحيد في جدية تغير سياسة الأمويين تجاه المغرب ، بل كان دعم جيش حسان بجيش أموي كبير هو المثال الأوضح أيضا ، فالمصادر تخبرنا أن جيش عبدالملك ، الذي " لم يدخل إفريقية قط جيش مثله ."[(٥١)] كان قوامه الأربعون ألفا ، جلهم من اليمنيين ،[(٥٢)] سوى ما انضم إليه من القدامى من أهل مصر وطرابلس وبرقة وإفريقية .

إن حملة حسان بن النعمان يمكن اعتبارها الحملة الخاتمة لفتوح المغرب الكبير ، فهي لم تنجح في إعادة بادرة القوة ليد المسلمين فحسب ، بل مثل قضاؤه على الكاهنة - زعيمة الأوراس - تطهيرا لكل ما يعيق إنهاء الفتوح نهائيا هناك ، فما تبع ذلك لم يخرج عن كونه تطهيرا لجيوب مقاومة بقيت هنا وهناك .

إن الإنجازات التي حققها حسان بن النعمان في المغرب ، أدخلت فتوح المغرب الطويلة والمكلفة والمنهكة مراحلها الناجحة والنهائية . إذ بعدها دخلت المغرب طورا جديدا ، حيث لم تعد فيها مقاومة لإرساء فتوح المغرب في مراحلها النهائية ، وعضد ذلك بإقبال أهل المغرب من البربر لاعتناق الإسلام ، والوقوف في صف واحد الآن

مع إخوانهم العرب للسير بالفتوح إلى أراض تالية : فقد تقاطر الناس في الاستقرار في المناطق المفتوحة ، مشكلين بذلك أفواجاً جديدة ، وقوى استقرار كبيرة ، وأدى ذلك إلى عمران مدنها ، فالقيروان آنذاك كانت قد أخذت تغيير جلدها العسكري إلى الدور الإداري والتنظيمي ، دونت فيها الدواوين ، ونُظم استقرارها واستحدثت فيها أيضاً خططاً جديدة للجند ، وبُني فيها مسجد جامع ، وغدت العاصمة الفعلية للعمق الإفريقي والمغربي ، كما أحدث بناء حسان لمدينة تونس على أن تصبح لأفريقية عاصمة بحرية إلى جانب أختها القيروان .

وعندما بدأت مدن المغرب تدخل في مراحل زهوها الاقتصادي والاجتماعي ، كره حسان ، وهو الزاهد الذي كان ينادى بـ " الشيخ الأمين " البقاء فيها ، وغادرها عند عزله منها إلى الشام ، ومعه ، كما يشير إلى ذلك ابن الرقيق ، " خلق عظيم ، "[٥٣] كناية على أن الجند الأموي الذي قدم معه لربما آثر بعودته العودة معه إلى أوطانهم بالشام . مما يستخلص منه أن المغرب عادت مرة أخرى إلى غلبة عناصرها القدامى من المستقرين فيها أصلاً .

المحطة السابعة : موسى بن نصير وفتح الأندلس

إن تفضيل جند حسان بن النعمان العودة مع قائدهم إلى الشام بعد انتهاء مهماتهم في المغرب أدى إلى عودة شأن المغرب مجدداً إلى يد من كانوا بها من قدامى المستقرين ، كما ألمحنا إلى ذلك آنفاً ، وقد صاحب هذه التحولات أيضاً استعادة مصر مركزها الإداري المباشر لشؤون المغرب ، وفي المقابل أخذت علاقة المغرب بمركز الخلافة تضيق إلى مظاهرها الرسمية إلى حد واضح . ولعل أكثر من عامل كان له أثره في ذلك ، فمصر تحت ولاية عبدالعزيز بن مروان ، شقيق الخليفة ، والطامح في الخلافة بعد عبدالملك بن مروان ، كانت قد اكتسبت قوة معنوية كافية تمكنها من فرض رأيها في القضايا التي تخص المغرب كما دأب على ذلك ولاة مصر الأقوياء ، كما أن المغرب نفسها بعد أن تجاوزت مرحلة الفتوح ، إلى مرحلة الاستقرار ، صار اعتمادها على من استقر بها من جنود الفتح يزداد مع توالي الاستقرار وترسخه ، فالمعلومات المتواترة تشير إلى تكاثر الاستقرار ليس في الحواضر الإسلامية حديثة النشأة مثل القيروان وتونس ، بل في داخل عمق المغرب مثل تلك المملكة الصغيرة التي أقامها صالح بن منصور الحميري وأسرته في مناطق " تمساحات " في الريف في المغرب ،[٥٤] وينبغي أن نلمح هنا إلى قطع تمازج العرب المستقرين في مناطق المغرب مع البربر المسلمين شوطاً بعيداً ، أدت بوادرها إلى ظهور مجتمع إسلامي منصهر مغربي الصفة والتوجه ، ومغرب قادر على الاعتماد على ذاته .

إن تعيين موسى بن نصير لولاية المغرب (يختلف المؤرخون في تحديد سنته ما بين ٧٨إلى ٧٩هـ)، عكس في الواقع معظم التغييرات التي طرأت على المغرب ، والتي أشرنا إليها آنفاً ، فموسى بن نصير ، وإن كان عُرف عنه قدم العهد بخدمة الأمويين في جهات العراق ، " جابي البصرة ،" كما قيل ، إلا أنه لأسباب ، لا يود البحث الخوض فيه ، أصبح مغضوبا عليه لاحقاً ، الأمر الذي اضطره إلى النزوح إلى مصر ، بعد أن افتداه عبدالعزيز بن

مروان ، وإلى مصر من أخيه عبدالملك . (٥٥) وتضيف المصادر قائلة بأن تعيين موسى لولاية المغرب لم يتم إلا بعد دخول عبدالعزيز مع أخيه الخليفة عبدالملك بن مروان في مفاوضات تتعلق بقضية المطالبة بولاية العهد ، وتنازل عبدالعزيز بذلك للوليد بن عبدالملك .

إن تسلم موسى بن نصير عهد ولايته للمغرب من مصر ، وليس من دمشق ، كما درجت عليه تنظيمات تعيينات ولاة المغرب إلى ذلك الحين ، أدت إلى أن يستهل موسى تنظيماته العسكرية من مصر أيضاً ، فهو رغم اعتماده لاحقاً على من كان في المغرب من الجند ، إلا أننا نرى أنه لم يغفل انتقاء قيادات جيشه من العناصر العربية القديمة التي كانت في مصر مثل بشر بن أرطاة ، وحنش الصنعاني ، وأبناء عقبة بن نافع وغيرهم. (٥٦)

من الواضح أن المهمات العسكرية الأولية التي اضطلع بها موسى بن نصير في المغرب بحكم متطلبات عمله هي التي ربما أدت إلى أن يتحول تدريجياً من إداري متوسط القدرة إلى قائد عسكري مرموق ، فموسى ، قبل توليه شأن المغرب لا يعرف عنه أنه كان صاحب مساهمة عسكرية ، وصحيح أيضاً أنه بعد توليه ولاية المغرب لم تعترضه ، بسبب الهدوء النسبي السائد فيها ، تحديات تبين علو شأنه في هذا الجانب ، إذ أن المواجهات العسكرية التي خاضها لم تتعد كونها حملات تطهير لجيوب قوى تشير إليها المصادر بأنها " مناطق غير مسلمة " حملت السلاح ضد جنود الفتح هنا وهناك ، لا سيما في داخل العمق المغربي وجنوبه ، فالأرض فيما عدا ذلك كانت قد مهدت للمسلمين بسبب جهود الولاة السابقين ، بالأخص ، حسان بن النعمان .

إن هذه الأوضاع تحديداً هي التي رسخت خبرة موسى العسكرية ، كما زادت من طموحاته بتحقيق إنجاز عسكري أكبر في تلك الأرض التي ما فتئ المسلمون يسمعون عنها كلما توغلوا غرباً في أراضي المغرب ، وهي الأندلس . إن إحلال موسى نفسه في " طنجة " قاعدته المتقدمة في المغرب ، والبعيدة بعد بحر المضيق عن الأندلس ، وإطالته المقام بها زمناً هي التي جسدت تصوراته في المضي قدماً في هذا المشروع العسكري الكبير ، كما ساعد ذلك على تفتق النبوغ العسكري والقيادي فيه .

كنا قد أشرنا إلى تسلم موسى بن نصير ولاية المغرب بعهد من والي مصر عبدالعزيز بن مروان ، الذي تجاوز في ذلك صلاحيات الخليفة عبدالملك بن مروان ، لكن الشواهد اللاحقة تدل أن موسى ، لاسيما بعد وفاة كل من عبدالعزيز وعبدالملك وتولي الوليد الخلافة ، حرص على مد جسر المودة بينه وبين الخلافة في مشروعه لفتح الأندلس ، ويبدو أنه لقي إستجابة من الوليد ، وعهداً منه بتجديد ولايته للمغرب فالمقَّري ، نقلاً عن ابن حيان ، يشير إلى أن " الوليد ولى موسى بن نصير مولى عمه عبدالعزيز على إفريقية وما خلفها سنة ثمان وثمانين ." (٥٧)
وينبغي أن نلحظ هنا أن التاريخ الذي يحدده المقري يختلف عن التواريخ الأخرى التي ذكرها الآخرون ، مما يؤدي إلى الظن أن تاريخ تعيين الوليد ربما كان فيه تجديد لولاية موسى ، وتأكيد على اعتراف الخلافة به . وينفرد ابن عذاري برواية ، تناقض الروايات المتداولة والقائلة أن الصلات بين الوليد وموسى كانت قائمة فقط على المراسلات

بين الاثنين ، يقول فيها إن " موسى نهض إلى الوليد بنفسه بحراً ، واجتمع به واستشاره في فتح الأندلس ، فأشار الوليد بأن يختبر بالسرايا ، ولا يغرر بالمسلمين ، فبعث موسى بن نصير عند ذلك رجلاً من البربر ، يسمى طريفاً أبا زرعة (طريف بن زرعة المعافرى) ." [٥٨]

أما القائلون بأن صلات موسى بالوليد كانت المراسلات قنواتها ، فهؤلاء يشيرون إلى أن موسى ، بعد أن استكمل خطته لفتح الأندلس ، أرسل إلى الوليد يستأذنه في الفتح ، فرد الوليد محذراً بكراهيته في حمل المسلمين في بحر شديد الأهوال . وبالرغم أن موسى بيّن للخليفة أن البحر الفاصل ما بين المغرب والأندلس ليس ببحر شديد الأهوال ، ولكنه خليج يصف للواقف فيه ما خلفه ، إلا أن الوليد رد قائلاً : " وإن كان ، اختبر بالسرايا." وهذا ما فعله موسى امتثالاً . [٥٩]

بيد أن ما تبع ذلك يشير إلى أن الوليد اكتفى من موافقته لفتح الأندلس بهذا المقدار ، ففضلاً عما نعرفه عموماً عن إحجام الوليد من المساهمة العسكرية الفعلية ، يخبرنا المؤلف المجهول بأن الخليفة لم يخرج له جند من الشام ، واكتفى له بجنود مصر وإفريقية وبمن تطوع. [٦٠] ويتقصى عبدالواحد ذنون طه موقف الوليد من موسى وفتح الأندلس ويطرح النقاط التالية :

يبدو أن الوليد خشي من النتائج التي ستترتب على هذه الفتوحات الواسعة ، وأدرك أن أي استقرار للعرب في إسبانيا لا بد أن يكون على حساب شمال إفريقيا ومصر ، أو أن الخلافة يجب أن تلجأ إلى استخدام الجنود السوريين ، كما سيحدث فيما بعد . ومن المحتمل أنه فكر بقبول سياسة موسى في الاعتماد على سكان البلاد في إدارتها بعد الفتح ، ومع هذا ، فإن الحقيقة التي تشير إلى عدم وجود أعداد كافية من العرب بحيث يمكن إرسالهم للاستقرار في تلك البلاد الواسعة جعلته يمتنع عن قبول سياسة موسى ، يضاف إلى ذلك فإن موسى الذي كان بعيداً عن مركز الحكومة في دمشق ، تصرف باستقلالية ، وقاده طموحه العسكري وشغفه في الفتوح ، كما يبدو إلى تخطي سلطة الخلافة . [٦١]

أجبر سنوح فرصة طارئة في أسبانيا ، كما رصدها الكونت يوليان Julian ، حليف المسلمين آنذاك والعين لهم على عورات أسبانيا ، [٦٢] موسى بن نصير أن يتخلى عن فكرة السير بنفسه لفتح الأندلس ، وكان حينه قد ارتحل إلى القيروان ليعد العدة للفتح ، ذلك عندما وصلته الأخبار التي حملها يوليان ، عن حدوث فراغ دفاعي في جنوب الأندلس ، بعد ذهاب لذريق ، ملك القوط بجيشه إلى الشمال الشرقي للقضاء على حركة تمرد قام بها البشكنش هناك ، لم يشأ موسى أن يفوت تلك الفرصة السانحة ، وأمر واليه على طنجة طارق بن زياد بأن يسارع بالدخول إلى الأندلس فاتحاً مع ما تجمع له من جند في المغرب الأقصى ، ولذا فإن المصادر التاريخية تكاد تتفق على أن جل جيش طارق المكون من حوالي السبعة الآلاف كان أغلبه من البربر وقليل منه من العرب ، وذلك قبل أن يمد

الجيش بجيش من العرب والبربر قبل بدء معركة المواجهة ، التي تعرف بأكثر من مسمى ومنها شذونه ، ويكة وسهل البرباط .

بعد سنة من دخول طارق ، وفي ٩٣هـ تحديداً ، دخل موسى الأندلس ليتم الفتح ، ومعه ثمانية عشر ألفاً ، يسود الاعتقاد بأن أغلبهم كان من عماد الجيش الموجود في القيروان وبعضهم من مصر ، يصفهم ابن عبدالحكم " بوجوه العرب والموالي وعرفاء البربر ، " [(٦٣)] ولا يعرف في عدده جيش للأمويين ، ويذكر المالكي أن الوليد ، بعد فتح الأندلس ، وبينما كان موسى وطارق في طريق عودتهما إلى دمشق ، ويأمر منه ، أرسل إلى موسى مهنئاً ومعترفاً بإنجازه في الفتح . [(٦٤)] وعند وصول غنائم الأندلس إلى دمشق ، حول الوليد جزءاً منها للحرم المكي ، كما يخبرنا عن ذلك القزويني بقوله : " ثم الوليد بن عبدالملك زاد في حُلي البيت لما فتح بلاد الأندلس ، فوجد بطليطلة مائدة سليمان ، عليه السلام ، كانت من ذهب ولها أطواق من الياقوت والزبرجد ، فضرب منها حلي الكعبة والميزاب. [(٦٥)]

ويستحسن أن نختم البحث بما يورده المقري ، نقلاً عن الرازي مؤرخ الأندلس ، " بأن أكثر الناس ، بعد خروج موسى وطارق ، قطنوا ببلاد الأندلس لطيبها ، فأقاموا فيها" [(٦٦)] تعبيراً عن قوله بأن قاعدة الاستقرار ، بعد الفتح ، قد انتقلت إلى الأندلس ، وبنفس جماعة قدامى المستقرين الذين كانوا في إفريقية تقريباً.

الخاتمة والنتائج

رغم أن الإطار الزمني للبحث محدد بزمن قصير نسبياً ، (من سنة ٢١ إلى السنة ٨٥هـ) ، وهي السنوات التي تغطي فتوح المغرب تقريباً ، و(من سنة ٩٠ حتى ٩٥هـ) تقريباً ، وهي سنوات إتمام فتوح الأندلس ، أي بمجموعها المدة التي تغطي سني فتوح المغرب والأندلس ، إلا أنه ، مع ذلك أمكن ملاحظة النقاط التالية :

١- أن الهجرة المكثفة من الجزيرة العربية صوب مصر مع فتحها أو بعيده ، للجهاد أولاً وما تلاه من استقرار لاحقاً ، كانت هجرات متدفقة لم ينقطع سيلها طوال العصور التي يغطيها بحثنا أو بعده .

٢- أن كثافة الاستقرار الذي كان لمصر النصيب الأوفى منه ، جعل منها ومن بعد فتحها مباشرة ، القاعدة التي أمدت ليس فتوح المغرب فحسب ، بل الأندلس أيضاً بعصب الجيوش الفاتحة ، فجيش الفتح للأندلس ، ليس هو في الواقع سوى الجيش المتولد من جيوش مصر في المقام الأول ، ومن ثم جيش إفريقية ، في المقام الثاني .

٣- قُسم البحث إلى سبع محطات متوالية ، هُدف منه متابعة مسارات فتوح المغرب ومن ثم الأندلس . وفي خمس محطات من المحطات السبع المقسمة ، كان على قيادة الفتوح صحابة ، وهم عمرو بن العاص ، وعبدالله بن سعد بن أبي سرح ، ومعاوية بن حديج ، وزهير بن قيس البلوي ، وعقبة بن نافع (حسب تصنيف ابن

عبدالحكم)، [٦٧] ويندرج هؤلاء ، فضلاً عن أبي المهاجر دينار ضمن مهاجري المدينة ممن شاركوا في فتح مصر ، أو دخلوها بعيد الفتح في جيش عثمان رضي الله عنه. ويستثنى من هؤلاء حسان بن النعمان ، حيث كان قدومه من الشام ، وموسى بن نصير، القادم الأخير فهو لم يكن من المدينة ولا من الشام .

٤- في المحطات السبع (المشار إليها في الفقرة ٣) ، فيما عدا الجيش المرسل من قبل عبدالملك بن مروان بقيادة حسان بن النعمان ، استأثر جيش المهاجرين القدامى بالنصيب الأوفى في عمليات الفتوح في إفريقية وما يليها غرباً ، سواءً من كان منهم في مصر ، أو ممن واصلوا الدخول إليها مع توالي الفتوح ، فابن عبدالحكم يصنف نفراً كبيراً من هؤلاء تحت تصنيف (ممن دخل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لغزو المغرب ، ممن ذكرهم الواقدي محمد بن عمر). [٦٨]

٥- ينبغي الإشارة هنا ، أنه بعد استشهاد عقبة بن نافع ، وتحديداً بعد سنة ٦٠ هـ ، بدأت مساهمة البربر ، إلى جانب إخوانهم العرب في عمليات الفتوح فيما يلي إفريقية غرباً ، وفي نهاية الأمر في الأندلس.

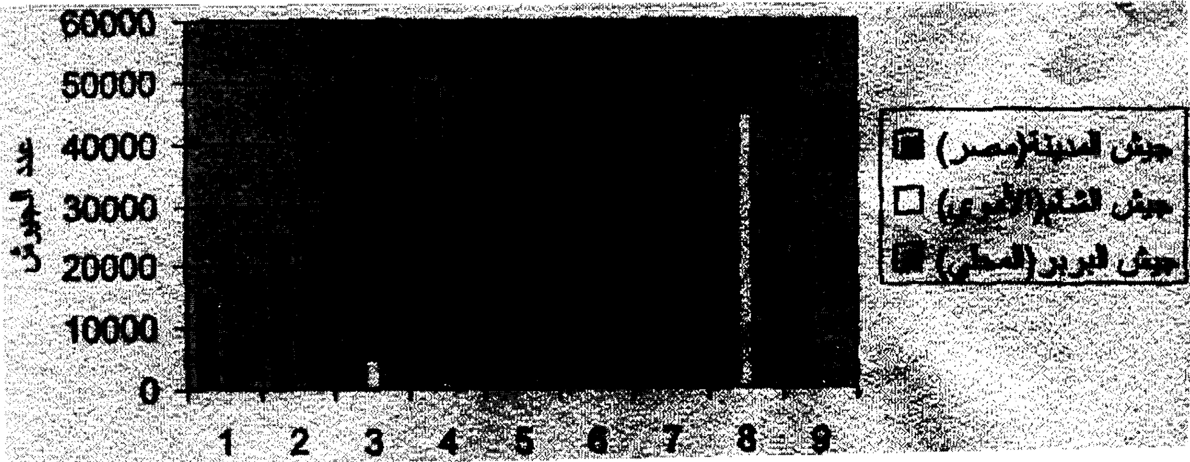
٦- رغم تبني البحث خلاصة التأكيد على تحمل مهاجري الجزيرة العربية (المدينة) للنصيب الأوفى في عمليات فتوح المغرب والأندلس ، إلا أن الواقع يفرض علينا الاعتراف بنصيب مساهمة الخلافة الأموية أيضاً ، فالخلافة الأموية منذ نشأتها تحملت مسؤولية الإشراف المباشر لعمليات الفتوح ، وتنظيمها وتوجيه مساراتها عسكرياً ، وقد تجلى اهتمام الأمويين بصورة خاصة في أيام الصعوبات التي اعترضت تقدم الفتوح ، مثل تلك الظروف الناجمة عن استشهاد عقبة بن نافع وأبي المهاجر دينار وزهير بن قيس البلوي ، وظهور خطورة القوى المحلية في المغرب ، مثل كسيلة بن لمزم والكاهنة والخطر البيزنطي على السواحل .

٧- شبه مصطفى أبو ضيف أحمد الهجرات العربية بالموجات القبائلية ، كل موجة تتولد منها موجات أخرى، [٦٩] ويمكن أن نضيف بأن تحركات تلك الموجات صاحبها أيضاً ظهور مدن القواعد العسكرية المنظمة لها ، الفسطاط أولاً ، ثم القيروان ، فطنجة ، وفي الأندلس قرطبة أولاً ، ثم طليطلة ، وأخيراً سرقسطة .

٨- إن تداعيات الطروحات التي ألمحنا إليها في الفقرات السابقة ، أدى إلى تلمس نتائج أعمق وذات أثر أطول ، فمن نتائج غلبة الحضور العربي من ذوي الأصول القديمة من الجزيرة العربية في المسرح المغربي حدوث ترابط عضوي ونفسي بين المغرب والأندلس ، في الحقب اللاحقة ، مع الجزيرة العربية أكثر منه للشام ، قاعدة الحكم الأموي ، فبعد الانتهاء من الفتوح ، ودخول المغرب والأندلس لما عُرّف من قبل المؤرخين بعصر الولاة ، استمرت الجزيرة العربية في احتلال المقام المفضل لدى هؤلاء سواء في الرحلات عموماً ، أو في طلب العلم بصورة خاصة ، مما أدى إلى توسع هذه الظاهرة بصورة أقوى إبان قيام الحكم الأموي في الأندلس .

٩- أن قدم استقرار المهاجرين من الجزيرة العربية في المغرب أولاً ، والأندلس لاحقاً ، أدى إلى ظهور الانتماء الموطني لهؤلاء في المناطق التي استقروا فيها ، فنحن نسمع بظهور مسميات مثل " البلديون" أو " أهل بلد"

تقابلها مسميات مضادة مثل " الأغراب " أو " الوافدون" أو كما تعارفت المصادر على تصنيفه في معسكرين متقابلين مثل " يمنيون " يقابله " قيسيون " أو " شاميون ،" ومن إفرازات ذلك طرحت أيضاً مسميات عسكرية طارئة مثل " جند الشام" أو " جند خراسان" لاحقاً أيام العباسيين . وقد حفلت المصادر بوقائع مصادمات بين المعسكرين في المغرب والأندلس ، على حد سواء ، بيد أن مثل هذه الأمور تبقى خارج الإطار الزمني المرسوم للبحث ، وإن استمد بداياته من مجريات زمن البحث .



نسبة مشاركة الجيوش في فتوح المغرب والأندلس

١ – عمرو بن العاص ٢١ – ٢٥هـ.

٢ – عبدالله بن أبي سرح ٢٥ – ٣٤هـ (العصر الراشدي)

٣ – معاوية بن حديج ٤٥ – ٥٠هـ (العصر الأموي)

٤ – عقبة بن نافع الفهري (١) ٥٠-٥٥هـ

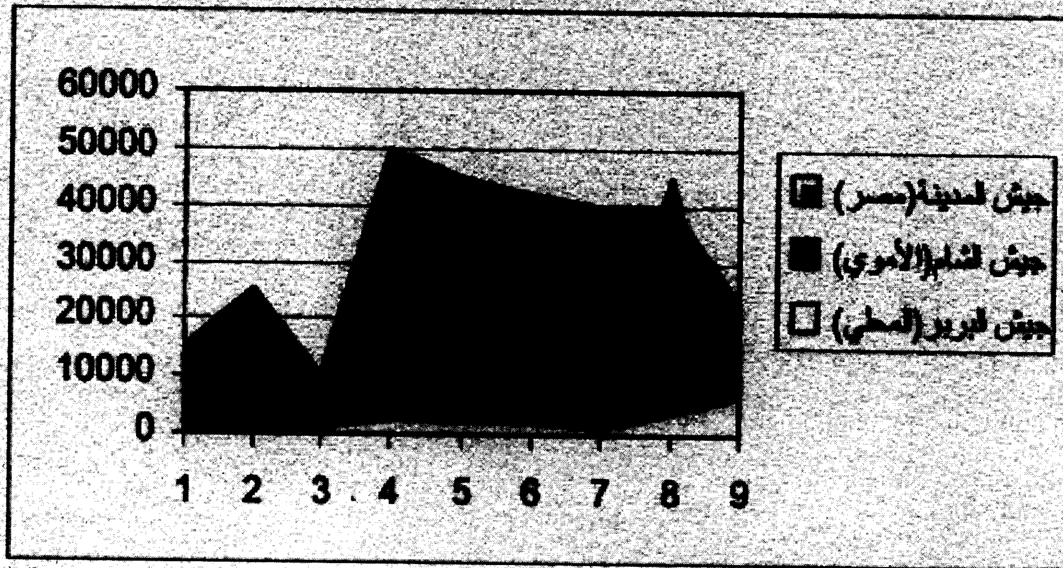
٥ – أبو المهاجر دينار ٥٥-٦٢هـ

٦ – عقبة بن نافع الفهري (٢) ٦٢-٦٩هـ

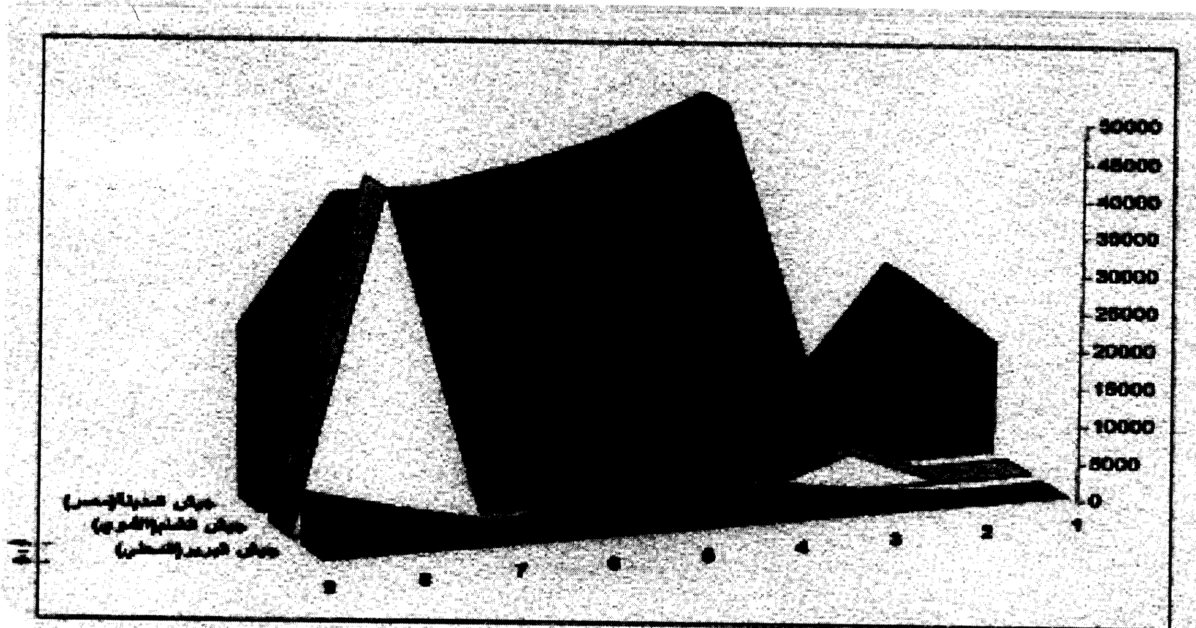
٧ – زهير بن قيس البلوي ٦٩-٧٤هـ

٨ – حسان بن النعمان الغساني ٧٤-٧٦هـ

٩ – موسى بن نصير ٧٦-٩٦هـ



النسبة العددية للمساهمين على السنوات



خلفيات المساهمين على السنوات

التعليقات

(١) نشر مؤخراً ، عبد الملك بن حبيب (ت ٢٣٨هـ/٨٥٢م) ، *كتاب التاريخ* ، تحقيق خورخي أغوادي ، المصادر الأندلسية (١) (مدريد : المجلس الأعلى للأبحاث العلمية ، معهد التعاون مع العالم العربي ، ١٩٩٢م) .

(٢) ابن عبدالحكم (ت ٢٥٧هـ)، *فتوح مصر والمغرب* ، تحقيق علي محمد عمر (القاهرة : مكتبة الثقافة الدينية ، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م) ، وتضاف " الأندلس " لبعض طبعات الكتاب العديدة .

(٣) محمد علي مكي ، تاريخ الأندلس السياسي ، ٩٢ - ٨٩٧هـ/ ٧١١ - ١٤٩٢م: دراسة شاملة ، *الحضارة العربية في الأندلس* ، تحرير سلمى الخضراء الجيوسي (بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٩٨م) ، ١ : ٥٥ .

(٤) ابن عبدالحكم ، *فتوح مصر والمغرب* ، ٢٢٠ .

(٥) ابن عبدالحكم ، *فتوح مصر والمغرب* ، ٨٢ .

(٦) ابن عذاري المراكشي ، *البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب* ، تحقيق ج. س . كولان وليفي بروفنسال (بيروت : دار الثقافة ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م) ، ١ : ٨ .

(٧) ابن عبدالحكم ، *فتوح مصر والمغرب* ، ١٠٤ .

(٨) ابن عبدالحكم ، *فتوح مصر والمغرب* ، ٢٦٠ - ٣٥٢ .

(٩) أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم القيرواني (ت ٣٣٣هـ) ، *طبقات علماء إفريقية وتونس* ، تحقيق علي الشابي ونعيم حسن اليافي (تونس : الدار التونسية للنشر ، ١٩٨٥م) ، ٦٥ - ١١٤ ، أبو بكر عبدالله بن محمد المالكي (ت ٤٣٨هـ) ، *كتاب رياض النفوس : في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم واوصافهم* (بيروت : دار الغرب الإسلامي ، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م) ، ٦٠ - ٩٧ .

(١٠) عبد الواحد ذنون طه ، *الفتح والاستقرار العربي الإسلامي في شمال إفريقيا والأندلس* (بغداد: دار الرشيد للنشر ، ١٩٨٢م) ، ١١١ وما بعدها .

(١١) ابن عبدالحكم ، *فتوح مصر والمغرب* ، ١٠٠ - ١٣٦ .

(١٢) ابن عبدالحكم ، *فتوح مصر والمغرب* ، ٧٦ - ٧٧ .

(١٣) ابن عبدالحكم ، *فتوح مصر والمغرب* ، ١٥٥ .

(١٤) عن انتشار سكن القبائل العربية في مصر ، وتوزعهم فيها ، انظر كتاب ، عبدالله خورشيد البرى ، *القبائل العربية في مصر في القرون الثلاثة الأولى للهجرة* (القاهرة : دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، ١٩٦٧م) ، انظر في مواضع القبائل في الكتاب .

(١٥) ابن عبدالحكم ، *فتوح مصر والمغرب* ، ١٤٠ - ١٥٠ ؛ انظر كذلك : أبو عبيد البكري ، *كتاب المسالك والممالك* ، تحقيق أدريان فان ليوفن وأندري فيري (تونس : الدار العربية للكتاب، ١٩٩٢م) ، ٢: ٦٠٢-٦١٠ .

(١٦) ابن عبدالحكم ، *فتوح مصر والمغرب* ، ١٤٩ .

(١٧) ابن عبدالحكم ، *فتوح مصر والمغرب* ، ١٦٨ ، ١٥٧ ، ١٥٨ .

(١٨) البرى ، القبائل ، ٤٧ .

(١٩) ابن عبد الحكم ، *فتوح مصر والمغرب* ، ١٣٩ - ١٤١ .

(٢٠) البرى ، *القبائل العربية* ، ٤٨ - ٤٩ .

(٢١) البرى ، *القبائل* ، ٤٨ ؛ انظر نفس الصفحة أسماء القبائل العربية التي اتخذت مرتبعاتها منازل والإقامة فيها بصفة دائمة بعد أن تركت الفسطاط نهائياً .

(٢٢) ابن عبد الحكم ، *فتوح مصر والمغرب* ، ١٠٨ .

(٢٣) البرى ، *القبائل العربية* ، ١٩٧ .

(٢٤) علي بن الحسين بن علي المسعودي (ت ٢٤٦هـ) ، *مروج الذهب ومعادن الجوهر* ، تحقيق مفيد محمد قميحة (بيروت : دار الكتب العلمية، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م) ، ٢.

(٢٥) ابن عبدالحكم ، *فتوح مصر والمغرب* ، ٢١٥ - ٢١٧ .

(٢٦) ابن عبدالحكم ، *فتوح مصر والمغرب* ، ١٩٧ .

(٢٧) ابن عبدالحكم ، *فتوح مصر والمغرب* ، ١٩٩ - ٢٠٠ .

(٢٨) طه ، *الفتح والاستقرار* ، ١١١ .

(٢٩) شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب النويري (٦٧٧ - ٧٣٣ هـ)، *نهاية الأرب في فنون الأدب* ، تحقيق حسين نصار (القاهرة : الهيئة المصرية العامة لكتاب، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م) ، ٢٤ : ٧ - ١٠.

(٣٠) انظر دراسة حسين مؤنس ، *فتح العرب للمغرب* (القاهرة : مكتبة الثقافة الدينية، د.ت.) ، ٨١، ويورد مصطفى الهروس ، من خلال متابعته معلومة مفادها أن أبا عامر بن عمرو ، جد الإمام مالك وهو صحابي ، كان في الجيش الذي أغزاه عثمان إفريقية ؛ *المدرسة المالكية الأندلسية إلى نهاية القرن الثالث الهجري ، نشأة وخصائص* (المغرب : وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م) ، ٢١ .

(٣١) مؤنس، *فتح العرب*، ١١٠ .

(٣٢) ابن عبدالحكم ، *فتوح مصر والمغرب* ، ٢٢٠ ؛ المالكي ، *رياض النفوس* ، ١ : ٢٨ ؛ ابن عذاري ، *البيان المغرب* ، ١ : ١٦ - ١٧.

(٣٣) طه ، *الفتح والاستقرار* ، ١١٧ .

(٣٤) مصطفى أبو ضيف أحمد ، *القبائل العربية في الأندلس حتى سقوط الخلافة الأموية* (الدار البيضاء : دار النشر المغربية ، ١٩٨٣م)، ٣٠٠ ؛ انظر كذلك : النويري ، *نهاية الأرب* ، ٢٤ : ٢٢٠ .

(٣٥) البرى ، *القبائل العربية* ، ٤٩ - ٥٠ .

(٣٦) البرى ، *القبائل العربية* ، ٤٩ - ٥٠ ، والمعلومات التي يستند إليها عبدالله خورشيد في صياغة رأيه يسجلها ابن عبدالحكم ؛ انظر: *فتوح مصر والمغرب* ، ٢٢٠ .

(٣٧) علي بن أبي الكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد ابن الأثير الشيباني ، *أسد الغابة في معرفة الصحابة* (بيروت : دار إحياء التراث، د.ت.) ، ٤٢٠ .

(٣٨) المالكي ، *رياض النفوس* ، ١: ٢٨ .

(٣٩) مؤنس ، *فتح العرب* ، ١٤٠ .

(٤٠) المالكي ، *رياض النفوس* ، ٤٤٠ .

(٤١) القيرواني .*طبقات* ، ٧٣ وما بعدها ؛ والمالكي ، *رياض النفوس*، ٦٠ - ١٥٠ .

(٤٢) أحمد ، *القبائل العربية* ، ٣١ .

(٤٣) طه ، *الفتح والاستقرار* ، ١٢٢ .

(٤٤) القيرواني ، *طبقات* ، ٧١ .

(٤٥) طه ، *الفتح والاستقرار* ، ١٢٢ .

(٤٦) المالكي ، *رياض النفوس* ، ١: ٢٨٠ .

(٤٧) المالكي ، *رياض النفوس* ،١: ٤٥٠ .

(٤٨) أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم بن الرقيق ، *تاريخ إفريقية والمغرب* ، تحقيق عبدالله العلي الزيدان وعز الدين عمر موسى (بيروت : دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٠م) ، ١٧ . ويشير المؤلف ، في نفس الصفحة ، إلى عبارة " فوجه إليه وجوه أهل الشام " إشارة إلى إرسال الأمويين له جيشا ، إلا أن هذه العبارة غير واضحة ، ولعل المؤلف خلط بين ولاية زهير بن قيس البلوي ، وولاية حسان بن النعمان .

(٤٩) ابن الرقيق ، *تاريخ إفريقية* ، ٢٢ .

(٥٠) المالكي ، *رياض النفوس* ، ١ : ١٨٠ .

(٥١) ابن الأثير ، *أسد الغابة* ، ٣: ١١٣ .

(٥٢) انظر : طه ، *الفتح و الاستقرار* ، ١٣٢ ؛ أحمد ، *القبائل العربية* ، ٣١.

(٥٣) ابن الرقيق ، *تاريخ إفريقية* ، ٢٠ .

(٥٤) انظر دراسة مصطفى أحمد عن تاريخ هذه المملكة ، *القبائل العربية* ، ٣٣ .

(٥٥) ابن عبدالحكم ، *فتوح مصر والمغرب* ، ٢٣٢ .

(٥٦) انظر متابعة عبدالواحد طه لهؤلاء ، *الفتح والاستقرار* ، ١٣٩ .

(٥٧) أحمد بن محمد التلمساني المقري ، *نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب* ، تحقيق إحسان عباس (بيروت : دار مصادر ١٣٨٨هـ-١٩٦٨م) ، ١ : ٢٣٠ .

(٥٨) ابن عذاري ، *البيان المغرب* ، ٢ : ٥ .

(٥٩) هذه التفصيلات ترد عند المؤلف المجهول ، صاحب *اخبار مجموعة* ، تحقيق إبراهيم الأبياري (بيروت: دار الكتب الإسلامية، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م)، ١٦.

(٦٠) المؤلف المجهول ، *أخبار مجموعة* ، ١٤ .

(٦١) طه ، *الفتح والاستقرار* ، ١٨٤ .

(٦٢) انظر للتعريف بيوليان ، حاكم سبتة ، ودوره في فتح الأندلس : صالح بن محمد السنيدي ، "يوليان وفتح الأندلس ، عرض جديد لقضية قديمة ، " *مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية* ، ١٧ (رجب ١٤١٧هـ / نوفمبر ١٩٩٦م) ، ٤٣٥ - ٤٤٩ .

(٦٣) ابن عبدالحكم ، *فتوح مصر والمغرب* ، ٢٣٥ .

(٦٤) المالكي ، *رياض النفوس* ، ١١٩ .

(٦٥) زكريا بن محمد بن محمود القزويني ، *آثار البلاد وأخبار العباد* (بيروت : دار بيروت ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م) ، ١١٣ ، ويضيف أبو عبدالله أحمد بن محمد بن اسحاق الهمزاني (ابن الفقيه) ، *كتاب البلدان* ، تحقيق يوسف الهاجري (بيروت : عالم الكتب، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م) ، ١٣٤ ، أن المائدة كانت قد قومت بمائتي ألف دينار .

(٦٦) المقرى ، *نفح الطيب* ، ١ : ٢٨٠ ، وكان من هؤلاء نفر من الصحابة والتابعين، انظر إلى قوائمهم : الهروس ، *المدرسة المالكية الأندلسية* ، ١٦ - ٢٠ .

(٦٧) ابن عبدالحكم ، *فتوح مصر والمغرب* ، ٦١، ٦٥، ٩٢، ٩٣، ٩٧.

(٦٨) ابن عبدالحكم ، *فتوح مصر والمغرب* ، ٣٥٢ (الأرقام ٦٠ - ٧٤) .

(٦٩) أحمد ، *القبائل العربية* ، ٢٩ .

بلاد السراة في العصر الأموي : دراسة لبعض مظاهر الحضارة

غيثان بن علي بن جريس
كلية اللغة العربية والعلوم الإجتماعية والإدارية،
جامعة الملك خالد – أبها

يهدف هذا البحث إلى محاولة معرفة بعض الجوانب السياسية والحضارية لبلاد السراة، [١] الممتدة من الحجاز شمالاً إلى اليمن جنوباً ، خلال العصر الأموي .

وقد أدت صعوبة تضاريس المنطقة (من جبال ، ووهاد ، وهضاب وعرة المسالك) إلى إحجام المؤلفين الأولين (من الجغرافيين والمؤرخين) عن سبر أغوارها والكتابة عنها وهذا من الأسباب التي جعلتني أخوض بقلمي مع صعوبة مهمتي في الحديث عنها . ويعد الحسن بن أحمد الهمداني الشخصية المعرفية في أرض السراة وسكانها ، لكثرة تنقله في أرجائها.[٢]

ولم يقتصر الهمداني في كتابه *صفة جزيرة العرب* على وصف الأماكن وتسميتها بأسمائها الجغرافية ، أو بأسماء القبائل أو العشائر القاطنة فيها ، وإنما يذهب إلى أبعد من ذلك ، حيث يذكر مواقع هذه القبائل أو العشائر في بعض المواطن من بوادٍ ونجود وسهول وأغوار ، متتبعاً أفخاذ هذه العشائر أو القبائل في الأماكن التي استقرت فيها . ويمكن استعراض مظاهر الحضارة في بلاد السراة على النحو التالي .

أولاً: التبعية الإدارية والسياسية لبلاد السراة خلال العصر الأموي

رغم أن المصادر الإسلامية المبكرة شحيحة في معلوماتها عن الحياة الإدارية لبلاد السراة ، لكن من المؤكد أنها كانت تتبع إدارياً أمراء الدولة الإسلامية في الحجاز ، والذين كانوا يعينون على تلك الناحية من قبل خلفاء المسلمين الأول. ففي العصر الأموي نجد الفاسي يذكر أن الخليفة معاوية بن أبي سفيان، في بداية خلافته ، عين أخاه عتبة بن أبي سفيان على مكة وما يتبعها من أرض السراة ونجران ، وعين أحمد بن خالد بن العاص على المدينة، وقيل مروان بن الحكم ، وبعد ذلك عزل أخاه ، وأضاف ولاية مكة والطائف إلى مروان بن الحكم، فأصبح بذلك والياً على الحجاز بكامله ، ثم عزله عام ٤٩هـ ، وولى سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص ، وكان

سعيد يقيم في المدينة وجعل ابنه عمرا نائبا عنه في مكة والطائف وما يتبعهما نحو الجنوب،[٣] وجمعت أيضا لعمرو بن سعيد بن العاص (الأشدق) عام ٦٠هـ في عهد يزيد بن معاوية .

وعقب موت يزيد في ١٤ من ربيع الأول ٦٤هـ ،[٤] قوي أمر ابن الزبير في مكة وما يتبعهما من أرض السراة، (يساعده الحارث بن حاطب الجمحي) ، وظل أمره كذلك حتى خلافة عبد الملك بن مروان .

عمل عبد الملك على استعادة الحجاز . فبعث قواته بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفي الذي تغلب على ابن الزبير، في جمادى الأولى عام ٧٣هـ ، وأخضع الحجاز واليمن لطاعة بني أمية ، ولذا فإن عبد الملك بن مروان ولاه عليها جميعا [٥] ولم يسبق لها أن اجتمعت لوال قبله ، وعين الحجاج ولاة من قبله على تلك المناطق كنواب عنه يديرونهـا ، وهو المرجع لهم ، كان منهم أخوه محمد بن يوسف الثقفي واليا على بلاد السروات الممتدة من الطائف حتى صنعاء.[٦] فلما انتقل الحجاج إلى العراق عام ٧٥هـ واليا عليها عقب وفاة واليها بشر بن مروان، أصبح ولاة تلك المنطقة يراجعون مباشرة الخليفة عبد الملك بن مروان ، وكان منهم : الحارث بن خالد بن العاص المخزومي ، والي مكة والطائف والسراة، (وقد سبق له أن تولاهما في عهد يزيد بن معاوية) ، كما كان على المدينة يحيى بن الحكم بن أبي العاص، عم الخليفة عبد الملك،[٧] واستمر محمد بن يوسف الثقفي - أخو الحجاج- واليا على اليمن وأصبح مرجعه المباشر هو الخليفة ، إلى أن توفى هذا الوالي عام ٩١هـ بعد ١٨ عاما من ولايته لها [٨] وتقلد ولاية مكة والطائف وما يتبعهما كثير من الولاة في عهد بني أمية ، وبالأخص في عهد عبد الملك بن مروان، كما وليها في عهد ابنه الوليد بن عبد الملك، الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز، وأضيفت له المدينة المنورة فكان واليا على الحجاز بكامله، واستمرت ولايته من عام ٨٦هـ حتى عام ٩٣هـ وقيل عام ٩١هـ.[٩] كما تولى ولاية مكة والطائف وما يتبعهما نحو الجنوب ، أكثر من مرة ، خالد بن عبدالله القسري البجلي.

ونلحظ أن بعض الولاة جمعت له الولايات الثلاث : مكة والمدينة والطائف ، بما يتبعهم نحو الجنوب كجرش وبيشة ونجران مثل : عمر بن عبد العزيز كوال لها في عهد الوليد بن عبد الملك ، وعبد الرحمن بن الضحاك القرشي عام ١٠٣هـ ، ثم الذي خلفه في ولايتها وهو: عبد الواحد بن عبد الله الثقفي وكان عبد الواحد قد ولى الطائف فقط عام ١٠٣هـ عقب عزل عبد العزيز بن عبد الله بن أسيد ، ثم ضمت إليه الولايات الثلاث عام ١٠٤هـ وأيضا إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي - خال هشام بن عبد الملك - الذي وليها من عام ١٠٦هـ حتى عام ١١٤هـ ، ثم أخوه محمد بن هشام الذي تسلمها منه واستمرت ولايته على مكة والطائف وبلاد السراة حتى عام ١٢٥هـ، ويوسف بن محمد بن يوسف الثقفي - ابن أخي الحجاج بن يوسف ، وخال الخليفة الوليد بن يزيد - حيث تولاها عام ١٢٦هـ، وفي الوقت نفسه كان أخوه مروان بن محمد بن يوسف الثقفي واليا على اليمن ، وجمعت أيضا لعبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك بن مروان عام ١٢٩هـ.[١٠]

وكان يحصل أن تنفرد ولاية بوالٍ مستقل ، يتلقى تعليماته مباشرة من الخليفة فكان من هؤلاء هشام بن أبي سفيان الثقفي ، الذي ولي أمر الطائف وما يتبعها نحو الجنوب دون ولاية مكة وذلك في عهد يزيد بن الوليد.[١١]

ونلحظ من سياسة معاوية حرصه على اختيار الولاة من ذوي الحزم والحكمة في الاضطلاع بشؤون الرعية ، مع ميله إلى إسناد تلك المناصب إلى رجالات بني أمية ، أو من يلوذون في فلكهم ، فإذا رغب في أن يولي أحداً من بني أمية ولم يسبق له أن تقلد منصب ولاية ولاهُ ولاية محدودة تتسم بالهدوء والاستقرار ، مثل ولاية الطائف التي لا تردها وفود ، أو يطرق أرضها إلا عابر ، فإذا رأى منه خيراً وأعجب بحسن سيرته وإدارته أضاف إليه ولاية أخرى ، مثل ولاية مكة أو نقله إلى ولاية تستحق رعاية وسهراً دائماً ، لكثرة ما فيها من اضطراب ، كالبصرة والكوفة[١٢] وهذا ما فعله مع أخيه عتبة بن أبي سفيان ، ففي بداية تقلده المناصب ولاه ولاية الطائف وحدها ، وبعد عدة أشهر أضاف إليه ولاية مكة وبلاد السراة الممتدة من الطائف إلى نجران بعد أن لمس فيه حسن الإدارة ، وتصريف شؤون الولاية ، وكذلك مع مروان بن الحكم ، فقد ولاه المدينة أولاً ثم أضاف إليه مكة والطائف وما يتبعهما ، بعد عزل عتبة لمرضه ، وهذا في حدّ ذاته يعطينا مؤشراً على مدى اهتمام خلفاء بني أمية بتلك الولايات الثلاث وتوابعها ، وإسنادهم إياها إلى ذوي الكفاءة والمقدرة.

ونلاحظ أن عمر بن عبد العزيز عندما ولي خليفة عام ٩٩هـ عقب وفاة سليمان بن عبد الملك ، اختار ولاته من ذوي الورع والعلم وحسن الإدارة في سياسة الرعية ، فأبقى على عبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن أسيد ، والي مكة والطائف وما يتبعهما في عهد سليمان بن عبد الملك ، وكان لعمر مشورة من قبل في تعيينه والياً على مكة من قبل سليمان ، كما عين على المدينة أبا بكر محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري ، وهو من فقهاء المدينة المشهورين.[١٣] ويأتي يزيد بن عبد الملك فيفصل ولاية الطائف وما يتبعها من بلاد السراة عن ولاية مكة ، ويولي عليها عبد الواحد بن عبد الله من ثقيف ، ويولي مكة والمدينة عبد الرحمن بن الضحاك بن قيس الفهري ، وذلك عام ١٠٣هـ ،[١٤] لكن لم تلبث أن انضمت تلك الولايات الثلاث تحت والٍ واحدٍ في عهد هشام بن عبد الملك وإلى نهاية عهد بني أمية في معظم الأحوال .

ثانيا : الحياة الاجتماعية

أما الحياة الاجتماعية في بلاد السراة ، كما تخبرنا بعض المصادر الإسلامية المبكرة ، فقد بيّنت أن التركيبة السكانية في هذه البلاد تقوم على القبيلة ، مشيرة إلى مواطن القبائل وفروعها في هذه البلاد ، فمثلاً ، قبائل الأزد بمختلف فروعها استوطنت البلاد الواقعة ما بين نجران وجازان إلى الطائف وتهائم مكة في الشمال ، وقد اختلط مع هذه القبائل ، قبائل عدنانية ، والاختلاط بين القبائل العدنانية والقحطانية في بلاد السراة قائم منذ أمد .[١٥] الأمر الذي أدّى إلى اندماج العشائر النزارية مع القبائل الأزدية ، باعتبار الأولى أقلّ عدداً من القبائل الأزدية القحطانية ،

فاندمجت بها أحياناً تحت ظروف القهر والغلبة ، أو الجوار والمصاهرة . ويفهم من حديث الهمداني عندما قال : "ثم سراة زهران من الأزد، ودوس ، وغامد ، والحر ، نجدها بنو سواءة بن عامر ، وغورها لهب ، وعويل من الأزد وبنو عامر ، وبنو سواءة خليطي والدعوة عامرية ."[(١٦)] بأن الاختلاط والاندماج كان قائماً ، ولكن ربما بنسب ، فبنو سواءة خليط من أفخاذ وعشائر سواء كانت قحطانية أو عدنانية ، وأحياناً يكون خليط مجموعة من العشائر مندرجاً تحت مظلة واحدة أو اسم قبيلة أو عشيرة معينة .

وفي حديث بعض المصادر عن السراة ، لم تذكر وجود طبقة معينة من العبيد بها ، ولكن لا نستبعد أن يكون قد وجد بها نسبة منهم ، لأجل وقوعها في الوسط بين حواضر الحجاز واليمن الكبرى ، التي اشتهرت بنشاط أسواقها في بيع العبيد وشرائهم ، وغيرهم من السلع المختلفة ، إلى جانب أن أغوار بلاد السراة تطل على البحر الأحمر الذي يوجد به عدد من الموانيء التي كان لها صلات جيدة مع مصر والحبشة والسودان والصومال وغيرها من بلاد العالم .[(١٧)] أما طبقة الموالي في بلاد السراة فقد أوردها أحد المصادر الإسلامية المبكرة صراحة عند حديثه عن جرش فقال : " وفي شق قرية جرش فرق من النزارية يدعون الجزارين من موالي قريش ،"[(١٨)] ولعل جرش نالت هذا التخصيص بسبب كثرتهم ، الأمر الذي أدى إلى فرض وجودهم ، مع العلم أن النص الذي أورده هذا المصدر لا يوضح إلى من ينتسب إليه أولئك الموالي من قبيلة قريش ، وكيفية الولاء الذي كان بينهم وبين قريش ،[(١٩)] ولكن الأهم من ذلك أنه ربط مهنة الجزارة بالموالي دون سواهم ، لأن القبائل العربية تأنف أن تتخذ مثل هذه المهن وأشباهها ، وفي هذا يقول ابن خلدون في فصل خاص *بمقدمته* : " العرب أبعد الناس عن الصنائع ."[(٢٠)] والملاحظ أن المهن إلى اليوم لها انعكاسات على أصحابها في بعض المجتمعات العربية .

وأثناء حديث المصادر الإسلامية الأولى عن مواطن السكان ومجاورتهم بعضهم بعضا ، فلم تذكر معلومات عن نوعية مساكنهم ومرافقها ، ولم توضح مما كانت تبني بيوتهم ، وكيف تصمم ، ونوع الأثاث الذي كان يوضع بها ، مع العلم أن بعض تلك المصادر ذكرت تفصيلات عن بناء البيوت ومرافقها في حواضر اليمن الكبرى ، فأشارت إلى سعة بعض الدور ، عند الأغنياء خاصة في صنعاء وغيرها من المدن الكبرى ، واستخدام الحجارة في البناء على هيئة طابق وطابقين ونادرا ما تكون أكثر من ذلك ، وغيرها من المعلومات الجيدة حول البناء وما يتعلق به.[(٢١)] ونظرا للمجاورة بين بلاد السراة وحواضر اليمن فليس ببعيد أن يكون شكل بعض الأبنية والمواد المستخدمة في بنائها مثلما هو الحال في صنعاء وغيرها .

والطريف في روايات الرحالة الهمداني أنه لم ينس ذكر بعض الأماكن التي وجد بها بعض المراكز الحضارية ، فيذكر منطقة جرش قائلا : " ويسكنها بنو عبدالله بن عامر من عنز ، ثم تندحة ، وهي العين من أودية جرَش ، وفيها أعناب وآبار وساكنه بنو أسامة من الأزد ، ورأيت بعضهم ينجذب إلى شهران العريضة ، والعيبا بلد

مزارع لبني أبي عاصم من عنز، ويليها وادي طلعان كثير المزارع لبني أسد من عنز ، والقرعا لشيبة من عنز ولهم قرية كبيرة ذات مسجد جامع يقال لها المسقى ، وهم مسالمون للعواسج." [٢٢]

وعلى نحو هذا العرض الذي تفرد به الهمداني لبعض أجزاء بلاد جرش ، نجده أيضاً يذكر أسماء أماكن عديدة ، تغير أسماء بعضها ، وبقي أسماء بعض آخر إلى يومنا هذا ، وكل ما ورد ذكره فهو يغطي أجزاء من المناطق المعروفة حالياً بخميس مشيط ،وأحد رفيدة ، ومتنزه القرعا والجرة وما حولهما. ونراه ينوه بذكر شيبة من عنز في أرض القرعا، ويبين أن لهم قرية كبيرة ذات مسجد جامع ، فهذا يدل على دقة ملاحظته، فلم يكن يغفل عن حجم القرية التي كانت كبيرة ، وبها مسجد جامع للمصلين، [٢٣] عندما كان يعبر بلاد السراة في ذهابه وإيابه مابين الحجاز واليمن . ولم يكن أيضاً يغفل عن ذكر بعض المراكز الحضارية ، وتجمعات المواطن السكنية بها، فيورد أسماء بعض القرى الهامة في جرش ، كتندحة ، وغيرها ، ثم يذهب إلى سراة بلاد الحجر ، فيذكر بها تنومة، ثم يقول : " وهي واد فيه ستون قرية أسفله لبني يسار ، وأعلاه لبلحارث بن شهر." [٢٤] ثم يشير إلى مدينة الجهوة التي تأتي في المرتبة الأولى قبل جرش ، ويواصل تدوين ملاحظاته الجيدة عن بعض القرى في سراة خثعم ، وبلقرن ، وشمران، وغامد ، وزهران ، وبجيلة حتى مدينة الطائف . والملاحظ أن الأماكن التي أشار إليها لم تبق على ما كانت عليه ، بل تغيرت في تقسيماتها ، وأحياناً في أسمائها، فعلى سبيل المثال كانت منطقة الجهوة في زمنه تأتي في المرتبة الأولى قبل جرش، وهي من أرض بني شهر لسراة الحجر ، لكنها في الوقت الحاضر أصبحت جزءاً صغيراً من قرية بني بكر التابعة لمنطقة النماص. [٢٥]

أما الموائد والأطعمة التي حفظتها لنا بعض المصادر الأولية ، فكان جلها من الثريد ، وهو عبارة عن خبز يفت ويبل بالمرق ، ويوضع فوق اللحم، [٢٦] ولعله يشبه ما يسمى ببلاد الشام (بالفتة) . والمضيرة، وهي طبيخ اللحم باللبن حتى ينضج وتختر المضيرة ، ثم تعد للأكل ، وموائد أخرى تتضمن الخبز، والزبد ، واللبن ، والحليب ، واللحوم . وجميع هذه الأطعمة محلية لتوافر موادها في بلادهم ، فالقمح ، والذرة ، والشعير تزرع في السراة بكميات كبيرة . أما اللحوم والحليب ، فتؤخذ من مواشيهم الموجودة بكثرة حيث المراعي الشاسعة . وأشاد الهمداني بنوع من الأطعمة ، يسمى اللحوح (ولايزال معروفاً في بلاد السراة إلى وقتنا الحاضر)، وهو خبز رقيق يصنع من الذرة ، ويستخدم عادة مع اللبن، وقد لاحظ رقته فوصفه بالقول : " إنه إذا وقع في اللبن استرخى فلا يحتمل إلا بأكثر الأصابع." [٢٧] وأشار إلى أطعمة السفر الذي يتزود بها المسافر من اليمن إلى الحجاز ، وربما تزود بها أهل السراة، فقال: وكنا نحن نستعمل في أسفارنا الخبز والسمن واللحم والكشك والمهاد. [٢٨] وكان من أفضل المشروبات عند أهل السراة شراب اللبن مع الزبدة ، ومن أفضل المأكولات السمن الذي يستخرج من ألبان المواشي، حيث كانوا يستخدمونه مع الخبز والعصيد والهريس، [٢٩] وهذا النوع من الطعام ما زال مرغوباً وخاصة عند المسنين من أهل تهامة السراة .

وبالنسبة للعادات والتقاليد عند أهل السراة كالكرم ، والشجاعة فهو أمر معروف . وأما عن التكافل والتآزر، سواء في المواسم أو الأعياد أوغيرها من المناسبات ، فقد أشارت المصادر إلى ذلك باقتضاب شديد حينما تتحدث عن النواح بأرض السراة ومشابهته بنواح اليمن ، وتبيّن أن الذين يقومون به هم من النساء والعبيد الموالي.(٣٠)

ثالثاً : الحياة الاقتصادية

أما عن الحياة الاقتصادية في هذه البلاد التي حباها الله بعدة مزايا تؤهل ساكنيها على مزاولة العيش فيها ، فهناك المراعي ، والأراضي الزراعية الخصبة ، وهناك الموقع الجغرافي الهام ، كل هذا ساعد على امتهان الرعي ومزاولة الزراعة والتجارة ، والحرف اليدوية على مختلف أنواعها . فالرعي عند أهل البادية من المهن الأساسية في الحياة ، يشاركهم فيها - أحياناً - أهل الحضر ، ونتيجة لكثرة المراعي وأهميتها في مقومات الحياة ، فقد ذكرها الهمداني في كتابه *صفة جزيرة العرب* فقال : " والصحن مراعي لبني شهر نجديها مما يصلي بيشة ."(٣١) ويبدو أن المناطق الشرقية من السراة تمتاز بكثرة مراعيها ، مما جعلها منطقة رعي عندهم إلى زمن قريب ، والأكثر من هذا أننا نجد حواضر تزاول الرعي إلى جانب الزراعة ، وهذا مما يعبر عنها عند علماء الاجتماع بنهاية مرحلة الانتقال وبداية مرحلة الاستقرار الدائم ، مع التنوع في أساليب العيش لتحسين الدخل .

ومن المواشي التي ورد ذكرها في بعض المصادر خلال القرون الإسلامية الأولى عند أهل السراة، (وبقيت إلى زمن قريب) الماعز ، والضأن ، يليها الإبل ، التي كانت تكثر في المراعي الشرقية للسراة لما يناسبها من اتساعها وتوافر أعشابها ، إلى جانب الأبقار والمطايا من الحمير وغيرها في البلاد السروية عامة ، وفي الأجزاء النجدية والتهامية معاً . وقد ذكر الهمداني أفخاذاً وعشائر في مناطق متعددة من بلاد السراة ،اقتصر عملهم على رعي الماشية ، وجمع الحطب ، وصيد الحيوانات البرية ، ومعظمهم من سكان المناطق الشرقية للسراة .(٣٢) ويبدو من كلامه أيضاً ، أن الزراعة كانت لها الأولوية بين المهن ، لكثرة المزارع والبساتين وما بهما من خضر وفاكهة ، ويعود ذلك لوفرة المياه من الآبار والأودية ، ونزول الأمطار في معظم أيام السنة بسبب هبوب الرياح الموسمية على اليمن وعلى بلاد السراة بشكل عام ، ومما ذكره بهذا الخصوص قوله " وبسراة الحجر البر، والشعير، والبلس ، والعتر ، واللوبيا ، واللوز ، والتفاح ، والخوخ ، والكمثرى ، والإجاص والعسل ."(٣٣) ويذكر ثانية سراة الحجر ، ثم نخيان واد مستقبل القبلة فيه التفاح واللوز والثمار ،(٣٤) ويذكر عدة أصناف من المحاصيل الزراعية التي اعتاد الفلاحون زراعتها ، في بلاد جنب ، وعنز ، وغامد ، وزهران ، وبجيلة ، وغيرها من المناطق الأخرى. وإن دلّ هذا على شيء ، فإنما يدل على صلاحية المنطقة للزراعة ، لما تحويه من وفرة المياه ، وخصب التربة ، لكن مع الأسف لا نجد ذكراً لأساليب الزراعة المستخدمة في المنطقة ، ولا كيفية بناء المدرجات الزراعية وحفر الآبار لاستخراج الماء من باطن الأرض ، رغم وجودها منذ زمن بعيد.(٣٥)

والملاحظ أن هذه المنطقة غنية بالأشجار والأعشاب البرية ، ومن هذه الأشجار : شجر الطرفاء ، والأثل، والسلم ، والقرظ ، والشبرم ، والشوحط ، والتالب ، والشث وغيرها.[٣٦]

أما الحرف والمهن اليدوية في بلاد السراة ، فلم تكن تهتم المصادر الإسلامية المبكرة بذكرها بشكل واضح ، وهذا لا يعني أنه لم يكن هناك العديد من الحرف التي يتم مزاولتها لدى أهل البلاد ، والسبب الذي يجعلنا نجزم بوجود بعض منها ، هو أن المقومات الأساسية لبعض الحرف كانت متوافرة ، وأشار الهمداني إلى بعضها ، فمثلاً حرفة الدباغة كانت تحتاج إلى مناخ معتدل ، وإلى جلود المواشي ، وكذلك إلى بعض أوراق الأشجار المهمة في عملية الدباغة ، وكل هذه الأشياء في متناول أيدي أهل السراة ،[٣٧] وقس على مهنة الدباغة مهناً أخرى ، كالخرازة ، والحدادة ، والخياطة ، والصياغة وغيرها من الحرف الكثيرة.[٣٨]

ولم يغفل الهمداني عن ذكر الجانب التجاري في بلاد السراة أثناء تجواله في ديارها من الجنوب إلى الشمال بسبب امتهانه مهنة الجمالة ، حيث كان هو وصحبه ومن شاركهم في هذه المهنة يحملون أمتعة المسافرين والتجار على جمالهم ، لكنه مع الأسف لم يذكر لنا تقاليدهم المتبعة في هذه المهنة ، من حيث الأجور، هل تحسب بحساب الزمن ونوع الأمتعة ، أم بالمسافة وكمية الأمتعة ، كما أنه لم يشر إلى أساليب التعاون وكيفية تطبيقها بين الجمالين . ولم يشر إلى كيفية التعامل والتبادل التجاري ، الذي كان معمولا به في المراكز التجارية ببلاد السراة ، ولا إلى الأعراف التجارية والعقود المبرمة بين أصحاب المهن والتجار ، في كل من حواضر اليمن والحجاز ، كالطائف ومكة المكرمة ، والمدينة المنورة ، وصنعاء، وصعدة ، وغيرها من الحواضر الأخرى ، حيث نشطت التجارة في هذه الحواضر - منذ أمد بعيد - حتى أصبح لها تراث تجاري زاخر في التقاليد والأعراف التجارية ، وهذا ما أشاد به الجغرافيون والرحالة المسلمون الأول ، وخاصة ممن كانت مؤلفاتهم في ذكر الأقاليم ، وما يوجد بها من خيرات ، وذكر المسافة فيما بينها.[٣٩] وخص أولئك الجغرافيون الطرق التجارية التي كانت تربط الحجاز باليمن مارة ببلاد السراة ، ابتداء من صنعاء وانتهاء بمكة المكرمة ، فذكروا الطريق الممتد من صنعاء مارا بصعدة، فجرش ، فبيشة حتى الطائف ثم مكة المكرمة ، والأكثر طرافة في الأمر أن الهمداني ذكر طول المسافة بين كل محطة وأخرى بالأميال ، وهذا يعكس لنا دقته في قياس طول الطريق أثناء ذهابه وإيابه منها.[٤٠] وذكر الطريق الساحلي الذي يربط الحجاز باليمن مارا بالسهول الواقعة على الساحل بمحاذاة البحر الأحمر ، ذاكرا المراكز والمحطات التي يمر بها بعد مروره من اليمن ، ومن تلك المراكز ، حلي ، وقنونا ، ودوقة ، والسرين والليث ، وغيرها حتى يصل مكة المكرمة. وهناك طريق تجاري آخر يصل حضرموت بمكة المكرمة ، ويلتقي مع طريق صنعاء - مكة المكرمة في محطة تبالة.[٤١]

رابعا : الحياة العلمية والفكرية

كان الجو العلمي والفكري في السراة مناسبا لنمو البذور العلمية بسبب وضع السراة المميز ما بين اليمن والحجاز ، فلا بد أن تنال قسطا من العلم سواء من علماء اليمن أو علماء الحجاز ، خاصة وأنها معبر لأهل اليمن أثناء توجههم لمكة والمدينة . والقارئ لكتب التراجم وغيرها من كتب الأولين ، ككتاب *الطبقات* لابن سعد ، *وأسد الغابة في معرفة الصحابة* لابن الأثير ، *والإصابة في تمييز الصحابة* ، *وتهذيب التهذيب* لابن حجر العسقلاني ، *والأغاني* لأبي الفرج الأصفهاني ، *ومعجم الأدباء* لياقوت الحموي ، *وسير أعلام النبلاء* للذهبي ، كل هذه الكتب وغيرها يجد فيها القارئ معلومات قيمة عن علماء وفقهاء ، وشعراء وأرباب سيف وغيرهم، عاشوا في حواضر هذين القطرين (اليمن والحجاز) ، وفي غيرهما من حواضر العالم الإسلامي، كالكوفة ، والبصرة ، ودمشق ، وبغداد ، وغيرها ، وبعضهم كانوا بالمولد من أهل السراة ، وهم حجازيون ، أو يمنيون ، أو كوفيون ، أو دمشقيون بالاستقرار . ولكن مع الأسف لم نجد لهذه المنطقة (السراة) ذكرا واسعا وصريحا في مثل هذا المجال . ولعل السبب في ذلك يعود إلى اهتمام المؤرخين والمؤلفين بشكل عام بالمراكز الحضارية الشهيرة في العالم الإسلامي، أكثر من اهتمامهم بالمناطق المغمورة ، والواقع أن منطقة السراة ظلت منسية ردحا من الزمن .

ونجد بعض المصادر الأولية تدون لنا معلومات يسيرة استفدنا منها بعض الشيء في معرفة أحوال بلاد السراة من جميع الجوانب ، لكن على الرغم من أهميتها ، فإنها لم تف بالمطلوب في معرفة الحياة العلمية وأساليب التعلم فيها ، وفي التعرف على الشعراء والأدباء والعلماء الذاهبين إلى بلاد الحجاز أو اليمن التي كانت أسعد حظا من منطقة دراستنا. وعليه سوف نستعرض بعض الشعراء من أبناء السراة خلال العصر الأموي :

١ - ابن الدمينة ، وهو عبد الله بن عبيد الله أحد بني عامر بن تيم الله .[٤٢] لم يعرف تاريخ ولادته ووفاته وإنما عاش ومات خلال النصف الأول من القرن الثاني الهجري متنقلا في أرض الجزيرة العربية من بلاد السراة إلى صنعاء والشام وبغداد ، ومن أسماء الأماكن في السروات والتي وردت في قصائده وتدل على انتمائه إليها قوله في بيشة (ممتدحا معن بن زائدة) :[٤٣]

لولا رجاؤك لم أسر من بيشة عرض العراق بفتية ورواحل[٤٤]

وذكر في أبيات أخرى أسماء المواقع في بلاد قحطان وشهران والحجر ، كما ذكر أبياتا كثيرة يفتخر بقومه خثعم ، فيقول :

وخثعم قومي ما من الناس معشر أعم ندى منهم وأنجى لخائف[٤٥]

٢ - أحمد بن يزيد بن عمرو القشيبي ،[٤٦] وهذا الشاعر ينتهي نسبه إلى حمير ، ثم يعرب بن قحطان ، وكان يسكن بصعدة مع صديقه الشاعر محمد بن أبان الخنفري ،[٤٧] في عهد الدولة الأموية ، وكان صديقا وحليفا وصهرا له ، فقد تزوج من أخته الفارعة ابنة أبان .

ولما نشبت الحرب بين الربيعة والسعديين قام القشيبي مع ابن أبان في هذه الحرب وأفرى في السعديين وذلك على حد المصاهرة والحميرية كما يقول الهمداني إذ لم يكن للشاعر شأن بهذه الحرب.

ولما اصطلح الحيان وعادت بعض بطون السعديين وأحس أنه قد أوجع القوم في حرب لم يكن طرفا فيها خاف على عقبه من بني سعد بن سعد فارتحل إلى نجد وحالف بعض القبائل اليمنية كزبيد ونهد وجنب حتى يعز بهم ويقوى ثم تقدم فنزل رياض تنادح (ببلاد شهران حاليا) في جمع من أهل بيته وخدمه وحشمه ومن رغب الظعن معه من قومه.(٤٨)

ولما طال المكث به وتمادى في المقام اجتمعت إليه قبائل عنز (عسير) وكلمته في النزول بأرضها وأحميتها فسألهم المهلة حتى يعود رواده الذين بعثهم إلى نواحي الطائف وأنه لمرتحل. ولكن عنز رأت ذلك مماطلة ومدافعة منه، وألحت عليه في طلب الارتحال، وكره سرعة الرحيل، وجرت بينه وبين القوم مشادة وملاحاة حتى فزع كل فريق إلى سلاحه، وبعث الشاعر الصريخ يستنجد بأحلافه زبيد وجنب ونهد وكان منهم حلال بالقرب منه فأنجدوه، واقتتل الفريقان قتالا شديدا انهزمت بعده عنز بعد أن قتل جمع من أشرافها ورؤسائها. وبعدها ارتفع الشاعر من رياض تنادح إلى قرية جرش حتى يكون قريبا من أحلافه واستوطنها ولكن الحرب لم تنته بل ظلت مشتعلة بين الحيين. وكانت له أشعار ومناقضات مع محمد بن أبان في تلك الحرب وكان يبعث بها إليه في صعدة.(٤٩)

ولم يحدد الهمداني الذي أورد أخباره مكان وفاته وزمانها، ولم تذكر المصادر الأخرى شيئا عنه. وستظل وفاته مجهولة لنا إلى أن تكشف كتب التراث هذا المجهول.

وشعر أحمد بن يزيد قوي الأسلوب فخم التعبير يمثل العصبية القبلية عامة والعصبية اليمينة خاصة. ولعلنا نلمس هذه الشدة في اللفظ والمعنى في قصيدته التي بعث بها إلى محمد بن أبان يصور فيها بلاءه وبلاء أحلافه حيث يقول:

لقد لفلفت عنز علينا وأجلبت	ودبت إلينا في كتائبها تسري
وساقت علينا من معد قبائلا	تبختر في الماذي في الحلق الخضر
فقالت معد ارحلوا من سيوفنا	وخلوا بلاد الأكرمين ذوي الفخر
فسارت إلينا من زبيد عصابة	وقالوا لنا بالجد منهم والنصر
وجاءت بنو نهد بن زيد بعارض	من المزن واني الرعد منبجس القطر
وأردف من يام وحي عِديسة	فوارس ليسوا الميل في ساعة الكر
وغورى جنب في عرين حبيضة	يرن عزيف الجن في شاهق وعر

ويمضي على هذا النحو إلى آخر القصيدة التي تبلغ أربعة وعشرين بيتا ينتقل من معنى إلى معنى في قوة الفارس، وصلابة المحارب.(٥٠)

٣ - جعفر بن علبة بن ربيعة الحارثي ، ينتهي نسبه إلى يعرب بن قحطان . ويكنى بأبي عارم وهو ابنه وفيه يقول عند مقتله :[٥١]

أوصيكم إن مت يوما بعارم ليغني شيئا أو يكون مكانيا

ولد هذا الشاعر ونشأ بنجران بلاد بني الحارث بن كعب ، وكان فارس قومه وشاعرهم ، كما كان أبوه شاعرا أيضا. وكغيره من شعراء عصره لم نجد تحديدا لميلاده أو أخبارا عن نشأته الأولى. وكل ما نعرفه من أخبار هذا الشاعر تلك الحادثة التي أودت بحياته ، ولكنها حفظت لنا بعض أخباره وهى حادثة قتله لأحد العقيليين ورفع أمره لوالي مكة ثم حبسه والقود منه بقتله. والتي اضطربت الروايات حولها واختلفت. ولعل أبا الفرج الأصفهاني خير من يعطينا صورة لهذا الاضطراب وذاك الاختلاف حيث يقول : " وكان جعفر قتل رجلا من بني عقيل: قيل: إنه قتله في شأن أمة كانا يزورانها فتغايرا عليها. وقيل : بل في غارة أغارها عليهم. وقيل : بل كان يحدث نساءهم فنهوه فلم ينته ، فرصدوه في طريقه إليهن فقاتلوه فقتل منهم رجلا فاستعدوا عليه السلطان فأقاد منه." [٥٢]

ومهما يكن من أمر هذا الاختلاف فإن الشاعر قد رفع من نجران وحبس بمكة[٥٣] في القرن الثاني للهجرة ، وتردد الوالي في قتله لخؤولة أبي جعفر المنصور في بني الحارث بن كعب ، ولكن العقيليين أقاموا القسامة عليه وهددوا الوالي إن لم ينصفهم ليقدمن على الخليفة المنصور ، ويجيب الوالي بعد هذا التردد فيقيد لهم منه بقتله.

وكما اختلفت الروايات في تحديد أسباب الحادثة التي أدت إلى مقتل الشاعر اختلفت في تحديد زمان ومكان القود منه ، فبينما نجد أبا الفرج الأصفهاني يذكر أن الحادثة كانت في عهد أبي جعفر المنصور وأن الوالي على مكة كان السري بن عبد الله الهاشمي وأنه نسخ ذلك من كتاب عمرو بن أبي عمرو الشيباني بأثره عن أبيه ،[٥٤] إذ به ينقل عن ابن الكلبي أن الحادثة كانت في عهد إبراهيم بن هشام المخزومي ، ومن ثم فإن الرواية تقرر أنه قتل في عهد هشام ابن عبد الملك بن مروان. وإذ به يعود وينسخ من كتاب للنضر بن حديد يقرر فيه أنه قتل في عهد المنصور وأن الوالي على مكة كان السري بن عبد الله الهاشمي. وبعد نقل صاحب *الأغاني* لهذه الروايات نجد التبريزي في شرحه على *حماسة أبي تمام* يقرر وبدون تردد أن القتل كان على عهد الوالي إبراهيم بن هشام المخزومي.[٥٥]

ويبقى بعد ذلك أن نقف عاجزين عن تحديد السنة التي قتل فيها الشاعر ، فلم يذكر أحد ممن ترجموا له تحديدا لهذه السنة ، وقد حزن عليه أبوه حزنا شديدا بل نجران كلها بكت مقتله.[٥٦]

وقد وصف أبو الفرج جعفر بن علبة بأنه شاعر مقل غزل فارس مذكور في قومه. وهذه الصفات في الواقع تنطبق على الشاعر فأما كونه غزلا فله أبيات في غاية الجودة وحادثة قتله ربما أفصحت عن هذه الصفة ؛ وأما كونه فارسا مذكورا في قومه فيظهر ذلك من خلال شعره وتبقى صفة القلة في شعره فهذا مالا نستطيع أن نثبته أو ننفيه ،

لا نستطيع أن ننفيه لأن ما بين أيدينا من شعره قليل ولا نستطيع أن نثبته لأن شعر أهل السراة وبلاد اليمن في هذه المدة قد أصيب بالإهمال وعدم التسجيل.

وعلى كل حال فإن شعر جعفر- كما يبدو لنا -ينقسم قسمين : قسم غزلي وآخر حماسي. وقد تميز شعر الغزل برقة الألفاظ وسهولتها كما تلمس فيه حرارة العاطفة . ولعل ما يمثل هذه السمات قوله :

أشارت لنا بالكف وهي حزينـــة تودعنا إذ لم يودع ســـلامها

وما أنس م الأشياء ما أنس قولها وقد زل عن غر الثنايا لثامها

أما من فراقي اليوم بد ولا النوى بمجتمع إلا لشحط لمامهـــا

أما شعر الحماسة ، فهو يمتاز بقوة الألفاظ ، وجزالة الأسلوب وجودة المعنى ، كما في قوله :

لا يكشف الغماء إلا ابن حرة يرى غمرات الموت ثم يزورها

نقاسمها أسيافنا شر قســـمة ففينا غواشيها وفيهم صدورها [٥٨]

٤ - العجير السلولي ، شاعر عاش في بلاد السراة خلال العصر الأموي ، وله قصة مع الخليفة هشام بن عبد الملك ، فتذكر المصادر الأولية أنه كان في بيشة مكان يسمى (المعمل) ، وهو عبارة عن قرية من أعمال مكة في أرض السراة لبني هاشم ، وكان أول أمر (المعمل) أنه كان بين سلول وخثعم ، فيحفر السلوليون به ويضعون فسيل النخل فيأتي الخثعميون وينتزعون الفسيل ويهدمون ما حفر السلوليون ، ثم يفعل الخثعميون مثلما يفعل السلوليون ، ولايزال بينهم قتال وحروب دائمة حتى صار يطلق على ذلك المكان اسم "مطلوب" وعندما رأى ذلك العجير شاعر بني سلول تخوف أن يقع بين الناس شر أخطر من ذلك فأخذ من هذا المكان طينا وماء عذبا وذهب به إلى الشام ليعرضه على الخليفة هشام بن عبد الملك ، ويخبره ما يدور في ذلك المكان من حروب ونزاعات ، وعندما قابل الخليفة وأخبره ، قال هشام بن عبد الملك : كم بين الشمس و هذا الماء ؟ فقال : أبعد ما يكون بعده. قال : ما بين الطين؟ قال : في الماء ، ثم أخبر العجير الخليفة بما في بيشة من أودية ومياه عذبة ، كما أخبره بجودة وخصوبة أرض بيشة ، فأرسل الخليفة إلى أمير مكة المكرمة وأمره أن يشتري مائتي زنجي ويجعل مع كل رجل امرأته ثم يحملهم حتى يضعهم بمطلوب في بيشة للزراعة به ، فلما رأى الناس ذلك قالوا إن مطلوبا معمل يعمل فيه فذهب اسمه المعمل إلى يومنا الحالي.[٥٨] وقال العجير السلولي :

لا نوم للعين إلا وهي ســـــاهرة حتى أصيب بغيظ أهل مطلـوب

إن تشتموني فقد بركت أيكتكـــم زرق الدجاج وتجفاف اليعاقيب

قد كنت أخبرتكم أن سوف يعمرها بنو أمية وعدا غير مكــــذوب

وبعد فقد ألقينا الضوء على بلاد السراة وتبعية المنطقة سياسيا وإداريا في العصر الأموي وإلى الناحية الاجتماعية مبينا مواطن القبائل ، ونظام الموائد ، وطرق الطهي ، وأسماء الأطعمة ، وأشار أيضا إلى المراكز

التجارية وأثرها في نمو المراكز الحضارية ، والازدهار الثقافي الناجم عن توسطها بين مركزين هامين : اليمن والحجاز .

وما أشرنا إليه في هذا البحث ، قد يفتح الآفاق لبعض الباحثين ، وبخاصة من أهل السراة أنفسهم ، لأنهم أدرى بمواطنهم من غيرهم فيضيفون بالتحليل أو النقد أو التصحيح لكل ما تم إيراده .

التعليقات

(١) السراة : لغة ، أعلى الشيء ، والسراة عند العرب تعني - أيضا - الجبال المتقاودة ، الآخذ بعضها برقاب بعض ليس بينها فاصل تام ، والسراة هنا : هي السلسلة الجبلية الواقعة غرب بلاد العرب ، والممتدة من اليمن جنوبا إلى الحجاز ثم الشام شمالا ، وتخترق هذه السلسلة أودية وشعاب كثيرة يشرق بعضها ، وبعضها يغرب ، وهي ليست في مستوى واحد من حيث الاستواء ، فمنها الشامخ في العلو ، ومنها المنخفض ومنها المتوسط في الارتفاع . وقد أطلق بعض الجغرافيين القدامى على هذه السلسلة اسم الحجاز ، لأنها حجزت بين الأغوار التهامية الممتدة بمحاذاة البحر الأحمر (غربا)، والهضاب الشرقية الممتدة صوب نجد شرقا . ويطلق على هذه السلسلة اسم (الطود) ونخص بهذه التسمية الجزء الجنوبي من جبال السراة ، الذي يبتدئ بالطائف شمالا وينتهي بنجران ثم صعدة وصنعاء جنوبا ، ويسمى الجزء الجنوبي الشرقي من هذه الجبال بـ (الجبل الأسود) ، ربما لأن صخوره بركانية سوداء ، كما يسمى بالسراة ، أو السروات ، وكل قسم فيه ينسب إلى القبيلة التي تسكنه ، وقد يدعى سراة دون (ال) التعريف.أما القسم الشمالي من السلسلة الممتدة من شمال مكة المكرمة إلى المدينة المنورة ، وما يأتي بعدها فيسمى بحجاز المدينة أو السراة. انظر : *الحسن بن أحمد الهمداني* ، الإكليل من أخبار اليمن وأنساب حمير ، تحقيق محب الدين الخطيب (بيروت : دار المناهل ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م)، ٢٥ وما بعدها ؛ ياقوت الحموي .*معجم البلدان* (بيروت : دار صادر ، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م)، ٢ : ٢١٨ ٢٢٠ ؛ ٣ : ٢١٧ ٢٢٠ ؛ جرجي زيدان ، *تاريخ آداب اللغة العربية* (القاهرة : دار الهلال ، د.ت.)، ٢ : ٢٠٩ ٢١٠ ؛ صالح أحمد العلي ، "تحديد الحجاز عند المتقدمين،" *مجلة العرب* ، ١ (١٣٨٨هـ/١٩٧٨م)، ١ ٩ ؛ عبد الله الوهيبي ، " الحجاز كما حدده الجغرافيين العرب ،" *مجلة كلية الآداب* ، الرياض (١٣٩٠هـ/١٩٧٠م)، ٥٣-٧٠ .

(٢) الهمداني ، *صفة جزيرة العرب* ، ٦٤ ؛ لمزيد من التفصيلات عن الهمداني ، انظر المقدمة التي كتبها حمد الجاسر في أوائل كتاب *صفة جزيرة العرب* ، وقاموس *الأعلام* لخير الدين الزركلي (بيروت، ١٩٨٠م)، ٢ : ١٧٩ .

(٣) انظر : تقي الدين محمد بن أحمد الفاسي ، *شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام* ، تحقيق لجنة من العلماء (بيروت : دار الكتب العلمية ، د.ت.)، ٢ : ١٦٦ ١٦٧ .

(٥) انظر : عماد الدين إسماعيل بن كثير، *البداية والنهاية* ، تحقيق محمد عبد العزيز النجار (القاهرة : مطبعة الفجالة ، د.ت.)، ٨: ٣٣٢ ٣٣٤ .

(٥) ابن كثير ، *البداية والنهاية* ، ٨ : ٣٥٧ ؛ ٩ : ٤٠٣ .

(٦) انظر: ابن زبارة ، *مختصر أنباء اليمن* ، ص ٤١ ؛ ابن حزم ، *الجمهرة* ، ٢٧٦ . مات محمد بن يوسف في عهد أخيه الحجاج ، وهو وال على العراق ، ويوم أن جاءه نعيه كان ابنه محمد بن الحجاج قد توفي منذ ساعة ، فاسترجع الحجاج وقال : أحمد ، ومحمد في يوم؟! وكان عبد الملك قد ولى على المدينة طارق بن عمرو مولى عثمان بن عفان عقب مقتل عبد الله بن الزبير عام ٧٣هـ ، ثم عزله عنها عام ٧٤هـ وأضافها للحجاج خلال وجوده بالحجاز فجعل نائبه فيها عبد الله بن قيس بن مخرمة . انظر : الطبري ، *تاريخ* ، ٦ : ١٩٣ ، ٢٠١.

(٧) لمزيد من المعلومات انظر : الطبري ، *تاريخ* ، ٦ : ٢٠٢ ، ابن حزم ، *الجمهرة* ، ٨٧ ؛ الفاسي ، *شفاء الغرام* ، ٢ : ١٧٠ .

(٨) الطبري ، *تاريخ* ، ٦ : ٤٩٨ ؛ ابن زبارة ، *مختصر* ، ٤١ .

(٩) الطبري ، *تاريخ* ، ٦ : ٤٢٦ ، ٤٦٤ ، ٤٨١ ؛ الفاسي ، *شفاء الغرام* ، ٢ : ١٧٢ .

(١٠) الطبري ، *تاريخ* ، ٦ : ٤٤٧ ٦٢٠ ؛ ٧ : ١٤ ، ٢٠ ، ٢٩ ، ٩١ ، ٢٢٦ ؛ الفاسي ، *شفاء الغرام* ، ٢ : ١٧٢ ١٧٤ ؛ ابن حزم ، *الجمهرة* ، ١٤٨ ، ٢٦٧ ، ٢٧٠ .

(١١) ابن حزم ، *الجمهرة* ، ٢٦٨ .

(١٢) الطبري ، *تاريخ* ، ٥ : ٢٩٦ .

(١٣) الطبري ، *تاريخ* ، ٦ : ٥٥٧ ، ٥٥٨ ؛ ابن كثير ، *البداية والنهاية* ، ٩ : ٢٠٧ .

(١٤) الطبري ، تاريخ ، ٦ : ٦٢٠ ؛ الفاسي ، *شفاء الغرام* ، ٢ : ١٧٤ .

(١٥) لمزيد من التوضيحات عن القبائل القحطانية (الأزدية) والعدنانية في بلاد تهامة والسراة ، انظر : هشام بن محمد الكلبي ، *جمهرة النسب الكبير* ، رواية السكري عن ابن حبيب ، تحقيق ناجي حسن (بيروت : عالم الكتب ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨١م) ؛ ابن حزم ، *الجمهرة* ، ١٨ وما بعدها ؛ عمر بن غرامة العمروي ، *قبائل إقليم عسير في الجاهلية والإسلام* (أبها : نادي أبها الأدبي ، ١٤١١هـ /١٩٩١م) ، ١ : ٥٧ وما بعدها .

(١٦) الهمداني ، *صفة جزيرة العرب* ، ١١٩ ١٢٠ .

(١٧) النشاط التجاري خلال العصور الوسطى كان جيداً ، وبخاصة في مكة المكرمة ، والمدينة المنورة بالحجاز ، وصنعاء وصعدة وغيرهما من مدن اليمن الكبرى ، إلى جانب وجود طرق تجارية ، برية وبحرية ، نشيطة تربط تلك الحواضر مع أجزاء عديدة في العالم الإسلامي آنذاك . ولمزيد من التفصيل انظر في المصادر والمراجع التالية ذكرها . شمس الدين محمد بن أحمد المقدسي ، *كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم* ، تحقيق أم دى غوي (ليدن : بريل ، ١٨٧٦م) ، ٧٩ ، ٩٧ ؛ محمد بن أحمد بن جبير ، *رحلة ابن جبير* (بيروت : د.ت.) ، ٩٦ وما بعدها ؛ ناصر الدين خسرو القبادياني المروزي ، *رحلة ناصر خسرو* ، ترجمة وتقديم أحمد خالد البدلي . (الرياض : عمادة شؤون المكتبات جامعة الملك سعود ، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م) ، ١٢١ وما بعدها ؛ غيثان علي جريس "الطرق التجارية البرية والبحرية المؤدية إلى الحجاز خلال القرون الإسلامية المبكرة ،" *مجلة العرب* ، ٢٦ ، ع ع٧ ، ٨ (١٤١٢هـ) ، ٤٤٧ ٤٦١ .

(١٨) الهمداني ، *صفة جزيرة العرب* ، ص ٢٥٥ ٢٥٦ .

(١٩) كان العرب في صدر الإسلام ولا سيما في العهد الأموي يسمون غير العرب من المسلمين بالموالي. وكان المسلمون في البلاد العربية ، كالعراق ، والشام ، والحجاز ، وغيرها ، قد ألفوا عادة الانتماء بالولاء إلى من يريدون من الشخصيات العربية المرموقة والانتساب إلى قبائلها اسمياً ، وإن لم يكونوا منها فيكتسبون بذلك بعض حقوق القرابة بالنسب ، كالمساعدة ، والحماية ، والتأييد . ومن الموالي أيضاً من كان في منزلة الرق ثم أعتقوا من قبل ساداتهم صاروا في مكانة أخرى بين الرق والحرية هي منزلة الولاء أو الموالي . لمزيد من التفصيل عن الولاء انظر . محمد بن منظور ، *لسان العرب* ، نسقه وعلق عليه علي شيري (بيروت : دار إحياء التراث العربي ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م) ، ١٥ : ٤٠١ ٤٠٦ .

(٢٠) عبد الرحمن محمد بن خلدون ، *تاريخ ابن خلدون* (بيروت : دار العلم للجميع ، د.ت.) ، ١ : ٣١٨ وما بعدها .

(٢١) انظر لتفصيلات أكثر : الهمداني ، *صفة جزيرة العرب* ، ٣٤٤ وما بعدها ؛ ولمزيد من التوضيحات عن الحياة الاجتماعية في حواضر اليمن ، وبخاصة في صنعاء وما حولها ، انظر : المقدسي ، *أحسن التقاسيم* ، ٨٤ وما بعدها ؛ أحمد بن عمر بن رسته ، *كتاب الأعلاق النفسية* ، تحقيق ، ام . دي غوي (ليدان : بريل ، ١٨٩١م) ، ١٠٩ ١١٥ ؛ كما انظر : غيثان بن علي بن جريس ، *عسير دراسة تاريخية في الحياة الاجتماعية والاقتصادية* (١١١٠ ١٤٠٠هـ / ١٦٨٨ ١٩٨٠م) (جدة : دار البلاد ، ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م) ، ٣٣ وما بعدها .

(٢٢) الهمداني ، *صفة جزيرة العرب* ، ٢٥٧ .

(٢٣) الهمداني ، *صفة جزيرة العرب* ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ .

(٢٤) الهمداني ، *صفة جزيرة العرب* ، ٢٦١ .

(٢٥) لمزيد من المعلومات عن الحياة التجارية في اليمن والحجاز وعلاقة تلك الأجزاء ببلاد السراة ، انظر. ابن جبير ، *الرحلة* ، ١٠٠ وما بعدها ؛ ابن جريس "الطرق التجارية ، " ٤٤٧ وما بعدها ؛ أحمد عمر الزيلعي ؛ *مكة وعلاقاتها الخارجية ٣٠١ ٤٨٧هـ* (الرياض : عمادة شؤون المكتبات بجامعة الرياض ، ١٩٨١م) ، ١٥٥ وما بعدها .

(٢٦) الهمداني ، *صفة جزيرة العرب* ، ٣٤٠ ، ٣٥٦ .

(٢٧) الهمداني ، *صفة جزيرة العرب* ، ٣٤٠ .

(٢٨) الهمداني ، *صفة جزيرة العرب* ، ٣٥٦ ، والمهاغد ، هو الخبز الممهود . والكشك يتخذ من نقع البرغل بعد اختماره فيفت ويطبخ ، الهمداني ، *صفة جزيرة العرب* ، ٣٥٦ ، ملاحظة (٢) .

(٢٩) الهمداني ، *صفة جزيرة العرب* ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠.

(٣٠) الهمداني ، *صفة جزيرة العرب* ، ٣٦٥ . وقد أخبرني بعض المختصين في تاريخ المغرب والأندلس ، فذكر أن مثل هذه العادة كانت ولازالت عند بعض المغاربة ، وبخاصة في المغرب الأقصى .

(٣١) الهمداني ، *صفة جزيرة العرب* ، ٢٦٢ .

(٣٢) الهمداني ، *صفة جزيرة العرب* ، ٢٦٢ ، ٣٠٢ .

(٣٣) الهمداني ، *صفة جزيرة العرب* ، ٢٦٢ .

(٣٤) الهمداني ، *صفة جزيرة العرب* ، ٢٦١ .

(٣٥) من يلاحظ الآبار والمدرجات الزراعية ببلاد السراة ، في يومنا هذا يلاحظ الجهد الكبير الذي بذل في بناء مدرجات عالية الارتفاع ، لكي تحافظ على تربة المزرعة ، وكذلك آبار بعيدة العمق ، والتي بعضها حفرت في صخور صماء ، وبأدوات يدوية قديمة . حبذا لو خرج أحد أبناء السراة بدراسة علمية جادة تتبع فيها متى وكيف عملت تلك المدرجات الزراعية ، التي نلاحظها في طول وعرض البلاد ، وكذلك تلك الآبار الكثيرة والتي يظهر على بعضها قدم العهد .

(٣٦) الهمذاني، *صفة جزيرة العرب* ، ٢٢٦ ، ٣٠١ . ولم يكن رحالة اليمن الهمداني هو الوحيد الذي انفرد بذكر ما في السراة من أشجار برية متنوعة ، بل سبقه في ذلك أبو حنيفة الدينوري ، ومن يطالع كتابه (*النبات*) يجد أنه لا يكتفي بذكر أسماء الأشجار ، بل يشير إلى وصفها من حيث شكلها ، والمناطق الملائمة لها ، وأين تكثر وأين تقل ، والأغراض المستخدمة من أجلها ، سواء كان في التجارة أو الدباغة ، أو الصياغة أو غيرها. ويعتبر الدينوري من أفضل من كتب عن النباتات وبخاصة في بلاد السراة من بلاد الجزيرة العربية ، ومن كتبه التي وصلتنا عن النباتات ما يلي : *كتاب النبات* ، الجزءان الأول والثاني ، تحقيق محمد حميد الله (القاهرة: المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، ١٩٧٣م) ، والجزء الثالث ، والنصف الأول من الجزء الخامس ، شرح وتحقيق المستشرق برنهارد لفين ، بألمانيا عام ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م . وقد جاء بعد الدينوري والهمداني بعض الجغرافيين واللغويين فذكروا أسماء عديدة للأشجار والنباتات الموجودة ببلاد السراة ، ومن أولئك العلماء على سبيل المثال لا الحصر ، عرام بن الأصبغ السلمي ، في كتابه *أسماء جبال تهامة وسكانها وما فيها من القرى وما ينبت عليها من الأشجار وما فيها من المياه* ، والبكري في كتابه *معجم ما استعجم* ، وياقوت الحموي في كتابه *معجم البلدان* ، وفي بعض المعاجم اللغوية ، *كالقاموس المحيط للفيروزآبادي* ، *ولسان العرب* لابن منظور ، *وتاج العروس* للزبيدي .

(٣٧) لمزيد من التفصيلات عن مهنة الدباغة ، كيفيتها ، وأساليب مزاولتها ، والمواد الأساسية في ممارستها ، انظر: "باب الدباغ" المذكور في *كتاب النبات* للدينوري ، تحقيق المستشرق برنهاردلفين ، ١٠٤ ١٢١ ؛ أيضا انظر : *كتاب المخصص* لابن سيدة (القاهرة: مطبعة بولاق، ١٣١٦هـ /١٨٩٨م) ، ٤ : ١٠٤ ١١٦ .

(٣٨) ولمعرفة بعض التوضيحات عن المهن والحرف بشكل عام خلال القرون الإسلامية الأولى ، وبخاصة في المناطق المجاورة لبلاد السراة كحواضر الحجاز واليمن ، انظر : عبد العزيز إبراهيم العمري ، *الحرف والصناعات في الحجاز في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم* (الدوحة : مركز التراث الشعبي ، ١٩٨٥م) ، ٤٧ وما بعدها ، عبد الله محمد السيف ، *الحياة الاقتصادية والاجتماعية في نجد والحجاز في العصر الأموي* (بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م)، ١٥١ ١٦٨ ؛ جميل حرب محمود ، *الحجاز واليمن في العصر الأيوبي* (جدة : دار تهامة للنشر، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م) ، ١٢٦ ١٢٨ ، ١٤٨ ١٥٠ ؛ غيثان بن علي بن جريس ، "أهم الحرف والصناعات في الحجاز خلال القرون الإسلامية المبكرة، " *مجلة المنهل* ، ٥٣ ، ع٤٩٢(١٤١٢هـ) ، ٨٢ ٩٦ .

(٣٩) لمزيد من التفصيل عن النشاط التجاري في حواضر اليمن والحجاز خلال العصر الإسلامي الوسيط. انظر، المقدسي، *أحسن التقاسيم*، ٨٤ وما بعدها ؛ ابن جبير ، *الرحلة* ، ٩٦ وما بعدها ؛ الزيلعي ؛ *مكة وعلاقاتها الخارجية* ، ١٥٥ وما بعدها ؛ حرب ، *الحجاز واليمن* ١١٧ ١٥٩ . Patricia Crone, *Meccan Trade and the Rise of Islam* (Oxford : Basil Blackwell, 1987); Abdullah Alwi Hassan , "The Arabian Commercial Background, " *Islamic Culture* , 46, No. 2 (April 1987), 70-83.

(٤٠) حول شرح الهمداني لأطوال تلك الطريق التي تربط بين صنعاء والطائف مرورا بالسراة ، انظر : *صفة جزيرة العرب* ، ٣٣٨ ٣٤٠ . لم يكن الهمداني هو الوحيد الذي ذكر تلك الطريق ، وإنما البعض من الجغرافيين الأوائل أشاروا إليها أيضا مثل : اليعقوبي ، البلدان، ٣١٤ وما بعدها ؛ عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبه ، *المسالك والممالك* ، تحقيق أم. دي غوي (ليدن : بريل ، ١٣٠٦هـ/١٨٨٩م) ، ١٣٣ وما بعدها. وضمن هذا الكتاب ، *كتاب الخراج وصنعة الكتابة* لأبي الفرج قدامة بن جعفر ، الذي أشار أيضا إلى ما أشار إليه اليعقوبي وابن خرداذبة ، ١٩١ وما بعدها، انظر أيضا : الإمام أبو إسحاق الحربي ، *كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة* ، تحقيق حمد الجاسر (الرياض : منشورات دار اليمامة، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م) ، ٦٤٣ ٦٤٩ .

(٤١) الهمداني ، *صفة جزيرة العرب* ، ٣٤١ ٣٤٣ .

(٤٢) لمزيد من التفصيلات انظر : *ديوان ابن الدمينة* ، جمع وتحقيق أحمد راتب النفاخ ، تقديم ومراجعة محمود محمد شاكر (القاهرة : دار العروبة ، ١٣٧٨هـ) ، ١٤ وما بعدها . أيضا انظر : عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، *الشعر والشعراء* (بيروت : دار إحياء العلوم ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م) ، ٤٩٢ ٤٩٣ ؛ لمزيد أيضا انظر : " أخبار ابن الدمينة ونسبه ، " *كتاب الأغاني* لأبي الفرج الأصفهاني، ط٢ (بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م) ، ١٧ : ٩٨ ١١٢ .

(٤٣) معن بن زائدة الشيباني من رجال الدولتين الأموية والعباسية ومن أجود العرب ، ومن القادة المذكورين بالبأس والنجدة ، وكان فارسا شجاعا ؛ انظر : *الطبري* ، *تاريخ* ، ٧ : ٥٠٥ ٥٠٨ .

(٤٤) *ديوان ابن الدمينة* ، ٣٥ .

(٤٥) *ديوان ابن الدمينة* ، ٣٧ ، وله أشعار عديدة في كتاب *الشعر والشعراء* لإبن قتيبة ، ٤٩٢ وما بعدها ؛ وكذلك في *كتاب الأغاني*، ١٧ : ٩٨ وما بعدها .

(٤٦) لمزيد عن أخبار هذا الشاعر انظر : الحسن بن أحمد الهمداني ، *الإكليل* (القاهرة : مطبعة السنة المحمدية ، ١٩٦٦م) ، ٢ :١٢٨ ، ١٦٣ ١٦٦ ؛ أحمد بن محمد الشامي . *قصة الأدب في اليمن* (بيروت : منشورات المكتب التجاري للطباعة ، ١٩٦٥م) ، ٢٥٧ ٢٦٣ .

(٤٧) ولد الشاعر محمد بن أبان الخنفري بصعدة في خلافة الخليفة معاوية بن أبي سفيان (رضي الله عنه) سنة خمسين للهجرة ، ونشأ بها ، يعود نسبه إلى يعرب بن قحطان . لمزيد انظر : الشامي، *قصة الأدب في اليمن* ، ٢٥٧ وما بعدها .

(٤٨) انظر : الهمداني ، *الإكليل* ، ٢ : ١٢٨ ، ١٦٣ وما بعدها ؛ الشامي ، *قصة الأدب* ، ٢٥٨ وما بعدها .

(٤٩) انظر : الهمداني ، *الإكليل* ، ٢ : ١٢٨ ، ١٦٣ وما بعدها ؛ الشامي ، *قصة الأدب* ، ٢٥٨ وما بعدها .

(٥٠) الهمداني ، *الإكليل* ، ٢ : ١٦٥ وما بعدها ؛ الشامي ، *قصة الأدب* ، ٢٦١ وما بعدها .

(٥١) لمزيد من التفصيلات عن هذا الشاعر انظر : أبو الفرج الإصفهاني ، *كتاب الأغاني* (بيروت : مؤسسة جمال للطباعة ، عن طبعه دار الكتب المصرية ، د.ت.) ، ١٣ : ٤٥ ؛ " جعفر بن علبة الحارثي : حياته وما تبقى من شعره ، " جمع وتحقيق ودراسة شوادفي أحمد علام ، *مجلة كلية اللغة العربية بالمنصورة (جامعة الأزهر)* (١٤١٣هـ / ١٩٩٣م) ، ٣٤١ ٤٢٩ .

(٥٢) الإصفهاني ، *الأغاني* ، ١٣ : ٤٩ وما بعدها ؛ علام " جعفر بن علبة الحارثي ، " ٣٤٦ وما بعدها .

(٥٣) الإصفهاني ، *الأغاني* ، ١٣ : ٤٩ وما بعدها ؛ علام " جعفر بن علبة الحارثي ، " ٣٤٦ وما بعدها .

(٥٤) الإصفهاني ، *الأغاني* ، ١٣ : ٤٩ وما بعدها ؛ علام " جعفر بن علبة الحارثي ، " ٣٤٦ وما بعدها . وانظر : *كتاب أسماء المغتالين من الأشراف في الجاهلية والإسلام* ، لمحمد بن حبيب ، ضمن *نوادر المخطوطات* لعبد السلام هارون (القاهرة : لجنة التأليف والترجمة ١٣٧٣هـ / ١٩٥٤م) ، ٢ : ٢٠٧ .

(٥٥) انظر : *شرح ديوان الحماسة* للخطيب التبريزي (بيروت : عالم الكتب ، د.ت.) ، ١ : ٤٦ ؛ كما انظر : علام ، " جعفر بن علبة الحارثي " ، ٣٥٢ وما بعدها .

(٥٦) الأصفهاني ، *الأغاني* ، ١٣ : ٤٦ ؛ علام ، " جعفر بن علبة الحارثي ، " ٣٥٥ ٣٥٦ .

(٥٧) علام ، " جعفر بن علبة الحارثي ، " ٤١٨ .

(٥٨) لمزيد من التفصيلات عن الشاعر العجير السلولي ، انظر : محمد بن سلام الجمحي ، *طبقات فحول الشعراء* ، قراءة وشرح محمود محمد شاكر (القاهرة : مطبعة المدني ، د.ت.) ، ٢ : ٥٨٣ ، ٥٩٣ ، ٦١٥ ، ٦٢٥ . وهناك روايات تقول : إن العجير السلولي عاش في عصر الخليفة عبد الملك بن مروان والوليد عبد الملك لمزيد من التفصيلات عن أخبار هذا الشاعر ونسبه ، انظر : الأصفهاني ، *كتاب الأغاني* ، ١٣ : ٦٤ ٨٤ .

(٥٩) الأصفهاني ، *كتاب الأغاني* ، ١٣ : ٧٤ وما بعدها .

سكان اليمامة في العصر الأموي

عبد الله بن إبراهيم العسكر

قسم التاريخ، كلية الآداب جامعة الملك سعود

أولاً: تمهيـــــــد

يواجه الباحث في النواحي السكانية في العصر الإسلامي المُبَكر عدة عقبات ؛ يأتي على رأسها قلة المعلومات، وفي أحيان كثيرة ندرتها أو تناقضها ، ذلك أن علماء المسلمين الأوائل لم يعتنوا بهذه الناحية العناية التي تستحقها ، وهذا ليس عيباً فيهم ، لأن العلوم الحديثة ، ومنها علم السكان ، لم يكن من العلوم المطروقة آنذاك . وأمر آخر هو أن أغلب المعلومات السكانية إنما هي مُستقاة من كُتب الأنساب والُشَجَرات ، وهذه المصادر كتب أصلاً لغرض يختلف عن ما نحن بصدده ، كما أن ظروف كتابتها قد تجعل الاستفادة منها تحتاج لعناية فائقة .

تشكل هذه الدراسة محاولة لمعرفة الوضع السكاني في اليمامة في العصر الأموي (٤١-١٣٢هـ / ٦٦٠-٧٤٩م) ولكن لماذا العصر الأموي على وجه التحديد؟ إنه سؤال جدير بالإجابة . فالباحث يعتقد أن الخريطة السكانية في اليمامة – من حيث عدد السكان وفئاتهم – قد شهدت تغيُّراً ملحوظاً. صحيح أن التغيُّر بدأ بعد حروب الردة في العصر الراشدي ، ولكنه استمر وظهرت نتائجه في العصر الأموي. هذا سبب أول. أما السبب الثاني فهو أعظم صرامة من الأول، إذ بدأ في هذا العصر تحول السكان التدريجي من الحضارة والتوطن إلى البداوة ، واستمر هذا الوضع مع قدوم العباسيين ، حتى سيطر البدو على مستوطنات اليمامة الحضرية ، وأصبحت الحاضرة تستعين بالتحالفات القبلية بدلاً من الروابط المدنية أو المهنية .

إن تناقض السكان وقدوم فئات جديدة ، خاصة من الرقيق والموالي والأجانب ، واستقرارهم في اليمامة ، وما صاحبه من هجرة اليماميين إلى الأمصار الإسلامية ، جعل سكان اليمامة الباقين لا تربطهم لُحمة مدنية أو حضرية ، وأصبحوا مشتتي التبعية ، ودُفنت مشاعرهم الإقليمية ، فلم يستطيعوا الصمود طويلاً أمام ضغط الهجرات البدوية التي اجتاحت اليمامة وصبغت تاريخها لقرون عديدة تالية ، واستمر هذا الوضع حتى القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي . إذن فدراسة الوضع الديموغرافي في اليمامة في العصر الأموي مهم جداً لتلمس الأسباب للوضع الجديد ، ولمتابعة التغييرات الجديدة ، ولمعرفة ما آلت إلية اليمامة وسكانها ، وهو الآخر

بدوره مهم لمعرفة الخليفة التاريخية لمنطقة نجد كلها في القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي ، وهو قرن الانتعاش الثاني لمنطقة اليمامة على يد المحمدين : محمد بن سعود ومحمد بن عبد الوهاب.

ثانياً : الجغرافية التاريخية لليمامة

ليس من وكدي التوسع في هذا الميدان ، ولكن لارتباط مواقع البلدان والقرى في اليمامة بموضوع السكان، جاءت أهمية هذا الحديث عن موقع اليمامة ومستوطناتها ، وتحديدها في صدر الإسلام . وبداية ينبغي مراعاة الفرق بين تحديد اليمامة من الناحية الجغرافية وتحديدها من الناحية الإدارية ، وهو فرق لعب دوراً كبيراً في الجغرافيا السياسية لليمامة ، وبحثنا هذا سيقتصر على حدود اليمامة الجغرافية المعروفة لدى أكثر البلدانيين في صدر الإسلام.

فأما من الناحية الجغرافية : فاليمامة تقع في وسط الجزيرة العربية ، وكانت تُعرف بجَو أو بجَو الخضَارم أو بالعَروض أو بالقَرْيَة ، ويظهر أن الاسم الأول كان هو المعروف في الأزمنة القديمة مثل زمن حسّان بن تُبع الحاكم اليمني الذي غزا اليمامة في حدود القرن الخامس الميلادي . أما بقية الأسماء فقد اشتهرت قبيل الإسلام وبعده ، وخاصة العَروض الذي استعمل على نطاق واسع منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب . ولرسم حدود إقليمية لليمامة لا بد أن نعتمد على الروايات الواردة عند مؤلفي كُتب البلدانيات . ومع هذا يُصادف الباحث عقبتين : إحداهما أن عدداً كبيراً من مسميات البلدان والمواقع الواردة في المعاجم الجغرافية والمصادر اللغوية والأدبية إما أنها قد اندَرَست أو تغيّرت مسمياتها . والعقبة الثانية هي كثرة تناقض البلدانيين القُدامى بل واختلافهم حول حدود اليمامة الإقليمية . وحيث إن طبيعة هذا البحث لا تتعلق بالجغرافية التاريخية لليمامة ، فلن يقوم الباحث بتحقيق أسماء المواقع وأماكنها ، ولن يعير التسلسل المكاني للمستوطنات أهمية كبيرة ، إلا في حدود ما يخدم توجهات البحث وارتباطه بالجغرافية التاريخية .

يقول ابن رُستة والمقدسي وابن حوقل إن حدود اليمامة الشرقية تصل إلى البحرين ، والغربية تصل إلى مكة ، أما الشمالية فتصل إلى البصرة ، وتصل إلى اليمن من ناحية الجنوب.[١] أما القزويني ، فيجعل اليمامة بين الحجاز واليمن ؛[٢] وأما أبو الفدا فيتوسع ويجعل المرتفعات الجبلية في شرق الحجاز من أراضي اليمامة ،[٣] يُقابله ابن خلدون الذي يذهب إلى أن اليمامة بين البحرين ومنازل بني تميم (تقطن تميم في منطقة نجد الواقعة إلى الشمال من اليمامة) ،[٤] ومثله البيهقي والحربي والبكري الذين حددوا اليمامة بما يلي : من الشرق البحرين ، ومن الغرب الحجاز واليمن ، ومن الجنوب نجران ، ومن الشمال نجد.[٥]

ولكن حدود اليمامة المشهورة كما يلي : من الشمال الزلفة (الزلفي) آخر بلدة في شمال إقليم الفقي (سدير)[٦] ومن الجنوب نهاية إقليم الفلج بالقرب من رمل المندفن (الربع الخالي) ،[٧] ومن الشرق روضة العَرَمَة بالقرب من الدهناء ،[٨] ومن الغرب نهاية معدن الأحسن في إقليم العِرض.[٩]

وهذا التحديد الإقليمي الدقيق لليمامة هو ما ستأخذ به هذه الدراسة ، نظراً لأنه يتفق مع مُجمل أقوال البلدانيين العرب القدماء ، وثانياً لأنة يتسق مع كون اليمامة إقليماً جغرافياً يُميزه عن غيره من أقاليم الجزيرة العربية التشابه البيئي والسكاني والشعور الإقليمي بين أفراده ، ثم صلات القُربى واللحمة القبلية ، وهو أيضا ما يراه البلدانيون المعاصرون ، إذ يحددون اليمامة بما يلي : من الشمال رمال الثُّوَيْرات (شمال الزلفي) ، ومن الجنوب الربع الخالي ، ومن الشرق الدهناء ، ومن الغرب هضبة نجد (الدرع العربي).[١٠]

أما من ناحية الحدود الإدارية فالروايات المتوافرة تجعل اليمامة تشمل نجدا والبحرين ، أو تجعلها من أعمال البصرة أو جزءا من الحجاز. وهذا واضح عند القزويني وأبى الفدا والقلقشندي وغيرهم . ويظهر أن حدود اليمامة الإدارية كانت عرضه لتغييرات كبيرة ، وهذا راجع للأوضاع السياسية والإدارية التي مرت بهما اليمامة في العصرين الراشدي والأموي ، ذلك أن الحدود الإدارية لا تراعي الحدود الجغرافية أو الوضع السكاني أو البيئي[١١] ، هذا علاوة على أن المجتمع العربي في صدر الإسلام وما قبله لم يكن يهتم بالحدود الإقليمية الجغرافية ، ذلك أن منازل القبائل العربية ومواردها ومياهها تتسع أو تضيق حسب الظروف السياسية والمناخية والمادية ، ولقد لاحظ هذا الأمر المستشرق الألماني/ الأمريكي فان جرونبام Von Grunebaum وأسس نظرية بهذا الشأن لا زالت تلقى القبول[١٢] .

وخلاصة القول أن اليمامة تلازم من الناحية الجغرافية سلسة جبال العرض (طويق حاليا) وهي سلسلة تمتد من الشمال إلى الجنوب ، وتنتشر البلدان والقرى والمستوطنات على جانبي السلسة من الشرق والغرب . وطبوغرافية السلسلة أثرت على مجرى الأودية التي تتجه من الغرب إلى الشرق ، كما أثرت بالتالي على تكوين المستوطنات التي تكثر في شرق السلسلة عنها في غربها . ومرة أخرى ، يبدو أن إقليم اليمامة في صدر الإسلام من الناحية الجغرافية هو ما نعرفه حاليا بمنطقة الرياض الإدارية ، وهو ما سنعتمده في دارستنا الراهنة .

ثالثا: أقاليم اليمامة في صدر الإسلام

يتعامل الباحث مع عدة مشكلات عند محاولة تعيين مستوطنات اليمامة ومسمياتها ، ذلك أن بعض المستوطنات قد أزيلت تماما نتيجة حروب الردة أو الحروب والفتن التي شهدتها اليمامة في العصر الأموي ، كما أن بعض المستوطنات أخذت أسماء جديدة نسبة لملاكها الجدد ، وعلى هذا فإن خريطة جغرافية المدن في اليمامة في العصور الإسلامية المبكرة اعتراها التغيير ، وصاحب هـا التغيير تغيير في الخريطة السكانية . ولكن الوضع الطبوغرافي لم يتغير ، ولذا فإن الباحث يمكنه أن يقترح ثمانية تقسيمات إقليمية تندرج تحتها الجغرافية الإقليمية لليمامة منذ عصر ما قبل الإسلام . وهذه التقسيمات القترحة تتسق أيما اتساق مع الوضع الجغرافي والإقليمي ، بل والسكاني ، الذي ألمحنا إليه في الصفحات السابقة ، وهو أيضا تقسيم ثبت أنه صالح ومناسب لأقاليم اليمامة ، مما

جعله يعيش حتى يومنا هذا ، فأصبحت تلك الأقاليم هي نفسها أقسام اليمامة الإدارية الحالية (محافظات منطقة الرياض) وهذه هي الأقسام الثمانية التي تندرج تحتها أقاليم اليمامة في صدر الإسلام حسب مسمياتها من الشمال للجنوب :

١- إقليم الفقي : يقع في شمال اليمامة ، شرق سلسلة جبال العِرْض ، يجري في هذا الإقليم عدة أودية ، أهمها وادي الفقي الذي تصّطف على جوانبه أغلب المستوطنات يحد الإقليم من الغرب سلسلة جبال العِرْض ، ومن الشرق سلسلة مرتفعات المجازة ، ومن الجنوب وادي العتك ، ومن الشمال رمال الثويرات التي تنتهي إليها مياه وادي الفقي . ويشتهر هذا الإقليم بالزراعة ، وأهم مستوطناته : جَمَّاز ، الحَائِط (حائط بني غبر) ، الزلفي ، جلاجل ، الروضة البرقا ، توم ، أشي ، الخيس ، الغاط . ويسكنه غالباً بنو العنبر ، همام ، بنو ثعلبة ، بنو سحيم ، وقد نزله بنو تميم بعد حروب الردة ، واسمه الحالي : سُدَيْر.[١٣]

٢- إقليم قُرّان : يقع في شمال اليمامة جنوب وادي الفَقِي ، تجري خلاله عدة أودية ، أهمها وادي قُرّان الذي يجري باتجاه الشرق ويصب في العتك . يشتهر هذا الإقليم بالزراعة والتجارة ، ويتميز بعلاقة قوية بين سكان مستوطناته وبين سكان البادية المجاورين . أهم مستوطناته : قُرّان ويقطنه في الغالب بطون من بني حنيفة ، مثل : بني سُحيم بن مرة بن الدول ، ومنهم هَوْذَة بن علي وكان يقيم في إقليم الخضرمة ، ومنهم شَمِرُ بن عمرو ، الذي قتل ملك الحيرة : المنذر بن ماء السماء في معركة أُباغ ، ومنهم نجدة بن عويمر وأبو طالوت من زعماء خوارج اليمامة ، ومنهم صهبان بن عمرو سيد أهل قُرّان ، وبنو سحيم ، وبنو يشكُر . واسم الإقليم الحالي : ملهم أو حريملاء.[١٤]

٣- إقليم العِرض : يقع جنوب إقليم قُرّان ، ويحيط به ثلاثة أودية كبيرة هي : وادي نساح ، ووادي العتك ، ووادي السهباء. والعِرض مُسمى يُطلق على السلسلة الجبلية التي تُشكل طبوغرافية اليمامة ، بل إن هذه السلسلة هي العمود الفقري لأغلب أقاليم اليمامة ومستوطناتها ، ويُعرف الآن باسم (طويق). وهذا الإقليم يحتل الجزء الأكبر من وسط السلسلة الجبلية . يجري وادي العِرض ، أهم أودية هذا الإقليم واسمه الحالي وادي حنيفة ، من الشمال إلى الجنوب عكس أغلب أودية اليمامة التي تجري من الغرب إلى الشرق ، وطول الوادي حوالي مئة ميل ، وعرضه حوالي عشرون ميلا ، وينتهي هذا الوادي في إقليم الخضرمة . تتوزع على جانبي هذا الوادي أشهر المستوطنات التي عُرفت في تاريخ اليمامة قبل الإسلام وبعده . من مثل : الأحيسي ، والعيينة وهي لبني عامر ، والهدَّار لبني ذهل بن الدول ، وعقربُاء لبني عدي التي قُتل فيها مُسيلمة الكذاب ، والجعاد ، وأُبـاض ، والنقب ، وفيشان ، وحزنة ، وحجر إحدى عواصم اليمامة ، ومنفوحة ، والعمارية ، وهزّان وجعد ، والمصانع ، ووبر ، وعُقه ، وغبراء ، وسدوس.[١٥]

٤- إقليم قَرْقَرَى : يقع إلى الغرب من جبال العرض (طويق) يحده من الغرب رمل قنيفذة ، والوشم من

الشمال ، ووادي نساح من الجنوب ، ويخترق هذا الإقليم أودية صغيرة أهمها وادي قرقرى . ويبدو أن هذا الإقليم من أقاليم اليمامة التي أستزرعت في وقت متأخر مقارنة بأقاليم اليمامة الأخرى ، ولهذا فلا يُستبعد أن سكان هذا الأقليم لم يتحضروا إلا في وقت متأخر أيضا ، ربما في العصر الأموي . يُسيطر هذا الإقليم على خط التجارة الرئيس بين اليمامة والحجاز وبين اليمامة والبصرة ، لأن الخط يمر في أراضي الأقاليم. ومن أشهر المستوطنات في هذا الإقليم: الهزيمة ، وفيها أناس من بي قريش وبي قيس بن ثعلبة ، وقوما (ضَرَمَا) ، والمزاحمية ، والجواء ، والأطواء ، وتُوضِحْ، والبَرّة . ومن أعلامها الشاعر يحي بن طالب الحنفي من بي ذُهل بن الدول بن حنيفة ، واسم الإقليم حالياً هو البطين.[١٦]

٥- إقليم الكرمة : يقع هذا الإقليم بين رملة الرغام من الشرق وسهل الصفراء من الغرب ، ويقع إقليم الفقي إلى الشرق من هذا الإقليم ، وإقليم قرقرى إلى الجنوب منه . اشتهر هذا الإقليم ببلدانه الكبيرة من مثل : ثرمداء ، والفقي (وهي مدينة كبيرة كانت عاصمة لهذا الإقليم قبل الإسلام وهي غير الفقي الإقليم)، وقصيبة ، ومرأة ، ورمادا ، وأثيثة ، وشقراء وأشيقر، وذات غسل . اشتهر هذا الإقليم بالحرف اليدوية التي تطورت مع الزمن لتصبح صناعات كبيرة ذاتِ جودة علية وإنتاج غزير من مثل : صناعة النسيج والحياكة ، وإنتاج الملح ، وقد عرفت منتجات الكرمة وصناعاتها في مختلف أنحاء الجزيرة العربية . وهذا الإقليم يعرف حاليا باسم الوشم.[١٧]

٦- إقليم الخضارم: وأحيانا يدعى بجو الخضارم ، ويقع إلى الجنوب من إقليم العرض ويمتد جنوبا حتى البياض على حافة الربع الخالي ، ويعد هذا الإقليم من أشهر أقاليم اليمامة من ناحية الإنتاج الزراعي ، وهذا راجع لخصوبة أرضه وكثرة العيون والسيوح المائية فيه . ويبدو أن جوا من أقدم البلدان ، إذ ورد ذكرها كأول مستوطنة في اليمامة في عهد طسم وجديس ، ويسكن هذا الإقليم عدد كبير نظرا لإمكانياته الاقتصادية ، من سكانه بنو عجل ، وبنو تميم ، وبنو سحيم وبنو ثمامة . ويمر خط التجارة الرئيس المنطلق من جنوب الجزيرة العربية والمتجه إلى فارس بهذا الإقليم ، مما أعطاه أهمية أخرى . وكان ملك اليمامة هوذة بن علي يقيم فيه. واسم الإقليم الحالي الخرج.[١٨]

٧- إقليم الفلج : يقع مباشرة جنوب إقليم الخضارم ، ويحده من الغرب سلسلة جبل العارض ، ومن الشرق الربع الخالي ، ويبدو أن الإقليم يمتد جنوبا مع ميل إلى الغرب ليصل إلى نجران . يشتهر هذا الإقليم بكثرة سكانه وبإمكاناته الإروائية ، لكثرة العيون والسيوح الطبيعية من مثل : عيون الرقادي والأطلس وزاحومي . ويشتهر أيضا بمرور خط التجارة الرئيس الموصل بين اليمن وفارس ، لذا قامت فيه أسواق مشهوره أهمها : سوق الفلج الذي يعد أشهر أسواق اليمامة في الجاهلية وصدر الإسلام . ويعرف هذا الإقليم حاليا باسم الأفلاج.[١٩]

٨- إقليم العرض: هذا الإقليم لا زال يحمل الاسم نفسه ، وفي أحيان أخرى يدعى عرض شمام ، يقع الإقليم في الجزء الغربي من اليمامة ، ويغلب على طبوغرافيته الصفة الجبلية ، ذلك أن جبل العرض يمتد في هذا

الإقليم من الشمال إلى الجنوب، ويوجد ممر طبيعي يعرف باسم وادي الخنقة، يقسم الجبل إلى قسمين لأنه يجري من الشرق إلى الغرب. أما بقية أودية الإقليم الصغيرة، فتنطلق من الجبل باتجاه الشرق حتى تصل إلى رملة حائل، المعروفة الآن باسم الحدباء. يقول ابن جنيدل إن هذا الإقليم ينقسم إلى أربعة أقسام: الأول سواد باهلة، القسم الشمالي من إقليم العرض، وتقطنه قبيلة باهلة، ويشتهر بمناجمه الكثيرة. والثاني الجمح، ويشمل القسم الجنوبي من الإقليم، ومستواه الاقتصادي أقل من الأول، وتقطنه بنو نمير. والثالث الريب، ويقع في الجنوب الشرقي من إقليم العرض، ويعرف حاليا بالرين، وتقطنه بنو قشير. والقسم الرابع هو عمايتان ويثبل التي تقع في الجنوب الغربي من الإقليم، وتقطنه باهلة وحريش وعجلان، ويعرف حاليا باسم حصاة قحطان. ومن أشهر مستوطنات إقليم العرض: شمام، تميرة، هبود، الغيسان، الكوكبة، الأحسن، والخسيرة. ويشتهر هذا الإقليم بالمعادن.(٢٠)

رابعا: اليمامة في العصر الأموي

بعد انتهاء حروب اليمامة ومغادرة خالد بن الوليد المنطقة عين على اليمامة: سمرة بن عمرو العنبري التميمي(٢١) ليقوم بمهام إدارة اليمامة مؤقتا، ولكن سرعان ما وصل لليمامة الوالي الجديد المعين من قبل الخليفة أبي بكر الصديق، وهو سليط بن قيس، من بني النجار.(٢٢) ولعل تعيين رجل لإدارة اليمامة من غير أبناء المنطقة يعطي انطباعا عن السياسة التي تعتزم المدينة اعتمادها تجاه اليمامة ففي عهد الخليفة عمر بن الخطاب ألغي اسم اليمامة من السجلات الرسمية للدولة وضمت إلى البحرين تحت اسم العروض.(٢٣) والواقع أن اليمامة لم تكن تشكل أولوية لدى الدولة زمن الخلافة الراشدة.(٢٤)

أما في العهد الأموي فنقرأ في معجم ياقوت الحموي ما يلي: (٢٥) "ربما ضمت اليمامة إلى المدينة، وربما أفردت، هذا كان أيام بني أمية، فلما ولي بنو العباس صيروا عمان والبحرين واليمامة عملا واحدا" والواقع يشهد أن اليمامة تقهقرت إلى آخر قائمة أعمال الإدارة الإسلامية، بل إننا نجد أن الخلافة الأموية تتبنى الاستراتيجية التي التزم بها الخلفاء الراشدون من قبلهم، وذلك بشطب مسمى اليمامة أو جعلها ولاية قائمة بذاتها، ومعاقبة سكانها، وجعلها تبعا للمدينة أو البصرة. فقد ضلت اليمامة ملحقة بوالي المدينة طيلة ستة وعشرين عاما ثم ضمت لولاية البصرة فترة أثني عشر عاما، ثم انفصلت عن الخلافة الأموية لمدة أحد عشر عاما، وهي فترة الثورات المحلية، ثم ألحقت مباشرة بدمشق لمدة واحد وأربعين عاما.

إن وضع اليمامة الإداري في العصر الأموي يفسر لنا ما آلت إليه الأوضاع العامة فيها، فعلى الرغم من ماضي اليمامة السكاني والاقتصادي المتميز في عصر ما قبل الإسلام وفجره، إلا أنهما شهدا تدهورا منذ حركة الردة في اليمامة حتى وقت متأخر من العصر العباسي. ولعل ما تكبده المسلمون من خسائر في الأرواح والأموال من قبل بني حنيفة إبان حروب الردة، قد ترك بعض الأثر في نفوس المسؤولين في المدينة نحو اليمامة وسكانها. لقد كان

من نتيجة هذا الوضع من ناحية وفتح جهة العراق من ناحية أخرى أن غادر اليماميون بلادهم في هجرات للانضمام للجيوش الإسلامية أو بحثاً عن الأمن والقوت ، ولعل بداية مغادرتهم بلادهم جاءت زمن الخليفة عمر بن الخطاب الذي رفع الحظر عن اليماميين ، وخاصة بني حنيفة ، وسمح لهم بالالتحاق بالجيوش الإسلامية في جبهات القتال في العراق والشام ، وكانوا قبل ذلك غير مسموح لهم عقاباً لهم بسبب ردتهم ومناصرتهم مسيلمة الكذاب.

لهذا نجد أن الخريطة السكانية في اليمامة شهدت تغيُّرات واضحة على صعيد العدد أو فئة السكان أو عناصرهم. لقد تجمعت عوامل عديدة بسبب وضع اليمامة الإداري والسياسي في منتصف عصر الخلافة الراشدة والعصر الأموي ، وشكلت هذه العوامل مجتمعة عوامل طرد سكاني . من هذه العوامل : أولا : الفتن والثورات التي اجتاحت اليمامة ، وثانياً : الاضطرابات السياسية التي شهدتها اليمامة في العصر الأموي ، وثالثاً : ضعف الأمن واختلاله الذي ساد حواضر اليمامة وبواديها ، وأخيراً : تعسف الولاة وعمال الزكاة الذي أثقل كاهل السكان وأهانهم . وفيما يلي حديث عن كل منها .

١ – الفتن والثورات

من نتائج الإدارة الأموية أن كثرت الفتن في البلاد ، وكُثرت الثورات وتعددت ، وانتحلت تلك الثورات دعاوى دينية ومذهبية ، ولعل كثرتها تُفسر لنا مدى التذمر الأهلي ، فخلال الفتنة الثانية التي اجتاحت المسلمين (٦٢ – ٧١هـ / ٦٨١ – ٦٩٠) أصبح من السهل وصف تاريخ اليمامة بأنه تاريخ الخوارج ؛ مع أن هذا القول فيه شيء غير قليل من المبالغة .

لقد أقنعت كثرة الفتن السياسية والقبلية ، التي انتشرت في فترات طويلة من تاريخ اليمامة ، عدداً من السكان لمغادرة قراهم ومزارعهم . ومن هنا نستطيع القول إن سكان اليمامة لم يكونوا راضين عن السياسة التي أُتبعت لإدارة مناطقهم ، وقد عبروا عن ذلك بالثورة عندما يجدون الفرصة مواتية ، حدث أن تعرضت اليمامة لاضطرابات داخلية عنيفة أعقبت مقتل الخليفة الأموي الوليد بن يزيد سنة ١٢٦هـ/٧٤٣م ففي تلك السنة لم يعترف اليماميون ، وخاصة بني حنيفة ، بالوالي الجديد المُعين لديهم وهو : علي بن المهاجر بن عبدالله الكلابي ، فاضطرب حبل الأمن ، وكثرت الغارات والسلب والنهب بين القبائل والمستوطنين على حد سواء ، واستمر ذلك الخلل الأمني حتى مقدم وال جديد هو : المُثنى بن يزيد بن عمر بن هبيرة والياً من قِبل أبيه سنة ١٢٩هـ / ٧٤٦م الذي لم يستطيع عمل شيء لوقف التدهور الأمني والسياسي الذي اجتاح اليمامة فانتهت حياته بالقتل.[٢٦]

أما الذين فقدوا حياتهم في الحروب فمن الصعب الحصول على أرقام ولو تقريبية ، ولكن من المؤكد أن كثرة الحروب وشيوع الفتن لابد أن يُصاحبها إزهاق أرواح عديدة ، من ذلك ما تشير إليه الروايات المتعلقة بالحروب الأهلية في اليمامة ، التي يُطلق عليها الأيام ، إذ ورد أن أعداداً كبيرة فقدوا حياتهم في تلك الحروب ، فقد سجلت

الحوليات العائدة لتلك الفترة أن عدد الضحايا في المواجهات بين بني حنيفة وبني قشير بلغت حوالي عشرين ألف قتيل . وفي معركة المشقر التي نشبت بين خوارج اليمامة وبني تميم بلغ عدد القتلى ثمانية آلاف رجل ، والأسرى ثمان مائة.[٢٧]

٢- الاضطرابات السياسية

الواقع أن الاضطرابات السياسية ليست شيئا جديدا على اليمامة ، فنحن نعرف أن سكان اليمامة كانوا تواقين للاستقلال عن السلطة المركزية ، ولذا نجدهم ينضمون بشكل تلقائي وعاطفي مع كل ثورة أو بارقة تمرد ضد السلطة المركزية ؛ حتى اعتاد بعض المراقبين على إطلاق اسم (الخوارج) عليهم ، مع أن عددا قليلا من سكان اليمامة اعتنق مذهب الخوارج ، فقد كان أتباع نجدة بن عامر الحنفي ثلاثة آلاف فقط من أهالي اليمامة [٢٨]. ومهما قيل عن عدد أتباع الخوارج في اليمامة ، فليس من المستبعد أن اليماميين انساقوا خلف الخوارج لا عن إيمان بالمذهب أو موافقة لسياسة قادته ، بل خوفا من الإرهاب الذي اتبعه قادة الخوارج ضد معارضيهم . فتعصب الخوارج الوحشي زرع الذعر في قلوب السكان ، مما جعل من يؤرخ للخوارج وقادتهم يظن أنهم كانوا يحظون بعطف السكان في اليمامة ، وربما الأمر ليس كما يظن البعض.

هذا بالإضافة إلى أن كلمة (خوارج) في ذلك الوقت لم تكن تعني مذهبا مقننا يلزم أتباعه أن يتميزوا عن غيرهم ممن لم يكن خارجيا ، بل كانت تعبر عن معنى لغوي وسياسي أكثر دلالة من المعنى المذهبي ، ذلك أن أكثر ما نسب لخوارج اليمامة (النجدات أو غيرهم من خوارج اليمامة) من آراء لم تكن لتشكل قواعد وأسسا لمذهب متميز ، وما ذكر في كتب الفرق وما نسب إلى نجدة بن عامر لا يخالف ما تفق عليه جماعة المسلمين أو ما يثبت تفردهم . بل إن المبرد في كتابه *الكامل* أورد فرق الخوارج وآراءهم وقال إن (النجدية) أقرب لأهل السنة.[٢٩] وقد أشار شيخ الإسلام ابن تيمية إلى أن الصحابة لا يكفرون النجدية ، وأنهم كانوا يصلون خلف نجدة[٣٠] وأورد السمعاني رواية تفيد أن نجدة كان يخالف الخوارج أتباع نافع بن الأزرق.[٣١]

لقد تفاقمت الاضطرابات السياسية في اليمامة وفي غيرها من الأمصار الإسلامية بعد وفاة الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان ، وكثر المنشقون السياسيون ، ولم تكن اليمامة بمنأى عن تلك الأحداث الجسام ، فقد توزع ولاء اليماميين ثلاث فرق ، إحداها ناصرت ابن الزبير في مكة ، والأخرى ، وهي الأكثر ، تابعت قادتها المحليين الذين تزعموا فرقا من فرق الخوارج ، والثالثة بقيت على الحياد ، تنتظر ما تؤول إليه الأحداث ، ولعل الشاعر النميري يعكس وجهة نظر الفئة الثالثة وموقفها ، التي لم تنضم للزبيريين أو للخوارج النجديين أو غيرهم ، وهو يخاطب الخليفة عبد الملك بن مروان ، الذي استطاع أن يعيد وحدة الدولة الأموية . يقول النميري :[٣٢]

إني حَلفْتُ على يَمين بَـرةٍ لا أكْذِبُ اليومَ الخليفَةَ قِيـلا
مازُرْتُ آل أبي خُبَيْبٍ وافِداً يومـاً أُريد لبَيْعتي تَبديـلا
ولا أتَيْتُ نُجَيْدَةَ بْنَ عُويْمرٍ أبْغِي الهُدَى فَيَزِيدني تضْليلا

أما الفريق الأول فليس في مصادرنا ما يُعين على تلمس مدى انتشار الدعوة الزُبيرية في اليمامة ، وكل ما نستطيع تسجيله هنا أن عدداً من بني حنيفة وبني تميم ومن بني قيس عموماً قد تعاطفوا مع دعوة ابن الزُبير ، وخاصة لما صبحت مكة والمدينة مهددتين من قِبل الجيش الأموي ، ولقد تزعم ذلك الفريق نجدة بن عامر الذي أصبح فيما بعد زعيماً لخوارج اليمامة.[٣٣]

والفريق الثالث هو من تبعه أكثر سكان اليمامة ، وهؤلاء الأتباع كما أشرنا سابقاً يغلب عليهم صفتان : الأولى أنهم مُجبرون لا مُختارون لاعتناق المذهب الخارجي ، وذلك بسبب العنف والإرهاب الذي اتبعه قادة الخوارج ضد معارضيهم . والثاني أن أغلب سكان اليمامة من الخوارج لم ينظروا إلى عملهم نظرة دينية أو مذهبية ، بل اعتبروا المذهب الخارجي من نجدية أو فدكية أو طالوتية (وهي فرق الخوارج اليمامة الرئيسية) على أنها فِرق سياسية أو دعوات سياسية لا مست ودغدغت عواطفهم القبلية أو الإقليمية أو المحلية في وجه الدولة الأموية التي لم تحسن إدارة بلادهم.[٣٤]

كان أول الخارجين : أبو طالوت مطر بن عقبة بن زيد بن مالك بن صعب بن علي بن بكر بن وائل سنة ٦٥هـ / ٦٨٤م[٣٥] الذي استولى على منطقة الخضارم كلها ، وأطلق يد أتباعه لنهب ما تصل إليه أيديهم ، وخاصة ممتلكات الدولة الأموية ، منها مزارع اللخليفة معاوية بن أبي سفيان ، وكانت مزارع واسعة ، أصبحت ومن فيها من مزارعين يُقدر عددهم مع نسائهم وأطفالهم بإربعة آلاف شخص أصبحوا غنيمة سائغة لأتباع أبي طالوت[٣٦]. ولقد تعرضت اليمامة لخسائر فادحة نتيجة للمصادرات والنهب وقُتل عدد من السكان لا نملك مصدراً يُعيننا على تلمس عددهم .

ثم تزعم نجدة بن عامر خوارج اليمامة بعد إقصاء الزعيم الأول ، وقدم نفسه على أنه الزعيم الروحي والسياسي لكل منطقة اليمامة ، ورفع شعار إقامة دولة مستقلة ، يتبعها بعض الأقطار المجاورة كان ذلك في سنة ٦٥هـ / ٦٨٤م . وبالفعل لم تمض سنيَّات إلاّ وقد شمل سلطان نجده البحرين في شرق اليمامة ، والطائف وأجزاء من الحجاز في غربها ، وبعض المناطق الجنوبية إلى حدود اليمن ، وخضع لنجدة بادية اليمامة المحيطون بها.[٣٧]

لكن ما أنجزه نجدة كان ثمنة غالياً جداً على المستوى الاقتصادي أو البشري ، لقد انحل الأمن واضطرب في كثير من بوادي اليمامة وحواضرها ، وشهدت اليمامة معارك بين أتباع نجدة ومعارضيه راح ضحيتها عدد من الناس ، وأتلفت أو صودرت أملاك واسعة ، أصبحت فيما بعد غير مجدية اقتصادياً . ولعل أشهر المعارك التي سببت ذلك هي معركة المجازة ضد بادية عامر بن صعصعة ، ومعركة كاظمة ضد بادية بني تميم. وأخيراً المعارك بين نجدة والدولة

الأموية والتي انتهت بمقتله عام ٧٢هـ / ٦٩١م.[٣٨] ولم تذكر المصادر أية إصلاحات قام بها نجدة في اليمامة طيلة حكمة.[٣٩]

بعد مقتل نجدة ازدادت الاضطرابات السياسية وتنازع السياسيون أصحاب الأهواء والطموح الشخصي في اليمامة ، فقد تزعم بعض أتباع نجدة : أبو فديك الذي لم يلبث طويلاً أن قاد حملة عسكرية ضد بني تميم في المشقر سنة ٧٣هـ / ٦٩٢م كانت حصيلتها ستة آلاف قتيل وثمان مائة أسير وفقد حياته بالطريقة نفسها التي أوصلته للزعامة.[٤٠] وفي سنة ١٠٥هـ / ٧٢٣م اندلعت مرة أخرى الاضطرابات السياسية بين خوارج البحرين بقيادة : مسعود بن أبي زينب العبدي والوالي الأموي سفيان بن عمرو العقيلي في اليمامة ، وكان ضحايا الصراع بين الطرفين في معركة بُرقان جلهم من سكان اليمامة الذين شاركوا بجانب الوالي الأموي.[٤١]

ولعل أكبر ثورة بعد ثورة نجدة هي الثورة التي قادها : المهير بن سُلمى من بني الدول عام ١٢٦هـ / ٧٤٣م واستمرت لمدة عامين على قوتها وزخمها ، وكثرت خلال تلك المدة الفتن والحروب[٤٢] صاحب ثورة المهير عدة معارك يأتي على رأسها : معركة القاع (قاع حَجْر) ،[٤٣] ويبدو أن ثورة المهير لم تستقطب مؤيدين في أنحاء اليمامة ، فقد وقف ضدها بقوة السلاح العقيق (عقيق بني عقيل) ،[٤٤] ووقف ضدها إقليم الفلج حيث دارت معركة مشهورة هي : معركة الفلج الأول.[٤٥] وتُعرف في كتب الأدب التي أرخت لها أو لمثيلاتها في اليمامة باسم : الأيام ، على غرار أيام العرب . وهذا ما حصل فإننا نشهد اقتتالاً شمل الحاضرة والبادية يشبه في أهدافه وأساليبه وأخلاقياته ما كان سائداً بين القبائل العربية قبل الإسلام .

وكنتيجة حتمية للوضع السياسي المتردي في اليمامة شبت المعارك بين قبائل اليمامة ، فحدثت معركة الفلج الثانية (يوم الفلج الثاني) ،[٤٦] وسادت أخلاقيات الجاهلية بين قبائل اليمامة لدرجة أن عادت الغزوات للثأر أو للغنيمة ، وأصبح كل من يشعر في نفسه قوة يستطيع أن يشن الغارة لثأر قديم أو لغنيمة باردة أو ساخنة ، ومن ذلك ما قام به : عبيد الله بن مسلم الحنفي الذي جمع قوماً من عشيرته وشن هجوماً على جيرانه بني قُشير ، ثم على بني عُكْل ، وتُقدر بعض المصادر أن خسارة الغزوتين (الهجومين) عشرون ألف قتيل ،[٤٧] ولعل الاضطرابات السياسية من أعظم الأسباب التي أثرت كثيراً في التركيبة السكانية من حيث العدد والفئة أو العنصر . فقد خسرت اليمامة عدداً كبيراً في المعارك أو نتيجة الهجرات ، كما زاد عدد النساء على الرجال ، وزاد لذلك عدد المُستَقْدَمين من رقيق أو أجراء للعمل في المزارع التي تركها أصحابها.

٣- ضعف الأمن

كما طال الأمر الأمن الداخلي الذي ضعف كثيرا . ولدينا عدة تقارير تشير لهذا السبب إشارات صريحة منها : رواية الأصفهاني ومفادها أن مالك بن الريب التميمي ومن انضموا غليه ، كانوا يقطعون الطريق الممتد ما

بين الفلج والقصيم ، [٤٨] وكان أبو النشناش التميمي يرأس عصابة تعترض القوافل التجارية المتجهة للشام ، [٤٩] وعصابة أخرى لا تقل عن سابقتها يرأسها السمهري بن بشر العكلي كانت تهاجم الطريق التجاري الموصل بين مكة والمدينة والكوفة. [٥٠] ويذكر الجاحظ في كتابة *المحاسن والأضداد* عن شخصية مثيرة دأبت على إثارة الفتن والإخلال بالأمن ويقول إن اسمه : جحدر بن مالك العكلي ، كان ينزل باليمامة ويُغير على نواحيها وأسواقها وطُرقاتها ، [٥١] وقد بلغ من درجة استخفافه بالأمن أنه كان يغير على أسواق الإبل ويختطف الناقة من يد صاحبها الذي يعرضها للبيع في السوق ، [٥٢] ويروي البلاذري أن بني كعب بن ربيعة قالوا لكلاب بن قرة بن هبيرة القشيري : إنها فتنة فلو أتينا سوق المجازة فأعرنا ، فإن فيها بزا منشورا وتمرا منثوراً. [٥٣]

ولا يحتاج المرء إلى كبير جهد لتصديق تلك الروايات ؛ فالأمن لا شك شبه منعدم في اليمامة معظم العصر الأموي ، يروي الطبري أن أعمال السلب والنهب وخاصة المتاجر والعبيد وإشاعة الفوضى ازداد بشكل ملحوظ ، [٥٤] وهي ملاحظة تصدر من مؤرخ رزين ، تجعل الباحث يعتقد بصحة تلك الروايات . ولا شك أن انعدام الأمن يشجع بل يدفع بالناس إلى الهجرة ، ولدينا دراسات حديثة تثبت أن الهجرة إلى خارج اليمامة كثرت في هذا العصر ، وهذا بدوره أثر على الخريطة السكانية في اليمامة. [٥٥]

٤- تعسف الولاة وعمال الزكاة

لا يتوافر في المصادر التاريخية تقارير تتعلق بالطُرق والإجراءات التي اتّبعها الولاة وعمال الزكاة والعُرفاء في تطبيق ما وكل إليهم من أعمال . لذا سنعتمد على المصادر الأدبية وخاصة الشعر ، الذي نرى أنه نقل صورة إن لم تكن صحيحة فهي قريبة من الصحة المعاناة من قِبل السكان بادية وحاضرة ، وتعسف الولاة وعمال الزكاة والعُرفاء ، لدينا عدة قصص مُحزنة نقلها وفود قدموا على الولاة في العراق أو المدينة أو قابلوا الخلفاء الأمويين أنفسهم يجأرون بالشكوى المريرة . من ذلك ما قاله عُقَيْبَة بن هبيرة الأسدي يخاطب معاوية : [٥٦]

مُعاويَ إنّنا بَشَرٌ فأسْجِعْ ... فَلسْنا بالجبال ولا الحديدِ
فَهبنا أمةً هلكتْ ضَيَاعاً ... (يزيدُ) أميرُها وَ(أبو يزيدِ)
أكلتُم أرْضَنا فَجَردتُّمُوها ... فَهلْ مِنْ قائِمٍ أو مِنْ حَصيْدِ

أو ما قالته ليلى الأخيليَّة للحجاج ، وكان آنذاك مسؤولاً عن اليمامة . فقالت له : " أصلح الله الأمير أضَرَّ بنا العَرِيْف في الصدقة وقد خربَت بلادُنا ، وانكسرتْ قلوبنا " [٥٧] ومثله قول الراعي النميري مخاطباً الخليفة عبد الملك بن مروان يشكو عمال الصدقة المتعسفين. [٥٨]

ورد في قصيدة عمرو بن أحمر الباهلي ، الذي ربما يشير إلى ما يعانية سواد باهلة المشهور بمناجمة وصناعة التعدين من سوء وتدهور ، ويقول كما ورد في نهاية قصيدته السابقة : (وإن لا تداركهم تصبح منازلهم قفراً تبيض على أرجئها الحمر) . ولم يتداركهم والي المدينة ولا الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان ، وساءت الأحوال المعيشية في اليمامة ، وهاجر عدد من سكانها إلى الأمصار الإسلامية ، وبقى الفقر واليتم ، يقول شاعرها جرير :

كم باليمامة من شعثاء أرملة ومن يتيم ضعيف الصوت والبصَر

خامسا : الخريطة السكانية

يسود اعتقاد مفاده أن اليمامة بقيت خالية من السكان بعد زوال سكانها الأول : طسم وجديس في أوائل القرن الخامس الميلادي وحتى مجئ عبيد بن ثعلبة بأهله إلى بلدة حجر ، [٦٢] كما تناقضت الروايات حول من نزل اليمامة من بطون ربيعة. إن تناقض الروايات يعكس الجهل المطبق بالحقب التاريخية القديمة ، وما الأشعار الواردة عند أبي عبيدة في كتابه *نقائض جرير والفرزدق* على لسان عبيد بن ثعلبة إلا من قبيل التقول الذي لا تدعمه براهين من التاريخ . [٦٣] وما يمكن أن نطمئن إليه هو أن اليمامة لا يمكن أن تكون خالية بعد غزو اليمن لها أيام طسم وجديس ، إذ من غير المعقول أن تبقى مستوطنات ومصادر مياه في صحراء الجزيرة العربية دون بشر ، ونحن نعرف قيمة المياه لأنسان الجزيرة ، واستنتاج من قال إن اليمامة خالية قد بناه على قول بعض المصادر العربية ، وهو قول واهن ، وبناه صاحبه على حساب الأجيال بين عبيد بن ثعلبة وبين بعض زعماء اليمامة في صدر الإسلام ، وهو حساب لايستقيم طالما أننا لا نعرف ، على وجه الدقة ، سلسلة النسب الحنفية .

يرى ابن شبة أن انتشار بطون بكر بن وائل وعنزة وضبيعة باليمامة والبحرين جاء بعد انتصارهم على تغلب والنمر وغفيلة يو (قضة) . [٦٤] ويعارض هذا رواية لدى ابن دريد عن الفند الزماني أن بني حنيفة وأقرباءهم كانوا في اليمامة قبل يوم (قضة) ، [٦٥] وأن اليمامة كانت مأهولة بسكان من الحضر لم يشاركوا في الحروب القبلية من مثل : بني حنيفة الذين لم يدخلوا في حلف (اللهازم) وهو حلف استوعب أكثر ربيعة . [٦٦] من هنا نرى أن المصادر العربية متناقضة بخصوص الاستيطان في اليمامة بعد زوال طسم وجديس .

تعزو الروايات أن عبيدة بن ثعلبة أعاد الاستيطان واحتفظ لنفسه بثلاثين بيتاً ومثلها من المزارع واحتجزها فسميت تلك المنطقة (حجراً) بينما أسكن بطون بكر بن وائل في نواحي اليمامة الأخرى ، وتشكل الأراضي التي سيطرت عليها عشيرة عبيد الطرف الشمال الشرقي لليمامة (الكرمة) ، والقسم الأوسط (العرض) ، والقسم الجنوبي (جو الخضارم) حتى وادي برك جنوباً .

من هنا تكون قبيلة بكر بن وائل أول قبيلة يسيطر بعض فروعها على المستوطنات القديمة في اليمامة. ونسب بكر هو : بكر بن وائل بن قاسط بن هنب بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد . ويتفرع من بكر ثلاثة أقسام : يشكر ،

أَوَلِيَّ أمرِ الله إنّ عَشِيرتي أَمْسى سَوامُهُمُ عِزِيْنَ فُلُولا
قَطَعُوا الْيَمامة يَطْرُدُون كأنّهم قَوْمٌ أصابُوا ظالِمِينَ قَتيلا
يَحْدُن حَدْباً مائِلاً أشْرافُها في كُل مَنْزِلةٍ يَدَعْنَ رَعِيلا
شَهْرَيْ رَبيعٍ ما تَذُوقُ لَبُونُهُمْ إلاّ حُمُوضاً وَخْمَةً ودَيلا

أما شاعر قبيلة باهلة : عمرو بن أحمر الباهلي فقد وفد على والي المدينة : يحيى بن الحكم بن أبي العاص ، وكانت اليمامة تتبع المدينة آنذاك ، يصف ما يلاقيه قومه من شدة وقسوة عمال الزكاة ، لا باصطفاء خيار أموالهم فحسب بل بجلدهم بالسياط . يقول :(٥٩)

يا يَحْيى يابنَ إمامِ النّاسِ أهْلَكَنا ضَرْبُ الجُلودِ وُعسْرُ المالِ والحسَرُ
إنيِّ أعُوذُ بما عاذَ النبيُّ به وبالخليفَةِ أنْ لا تُقْبَلَ العُذُرُ
مِنْ مُتْرِفِيكُمْ وأصحابٍ لنا معَهُمْ لا يَعْدِلُونَ ولا نأبَى فَنَنْتَصِرُ
يَكْسُونَهُمْ أصْبَحِيّاتٍ مُحَدْرَجَةً إنَّ الشُّيوخَ إذا مَا أوْجِعُوا ضَجِرو
حتىّ يطيْبوا لهمُ نفْساً علانيةً عن القِلاصِ التّي مِنْ دُونِها مَكرُوا
لَسْنَا بأجْسادِ عادٍ في طَبائعنا لا نَألمُ الشرَّ حتّى يألَمّ الحَجَرُ
مَلّوا البلادَ ومَلّتْهُم وأحرَقُهم ظُلْمُ السُّعاةِ وبَادَ الماءُ والشَّجَرُ
إنْ لا تَدارَكَهُمُ تُصبحْ مَنازِلُهمْ قَفْراً تَبيضُ على أرْجَئِها الْحُمَرُ

ولم يقتصر الأمر على شعراء غير محسوبين على الأمويين ، بل الشكوى والتذمر جاءت على لسان شعراء البلاط الأموي ، وهم من اليمامة أصلاً ، وفي هذا دلالة كبيرة على حجم المعاناة . يقول الفرزدق مخاطباً الخليفة الوليد بن عبدالملك :(٦٠)

أمِيرَ المؤمِنِينَ وأنتَ تَشْفي بِعَدْلِ يَدَيْك أدْواءَ الصُّدر
فكيفَ بعاملٍ يَسعى عَلَيْنا يُكلّفُنا الدَّراهِمَ في البُدُور
وأنّي بالدّراهِمَ وهِيَ منَّا كَرافِعِ رَاحَتَيْهِ إلى العَبُور
إذا وَضَعَ السِّياطَ لنا نَهاراً أخَذْنا بالرِّبا سَرَق الحَرِيرِ
فلوْسَمِعَ الخَلِيْفَةُ صَوتَ داعٍ يُنادَي الله هلْ لي مِنْ مُجيرِ
وأصواتَ النَساءِ مُقَرِّناتٍ وصِبْيَانٍ لَهُنَّ عَلى الحُجور
إذَنْ لأجَابهنَّ لِسانُ دَاعٍ لِدِيْنِ اللهِ مِغْضابٍ نَصُور

إن الصورة المحزنة التي نقلتها وفود اليمامة لا تحتاج لتعليق ، فسوء الإجراءات الإدارية ، وتسلط الولاة والعمال ، أثرا على الاقتصاد المحلي من تجارة وزراعة ورعي وتعدين ، و أجبرا السكان على مغادرة اليمامة كما

وعلي ، وبدن ، الذي دخل بنوه في يشكر . وكل قسم من هذه الأقسام يتفرع إلى مجموعة أخرى تشكل قبائل قائمة بذاتها . (٦٧)

ومن أشهر فروع بكر بن وائل التي استوطنت اليمامة : شيبان بن ثعلبة ، وذهل بن ثعلبة ، وقيس بن ثعلبة ،و عجل بن لجيم ، ويشكر بن بكر ،و تيم اللات بن ثعلبة ، وبنو زمان . ولكن تأتي حنيفة في مقدمة فروع بكر بن وائل من حيث كثرتها وقدم استيطانها في اليمامة لدرجة أن الجاحظ عدها قبيلة بذاتها . وأصبح الوادي الذي تقوم على جوانبه مستوطناتها يعرف بوادي حنيفة . ولقد درجت بنو حنيفة في سلم التوطن والاستقرار وبعد بها الالتصاق بالأرض عن لحمة القبيلة الأم ، وهي اللحمة التي كانت بارزة في حياة العرب قبل الإسلام ، ولم تعد بنو حنيفة تنصر بطون بكر بن وائل أو تستنصرها .(٦٨)

ويأتي بعد استقرار بني حنيفة في اليمامة قبائل من مضر ، تجاورها من الجنوب فروع من قيس بن عيلان وهم : قشير وجعدة والحريش من بني كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة . وفروع من بني تميم أحاطت ببني حنيفة من الشمال والشمال الغربي والشرق . وبهذا أصبح الحنفيون محاطين بقبائل مضرية . وهذا الوضع سيعلب دوراً بارزاً في إعادة تشكيل الخريطة السكانية في اليمامة بعد حروب الردة .

والواقع أن بني تميم كما يروي البكري قد سكنوا في بداية الأمر في مساكن بكر وتغلب ثم انتشروا في باقي مناطق اليمامة الحضرية. (٦٩) ولعل في قول البكري شيئاً من المبالغة ، ذلك أننا نعرف أن بطون بني تميم لم تسكن بلدان اليمامة الحضرية إلا بعد هزيمة بني حنيفة في حرب الردة . يقول ياقوت في *معجمه* : (٧٠) " لم تدخل مرأة في الصلح فسبي أهلها وسكنها حينئذ بنو امرئ القيس بن زيد مناة بن تميم فعمروا ما والاها حتى غلبوا عليها ؛ ويقول السكوني عن الفقي : (٧١) "قيل هو لبني العنبر بن عمرو بن تميم نزلوها بعد قتل مسيلمة لأنها خلت من أهالها وكانوا قتلوا مع مسيلمة . " وورد في *تاج العروس* عن الهدار (٧٢) " سبي خالد أهله وأسكنه بني الأعرج وهم بنو الحارث بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم : والشئ نفسه يقال عن أغلب منازل بني تميم في اليمامة من مثل : ثرمداء والسليع وسدوس .

سادسا : سكان اليمامة

إن دراسة المواقع التي شهدت الحروب بين القبائل في اليمامة تفيدنا في معرفة التوزيع القبلي ، وكذلك دارسة أيام العرب في الجاهلية والإسلام تقود للشئ نفسه من مثل : يوم قضة ، يوم ملهم ، يوم الستار ، يوم الخشبة ، يوم ذي طلوح ، يوم الوقيط. (٧٣) ولكن هذا ليس على إطلاقه تماماً ، ذلك أن توزيع القبائل تغير بعد حروب ردة اليمامة . وأحسب أن التوزيع السكاني وإن كان تغيّر من حيث العدد السكاني والكثافه السكانية وعناصر السكان . والسكان في اليمامة لم يكونوا يشكلون أرستوقراطية عسكرية كما كان الحال في بعض الأمصار الإسلامية كالكوفة

والبصرة ، لأن تاريخ استيطان اليماميين قديم وارتباطهم بالأرض أكثر من ارتباطهم بالناحية العسكرية ، وهنا حديث عن سكان اليمامة حسب البطون أو العشائر وتوزيعهم على مستوطنات اليمامة .[٧٤]

بنو حنيفة : ينتسبون لقبيلة بكر بن وائل من أبناء لجيم بن أصعب بن علي بن بكر بن وائل بمن قاسط بن هنب بن أفصى بن دعمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار .[٧٥] إذن الجد الأعلى الذي تفرع منه قبيلة بني حنيفة هو : لجيم بن أصعب الذي أنجب ابنين : حنيفة وعجل .[٧٦] أما حنيفة الذي تنتسب إليه القبيلة فقد أنجب : عبد مناة ، وعامر ،و عدي ، و الدّول ، وحجر ، وزيد مناة.[٧٧] وأما عجل فقد أنجب : سعد ،وصعب ، وربيعة، وضبيعة ،و عكابة .[٧٨] وتنتشر بطون وفروع قبيلة بني حنيفة في المستوطنات اليمامية التالية :

حَجْر : أهم بلدان اليمامة وعاصمتها الأولى سكنها بنو ثعلبة

الكرش : بنو عدي

منفوحة : بنو قيس بن ثعلبة

العَوَقة : بنو عدي بن ثعلبة

جليجلة : بنو قيس بن ثعلبة

نمار : بنو قيس بن ثعلبة

الخضرمة : بنو سُحيم ، بنو ثمامة ، بنو عامر بن عجل

قُرَان : بنو سحيم

غبراء : بنو الحارث بن مسلمة بن عبيد

العمارية : بنو عبدالله بن الدول

فيشان : بنو عامر بن حنيفة

أباض : بنو عدي بن حنيفة

هَدّار : بنو هفّان بن الحارث بن الدُّول وبنو ذهل

سدوس : بنو سدوس بن شيبان بن ذهل بن ثعلبة

النّقب : بنو عدي بن حنيفة

مهشمة : بنو عبدالله بن الدول

محرقة : بنو زيد ولبيد وقطن من بني الدول من حنيفة

نميلة : بنو قيس بن ثعلبة

السُّحمية : بنو سدوس

بنو تميم : ينتسبون لبطن كبير من بطون العدنانية ، وهم من : تميم بن مر بن طابخة بن إلياس بن مضر بن معد بن عدنان ويتفرعون إلى : عمرو بن تميم ، وزيد مناة بن تميم ، وسعد مناة بن تميم .[٧٩] وبنو تميم ، على العكس من بني حنيفة ، ينقسمون إلى حاضرة وبادية ، وكانت البادية تقطن متموجة بالقرب من مستوطنات اليمامة .[٨٠] أما الحاضرة فكانت قبل الإسلام قليلة في اليمامة ؛ أما بعد حرب اليمامة فقد استقرت بأعداد كبيرة في المستوطنات التالية :

مرأة	: بنو امرئ القيس
ثرمداء	: بنو امرئ القيس
أثيفية	: بنو امرئ القيس
القصيبة	: بنو امرئ القيس
شقراء	: بنو امرئ القيس
أشيقر	: بنو امرئ القيس
ذات غُسل	: عمارة بن عقيل
النفيرة والعوينيد	: بنو خديج
بنبان	: بنو سعد
السدوسية	: بنو سعد
الغزيز	: بنو سعد
الحزن	: بنو يربوع
اللهابة	: بنو العنبر
إقليم الفقي	: بنو العنبر
جُراد	: في سواد باهلة يسكنه رهط من بني تميم

باهلة : هم بنو مالك بن أعصر بن سعد بن قيس بن عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان .[٨١] تنقسم باهلة إلى عدة أقسام ، المشهور منهم : سعد بن مناة ، ومعن ، ومن أبناء الأخير : أود ، وجأوه ، وقتيبة ، وقعنب .[٨٢] استوطنت قبيلة باهلة السواد المعروف بإسم (سواد باهلة)[٨٣] الذي يمتد من الشرق إلى ديار بني تميم ، ويمتد من الغرب إلى بلاد غطفان ، وتكبر بلادهم وتصغر حسب قوتهم ، من ذلك ما ذكره الأصفهاني أن بني نمير غلبت باهلة على جبل ثهلان مما يدل على مدى تزاحم القبيلتين .[٨٤] وقد نتج عن مجاورة قبيلة باهلة لقبيلة بني تميم ونمير وقشير مصاهرات عدة .[٨٥] ومن أشهر المستوطنات التي سكنتها بطون باهلة :

الجفر	: جأوه

الجدار : جأوه

الرحيضة : جأوه

شعبعب : رهط من باهلة

العوبند : جأوه

قتادة : جأوه

القريع : بنو زياد

أهوي : بنو قتيبة

الفرعة : بنو الحارث

جزالي : بنو عصم

شمام والثنية (معدن فضه ونحاس وذهب) : رهط من باهلة

بنو عامر بن صعصعة : من أشهر القبائل التي استقرت في جنوب اليمامة ، وينتسبون إلى معاوية بن أبي بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان [٨٦] ومساكنهم في اليمامة متقاربة ، ويبدو أن فيهم بادية وحاضرة ، فالحاضرة هي التي تقطن في مستوطنات اليمامة ، أما البادية فتتموج في غرب اليمامة . وتنقسم بنو عامر بن صعصعة إلى سبعة أقسام :

أولهم بنو قشير بن كعب بن ربيعة بن صعصعة . ومن أهم مستوطناتهم :

إقليم الفلج : بنو قشير بن كعب بن ربيعة

حصن العارية : بنو قشير

حصن بين قرط : بنو قشير

الذراع : بنو قشير

الريب : بطون من قشير

عنان : بطون من قشير

العذيب : بطون من بني قشير

الغاية : بطون من بني قشير

شعبعب : بطون من قشير

عرفجاء : بطون من قشير

واسط : بطون من قشير

قرن : بطون من قشير

سيح إسحاق : من قشير

الهيصمية : بنو صُهيب

أما القسم الثاني من بني عامر بن صعصعة فهم : بنو جعدة بن كعب بن عامر بن صعصعة [٨٧] وقد انتشروا بأسفل إقليم الفلج .[٨٨] ومن أشهر مستوطناتهم

الزهدمي : بطون من جعدة

الموطي : بطون من جعدة

آكمة : لبني جعدة ويشاركهم بطن من قشير

الرقادي : بطون من جعدة

الطلس : بطون من جعدة

الغيل : بطون من جعدة

أطلحاء : بطون من جعدة

الورة : بطن من جعدة

غافلا : بطن من جعدة

أما القسم الثالث من بني عامر بن صعصعة فهم : بنو عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة . ومن أشهر مستوطناتهم في اليمامة :

العقيق : بنو عقيل

خزية : بطون متفرقة

والقسم الرابع من بني عامر بن صعصعة هم : بنو كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة ، ومن أشهر مستوطناتهم في اليمامة :

بتيل : بطون من بني كلاب

بتيلة : بطون من بني كلاب

سحامة : بطون من بني كلاب

دارة رمح : بطون من بني كلاب

أما القسم الخامس من بني عامر بن صعصعة فهم : الحريش بن كعب بن ربيعة ، وهم من أصغر الأقسام عدداً ومنازلاً ، ويسكنون في عدة مزارع وسيوح في الفلج أشهر الهدار .[٨٩]

والقسم السادس من بني عامر بن صعصعة هم : بنو يزيد بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة ، وهم قليل في العدد ، ويقطنون في بلدة المحدثة .[٩٠]

القسم السابع والأخير من بني عامر بن صعصعة هم : بنو نمير بن ربيعة بن صعصعة ، ويسكنون في عدد قليل من المستوطنات يقع معظمها بين العقيق والفلج من مثل : المقترب .[٩١]

بنو نمير : أبناء غنم بن حبيب بن كعب بن يشكر بن بكر بن وائل[٩٢] من مستوطناتهم في اليمامة :

ملهم	: بطون من نمير
قرّان	: بطون من نمير

بنو ضبة : أبناء أد أحد بطون طابخة بن إلياس .[٩٣] ومن بطون القبيلة : الرباب التي تنقسم إلى : بني تيم ، وبني عدي ، وبني ثور ، وبني عكل[٩٤] وينتشرون في بعض المستوطنات منها :

الوشم	: بنو تيم ، بنو عدي ، بنو ثور ، وبنو عكل
العادية	: بنو تيم ، بنو عدي ، بنو ثور
تمير	: بنو تيم ، بنو عدي ، بنو ثور ، بنو عكل
وادي الكلب	: بنو تيم
العكرشة	: بنو عدي
الجفر	: الرباب ، وبنو عكل وبنو ثور

بنو قضاعة : ومن أشهر بطونهم التي استقرت في اليمامة : بنو جرم بن ربان بن حلوان بن قضاعة ومنهم : بنو سلي ، وبنو صبح ، وبنو بكير[٩٥] وكل هؤلاء وغيرهم من بطون صغيرة من بني قضاعة يسكنون في عدة مستوطنات متفرقة من اليمامة أشهرها : المجازة[٩٦]

بنو هزّان: ومن أشهر مستوطناتهم : المجازة وماوان .

طي : عدد قليل جداً من بطون هذه القبيلة استوطنت اليمامة منها : آل سويد في ياية.[٩٧]

كندة : من قبائل اليمن المشهورة ، وقد سكن اليمامة منها بطون معدودة منها : الكاسل بن أشرس .[٩٨]

تغلب : عدة بطون صغيرة تسكن في مستوطنات صغيرة أشهرها قرية بالقرب من ياية.[٩٩]

خثعم : عدة بطون معدودة من القبيلة يسكنون في الحجيلاء .[١٠٠]

قريش : القبيلة المعروفة يقطن أفراد منها اليمامة .

جشم : يسكنون في نمار وقد ذكرهم الشاعر جرير.[١٠١]

ثقيف : أفراد منها تسكن في حصنين[١٠٢]

الصّعافقة : طبقة من السكان عرفت في بداية الأمر بإسم : آل صعفوق، يسكنون في عدة قرى ، ويكثرون في قرية تحمل اسم (الصَعْفُوقة) التي يشاركهم فيها خول السلطان . وفي رواية عن أبن الأعرابي : الصعافقة من

بقايا الأمم الخالية ، ظلت أنسابهم .[١٠٣] ورد ذكر صَعْفُوق في أرجوزة العجاج التي يمدح فيها عمر بن عبدالله بن معمر الذي وجهه الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان للقضاء على ثورة أبي فديك سنة ٣٧هـ/ ٢٩٦م فقال[١٠٤] :

من أل صعفوق وأتباع أخر　　　من طامعين لا يُبالون الغَمَرْ

وقال أبو النجم العجلي :

يوم قدرنا والعزيزُ من قدر　　　وآبت الخيلُ وقضينا الوَتَرْ

من الصعافيق وأدركنا المئر

السواقط : وهم الأعراب من مختلف القبائل الذين يأتون إلى اليمامة[١٠٥] في الأشهر الحرم لشراء التمر فإن وافقت ذلك وإلا أقاموا بالبلد إلى أمران موسم صرام النخل. وكانوا يحصلون على حماية السكان الأصليين من مثل بني حنيفة ، وكان الرجل منهم يحمل معة (جواره) مكتوباً على سهم أو رمح واسم من أعطاه الجوار . وقد حاو ل النعمان بن المنذر إجلاء السواقط من ا ليمامة ، فأجارهم أحد سادة بني حينفة : مرارة بن سليمي الحنفي.[١٠٦]

الموالي : يشكل الموالي العنصر الثاني من عناصر سكان اليمامة ، وهم الأرقاء المعتقين ، أو من الحلفاء أو ذوي الجار . وقد امتهنوا الأعمال التي يترفع عنها العرب الصرحاء .[١٠٧] و مع هذا فقد اختلط الموالي مع جيرانهم العرب الصرحاء، وأقاموا معهم تحالفات . ومما يدل على قدم توطنهم في اليمامة وجود عدة مستوطنات تحمل أسماءهم من مثل : عدة قرى تحمل اسم آل كرمان ، الحرملية وهي لموالي ابن سلمة بن عبيد بن ثعلبة ، جزالي والشط قريتان في سواد باهلة يملكها موالي بني عصم[١٠٨] وقرى الأحاليف قرب حجر التي يملكها موالي بني أسيد ونمارة ونمر بن الحارث بن جروة .[١٠٩] ومما يدل على سعة مستوطناتهم أن مسيلمة الكذاب عين حرماً وقع أكثره في قرى الأحاليف . ويظهر أن الموالي ازداد عددهم في العصر الأموي ، وفي هذا يُعيّر الشاعر اليمامي بني حنيفة ويقول :[١١٠]

صارت حنيفة أثلاثاً فثلهم　　　من العبيد وثلثُ من مواليها

وفي الغالب كان أثر الموالي في مجتمع اليمامة واضحاً سواء في الأعمال والمناشط الاقتصادية مثل الزراعة أو الصناعة أو التعدين أو التجارة ، أو المناشط العلمية أو العسكرية . فقد اشترك الموالي في حروب القبائل العربية في اليمامة ،[١١١] وكانوا يناصرون حركة الخوارج ، بل إن بعضهم وصل إلى مراكز قيادية عالية كأبي طالوت مولى بني زمان وثابت بن الثمار ،[١١٢] وعدد منهم امتزج مع السكان العرب في مصاهرات ، مصداق ذلك ما قاله الأحنف بن قيس التميمي :[١١٣] " وقد شار كناهم وشاركونا " ، كما أن يحي بن أبي حفصة الشاعر اليمامي المشهور وهو مولى من موالي الخليفة عثمان ين عفان تزوج من بنت زياد بن هوذة بن شماس[١١٤] وأشار الشاعر اليمامي المشهور جرير إلى تفشي ظاهرة الزواج بين العرب والموالي في اليمامة فقال :[١١٥]

قد زوجوهم فهم فيهم وناسبهم　　　إلى حنيفة يدعو ثلث باقيها

أو : ويُدل بعد ساكنه الموالي كفى (حَجْرا) بذاك اليوم شرّا

الرقيق : والرقيق هو المملوك أي العبد المملوك . وطبقة الأرقاء يشكلون عنصراً كبيراً في مجتمع اليمامة في الجاهلية ، ولكنهم ازدادوا في عصر الخلفاء الراشدين والعصر الأموي . وقد عملوا في الزراعة والصناعة والحرف التي يأنفها العرب الصرحاء.(١١٧) وفي سنة ١١هـ/٦٣٢م كان عدد الأرقام كبيراً لأننا نجد في الاتفاقيات العائدة لحروب اليمامة ما يفيد بكثرة المملوكين الذين اشترط المسلمون اعتبارهم من غنائم الحرب .(١١٨) ومع توسع الفتوحات الإسلامية أصبح في أيدي المسلمين عدد من المملوكين أرسلوهم للعمل في المزارع والسيوح التي غنموها في حروب ردة اليمامة ، ثم لكثرة ما يملكه اليماميون أنفسهم من الرقيق أو عن طريق الإهداء والهبة من قبل الخلفاء .(١١٩)

وأغلب الرقيق من زنج أفريقية ومن الهند ، والسند ، والبربر ، والروم ، ومن رقيق الري .(١٢٠) وأصبح هؤلاء أكثرية وخاصة السودان منهم مما جعلهم عرضة لتندر الشعراء وهجائهم ، وخاصة أن بعضهم وصل لمراكز قيادية .(١٢١) وعمل الرقيق في مزارع أسيادهم من اليماميين . ومن المظاهر التي طالت أسواق الرقيق في اليمامة أنها توسعت وكبرت ، حتى أصبحت اليمامة مركزاً كبيراً لتجارة الرقيق قصده التجار والنخاسون من بلاد شتى ؛(١٢٢) نجد مصداق ذلك في الشعر العائد لذلك العصر .(١٢٣) ومن المظاهر اللافتة للنظر أن المولدة من رقيق اليمامة يبلغ سعرها أضعاف مثيلاتها ، إذ قد يصل سعرها إلى مائة ألف درهم ، وهذا يدل على مبلغ عناية الملاك والنخاسين بتجارة الرق في اليمامة .(١٢٤)

اليهود : من عناصر السكان في اليمامة ، وعددهم قليل وكانوا أولاً يعملون في الزراعة ثم أ صبحوا ملاكاً لحيازات واسعة ثم انتقل نشاطهم للتجارة والصيرفة ، مما مكنهم من جمع أموال طائلة . يقول ابن عبد ربه .(١٢٥) "وكان باليمامة قوم من اليهود وكانوا أهل عطأء وجدة " ويشير الهمداني إلى وجود مائتي يهودي في بلدة العقيق حيث توجد المناجم وصناعة التعدين .(١٢٦)

النصارى : انتشرت النصرانية ، وخاصة المذهب النسطوري ، بدرجات متفاوتة في عدد من المستوطنات اليمامية ، واعتنقها عدد من السكان ؛ منهم ملك اليمامة : هوذة بن على (٨هـ/٦٢٩م) وكان يحتفل بعيد الفصح Easter ،(١٢٧) وكانت تربطة صداقة وطيدة بأركون Arkon دمشق الذي كثيراً ما تردد على اليمامة .(١٢٨) وربما جاءت زيارات الأراكون لتفقد الدير الذي يخدمه راهب من قبيلة طيء .(١٢٩) ولا يستبعد أن النصرانية قد عرفت طريقها لليمامة في القرن الخامس الميلادي ، وهناك شبه إجماع أن النصرانية دين الصفوة وخاصة زعماء اليمامة وشعرائها .

المجوس : كان الفرس من أتباع المجوسية يأتون إلى اليمامة على حمير من عُمان ،(١٣٠) وسكن اليمامة منهم عدد ليس بالقليل ، وقد عملوا في التعدين . فقد ذكر الهمداني أن عدة ألوف من المجوس يعملون في

التعديـن، [١٣١] وقـد ورد أن في معـدن شمـام ألفاً مـن المجـوس ، ولهـم بيتـا نـار ، ولعـل آل كرمـان والأحمـر في الحرملية منهم . [١٣٢]

سابعاً : تحليل تاريخي للوضع السكاني

إن العرض السابق يبين بجلاء أن التوزيع السكاني في اليمامة في العصر الأموي قد تعرض لعدة عوامل شكلت ضغطاً على أهل الحاضرة وغيرت في البنية القبلية . من هذه العوامل ما كان حدوثه في العصر الراشدي ، ولكن نتيجة برزت في العصر الأموي ، ومنها ما كانت بداية حدوثه في العصر الأموي ، وظهرت نتيجته في نهاية هذه في نهاية العصر العباسي. وسنذكر فيما يلي أهم تلك النتائج التي شكلت الخريطة السكانية في اليمامة في العصر الأموي :

١ - سُكنى بني تميم وبني نمير وغيرهم في مستوطنات بني حنيفة بعد حرب الردة . فقد تم إخلاء عدد من المستوطنات الحنفية ، أو تخريبها أو اعتبارها من غنائم الحرب أو تلك القرى التي لم تدخل في الصلح مع خالد بن الوليد أو التي فر منها أصحابها . ويظهر أن عدة مستوطنات لم تدخل الصلح منها : الثقب ، السيوح ، وعرقة ، والغبراء ، وفيشان ، ومرأة ، والمصانع ، والهدار ، وثرمداء ، والفقي (عدة مستوطنات) وكلها اعتبرت من غنائم الحرب وأصبح بالتالي سكانها أسرى حرب. [١٣٣] وتقدر بعض المصادر الأسرى بـ(٥٠٠٠) أسير وهم من النساء والأطفال ؛ أما الرجال فليس أمامهم إلا خياران : الإسلام أو القتل . ولم تذكر المصادر عدد من رفض الإسلام ، ويبدو أن العدد غير دقيق مقارنة بعدد المستوطنات ، ففي رواية عند الهمداني أن خالداً لم يدخل بالقوة سوى مستوطنتين ، وهذا يعني أن الرقم المذكور هم سكان تلك المستوطنتين ، وهذا يبدو معقولا . [١٣٤] وقد تم توطين عشائر وبطون من بني تميم في ممتلكات بني حنيفة التي قتل أصحابها في المعارك ، وتقدر بعض المصادر عدد المقتولين في معركة عقرباء فقط بـ(٢١) ألف قتيل . [١٣٥] لقد توغلت بطون بني تميم في اليمامة بصورة واسعة ، حيث حصلت على ما كانت تتطلع إليه طوال الفترة التي سبقت حرب الردة . فكان انتشار بني تميم كالأتي :

بنو امرئ القيس : ثرمداء ، ذات غسل ، القصيبة ، الرمادة ، وابط ، الهزيم ، مرأة ، روضة القعدات وغيرها .

بنو حمان بن عبدالعزى : وادي العتك .

بنو الأعرج : في العروض والهدار .

بنو مالك بن سعد : عدة مستوطنات.

بنو العنبر: عدة مستوطنات في الفقي وخاصة القارة وفي مراة.

بنو أد بن طابخة : عدة مستوطنات.

بنو عدي الرباب : في شقراء ،أشيقر ،الحمادة، وادي العتك ، ضاحك ،الرغام ،والبكرة.

بنو تيم : ذات نصب ، ووادي برك ،الكرمة ، القصيبة.

بنو عكل :أشيقر ،والبكرة.

بنو مبذول : في الشِميسان، والحلفة.

٢-تجدد الخلاف بين بني حنيفة والمستوطنين الجدد من بني تميم وغيرهم، وهو خلاف طبع الحياة السياسية في العصر الأموي ،وكان من نتائجه إن اضطرت بعض بطون بني حنيفة للهجرة خارج اليمامة . والواقع أن الخلاف بين بني حنيفة وبني تميم قديم ، وربما انه قبل الإسلام ، وهو خلاف بين الحاضرة والبادية .ويعتقد شليفر J.Schleifer أن استيطان بني تميم في اليمامة جاء بعد معركة الهباءة التي نشبت بينها وبين ذبيان ،ويضيف ان الوضع الديموغرافي في اليمامة تغير بعد هذه المعركة ،وأن بني تميم عارضت سيادة زعيم بني حنيفة قتادة بن مسلمة واستطاعت ، فيما بعد ، قتله في إحدى المواجهات العسكرية

يبدو أن ماذهب إليه شليفر لا يستند لواقع من تاريخ ، ذلك أن معركة الهباءة كانت بين فزارة وذبيان من جهة وعبيس من جهة أخرى وتلك المعركة كانت امتداداً لمعركة سابقة وهي : معركة ذي حسي ، وإن الذين استوطنوا اليمامة بعد تلك المعركةهم : بنو عبس بقيادة قيس بن زهير لا بين تميم .

لقد شهد تاريخ القبيلتين (حنيفة وتميم)كما تُشير الروايات وقائع مُتعددة أهمها : وقعة الستار وفيها قُتل زعيم بني حنيفة قتادة بن مسلمة ،وزعيم بني تميم قيس بن عاصم ، وقعة الظهر ،وقعة ملهم، وقعة الخشبية، وقعة نطاع. وكان من نتائج هذه المعركة الأخيرة أن انتقلت زاعمة بين حنيفة من بني عبيدة بن ثعلبة من الدول إلى بني سحيم بن مرة بن الدول ، وانتقلت العاصمة من حجر إلى جو الخضارم

٣- استوطن اليمامة في العصر الأموي حوالي (٤٠٠)من أهل الشام بنسائهم وأطفالهم أرسلهم معاوية للعمل في مزارعة في جو الخضارم. كما استوطن عدد من الجنود المرافقين لولاة اليمامة.وعندما عُيّن نوح بن هبيرة رافقة حوالي (١٠٠٠) جندي ،وكذلك رافق الوالي على بن المهاجر حوالي(٦٠٠)من الجنود الشاميين. واستوطن اليمامة أيضا رقيق من الروم للخليفة عبدالملك بن مروان للعمل بمزارعه ، فتأذى بهم السكان ،وخرج العبيد بسيوفهم ضد السلطة المركزية في اليمامة ،فقاتلهم بنو قيس بن حنظلة من بني تميم ،فقتلوهم .وكانت ضياع ومزارع الخلفاء الأمويين تُدار من قبل عُمال مهرة استقروا في اليمامة وأصبحوا من أهلها، وكان للخليفة عمر بن عبدالعزيز ضيعة كبيرة تدر عليه وعلى أبنائه تدعى (البسيط) يعمل فيها عدد من مواليه.

٤- تحول الحياة الحضرية إلى بدوية : عند ظهور الإسلام كانت الينمامة قد قطعت شوطاً كبيراً في الحياة الحضرية ،وعرفت التمدن وارتبطت بالأرض ، وأصبح السكان مزارعين محترفين أو تجاراً مهة أو يعملون في المناجم. وارتبطت اليمامة بعلاقات تجارية قوية مع فارس ، واليمن ، والحجاز والإمارات العربية في شمال الجزيرة

العربية . وكان بعض حواضرها يُعد من الحواضر العربية وبمنزلة الكوفة والبصرة ، لكن بعد حروب الردة تغُيرت الصورة تماما

استوطن اليمامة عدد من القبائل البدوية وخاصة من بني تميم الذين تركوا الزراعة والتعدين ، واهتموا بالحياة الرعوية والغزو. صاحب ذلك هجرة بني تميم إلى الأمصار الإسلامية ، بالإضافة إلى سوء الإدارة الأموية وضعفها ، وبروز قيادات محلية ذات طموح شخصي ، كل هذا استقطب قبائل بدوية أخرى ، على رأسها قبائل عامر بن صعصعة التي جاءت إلى اليمامة في موجات عارمة واستقرت في مستوطناتها أو على تخومها ، وشكلت ضغطاً ديموغرافياً كبيرا.

لقد حاولت بنو حنيفة – أكثرية سكان اليمامة من الحضر- الوقوف في وجه هذه الهجرات ، ولكن قبائل عامر بن صعصعه أنزلت بهم هزيمة ساحقة في معركة النشناش سنة ١٢٧هـ/٧٤٤م . يبدو أن نتائج تلك المعركة كانت قاضية على الحياة المدنية في اليمامة ، إذ أصبحت الأكثرية السكانية في اليمامة من البدو ، وكانوا غير قادرين على استغلال المستوطنات زراعياً وتعدينياً ، فقل تبعاً لذلك الإنتاج المحلي ، كما أن البدو أصبحوا يهددون طرق التجارة المارة باليمامة ، أو يهددون سُبل الحجاج ، ولم تستطع الدولة الأموية من عمل يعيد الأمر إلى نصابه ، وتفاقم الأمر مما حدى بالدولة العباسية فيما بعد إلى إرسال حملة عسكرية بقيادة بُغا الكبير لتأديب بني نمير أحد فروع قبيلة عامر بن صعصعة سنة ٢٣٢هـ/٨٤٦م.

لكن الحملة جاءت متأخرة وكان الضعف قد دب في مستوطنات اليمامة ، وكثرت الانقسامات بينها ، ووجدت نفسها إما تحت رحمة التحالفات القبلية أو التحالفات الخارجية ، وأصبحت القرى والبلدان ذات الأكثرية الحضرية تقيم أسواراً حول البلدة لحمايتها من غزوات البدو. وفوق هذا أصبح لكل حاضرة بادية ترتادها ، وأصبحت بعض بلدان اليمامة ذات صبغة حضرية وبدوية كالُمحجّر الذي يقول فيه شاعر اليمامة يحيى بن أبي حفصة :

حي المحجَر ذات الحاضر البــــــادي وانعَمْ صباحا سُقيت الغَيثَ منْ وادي

٥- ونتيجة لتقهقر الحياة المدنية والحضرية لحساب البدوية ، صاحب ذلك تغير في مناحي الحياة ، وشهدت اليمامة حروباً بين الحواضر والبوادي ، وبين القبائل العربية مع بعضها البعض بدواعي الثأر القديم ، أو المنافرات أو الغزو للكسب والنهب ، وعادت أيام العرب القديمة ، ذكرت كُتب الأدب عدداً منها : يوم القاع بين أهل اليمامة بقيادة المهير بن سُليمي والوالي الأموي ؛ ويوم الفلج الأول بين بني حنيفة وبني عامر بن صعصعة ، وكانت الغلبة لبني عامر ؛ ويوم الفلج الثاني بين الطرفين نفسيهما ، انتصر فيها بنو حنيفة ؛ ويم النشناش ، وهي معركة حاسمة انتصر فيها بنو عامر على الحنفيين ، ويوم معدن الصحراء انتصر فيه بنو عامر على الحنفيين ؛ ويوم حلبان انتصر فيه

بنو حنيفة على قشير وعُكل وحلفائهم من عامر بن صعصعة ؛ ويوم ملهم وكانت الغلبة فيه لبني ثعلبة من بني تميم على بني غُبر من بني يشكر.

إن التحليل المتأني لتاريخ اليمامة في العصر الأموي يوضح بجلاء أن الخريطة السكانية قد تغيرت كثيراً عما كانت عليه قبل الإسلام، لعدة أسباب مرت معنا، وقد أدت التغيرات السكانية إلى بروز نتائج طبعت المجتمع اليمامي، وهي نتائج استمرت في البروز وأدت إلى تناقص عدد السكان الأصليين، واستمر تناقصهم إلى وقت متأخر، فقد لاحظ الرحالة الفارسي ناصر خسرو قلة سكان اليمامة عندما زارها في سنة ٤٤٣هـ/١٠٥١م.

التعليقات

(١) أبو علي بن عمر بن رسته (كان حياً سنة ٢٩٠هـ/٩٠٢م)، *الأعلاق النفيسة*، تحقيق M.J.de Goeje (ليدن: بريل، ١٨٩١/١٨٩٢) ؛ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر المقدسي (ت ٥٧٣هـ/١١٧٧م)، *أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم*، تحقيق M. J. de Goeje (ليدن: بريل ١٩٠٦م)، ٦٨ ؛ أبو القاسم محمد بن علي بن حوقل النصيبي (ت ٣٦٧هـ/٩٧٩م)، *صورة الأرض*، تحقيق M.J.de Goeje (ليدن: بريل، ١٨٧٣م)، ٢٩.

(٢) عبد الله زكريا محمد بن محمود القزويني (ت حوالي ٣٠٠هـ/٩١٢م)، *آثار البلاد وأخبار العباد* (بيروت: دار صادر، ١٩٧٩م)، ١٣.

(٣) أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن محمد بن علي، *تقويم البلدان*، تحقيق M. Reinaud et al. (باريس: دار الطباعة السلطانية، ١٨٤٠م)، ٩٧.

(٤) ولي الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م)، *كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر* (بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٩م) ٣: ٦٢٥ ؛ ومثله أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الإصطخري الفارسي (ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م)، *المسالك والممالك*، تحقيق محمد جابر عبد العال الحيني (القاهرة: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٦١م)، ٢٥.

(٥) أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد القلقشندي (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م)، *صبح الأعشى في صناعة الإنشاء*، تحقيق محمد قنديل البقلي وآخرين (القاهرة: المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٣م)، ٥: ٥٨ ؛ إبراهيم بن إسحاق الحربي (ت ٢٨٥هـ/٨٩٨م)، *المناسك وطرق الحج ومعالم الجزيرة*، تحقيق حمد الجاسر (الرياض: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٣٨٩هـ)، ٣١ ؛ أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي (ت ٤٨٧هـ/١٠٩٤م)، *معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع*، تحقيق مصطفى السقا (بيروت: عالم الكتب، ١٩٨٣م)، ٥: ١٠.

(٦) شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م)، *معجم البلدان* (بيروت: دار صادر، ١٩٥٦م)، ٣: ١٤٦.

(٧) أبو محمد بن أحمد سعيد ابن حزم الظاهري (ت٤٥٦هـ/١٠٦٣م)، *جمهرة أنساب العرب* (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٣م)، ٣١٦.

(٨) الحسن بن عبد الله الأصفهاني (ت ٣٥١هـ/٩٦٢م)، *بلاد العرب*، تحقيق حمد الجاسر وصالح العلي (الرياض: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٣٨٨هـ)، ٣٠٥.

(٩) الحسن بن أحمد يعقوب الهمداني (ت ٣٤٤هـ/٩٥٥م)، *صفة جزيرة العرب*، تحقيق محمد بن علي الأكوع (الرياض: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٣٩٤هـ)، ٣١٢ ؛ ياقوت الحموي، معجم، ٣: ١١٢ ؛ البكري، معجم، ٣: ٣٧٠.

(١٠) عبد الله بن محمد بن خميس: *المجاز بين اليمامة والحجاز* (الرياض: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٩٧٠م)، ١٢.

(١١) الأصفهاني، *بلاد العرب*، ٣٢٥.

(١٢) يقول فون جرونيام (ت ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م) إن العرب يؤمنون بما يسمى Kultrmation أكثر من إيمانهم بما يسمى Staatsnation . وتعني الأولى مجال الثقافة، وتعني الثانية مجال الدولة، وقد طور هذا المفهوم Friedrich Meinecke ويعلق جرونيام على هذا بقوله إن الإسلام نقل عرب الجزيرة من المفهوم الأول إلى المفهوم الثاني، انظر: Von Grunebam : *Nature of the Arab Unity Before Islam* في مجلة *Arabica* Leiden, Brill, 1963 , 5-7.

(١٣) ياقوت الحموي، *معجم*، ٤ :٢٦٩؛ الأصفهاني، *بلاد العرب*، ٢٥١؛ الهمداني *صفة جزيرة العرب*، ٢٥٨؛ ابن خميس، *معجم اليمامة* (الرياض: مطابع الفرزدق، ١٣٩٨هـ)، ٢ :٢٦٨.

(١٤) ياقوت الحموي، *معجم*، ٤ :٣١٨؛ الهمداني، *صفة جزيرة العرب*، ٣٠٨؛ الأصفهاني، *بلاد العرب*، ٢٢٥؛ ابن خميس، *معجم*، ٢ :٢٦٨.

(١٥) الهمداني، *صفة جزيرة العرب*، ٣٠٧؛ ياقوت الحموي، *معجم*، ٤ :١٠٣؛ أبو عبد الله محمد بن عبد الله الإدريسي (ت ٥٦٠هـ/١١٦٤م)، *نزهة المشتاق في اختراق الآفاق*، قسم من الجزء الثاني، تحقيق L. Veccia Vaglieri (نابولي: معهد الدراسات الشرقية، جامعة نابولي، ١٩٧١م)، ٢ :١٦؛ ابن خميس، معجم، ١ :٣٤٨، وقد علل ابن بليهد ذلك لأنه يحيط باليمامة كالطوق، وهو تعليل ضعيف، لأن سلسلة طويق لا تطوق اليمامة. انظر: محمد بن عبد الله بن بليهد (ت ١٣٧٧هـ/١٩٥٧م)، *صحيح الأخبار عما في بلاد العرب من الآثار*، مراجعة محيي الدين عبد الحميد (القاهرة، ١٩٧٢م)، ١ :٢٠٨.

(١٦) الهمداني، *صفة جزيرة العرب*، ٣٠٧؛ الأصفهاني، *بلاد العرب*، ١٢٢؛ ياقوت الحموي *معجم*، ٤ :٣٢٦؛ ابن خميس، *معجم*، ٢ :٢٧٤.

(١٨) ياقوت الحموي، *معجم*، ٤ :٤٥٦ : ٤٥٦؛ الأصفهاني، *بلاد العرب*، ٢٣٧؛ ابن خميس، *معجم*، ٢ :٤٤٦.

(١٨) ياقوت الحموي، *معجم*، ٢ :٢٦٧، الهمداني، *صفة جزيرة العرب*، ٣٠٧؛ حمد الجاسر، *مدينة الرياض عبر أطوار التاريخ* (الرياض: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٣٨٦هـ)، ٤٥؛ ابن خميس، *معجم*، ١ :٣٤٧. وردت اسماء الخضارم، وجو، وجو الخضارم في شعر الأعشى المعاصر لملك اليمامة: هوذة بن علي؛ انظر: الأعشى أبو بصير ميمون بن قيس بن جندل بن عوف (ت٧هـ/٦٢٨م) *ديوان الأعشى الكبير*، تحقيق محمد محمد حسين (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٣م)، ١٤١ وما بعدها.

(١٩) ياقوت الحموي، *معجم*، ٤ :٢٧١؛ ابن خميس، *معجم*، ١ :٩٥.

(٢٠) الهمداني، *صفة جزيرة العرب*، ١٥٢؛ ياقوت، *معجم*، ٤ :١٠٢؛ سعد بن عبد الله ابن جنيدل، *المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية (عالية نجد)* (الرياض: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٣٩٩هـ)، ٣ :٣٠.

(٢١) سمرة بن عمرو العنبري له سابقة في الإسلام، وله ولابنه علاقة بالرسول، وهما من بلد أسيلة في أقليم الفقي (سدير): انظر: ابن حزم، *جمهرة النسب*، ٢٠٨؛ حمد الجاسر، *ابن عربي: موطد الحكم الأموي في نجد* (الرياض: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٤٠٠هـ)، ٨.

(٢٢) أبو عمر خليفة بن خياط العصفري (ت٢٤٠هـ/٨٥٤م)، *تاريخ خليفة بن خياط*، تحقيق أكرم ضياء العمري (الرياض: دار طيبة، ١٩٨٥م)، ٢٣؛ ابن حجر، *الإصابة*، ٣ :١٦٣.

(٢٣) يرى بعض المؤرخين أن العروض اصطلاح إداري أكثر منه جغرافي. يقول البكري: لم يخرج الخليفة عمر بن الخطاب اليهود والنصارى من اليمامة والبحرين فسميت العروض. انظر: البكري، *معجم*، ١ :١٢.

(٢٤) يرى حمد الجاسر أن اليمامة لم تشكل أهمية لدى الخليفة عمر بن الخطاب. انظر: الجاسر، *ابن العربي*، ٩.

(٢٥) ياقوت الحموي، *معجم*، ١ :٣٤٧.

(٢٦) عز الدين أبو الحسن علي بن محمد ابن الأثير (٦٣٠هـ/١٢٣٢م)، *الكامل في التاريخ* (بيروت: دار الفكر، ١٣٩٨هـ)، ٤ :٤٩١؛ خليفة بن خياط، *تاريخ*، ٤٠٧.

(٢٧) ابن الأثير، *الكامل*، ٤ :٤٩١ ؛ محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م)، *تاريخ الأمم والملوك*، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٠م)، ١ :٦٢٩ ؛ جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨هـ/١١٣٤م)، *ربيع الأبرار ونصوص الأخيار*، تحقيق سليم النعمي (بغداد، ١٩٧٦م)، ١ :٥٢٠.

(٢٨) ابن الأثير، *الكامل*، ٤ :٢٢ ؛ الطبري، *تاريخ*، ٦: ١٩٣.

(٢٩) أبو العباس محمد بن يزيد المبرد (ت٢٨٥هـ/٨٩٨م)، *الكامل*، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم والسيد شحاتة (القاهرة، دار نهضة مصر، ١٩٥٦م)، ٣ :٢٩٢ ؛ وانظر رأي حمد الجاسر في كتابه *ابن العربي*، ٣٥، وفيه ما يؤيد ما ذهبنا إليه.

(٣٠) تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية (ت٧٢٨هـ/١٣٢٧م)، *منهاج السُنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية*، تحقيق محمد سالم رشاد (الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٩٨٦م)، ٣ :٦٢.

(٣١) أبو سعيد عبد الكريم بن محمد بن منصور السمعاني (ت٥٦٢هـ/١١٦٦م)، *الأنساب*، تحقيق عبد الله عمر البارودي (بيروت: دار الجنان، ١٩٨٨م) (رسم العاذرية).

(٣٢) أبو جندل عبيد بن حصين المعروف بالراعي النميري (ت٩٦هـ/٧١٤م)، *ديوان الراعي النميري*، تحقيق Rienhard Wiepert (بيروت، المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، ١٩٨٠م)، ٢٣٣.

(٣٣) أبو عبيدة، معمر بن المثنى التميمي البصري (ت ٢٠٩هـ/٨٢٤م)، *نقائض جرير والفرزدق*، تحقيق Anthony Ashley Bevan، ١ :٨١١ يوليوس فلهوزن (ت ١٣٣٦هـ/١٩١٨م)، *تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية*، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة (القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٨م)، ١٦٢ ؛ يروي البلاذري: "لما بلغ أهل اليمامة مسير أهل الشام إلى المدينة لقتال أهلها، قال رجاء النميري لقوم من الشراة: إن أهل الشام قد ساروا إلى المدينة، ولا شك أنهم يأتون مكة إن ظهروا وغلبوا على المدينة، فأخرجوا نمنع مكة ونقاتل عن حرم الله وكعبتيه، فأجابه ثمانون" أبو العباس أحمد بن يحيى البلاذري (ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م)، *أنساب الأشراف*، تحقيق إحسان عباس، ٣٩٤.

(٣٤) ابن الأثير، *الكامل*، ٢ :٤ ؛ يرى حمد الجاسر صحة ما ذهبنا إليه، انظر كتابه: *ابن عربي*، ٢٢.

(٣٥) الطبري، *تاريخ*، ٥: ٥٦٦.

(٣٦) ابن الأثير، *الكامل*، ٣ : ٢٠.

(٣٧) أحمد بن يعقوب بن واضح اليعقوبي، الكاتب (ت ٢٨٤هـ/٨٩٧م)، *تاريخ اليعقوبي* تحقيق M.T.Houtsama (ليدن: بريل، ١٨٨٣م)، ٢ :٢٧٣. دعا بعض الدارسين ما بلغه نفوذ نجدة بـ (دولة النجدات) انظر: النعمان عبد المتعال القاضي، *الفرق الإسلامية في الشعر الأموي* (القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٠م)، ١٨٢.

(٣٨) أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي (ت ٦٤٣هـ/٧٥٩م)، *مروج الذهب ومعادن الجوهر*، تحقيق يوسف أسعد داغر (بيروت: دار الأندلس، ١٩٦٥م)، ٢ :١١٤ ؛ ياقوت الحموي، معجم، ٥ :٥٦ ؛ الزمخشري، *ربيع الأبرار*، ١ : ٥٢٠.

(٣٩) ابن الأثير، *الكامل*، ٣ : ٣٥.

(٤٠) الطبري، *تاريخ*، ٦ : ١٩٣.

(٤١) يقول الفرزدق مشيداً بموقف أهل اليمامة:

لعمري لقد سلت حنيفة سلة ... سيوفاً أبت يوم الوغى أن تعبرا

جعلت لمسعود وزينب أخته ... رداء وجلباباً من الموت أحمرا (*ديوان الفرزدق*، ١ : ٢٧٩).

(٤٢) ابن الأثير، *الكامل*، ٤ : ٤٩١ ؛ ابن خلدون، *العبر*، ٥ : ١٣٤.

(٤٣) ابن الأثير، *الكامل*، ٤ : ٤٩١. وأورد لشاعر من سدوس يشيد بثورة المهير خوفاً أو طمعاً، مع أننا نميل إلى أن هدف المهير كان (حسن السماع لا الأجر) قال:

فتى راح يوم القاع روحة ماجد أراد بها حسن السماع مع الأجر

(٤٤) علي بن الحسين بن محمد الأصفهاني (ت ٣٥٦هـ/٩٦٧م)، *الأغاني*، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٦٣م)، ٢٤ : ٨٨. وانظر تعليق حمد الجاسر في كتابه *مع الشعراء: مختارات ومطالعات* (الرياض: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٤٠٠هـ)، ٨٨. قال القحيف العقيلي: يريد العقيق ابن المهير ورهطه ودون العقيق الموت ورداً وأحمرا.

(٤٥) ابن الأثير، *الكامل*، ٤ : ٤٩٢.

(٤٦) ابن الأثير، *الكامل*، ٤ : ٤٩٢.

(٤٧) ابن الأثير، *الكامل*، ٤ : ٤٩٣.

(٤٨) الأصفهاني، *الأغاني*، ٢٢ : ٢٨٧.

(٤٩) الأصفهاني، *الأغاني*، ٢٠ : ١٧١.

(٥٠) الأصفهاني، *الأغاني*، ٢١: ٢٣٠.

(٥١) الجاحظ، *المحاسن والأضداد*، تحقيق محمد سويد (بيروت، دار إحياء العلوم، ١٩٩١م)، ٦٧.

(٥٢) ياقوت الحموي، **معجم**، ٢ : ١٦١.

(٥٣) الجاسر، ابن عربي، ٤٥، نقلاً عن البلاذري، مخطوطة *أنساب الأشراف*، نسخة الرباط رقم ٧.

(٥٤) الطبري، *تاريخ*، ٦ : ١٩٣.

(٥٥) العسكر، عبد الله، "هجرة بني حنيفة إلى الأمصار الإسلامية في العصر الأموي"، مجلة *الدارة*، ١٨ (١٣١٤هـ)، ع٣، ٢٩ ٤٤.

(٥٦) أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦هـ/٨٨٩م) *الشعر والشعراء*، تحقيق أحمد محمد شاكر (القاهرة: دار إحياء التراث العربي، ١٩٧٠م)، ٩٩.

(٥٧) الأصفهاني، *الأغاني*، ١١ : ٢٣٣.

(٥٨) النميري، *ديوان الراعي النميري*، ٢٨٨.

(٥٩) عمرو بن أحمر الباهلي (ت٦٥هـ/٦٨٤م)، *ديوان عمر بن أحمر*، تحقيق حسين عطوان (دمشق: مجمع اللغة العربية)، ١٠٣-١٠٦، وفعلاً حدث ما توقعه الشاعر فقد هُجرت المناجم في سواد اليمامة.

(٦٠) الفرزدق، أبو فراس همام بن غالب بن صعصعة (ت ١١٠هـ/٧٢٨م)، *ديوان الفرزدق*، تحقيق عبد الله بن إسماعيل الصاوي (القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٣٦م)، ١ : ٣٥٢.

(٦١) ابن عبد ربه، أبو أحمد بن محمد (ت ٣٢٨هـ/٩٣٩م)، *العقد الفريد*، تحقيق أحمد أمين وآخرين (القاهرة، ١٩٥٢)، ٢ : ٩٥.

(٦٢) الجاسر، *مدينة الرياض*، ٤١.

(٦٣) معمر بن المثنى، *نقائض جرير والفرزدق*، ٢٦٦.

(٦٤) البكري، **معجم**، ١ : ٨٥.

(٦٥) أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، البصري (ت ٣٢١هـ/٩٣٣م)، *الاشتقاق*، تحقيق عبد السلام هارون (القاهرة: مطبعة السُنَّة المحمدية، ١٩٨٥م)، ٢٥، ٢٠٧.

(٦٦) جمال الدين أبو الفضل أحمد بن محمد بن منظور النيسابوري (ت ٧١١هـ/١٣١١م)، *لسان العرب*، تحقيق عبد الله علي الكبير وآخرين (القاهرة: دار المعارف)، ٧ : ٤٠٨٦.

(٦٧) الجاحظ، أبو عثمان عمر بن بحر (ت ٢٥٥هـ/٨٦٨م) *الحيوان*، تحقيق عبد السلام هارون (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٣٥٧هـ)، ٤ : ٣٨٠، وانظر أيضاً: عبد العزيز نبوي، *ديوان بني بكر*، (القاهرة: دار الزهراء للنشر، ١٩٨٩م)، ٢١.

(٦٨) الأصفهاني، *الأغاني*، ١١ : ٣١٧.

(٦٩) البكري، *معجم*، ١ : ٨٨.

(٧٠) ياقوت الحموي ، *معجم* ، ١ : ٨٨.

(٧١) انظر رأي السكوني في : ياقوت الحموي، *معجم*، ٤ : ٢٦٩.

(٧٢) مجد الدين أبو الطاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادي (ت ٧١٨هـ/١٣١٨م)، *القاموس المحيط*، ترتيب طاهر أحمد الزاوي (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٧٩م)، مادة (الهدار).

(٧٣) عن تلك الأيام انظر: البكري، *معجم*، ٤ : ١٢٥٩، ١٣٨٢ ؛ بلغ عدد الأيام بين تميم وبطون ربيعة خمسة عشر يوماً، وكلها قبل الإسلام.

(٧٤) سنعتمد في بيان السكان وتوزيعهم على المستوطنات على : الهمداني، *صفة جزيرة العرب*، ٢٩٤، ٣٠٤ ٣١١، وعلى ياقوت الحموي، *معجم البلدان*، وعلى البكري، *معجم ما استعجم*، والإحالة حسب رسم الاسم، وما عدا ذلك سنشير للمصدر، وهذا لغرض الإيجاز في الإحالات.

(٧٥) ابن حزم، *جمهرة أنساب العرب*، ٣٠٩؛ ابن عبد ربه، *العقد الفريد*، ٣ : ٣٦١.

(٧٦) ابن حزم، *جمهرة أنساب العرب*، ٣٠٩؛ ابن عبد ربه، *العقد الفريد*، ٣ : ٣٦١.

(٧٧) ابن حزم، *جمهرة أنساب العرب*، ٣٠٩؛ ابن عبد ربه، *العقد الفريد*، ٣ : ٣٦١.

(٧٨) ياقوت الحموي، *معجم*، ١ : ١٣٥.

(٧٩) ابن حزم، *جمهرة أنساب العرب*، ٤٨٠.

(٨٠) البكري، *معجم*، ١ : ٨٨، وانظر أيضاً: G.Levi Della Vida "Tamim," *Encyclopedia of Islam*, lst. ed. (Leiden:Brill, 1963).

(٨١) ابن حزم، *جمهرة أنساب العرب*، ١٤٨.

(٨٢) ابن حزم، *جمهرة أنساب العرب*، ١٤٨.

(٨٣) الأصفهاني، *الأغاني*، ١٩ : ٤٩.

(٨٤) الأصفهاني، *الأغاني*، ١٩ : ٤٩.

(٨٥) ابن حزم، *جمهرة أنساب العرب*، ٤٨٢.

(٨٦) ابن حزم، *جمهرة أنساب العرب*، ٤٨٢.

(٨٧) ابن حزم، *جمهرة أنساب العرب*، ٤٨٢.

(٨٨) البكري، *معجم*، ٤ : ١٠٢٩.

(٨٩) الأصفهاني، *بلاد العرب*، ٣٨٢.

(٩٠) ياقوت الحموي، *معجم*، ٣ : ٣٧.

(٩١) الهمداني، *صفة*، ٣٢١.

(٩٢) ابن حزم، *جمهرة أنساب العرب*، ٤٦٩.

(٩٣) ابن حزم، *جمهرة أنساب العرب*، ٤٨٠.

(٩٤) الأصفهاني، *بلاد العرب*، ٢٥٤.

(٩٥) ابن حزم، *جمهرة أنساب العرب*، ٤٥١.

(٩٦) الهمداني، *صفة*، ٣٠٦، ٣٠٨.

(٩٧) الأصفهاني، *بلاد العرب*، ٣٥٩.

(٩٨) ابن حزم، *جمهرة أنساب العرب*، ٤٣٢.

(٩٩) الأصفهاني، *بلاد العرب*، ٣٥٨.

(١٠٠) البكري، معجم ما استعجم، ١ : ٥٩، يذكر الأصفهاني أن نفراً من قريش زاروا الشاعر جرير في مرضه. انظر: *الأغاني*، ٨ : ٨٨، ويرى حمد الجاسر أن (قُريش) تصحيف (حُريش) انظر كتابه: *في الوطن العربي*: رحلات ٢ (الرياض: منشورات مجلة العرب، ١٤١٩هـ)، ٣٧.

(١٠١) يقول جرير: بني جشم لستم لهزان فانتموا لأعلى الروابي من لؤي بن غالب، *ديوان*، ٢: ١٠٢١.

(١٠٢) ياقوت الحموي، معجم، ٤ : ٣٢٦.

(١٠٣) أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري (ت ٣٧٠هـ/٩٨٠م)، *تهذيب اللغة*، تحقيق عبد السلام هارون وآخرين (القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٦ ١٩٦٩م)، ٣ : ٢٨٢.

(١٠٤) الجاسر، *ابن عربي*، ٢١٣.

(١٠٥) أبو الفيض محمد بن محمد الزبيدي (ت ١٢٠٥هـ/١٧٩٠م)، *تاج العروس من جواهر القاموس* (القاهرة: المطبعة الخيرية، ١٣٠٧هـ)، ٥ : ١٥٦ (مادة سقط).

(١٠٦) الجاسر، *ابن عربي*، ٢٤٤.

(١٠٧) ابن عبد ربه، *العقد الفريد*، ٣ : ٤١٤.

(١٠٨) الأصفهاني، *بلاد العرب*، ٢٥؛ وانظر: الهمداني صفة جزيرة العرب، ٣١٠.

(١٠٩) الطبري، *تاريخ*، ٢ : ٣٠٠.

(١١٠) جرير بن عطية الخطفي التميمي (ت١١٤هـ/٧٣٢م)، *ديوان جرير*، تحقيق نعمان محمد أمين طه (القاهرة: دار المعارف للطباعة والنشر، ١٩٦٩م)، ١ : ٥٤٥.

(١١١) الأصفهاني، *الأغاني*، ٢٣ : ٣١٠.

(١١٢) ابن الأثير، *الكامل*، ٣ : ٣٥٢.

(١١٣) ابن عبد ربه، *العقد الفريد*، ٣ : ٣٦٤.

(١١٤) المبرد، *الكامل*، ٢ : ٥٩٣.

(١١٥) جرير، *ديوان جرير*، ١ : ٥٩٨.

(١١٦) أبو عبيد الله محمد بن عمران المرزباني (ت ٣٨٤هـ/٩٤٤م)، *معجم الشعراء*، تحقيق Krenkow (القاهرة: مكتبة القدسي، ١٩٥٤م)، ٢٧٠؛ وانظر: *ديوان جرير*، ٢ : ٥٤٥.

(١١٧) ابن عبد ربه، *العقد الفريد*، ٣ : ٣٦٤.

(١١٨) الطبري، *تاريخ*، ٢ : ٢٨٤.

(١١٩) المبرد، *الكامل*، ٢ : ٦١.

(١٢٠) ابن قتيبة، المعارف، تحقيق محمد إسماعيل الصاوي (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٧٧م)، ٢١٠؛ أبو إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي (ت٣٥٦هـ/٩٦٦م)، *ذيل الأمالي والنوادر* (بيروت، دار الجيل، ١٩٨٧م)، ٢٢١؛ الأصفهاني، *الأغاني*، ٨ : ١٦٧؛ الطبري، *تاريخ*، ٨ : ٣٤٩.

(١٢١) يقول جرير: كأنه لما بدا للناس أير حمار لف في قرطاس. الجاحظ، *رسائل الجاحظ*، تحقيق عبد السلام هارون (القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٩٦٤م)، ١ : ١٨٢.

(١٢٢) أبو بكر أحمد بن محمد بن الفقيه (ت ٢٩٠هـ/٩٠٢م)، *مختصر كتاب البلدان*، تحقيق M.J.de Goeje (ليدن: بريل، ١٨٨٥م)، ٢٩. سوق الرقيق في اليمامة قديم، انظر: جمال الدين أبو محمد عبد الملك بن هشام (ت ٢١٣هـ/٨٢٨م)، *سيرة النبي*، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد (القاهرة: ١٩٣٧م)، ٣ : ٢٦٤.

(١٢٣) يقول جرير: صارت حنيفة أثلاثاً فثلثهم من العبيد وثلث من مواليها، *ديوان جرير*، ٢ : ٥٤٥.

(١٢٤) ابن الفقيه، *مختصر كتاب البلدان*، ٢٩.

(١٢٥) ابن عبد ربه، *العقد الفريد*، ٢: ١٩٢.

(١٢٦) الهمداني، *صفة جزيرة العرب*، ٢٩٧.

(١٢٧) قال الأعشى: بهم تقرب يوم الفصح ضاحية يرجو الإله بما أسدى وما صنع، *ديوان*، ١٦١.

(١٢٨) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن قيم الجوزية (ت٧٥١هـ/١٣٥٠م)، *زاد المعاد في هدي خير العباد*، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم والسيد شحاتة (القاهرة : دار نهضة مصر، ١٩٥٦م)، ١ : ٣١.

(١٢٩) جمال الدين أبو عمر يوسف بن عمر بن عبد البر (ت ٤٦٣هـ/١٠٨١م)، *الاستيعاب في معرفة الأصحاب* (بيروت، دار الفكر العربي، ١٩٧٨م)، ٢ : ٧٧٦.

(١٣٠) البلاذري، *فتوح البلدان* تحقيق M. J. de Goeje (ليدن، بريل، ١٨٦٦م)، ٣٧٢.

(١٣١) الهمداني، *صفة جزيرة العرب*، ٢٩٤.

(١٣٢) جواد علي، *المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام* (بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٧٦م)، ٩ : ٦٥٧.

(١٣٣) الطبري، *تاريخ*، ٣ : ٢٩٩.

(١٣٤) الهمداني، *صفة جزيرة العرب*، ٢٨٥.

(١٣٥) البكري، معجم، ١ : ٨٨.

(١٣٦) Hanifa, *Encyclopedia* of Islam, Ist. ed. (Leiden, Brill), 1936.

(١٣٧) ياقوت الحموي، معجم، ٣ : ١٨٨. قال شاعرهم: قتلنا قتادة يوم الستار وزيداً أسرنا لدى مُعْتَق.

(١٣٨) أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني النيسابوري (ت ٥١٨هـ/١١٢٤م)، *معجم الأمثال* (القاهرة، ١٣٥٢هـ)، ٢ : ٢٦٠.

(١٣٩) ياقوت الحموي، معجم، ٢ : ٢٦٠.

(١٤٠) ياقوت الحموي، معجم، ٤ : ٧٩١.

(١٤١) ابن الأثير، *الكامل*، ٣ : ٣٥٢.

(١٤٢) الأصفهاني، *الأغاني*، ١ : ١٤١؛ ياقوت الحموي، معجم، ١ : ٣٥٥.

(١٤٣) حمد الجاسر، *ابن عربي*، ٢١٢، نقلاً عن *أنساب الأشراف*.

(١٤٤) البكري، معجم، ٣ : ٢٣٢.

(١٤٥) أبو يوسف يعقوب بن سفيان البسوي (ت ٢٧٧هـ/٨٩٠م)، *المعرفة والتاريخ*، تحقيق أكرم ضياء العمري (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨١م)، ١ : ٥٨٦.

(١٤٦) الحربي، *المناسك*، ٦١٧.

(١٤٧) ياقوت الحموي، معجم، ٥ : ٢٨٦؛ قال الشاعر: وبالنشناش مقتلة ستبقى على النشناش ما بقي الليالي.

(١٤٨) البلاذري، *أنساب الأشراف*، ٤ : ١٢٢.

(١٤٩) ياقوت الحموي، معجم، ٥ : ٦٠.

(١٥٠) جمع حمد الجاسر بعض أيام اليمامة وما قيل فيها من شعر الفخر والمنافرات في كتابه: *ابن عربي*، ٢٤٩ ٢٦٢.

(١٥١) أبو معين الدين خسرو القبادياني المروزي (ت ٤٨١هـ/١٠٨٨م)، *سفرنامه*، تعريب يحيى الخشاب (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٧٠م)، ١٤١.

ثالثاً : الأحوال الاقتصادية

الأسواق في مكة حتى نهاية العهد الأمـــوي

عبدالعزيز بن صالح الهلابي

قسم التاريخ ، كلية الآداب ، جامعة الملك سعود

عرفت الأسواق في الجزيرة العربية قبل الإسلام واشتهر منها ، بصفة خاصة ، الأسواق الموسمية التي كانت تقام في عدد من البلدان والأماكن في أوقات محددة ومتعاقبة من كل سنة ، ويصل استمرار بعضها إلى الشهر ، ومنها أسواق عكاظ ، وذو المجاز ، ودومة الجندل ، والمُشَقَّر ، وصُحَار. وتقدم مصادرنا معلومات طيبة عنها قامت عليها عدد من الدراسات تقصت أنشطتها المتنوعة. أما هذا البحث فموضوعه أسواق بلدة مكة شرفها الله بصفتها مرفقاً هاماً من مرافقها ، ولن يعنى بالجانب التجاري إلا بقدر ما يخدم موضوع البحث. وغني عن القول أن مكة قامت في الأصل على وجود بيت الله الحرام فيها واكتسبت أهميتها بسببه ، إلا أن التجارة تمثل ، منذ أول نشأة مكة ، العامل الثاني في أهميتها ومصدر رزق أهلها ، سواء كان ذلك عن طريق اشتغال أهلها بالتجارة مع القادمين إلى بلدتهم لزيارة بيت الله ، أو عن طريق الخدمات المتنوعة التي كانوا يقدمونها لتجارة القوافل العابرة في منطقتهم في أول الأمر ، ثم تسلموا إدارة وتصريف تجارة القوافل بين اليمن والشام بعد ذلك.

وتتمثل أسواق مكة التي تدار فيها تجارتها الداخلية بسوق الحَزْوَرة وهو سوقها الرئيس ، قالت عنه المصادر : "كانت سوق مكة القديم وكان فيه مجتمع الناس للبيع والشراء."[١] ويقع ملاصقاً للحرم ودار الندوة.[٢] من هنا ندرك أن معظم فعاليات المدينة الدينية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية كانت تتم في هذه المنطقة. وسوق الحزورة كان متنوع التجارات والخدمات وبدأ شأنه يضعف في الإسلام بسبب قيام أسواق تجارية أخرى بديلة وبسبب ضم أرضه إلى توسعات المسجد الحرام المتعاقبة ، وتم ضم ما تبقى من أرضه في توسعة الخليفة العباسي المهدي في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري.[٣] ومن أسواق مكة قبل الإسلام سوق الكثيب[٤] الذي لا نعرف عن نشاطه شيئا . ومنها سوق الأبطح[٥] وسوق الليل[٦] وسوق ساعة[٧] وقد استمر نشاط هذه الأسواق في الإسلام ، وكان سوق الأبطح متنوع التجارات وتحط فيه بعض القوافل القادمة من الشام ،[٨] ومنها سوق ما بين الدارين وهو رحبة بين دار أبي سفيان ودار ابنه حنظلة ، وكانت إذا قدمت العِير (القوافل) من السراة والطائف وغير ذلك تحمل الحنطة

والحبوب والسمن والعسل تحط في هذه الرحبة وتباع فيها واستمر هذا السوق إلى أن تم تحويل أرضه إلى دور في عهد معاوية بن أبي سفيان.[٩] أما قَرْن القَرَظ وموقعه بأسفل (جبلي) أجيادين (الكبير والصغير) فكان يبتاع الناس فيه ثمر نبات القَرَظ[١٠] ويستخدم هذا الثمر لدبغ الجلود.

وهناك دور مخصصة للتجارة مثل دار صفوان بن أمية الجمحي في جنوبي مكة (المسفلة) التي كانت تسمى دار مصر، فإذا أتته القافلة أنيخت أمام تلك الدار ويأتيه الناس فيشترون منه المتاع ولا تجوز تجارته إلى غير مصر، ونسبت الدار إلى ما كان يباع فيها من بضائع ومنتجات مصر،[١١] ومثل دار السايب بن السايب المخزومي الذي كان شريكاً للنبي ﷺ في التجارة قبل البعثة وكانت تجارتهما في هذه الدار[١٢] وقد أثنى النبي ﷺ على شريكه السايب بعد أن اعتنق الإسلام فقال: "نعم الشريك السايب، لا مشاري ولا مماري ولا صخاب في الأسواق."[١٣]

وبحكم تشابه قريش وثقيف في عاداتهم وأنشطتهم يمكن الإستنتاج من أحد بنود معاهدة النبي ﷺ مع ثقيف وهو: "وإن السوق والبيع بأفنية البيوت،"[١٤] أن بعض أفنية البيوت بمكة ربما كانت تتم فيها أنشطة تجارية، خاصة إذا عرفنا قلة الأسواق بمكة قبل الإسلام مقارنة بحجم التجارة التي يديرها المكيون. وكان من مجالس أهل مكة في ذلك الزمن فناء دار أم أنمار القارية وقد وصفت هذه المرأة بأنها كانت برزة بين النساء وقد اشتهرت بأنها تبيع وتشتري.[١٥]

وأحد الأدلة على حجم التجارة المكية أن السبي في غزوة حنين (ذو القعدة سنة ٨هـ) التي حدثت بعد فتح مكة مباشرة بلغ عددهم ستة آلاف، ولما قدم الرسول ﷺ مكة أمر بسر بن سفيان الخزاعي أن يشتري لهم من مكة ثياباً فيكسوهم، فاشترى بسر ثياب المعقد وهي ضرب من برود هجر فكسا السبي كلهم.[١٦]

وأحدث الإسلام تأثيراً بالغاً في تجارة مكة الخارجية إذ فقدت مركزها المتميز في التجارة العالمية لأن ذلك المركز كان قائماً على الإفادة من الصراع العنيف بين الروم والفرس، فكانت باستقلالها ومهارة أهلها وموقعها الأمين مركزاً لنقل السلع الواردة عن طريق المحيط الهندي وكذلك نقل السلع بين الدولتين المتخاصمتين. فلما جاء الإسلام وكون دولته الواسعة وأزال الحدود الفاصلة القديمة وأحَلَّ السلم والأمن مكان الحرب والتقاطع وأنمى مراكز جديدة للاستهلاك والنشاط الاقتصادي فحول بعض أهل مكة نشاطهم إلى هذه المراكز الجديدة.[١٧]

ومما لا شك فيه أن تضاؤل تجارة مكة الخارجية ساهم بقدر كبير في ازدياد حجم التجارة الداخلية إذ أخذ المكيون يوظفون معظم أو كل رؤوس أموالهم فيها. ونعتقد أن من العوامل التي ساهمت أيضاً في نشأة الأسواق وتطور وظائفها توافر الثروات والسيولة النقدية في الدولة الإسلامية نتيجة الفتوحات والغنائم، وتوافر الفرص الاستثمارية العديدة والمتنوعة، وما صاحب ذلك من انتشار العادات الاستهلاكية في المأكل والملبس والزينة وغيرها، وقد أخذ مجتمع مكة بنصيبه من كل ذلك. وتنفرد مكة شرفها الله عن غيرها من المدن في الجزيرة العربية بقدوم أعداد كبيرة من المسلمين إليها في كل عام لأداء شعائر الحج ويقوم في هذا الموسم سوق كبير تشارك فيه كل

بلدان وسكان الدولة الإسلامية بمنتجاتها وأموالها، وهذا تغير عما كان عليه الحال قبل الإسلام حيث كان الحج مقصورا على بعض سكان الجزيرة العربية.

ومن نتائج الفتوحات وقيام الدولة الإسلامية وفود أعداد كبيرة من المسلمين الجدد من أهالي البلاد المفتوحة إلى مكة واستيطانها، بعضهم كانوا بصفتهم موالي أول الأمر ثم تحولوا إلى سادة بعد ذلك، وقد ساهم هؤلاء بفعالية في كل أوجه النشاط الاقتصادي وخاصة النشاط الحرفي. وقد أدرك الخليفة عمر بن الخطاب طموح هؤلاء وجدهم في التجارة يقول أحدهم وهو سيرين (والد محمد بن سيرين): "شهدت مع عمر بن الخطاب رضوان الله عليه لصلاة] المغرب فأتى علي ومعي رزيمة لي فقال: ما هذا معك؟ فقلت: رزيمة لي أقوم في هذا السوق فأشتري وأبيع. فقال: يا معشر قريش، لا يغلبنكم هذا وأصحابه على التجارة."[١٨]

ذكرنا فيما سبق أن بعض الأسواق في مكة يعود وجودها إلى زمن ما قبل الإسلام لكن أكثر أسواق مكة نشأت في الإسلام إلا أننا لا نعرف بدقة متى نشأت، ويمكن الاستنتاج أن بعضها يعود إلى العهد الراشدي حيث ساهم الخليفة عمر بن الخطاب في بعض تنظيمات الأسواق فيذكر أنه "أخرج الرقيق والدواب من مكة"[١٩] إلى أطرافها. ويمكن أن يكون الشاب المكي عبدالله بن عامر بن كريز (ت٥٧هـ)، الذي ولاه الخليفة عثمان بن عفان على البصرة سنة ٢٩هـ هو الذي اتخذ السوق فيها فقد اشترى دورا وهدمها وجعلها سوقا[٢٠] متأثرا بما كان في مكة من أسواق.

ومن شبه المؤكد أن الأسواق في مكة أنشئت في أزمنة متفاوتة حسب الحاجة والتطور ولم تنشأ وفق تخطيط مسبق، يدل على ذلك تحويل عدد من الدور إلى مجمعات تجارية وحرفية. وهذا التطور له عيوبه فلا تكون التجارات والحرف المتشابهة في بعض الأحيان متجاورة، فنلاحظ مثلا أن سوق الحدادين يجاور سوق الفاكهة وسوق الرطب،[٢١] كما نلاحظ تجاور سوق البزازين مع الصيارفة.[٢٢] ولسنا على يقين إن كان سوق الخياطين يجاور سوق البزازين، وإن كان تجار الجلود أو أصحاب الأدم يجاورون سوق الخرازين أو سوق الحذائين.

يحفظ لنا الأزرقي[٢٣] نصا فيما يبين كيفية نشأة بعض الأسواق: "وكانت للخطاب بن نفيل دار صارت لعمر بن الخطاب ﷺ ... وكان لها وجهان وجه على ما بين الصفا والمروة، ووجه على فج ما بين الدارين، فهدمها عمر بن الخطاب ﷺ في خلافته وجعلها رحبة ومناخا للحاج تصدق بها على المسلمين، وقد بقيت منها حوانيت فيها أصحاب الأدم، فسمعت جدي أحمد بن محمد يذكر أن تلك الحوانيت أيضا رحبة من هذه الرحبة، ثم كانت مقاعد يكون فيها قوم يبيعون في مقاعدهم، وفي المقاعد صناديق يكون فيها متاعهم بالليل، وكانت الصناديق بلصق الجدر، ثم صارت تلك المقاعد خياما بالجريد والسعف فلبثت تلك الخيام ما شاء الله، وجعلوا يبنونها باللبن النيء وكسار الأجر حتى صارت بيوتا صغارا يكرونها من أصحاب المقاعد من أصحاب الأدم بالدنانير الكثيرة

فجاءهم قوم من ولد عمر بن الخطاب من المدينة فخاصموا أولئك القوم فيها إلى قاض من قضاة أهل مكة فقضى بها للعمريين وأعطى أصحاب المقاعد قيمة ما بنوا فصارت حوانيت تكرى من أصحاب الأدم ... إلى اليوم."

ومن دراسة مواضع الأسواق يمكن القول إن معظم التجارات والحرف تتركز حول الحرم فأبوابه التي تزيد على عشرين في جهاته الأربع كلها تفضي إلى أسواق. ولعل من أهم التغيرات التي حدثت في الإسلام بالنسبة للأسواق بمكة هو نشؤ الأسواق المتخصصة مع استمرار بعض الأسواق الشاملة مثل سوق الأبطح وسوق الليل. ويعود نشؤها إلى توسع التجارة وكثرة السلع والخدمات وتنوعها التي لم تكن متوافرة قبل الإسلام، وليس إلى جهل المكيين بها فقد عرفوا الأسواق المتخصصة في الحيرة،[٢٤] وربما في بصرى ودمشق وغزة ، التي كانوا يرتادونها بتجارتهم بكثرة، لكن طبيعة تجارتهم وطبيعة الحياة في مكة في ذلك الزمن لم تكن تستدعي التخصص في الأسواق. وظاهرة التخصص في الأسواق برزت في المدن التي أنشأها المسلمون بعد الفتح ولا نعرف إن كانت مكة سبقت هذه المدن وأثرت في تخطيطها في هذا المجال كما أثرت في غيره من مرافق المدينة أم أنها وهذه المدن الجديدة تأثرت جميعا بالمدن القديمة التي فتحها المسلمون.

أما من حيث التكوين المعماري للأسواق وتوزيعها في مكة فتنقسم إلى ثلاث فئات:

الفئة الأولى: الحوانيت المتراصة والمصطفة على جوانب الشوارع وأكثر أسواق مكة من هذه الفئة.

الفئة الثانية: ما كان على هيئة مجمعات متخصصة مثل دار الحناطين التي كانت في الأصل دارا لعمرو بن عثمان بن عفان ثم حولت إلى سوق للحنطة خلال القرن الأول الهجري.[٢٥] ونعتقد أن إطلاق الحنطة عليها من باب التغليب فحسب بينما هي سوق للحبوب من حنطة وشعير وذرة ودخن ودقيق هذه الحبوب وغيرها. وسوق العطارين الذي كان في الأصل دارا للصحابي عتبة بن غزوان ثم ليعلى بن منية وكان يقع بفناء المسجد الحرام.[٢٦] وسوق البزازين في دار السايب بن أبي السايب المخزومي التي يقال لها دار سقيفة،[٢٧] والتي كانت فيها تجارة النبي ﷺ والسايب عند ظهور الإسلام. ودار الحدادين التي بسوق الليل وكانت تسمى قبل أن تكون سوقا للحدادين دار مال الله حيث يكون فيها المرضى وطعام مال الله،[٢٨] وسوق الحذائين في دار ابن عاصم،[٢٩] وتجار الخرز في دار حنظلة بن أبي سفيان،[٣٠] وأصحاب الشوحط أو سوق القواسين في دار آل قارظ القاريين،[٣١] والدقاقون والمزوقون في دار الحكم بن أبي العاص.[٣٢]

ومن الدلالات التي يمكن استنتاجها من وجود هذه المجمعات التجارية والحرفية أنه كان هناك بصفة عامة ازدهار اقتصادي في معظم أزمنة العهدين الراشدي والأموي حيث توسعت التجارة والحرف وكثر العاملون فيهما إضافة إلى قلة الأراضي في الوسط التجاري في محيط المسجد الحرام فاستدعى ذلك أن يستثمر أصحاب الرباع أو الدور دورهم سواء كانت عامرة أو خربة فحولوها إلى حوانيت نظرا لما تدره من عوائد مالية كبيرة.

ومن المحتمل أن بعض المجمعات أنشئ أصلا لغرض الاستثمار التجاري وأن تسميتها بالدار ينبغي ألا يفهم أنها عمرت لأجل السكنى فقط. ولا يستبعد أن مما شجع بعض الملاك إلى تحويل دورهم إلى مجمعات تجارية أو حرفية، إضافة إلى عوائدها المادية، رغبتهم في التوسع في المساكن في المناطق النائية نسبيا عن الحرم قلب المنطقة التجارية لأن أسعار الأراضي أرخص ومن ثم فستكون مساحة الدور أكبر.

ومن المرجح أنه كان في هذه المجمعات طبقات علوية (علالي) ذات مداخل مستقلة تستخدم للسكن فيسكنها بعض العاملين في هذه الأسواق أو بعض الذين يرتبطون معها بتجارة مثل أولئك الذين يجلبون البضائع إليها أو يشترون منها بغرض النقل والتصدير إلى أماكن أخرى.

ومن المتوقع أنها كانت تتوافر فيها باحات كبيرة أو صغيرة مكشوفة في وسطها وظلل ومرافق مثل جرار ماء الشرب والميضاءات وقد أشير إلى بركة الحناطين[٣٣] مثلا. كما تسهل حراستها والمحافظة على الأمن فيها لأن مداخلها محدودة ويمكن السيطرة عليها وربما إغلاقها ليلا.

ذكرت بعض المصادر أن الخليفة معاوية بن أبي سفيان بنى في عهده (٤٠-٦٠هـ) مجمعين تجاريين في المدينة وضرب عليهما الخراج.[٣٤] أما الخليفة هشام بن عبدالملك فجعل في عهده (١٠٥-١٢٥هـ) سوق المدينة كله مجمعا واحدا يملكه، حوانيت في الأسفل وعلالي تكرى للسكنى،[٣٥] وليس لدينا ما يفيد أن هذين الخليفتين أو غيرهما من خلفاء بني أمية قام ببناء أسواق مماثلة بمكة ليستثمرها.

ولا شك أن تجمع أصحاب كل تجارة أو حرفة في سوق واحد له منافع كثيرة منها أنه يسهل مهمة الإشراف الحكومي عليها بواسطة صاحب السوق أو المحتسب أو غيرهما. ومنها أنه يسهل على أصحاب السوق وعلى عملائهم الجالبين أو زبائنهم المشترين الكثير من الأمور المتعلقة بتجارتهم أو حرفتهم. ومنها أن التاجر الجشع لا يستطيع أن يرفع سلعته خشية منافسة جيرانه له بالسلعة ذاتها، وأن المشتري يستطيع أن ينتقي أجود ما يحتاج إليه بسعر مناسب في وقت قصير لتجاور الحوانيت المعروض فيها البضائع المتشابهة.[٣٦] ومنها أنه يسهل على أصحاب السوق تنظيم أنفسهم والتعاون فيما بينهم لحماية مصالحهم والدفاع عنها واختيار أمير أو شيخ لهم يحكمونه في خلافاتهم ويمثلهم أمام السلطة وأمام الغير.

والفئة الثالثة: من الأسواق هي تلك التي تستدعي طبيعتها أن تكون بعيدة عن وسط المدينة للتسهيل على المشتغلين فيها ولما تسببه من تضييق على الناس لو كانت تجارتها في وسط المدينة مثل تجارة المواشي التي كانت أسواقها موزعة في مواقع مختلفة من مكة فسوق الظهر (الإبل) في شماليها بقرب قرن مصقلة،[٣٧] وسوق الغنم يقع شمالاً عنه بقليل في مواجهة شعب ابن عامر،[٣٨] وسوق البقر في جنوبي مكة في أصل جبل خليفة[٣٩] (جبل قلعة أجياد). وذكر أن مكان الحمارين عند ردم بني جمح،[٤٠] لكن يبدو أن وجود أصحاب الحمير كان لتقديم خدمات النقل والتحميل ولا يمنع أنه كان يتم هنا أيضا بيع وشراء للحمير.

وسوق الحطب بجنوبي (أسفل) مكة الغربي[٤١] في مكان يسمى في الوقت الحاضر الهجلة. ومن المحتمل أنه كان يباع في هذا السوق الأعلاف مثل التبن والحشيش المجفف ونبات وثمر القرظ لدبغ الجلود، وربما الأخشاب والعسيب ونبات الإذخر لاستخدامها في بناء الدور وفي الوقود. وكان في هذا السوق بركة.[٤٢] لخدمة أصحاب السوق وربما جمالهم أيضا.

وهناك ما تستدعى طبيعته أن يكون نائيا بعض الشيء عن قلب المدينة مثل المجازر لما يترتب على الذبح من دماء ومخلفات مؤذية بمناظرها وروائحها رغم حاجة الناس اليومية إليها، وقد يعالج ذلك عن طريق الذبح في منطقة نائية ثم يتم نقل الذبائح إلى الحوانيت للتيسير على الزبائن. وكان بمكة مجزرتان إحداهما بالمعلاة شمالي مكة وتسمى مجزرة أبي دب،[٤٣] والأخرى مجزرة مكة السفلى بشعب الليل.[٤٤] ويظهر أن حصل تغير لمواضع مجازر مكة خلال القرن الأول الهجري إذ ذكر زقاق الجزارين مقابل رحبة عمر بن الخطاب.[٤٥] وأن موضع الجزارين عند دار أم هاني.[٤٦] وأن سوق الجزارين الأول في موضع دار الإمارة.[٤٧] والمرجح أن هذه الإشارات تقصد مكانا واحدا.

أما الدباغة وما ينبعث منها من روائح كريهة تؤذي كل من في الجوار فقد اجتمع بعض العاملين بها في دار خاصة في أسفل (جنوبي) مكة هي دار صفوان بن أمية الجمحي[٤٨] التي كانت تسمى دار مصر عند ظهور الإسلام، ولا نعرف إن كانت لهم مجمعات أخرى غير هذه الدار.

أما القصارون الذين يقومون بغسل الثياب وصبغها فقد ذكر أنهم كانوا في دار الوليد بن عقبة بن أبي معيط وكان من آلاتهم التي يستخدمونها المياجن،[٤٩] كما ذكر أيضا أنهم كانوا في أصل جبل قبيس وهو مكان ملائم لتوافر الماء فيه.[٥٠] وليس من الواضح إن كانت دار الوليد في أصل جبل قبيس أم أنه كان لهم مكانان أم انهم انتقلوا من أحد المكانين إلى الآخر.

وبقيت تجارة تختلف عن التجارات وأنواع الأسواق التي ذكرناها وتشترك معها كلها في الوقت ذاته وهي تجارة الرقيق. وعلى الرغم من أن قراءة التاريخ المكي تعطي الانطباع بأنها كانت تجارة واسعة إلا إن إشارات المصادر إليها مقتضبة. ومن أقدم أسواقها في مكة دار العباس التي بسوق الليل و "كان موضعها في قديم الدهر سوق يباع فيه الرقيق."[٥١] وللرقيق سوق آخر عند أصل جبل أبي قبيس بجوار فاضح.[٥٢] ولا يستبعد أن هذا السوق اتخذ بديلا عن سوق الرقيق الذي كان بدار العباس والذي أشارت إليه بعض المصادر بأن الخليفة عمر بن الخطاب "أخرج الرقيق والدواب من مكة"[٥٣] إلى أطرافها. وكان في مكة بعض الدور الخاصة بالرقيق ذكر منها "دار الزنج" لأن كان فيها رقيق زنج لابن الزبير،[٥٤] و"دار العلوج" لخالد بن العاص بن هشام المخزومي بمجتمع أجيادين كان فيها علوج له.[٥٥] ومن الأدلة على حجم أسواق الرقيق أن هشام بن عبدالملك (١٠٥-١٢٥هـ) كلف واليه على مكة أن يشتري له مائتي عبد زنجي مع زوجاتهم ليعملوا بمزارع أنشأها في المعمل[٥٦] بمنطقة بيشة. إضافة على ذلك فقد اشتهر عدد من المكيين بتدريب الجواري الحسان وتثقيفهن وتعليمهن الشعر والغناء وكن يبعن بأعلى الأثمان للخلفاء

والأمراء وأصحاب الجاه والثراء في الأمصار الإسلامية، كما برز من الرقيق المكي أشهر المغنيين في العصر الأموي.[٥٧]

ومما يلاحظ على المعلومات التي أمدتنا بها مصادر التاريخ المكي عن أسواق مكة أنها لا تخلو من بعض الإشكالات اليسيرة منها ما يتعلق بأسمائها فعلى سبيل المثال تذكر سوق الحذائين،[٥٨] وزقاق الحذائين،[٥٩] وربع الحذائين،[٦٠] والحذائين،[٦١] وواضح أنها كلها تعني شيئا واحدا. ويطلق على أحد أبواب الحرم باب السمانين،[٦٢] لكننا لا نجد ذكرا لسوق السمانين، مع أننا نجد زقاق أصحاب الشيرق[٦٣] (الشيرج) وهو زيت السمسم، والمرجح أن السمن والودك وزيوت الطعام مثل الشيرج وزيت الزيتون والخل وكذلك العسل وما شابهها أنها يضمها سوق واحد. ولا نعرف إن كان زقاق أصحاب الشيرق يقع عند أحد أبواب الحرم وهو باب السمانين أم غير ذلك.

كما نجد سوق التمارين،[٦٤] وزقاق التمارين،[٦٥] وسوق الرطب،[٦٦] ومع أن التمر والرطب مادة واحدة إلا أن الرطب يقصد به ثمرة الموسم الطرية بينما التمر اسم عام للطري وغير الطري إلا أنه أكثر ما يطلق على غير الطري، لذا نعتقد أنه رغم اختلاف الاسم فسوقهما واحد.

ومن خلال ما أمدتنا به مصادر التاريخ المكي من معلومات يمكن تصنيف أسواق مكة إلى المجموعات التالية:

الأسواق العامة:

١ - سوق الحزورة
٢ - سوق الأبطح
٣ - سوق الليل
٤ - سوق ساعة
٥ - سويقة الحرم
٦ - سويقة قعيقعان

أسواق الأطعمة

١ - سوق الحناطين ويشمل سائر تجارة الحبوب والدقيق
٢ - سوق التمارين أو سوق الرطب
٣ - سوق أصحاب الفاكهة
٤ - سوق السمانين أو سوق أصحاب الشيرق

٥ - سوق البقالين
٦ - سوق الجزارين بأعلى مكة (المعلاة) في شعب أبي دب
٧ - سوق الجزارين بأسفل مكة (المسفلة) في شعب الليل
٨ - سوق الرواسين
٩ - سوق اللبانين
١٠ - سوق الحواتين أو أصحاب السمك

أسواق التجارة المتخصصة الأخرى

١ - سوق أصحاب الأدم أو تجار الجلود
٢ - سوق أصحاب البرد وربما أنه كانوا يبيعون الملابس الجاهزة الأخرى خاصة الصوفية منها
٣ - سوق البزازين
٤ - سوق الخلقان
٥ - سوق أصحاب الخرز
٦ - الصيارفة
٧ - سوق الحطب وقد تكون تباع فيه الأعلاف والأخشاب أو تباع في سوق خاصة

أسواق الحرف الإنتاجية

١ - سوق الحذائين
٢ - سوق الحدادين
٣ - سوق النجارين
٤ - سوق الخياطين
٥ - الغزالون
٦ - الدباغون
٧ - سوق القواسين أو أصحاب الشوحط

أصحاب الحرف الخدمية

١ - سوق الحجامين وقد يكون الحلاقون معهم أو منفردين عنهم

٢ - القصارون

٣ - الحمارون

أسواق الحيوانات

١ - سوق الظهر (الإبل)

٢ - سوق الغنم

٣ - سوق البقر

٤ - سوق الدجاج والحمام والطيور

أسواق ودور الرقيق

أسواق لم تذكر

يلاحظ أن مصادرنا خلت من ذكر سوق أو تجارة الخيل والبغال رغم أهميتها وحاجة الناس إليها خاصة إذا عرفنا أن القرن الأول الهجري كان فيه الجهاد والفتوحات والتنقل بين البلدان والأمصار، والكثير من المكيين كانوا أصحاب جاه وثراء. وخلت كذلك من ذكر تجارة أو صناعة السلاح ولا شك أن كل فرد في هذا القرن كان يملك سلاحا، بل إن بعضهم عند الفتح كان يملك دروعا وأسلحة كثيرة أعارها للرسول ﷺ في غزوة هوازن[٦٧] (ذو العقدة سنة ٨هـ). أما بالنسبة للحرف التي لم تأت على ذكرها فمنها "البرامون" الذين يصنعون البرم والجرار أواني الطبخ وحفظ الماء وتبريده، وكذلك صناعة الذهب، والمعتقد أن المعدنين النفيسين كانا وافرين في حقبة الدراسة مما يستدعي وجود صاغة للذهب والفضة. كما أهملت ذكر الحصريين أو القفاصين[٦٨] الذين يعملون الحصر والأقفاص والسلال وهي من أواني ذلك الوقت الهامة، وكذلك الحبالين الذين يقومون بفتل الحبال. ولم تذكر الطحانين رغم أهمية الدقيق، وإن كان أهل كل بيت يملكون رحاهم الخاصة إلا أن هناك الكثير من الوافدين إلى مكة بغرض الزيارة أو التجارة ممن يحتاجون إلى شراء الدقيق، وكذلك أهملت ذكر الخبازين وإن ذكرت باعة الرؤوس واللبانين وكلاهما أقل أهمية من الخبز.

وظائف السوق الأخرى

علاوة على كون السوق مركزا اقتصاديا يتبادل فيه أهل مكة والواردون عليهم السلع بالبيع والشراء أو الاشتغال كوسطاء والاستفادة من أصحاب المهن فيه من خياطين وخرازين وحدادين وغيرهم فهو مركز اجتماعي هام يجتمع فيه الناس لقضاء حاجاتهم وللقاء المعارف والأصحاب ولتزجية أوقات الفراغ ويجلسون بجوار الحوانيت أو يتحلقون في الباحات لتبادل الأحاديث وسماع الأخبار والشائعات عن مجتمع مكة أو التي تجري في عاصمة

الدولة أو غيرها من الأمصار والبوادي القريبة والبعيدة، ولا بد أن بعض هذه المجالس يكون فيها العلماء وعلية القوم ويدور فيها الأحاديث الجادة في شؤون الحياة والمجتمع أو بعض المسائل العلمية أو ذات الصلة بالتاريخ والأنساب والشعر وغيرها. وبعض المجالس تكون أقل جدية أو عابثة ينعكس فيها مستوى الجالسين من شرائح المجتمع الأخرى.(٦٩) ولا شك أن بعض هذه المجالس ورثت قدرا كبيرا من وظائف النادي بمكة في عصر ما قبل الإسلام.

ومن وظائف السوق كذلك إعلام الناس بما يريد ولاة الأمر نشر بلاغه بينهم في أمر أو نهي أو تحذير من ذلك أن عمر بن الخطاب ﷺ أمر مناديا ينادي في المدينة: "لا تسلخ شاة مذبوحة حتى تبرد."(٧٠) ومن ذلك القصة الطريفة للأمير الأموي عبدالعزيز بن مروان مع الشاعر الأسود نصيب إذ أمر وكيله أن يعرض نصيبا، وهو رجل حر، في المزاد وقال: إذهب به إلى باب الجامع فناد عليه فإذا بلغ الغاية فعرفني، فنادى عليه: "من يعطى لعبد أسود جلد."(٧١)

وكذلك التشهير بمن ينزل بهم العقاب من قبل الخلفاء والولاة حتى يبلغ الشاهد الغائب، من ذلك ما عاقب به الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه حاجبه بحران حين أفضى له سرا فضربه ستين سوطا وحلق شعر رأسه وأمر أن يطاف به في السوق فقال هوذة السلمي:

وطيف في السوق أعلاها وأسفلها لم يلقه قبله في الناس مخلوق(٧٢)

كما شهر أمير مكة لهشام بن عبدالملك محمد بن هشام بن إسماعيل المخزومي بحفيد عثمان بن عفان الشاعر العرجي، لأن العرجي قتل مولى له فشكته امرأة المولى إلى أمير مكة الذي كان في الوقت ذاته يبحث عن ذريعة لعقاب الشاعر العرجي لأنه تغزل بأمه جيداء وامرأته جبرة فأشهد على عقابه الناس بسوق الحناطين بمكة ثم سجنه حتى مات.(٧٣)

العملات والموازين

عرف أهل الجزيرة العربية وخاصة أهل مكة المعدنين الذهب والفضة قبل الإسلام وتعاملوا فيهما في بيوعهم. وكان في الجزيرة العربية عدد من المناجم في بعض مناطقها إلا أن العملات المضروبة كانت ترد إليهم من خارجها من بيزنطة ومن الساسانيين، "فكانت دنانير هرقل ترد على أهل مكة في الجاهلية وترد عليهم دراهم الفرس البغلية."(٧٤) واتخذ من الدينار البيزنطي والدرهم الساساني معايير فكانت قريش تزن الفضة بالدرهم وتزن الذهب بالدينار، وكان لهم وزن الشعيرة وهو واحد من الستين من الدرهم.(٧٥) أما الرطل فهو اثنتا عشرة أوقية، والأوقية أربعون درهما، فيكون الرطل ثمانين وأربعمائة درهم. والنش نصف الأوقية حولت صاده شينا، فقيل: نش وهو عشرون درهما، والنواة وهي خمسة دراهم.(٧٦)

إذاً ولد الإسلام والعملة موجودة، وهو يبدأ من الصيرفة، ومن حرية اختيار العملات من حيث إن هذه من مبادئ الحياة التجارية.[٧٧]

وقد أقر الرسول ﷺ والخلفاء من بعده المعايير والأوزان بمكة إلى أن ضرب الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان ديناره فتعامل به المكيون مثل غيرهم من سائر مواطني الدولة الإسلامية.[٧٨] ويذكر أحد المكيين أن ابناً لأبي وداعة ابن ضبيرة السهمي أراه وزن مثقال كان عند أبي وداعة في الجاهلية فوزنه فوجده وزن مثقال عبدالملك.[٧٩]

وكان في سوق مكة منذ ما قبل الإسلام وزانون يزنون للناس في السوق بالأجر حيث يذكر الصحابي سويد ابن قيس رضي الله عنه قال: جلبتُ أنا ومخرمة العبدي بزًّا من هجر وأتينا به مكة فأتانا النبي ﷺ فابتاع منا رجْل سراويل، وثمّ وزّان يزن بالأجرة، فقال له رسول الله ﷺ "يا وزّان، زن وأرجِح."[٨٠] وبعد الفتح أقر رسول الله ﷺ موازين أهل مكة وورد عنه قوله: "الميزان ميزان أهل مكة."[٨١]

ومن المكاييل التي كان يتعامل بها الناس في أسواق مكة الصاع والمُدُّ والفَرَق والمَكُّوك وقد توسعت بعض المصادر في ذكر مقاديرها خاصة أبا عبيد،[٨٢] وذكر الأحاديث النبوية التي وردت في سياقها.

والمعتقد أنه مع كثرة الأسواق بمكة وتنظيمها وتدقيق الإشراف عليها أنه كان لدى بعض الحوانيت موازينه ومكاييله الخاصة وآخرون كانوا يزنون عند الوزانين خاصة السلع ذات الأوزان الثقيلة.

الإشراف على الأسواق

على الرغم من أهمية الإشراف على الأسواق إلا أن ما أمدتنا به المصادر من معلومات عن هذا الجانب الحيوي كان ضئيلاً جداً يقرب من التجاهل الكلي. وقد أدرك أهل مكة منذ ما قبل الإسلام أنه لا يكفي أن تكون بلدتهم حرماً يأمن فيها الناس جميعاً ولكن لا بد كذلك من منع حدوث الظلم والغبن خاصة للوافدين الذين يجلبون التجارات إليها حتى لا يحجموا عن تزويد مكة ببضائعهم، ولعدم وجود سلطة تنفيذية بمكة فقد تعاقد بعض وجهائها على منع حدوث ظلم للوافدين عليها وسمي هذا التعاقد حلف الفضول.[٨٣] ولما جاء الله بالإسلام أقر تشريعات كثيرة في القرآن الكريم والسنة المطهرة تنظم البيوع والمعاملات التجارية وتحرم الربا والغش والتدليس وبيع الغرر وكل ما يترتب عليها ظلم أو مضرة لأحد المتعاملين.

أما من الناحية التطبيقية فإن الرسول ﷺ ولى بعد فتح مكة (رمضان سنة٨هـ) مباشرة أحد وجهائها وهو سعيد بن سعيد بن العاص على السوق بمكة. ولا نعرف على وجه التحديد مهام سعيد، هل كانت للإشراف على التعامل بين أصحاب السوق، والتأكد من عدم وقوع الظلم والغش وهل كان من ضمن ذلك أخذ رسم أو ضريبة على بعض التجار أو البضائع. ومما ساهم في هذا الغموض قصر مدة ولاية سعيد على السوق، إذ أنه ما لبث أن انضم إلى الرسول ﷺ في غزوه لقبيلة هوازن (في شهر ذي القعدة سنة ٨هـ) ثم حصار الطائف الذي استشهد سعيد

أثناءه.[٨٤] ويستنتج أن الرسول ﷺ عين أخاه الحكم بن سعيد بن العاص مكانه فقد قالت بعض المصادر: "وقبض رسول الله ﷺ ... والحكم بن سعيد على السوق."[٨٥] وبعد ذلك لا تذكر مصادرنا أحدا ممن عهد إليه بالإشراف على سوق مكة مع أنها ذكرت عددا من تولوا السوق في المدينة في العهدين الراشدي والأموي.[٨٦] وقد ذكر أن عبدالله ابن أبي مليكة عينه الخليفة عمر بن الخطاب مسؤولا عن تنفيذ عقوبة الحدود بمكة،[٨٧] ولا شك أن مراقبة الأسواق وظيفة هامة ومتعددة المسؤوليات إذ قورنت بمسؤولية تنفيذ عقوبة الحدود. وهناك ما يفيد أنه كانت هناك حاجة إلى ضبط الأمن في الأسواق بمكة، فقد استأذنت هند بنت سهيل بن عمرو الخليفة عمر بن الخطاب أن تجعل على دارها بابين فأبى أن يأذن لها وقال: إنما تريدون أن تغلقوا دوركم دون الحاج والمعتمرين- وكان الحاج والمعتمرون ينزلون في عرصات دور مكة. فقالت هند: والله، يا أمير المؤمنين، ما أريد إلا أن أحفظ على الحاج متاعهم فأغلقها عليهم من السرق فأذن لها فبوبتها.[٨٨]

وكان المشرف على السوق في المدينة عبدالله بن عتبة بن مسعود وله أعوان منهم السائب بن يزيد، وكان من مهامهم أن يأخذوا من تجار الأطعمة التي يجلبونها من الشام، ويسمون النبط، من الحنطة والزيت نصف العشر(٥٪) يريد بذلك الخليفة عمر تشجيعهم على أن يكثروا الحمل إلى المدينة، ويأخذون عن الحبوب الأخرى العشر (١٠٪). وأفاد الزهري أن ذلك كان يؤخذ منهم في الجاهلية فألزمهم ذلك عمر.[٨٩]

وكان عطاء أبوخلاد يعمل محتسبا في المسجد الحرام إبان حكم ابن الزبير لمكة،[٩٠] ويظهر أن مسؤولياته لم تكن تتجاوز المسجد الحرام إلى السوق.

الخاتمة

تبين لنا من خلال هذا البحث أن تجارة مكة الداخلية قبل الإسلام كانت تدار في عدد من الأسواق والدور، وحدث بعد الإسلام تغير أساس في أسواق مكة إذ اندثرت بعض الأسواق القديمة ونشأ العديد من الأسواق في مراحل زمنية متفاوتة وذلك وفق الحاجة فحسب. ومن أهم التغيرات ظهور التخصص في الأسواق، فكان لكل أصحاب تجارة أو حرفة سوقهم الخاص. وتبين كذلك أن بيت الله الحرام كان في عصر ما قبل الإسلام وفي الإسلام المركز الذي تحيط به التجارة، فكل باب من أبوابه يفضي إلى سوق ويعكس ذلك غاية الإسلام بأن على المسلم الجمع بين العمل للآخرة والسعي الدؤوب لكسب الرزق في الدنيا.

وأمكن حصر الأسواق بمكة التي ذكرتها المصادر بـ ٣٨ سوقا، ولاحظ البحث أن المصادر أغفلت ذكر أسواق وحرف كانت هامة وضرورية. وتم تصنيف الأسواق من حيث تكوينها المعماري وتوزيعها إلى ثلاث فئات. الفئة الأولى: الحوانيت المتراصة والمصطفة على جوانب الشوارع. والفئة الثانية: المجمعات التجارية والحرفية المتخصصة وكانت في الأصل دورا أو أنشئت على هيئة الدور. والفئة الثالثة: ما استدعت طبيعته أن يكون في

أطراف مكة لأن وجودها في وسطها يسبب متاعب لأصحابها وأذى وتضييقا على الآخرين مثل أسواق الحيوانات والحطب، أو ما تسببه مخلفات من مناظر مؤذية مثل المجازر أو روائح كريهة مثل المدابغ.

وفسر البحث كثرة الأسواق وتخصصها بازدهار الحياة الاقتصادية نتيجة الفتوحات وتوسع التجارة وكثرة الوافدين إلى مكة للحج فتوافرت السيولة النقدية وانتشرت العادات الاستهلاكية في المأكل والملبس والزينة وغيرها.

وأشار البحث إلى بعض وظائف السوق مثل أهميته الاجتماعية واستخدامه من قبل ولاة الأمر لإبلاغ الناس بأمر هام أو التشهير ببعض من ينزل بهم عقوبة.

وبين العملات والموازين التي استخدمها أهل مكة قبل الإسلام والتي استمر بعضها في الإسلام. ولاحظ البحث تقصير مصادر تاريخ مكة في الاهتمام بالمعلومات الخاصة بالإشراف على الأسواق فيها.

التعليقــــات

(١) محمد بن عبدالله الأزرقي (ت٢٤٤هـ/٨٥٨م)، *أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار*، تحقيق رشدي ملحس (بيروت: دار الأندلس د.ت.)، ٢: ٦٢، ٢٩٤؛ محمد بن إسحاق الفاكهي (ت بعد سنة ٢٧٢هـ/٨٨٥م)، *أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه*، تحقيق عبدالملك بن دهيش، ط١ (مكة المكرمة: مكتبة النهضة الحديثة، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م)، ٤: ٢٠٧.

(٢) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٥٣، ٢٩٤؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ٢٠٦.

(٣) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٦٢، ٨٠.

(٤) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٩١؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١٩١.

(٥) محمد بن حبيب (ت٢٤٥هـ/٨٥٩م)، *المنمق في أخبار قريش*، تحقيق خورشيد أحمد، ط١ (بيروت: عالم الكتب، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م)، ٦١؛ أحمد بن يحيى البلاذري (ت٢٧٩هـ/٨٩٢م)، *أنساب الأشراف*، تحقيق سهيل زكار ورياض زركلي، ط١ (دمشق: دار الفكر، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م)، ١: ٢٨٢، وقد ورد في شعر العرجي:

يا ليت سَلْمَى رأتنا لاَ نزاعَ لنا   لما هبطْنا جميعاً أبطحَ السوقِ

الأصبهاني، علي بن الحسين (ت٣٥٦هـ/٩٦٧م)، *كتاب الأغاني*، ط٥ (بيروت: دار الثقافة، ١٤٠١هـ/١٩٨١م)، ٢: ٣٠٣. وحدد الفاكهي، *أخبار مكة*، ٣: ٧٩، الأبطح بقوله: "ما بين مسجد الحرس إلى حائط خرمان." وعلق محقق كتاب الفاكهي عبدالملك بن دهيش بأنه في الوقت الحاضر من مسجد الجن إلى الخرمانية، وقد أقيم على جزء كبير من حائط الخرمانية مبنى أمانة العاصمة.

(٦) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٩٨، ٢٣٩، ٢٥٦، ٢٦٥؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٢: ٨٨، ١٨٩.

(٧) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٤٢.

(٨) ابن حبيب، *المنمق*، ٦١.

(٩) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٣٩.

(١٠) الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١٩٢-١٩٣، وعلق محقق الكتاب عبدالملك بن دهيش قائلا: "وهذا القرن لا وجود له اليوم لأنه أزيل وقد صار موضعه جزءاً من ميدان باب الملك. وموضعه ما كان يعرف بزقاق البخارية يقع بين السوق الصغير وشارع المسيال ... وقد شاهدته في ذلك الوقت."

(١١) الفاكهي، *أخبار مكة*، ٣: ٣٤٢؛ ٤: ٢١٠.

(١٢) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٥٩.

(١٣) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٥٩؛ يوسف بن عمر بن عبدالبر (ت٤٦٣هـ/١٠٧٠م)، *الاستيعاب في معرفة الأصحاب*، تحقيق علي محمد البجاوي، ط١ (بيروت: دار الجيل، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م)، ٢: ٥٧٣ (ترجمة رقم ٨٩٢).

(١٤) محمد حميد الله، *الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة*، ط٤ (بيروت: دار النفائس، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)، ٢٨٥.

(١٥) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٥٥؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٣: ٢١٧.

(١٦) محمد بن عمر الواقدي (ت٢٠٧هـ/٨٢٢م)، *كتاب المغازي*، تحقيق مارسدن جونز (بيروت: عالم الكتب، د.ت.)، ٣: ٩٤٣.

(١٧) صالح العلي، *الحجاز في صدر الإسلام*، ط١ (بيروت: ١٤١٠هـ/١٩٩٠م)، ٥٥٨.

(١٨) عبدالرحمن بن علي بن الجوزي، (ت ٥٩٧هـ/١٢٠١م)، *مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب*، تحقيق زينب القاروط، ط ٣ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م)، ١٩٣.

(١٩) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ١٦٤.

(٢٠) علي بن محمد بن الأثير، (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م)، *أسد الغابة في معرفة الصحابة* (القاهرة: دار الشعب، د.ت.)، ٣: ٢٨٩ (ترجمة رقم ٣٠٣١).

(٢١) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٣٩.

(٢٢) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٥٩؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٠٨.

(٢٣) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٦٢.

(٢٤) حمدان عبدالمجيد الكبيسي، *أسواق العرب التجارية* (بغداد: وزارة الثقافة والإعلام، ١٩٨٩م)، ٣٩.

(٢٥) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٤٠، وينبغي ألا تلتبس دار الحناطين هذه التي تضم حوانيت لبيع الحنطة والحبوب بدار الحنطة التي ذكرها الفاكهي، *أخبار مكة*، ٣: ٣١٢، وموقعها في دُبُر دار الندوة، وسميت كذلك لأن عبدالله بن الزبير إبان سيطرته على مكة وضع فيها الأرزاق التي كان يجريها بمكة.

(٢٦) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٤٨؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٣: ٢٩٦، وانظر ٢: ١٧٠، ١٨٩.

(٢٧) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٥٩؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٠٨ وعنده "دار شقيقة".

(٢٨) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٣٩؛ الفاكهي *أخبار مكة*، ٣: ٢٨٨، وذكر الأزرقي أيضاً، ٢: ٦٥، "ودار الحدادين كانت لبعض بني عامر فاشتراها معاوية وبناها." ولعل معاوية جعلها في خلافته دار مال الله ثم أصبحت بعد ذلك مجمعاً لحوانيت الحدادين.

(٢٩) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٥٥؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٠٩.

(٣٠) الفاكهي، *أخبار مكة*، ٣: ٢٧٨.

(٣١) الفاكهي، *أخبار مكة*، ٣: ٣١٨.

(٣٢) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٦٥.

(٣٣) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٢٤؛ وقارن الفاكهي، *أخبار مكة*، ٣: ١٥٤، بركة الخياطين.

(٣٤) علي بن أحمد السمهودي (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م)، *وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى*، تحقيق محيي الدين عبدالحميد، ط٣ (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٠١هـ/١٩٨١م)، ٢: ٧٥٠، ٧٥٢.

(٣٥) السمهودي، *وفاء الوفا*، ٢: ٧٥٣.

(٣٦) الكبيسي، *أسواق العرب*، ٤٢.

(٣٧) الفاكهي، *أخبار مكة*، ٢٨٩؛ وقارن: الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٠١، "سوق الغنم عند قرن مسقلة."

(٣٨) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٠١، ٢٤٤، ٢٧٠. وعلق محقق الكتاب رشدي ملحس (٢: ٢٧١) قائلا: "يقع سوق الغنم قديماً في الوادي الواقع شرق جبل الرقمتين، ويسمى هذا السوق اليوم سوق الجودرية، ويوجد ثمة مسجد صغير يسمى مسجد الغنم." الفاكهي، *أخبار مكة*، ٣: ٢٨٤.

(٣٩) الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١٩١؛ وعند الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٦٦، "وحد المعلاة من زقاق البقر مصعداً إلى (جبل) قعيقعان."

(٤٠) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٤٩؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٣: ٢٧٩، ٢٩٩؛ البلاذري، *فتوح البلدان*، تحقيق رضوان محمد رضوان (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م)، ٦١.

(٤١) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٣٢؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٣: ١٥٤.

(٤٢) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٣٢؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٣: ١٥٤.

(٤٣) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٧٢؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١٢١.

(٤٤) الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١٩٥، ٢١٠.

(٤٥) الفاكهي، *أخبار مكة*، ٣: ٣١٧.

(٤٦) الفاكهي، *أخبار مكة*، ٢: ٣٦٠.

(٤٧) الفاكهي، *أخبار مكة*، ٣: ٢٧٤.

(٤٨) الفاكهي، *أخبار مكة*، ٣: ٣٤٢.

(٤٩) محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ/ ٩٢٢م)؛ *تاريخ الرسل والملوك*، تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم، ط٤ (القاهرة: دار المعارف، د.ت.)، ٦: ٨٩؛ إلهام أحمد البابطين، *الحياة الاجتماعية في مكة منذ ظهور الإسلام حتى نهاية العصر الأموي* (الرياض، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م)، ١٨٢.

(٥٠) ياقوت بن عبدالله الحموي (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م)، *معجم البلدان* (بيروت: دار صادر، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م)، ٣: ٢٢١ (س ع د).

(٥١) الفاكهي، *أخبار مكة*، ٣: ٢٧٠.

(٥٢) ياقوت، *معجم البلدان*، ٢: ٢٣١ (فاضح).

(٥٣) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ١٦٤.

(٥٤) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٥٢.

(٥٥) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٥٨.

(٥٦) ياقوت، *معجم البلدان*، ٥: ١٥٨ (المعمل).

(٥٧) البابطين، *الحياة الاجتماعية*، ١٩٧-٢٠٢.

(٥٨) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٧٥، ٩٨، ٢٣٤.

(٥٩) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٣٨؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٣: ٢٧٤.

(٦٠) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٣٤، ٢٣٨؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٣: ٢٧٤.

(٦١) الفاكهي، *أخبار مكة*، ٣: ٢٧٨.

(٦٢) الأزرقي، *أخبار مكة*، ١: ٣٠٦.

(٦٣) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٣٤؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٣: ٢٧٤، ٣٥٢.

(٦٤) الفاكهي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٠٧.

(٦٥) الفاكهي، *أخبار مكة*، ٣: ١٠٠.

(٦٦) الأزرقي، *أخبار مكة* ، ٢: ٢٣٩.

(٦٧) الواقدي، *المغازي* ، ٣: ٨٩٠.

(٦٨) قارن: محمد بن منيع بن سعد (ت ٢٣٠هـ/٨٤٤م)، *الطبقات الكبرى* (بيروت: دار صادر د.ت.)، ٥: ٨. حيث ذكر في أسواق المدينة "أصحاب الأقفاص."

(٦٩) من أمثلة ذلك ما حفظه يعقوب بن سفيان البسوي (ت ٢٧٧هـ/٨٩٠م)، *كتاب المعرفة والتاريخ*، تحقيق أكرم ضياء العمري، ط٢ (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠١هـ/١٩٨١م)، ٢: ٦٩٨، "قال سفيان: كان عمرو بن قيس يحدثه عن أمية وكنت لا أجترئ أن أسأله فيه، وكان يجالس خالد بن محمد الزهري وعبدالله بن شيبة، وكانوا من كبار قريش يومئذ، وكانوا يتجالسون في سوق الليل على باب المسجد... فاستعانني أمية أنظر له خالد بن محمد ... فلما استعانني أجترأت عليه فسألته فحدثني به."

(٧٠) عبدالرحمن بن نصر الشيزري (ت٥٨٩هـ/١١٩٣م)، *كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة*، تحقيق السيد الباز العريني (بيروت: دار الثقافة، ١٤٠١هـ/١٩٨١م)، ٢٧.

(٧١) عبدالرحمن بن القاسم الزجاجي (ت ٣٣٧هـ/٩٤٨م)، *الأمالي* (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)، ٣١.

(٧٢) عمر بن شبة (ت ٢٦٢هـ/٨٧٥م)، *كتاب تاريخ المدينة المنورة*، تحقيق فهيم شلتوت (الناشر: السيد حبيب محمود أحمد، د.ت.)، ٢: ١٠٣١.

(٧٣) الأصبهاني، *الأغاني*، ١: ٣٨٦؛ عبدالكريم النهشلي (ت ٤٠٥هـ/١٠١٤م)، *الممتع في صنعة الشعر*، تحقيق محمد زغلول سلام (الإسكندرية: منشأة المعارف، د.ت.)، ٢٣١؛ وقارن: البلاذري، *أنساب*، ٦: ٢٤٠- ٢٤٢.

(٧٤) البلاذري، *فتوح*، ٤٥٢.

(٧٥) البلاذري، *فتوح*، ٤٥٢- ٤٥٣.

(٧٦) أحمد بن علي المقريزي (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م، *شذور العقود في ذكر النقود*، تحقيق محمد عبدالستار عثمان، ط١ (القاهرة: مطبعة الأمانة، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م)، ١٠٦.

(٧٧) لويس ماسينيون، *التنظيمات الحرفية والمدنية الإسلامية*، ترجمه إبراهيم السامرائي مع أبحاث لمستشرقين آخرين ونشره بكتاب بعنوان: *من دراسات المستشرقين* (عمان: دار الفكر للنشر والتوزيع، ١٩٨٥م)، ٦٠.

(٧٨) البلاذري، *فتوح*، ٤٥٢.

(٧٩) البلاذري: *فتوح*، ٤٥٢.

(٨٠) ابن عبدالبر، *الاستيعاب*، ٢: ٦٨٠ (ترجمة رقم ١١٢١).

(٨١) المقريزي، *شذور العقود في ذكر النقود*، ١٠٨؛ وعند المبارك بن محمد بن الأثير (ت٦٠٦هـ/ ١٢٠٩م)، *النهاية في غريب الحديث والأثر*، تحقيق محمود الطناحي، ط١ (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م)، ٤: ٢١٨ (كيل): "المكيال مكيال أهل المدينة، والميزان ميزان أهل مكة." وقارن: أباعبيد القاسم بن سلام (ت٢٢٤هـ/٨٣٨م)، *كتاب الأموال*، تحقيق محمد خليل هراس (القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية، ١٤٠١هـ/١٩٨١م)، ٤٦٣: "المكيال مكيال أهل مكة والميزان ميزان أهل المدينة."

(٨٢) أبوعبيد، *كتاب الأموال*، ٤٨٥- ٤٦٨؛ وانظر مقارنتها بالأوزان في الوقت الحاضر عند: عبدالقديم زلوم، *الأموال في دولة الخلافة*، ط١ (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٣م/ ١٤٠٣هـ)، ٦٢- ٦٣.

(٨٣) ابن حبيب، *المنمق*، ٥٢، ١٨٦.

(٨٤) البلاذري، *أنساب*، ٦: ٤٧؛ عبدالله بن أحمد بن قدامة (ت ٦٢٠هـ/١٢٢٣م)، *التبيين في أنساب القرشيين*، تحقيق محمد نايف الدليمي، ط١ (بغداد: المجمع العلمي العراقي، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م)، ١٦٤.

(٨٥) خليفة بن خياط (ت ٢٤٠هـ/ ٨٥٤م)، *تاريخ خليفة بن خياط*، تحقيق أكرم ضياء العمري، ط٢ (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م)، ٢٩٧.

(٨٦) ابن سعد، *الطبقات*، ٥: ٥٨، ١٧٥؛ الأصبهاني، *الأغاني*، ٨: ٢٧٦؛ ابن قدامة، *التبيين*، ٣٨٦، ٣٩١.

(٨٧) الفاكهي، *أخبار مكة*، ٣: ٢٣٣.

(٨٨) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٦٥؛ وقارن ٢: ١٦٤.

(٨٩) مالك بن أنس (ت ١٧٩هـ/٧٩٥م)، *كتاب الموطأ* (بيروت: دار الآفاق الجديدة، ط٢، ١٤٠١هـ/١٩٨١م)، ٢٢٦-٢٢٧؛ ابن سعد، *الطبقات*، ٥: ٨.

(٩٠) الأزرقي، *أخبار مكة*، ١: ٢١٩.

العطور في مكة والمدينة في العصر الأموي

إبراهيم بن عبد العزيز الجميح
قسم التاريخ – كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة الملك عبد العزيز – جدة

أولاً : مقـــدمـــة

تعدّ العطور مظهراً من مظاهر الحضارة في التاريخ الإنساني، فمنذ أقدم العصور والإنسان يبحث عن سحر الروائح وأسرارها في محاولة منه للوصول إلى أجملها وأحلاها وأذكاها وأقواها ومعرفة تركيباتها ومصادرها الطبيعية المتعددة، ومن ثم استعمالها في حياته الاجتماعية.

وقد عرف العرب العطور قبل الإسلام وتاجروا بها واستعملوها. واستمرت العطور بعد الإسلام تحظى بنفس القيمة النفيسة فعرف المسلمون مصادرها، وجلبوها إلى الحجاز وتاجروا فيها واستعملوها في نواحي عديدة من حياتهم الاجتماعية والدينية.

وتنوعت العطور في مكة والمدينة في العصر الأموي، وازدهرت تجارتها، وراج استعمالها بين المسلمين، عند الخاصة والعلماء، وعند الإحرام وفي الأعياد ويوم الجمعة، وبين النساء، وعند الوفاة. كما استعملت العطور في الحرمين الشريفين لتبخير وتطييب المسجد الحرام والمسجد النبوي.

وبالرغم من رواج العطور وانتعاش تجارتها وتعدد استعمالاتها في الحجاز في العصر الأموي، وبالرغم – أيضاً – من اهتمام المسلمين الأوائل بالعطور وصناعتها والتأليف فيها، [١] إلا أنها لم تحظ بالدراسات الوافية في العصر الأموي، بل وتندر الدراسات عن العطور في الحجاز في العصر الأموي، ما عدا بعض المعلومات القليلة عنها في الدراسات التي تناولت تاريخ الحجاز الاقتصادي والاجتماعي. [٢]

ويبدو أن قلة الدراسات عن العطور في مكة والمدينة في العصر الأموي راجع لندرة المعلومات المتاحة في المصادر التاريخية وتشتتها في العديد والمتنوع من المصادر الإسلامية الأخرى، ككتب اللغة العربية، والمعاجم، والبلدان والرحلات، والأدب، بالإضافة لكتب التفسير والحديث. ومن هنا جاءت هذه الدراسة لتحاول أن تملأ فجوة في تاريخ الحجاز في العصر الأموي، وذلك بإلقاء الضوء على العطور أنواعها وتجارتها ورواجها

واستعمالاتها في مكة والمدينة. وهي بذلك تحاول أن تبين بأن العطور، كانت تمثل مظهراً راقياً من مظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الحجاز في العصر الأموي. وتعكس في الوقت نفسه رقي المجتمع الحجازي وغناه الحضاري والترف الذي ساد فيه في العصر الأموي.

ثانيا : تمهيد

عرف المسلمون في مكة المكرمة والمدينة المنورة أنواعاً عديدة من العطور في العصر الأموي وتاجروا بها واستعملوها في نواحي شتى من حياتهم الدينية والاجتماعية، كما طيبوا بها المسجد الحرام والمسجد النبوي. ولكن ما هي العطور ؟ وما أنواعها ؟ وما هي مصادرها ؟ ومتى كانت بداياتها ؟ وما هي أهميتها في الإسلام ؟ وما موقف الإسلام منها ؟

١ - تعريف العطور

العطور : جمع عطر، وهو اسم جامع للطيب، والعطار بائعه وحرفته العطارة.[٣] وتعدّ العطارة من الحرف القديمة المعروفة عند العرب قبل الإسلام.[٤] والعطار وإن كان اسمه قد جاء من العطر، بسبب تعاطيه بيع العطور والطيب، إلا أنه - أيضاً - صيدلي يبيع مختلف الأدوية والأعشاب والعقاقير التي تستعمل في الطب والطعام.[٥]

ويحمل العطارون عطورهم معهم في أوعية ؛ ومنها خريطة مثل الكيس تكون من أدم تسمى (القَفَدانة أو القَفَدان)، ومنها الجُونةُ وهي وعاء مستدير مغشاة أدماً يُعد فيها الطيب ويُحرز.[٦]

٢ - أنواع العطور

تعددت أنواع العطور في مكة المكرمة والمدينة المنورة، وتميز بعضها عن بعض في قيمته واستعمالاته. ويمكن تقسيم هذه العطور إلى التالي: العود، والمِسك، والعنبر، والكافور، والذَّريرة، والخلوق، والزعفران، والبان، والغالية. فما هي صفة كل نوع من هذه العطور ؟ وما هي قيمته وأهميته ؟ وما هي مصادره ؟

أ) **العود:**

العود هو الخشبة المُطراة التي يُدخَّن ويُستجمر ويُبَخر بها، يُقال تبخر بالعود أي تطيب به، وهو ذو رائحة طيبة،[٧] ومرغوبة ومفضلة. ويجلب العود من أشجار عظيمة من أرض الهند، ولاتصير له رائحة إلا بعد أن يُعتق ويُدفن في التراب وتتعفن منه أصول بعض الشجر، ويبقى صميم العود وخالصه وجوهره غير متأثر، فإذا أزيل عنه قشره وجُفف حُمل إلى كل ناحية.[٨] ومن أنواع العود (القُسْط) وهو عود يُتبخر به ويستعمل دواءً، ويستورد من

الهند، [٩] التي اشتهرت عند العرب بعطر أشجارها، فقد وُصفت الهند بأن: "بحرها در، وجبلها ياقوت، وشجرها عطر." [١٠] وعُرف أيضاً قُسْط عربي وهو (قُسْطَ ظفار). [١١] وهو نوع من الطيب وقيل من العود. [١٢] وقسط ظفار نسبة إلى مدينة ظفار في جنوب بلاد العرب وهو يجلب إليها من الهند. [١٣] ويعدّ القسط عقارًا طيب الريح تتبخر به النفساء والأطفال. [١٤]

وقد عرف العرب العود قبل الإسلام واستعملوه بخوراً لثيابهم وضيوفهم ومعابدهم وأصنامهم. [١٥] وكانوا يجمرون الكعبة بالمجامر أي يبخرونها بالعود. [١٦] كما كانوا يهدون إلى الكعبة خلوقاً [١٧] وعوداً لتطييبها وتبخيرها في داخلها وخارجها. [١٨]

وبعد الإسلام، ورد ذكر العود في الحديث النبوي وأشير إلى أهميته بوصفه علاجاً لبعض الأمراض. يقول النبي ﷺ: "عليكم بهذا العود الهندي فإن فيه سبعة أشفية يُستَعطُ به من العُذرة ويُلد بـه من ذات الجنب." [١٩] ويُطلق على العود أيضاً الألُوَّة، والألوَّة هو العود الذي يتبخر به. [٢٠] وفي حديث للنبي ﷺ في صفة أهل الجنة يقول: "آنيتهم الذهب والفضة، وأمشاطهم الذهب، وَقودُ مجامرهم الألوَّة - قال أبو اليمان: يعني العود - ورشحهم المِسك." [٢١]

ب) المِسك

المِسك هو أجود أنواع العطور وأذكاها رائحة، وهو نوع من الطيب، وكانت العرب تسميه المَشْمُومَ لأن رائحته تبقى في الأنف. [٢٢] وشاع استعمال المسك بين العرب قبل الإسلام. ويدل على ذلك وروده في أشعارهم [٢٣]. وعند ظهور الإسلام ورد ذكر المسك في القرآن الكريم كصفة لأهل الجنة، يقول تعالى: ﴿ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ۝ ﴾. [٢٤] كما ورد ذكر المسك في حديث للرسول ﷺ كصفة لأهل الجنة. [٢٥]

وقد راج استعمال المسك في عهد النبوة وانتشر في الحجاز. وكان النبي ﷺ يستعمل طيب المسك ويفضله على غيره من العطور. يقول عليه الصلاة والسلام: "أطيب طيبكم المسك." [٢٦] وتقول أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر (ت ٥٨ هـ/٦٧٨م) رضي الله عنها: "طيبت النبي بطيب فيه مسك عند إحرامه قبل أن يحرم ويوم النحر قبل أن يطوف بالبيت." [٢٧] كما ضرب الرسول ﷺ المثل بصاحب المسك (وهو العطار)، فجعله مثل الجليس الصالح للرجل فقال عليه الصلاة والسلام: "مثلُ جَليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يُحْذِيَكَ، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة. ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد ريحا خبيثة." [٢٨]

وأعدّ المِسك في عهد الرسول ﷺ من الهدايا المفضلة والقيّمة، فقد أهدى الرسول ﷺ إلى النجاشي ملك الحبشة أواقي من مِسك وحلة، ولكنه مات فردت الهدية، فوزعها الرسول ﷺ على نسائه.[٢٩]

ويُجلب المسك، وهو إنتاج حيواني، يُوجد في غُدد وسُرر نوع من الظباء والغزلان، من التُّبَّت[٣٠] وهو أفضل أنواع المسك وأذكاها رائحة، ويليه المِسك السُّغْدي،[٣١] ثم الصيني والهندي.[٣٢] والمسك ذو رائحة نفاذة قوية، يذكر اليعقوبي بأن رائحته الذكية تغلب عليه حتى أن التجار لا يمكن أن يستروه من العشارين من قوة رائحته.[٣٣]

والملاحظ، أن المسك كان يصدر للحجاز عن طريق ميناء دارين[٣٤] بالبحرين، الذي كان محطة لاستقبال السفن الحاملة للمسك من الهند.[٣٥] وكان التجار الداريين يوجدون بكثرة في المدينة المنورة في العصر الأموي.[٣٦]

جـ) العنـــبر

العنبر هو طيب معروف[٣٧] ذو رائحة ذكية. وتشير بعض المصـــادر المتاحة المتقدمة إلى أصل العنبر.[٣٨] فتذكر بعض الروايات إنه يخرج من دابة من البحر ترمي به على السواحل، فيؤخذ وهو لين ممتد، فما كان منه عذب الرائحة حسن الجوهر، فهو أفضله وأجوده.[٣٩] وتشير إلى ذلك بعض المراجع الحديثة، حيث تذكر أن العنبر مادة تتكون في أمعاء حوت العنبر.[٤٠] وقيل هو مادة شمعية الشكل تنتج في أحوال غير عادية داخل القناة الهضمية لحوت العنبر، وتطفو بالبحار الاستوائية على شكل كتلة صفراء أو سوداء، أو رمادية تستخدم لتثبيت العطور.[٤١] وأجود أنواع العنبر وأحسنه لوناً وأصفاه جوهراً، وأغلاه قيمة، العنبر الشِّحري،[٤٢] الذي يجلب من شحر عُمان، وينسب إليه، حيث يوجد على سواحله.[٤٣]

ويصنف العنبر في الغوالي،[٤٤] والبخورات، ويُطرى به العود، ويُبخر به وحده، وينصَرف في كثير من الطيب، لا يعدله في ذلك غيره.[٤٥]

وقد عُرف العنبر عند العرب قبل الإسلام وورد في أشعارهم.[٤٦] كما عرف في عهد الرسول ﷺ، حيث يروى عن أنس بن مالك (ت ٩٣هـ/٧١٢م) قوله: "ماشممت ريحاً قط مِسكاً ولا عنبراً أطيب من ريح رسول الله ﷺ، ولا مسست قط خزاً ولاحريراً ألين من كف رسول الله ﷺ."[٤٧]

د) الكافور

الكافور هو عطر ونوع من أنواع الطيب له لون أبيض يُستخرج ويُركب من شجر الكافور.[٤٨] وقد عرف العرب الكافور قبل الإسلام واستعملوه لغسيل الميت وتطييبه.[٤٩]

كما ورد ذكر الكافور في القرآن الكريم كصفة لأهل الجنة. يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝﴾ . (٥٠)

وفي عهد الرسول ﷺ استعمل الكافور للمرأة عند طهرها أثناء الحداد، لأن العطور محظورة على المرأة في حدادها على زوجها المتوفى، (٥١) وكذلك أ ستعمل الكافور كحنوط لغسل الميت في الإسلام، (٥٢) تقول أم عطية: "لما ماتت زينب بنت رسول الله ﷺ قال لنا رسول الله ﷺ: إغسلنها وتراً ثلاثاً أو خمساً، واجعلن في الخامسة كافوراً أو شيئاً من كافور، فإذا غسلتنها فأعلمنني. قالت: فأعلمناه، فأعطانا حقوة وقال أشعرنها إياه." (٥٣) ويُجلب الكافور من بلاد السند والهند والصين. (٥٤)

هـ) الذَّريرة

الذَّريرة هو ما انتحت أو فتات من قصب العود والطيب، وهو يُجلب من بلاد الهند. (٥٥) وقيل أن الذَّريرة هو نوع من الطيب مجموع من أخلاط. (٥٦) وقد عُرفت الذَّريرة في عهد الرسول ﷺ. تقول عائشة بنت أبي بكر (ت ٥٨هـ/٦٧٨م) رضي الله عنها: "طيبت رسول الله ﷺ بيدي بذريرة في حجة الوداع للحل والإحرام." (٥٧)

و) الخلوق

الخلوق طيب معروف يتخذ من الزعفران وغيره من أنواع الطيب، وتغلب عليه الحمرة والصفرة. (٥٨) وقد استعمل العرب الخلوق قبل الإسلام، ففي إيراده لحلف المطيبين يقول ابن حبيب إن عاتكة بنت عبد المطلب بن هاشم (٥٩) أخذت جفنة عظيمة فملأتها خَلوقاً ثم أقبلت بها تحملها حتى وضعتها في الحِجْر، (٦٠) وقالت: "من تطيب من هذه الجفنة فهو منا!." (٦١) وبالإضافة إلى ذلك، كانت الكعبة في الجاهلية يُهدى إليها خَلوق ومِجمر، (٦٢) وكانت تطيب بذلك في داخلها وخارجها. (٦٣) وبعد الإسلام نُهي عن استعمال الخلوق للرجال لأنه من طيب النساء. (٦٤)

ز) الزعفران

الزعفران نبات يُصبغ به وهو نوع من الطيب. (٦٥) وهو عشب مُعَمِر ذو أوراق شريطية ضيّقة، وأزهار مفردة طرفية أرجوانية اللون، والمياسم برتقالية. (٦٦) ويُجلب الزعفران من إيران والهند وبلاد الشام. (٦٧)

وقد عدّ الزعفران من طيب النساء، فقد رُوي عن الرسول ﷺ أنه نهى أن يتزعفر الرجل. (٦٨)

حـ) البَان

البان شجرة لها حب يستخرج منه دُهن البان ، وقيل : البانة شجرة لها ثمرة تخلط بأفاويه الطيب ثم يعتصر دهنها طيباً وجمعها البَانُ.[٦٩] ومن البان سليخة البان ، وهو دهن ثمرة البان قبل أن تخلط بأفاويه الطيب ، فإذا خلط ثمره بالمسك والطيب ثم اعتصر فهو منشوش أي اختلط الدهن بروائح الطيب. وسُمي بالسليخة لأن العطر يصبح كأنه قِشر منسلخ ذو شعب.[٧٠] وأشهر منابت البان بلاد الحجاز وعُمان واليمن.[٧١]

وقد عرف المسلمون البان في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ ؛ يروي ابن شبه بأن أول بان دخل المدينة كان عندما بعث عبد الله بن أبي ربيعة ،[٧٢] وهو أمير على الجند باليمن ،[٧٣] إلى عمر بن الخطاب ﷺ بمسكٍ صب فيه سليخة بان هدية له ، فلما شمه أمر أن يُرسل للصحابة فأدهنوا به وكان ذلك أول بان دخل المدينة المنورة.[٧٤]

ط) الغالية

الغالية نوع من الطيب المشهور المصنع والمركب من مسك وعنبر وعود ودهن.[٧٥] حيث تُغلى هذه الأخلاط على النار بعضها مع بعض لينتج عنها هذا الطيب الفواح.[٧٦]

هذه هي أهم أنواع العطور المعروفة في مكة المكرمة والمدينة المنورة عند ظهور الإسلام ، وقد استمرت مستعملة في عهد النبوة والراشدين وراجت في العصر الأموي وما بعده.

٣ – موقف الإسلام من العطور

استمرت العطور محببة ورائجة بعد الإسلام وذلك لطيب رائحتها وذكر بعضها في القرآن الكريم واستعمال الرسول ﷺ لها والترغيب فيها ، ولكن يلاحظ أنه بعد الإسلام قسم الطيب إلى ذكور الطيب وإلى إناثه. فأما ذكور الطيب ؛ فهو ما يصلح للرجال دون النساء ؛ كالمسك والعنبر والعود والكافور والغالية والذَّريرة.[٧٧] وكان الرسول ﷺ يتطيب بذكارة الطيب. فعندما سُألت أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر (ت ٥٨هـ/٦٧٨م) رضي الله عنها عن طيب رسول الله ﷺ قالت بأنه كانت يتطيب بذكارة الطيب وهو المسك والعنبر.[٧٨] وتتميز ذكارة الطيب بأنها يظهر ريحها ويخفى لونها. فقد رُوي عن رسول الله ﷺ قوله : "ألا أن طيب الرجل ما وجد ريحه ولم يظهر لونه ، ألا أن طيب النساء ما ظهر لونه ولم يوجد ريحه." [٧٩]

أما مؤنث الطيب ، فهو مخصص للنساء ، وهو ما ظهر لونه وخفي ريحه مثل الخَلوق والزعفران ، وتغلب عليه الحمرة والصفرة.[٨٠]

وقد أصبحت للعطور مكانة عالية في الحياة الاجتماعية بعد الإسلام. فقد كان الرسول ﷺ يكثر من استعمال الطيب. تقول أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر (ت ٥٨هـ/٦٧٨م) رضي الله عنها : "كنت أطيب رسول الله ﷺ بأطيب

ما يجد، حتى أجد وبيص الطيب في رأسه ولحيته.» (٨١) كما كان لرسول الله ﷺ طيبه الخاص. يقول أنس بن مالك (ت٩٣هـ/٧١٢م): "كانت للنبي ﷺ سُكَّة يتطيب منها." (٨٢) ولم يكتف الرسول ﷺ باستعمال الطيب، بل يُرغب ويحث المسلمين على استعمال الطيب والعطور بصفته مظهراً من مظاهر الزينة عند صلاة الجمعة. (٨٣) كما عدّ الرسول ﷺ الطيب هدية مفضلة، وحث على قبوله وعدم رده لمهديه. يقول عليه الصلاة والسلام: "من عرض عليه طيب فلا يرده، فإنه طيب الريح خفيف المحمل." (٨٤)

والمؤكد، أن قيمة العطور الكامنة فيها، ومعرفة العرب للعطور والطيب وورودها بعد الإسلام في القرآن الكريم، وحث الرسول ﷺ على استعمالها وقبول هديتها كان له دور كبير في زيادة الطلب عليها وبالتالي رواج تجارتها في الحجاز في العصر الأموي.

ثالثا: تجارة العطور في مكة والمدينة في العصر الأموي

اشتهرت مكة المكرمة والمدينة المنورة بتجارة العطور في العصر الأموي. ولعل من المفيد هنا لكي يحقق البحث أغراضه، ويتبين التطور الذي أصاب تجارة العطور، إعطاء نبذة تاريخية مختصرة عن تجارة العطور قبل العصر الأموي.

لقد عرفت قريش العطور قبل الإسلام واشتهرت بتجارتها في العطور خارج الجزيرة العربية وداخلها. أما تجارة العطور الخارجية، فكانت الحبشة وجهاً لقريش ومتجراً. (٨٥) فكانوا يقصدونها لاستيراد منتوجاتها من البخور والأطياب. (٨٦) وبالإضافة إلى الحبشة كانت الحيرة سوقاً مشهورة يأتيها العرب للتجارة في العطور، وفي نفس الوقت كان ملوك الحيرة يرسلون لطائمهم ؛ وهي العير التي تحمل الطيب، وخاصة المسك وبز التجارة، إلى سوق عكاظ - التي يقصدها العرب للتجارة - ويشترون بثمنها الأدم والحرير والبرود. (٨٧)

أما تجارة العطور الداخلية لقريش فقد ارتبطت باليمن وظفار. حيث كانت قوافل قريش تحمل من اليمن وظفار البخور واللبان والعطور. (٨٨) كما كانت العطور تُجلب - أيضا - من الهند عن طريق ميناء دارين بالبحرين. (٨٩)

ولم يقتصر الأمر على التجارة الخارجية والداخلية في العطور، بل كان بعض أهالي مكة والمدينة من الرجال والنساء يزاولون تجارة العطور قبل الإسلام وبعده. فقد كان أبو طالب (٩٠) يبيع العطر، وربما باع البُر. (٩١) وكان أمية بن خلف الجمحي يبيع العطور. (٩٢) وكان عمرو بن العاص يبيع الأدم والعطور. (٩٣) وكانت أم الخير وهي سلمى بنت صخر التيمية، (٩٤) تتاجر بالطيب وعطورها مشهورة بجودتها، حتى أنها كانت تجهز العرائس في مكة بالطيب. (٩٥) وترتب على إزدهار تجارة العطور بمكة أن أصبحت مقصداً لمن يرغب في شراء العطور. (٩٦)

أما في المدينة المنورة، فقد اشتهرت امرأة اسمها الحولاء العطارة [٩٧] ببيع العطور في عهد الرسول ﷺ. [٩٨] وكانت أسماء بنت مخرمة. [٩٩] تبيع العطور في المدينة في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ التي يبعثها إليها ولدها عبد الله بن أبي ربيعة من اليمن، فكانت تضع العطور في قوارير وتزنها فتبيع نقداً، أو ديناً، فإذا باعت ديناً كتبت ذلك في كتاب. [١٠٠]

والواقع أن تجارة العطور كانت محببة إلى المسلمين. فقد ضرب الرسول ﷺ المثل ببائع المسك فجعله مثل الجليس الصالح الذي يفيد من جلس إليه بريحه أو يشتري منه العطر. [١٠١] كما رُوي عن الخليفة عمر بن الخطاب ﷺقوله: "لو كنت تاجراً ما اخترت على العطر شيئاً فإن فاتني ربحه ما فاتني ريحه." [١٠٢]

وفي العصر الأموي أصبحت العطور في مكة المكرمة والمدينة المنورة سلعاً رائجة ومطلوبة. وساعد على رواجها طيب رائحتها، وترغيب الإسلام على التطيب، وقدوم الآلاف من المسلمين سنوياً لتأدية فريضة الحج والعمرة وزيارة مسجد الرسول ﷺ، وتوافر السيولة النقدية عند أهالي الحجاز.

ففي مكة المكرمة، انتعشت تجارة العطور في الأسواق الدائمة التي ظهرت بها، فاجتمع فيها أصحاب المهن ليكونوا سوقاً فرعية داخل السوق الكبير بمكة المكرمة. [١٠٣] وتشير المصادر إلى وجود أسواق خاصة للعطارين. [١٠٤] كما كان العديد من العطارين في مكة المكرمة يبيعون العطر في فناء المسجد الحرام. [١٠٥]

وبالإضافة إلى أسواق العطور، امتهن التجارة بالعطور العديد من أهالي مكة المكرمة، ومن هؤلاء: عبد الله بن كثير الداري (ت ١٢٠هـ/٧٣٨م)، [١٠٦] الذي اشتهر بصناعة العطور وجلبها من دارين بالبحرين، حتى أنه لقب بالداري نسبة إلى دارين. [١٠٧] وقد تنوع وتوزع نشاط عبد الله بن كثير التجاري، فقد كان له أصحاب يضاربون في العطور ويجلبونها من دارين لبيعها في مكة المكرمة. [١٠٨]

وبالإضافة إلى عبد الله بن كثير الداري، اشتهر في مكة المكرمة، من العطارين، داود بن عبد الرحمن العطار (ت ١٧٤هـ/٧٩٠م). [١٠٩] كما كان المغني الغريض [١١٠] يشتري الطيب من عطار في مكة المكرمة. حيث يروي الأصبهاني أن الغريض أعطى خادماً له رَبْعَة، وهي وعاء مخصص للعطر، وقال له: "صر إلى فلان العطار يملؤها لي طيبا." [١١١]

والجدير بالذكر، أن تجارة العطور كانت تزدهر وتنشط في مكة المكرمة خلال مواسم الحج، حيث يزداد الطلب على العطور. ففي أحد مواسم الحج، اشترى عمر بن أبي ربيعة عطراً وبزاً بألف دينار. [١١٢] ويدل هذا السعر المرتفع، والمصروف جزء منه على العطور، على قيمتها وغلاء ثمنها، والرغبة أيضا في شرائها. ومن جهة أخرى، كانت العطور المجلوبة من الطائف تباع على الحجاج في مواسم الحج، وهي عطور مصنعة من أزهار وورود الطائف. [١١٣]

والوقع أن العطور كانت سلعة مطلوبة ومفضلة في مواسم الحج. فقد كان بعض الحُجاج يشترون العطور هدايا عند مغادرتهم مكة المكرمة بعد قضائهم لفريضة الحج.[١١٤] كما كان البعض الآخر يجلبون معهم الطيب للتجارة به، مع أن الإسلام اشترط لمن يحمل الطيب للتجارة، وهو محرم، أن يستره ولا يشمه فإن شمه فعليه كفارة.[١١٥]

أما في المدينة المنورة، فقد كان للطيب والعطور مكانة وأهمية ورواج، ولا غرابة في ذلك، فإن من أسماء المدينة "طيبة والطيبة."[١١٦] ومن معاني هذا الإسم طيب رائحتها ووجود ريح العطر بها.[١١٧]

وقد راجت تجارة العطور في المدينة المنورة، ومما يدل على ذلك وجود محلات ودور خاصة بالعطارين. يذكر ابن سعد أن مسلم بن أبي مسلم الخياط المكي[١١٨] كان يسكن في المدينة دار الحَفَرَةَ وهي دار العطارين.[١١٩] كما يذكر ابن قتيبة بأن للعطارين داراً لهم بالمدية اسمها "دار العطارين."[١٢٠]

وامتهن أهالي المدينة تجارة العطور. فقد كان التاجر سيار[١٢١] يبيع العطر في المدينة.[١٢٢] كما كان للشاعر كثير عزة (ت ١٠٧هـ/٧٢٥م) دكان في المدينة يبيع فيه العطر وغيره من السلع التجارية، وكان يتولى البيع فيه غلام له.[١٢٣] ويروي الأصبهاني أن محمد بن عبد الله العثماني (ت ١٤٥هـ/٧٦٢م)[١٢٤] اشترى من عطار بالمدينة عودا بأربعمائة درهم.[١٢٥]

وخلال مواسم الحج كان تجار العطور يوجدون بأعداد كبيرة في المدينة. ففي موسم حج عام ٦٣هـ/٦٨٣م، والذي صادف موقعة الحرة، كان يقيم في المدينة أربعمائة تاجر من تجار العطور من أهل دارين.[١٢٦] وكانوا يتاجرون بالعطور المجلوبة من دارين بالبحرين، وخاصة المسك الذي يحمل إلى دارين من الهند. وقد اشتهروا بتجارتهم تلك حتى صار معنى الداري (نسبة إلى دارين) هو العطار نفسه.[١٢٧] وأصبح التجار الداريون بسبب شهرتهم على ألسنة الشعراء.[١٢٨] ويدل كثرة العطارين الداريين بالمدينة على زيادة الطلب على العطور، وخاصة في مواسم الحج، وجودة العطر المجلوب من دارين بالبحرين، وارتفاع المقدرة الشرائية عند المسلمين.

ومن جهة أخرى، كان تجار العطور من دارين يجنون أرباحاً كثيرة من بيعهم للعطور، وخاصة المسك. ومما يدل على غِنى أهالي وتجار دارين أنهم أصبحوا هدفاً للعقوبة المالية المرتفعة. فعندما أرغم أهالي المدينة التجار الداريين العطارين على المشاركة في الدفاع عن المدينة خلال وقعة الحرة سنة ٦٣هـ/٦٨٣م، كانوا يؤكدون على هويتهم التجارية فيقولون لأهل المدينة: "مالنا وهذا إنما نحن تجار."[١٢٩] ولكن، وبالرغم، من أنهم أجبروا على الدفاع عن المدينة، إلا أن الخليفة يزيد بن معاوية (٦٠-٦٤هـ/٦٨٠-٦٨٣م) كتب إلى عامله على البحرين بأن يغرّم أهل دارين أربع مائة ألف درهم.[١٣٠]

هذا وقد ارتبطت تجارة العطور في مكة المكرمة والمدينة المنورة بزيادة استهلاكها وكثرة استعمالاتها.

رابعاً : استعمالات العطور في مكة والمدينة في العصر الأموي

تعدد استعمال العطور في مكة المكرمة والمدينة المنورة في العصر الأموي وتنوعت وكان من أسباب ذلك قيمة العطور، وسحرها وذكاء رائحتها، وحث الإسلام عليها والترغيب فيها. بالإضافة إلى رواج وانتعاش تجارتها في مكة المكرمة والمدينة المنورة.

وتشير المصادر إلى استعمال العطور بين الصحابة والتابعين بصفتها مظهراً للزينة في حياتهم اليومية، وعند الإحرام، وعند الصلاة وفي يوم الجمعة والعيدين. وتطيب بها النساء، كما استعملت العطور عند الوفاة، وفي تعطير وتطييب الحرمين الشريفين.

١ - استعمال العطور كمظهر للزينة بين الصحابة والتابعين

تشير المصادر إلى النزعة الاستهلاكية للعطور عند بعض الصحابة والتابعين. حيث أصبحت مظهراً من مظاهر الزينة في حياتهم الاجتماعية. فقد كان عبد الله بن عمر بن الخطاب (ت ٧٤هـ/٦٩٣م) يَفُتُّ المِسك في الدهن ثم يدهن به.(١٣١) ويدهن في اليوم مرتين.(١٣٢) وكان إذا تبخر يجعل الكافور على العود ثم يتبخر به ويقول: "هكذا كان رسول الله ﷺ يستجمر"(١٣٣). كما كان يصفر لحيته بالزعفران والورس فيه المسك.(١٣٤) ويحبُ أي يُطيَّب زاده ومتاعه.(١٣٥)

وكان عبد الله بن العباس (ت ٦٨هـ/ ٦٨٧م) يُكثر من استعمال العطور وخاصة المسك. حتى إنه إذا مرَّ في الطريق قال الناس: "أمرَّ ابن عباس أم مرَّ المِسك"(١٣٦). كما كان ابن عباس يستعمل الريحان، وهو نبات مشموم طيب الرائحة.(١٣٧) يقول حبيب بن أبي ثابت (ت ١١٩هـ/٧٣٧م):(١٣٨) "رأيت ابن عباس... وله فينانة(١٣٩) وعليه قميص رقيق وبين يديه كبّة من ريحان."(١٤٠)

وكانت رائحة العطور تفوح من محمد بن عبد الله بن عمر بن عثمان بن عفان (ت ١٤٥هـ/٧٦٢م)،(١٤١) وتقود الناس إليه.(١٤٢)

وعُرِفَ عمر بن عبد العزيز (ت ١٠١هـ/٧٢٠م) بكثرة استعمال العطور عندما كان والياً على المدينة المنورة. وتشير المصادر إلى استهلاكه الزائد لها. حيث يروي ابن سعد أن عمر بن عبد العزيز كان من أطيب الناس ريحاً ومن أعطر رجال قريش.(١٤٣) كما يروي ابن عبد الحكم بأن ريح عمر بن عبد العزيز كانت تعصف فتوجد رائحته في المكان الذي يمر فيه.(١٤٤) ولقد وصل الأمر، ومن كثرة استعمال عمر بن عبد العزيز للعطور، إن بعض الأهالي في المدينة المنورة كانوا يعطون الغسال الدراهم الكثيرة لكي يغسل ثيابهم في أثر ثيابه من كثرة الطيب والمسك الذي علق بها وما تتركه منه في الماء،(١٤٥) بل إنه قد يتطيب بالعنبر فتبتل يده به فإذا طبع بخاتمه طينة الكتاب اتسخت الطينة من العنبر.(١٤٦)

وكان بعض تابعي المدينة يرغبون في استعمال الطيب ولا يرون في ذلك بأسا. فعندما دخل رجل على محمد ابن المنكدر (ت ١٣٠هـ/٧٤٨م) ليسأله عن الطيب والتزين وجده قاعداً، وجارية تغلفه بالغالية فقال له: "يرحمك الله، جئت أسألك عن شيء فوجدتك فيه!" فرد عليه قائلا: "على هكذا أدركت الناس." [١٤٧] وكان بعضهم يُفضل أن تبخر الثياب بالطيب بعد غسلها بالأشنان، وهو نوع من الشجر ذي رائحة عَطِرة. [١٤٨] ولعل في ذلك ترغيباً وتفضيلاً للبخور. فعندما جلس علي بن زيد بن جدعان (١٣١هـ/٧٤٨م) [١٤٩] مع محمد بن شهاب الزهري (ت١٢٤هـ/٧٤٢م) وجد ريح الأشنان في ملابس الزهري فقال له: "ألا تأمر بهما فيُجمّرا (أي يبخرا بالطيب)". [١٥٠]

والملاحظ، أن استعمال الطيب والبخور لم يكن فقط من مظاهر الزينة عند الصحابة والتابعين، بل كان أيضاً اقتداء بسنة الرسول ﷺ، وتعظيما لحديثه. فقد كان عبد الله بن عمر بن الخطاب (ت ٧٤هـ/٦٩٣م) يستن بسنة الرسول ﷺ في تطيّبه. [١٥١] وكان عروة بن الزبير (ت ٩٤هـ/٧١٣م) يسأل خالته عائشة بنت أبي بكر (ت٥٨هـ/٦٧٨م) رضي الله عنها عن طيب رسول الله ﷺ ونوعه، فتجيبه بأنها طيبت الرسول ﷺ بأطيب طيب [١٥٢]. وكان مالك بن أنس (٩٣-١٧٩هـ/٧١٢-٧٩٥م) إذا أراد أن يُحدث بحديث رسول الله ﷺ اغتسل وتبخّر وتطيّب. [١٥٣] كما كان يخرج إلى زواره مكحلاً مزيناً مطيباً قد لبس أحسن ثيابه. [١٥٤]

ولم يكتف الصحابة في محبتهم للعطور باستعمالها كمظهر من مظاهر الزينة، بل كانوا أيضا يستثمرون أموالهم فيها. فقد كان لأنس بن مالك (ت ٩٣هـ/٧١٢م) بستان يحمل في السنة الفاكهة مرتين، وكان فيها ريحان يجيء منه ريح المِسك. [١٥٥]

وبالإضافة إلى استعمال ذكارة الطيب كالمِسك والعنبر والعود، تشير المصادر إلى استعمال بعض الصحابة والتابعين للخلوق وهو من طيب النساء. [١٥٦] فقد كان عبد الله بن عمر (ت٧٤هـ/٦٩٣م) يلطخ رأسه بالخلوق بعد حلاقته. [١٥٧] كما كان عبد الله بن زيد (ت١٦٤هـ/٧٨١م). [١٥٨] يتطيب بالخلوق ثم يجلس في المجلس. [١٥٩]

ومن ناحية أخرى، تطورت صناعة العطور المستعملة في مكة والمدينة في العصر الأموي. فقد عُرفت (الغالية) في عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان (٤١-٦٠هـ/٦٦١-٦٨٠م)، وهي من أجود أنواع العطور المركبة، من طيب المسك والعنبر والعود والدهن، بعد غليها على النار. [١٦٠] وكان أول من عمل الغالية بالحجاز عبد الله بن جعفر بن أبي طالب (ت ٨٠هـ/٦٩٩م)، [١٦١] وأول من سماها بالغالية معاوية بن أبي سفيان. [١٦٢] فقد دخل عبد الله بن جعفر على معاوية بن أبي سفيان وطيبه بالغالية، فسأله معاوية عنها وعن كيفية صنعها، فحدثه عبد الله بن جعفر عن ذلك، فقال معاوية: "أنها غالية." [١٦٣] وفي رواية أخرى أن عبد الله بن جعفر دخل على معاوية ورائحة الطيب تفوح منه، فقال له: ما طيبك ياعبد الله؟ فقال: مسك وعنبر جمع بينهما دهن بان، فقال معاوية: غالية أي ذات ثمن غالٍ. [١٦٤]

والملاحظ ، أن عطر الغالية لم تكن متاحة للجميع من الناس ، لقيمتها وغلاء ثمنها ، ولذلك كان يستعملها من يملك النقد لشرائها والتمتع بطيبها. فإذا كان عبد الله بن جعفر بن أبي طالب (ت ٨٠ هـ/٦٩٩م) ، وهو كثير المال ، أول من استعمل الغالية ، فقد كان عثمان بن عروة بن الزبير (ت ١٣٦هـ/٧٥٣م) ، وهو من أغنياء ووجوه قريش وساداتهم ، [١٦٥] يُكثر من استعمال الغالية. حتى إنه عندما ينهي صلاته كان الناس يأتون ليستلون الغالية التي علقت على الحصباء من لحيته. [١٦٦]

وبالإضافة إلى صناعة واستعمال العطور المركبة ، الغالية الثمن ، تطورت أيضا أوعية العطور ، فلم يقتصر الأمر على استعمال أوعية الخشب والقوارير ، [١٦٧] بل وصل التطور إلى استعمال الأوعية المصنوعة من العاج والمستخرج من عظام الفيل. يروي ابن سعد أن المسور بن مخرمة (ت ٦٤هـ/٦٨٣م) [١٦٨] كان يَدهَّن في مَدهْن من عظام الفيل. [١٦٩]

٢ – استعمال العطور عند الإحرام

كانت العطور تستعمل عند الإحرام ، سواء لأداء فريضة العمرة أو الحج أو كلاهما. وكان بعض الصحابة والتابعين يستعملون العطور ، فيدهنون أجسامهم بالطيب ويكثرون من استعمال المسك قبل إحرامهم ، وكانوا في ذلك يقتدون بسنة الرسول ﷺ وفعله قبل إحرامه. تقول عائشة بنت أبي بكر (٥٨ هـ/٦٧٨م) رضي الله عنها : "كنت أطيب رسول الله ﷺ لإحرامه حين يحرم ، ولحله قبل أن يطوف بالبيت ." [١٧٠] كما قالت – رضي الله عنها : " كأني أنظر إلى وبيص الطيب في مفارق رسول الله ﷺ وهو محرم." [١٧١] وفي رواية أخرى : "كأني أنظر إلى وبيص المسك في رأس رسول الله ﷺ وهو محرم." [١٧٢]

وكان أزواج الرسول ﷺ يستعملن المسك. يُروى عن عائشة – رضي الله عنها – قولها : "كنا نخرج مع النبي ﷺ إلى مكة فنُضمد جباهنا بالسُّك [١٧٣] المطيب عند الإحرام ، فإذا عرقت إحدانا سال على وجهها فيراه النبي ﷺ فلا ينهاها." [١٧٤] كما يُروى أيضاً أن أزواج الرسول ﷺ كن يتخذن عصائب فيها الورس والزعفران فيعصبن بها رؤوسهن أسافل أشعارهن على جباههن قبل أن يُحرمن. [١٧٥]

وتشير المصادر إلى استعمال بعض الصحابة والتابعين في الحجاز للطيب والعطور عند الإحرام. يروي ابن سعد أن الحسين بن علي بن أبي طالب (ت ٦١هـ/٦٨٠م) كان يَدْهن عند الإحرام بالزيت ويَدهن أصحابه بالدهن المطيب. [١٧٦] وكان ابنه علي ابن الحسين (ت٩٤هـ/٧١٣م) يدهن أو يتطيّب بعد الغسل إذا أراد أن يحرم. [١٧٧]

واستعمل بعض الصحابة والتابعين أيضاً الغالية والمِسك والذَّريرة بكثرة عند إحرامهم. فعندما أحرم عبد الله ابن العباس (ت ٦٨هـ/٦٨٧م) ، كانت الغالية على صلعته كأنها الرُّبَّ. [١٧٨] وكان عبد الله بن الزبير (ت ٧٣هـ/٦٩٢م) يُكثر من استعمال المِسك والطيب على رأسه عند إحرامه. يقول مسلم بن صبيح الكوفي العطار (ت

١٠٠هـ/٧١٩م): [١٧٩] "رأيت على رأس ابن الزبير من المسك ما لو كان لي كان رأس مال." [١٨٠] وفي رواية أخرى: "رأيت ابن الزبير وهو محرم، وعلى رأسه ولحيته من الطيب ما لوكان لرجل لاتخذ منه رأس مال."[١٨١]

كما استعمل بعض الصحابة والتابعين الذَّريرة [١٨٢] والمسك المسحوق قبل إحرامهم. يُروى عن عائشة بنت سعد بن أبي وقاص [١٨٣] أنها كانت تطيب أباها سعد بن أبي وقاص (ت٥٥هـ/٦٧٥م) قبل إحرامه بالذَّريرة المُمَسّكة، وفي رواية: "بالمِسك والذَّريرة." [١٨٤] كما كان عبد الله بن جعفر بن أبي طالب (ت ٨٠هـ/٦٩٩م)، يسحق المسك، ثم يجعله على يافوخه [١٨٥] إذا أراد أن يحرم. [١٨٦]

وخلال تأدية فريضة الحج أو العمرة، وسع بعض الصحابة والتابعين في شم بعض العطور النباتية كالريحان للمحرم. فقد رُوي عن عبد الله بن عباس (ت ٦٨هـ/٦٨٧م) قوله: " يشم المحرم الريحان." [١٨٧] وكان عطاء بن أبي رباح (ت ١١٤هـ/٧٣٢م) لا يرى بأساً بشم الريحان مع كراهيته له. [١٨٨]

٣ - استعمال العطور عند الصلاة وفي يوم الجمعة والعيدين

حث الإسلام على الطهارة والنظافة عند كل صلاة المتمثلة في الوضوء والسواك. وكان السواك مظهراً من مظاهر النظافة والرائحة الطيبة للفم، وقد سنه الرسول ﷺ يقول عليه الصلاة والسلام: "لولا أن أشق على أمتي - أو على الناس - لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة." [١٨٩]

كما سنَّ الرسول ﷺ التطيّب في صلاة الجمعة وصلاة العيدين. أما في صلاة الجمعة فقد ورد عن الرسول ﷺ قوله في جمعة من الجُمع: "يامعشر المسلمين! إن هذا يوم جعله الله عيداً فاغتسلوا. ومن كان عنده طيب فلا يضره أن يمس منه. وعليكم بالسواك." [١٩٠] كما ورد عنه ﷺ قوله: "لا يغتسل رجل يوم الجمعة ويتطهر ما استطاع من طهر ويَدَّهِن من دهنه أو يمس من طيب بيته، ثم يخرج فلا يُفرَّق بين اثنين، ثم يصلي ما كُتب له، ثم ينصت إذا تكلم الإمام، إلا غُفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى."[١٩١]

وقد اقتدى الصحابة والتابعون بسنة الرسول ﷺ في استعمال العطور والطيب عند الصلاة وخاصة صلاة الجمعة. فقد كان عبد الله بن عمر بن الخطاب (ت ٧٤هـ/٦٩٣م) يتطيّب يوم الجمعة. يروي مالك بن أنس (ت ١٧٩هـ/٧٩٥م) أن عبد الله بن عمر كان لا ذهب إلى صلاة الجمعة إلا أدَّهن وتطيّب. [١٩٢] وكان يأمر بأن تبخر ثيابه بالطيب عند كل جمعة. [١٩٣] ويروى عن نافع (ت١١٧هـ/٧٣٥م) - مولى عبد الله بن عمر - إنه طيب لإبن عمر ثوبين يوم الجمعة، في المدينة، وهما حُلة بُرود. [١٩٤] بل ويذكر أن ريح الطيب كانت تفوح من ثياب عبد الله ابن عمر التي أعدها لصلاة يوم الجمعة. [١٩٥] وبالإضافة إلى عبد الله بن عمر كان سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن ابن عوف (ت ١٢٥هـ/٧٤٣م) [١٩٦] يتطيّب إذا خرج إلى المسجد [١٩٧] للصلاة.

وكان الصحابة يتطيّبون في العيدين، عيد الفطر وعيد الأضحى، فقد ورد عن الحسن بن علي بن أبي طالب (ت٥١هـ/٦٧١م) قوله: "أمرنا رسول الله ﷺ في العيدين أن نلبس أجود ما نجد وأن نتطيب بأجود ما نجد وأن نضحي بأثمَن ما نجد" (١٩٨). ويُروى أن عبد الله بن عمر (ت ٧٤هـ/٦٩٣م) كان يتطيب للعيد. (١٩٩)

كما كانوا يتطيّبون بعد الإحلال من الإحرام وقبل رمي الجمار، اقتداءً بسنة الرسول ﷺ. تقول عائشة بنت أبي بكر (ت ٥٨ هـ/٦٧٨م) رضي الله عنها: "كنت أطيب رسول الله ﷺ لإحرامه قبل أن يحرم. ولحله قبل أن يطوف بالبيت." (٢٠٠) وقد اتبع الصحابة سنة رسول الله ﷺ في استعمال الطيب بعد رمي الجمار. فعندما كان عبد الله بن العباس (ت ٦٨هـ/٦٨٧م) يُحدَّث عن رسول الله ﷺ أنه قال: "إذا رميتم الجمرة فقد حل لكم كل شيء إلا النساء،" سأله رجل عن الطيب، فقال ابن عباس: "أما أنا فرأيت رسول الله ﷺ يضمخ رأسه بالمسك أفطيب ذلك أم لا ؟ !." (٢٠١) وعندما حج الخليفة الوليد بن عبد الملك (٨٦-٩٦هـ/٧٠٥-٧١٥م)، سأل عن استعمال الطيب بعد أن رمي الجمرة وحلق رأسه، وقبل أن يفيض فرخص له خارجة بن زيد بن ثابت الأنصاري (ت ١٠٠هـ/٧١٩م) في استعماله. (٢٠٢)

٤ – استعمال العطور بين النساء

راج استعمال العطور بين النساء في مكة والمدينة. ولا غرابة في ذلك فالطيب والعطور مرتبطة بالمرأة وهو من مظاهر زينتها وحياتها الاجتماعية.

والملاحظ أنه في عهد الرسول ﷺ أصبح الطيب مطلوبا لتجهيز العروس بعد الخطبة. فعندما أعد علي بن أبي طالب - ﷺ - مبلغ أربعمائة وثمانين درهماً لزواجه من فاطمة رضي الله عنها، قال له الرسول ﷺ: "اجعل ثلثين في الطيب وثلثا في المتاع." (٢٠٣)

وفي عهد الخليفة عثمان بن عفان ﷺ. استعملت النساء الطيب في المدينة وتميّزن به. فعندما جهز الفرافصة الكلبي ابنته نائلة إلى الخليفة عثمان بن عفان ﷺ، قال لها: "يابنيه إنك تقدمين على نساء قريش وهن أقدر على الطيب منك." (٢٠٤)

ثم راج استعمال العطور بين النساء في الحجاز في العصر الأموي فاستعملن الطيب والعود والريحان في مجالسهن. فقد كانت عائشة بنت طلحة بنت عبيد الله التيمي (٢٠٥) تعتني بطيبها وعطرها. وقد دعت يوما نسوة من قريش وأجلستهن في مجلس فيه الريحان والطيب والمِجْمَرُ (٢٠٦) أي العود الذي يتبخر به.

كما شاع استعمال المسك بين النساء، فقد رُوي أن رقية بنت عبد الواحد بن أبي سعد العامرية كانت تطوف وتقبل الحجر الأسود وفاحت منها رائحة المسك حتى عجب كل من في المسجد وكأنما فُتِحتْ بين أهل المسجد لطيمة عطار. (٢٠٧)

وتغنى الشعراء بالنساء اللاتي يفوح منهن عطر المسك. يصف الشاعر جميل (ت ٨٢ هـ/٧٠١م) عطر صاحبته بثينة بقوله:

كأن فتيت المسك خالط نشرها   تغل به أردانها والمرافقا [٢٠٨]

وعندما سمع النعمان بن بشير [٢٠٩] (ت ٦٤هـ/٦٨٣م) من يردد قول الشاعر قيس بن الخطيم [٢١٠] في أمه عَمْرة بنت رَواحه: [٢١١]

وعمرة من سروات النساء   تنفح بالمِسك أردانها

لم يعاتب من ردد ذلك، بعد أن أسكته الناس، بل قال النعمان: "ما قال إلا حقا ولم يقل سُوء." [٢١٢]

كما تغنى الشاعر النميري [٢١٣] بزينب بنت يوسف بن الحكم، أخت الحجاج بن يوسف الثقفي، فصور مسيل وادي بطن نعمان بين الطائف ومكة [٢١٤] يفوح بالمِسك إذا مشت فيه.

وفي ذلك يقول:

تضَوَّع مسكاً بطن نعمان إذ مشت   به زينب في نسوة عَطِرات [٢١٥]

وبالإضافة إلى المسك، استعملت النساء الخلوق عند الزفاف في الحجاز. وكانت أم منظور [٢١٦] تجلو النساء أي تمشط شعرهن وتزينهم وتعطرهن. [٢١٧] ويصف الأصبهاني جلوة أم منظور لإحدى النساء بقوله: "ألبستها قلادة بلح ومخنقة بلح واسطتها تفاحة، وضفرت شعرها وجعلت في فرقها شيئا من الخلوق." [٢١٨]

والملاحظ أن النساء القادرات كن يهدين العطور القيمة لأقاربهن. فقد أهدت سكينة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب (ت ١١٧هـ/٧٣٥م) أحد أخوالها عطر الغالية. [٢١٩]

وهكذا، كان استعمال العطور شائعاً بين النساء في الحجاز في العصر الأموي، باستثناء المرأة المتوفي عنها زوجها. فقد كانت تحد عليه، وتجتنب الطيب. [٢٢٠] وقد حدث بذلك الصحابة والتابعون في الحجاز. يقول عبد الله بن عمر (ت ٧٤هـ/٦٩٣م): "إذ توفي عن المرأة زوجها لم تكتحل ولم تطيب ولم تختضب." [٢٢١] ويقول عطاء بن أبي رياح (ت ١١٤هـ/٧٣٢م) - عن المرأة المتوفى عنها زوجها: "لاتمس بيدها طيبا مسيسا." [٢٢٢] ويوضح ربيعة بن أبي عبد الرحمن (ت ١٣٣هـ/٧٥١م) [٢٢٣] ما تجتنبه المرأة المتوفي عنها زوجها من الطيب بقوله: "تتقي الطيب كله وتحذر من اللباس ما فيه طيب وتتقي شهرة الثياب ولاتحنط بالطيب ميتا." [٢٢٤]

٥ - استعمال العطور عند الوفاة

كانت العطور تستعمل عند الوفاة حنوطاً للميت. والحنوط طيب يخلط للميت خاصة، وله رائحة طيبة، ويستعمل لكفن الميت وجسمه. [٢٢٥] ويعتبر الحنوط كل ما يطيب به الميت من عطر كالذَّريرة أو المسك أو العنبر أو الكافور من القصب الهندي أو الصندل المدقوق. [٢٢٦]

وقد استعمل أهل مكة قبل الإسلام الحنوط لموتاهم فكانوا يغسلونهم ويطيبونهم بالكافور.[٢٢٧] وبعد الإسلام، بيّن الرسول ﷺ كيفية غسل الميت بالماء والسدر[٢٢٨] والكافور.[٢٢٩] واستُعمل المِسك حنوطاً للرسول ﷺ. يروي ابن سعد أن الرسول ﷺ أوصى علي بن أبي طالب، وكان عنده مِسك، أن يحنطه به.[٢٣٠]

وفي العصر الأموي استعمل الحنوط طيباً للميت. فبعد مقتل عبد الله بن الزبير (ت ٧٣ هـ/٦٩٢م) قامت والدته أسماء بنت أبي بكر (٧٣ هـ/٦٩٢م) بتكفينه وتحنيطه.[٢٣١] كما استعمل المسك أيضاً حنوطاً للميت. فقد أوصى عبد الله بن عمر (ت ٧٤ هـ/٦٩٣م) رجلاً أن يغسله بعد وفاته فجعل يدلكه بالمسك.[٢٣٢]

ونظراً لرائحة المسك الذكية وقيمته النفيسة، وووروده في القرآن الكريم، وتفضيل الرسول ﷺ له.[٢٣٣] وردت روايات بأسانيد ضعيفة لا تخلو من المبالغة عن استعمال المِسك وخاصة بعد الوفاة. ومن ذلك ما يُروى من أن عبد الله بن الزبير (ت ٧٣هـ/٦٩٢م) خلال حصاره بمكة كان يشرب المِسك.[٢٣٤] وأن عبد الله بن عمر (ت ٧٤هـ/٦٩٣م) مر به وهو مصلوب ورائحة المسك تفوح منه.[٢٣٥] بل يرُوى - أيضا - إنه كان يشُتمّ عند قبره ريح المسك.[٢٣٦] ولاشك أن طريقة قتل عبد الله بن الزبير ومن ثم صلبه، مع فضله وصحبته وتقواه كان لها دور في التعاطف معه ووضع هذه الأخبار عنه.

والملاحظ، أن الرجل والمرأة كانا يوصيان أهلهما بما سوف يُطيبَان به عند غسلهما وبكفنَهُما. فقد أوصت أسماء بنت أبي بكر (ت ٧٣هـ/٦٩٢م) أهلها بأن يجمروا ثيابها إذا ماتت ويحنطوها ولايذروا على كفنها حناطاً.[٢٣٧] وأوصى عروة بن الزبير بن العوام (ت ٩٤هـ/٧١٣م) إبنه هشام (١٤٦هـ/٧٦٣م) بأن لايذروا عليه الحنوط.[٢٣٨] كما أوصى يوسف بن ماهك (ت١١٣ هـ/٧٣١م)[٢٣٩] أهله أن يكفنوه في ثيابه، ولايجعلوا على وجهه حنوطاً، ولا على الثوب الذي يُنشر على السرير.[٢٤٠]

وبالرغم من أن الإسلام قد نهى أن تتبع الجنائز بنار[٢٤١] أي بمجامر، إلا أنه جرت العادة أن يصاحب جنازة الميت عند تشييعها بعض الرُجَّاز[٢٤٢] وحملة المجامر.[٢٤٣] وكان بعض الصحابة والتابعين يرفضون ذلك، ويوصون من يتكفل بهم عند موتهم بعدم فعل ذلك. فقد أوصت أسماء بنت أبي بكر (ت ٧٣هـ/٦٩٢م) بأن لاتُتبع جنازتها بنار (أي بمجامر).[٢٤٤] كما أوصى سعيد بن المسيب (ت ٩١هـ/٧١٣م)[٢٤٥] أهله وحرج عليهم أن لا يكون في جنازته راجز وأن لايمشوا معه بحامل مِجمر وقال: "فإن أكن طيّباً فما عند الله أطيب من طيبهم."[٢٤٦]

٦ - استعمال العطور في تطييب الحرمين الشريفين

استعملت العطور لتطييب الكعبة في المسجد الحرام منذ عصر ما قبل الإسلام.[٢٤٧] وبعد الإسلام، اهتم المسلمون بتطييب الكعبة والمسجد الحرام والمسجد النبوي.

أما عن تطييب الكعبة فتقول عائشة بنت أبي بكر (ت ٥٧هـ/٦٧٨م) رضي الله عنها: "أطيب الكعبة أحب إليَّ من أن أهدي إليها ذهباً وفضة." [٢٤٨] كما حثت عائشة - رضي الله عنها - على تطييب البيت الحرام، وفي ذلك تقول: "طيبوا البيت فإن ذلك من تطهيره." [٢٤٩]

واهتم الخلفاء الأمويون بتطييب الكعبة في المسجد الحرام. ويعدّ الخليفة معاوية بن أبي سفيان (ت ٦٠هـ/٦٨٠م) أول من طيب الكعبة بالخلوق والمِجمر. [٢٥٠] فقد أمر الخليفة معاوية شيبة بن طلحة بن عثمان الحجبي (ت ٦١هـ/٦٨١م) [٢٥١] أن يجرد الكعبة ثم يخلق جدرانها بالخلوق ويطيبها، ثم يكسوها الكسوة التي أرسلها إليه. [٢٥٢] كما كان معاوية بن أبي سفيان يبعث بالطيب والمجمر سنويا لتطييب وتبخير الكعبة، وذلك عند كل صلاة وفي رجب وفي مواسم الحج. [٢٥٣] وبعد وفاة معاوية بن أبي سفيان (ت ٦٠هـ/٦٨٠م) استمر الولاة على مكة في تطييب الكعبة كما طيبها معاوية. [٢٥٤]

وكان ما يقدم للكعبة من طيب وثياب يوجد في فنائها، فعندما بُويع لعبد الله بن الزبير بالخلافة سنة ٦٤هـ/٦٨٤م، هدم البيت وأخذ ما وجد فيه من طيب وثياب وجعله عند الحجبة في خزانة الكعبة [٢٥٥]. وعندما أعاد بناء الكعبة سنة ٦٥هـ/٦٨٤م، خلق جوفها بالخلوق وطيب جدرانها بالمسك. [٢٥٦] كما غلفها بعطر الغالية. [٢٥٧]

واستمر عبد الله بن الزبير - خلال حكمه (٦٤ -٧٣هـ/ ٦٨٤ -٦٩٢م) - يبخر ويطيب الكعبة كل يوم بكمية كبيرة من العود. يقول هشام بن عروة (ت ١٤٦هـ/٧٦٣م): "أن عبد الله بن الزبير كان يجمر الكعبة كل يوم برطل من مِجمر ويجمر الكعبة كل يوم جمعة برطلين من مِجمر." [٢٥٨]

وبعد القضاء على حركة عبد الله بن الزبير سنة ٧٣هـ/٦٩٢م وسيطرة الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان (٦٥-٨٥هـ/٦٨٥-٧٠٥م) على الحجاز، كان يبعث بالطيب والمِجمر إلى الكعبة لتطييبها وتبخيرها. [٢٥٩] واستمر ولاة مكة في تبخير وتطييب الكعبة في العصر الأموي. [٢٦٠] وكان يتولى تبخيرها في أواخر العصر الأموي منصور بن عبد الرحمن الحجبي (ت ١٣٨هـ/٧٥٥م). [٢٦١]

ولم يقتصر الأمر على تبخير الكعبة وتعطيرها، بل كانت العطور تُهدى إلي الكعبة ضمن هدايا أخرى، يقول عطاء بن أبي رباح (ت ١١٤هـ/٧٣٢م): "أهدى أمير من الأمراء إلى الكعبة مائة وَسَق[٢٦٢] مابين كسوة وطيب ودراهم ودنانير وعبيد خدماً للكعبة." [٢٦٣]

والجدير بالملاحظة، أن الكعبة كانت تُطلى وتُدهن من خارجها بالكثير من الخلوق والطيب. ومما يدل على ذلك أن تلك العطور كانت تلتصق بملابس الحُجاج خلال إحرامهم وطوافهم بالكعبة. ومع أن ذلك من محظورات الإحرام، [٢٦٤] إلا أن العلماء لم يكن يرون في ذلك بأساً. فعندما أصاب ثوب أنس بن مالك (ت٩٣هـ/٧١٢م) شيئاً من خلوق الكعبة - وهو محرم - لم يغسله. [٢٦٥] بل إن العلماء كانوا يوسعون على المعتمرين والحُجاج إذا ما أصاب ملابس إحرامهم شيء من عطر الكعبة. فعندما سأل سعيد بن جبير (ت ٩٤هـ/٧١٣م) عبد الله بن العباس

(ت٦٨هـ/٦٨٧م) عن غسل ما أصاب ثوبه من خلوق الكعبة نهاه عبد الله بن العباس عن غسله.[٢٦٦] ولما سُئل سعيد بن جبير (ت ٩٤هـ/٧١٣م) عن المحرم يصيب ثوبه شيئاً من طيب الكعبة، قال: "إنما هو طهور." [٢٦٧] أما عطاء بن أبي رباح (ت ١١٤هـ/٧٣٢م) فقال: "لايغسله ولا شيء عليه." [٢٦٨]

والمرجح أن بعض الحجاج والمعتمرين كانوا يرغبون في أخذ شيء من طيب الكعبة وكسوتها. ويدل على ذلك ما قاله عطاء بن أبي رباح (ت ١١٤هـ/٧٣٢م): "لا بأس أن تأخذ من طيب الكعبة وكسوتها بأمر الحجبة."[٢٦٩]

أما مسجد الرسول ﷺ، فقد اهتم المسلمون بتعطيره وتطييبه اقتداء بسنة الرسول ﷺ. يروي ابن شبة أن رسول الله ﷺ أبصر في حائط المسجد بُزاقاً فحكه على خرقة، وأخرجه من المسجد، وجعل مكانه شيئاً من طيب أو زعفران أو ورس.[٢٧٠] كما استعمل الرسول ﷺ طيب الخلوق لتطهير المسجد.[٢٧١] وأمر بتطييب المساجد وأن تبخر في يوم الجمعة.[٢٧٢]

وتولى الخلفاء الراشدون تبخير وتطييب المسجد النبوي اقتداءً بسنة الرسول ﷺ. فقد اهتم الخليفة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - بتبخير المسجد النبوي. وكان عبد الله المُجمِر [٢٧٣] يحمل المِجمرة أمام الخليفة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - في المسجد النبوي [٢٧٤] لتبخيره وتطييبه. وعندما تولى الخلافة عثمان ابن عفان - رضي الله عنه - عمل على تطييب المسجد النبوي وتعطيره، وكان يستعمل الخلوق في تعطيره.[٢٧٥]

واستمرت سنة الرسول ﷺ وسنة الخلفاء الراشدين بتطييب المسجد النبوي وتعطيره في العصر الأموي. فقد كان الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٥-٨٥هـ/ ٦٨٥-٧٠٥م) يبعث بالطيب والمِجمر (العود) إلى مسجد الرسول ﷺ.[٢٧٦] وكان نعيم بن عبد الله المُجمِرْ [٢٧٧] يبخر مسجد النبي ﷺ بالطيب.[٢٧٨]

خامسا: خاتمة

كان الغرض من هذه الدراسة هو محاولة معرفة العطور وأنواعها وتجارتها واستعمالاتها في مكة والمدينة في العصر الأموي. وقد بينت الدراسة الدور الذي لعبته العطور في الحياة الدينية والاقتصادية والاجتماعية.

أما في الحياة الدينية، فأوضحت الدراسة تنوع وتعدد استعمالات العطور وحث الإسلام عليها. فقد استعملت عند الصلاة وفي العيدين وعند الإحرام كمظهر من مظاهر النظافة والزينة. كما استعملت في الجنائز لتطييب الميت وكفنه، وفي تطييب وتبخير المسجد الحرام والمسجد النبوي.

أما في الحياة الاقتصادية، فقد أظهرت الدراسة تطور تجارة العطور في مكة والمدينة وازدهار أسواقها، وتعدد تجارها من أهالي مكة والمدينة ومن التجار الوافدين. كما بينت زيادة الطلب على العطور مع ارتفاع أسعار بعضها، مما يدل على غنى بعض الأفراد في مجتمع مكة والمدينة وتوافر الأموال لديهم. كما أوضحت أن زيادة الطلب على

العطور كان نتيجة أيضا لقدوم الآلاف من المسلمين إلى مكة والمدينة لأداء فريضة الحج والعمرة وزيارة مسجد الرسول ﷺ.

أما في الحياة الاجتماعية، فبينت الدراسة أن العطور كانت مظهراً من مظاهر الزينة عند الرجال والنساء. وأن استعمالاتها قد تعددت وأن أغراضها قد تنوعت وأن البعض قد أسرف في استعمالها. فقد كان استعمال عمر بن عبد العزيز للعطور خلال ولايته على المدينة وقبل خلافته، مثالاً واضحاً من عدة أمثلة يعكس زيادة استهلاك العطور، وفي نفس الوقت، توافرها بكثرة في المدينة.

وأوضحت الدراسة التطور الذي أصاب صناعة العطور في مكة والمدينة وكيفية استعمالاتها. فبينت وجود العطور المركبة كالغالية. والأواني الراقية كالمداهن المصنوعة من العاج.

وكان لابد لكي توضح الصورة عن العطور في الحياة الدينية والاجتماعية والاقتصادية، من تتبع بداياتها الأولى قبل الإسلام واستمرارها بعد الإسلام. فبينت الدراسة معرفة العرب بالعطور قبل الإسلام وتنوع استعمالاتهم لها وتجارتهم فيها. وأنها استمرت في عهد النبوة والراشدين محببة ومرغوبة فتعدد استعمالها وراجت تجارتها.

وكان لمحبة الرسول ﷺ للعطور واستعمالها - وهو قدوة المسلمين - وقبول هديتها والترغيب فيها، حافزٌ للمسلمين على استعمال العطور اتباعاً لسنته ﷺ.

ويستنتج من الدراسة أن تنوع العطور واستعمالاتها في نواح عديدة في مكة والمدينة كان مظهراً من مظاهر رقي المجتمع الحجازي. ويستنتج أيضاً، أن زيادة استهلاك العطور في ذلك المجتمع يعكس ارتفاع المقدرة الشرائية عند بعض الأهالي وتوافر السيولة النقدية لديهم. كما يعكس في نفس الوقت الرقي الحضاري الذي أصاب مجتمع الحجاز في العصر الأموي.

وأخيرا، فمازالت العطور في مكة والمدينة وغيرهما مرغوبة ومستهلكة، وتجارتها رائجة، وأنواعها متعددة، وأسواقها منتعشة. ولعل هذه الدراسة قد أضافت شيئاً من المعرفة عن العطور وبداياتها الأولى في المجتمع الإسلامي، وفهماً -في نفس الوقت- للاستمرارية التاريخية لهذه المادة العبقة والمحببة للنفوس.

التعليقـــــــات

(١) يورد ابن النديم في *الفهرست* مجموعة من الكتب المؤلفة في العطور "ككتاب العطر" الذي ألّف ليحيى بن خالد البرمكي، وكتاب العطر لإبراهيم بن العباس، و"كتاب العطر" للكندي، و"كتاب العطر" لحبيب العطار، و"كتاب العطر وأجناسه ومعادنه للمفضل بن مسلم وغيرها. انظر: محمد بن إسحاق النديم، *الفهرست لابن النديم* (بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر، د.ت.)، ٤٤٠.

(٢) انظر على سبيل المثال لا الحصر: عبد الله بن محمد السيف، *الحياة الاقتصادية والاجتماعية في نجد والحجاز في العصر الأموي*، ط٣ (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٣م)، ٢٩٦-٢٩٧؛ إلهام أحمد البابطين، *الحياة الإجتماعية في مكة منذ ظهور الإسلام حتى نهاية العصر الأموي*، ط١(الرياض: مطابع الخالد للأوفست، ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م)، ٣٩٢-٣٩٧؛ عبد العزيز بن إبراهيم العُمري، *الحرف والصناعات في الحجاز في عصر الرسول ﷺ*، ط٣ (الرياض: دار إشبيليا، ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م)، ٢٥٤ ٢٥٩.؛ نجلة قاسم الصباغ، "التحول الاجتماعي بالحجاز في العصر الأموي، "*مجلة آداب الرافدين*، كلية الآداب، جامعة الموصل، ٧ (١٥ تشرين الأول ١٩٧٦م/ ٢١ شوال ١٣٩٦هـ)، ١٣٧.

(٣) محمد بن مكرم بن منظور، *لسان العرب* (بيروت: دار الفكر ودار صادر، د.ت.)، ٤: ٥٨٢.

(٤) عرَّف أهالي الحجاز مهنة العطارة، وكان العطارون ينتشرون في مدنه خاصة مكة ويثرب وفي أسواقه. انظر: جواد علي، المفصل في *تاريخ العرب قبل الإسلام*، ط٢ (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٧٨م)، ٧: ٥٧٠، وتدل أمثال العرب على معرفتهم بالعطور ومهنة العطارة. انظر: الميداني، *مجمع الأمثال*، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد (مكة المكرمة: دار الباز للنشر والتوزيع)، ١: ٩٣؛ ٢: ٢١١ ٢١٢.

(٥) علي، *المفصل*، ٧: ٥٧٠.

(٦) ابن منظور، *لسان*، ٣: ٣٦٥؛ ١٣: ١٠٣.

(٧) ابن منظور، *لسان*، ٤: ٤٧.

(٨) أحمد بن عبد الوهاب النويري، *نهاية الأرب في فنون الأدب*، ط ١ (القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية)، ١٢: ٢٣ - ٢٤

(٩) ابن منظور، *لسان*، ٧: ٣٧٨ ٣٧٩؛ علي، *المفصل*، ٧: ٣٧٢.

(١٠) أبو حنيفة بن داود الدينوري، *الأخبار الطوال* (بيروت: دار الفكر الحديث، ١٩٨٨م)، ٢٣٢. ويشير ابن خرداذبه إلى عطور الهند فيذكر أن القسط يأتي من السند وأن العود والعطر والأفواه تأتي من جزيرة سرنديب بالهند. انظر: أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبه، *المسالك والممالك*، تحقيق دي غوية (ليدن: بريل، ١٨٨٩م)، ٩٢، ٩٤.

(١١) ظفار: مدينة على ساحل بحر الهند؛ انظر: ياقوت بن عبد الله الحموي، *معجم البلدان* (بيروت: دار صادر وبيروت، ١٩٧٩م)، ٤: ٦٠. وهي الآن من مدن سلطنة عُمان.

(١٢) علي، *المفصل*، ٧: ٢٣٧.

(١٣) علي، *المفصل*، ٧: ٢٣٧.

(١٤) ابن منظور، *لسان*، ٧: ٩٧٣. ويذكر النويري أن القُسط الهندي يدخل في كثير من الأدوية والمعاجين ومنه يُعمل دُهن القسط. النويري، *نهاية*، ١٢: ٥١.

(١٥) جواد، *المفصل*، ٧: ٢٣٧.

(١٦) محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقي، *أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار*، تحقيق رشدي الصالح ملحس، ط ٣ (مكة المكرمة: مطابع دار الثقافة، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م)، ١: ٦٥، ١٥٨ ١٦٠.

(١٧) انظر: الخلوق تحت أنواع العطور رقم ٦.

(١٨) الأزرقي، *أخبار*، ١: ٢٥١.

(١٩) محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري، *صحيح البخاري*، تحقيق عبد العزيز بن عبد الله بن باز (بيروت: دار الفكر، ١٩٩٤م / ١٤١٤هـ)، ٧: ١٨-١٩؛ انظر أيضا: محمد بن يزيد القزويني بن ماجه، *سُنن*، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي (بيروت: دار الكتب العلمية)، ٢: ١١٤٨.

(٢٠) ابن منظور، *لسان*، ١٤: ٤١ - ٤٢.

(٢١) البخاري، *صحيح*، ٤: ١٠٣، ١٢٣.

(٢٢) ابن منظور، *لسان*، ١٠: ٤٨٧؛ ١٢: ٣٢٦.

(٢٣) يقول: أمرؤ القيس:

إذا قامت تضوَّع المِسك منها   نسيم الصبا جاءت بريّا القرنفل

ويقول أيضا:

ويضحي فتيت المسك فوق فراشها   نؤوم الضحى لم تنطق عن تفضلِ

ويقول عنترة بن شداد:

وكأن فارة تاجر بقسيمة   سبقت عوارضها إليك من الفم

أي كأن وعاء مسك بسوق للعطارين أتتك ريحها من فم هذه المرأة قبل أن تدنو منها.

انظر: محمد بن القاسم الأنباري، *شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات*، تحقيق عبد السلام محمد هارون (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٣م)، ٢٩، ٦٥، ٣٠٨-٣٠٩.

(٢٤) سورة المطففين، الآية ٢٦.

(٢٥) انظر التعليقات السابقة رقم ١٢. وانظر: البخاري، صحيح، ٦: ٧٨٢. وقد أصبح المِسك مقروناً بالعبادات كالصوم، فخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك. انظر: مالك بن أنس الأصبحي، *الموطأ*، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٥م)، ١: ٣١٠.

(٢٦) أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، *سنن أبي داود*، ط ١، تحقيق عزت الدعاس وعادل السيد (بيروت: دار الحديث، ١٣٩١هـ / ١٩٧١م)، ٣: ٥١٠.

(٢٧) أحمد بن حنبل الشيباني، مسند الإمام أحمد بن حنبل، ط١ (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٩١م)، ٧: ٢٦٦.

(٢٨) البخاري، صحيح، ٦: ٢٨٧. انظر أيضا: ٣: ٢٢؛ أبو داود، سنن، ٥: ١٦٦ -١٦٧.

(٢٩) محمد بن سعد بن منيع البصري، *الطبقات الكبرى* (بيروت: دار صادر، د.ت.)، ٨: ٩٥؛ محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، *تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام*، تحقيق عمر عبد السلام التدمري، ط١ (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٨٨م)، (٦١ -٨٠هـ)، ٥٨٢. وليس لهذا الكتاب أجزاء، بل سنوات للعهود والحوادث، وسيشار إليه كما اعتمده المحقق.

(٣٠) التُبَّت: بلاد بأرض الترك متاخمة للصين والهند. انظر: ياقوت، معجم، ٢: ١٠ -١١.

(٣١) السُّغْدُ: بلاد فيها قرى كثيرة بين بخارى وسمرقند. انظر: ياقوت، معجم، ٣: ٢٢٢- ٢٢٣.

(٣٢) أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر اليعقوبي، *البلدان* (ليدن: مطبعة بريل، ١٨٩١م)، طبع بذيل *الأعلاق النفيسة* لابن رسته، ٣٩٤ - ٣٩٦. وانظر: ياقوت، معجم، ٢: ١١؛ وانظر أيضا: النويري، *نهاية*، ١٢: ١-٦.

(٣٣) اليعقوبي، *البلدان*، ٣٩٥؛ النويري، *نهاية*، ٢: ١١-١٢.

(٣٤) دارين: محطة للسفن وميناء بالبحرين وكان يُجلب إليها المسك من الهند. ياقوت، معجم، ٢: ٤٣٢. ودارين الآن بلدة من أعمال القطيف. وهي من مدن المنطقة الشرقية بالمملكة العربية السعودية. انظر: محمد بن عبد الله بن عبد المحسن آل عبد القادر، *تحفة المستفيد*

بتاريخ الأحساء في القديم والجديد، تحقيق حمد الجاسر، ط٢ (الرياض: مكتبة المعارف، والأحساء: مكتبة الأحساء الأهلية، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م)، ١٣-١٤.

(٣٤) ياقوت، معجم، ٢: ٤٣٢؛ النويري، *نهاية*، ١٢: ١٥.

(٣٦) أحمد بن يحيى بن جابر البلاذي، *أنساب الأشراف*، تحقيق ماكس سكلوسنجر (القدس، ١٩٣٨م)، ٤: ٢، ٤٣؛ وانظر: تجارة العطور في مكة والمدينة في العصر الأموي في متن هذه الدراسة.

(٣٧) ابن منظور، *لسان*، ٤: ٦١٠.

(٣٨) انظر: النويري، *نهاية*، ١٢: ١٦-٢١؛ علي، *المفصل*، ٧: ٢٣٨.

(٣٩) النويري، *نهاية*، ١٢: ٢١.

(٤٠) سمير اسماعيل الحلو، *الطيب: فوائده الصحية والنفسية والاجتماعية*، ط١ (المدينة المنورة: مكتبة دار التراث، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م)، ٢٩.

(٤١) نايفة عبد الحميد سلطان، "تجارة البخور والمواد العطرية وتأثيراتها على مجتمعات الجزيرة قبل الإسلام،" رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، الرياض، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ٧٩.

(٤٢) النويري، *نهاية*، ١٢: ٢١.

(٤٣) ياقوت، معجم، ٣: ٣٢٧؛ علي، *المفصل*، ٧: ٢٣٨. والشحر: صقع على ساحل بحر الهند بين عدن وعُمان؛ انظر: ياقوت، معجم، ٣: ٣٢٧.

(٤٤) الغوالي: جمع غالية وهو ضرب من الطيب يُغلى على النار وتمزج فيه عدة أنواع من الأخلاط كالمسك والعنبر وغيرها. انظر: الغالية تحت أنواع العطور رقم ٩ في متن هذه الدراسة.

(٤٥) الحلو، *الطيب*، ٢٩.

(٤٦) يقول الأعشى:

إذ تقوم يضوع المسك آونه والعنبر الورد من أردانها شملِ

انظر: الأنباري، القصائد السبع، ص٣٠.

(٤٧) ابن حنبل، مسند، ٤: ٥٧، ٩٣، ١٠٣.

(٤٨) ابن منظور، *لسان*، ٥: ١٤٩- ١٥٠؛ سلطان، *تجارة البخور*، ٧٢؛ علي، *المفصل*، ٧: ٢٣٩.

(٤٩) محمد بن حبيب البغدادي، *المحبر*، تحقيق ايلزه ليختن شتيتر (بيروت: المكتب التجاري، د.ت.)، ٣٢٢؛ انظر أيضاً: البابطين، *الحياة*، ٢٧٤.

(٥٠) سورة الإنسان، الآية ٥. وانظر تفسير الآية عند: محمد بن جرير الطبري، *جامع البيان عن تأويل آي القرآن* (بيروت: دار الفكر، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م)، ٢٩: ٢٠٦-٢٠٧.

(٥١) انظر: البخاري، صحيح، ٦: ٢٢٩.

(٥٢) ابن منظور، *لسان*، ٧: ٢٧٨- ٢٧٩.

(٥٣) ابن حنبل، مسند، ٦: ٨٧؛ وانظر أيضاً: ٧: ٥٥٦-٥٥٧.

(٥٤) ابن خرداذبه، *المسالك*، ٧٠؛ علي بن الحسين بن علي المسعودي، *مروج الذهب ومعادن الجوهر*، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد (القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م)، ١: ٨٤، ١٥٢ -١٥٤؛ علي، *المفصل*، ٧: ٢٣٩.

(٥٥) ابن منظور، *لسان*، ٤: ٣٠٣.

(٥٦) ابن منظور، *لسان*، ٤: ٣٠٤.

(٥٧) البخاري، *صحيح*، ٧: ٨٠؛ انظر أيضا: ابن منظور، *لسان*، ٤: ٣٠٤؛ علي، *المفصل*، ٧: ٢٤٠.

(٥٨) ابن منظور، *لسان*، ١٠: ٩١.

(٥٩) انظر ترجمتها عند: ابن سعد، *الطبقات*، ٨: ٤٣- ٤٤.

(٦٠) الحِجر: الحِجرُ هو حِجر الكعبة، وهو الحائط المستدير بالبيت الحرام جانب الشمال؛ ابن منظور، *لسان*، ٤: ١٧٠.

(٦١) ابن حبيب، *المنمق في أخبار قريش*، تحقيق خورشيد أحمد فارق، ط١، (بيروت: عالم الكتب، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م)، ٥٠. وحول استعمال الخلوق عند العرب قبل الإسلام انظر: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، *الأوائل*، ط١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م)، ١٦٣.

(٦٢) المِجمر: هو العود واستجمر بالمجمر أي تبخر بالعود. انظر: ابن منظور، *لسان*، ٤: ١٤٤- ١٤٥.

(٦٣) الأزرقي، *أخبار*، ١: ٢٥١.

(٦٤) ابن منظور، *لسان*، ١: ٦١؛ علي، *المفصل*، ٧: ٢٤٠.

(٦٥) ابن منظور، *لسان*، ٤: ٣٢٤.

(٦٦) الحلو، *الطيب*، ٣١. وعن فوائد الزعفران واستعمالاته انظر: النويري، *نهاية*، ١١: ٢٤٢- ٢٤٣.

(٦٧) أحمد بن عمر بن رستة، *الأعلاق النفيسة*، تحقيق دي غوية (ليدن: بريل، ١٨٩١م)، ١٥٧؛ النويري، *نهاية*، ١١؛ ٢٤٢؛ الحلو، *الطيب*، ٣١.

(٦٨) انظر: البخاري، *صحيح*، ٧: ٦١؛ ابن منظور، *لسان*، ٤: ٣٢٤.

(٦٩) ابن منظور، *لسان*، ١٣: ٧٠.

(٧٠) ابن منظور، *لسان*، ٣: ٦٢٢٦؛ انظر أيضا: النويري، *نهاية*، ١٢: ٨١-٨٢.

(٧١) النويري، *نهاية*، ٢١: ٧٩-٨٠.

(٧٢) انظر ترجمته عند: عز الدين علي بن محمد الجزري ابن الأثير، *أسد الغابة في معرفة الصحابة* (بيروت: دار الفكر، ١٤٠٩هـ /١٩٨٩م)، ٣: ١٥٥.

(٧٣) الجند: من مخاليف اليمن وهو أعظمها، انظر: ياقوت، معجم، ٢: ١٦٩.

(٧٤) أبو زيد عمر بن شبه النميري البصري، *تاريخ المدينة المنورة*، تحقيق فهيم محمد شلتوت، القاهرة: مكتبة ابن تيمية، د.ت.)، ٣: ٨٥٥.

(٧٥) ابن منظور، *لسان*، ١٥: ١٣٤؛ انظر أيضا: العسكري، *الأوائل*، ١٦٢-١٦٣.

(٧٦) انظر: النويري، *نهاية*، ١٢: ١٩، هامش٢. وعن كيفية عمل الغالية انظر: ١٢: ٥٢- ٥٣.

(٧٧) ابن منظور، *لسان*، ٤: ٣١٠.

(٧٨) ابن سعد، *الطبقات*، ١: ٣٩٩؛ ابن منظور، *لسان*، ٤: ٣١٠.

(٧٩) ابن حنبل، *مسند*، ٣: ٣٦٤؛ ٥: ٦١٣.

(٨٠) ابن منظور، *لسان*، ٤: ٣١٠؛ علي، *المفصل*، ٧: ٢٤٠.

(٨١) البخاري، *صحيح*، ٧: ٧٩؛ انظر أيضا: ابن حنبل، *مسند*، ٧: ٣٦١.

(٨٢) ابن سعد، *الطبقات*، ١: ٣٩٩؛ أبو داود، *سنن*، ٤: ٣٩٤. والسك: نوع من الطيب عزيز يركب من مسك ومادة سوداء، وقيل إنه وعاء فيه طيب مجتمع من أخلاط شتى. انظر: أبو داود، *سنن*، ٤، ٣٩٤ هامش٢، ابن منظور، *لسان*، ١٠: ٤٤٢. وعن استعمال الرسول ﷺ للعطور وتفضيلها. انظر أيضا: أحمد بن جعفر بن واضح اليعقوبي، *تاريخ* (بيروت: دار صادر، د.ت.)، ٢: ٨٨.

(٨٣) انظر: البخاري، صحيح، ١: ٢٤٠.

(٨٤) أبو داود، *سنن*، ٤ ؛ ٤٠٠ ؛ انظر أيضاً: اليعقوبي، *تاريخ*، ٢ : ٨٨.

(٨٥) أبو الفرج علي بن الحسين الأصبهاني، *كتاب الأغاني* (بيروت: مؤسسة جمال للطباعة والنشر، مصور عن طبعة دار الكتب، د.ت.)، ٩ : ٥٥-٥٦.

(٨٦) انظر: السيد أحمد أبو الفضل عوض الله، *مكة في عصر ما قبل الإسلام*، ط٢، مطبوعات دارة الملك عبد العزيز (١٠) (الرياض: مطابع دار الهلال للأوفست، ١٤٠١هـ/١٩٨٠م)، ١٣٠.

(٨٧) الأصبهاني، *الأغاني*، ٩: ١٢٥ ؛ انظر أيضاً: سعيد الأفغاني، *أسواق العرب في الجاهلية والإسلام* (القاهرة: دار الكتاب الإسلامي)، ٣٧٤، ٣٧٩.

(٨٨) عوض الله، *مكة*، ٤١٠.

(٨٩) ياقوت، *معجم*، ٢: ٤٣٢ ؛ انظر: التعليقة السابقة رقم ٣٤.

(٩٠) كان أبو طالب عم الرسول ﷺ - يتاجر في الشام. وقد خرج بالرسول ﷺ قبل بعثته إلى الشام في العير التي خرج فيها للتجارة. انظر: ابن سعد، *الطبقات*، ١ : ١٢١.

(٩١) أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، *المعارف*، تحقيق ثروت عكاشة، ط٤ (القاهرة: دار المعارف، د.ت.)، ٥٧٥.

(٩٢) هشام بن محمد بن السائب ابن الكلبي، *مثالب العرب*، مخطوطة بمكتبة جامعة الملك سعود، الرياض، ف ١٢٠٨، ورقة ٧. نقلا عن: البابطين، *الحياة*، ١٤٨.

(٩٣) محمد بن يوسف الكندي، *الولاة وكتاب القضاة*، تحقيق رفن كست (القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، د.ت.)، ٧٠٦.

(٩٤) هي والدة أبي بكر الصديق ؛ انظر ترجمتها عند: أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني، *الإصابة في تمييز الصحابة* (بيروت: دار الفكر، د.ت.)، ٤ : ٤٤٧.

(٩٥) ابن الكلبي، *مثالب*، ورقة ٣٥، نقلا عن: البابطين، *الحياة*، ١٥١.

(٩٦) ابن سعد، *الطبقات*، ٨ : ١٧.

(٩٧) هي زوجة عثمان بن مظعون. انظر ترجمتها عند: ابن الأثير، *أسد*، ٦: ٧٥-٧٦؛ ابن حجر، *الإصابة*، ٤ : ٢٧٨.

(٩٨) ابن الأثير، *أسد*، ٦: ٧٦.

(٩٩) انظر ترجمتها عند: ابن سعد، *الطبقات*، ٨: ٣٠٠-٣٠١.

(١٠٠) ابن سعد، *الطبقات*، ٨: ٣٠٠-٣٠١. وانظر أيضاً: ابن سعد، *الطبقات*، *الطبقة الرابعة من الصحابة*، تحقيق عبد العزيز عبد الله السلومي، ط١ (الطائف: مكتبة الصديق، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م)، ١ : ٣٣٧؛ علي، *المفصل*، ٧: ٢٩٣.

(١٠١) البخاري، *صحيح*، ٦ : ٢٨٧ ؛ أبو داود، *سنن*، ٥ : ١٦٦-١٦٧.

(١٠٢) عبد الله بن محمد بن عبيد بن أبي الدنيا، *إصلاح المال*، تحقيق مصطفى مفلح القضاة، ط١ (المنصورة: دار الوفاء للطباعة والنشر، ١٩٩٠م)، ٢٦٢.

(١٠٣) السيف، *الحياة*، ١٠١.

(١٠٤) الأزرقي، *أخبار*، ٢ : ٧٨، ٨٧، ٢٥٤ - ٢٥٦، ٢٦٠ ؛ وانظر أيضاً: محمد بن إسحاق بن العباس الفاكهي، *أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه*، تحقيق عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، ط٢ (بيروت: دار خضر، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م)، ٢ : ١٧٠، ٢٠٨ ؛ ٣: ٢٩٦، ٣١٨، ٣٣٠.

(١٠٥) الأزرقي، *أخبار*، ٢ : ٢٤٨.

(١٠٦) انظر ترجمته عند: ابن سعد، *الطبقات*، ٥ : ٤٨٤، ٤٨٦ ؛ الذهبي، *تاريخ* (١٠١-١٢٠هـ)، ٤٠٣-٤٠٤ ؛ ابن حجر، *تهذيب التهذيب* (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤١٢هـ/١٩٩١م)، ٣: ٢٣٧-٢٣٨.

(١٠٧) الذهبي، *تاريخ (١٠١-١٢٠هـ)*، ٤٠٤؛ ابن حجر، *تهذيب*، ٣ : ٢٣٨. ويروي ابن حجر أن أهل مكة يقولون للعطار داري نسبة إلى دارين. (انظر: ٣ : ٢٣٨) ودارين ميناء في البحرين يُجلب منها المِسك. انظر التعليقة السابقة رقم ٣٤.

(١٠٨) الذهبي، *تاريخ (١٠١-١٢٠هـ)*، ٤٠٤ هامش.

(١٠٩) انظر: ابن سعد، *الطبقات*، ٥ : ٤٩٨؛ ابن قتيبة، *المعارف*، ٥١١.

(١١٠) انظر ترجمة المغني الغريض وأخباره عند: الأصبهاني، *الأغاني*، ٢ : ٣٥٩-٤٠٣.

(١١١) الأصبهاني، *الأغاني*، ٢ : ٣٩٩. والرَّبْعة: جُونة العطار وهي إناء مربع، ابن منظور، *لسان*، ٨ : ١٠٧.

(١١٢) الأصبهاني، *الأغاني*، ١ : ١٦٦ ١٦٧؛ ٩ : ٦٣؛ انظر أيضا : محمد بن يزيد المبرد، *الكامل في اللغة والأدب* (بيروت: مؤسسة المعارف، د.ت.)، ١ : ٣٧٥.

(١١٣) انظر: عبد الجبار منسي العبيدي، *الطائف ودور قبيلة ثقيف العربية* (الرياض: دار الرفاعي للنشر، ١٩٨٢م)، ٥١-٥٢؛ نادية حسني صقر، *الطائف في العصر الجاهلي وصدر الإسلام*، ١ (جده: دار الشروق، ١٩٨١م)، ٤٥.

(١١٤) أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية، *شرح العمدة في بيان مناسك الحج والعمرة*، تحقيق صالح بن محمد الحسن، ط١ (الرياض: مكتبة الحرمين، ١٩٨٨م)، ٢ : ٨٨-٩٠؛ وانظر أيضا : أحمد بن عبد الله بن محمد الطبري، *القرى لقاصد أم القرى*، تحقيق مصطفى السقا، ط٣ (القاهرة: دار الفكر، ١٩٨٣م)، المقدمة، ٨-٩.

(١١٥) ابن تيمية، *شرح العمدة*، ٢ : ٨٨-٩٠. ويروي مالك أن سالم بن عبد الله ابن عمر بن الخطاب (ت ١٠٦هـ/٧٢٥م)، نهى الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك (٨٦-٩٦هـ/٧٠٥-٧١٥م) عن استعمال الطيب خلال الإحرام. انظر: مالك بن أنس الأصبحي، *الموطأ*، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٥م)، ١ : ٣٢٩.

(١١٦) انظر: ابن شبة، *تاريخ*، ١ : ١٦٢-١٦٣؛ ياقوت، *معجم*، ٥ : ٨٣. انظر أيضا: علي بن أحمد السمهودي، *وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى*، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط٤ (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م)، ١ : ١٦-١٧.

(١١٧) ياقوت، *معجم*، ٥ : ٨٧، حيث يقول ياقوت: "ومن خصائص المدينة أنها طيبة الريح وللعطر فيها فضل رائحة لا توجد في غيرها." انظر أيضا : السمهودي، *وفاء*، ١ : ١٧؛ النويري، *نهاية*، ١ : ٣٢٣-٣٢٤.
ويقول الشاعر:

بطيب رسول الله طاب نسيمها   فما المسك ما الكافور ما المندل الرطب

انظر: السمهودي، *وفاء*، ١ : ١٧. والمندل الرطب هو من أفضل العود وأنفسه وهو نسبة إلى مدينة مندل في بلاد الهند. النويري، *نهاية*، ١٢ : ٢٥-٢٦.

(١١٨) انظر ترجمته عند: البخاري، *التاريخ الكبير* (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م)، ٧ : ٤ : ٢٧٢، حيث يذكر أنه سمع أبا هريرة وابن عمر، ورأى سعد بن أبي وقاص.

(١١٩) ابن سعد، *الطبقات الكبرى، القسم المتمم لتابعي أهل المدينة ومن بعدهم*، تحقيق زياد محمد منصور (المدينة المنورة: مكتبة العلوم، والحكم، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م)، ٣٠٦.

(١٢٠) ابن قتيبة، *المعارف*، ٤٨٥. وتعني الدار هنا البناء والمحلة وكل موضع به قوم فهو دارهم. ابن منظور، *لسان*، ٤ : ٢٩٨. ويروي ابن شبة أن معاوية بن أبي سفيان بنى في المدينة قصرا يقال له "قصر الداريين" (ابن شبه، *تاريخ*، ١ : ٢٧٣)، ولعله نسبة للتجار الداريين اللذين ينزلونه.

(١٢١) ليس لسيار ترجمة في المصادر المتاحة ولكن تروى بعض أخباره عند: الأصبهاني، *الأغاني*، ٢٢ : ٣٨-٣٩.

(١٢٢) الأصبهاني، *الأغاني*، ٢٢ : ٣٨.

(١٢٣) الحسن بن علي بن محمد التنوخي، *المستجاد من فعلات الأجواد*، تحقيق محمد كرد علي (دمشق: د.ن، ١٣٦٥هـ / ١٩٤٦م)، ١٢٤؛ السيف، *الحياة*، ١٠٤.

(١٢٤) هو محمد بن عبد الله بن عمر بن عثمان بن عفان الأموي، قتله الخليفة العباسي المنصور سنة ١٤٥هـ، انظر ترجمته عند: ابن حجر، *تهذيب*، ٥ : ١٧٤.

(١٢٥) الأصبهاني، *الأغاني*، ٢٢، ٣٨.

(١٢٦) البلاذري، *أنساب*، ٤: ٢: ٤٣؛ انظر أيضا: الأصبهاني، *الأغاني*، ٢٢: ٣٨.

(١٢٧) ابن منظور، *لسان*، ٤: ٢٩٩ ٣٠٠؛ الأفغاني، *أسواق*، ٢١٤.

(١٢٨) يقول الفرزدق:

كأن تريكة من ماء مزن وداري الذكي من المدام

انظر: ياقوت، *معجم*، ٢: ٤٣٢. ويقول شاعر آخر:

إذا التاجر الداري جاء بفأرة من المسك، راحت في مفارقهم تجري

انظر: ابن منظور، *لسان*، ٤: ٢٩٩؛ وانظر اشعار أخرى عند الداريين عند: ابن منظور، *لسان*، ٤: ٢٩٩؛ الأفغاني، *أسواق*، ٢١٤.

(١٢٩) البلاذري، *أنساب*، ٤: ٢؛ ٤٣.

(١٣٠) البلاذري، *أنساب*، ٤: ٢؛ ٤٣.

(١٣١) الذهبي، *تاريخ (٦١-٨٠هـ)*، ٤٦٣.

(١٣٢) ابن سعد، *الطبقات*، ٤: ١٥٧.

(١٣٣) ابن سعد، *الطبقات*، ١: ٤٠٠؛ ابن قتيبة، *عيون الأخبار* (بيروت: دار الكتاب العربي، د.ت.)، ١: ٣٠٣.

(١٣٤) ابن سعد، *الطبقات*، ٤: ١٨٠؛ والورس نبات أصفر يصبغ به ويأتى به من اليمن؛ ابن منظور، *لسان*، ٦: ٢٥٤.

(١٣٥) ابن سعد، *الطبقات*، ٤: ١٤٩.

(١٣٦) ابن قتيبة، *عيون*، ١، ٣٠٤.

(١٣٧) ابن منظور، *لسان*، ٢: ٤٥٨.

(١٣٨) هو حبيب بن أبى ثابت قيس بن دينار، ويقال قيس بن هند، وهو أحد أعلام الكوفة. انظر ترجمته عند: ابن حجر، *تهذيب*؛ ١: ٤٣٠-٤٣١؛ الذهبي، *تاريخ (١٠١-١٢٠هـ)*، ٣٤١-٣٤٢.

(١٣٩) الجمة: مجتمع شعر الرأس؛ ابن منظور، *لسان*، ١٢: ١٠٧. والفينان: الشعر الطويل الحسن؛ ابن منظور، *لسان*، ١٣: ٣٢٨.

(١٤٠) ابن سعد، *الطبقات، الطبقة الخامسة من الصحابة*، تحقيق محمد بن صامل السلمي، ط١ (الطائف: مكتبة الصديق، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م)، ١: ١٩٩.

(١٤١) انظر ترجمته عند: ابن حجر، *تهذيب*، ٥: ١٧٤.

(١٤٢) البلاذري، *أنساب الأشراف* (بغداد: مكتبة المثنى، د.ت.)، ٥: ١٢٣.

(١٤٣) ابن سعد، *الطبقات*، ٥: ٣٣٢-٣٣٤.

(١٤٤) أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم، *سيرة عمر بن عبد العزيز على ما رواه الإمام مالك بن أنس وأصحابه* (بيروت: دار الفكر الحديث، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م)، ٨-٩.

(١٤٥) الأصبهاني، *الأغاني*، ٩: ٢٦٢؛ السيف، *الحياة*، ١٦٧-١٦٨.

(١٤٦) ابن عبد الحكم، *سيرة*، ٩. ويروي البسوي أن عمر بن عبد العزيز كان يسرف في عطره فيدخل في طيبه القرنفل، وكان العنبر على لحيته كالملح، انظر: أبو يوسف يعقوب بن سفيان البسوي، *المعرفة والتاريخ*، تحقيق أكرم ضياء العمري، ط١ (المدينة المنورة: مكتبة الدار، ١٤١٠هـ)، ١: ٥٦٩. وقد تغير وضع عمر بن عبد العزيز بعد الخلافة، حتى إنه كان يمسك بأنفه مخافة أن يجد ريح المسك؛ انظر: ابن سعد، *الطبقات*، ٥: ٣٦٨.

(١٤٧) أحمد بن محمد بن عبد ربه، *العقد الفريد*، تحقيق عبد المجيد الترخيني، ط٣ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٧م)، ٧: ٢٥٢.

(١٤٨) ابن منظور، *لسان*، ٣١: ١٨. ويستعمل الأشنان أو رماده في غسل الثياب والأيدي. انظر: إبراهيم أنيس وآخرون، *المعجم الوسيط*، ط٢ (القاهرة: د.ت.)، ١: ١٩.

(١٤٩) انظر ترجمته عند: ابن حجر، *تهذيب*، ٤: ٢٠٣-٢٠٥.

(١٥٠) ابن سعد، الطبقات، *القسم المتمم*، ١٧٧.

(١٥١) ابن قتيبة، *عيون*، ١: ٣٠٣.

(١٥٢) ابن حنبل، *مسند*، ٧: ٥٩-٦٠.

(١٥٣) جمال الدين أبي الفرج ابن الجوزي، *صفة الصفوة*، تحقيق محمود فاخوري، ط١ (بيروت: دار المعرفة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م)، ٢: ١٧٨؛ وانظر أيضا: عبد الغني الدقر، *الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة*، ط٢ (دمشق: دار القلم، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م)، ١٤٩.

(١٥٤) الذهبي، *تاريخ (١٧١-١٨٠هـ)*، ٣٢٠، ٣٢٤.

(١٥٥) الذهبي، *تاريخ (٨١-١٠٠هـ)*، ٢٩٢. والريحان: نبات مشموم طيب الريح، وريح المسك: لعله المدهون والمطيب بالمسك. انظر: ابن منظور، *لسان*، ٢: ٤٥٧-٤٥٨.

(١٥٦) انظر: الخلوق تحت أنواع العطور رقم ٦.

(١٥٧) ابن سعد، *الطبقات*، ٤: ١٥٥.

(١٥٨) المرجح أن المقصود هو عبد الله بن زيد بن أسلم العدوي المدني. ويذكر ابن حجر أنه روى حديثا منكرا في دهن الخلوق. انظر: ابن حجر، *تهذيب*، ٢: ١٤٦-١٤٧.

(١٥٩) ابن قتيبة، *عيون*، ١: ٣٠٢.

(١٦٠) انظر: الغالية تحت أنواع العطور رقم ٩.

(١٦١) كان عبد الله بن جعفر بن أبي طالب جوادا كثير المال. انظر ترجمته عند: أبي القاسم علي بن الحسين بن هبة الله ابن عساكر، *تهذيب تاريخ دمشق الكبير*، تحقيق عبد القادر بدران، ط٣ (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م)، ٧: ٣٢٨-٣٤٧؛ ابن حجر، *تهذيب*، ٣: ١١٣-١١٤.

(١٦٢) ابن رستة، *الأعلاق*، ١٩٨. وفي رواية إن أول من سماها بالغالية الخليفة سليمان بن عبد الملك (٩٦-٩٩هـ/٧١٥-٧١٧م)؛ انظر: ابن منظور، *لسان*، ٥١: ٤٣١؛ انظر أيضا النويري، *نهاية*، ١٢، ١٩، هامش٢؛ علي، *المفصل*، ٧: ٢٤٠. وهناك روايات بأنها كانت معروفة عند العرب قبل الإسلام؛ انظر: العسكري، *الأوائل*، ١٦٢-١٦٢.

(١٦٣) ابن رسته، *الأعلاق*، ١٩٨. انظر أيضا: النويري، *نهاية*، ١٢، هامش ٢.

(١٦٤) النويري، *نهاية*، ١٢: ١٩، هامش ٢: علي، *المفصل*، ٧: ٢٤٠.

(١٦٥) انظر ترجمة عثمان بن عروة بن الزبير عند: ابن سعد، *طبقات*، ٥: ١٧٨-١٨٢؛ ابن حجر، *تهذيب*، ٤: ٩٠.

(١٦٦) أبو عبد الله الزبير بن بكار، *جمهرة نسب قريش وأخبارها*، تحقيق محمود محمد شاكر (القاهرة: د.ن. ١٣٨١هـ)، ١: ٣٠٥؛ انظر أيضا: السيف، *الحياة*، ٢٩٦.

(١٦٧) حول أوعية العطور وأنواعها: انظر: البابطين، *الحياة*، ٣٩٦. وعن استعمال القوارير انظر: ابن سعد، *الطبقات*، ٥: ٣٠٠-٣٠١؛ وأيضا: *الطبقة الخامسة*، ٢: ٤٠.

(١٦٨) انظر ترجمته عند: البخاري، *التاريخ*، ٧: ٤١٠؛ ابن سعد، *الطبقات، الطبقة الخامسة*، ٢: ١٣٩-١٦٣.

(١٦٩) ابن سعد، *الطبقات، الطبقة الخامسة*، ٢: ١٥٢.

(١٧٠) البخاري، صحيح، ٢: ١٧٧؛ انظر أيضا: ٢: ٢٣٥-٢٣٦.

(١٧١) البخاري، صحيح، ٢: ١٧٧؛ انظر أيضا: ٧: ٧٧.

(١٧٢) ابن حنبل، *مسند*، ٧: ٥٩؛ البخاري، صحيح، ٧: ٧٧؛ أبو داود، *سنن*، ٢: ٣٥٩.

(١٧٣) عن السك: انظر التعليقة السابقة، رقم ٨٢.

(١٧٤) أبو داود، *سنن*، ٢: ٤١٤.

(١٧٥) ابن سعد، *الطبقات*، ٨: ٤٨٢.

(١٧٦) ابن سعد، *الطبقات، الطبقة الخامسة*، ١: ٤٠٧؛ الطبري، *القرى*، ١٦٦.

(١٧٧) ابن سعد، *الطبقات*، ٥: ٢١٨.

(١٧٨) ابن قتيبة، *عيون*، ١: ٣٠٤. والرب، هو الطلاء الخاثر وهو دبس كل ثمرة، وفي صفة ابن عباس: "كأن على صلعته الرب من مسك أو عنبر." ابن منظور، *لسان*، ١: ٤٠٥-٤٠٦.

(١٧٩) انظر ترجمته عند: ابن حجر، *تهذيب*، ٥: ٤٣٠.

(١٨٠) ابن قتيبة، *عيون*، ١: ٣٠٣؛ الذهبي، *تاريخ (٦١-٨٠هـ)*، ٤٤٤.

(١٨١) الطبري، *القرى*، ٢٠٤؛ أبو داود، *سنن*، ٢، ٣٥٩، هامش ٣.

(١٨٢) انظر: الذريرة تحت أنواع العطور رقم ٥.

(١٨٣) انظر ترجمتها عند: *ابن سعد، الطبقات*، ٨: ٤٦٧-٤٦٨.

(١٨٤) الطبري، *القرى*، ١٦٤.

(١٨٥) اليافوخ: ملتقى عظم مقدم الرأس ومؤخره. انظر: ابن منظور، *لسان*، ٣: ٦٧.

(١٨٦) الطبري، *القرى*، ١٦٤.

(١٨٧) البخاري، صحيح، ٢: ١٧٧؛ الطبري، *القرى*، ٢٠٢.

(١٨٨) الطبري، *القرى*، ٢٠٢.

(١٨٩) البخاري، صحيح، ١: ٢٤١؛ .مالك، *الموطأ*، ١: ٦٦.

(١٩٠) مالك، *الموطأ*، ١: ٦٥-٦٦؛ انظر أيضا: البخاري، صحيح، ١: ٢٣٩.

(١٩١) البخاري، صحيح، ١: ٢٤٠.

(١٩٢) مالك، *الموطأ*، ١: ١١٠؛ ابن سعد، *الطبقات*، ٤: ١٥٢.

(١٩٣) ابن سعد، *الطبقات*، ٤: ١٥٩.

(١٩٤) ابن سعد، *الطبقات*، ٤: ١٦٠-١٦١.

(١٩٥) ابن سعد، *الطبقات*، ٤: ١٦١.

(١٩٦) انظر ترجمته عند: ابن عساكر، *تهذيب*، ٦: ٨٢-٨٥.

(١٩٧) ابن عساكر، *تهذيب*، ٦: ٨٣.

(١٩٨) انظر: السيد سابق، *فقه السنة* (بيروت: دار الكتاب العربي، د.ت.)، ١: ٣١٧.

(١٩٩) ابن سعد، *الطبقات*، ٤ : ١٥٢.

(٢٠٠) مالك، *الموطأ*، ١ : ٣٢٨؛ البخاري، *صحيح*، ٢ : ٢٣٥-٢٣٦.

(٢٠١) ابن حنبل، *مسند*، ١ : ٣٨٨؛ انظر أيضا : الطبري، *القرى*، ٤٧١.

(٢٠٢) مالك، *الموطأ*، ١ : ٣٢٩.

(٢٠٣) ابن سعد، *الطبقات*، ٨ : ١٩، ٢١-٢٢.

(٢٠٤) ابن قتيبة، عيون، ٤ : ٧٦؛ وانظر أيضا : البلاذري، *كتاب جمل من أنساب الأشراف*، تحقيق سهيل الذكار ورياض زركلي، ط١ (بيروت : دار الفكر، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م)، ٦ : ١١٤.

(٢٠٥) انظر ترجمتها عند : ابن سعد، *الطبقات*، ٨ : ٤٦٧.

(٢٠٦) الأصبهاني، *الأغاني*، ١١ : ١٨٣؛ السيف، *الحياة*، ٢٩٨.

(٢٠٧) الأصبهاني، *الأغاني*، ٥ : ٩٦-٩٧.

(٢٠٨) الأصبهاني، *الأغاني*، ٨ : ١٢٤.

(٢٠٩) هو النعمان بن بشير بن سعد من بني الحارث من الخزرج. انظر ترجمته عند : ابن سعد، *الطبقات*، ٦ : ٣٥-٤٥؛ الذهبي، *تاريخ (٦١-٨٠هـ)*، ٢٦٠-٢٦٢.

(٢١٠) انظر ترجمته وأخباره عند : الأصبهاني، *الأغاني*، ٣ : ١-٢٦.

(٢١١) انظر ترجمتها عند : ابن الأثير، *أسد*، ٦ : ٢٠١-٢٠٢.

(٢١٢) ابن قتيبة، *المعارف*، ٢٩٤؛ انظر أيضا : ابن الأثير، *أسد*، ٢٠٢؛ ابن منظور، *لسان*، ١٣ : ١٧٧.

(٢١٣) انظر ترجمة وأخبار الشاعر النميري عند : الأصبهاني، *الأغاني*، ٢ : ١٩٠-٢٠٨.

(٢١٤) انظر : ياقوت، معجم، ٥ : ٢٩٣.

(٢١٥) الأصبهاني، *الأغاني*، ٦ : ١٩٢، ١٩٥، ١٩٨.

(٢١٦) هي أم منظور بنت محمد بن مسلمة الأنصارية؛ انظر ترجمتها عند : ابن الأثير، *أسد*، ٢ : ٤٠٠؛ ابن حجر، *الإصابة*، ٤ : ٥٠٠-٥٠١.

(٢١٧) انظر : ابن منظور، *لسان*، ١٤ : ١٥٠-١٥١.

(٢١٨) الأصبهاني، *الأغاني*، ٨ : ١١٣.

(٢١٩) الأصبهاني، *الأغاني*، ١٦ : ١٤٤.

(٢٢٠) يقول الرسول ﷺ : "لاتحد على ميت فوق ثلاث، إلا إمرأة تحد على زوجها أربعة أشهر وعشرا. ولاتلبس ثوبا مصبوغا، إلا ثوب عصب. ولاتكتحل ولا تتطيب إلا عند أدنى طهرها، نبذة من قسط أو ظفار"؛ انظر : ابن ماجه، *سنن*، ١ : ٦٧٤-٦٧٥؛ البخاري، *صحيح*، ٦ : ٢٢٩.

(٢٢١) مالك، *المدونة الكبرى*، تحقيق أحمد عبد السلام، ط١ (بيروت : دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م)، ٢ : ١٣-١٤.

(٢٢٢) مالك، *المدونة*، ٢ : ١٤.

(٢٢٣) هو ربيعة بن أبي عبد الرحمن فروخ التيمي مولى آل منكدر المدني المعروف بربيعة الرأي. وهو ثقة ومن أكابر التابعين وصاحب فتوى بالمدينة. انظر ترجمته عند : ابن حجر، *تهذيب*، ٢ : ١٥٣-١٥٤.

(٢٢٤) مالك، *المدونة*، ٢ : ١٤.

(٢٢٥) ابن منظور، *لسان*، ٧ : ٢٧٨-٢٧٩.

(٢٢٦) ابن منظور، *لسان*، ٧ : ٩٧٢؛ والصندل : شجر طيب الريح؛ ابن منظور، *لسان*، ١١ : ٣٨٦.

(٢٢٧) ابن حبيب، *المحبر*، ٣٢٢؛ انظر أيضا: البابطين، *الحياة*، ٢٧٤.

(٢٢٨) السدر: شجر النبق وهو ذو رائحة عطرة؛ ابن منظور، *لسان*، ٤: ٣٥٤.

(٢٢٩) انظر: البخاري، *صحيح*، ٢: ٩١-٩٥. وانظر: الكافور في هذه الدراسة تحت أنواع العطور رقم ٤.

(٢٣٠) ابن سعد، *الطبقات*، ٢: ٢٨٨؛ الذهبي، *تاريخ (السيرة النبوية)*، ٥٧٨.

(٢٣١) ابن سعد، *الطبقات، الطبقة الخامسة*، ٢: ١٢٣؛ الذهبي، *تاريخ (٦١-٨٠هـ)*، ٤٤٧.

(٢٣٢) ابن سعد، *الطبقات*، ٤: ١٨٧.

(٢٣٣) انظر: المسك تحت أنواع العطور رقم ٢.

(٢٣٤) ابن سعد، *الطبقات، الطبقة الخامسة*، ٢: ١١٥.

(٢٣٥) ابن سعد، *الطبقات، الطبقة الخامسة*، ٢: ١٤٤.

(٢٣٦) انظر: أبو الفداء الحافظ ابن كثير، *البداية والنهاية*، تحقيق أحمد أبو ملحم، علي نجيب عطوي، فؤاد السيد، مهدي ناصر الدين وعلي عبد الساتر (بيروت: دار الكتب العلمية. د.ت.)، ٨: ٣٤٦.

(٢٣٧) مالك، *الموطأ*، ١: ٢٢٦؛ انظر أيضا: ابن سعد، *الطبقات*، ٨: ٢٥٤-٢٥٥.

(٢٣٨) ابن سعد، *الطبقات*، ٥: ١٨١.

(٢٣٩) هو يوسف بن ماهك الفارسي المكي مولى قريش. انظر ترجمته عند: الذهبي، *تاريخ (١٠١-١٢٠هـ)*، ٥٠٨-٥٠٩؛ ابن حجر، *تهذيب*، ١: ٢٦٦.

(٢٤٠) ابن سعد، *الطبقات*، ٥: ٤٧١.

(٢٤١) أبو داود، *سنن*، ٣: ٥١٧-٥١٨؛ ابن ماجه، *سنن*، ١: ٤٧٧.

(٢٤٢) الرجاز: جمع راجز، وهم الذين يقولون الرجز وهو نوع من أنواع الشعر؛ انظر: ابن منظور، *لسان*، ٥: ٣٤٩-٣٥٢. ويبدو أنهم يذكرون محاسن ومآثر الميت في رجزهم.

(٢٤٣) ابن سعد، *الطبقات*، ٥: ١٤١-١٤٢.

(٢٤٤) مالك، *الموطأ*، ١: ٢٢٦؛ ابن سعد، *الطبقات*، ٨: ٢٥٤-٢٥٥.

(٢٤٥) انظر ترجمته عند: ابن سعد، *الطبقات*، ٥: ١١٩-١٤٣.

(٢٤٦) ابن سعد، *الطبقات*، ٥: ١٤١-١٤٢.

(٢٤٧) انظر: تحت أنواع العطور في هذه الدراسة رقم ١.

(٢٤٨) الأزرقي، *أخبار*، ١: ٢٥٧.

(٢٤٩) الأزرقي، *أخبار*، ١: ٢٥٧.

(٢٥٠) الأزرقي، *أخبار*، ١: ٢٥٤.

(٢٥١) انظر ترجمته عند: ابن حجر، *تهذيب*، ٢: ٥٢١-٥٢٢.

(٢٥٢) الأزرقي، *أخبار*، ١: ٢٦٠.

(٢٥٣) الأزرقي، *أخبار*، ١: ٢٥٤.

(٢٥٤) الأزرقي، *أخبار*، ١: ٢٥٤.

(٢٥٥) الأزرقي، *أخبار*، ١: ٢١٧-٢١٨؛ الطبري، *تاريخ الرسل والملوك*، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٤ (القاهرة: دار المعارف، د.ت.)، ٥: ٥٨٢.

(٢٥٦) ابن سعد، *الطبقات، الطبقة الخامسة*، ٢: ٧٣؛ الأزرقي، *أخبار*، ١: ٢١٦، ٢٥٧؛ الفاكهي، *أخبار*، ١: ٣٣١.

(٢٥٧) الفاكهي، *أخبار*، ٣: ٢٢١.

(٢٥٨) الأزرقي، *أخبار*، ١: ٢٥٧.

(٢٥٩) الأزرقي، *أخبار*، ١: ٢٥٥.

(٢٦٠) الأزرقي، *أخبار*، ١: ٢٥٤.

(٢٦١) الفاكهي، *أخبار*، ١: ٣٥٢. وانظر ترجمة منصور بن عبد الرحمن الحجبي عند: ابن حجر، *تهذيب*، ٥: ٥٤٢-٥٤٣.

(٢٦٢) الوسق: مكيال معلوم، وهو حمل بعير، ويوازي ستين صاعا؛ ابن منظور، *لسان*، ٢٠: ٣٧٨-٣٧٩. ويبدو أن المقصود هنا حمل مائة بعير من تلك الهدايا القيمة ومن ضمنها الطيب.

(٢٦٣) الفاكهي، *أخبار*، ١: ١٩٢.

(٢٦٤) حول تحريم الطيب على المحرم. انظر: الطبري، *القرى*، ٢٠٠-٢٠١؛ انظر أيضا: برهان الدين إبراهيم بن فرحون، *إرشاد السالك إلى أفعال المسالك*. تحقيق محمد عبد الهادي أبو الأجفان (قرطاج: بيت الحكمة، ١٩٨٩م)، ٢: ٤٠٤-٤٠٥.

(٢٦٥) الفاكهي، *أخبار*، ١: ٣٤٧؛ الطبري، *القرى*، ٢٠٢.

(٢٦٦) الفاكهي، *أخبار*، ١: ٣٤٧.

(٢٦٧) الفاكهي، *أخبار*، ١: ٣٤٧.

(٢٦٨) الطبري، *القرى*، ٢٠٢.

(٢٦٩) الفاكهي، *أخبار*، ١: ٣٤٨.

(٢٧٠) ابن شبه، *تاريخ*، ١: ٢٤.

(٢٧١) ابن شبه، *تاريخ*، ١: ١٩؛ ابن ماجه، *سنن*، ١: ٢٥١.

(٢٧٢) ابن ماجه، *سنن*، ١: ٢٤٧، ٢٥٠.

(٢٧٣) ليس لعبد الله المجمر ترجمة في المصادر المتاحة ولكن أخباره ترد في ترجمة ابنه نعيم بن عبد الله المجمر؛ انظر: التعليقة التالية رقم ٢٧٧ ومصادرها.

(٢٧٤) ابن حجر، *تهذيب*، ٥: ٦٣٩.

(٢٧٥) السمهودي، *وفاء*، ٢: ٦٦١.

(٢٧٦) الأزرقي، *أخبار*، ١: ٢٥٥.

(٢٧٧) هو نعيم بن عبد الله المجمر أبو عبد الله المدني، مولى آل عمر بن الخطاب ﷺ، عاش إلى حدود سنة ١٢٠هـ. انظر ترجمته عند: البخاري، *التاريخ*، ٨: ٤: ٩٦؛ الذهبي، *تاريخ (١٠١-١٢٠هـ)*، ٤٩١-١٩٢؛ ابن حجر *تهذيب*، ٥: ٩٣٦. وقيل له المجمر، لأنه كان يجمر مسجد الرسول ﷺ أي يبخره. والمجمر صفة لوالده عبد الله ويطلق على ابنه نعيم مجازا؛ انظر: الذهبي، *تاريخ (١٠١-١٢٠هـ)*، ٤٩١، هامش ٤.

(٢٧٨) الذهبي، *تاريخ (١٠١-١٢٠هـ)*، ٤٩١-٤٩٢؛ ابن حجر، *تهذيب*، ٥: ٦٣٩؛ ابن منظور، *لسان*، ٤: ١٤٥.

مصادر التموين الغذائي لمكة المكرمة خلال العصر الأموي

ضيف الله بن يحيى الزهراني

قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية،

جامعة أم القرى - مكة المكرمة

يقـول الله سبحانه وتعـالى : ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ .(١)

وكما نعلم أن مكة بلدة غير زراعية ، ولكنها اشتهرت بالتجارة منذ العصور القديمة ، وقد قال الله تعالى في ذلك ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِيٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾ ﴾ .(٢)

وقد استفادت تجارة مكة من الصراع الدولي بين الفرس والروم قبل الإسلام وذلك بفرض تجارتها على بلدان الجزيرة العربية ، ولكن بعد انتشار الإسلام عن طريق الفتوحات الإسلامية لم تعد مكة تحتفظ بمكانتها التجارية الدولية المتميزة ، لأن الإسلام أزال الفوارق والحدود بين الأقاليم ، فأصبحت الدولة الإسلامية دولة واحدة ، وانتشر الأمن وانحسر الخوف والصراع ، وبذلك قل عدد القوافل المحملة بالمواد الغذائية.(٣)

وبذلك لم يعد النشاط التجاري مقصورا على جزيرة العرب " بل إن التجارة توسعت آفاقها ليتم التبادل التجاري مع الأقاليم الإسلامية."(٤)

أما التجارة الداخلية ، فقد دخل عليها تغييرات أساسية نتيجة لتضاؤل تجارة مكة الخارجية ، وكذا التغيير الاجتماعي الذي حدث بمكة بسبب هجرة الكثير من أهلها الأصليين ، واستقطابها لأعداد كثيرة تعود أصولهم إلى البلاد المفتوحة.(٥)

وليس من مهام البحث التوسع في تجارة مكة ، ولكن بما أننا نريد أن نبين مصادر التموين الغذائي لمكة لابد من إيضاح تجارة الأغذية أو الأطعمة في مكة.

لقد حظيت مكة بعدد من الأسواق المتخصصة في بيع الأطعمة وهذه الأسواق هي : سوق الحناطين ، وهو لبيع الحبوب بكافة أنواعها ؛و سوق أصحاب الزيت ؛ وسوق البقالين ؛ وسوق التمارين ؛ وسوق الرطب ؛ وسوق الفاكهة ؛ وسوق السمك ؛ وسوق اللبانين.)[٦] وهذه الأسواق لا تمثل العدد الأعلى في مكة وإنما هي مجرد أمثلة ، لذلك نجد أسواق مكة قد انتشرت بفعل التوسع الكبير الذي أصابها نتيجة تزايد عدد الحجاج والزائرين مما كان له أكبر الأثر على حجم التجارة المحلية .

أما التموين الغذائي لمكة فكان يتم عن مصدرين هما :

أولاً : التموين الداخلي

إن المتمعن في تاريخ مكة الاقتصادي يدرك أنها تقع في منطقة جرداء ، تحف بها الجبال والهضاب القاحلة ، لذلك اعتمد أهلها على جلب المنتجات الزراعية من فواكه ، وخضروات ، وحبوب ، من الأودية الأكثر إنتاجا وخصوبة ، والتي كانت تعتبر من توابع مكة المكرمة.[٧]

وكان يزرع في مكة المكرمة قليل من الحبوب منها : الشعير، والقمح ، والذرة ، والدخن ، وكانت مقادير تلك المحاصيل قليلة ومحدودة ، لأن زراعتها كانت تتوقف على سقوط الأمطار.[٨]

ونذكر أن مكة كان يتم تموينها الداخلي عن طريق :

١ - المدن والقرى التابعة لمكة :

ومن أشهرها الطائف ، وكانت تمون مكة بالرمان والعنب والليمون والزبيب ، ويذكر ابن حوقل أن جميع فواكه مكة من الطائف.[٩]

وقرى بطن نخل تعتمد على سوق مكة في بيع محاصيلها الزراعية ،[١٠] ويذكر القلقشندي أن "غالب فواكه مكة وقطانيها وبقولها منها.[١١] أما بطن مرٍّ وهو المعروف بوادي فاطمة فإنه يشتهر بزراعة النخيل وكثرة المياه الجوفية ، وأن خضاره وثماره وغالب حبوبه تجلب إلى مكة.[١٢]

ويقع بالقرب من وادي مر أو مر الظهران مناطق زراعية مثل عُسفان ، والبرزة ، وكُليّة ، وخُليص ، وجميعها تشتهر بزراعة الحبوب والنخيل والخضار ، وهي تعتمد على سوق مكة في بيع محاصيلها الزراعية.[١٣]

وكان يجلب إلى مكة من قرى وادي الفرع العسل ، فقد أشتهرت بتربية النحل ،[١٤] وكان يرد إلى مكة من ساحل تهامة ومناطقها الداخلية حتى حلي بن يعقوب كميات كبيرة من حبوب الذرة والدخن ، حيث إن تلك المناطق كانت تشتهر بزراعة تلك الحبوب وبكميات تجارية كبيرة .

٢ - منطقة سلاسل جبال السروات

وتمتد من الطائف حتى بلاد اليمن ، وكانت تسكن هذه الجبال قبائل كثيرة ومتعددة ، وتعيش في أكثر الأحيان في نعمة وسعة من الرزق ، فهي معدن الحبوب والخيرات والتمور والعسل الكثير.[(١٥)] ومن مناطق السراة المشهورة زهران وغامد ، وتبالة ، وبجيلة ، وقد ذكرها ابن بطوطة لما زار مكة بقوله : "وأهل البلاد الموالية لمكة ، مثل بجيلة وزهران وغامد ، يبادرون لحضور عمرة رجب ويجلبون إلى مكة الحبوب والسمن والعسل والزبيب والزيت واللوز ."[(١٦)]

وقد ذكر الواقدي وابن سعد ، أن العير القادمة من السراة والطائف تحط بضائعها في الرحبة التي بين الدارين (دار أبي سفيان ودار ابنه حنظلة) ، وتتكون هذه البضائع من الحبوب ، والسمن ، والعسل ، والزبيب.[(١٧)]

فكان السرو إذا دخلوا مكة ملأوها خيرا ، ولذلك يقول أهل مكة : "حاج العراق أبونا نكسب منه الذهب والسرو أمنا نكسب منهم القوت." [(١٨)]

٣ - نجـــــــد

وهي المنطقة الممتدة من النفود الكبير شمالا ، والربع الخالي جنوبا ، وبين الدهناء في الشرق ، وجبال السروات في الغرب.[(١٩)] وقد كانت منطقة نجد تمون مكة بالمواد الغذائية حيث تحمل التمور من اليمامة إلى مكة وتباع في الأسواق عند المسجد الحرام ،[(٢٠)] وكان التمر الصفري يحمل من وادي الغيل ببلاد الفلج بنجد إلى مكة ،[(٢١)] كما كانت الحنطة تحمل من اليمامة إلى الحجاز لتباع هناك.[(٢٢)]

ثانيا : التموين الخارجي

تواصلت العلاقات التجارية والاقتصادية مع كثير من البلدان ، وخاصة تلك التي تتسم بالنشاط التجاري عبر طرق القوافل أو عبر البحار والمحيطات ، ومنها على سبيل المثال :

١ - اليمن

من بلاد شبه الجزيرة العربية ، وقد عرفت بغزارة إنتاجها الزراعي ، وتصديره إلى مكة ، وهناك إشارات متأخرة وردت عند الفاسي عن قرية " فنونا" التي اشتهرت بزراعة الذرة وتصديرها إلى مكة المكرمة ،[(٢٣)] وكانت تستورد مكة من اليمن الكثير من البضائع بعضها يدخل في نطاق الأطعمة ، والآخر يدخل في نطاق المنسوجات والأسلحة.[(٢٤)]

٢ - البحرين

كانت البحرين تصدر التمور إلى مكة المكرمة ، وخاصة تمور هجر،[٢٥] ثم أيضاً كانت البحرين تمون الحجاز بالميرة ، وخلاف ذلك من بعض البضائع.[٢٦]

٣ - الشام والعراق

انتقلت الحكومة الإسلامية إلى بلاد الشام واتخذت دمشق عاصمة لها ، والعلاقات التجارية المكية الشامية قديمة جداً وتمثل ذلك في رحلات الشتاء والصيف ، فكان التجّار المكيون يترددون كثيراً على بلاد الشام لمزاولة النشاط التجاري ، وكان أهم ما تستورده الحجاز من الشام الفواكه والمنسوجات والمواد الغذائية."[٢٧]

أما بلاد العراق وخاصة الكوفة والبصرة، فكانت تصدر الفواكه إلى مكة المكرمة،[٢٨] وكانت تجارة الحبوب (الحنطة والشعير) من التجارات الرائجة في مكة أيام مواسم الحج .

٤ - مصر

نشطت الحركة التجارية بين مصر والحجاز خلال العصر الأموي، وقد توافدت أعداد كبيرة من تجار أهل مكة على مصر لشراء البضائع وتسويق منتجاتهم ، فكانت مكة تسورد من مصر القمح والحبوب بصفة عامة عن طريق موانىء البحر الأحمر،[٢٩] حيث اهتم الأمويون بتلك الموانىء وأقاموا لها الحماية الكاملة والرعاية المستمرة، وخاصة مينائي الجار ، وجدة . فتعد جدة الميناء الرئيس لمكة، وقد أصابتها الفائدة وعمرت أسواقها بالبضائع التي يصدر جزء منها إلى مكة ، كما كانت جدة الميناء الذي تنقل عن طريقه تجارة مكة وما حولها إلى خارج الحجاز.[٣٠]

٥ - السودان والحبشة

كان لمكة علاقات تجارية مع بلدان الساحل الشرقي لقارة أفريقية ، وتعدّ مدينة سواكن السودانية من أهم المدن التي كانت تصدر حبوب الذرة إلى مكة ، وقد أكد الفاسي في فترة متأخرة بأن "وصول الحبوب والغلال من سواكن له أكبر الأثر في انحلال الأسعار ورخصها ."[٣١]

وكان لمدينتي زيلع وبربرة الحبشيتين أهمية كبرى في حياة مكة الاقتصادية والمعيشية ، فكانت السفن تعبر البحر الأحمر محملة بالحبوب الزيلعية ، وقد شجع قربها من موانىء البحر الأحمر تصريف منتوجاتها الزراعية عن طريق ميناء جدة ، وسواء عن طريق التجار أو الحجاج.[٣٢]

٦ - الهند والصين

تعد بلاد الهند من القارات الغنية ، والتي كان لها نشاط تجاري كبير مع بلدان العالم ، وقد وصفها القلقشندي بقوله : "مملكة عظيمة الشأن ... لاتساع أقطارها وكثرة أموالها ... في بحرها الدر ، وفي برها الذهب ، وفي جبالها الياقوت والماس ، وفي شعابها العود والكافور، وبها أنواع مختلفة من التوابل ، مثل الفلفل والقرنفل

والدارصيني (القرفة) ."[٣٣] وللهند والصين علاقات تجارية كبرى مع مكة المكرمة عن طريق ميناء جدة ، وقد ذكر ابن خرداذبة بأن تجارة مكة وصلت إلى الهند والصين ،[٣٤] ولعل أهم المواد التجارية التي كانت تصدر إلى مكة المكرمة هي التوابل ،[٣٥] وقد لاقت تجارتها شهرة عالمية امتدت إلى مصر ثم إلى أوروبا .

ثالثا : تقويم لمصادر التموين الغذائي بمكة المكرمة

لقد أنعم الله على مكة المكرمة بالخير العميم منذ أن سكنها الإنسان وبالتحديد عندما سكنها إبراهيم عليه السلام وأسرته ، وتجسد ذلك في قوله تعالى: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ ﴾ الآية . ومنذ ذلك الزمن نمت مكة وتطورت أحوالها الاقتصادية ، وجاءتها الأرزاق والميرة من كل مكان من أطرافها ، ومن أوديتها ، ومن قراها ، ومن داخلها ، ومن خارجها . ولم يتأثر تاريخها الاقتصادي حتى بعد انتقال عاصمة الخلافة إلى بلاد الشام ، فقد عاشت في رغد من العيش هي ومن زارها للحج أو للعمرة باستثناء بعض المشكلات التي حدثت في مكة ، وتأثرت أحوال السكان المعيشية ، ومن تلك الأزمات ما حدث في سنة ٧٣هـ، عندما حاصر الحجاج بن يوسف مكة المكرمة انتقاما من عبد الله بن الزبير . وقد استمر الحصار مدة ستة أشهر حتى نفذ مخزون الأطعمة ، وأصيب الناس بمجاعة شديدة ترتب عليها غلاء أسعار المواد الغذائية غلاء فاحشا ، بسبب تعطل التجارة ، وقلة الواردات الغذائية إلى مكة ،[٣٦] وما حدث في أواخر العصر الأموي ، عندما غزا أبو حمزة الخارجي مكة سنة ١٢٩هـ ، واستولى على مكة ، وأدى هذا إلى قلة الميرة ، والكساد التجاري ، وقد تضرر تجار مكة من تلك الحملة حتى أن سوق عكاظ لم تقم له قائمة بعد ذلك التاريخ.[٣٧]

وقد رصد أحد الباحثين الحالة المعيشية لأهل مكة خلال العصر الأموي ووصفها بأنها كانت جيدة وميسورة وذلك بقوله : " أما أساليب معيشة أهل مكة في مأكلهم ... فقد كانت تتسم بالبساطة ، وقلة التنوع ، ولم يُلحظ رفاه كبير عند ظهور الإسلام خاصة مع توفر الثروات عند أهلها ، ولكن حالهم تغير في الإسلام ، فعرف المطبخ المكي الكثير من الأكلات المتنوعة المالحة والحلوة ، وهو يعكس ميلهم إلى الدعة والرفاهية بسبب سهولة الكسب ، وبتأثير التماس المباشر مع المجتمعات الإسلامية الأخرى ، فالأكلات الفارسية وغيرها أصبحت تقدم على الموائد المكية ... وقد لاحظت الدراسة استمرار معظم الأكلات القديمة ويشكل الخبز واللحم والسمن والعسل المادة الرئيسية بينما تشكل الأكلات الجديدة إضافات في معظم الأحوال."[٣٨]

وهذه النتيجة عكست قوة مصادر التموين الغذائي لمكة ، والتي تنوعت وتعددت - كما مرّ معنا - سواء من داخل نطاق إقامة مكة المكرمة ، أو ما كان من خارج مكة عبر البحار والمحيطات . وقد شكل الحجاج قوة مؤثرة وفاعلة في اقتصاد مكة ، وفي غالب الفترات كان هذا التأثير إيجابياً جداً بما يحمله الحجاج من مواد تجارية غالية ونفيسة ساعدت في تنوع التبادل التجاري ، وخاصة ما يتعلق منها بمعيشة السكان (أهل مكة وضيوف الرحمن) .

التعليقات

(١) سورة إبراهيم، آية ٣٧ .

(٢) سورة قريش .

(٣) أحمد بن يحيى البلاذري (ت ٢٧٩هـ)، *أنساب الأشراف* ، تحقيق محمد حميد الله (القاهرة: دار المعارف ، ١٩٥٩م)، ١: ١٧٤ ؛ النجم عمر بن فهد (ت٨٨٥هـ)، "*إتحاف الورى بأخبار أم القرى* ، تحقيق فهيم شلتوت (مكة المكرمة: مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي ، جامعة أم القرى ، ١٤٠٤هـ)، ٢ : ٧٥ ؛ إلهام أحمد البابطين، *الحياة الاجتماعية في مكة منذ ظهور الإسلام حتى نهاية العصر الأموي* ، ط١ (الرياض ، ١٤١٩هـ)، ١٥٤ .

(٤) البابطين، *الحياة الاجتماعية* ، ١٥٤ .

(٥) البابطين، *الحياة الاجتماعية* ، ١٥٤، ١٥٥ .

(٦) عن هذه الأسواق أنظر : محمد بن عبد الله الأزرقي (٢٥٠هـ) ، *أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار* ، تحقيق رشدي ملحس (بيروت : دار الثقافة ، ١٣٩٩هـ)، ٢: ٩٦ ، ٢٤٤ ، ٢٦٠ ، ٢٣٤ ، ٢٥٦ ، ٢٣٩ ؛ محمد بن إسحاق الفاكهي (ت ٢٧٩هـ) ، *أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه* ، تحقيق عبد الملك بن دهيش (مكتبة النهضة الحديثة)، ٢ : ٢٠ ، ٢٠٠، ٢٠٧، ٢٧٤، ٢٧١، ٢٧٩، ٣٣٠ ؛ أبو إسحاق إبراهيم الحربي (ت ٢٨٥هـ) ، *المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة*، تحقيق حمد الجاسر (الرياض: دار اليمامة، ١٤٠١هـ)، ٤٧٧ ، ٤٧٨ .

(٧) الأماكن التي كانت تحت سيطرة مكة خلال العصر الأموي تمتد من وادي الفرع شمالا حتى حلي بن يعقوب جنوبا ، ومن الطائف شرقا إلى جدة غربا ؛ أنظر: ابن فهد : *إتحاف الورى* ، ٣: ١٢٠ .

(٨) أحمد بن علي القلقشندي (ت ٨٢١هـ) ، *صبح الأعشى* ، شرح وتعليق محمد حسين (دار الفكر ، ودار الكتب ، ١٤٠٧هـ)، ٤: ٢٤٧ .

(٩) ابن حوقل ، أبو القاسم النصيبي (من رجال القرن الرابع الهجري) ،*كتاب صورة الأرض* (بيروت: مكتبة دار الحياة)، ١٢١.

(١٠) أحمد بن عمر الزيلعي ، *مكة وعلاقاتها الخارجية ٣٠١-٤٨٧هـ* (الرياض: جامعة الرياض، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م)، ١٥٨ .

(١١) القلقشندي ، *صبح الأعشى* ، ٤: ٢٥٨ .

(١٢) أبو الفدا ، عماد الدين إسماعيل (ت٨٣٢هـ)، *تقويم البلدان* (باريس ، ١٨٤٠م) ، ٩٥ .

(١١) القلقشندي ، *صبح الأعشى* ، ٤: ٢٦٠ ؛ الزيلعي ، *مكة وعلاقاتها الخارجية* ، ١٥٨ .

(١٤) الزيلعي، *مكة وعلاقاتها الخارجية*، ١٥٩.

(١٥) الحسن بن أحمد الهمداني (ت ٣٣٤هـ)، *صفة جزيرة العرب*، تحقيق محمد الأكوع (الرياض: دار اليمامة ، ١٩٧٤م) ، ٦٤ ؛ شمس الدين محمد المقدسي (ت ٣٨٠هـ)، *أحسن التقاسيم* (بيروت، ١٩٠٦م)، ٨٦ .

(١٦) أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن بطوطة (ت ٧٧٩هـ) ، *تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار* (بيروت: دار صادر ، ١٩٦٤م)، ١ : ١٨٣ .

(١٧) محمد بن عمر الواقدي (ت ٢٠٧هـ) ، *المغازي* ، تحقيق مارسدن جونس (بيروت: عالم الكتب ، ١٤٠٤هـ)، ١: ١٦ ؛ ابن سعد ، محمد سعد بن منيع الزهري (ت٢٣٠هـ)، *الطبقات الكبرى، الطبقة الخامسة من الصحابة* ، تحقيق محمد بن صامل السلمي (بيروت: دار الكتب العلمية ، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م)، ٢: ٧ .

(١٨) جمال الدين يوسف بن يعقوب بن المجاور (ت ٩٦٠هـ)، *تاريخ المستبصر* (ليدن ، ١٩٥١م)، ٢١ .

(١٩) عبد الله محمد السيف ، *الحياة الاقتصادية والاجتماعية في نجد والحجاز في العصر الأموي* (بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٣/١٩٨٣م)، ٣٧ .

(٢٠) أبو بكر أحمد بن محمد بن الفقيه (ت ٢٩٠هـ)، *مختصر كتاب البلدان* (ليدن ، ١٣٠٢هـ)، ٢٩ .

(٢١) الحربي ، *المناسك* ، ٦٢٢ .

(٢٢) السيف، *الحياة الاقتصادية* ، ٩٧ .

(٢٣) محمد بن أحمد الفاسي الحسني المكي (ت ٨٣٢هـ)، *شفاء الغرام باخبار البلد الحرام* ، تحقيق عمر عبد السلام التدمري (بيروت : دار الكتاب العربي ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م)، ٢: ٢٧٢، ٤٤١ .

(٢٤) السيف ، *الحياة الاقتصادية* ، ١٢٣.

(٢٥) ابن سعد ، *الطبقات* ، ٥: ١٤ .

(٢٦) السيف ، *الحياة الاقتصادية* ، ١٢٠ .

(٢٧) السيف، الحياة الاقتصادية، ١٢٤.

(٢٨) ابن الفقيه ، *البلدان* ، ٢٥٢ .

(٢٩) أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم (ت ٢٥٧هـ)، *فتوح مصر والمغرب* ، تحقيق عبد المنعم عامر (القاهرة : لجنة البيان العربي ، ١٩٦١م)، ٢٢٠ .

(٣٠) السيف ، *الحياة الاقتصادية* ، ١١٦، ١١٧ .

(٣١) الفاسي ، *شفاء الغرام* ، ٢: ٢٧٤ ، ٢٧٦ ؛ ضيف الله يحيى الزهراني، *أسعار المواد الغذائية بمكة المكرمة خلال العصر المملوكي* (مكة المكرمة: معهد البحوث بجامعة أم القرى، ١٤١١هـ / ١٩٩١م) ، ١٦ .

(٣٢) الزهراني ، *أسعار*، ١٦ .

(٣٣) القلقشندي ، *صبح الأعشى*، ٥: ٦١، ٦٢ .

(٣٤) أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبه (ت ٣٠٠هـ) ، *المسالك والممالك* (ليدن ، ١٨٨٩م)، ١٥٣ .

(٣٥) الزهراني ، *أسعار*، ٨ .

(٣٥) البلاذري ، *أنساب الأشراف* ، ٥: ٣٦١ ؛ الفاكهي، *تاريخ مكة* ، ٢: ٢٦ .

(٣٧) الأزرقي ، *أخبار مكة* ، ٢: ١٣١ ؛ السيف ، *الحياة الاقتصادية* ، ٩٤.

(٣٨) البابطين ، *الحياة الاجتماعية* ، ٤٥٥ ، ٤٥٦ .

رابعاً : الحياة العلمية

أمهات [illegible] في المجتمع المدني

أمهات المؤمنين وأثرهن في المجتمع المدني في عهد معاوية بن أبي سفيان ﷺ

عبد العزيز بن إبراهيم العُمري
كلية العلوم الاجتماعية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية (الرياض)

تعد أمهات المؤمنين رمزاً للقدوة، ورياً من فيح محمد ﷺ. وعطراً للمجتمعات ومدرسة للرجال والنساء، وقد تحدثت كتب السير والتراجم عن حياتهن في عصر النبوة وعن قصص إسلامهن وزواجهن وأحوالهن المختلفة ذات العلاقة برسول الله ﷺ، ومن المعلوم أنه عند وفاة الرسول ﷺكان يعيش من هؤلاء الأمهات تسع نساء، وقد توفي بعضهن في زمن الخلافة الراشدة، وفي عصر بني أمية وخصوصاً في زمن الخليفة معاوية بن أبي سفيان -رضي الله عنه- عاشت سبع من أمهات المؤمنين، فمنهن من عاش خمس سنوات من خلافة معاوية، ومنهن من عاش طيلة خلافته، ومن المعروف أن الخلافة انتقلت في أيامه من المدينة إلى الشام، وتغيرت حال المدينة تبعاً لذلك، إلا أن أمهات المؤمنين استمر بقاؤهن في المدينة وعشن في مجتمعها الطيب وكانت لهن حياتهن الخاصة، ودورهن الاجتماعي المميز، والمتتبع للمصادر المختصة يجد نتفاً من أخبارهن متفرقة هنا وهناك، وإن كان حجم تلك الأخبار أقل بكثير من أخبارهن في حياة النبي ﷺ، ومع ذلك فإن هذه الأخبار يمكن من خلالها متابعة حياتهن الخاصة في المدينة ودورهن الاجتماعي فيها خلال عصر معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه.

لقد كانت الزعامة الاجتماعية في المدينة والقيادة الأدبية لأمهات المؤمنين رضي الله عنهن، كان دورهن مشهوراً وجهدهن مشكوراً، كن محل أنظار وعناية المجتمع بكافة طبقاته، شاركن الناس في أفراحهم وأحزانهم، وجهنهم لأمور دينهم ودنياهم، ساعدن المحتاج، ووجهن إلى الخير كل من هو بحاجة سواء كان صغيراً أو كبيراً غنياً أو فقيراً، لقد شاركت أمهات المؤمنين في تقوية العلاقات الاجتماعية، وفي العمل الخيري، وفي المناسبات الاجتماعية فكن بحق زعيمات مجتمع المدينة في عصر معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه وهذا هو محتوى البحث الذي تنوعت مصادره التاريخية وتناثرت مادته في كتب التراجم، والسنن، والآثار، والتاريخ، والبلدانيات. أسأل الله أن ينفع به، وأن يعين على تطويره فعليه وحده التكلان.

أمهات المؤمنين

لقد كان من سنن الله في البشر الزواج والذرية، وكان أنبياء الله عليهم السلام يتزوجون وينجبون الذرية ويحيون الحياة الزوجية والاجتماعية كغيرهم من الناس، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى ذلك في كتابه العزيز، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴿٣٨﴾﴾ [من آية[٣٨] الرعد].

وقد سار رسول الله ﷺ على سنة الأنبياء قبله فأحل الله له الزواج كسائر الأنبياء الآخرين، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾﴾ (الأحزاب، آية ٥٠).

ويطلق لفظ أمهات المؤمنين ويقصد به زوجات النبي صلى الله عليه وسلم اللاتي دخل بهن.[١] وقد كان لهن شرف خاص ميزهن به الله سبحانه وتعالى عن سائر النساء يقول سبحانه وتعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ ﴿٣٢﴾﴾ (الأحزاب، من آية ٣٢). وقد سماهن الله سبحانه وتعالى في كتابه أمهات المؤمنين يقول تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴿٦﴾﴾ (الأحزاب، من آية ٦). ويقال لهن أمهات المؤمنين بالنسبة للرجال دون النساء،[٢] ولذلك فقد روي عن أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- أنها ردت على امرأة نادتها بـ يا أمه بقولها: لست لك بأم إنما أنا أم رجالكم، ولذلك رأى العلماء أن المراد بالأمومة (تحريم نكاحهن على التأبيد كالأمهات) لا ما يرتبط بالأمومة من جواز وضع الحجاب أو المخالطة أو ما يرتبط بذلك من الأحكام.[٣] وقد اختار الله لنبيه صلى الله عليه وسلم أفضل النساء، فهو خير الرجال وهن خير النساء وأزواجه في الدنيا أزواجه في الآخرة فقد ورد أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: إن الله أبى لي أن أتزوج أو أزوج إلا أهل الجنة.[٤] وقد عشن مع الرسول صلى الله عليه وسلم في داره وصحبنه في تنقلاته وأسفاره، وأخذن أخبار الرجال وأحكام النساء، والرجال، ونزلت الملائكة في بيوتهن.

وقد خير الرسول صلى الله عليه وسلم أزواجه بين الدنيا والدار الآخرة فاخترن الله والدار الآخرة وذلك بعد نزول قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ (الأحزاب، آية ٢٨-٢٩)، ولذلك فقد وردت روايات في تخيير النبي صلى الله عليه وسلم

لأزواجه، منها ما أورده البخاري في صحيحه: في باب طويل هو: " بَاب قَوْلِهِ وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا وَقَالَ قَتَادَةُ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ الْقُرْآنِ وَالْحِكْمَةُ السُّنَّةُ وَقَالَ اللَّيْثُ حَدَّثَنِي يُونُسُ عَنْ ابْنِ شِهَابٍ قَالَ أَخْبَرَنِي أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَنَّ عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ لَمَّا أُمِرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِتَخْيِيرِ أَزْوَاجِهِ بَدَأَ بِي فَقَالَ إِنِّي ذَاكِرٌ لَكِ أَمْرًا فَلَا عَلَيْكِ أَنْ لَا تَعْجَلِي حَتَّى تَسْتَأْمِرِي أَبَوَيْكِ قَالَتْ وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ أَبَوَيَّ لَمْ يَكُونَا يَأْمُرَانِي بِفِرَاقِهِ قَالَتْ ثُمَّ قَالَ إِنَّ اللَّهَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ قَالَ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا إِلَى _أَجْرًا عَظِيمًا_ قَالَتْ فَقُلْتُ فَفِي أَيِّ هَذَا أَسْتَأْمِرُ أَبَوَيَّ فَإِنِّي أُرِيدُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ قَالَتْ ثُمَّ فَعَلَ أَزْوَاجُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِثْلَ مَا فعلت.[٥] لقد كانت جميع أمهات المؤمنين يردن الله والدار الآخرة وبالتالي فإنهن جميعاً من أهل الجنة كما يقول العلماء بناء على هذا التخيير ونتيجة جوابهن له.[٦]

كما أنهن نلن قدراً من العلم لم ينالـه أحد من الناس: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ (الأحزاب، آية٣٤). ولذلك فقد كان لهن شرف نقل كثير من أمور الشريعة للأمة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم تنفيذاً لأمر الله في الآية، فكن ينقلن ما يتلى في بيوتهن من آيات الله وهي القرآن، ومن الحكمة وهي أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنته.

وقد كان تعامل رسول الله صلى الله عليه وسلم معهن تعامل الزوج السامي المعلم الميسر كما قال -صلى الله عليه وسلم- فيما رواه مسلم عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قَالَ: لَا تَسْأَلُنِي امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ إِلَّا أَخْبَرْتُهَا إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَبْعَثْنِي مُعَنِّتًا وَلَا مُتَعَنِّتًا وَلَكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّمًا مُيَسِّرًا.[٧] كما أنهن لم يرين منه إلا كل خير وكان صلى الله عليه وسلم مثلاً لكل الرجال في الخير مع نسائهم وأهلهم يقول صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه الترمذي عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي.[٨] وقد حملت أمهات المؤمنين من خير رسول الله صلى الله عليه وسلم وخير ما حمل من علم وخلق لسائر الأمة طيلة حياتهن في أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي أيام الخلفاء الراشدين ومن بقي منهن لعصر معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه. فكن تاج المجتمع ومعلماته ومربياته وقادته في المجال الاجتماعي، قمن بدور عظيم في كل مجال وقد زاد هذا الدور وتأصل بعد رسول الله ﷺ في عصر الراشدين وفي زمن معاوية بن أبي سفيان ؓ. ومن المعلوم أن من بقي منهن كن يعشن في المدينة المنورة فيؤثرن ويتأثرن به، يحرص عليهن بالرعاية والتكريم أهل المدينة وروادها من ذوي الشأن في ذلك الزمان.

عصر معاوية

أصبح معاوية بن أبي سفيان[٩] خليفة للمسلمين في عام الجماعة بعد أن تمت بيعته من قبل الحسن بن علي رضي الله عنه ، وتوحد المسلمون منذ ذلك اليوم تحت لوائه وذلك في سنة٤١ للهجرة.[١٠] وقد استمر معاوية خليفة للمسلمين يؤدي الواجبات المناطة به يحمي ثغور المسلمين ويقمع الفتن ، ويقسم العطاء ويقيم الحدود ويحفظ الأمن ويقوم بأعباء الخلافة المختلفة ، كما فتحت في أيامه مناطق جديدة في حدود الروم مع بلاد الشام ،[١١] وفي شمال أفريقيا وبعض الجزر في البحر الأبيض المتوسط ، كما حاول عدة مرات فتح القسطنطينية عاصمة الروم إلا أنه لم ينجح في ذلك ،[١٢] وعموماً فإن فترة خلافة معاوية ، تعد فترة استقرار ورخاء في عموم الأمصار الإسلامية وخصوصاً في الحجاز وبالذات في المدينة المنورة ، وكما قال عنه الذهبي رحمه الله"ومعاوية من خيار الملوك الذين غلب عدلهم على ظلمهم وما هو ببريءْ عن الهنات والله يعفو عنه.[١٣] وقد توفي معاوية بن أبي سفيان -رضي الله عنه- في سنة ٦٠هـ.[١٤]

أمهات المؤمنين في عصر معاوية

توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تسع من أمهات المؤمنين ،[١٥] وقد لحقت أولاهن بالرسول صلى الله عليه وسلم بعد وفاته وهي زينب بنت جحش سنة عشرين للهجرة.[١٦] وقد أدرك خلافة معاوية -رضي الله عنه- منهن سبع وهن على النحو الآتي.

عائشة بنت أبي بكر الصديق (٩ ق.هـ -٥٨هـ)

أمها أم رومان بنت عامر بن عويمر ، من المبشرات بالجنة.[١٧] كانت عائشة تكنى بأم عبد الله ،[١٨] عقد عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة وهاجرت مع والديها إلى المدينة ، ودخل بها رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة وعمرها تسع سنوات ، وهي الوحيدة البكر من بين نسائه صلى الله عليه وسلم ،[١٩] وكانت تفتخر على نسائه بذلك.[٢٠] عاشت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة وكانت تسافر معه في كثير من غزواته ، وقد أحبها الرسول صلى الله عليه وسلم وبشرها بمرافقته في الجنة أكثر من مرة ، توفي عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولها من العمر ثمانية عشر سنة ، وكانت محل عناية المسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم- كان أكثر الناس صلة بها وأخذاً للعلم منها أبناء أختها أسماء ومن أشهرهم في ذلك عبدالله بن الزبير وعروة بن الزبير وغيرهم.[٢١] توفيت رضي الله عنها في المدينة في شهر رمضان سنة ثمان وخمسين للهجرة على الأرجح.[٢٢]

حفصة بنت عمر بن الخطاب(١٨ق.هـ - ٤٥هـ)

هي ابنة لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ولدت قبل البعثة بخمس سنين، وأمها زينب بنت مظعون، [٢٣] تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم في السنة الثالثة من الهجرة، [٢٤] عاشت معه ونهلت من علمه وتأدبت بأدبه صلى الله عليه وسلم، عاشت بعد وفاته صلى الله عليه وسلم وشهدت عصر الراشدين الزاهر وعاشت الفتن التي جرت بعد استشهاد عثمان رضي الله عنه، كما عاشت فترة من خلافة معاوية. كان إخوتها من أبناء عمر وعلى رأسهم عبد الله بن عمر رضي الله عنه أكثر الناس التصاقا بها وأخذا للعلم منها، وتوفيت في شعبان سنة خمس وأربعين للهجرة وقد بلغت ستين سنة. [٢٥]

أم سلمة (١٤ ق.هـ-٥٩هـ)

هي هند بنت أبي أمية بن المغيرة المخزومية، [٢٦] استشهد عنها زوجها أبو سلمة بن عبد الأسد فتزوجها من بعده رسول الله صلى الله عليه وسلم في شوال من السنة الرابعة للهجرة، كانت تشير على رسول الله صلى الله عليه وسلم في كثير من المواقف، [٢٧] لها منزلة خاصة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، رحلت معه في العديد من الغزوات، عاشت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وشهدت عصر الراشدين، وما جرى من فتن بعد استشهاد عثمان، كانت تربطها علاقة خاصة بعلي بن أبي طالب وبنيه[٢٨] وتوفيت في أول عصر يزيد بن أبي سفيان، سنة إحدى و ستين وكانت آخر أمهات المؤمنين موتا. [٢٩]

جويرية بنت الحارث(١٤ق.هـ-٥٠هـ)

كان اسمها برة، فسماها رسول الله صلى الله عليه وسلم جويرية، وهي ابنة للحارث بن أبي ضرار زعيم بني المصطلق، سبيت في غزوة بني المصطلق فوقعت في سهم رجل من الأنصار فجاءت تشتكي لرسول الله صلى الله عليه وسلم فاشتراها فأعتقها ثم تزوجها سنة خمس من الهجرة. عاشت بقية حياتها في كنف رسول الله -صلى الله عليه وسلم، وقد شهدت عصر الراشدين وما دار فيه، وتوفيت سنة ست وخمسين للهجرة ولها من العمر خمس وستون سنة. [٣٠]

أم حبيبة بنت أبي سفيان (٢٨ق هـ-٤٤هـ)

اسمها رملة وهي ابنة لأبي سفيان صخر بن حرب زعيم قريش المشهور، وأمها صفية بنت أبي العاص بن أمية، كانت مؤمنة صالحة هاجرت مع المسلمين إلى الحبشة بصحبة زوجها عبيد الله بن جحش، ثم تنصر ومات عنها. ثبتت رضي الله عنها على إسلامها مع ردة زوجها، فخطبها النبي صلى الله عليه وسلم وبعث لها صداقا

وهي في الحبشة وتزوجها ثم هاجرت إلى المدينة سنة ست من الهجرة. عاشت في بيت النبوة بعيدة عن أهلها المشركين حتى أسلموا يوم الفتح ، نهلت من علم رسول الله صلى الله عليه وسلم عاشت بعده عصر الراشدين ، وجزءا من خلافة معاوية ، وهي أخت للخليفة ولذلك سمي معاوية رضي الله عنه خال المؤمنين ،(٣١) كانت لها هيبة وجلالة ، توفيت في المدينة سنة أربع وأربعين للهجرة.(٣٢)

ميمونة بنت الحارث (١٨ق. هـ - ٥١هـ)

كان اسمها برة ، فسماها رسول الله صلى الله عليه وسلم ميمونة ، وهي بنت للحارث بن حزن الهلالية ، تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم في عمرة القضاء سنة سبع للهجرة. كانت خالة لعبد الله بن عباس ، ولخالد بن الوليد ، وأخت لأسماء بنت عميس لأمها. عاشت في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ونهلت من علمه ، بقيت بعده زمن الراشدين وشهدت أحداثه ، بقيت زمنا من خلافة معاوية رضي الله عنه حتى توفيت سنة إحدى وخمسين للهجرة.(٣٣)

صفية بنت حيي (١٠ق.هـ-٥٢هـ)

هي صفية بنت حيي بن أخطب من ذرية نبي الله هارون عليه السلام ، كان أبوها سيد يهود بني النظير ، قتل عنها زوجها من يهود خيبر أثناء غزوة خيبر ، فصارت مع السبي فأعتقها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم تزوجها في شوال سنة سبع للهجرة. أحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم رغم عدائه ليهود وقتله لأبيها وزوجها وهم من زعمائهم ، حيث شرح الله صدرها للإسلام ، ودعا لها ﷺ حتى ذهب ما كانت تجده عليه ، وأخبرها صلى الله عليه وسلم أنها ابنة نبي ، وعمها نبي وزوجة نبي. توفي عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعاشت زمن الراشدين وشهدت أحداثه ، وبقيت زمنا من خلافة معاوية وتوفيت سنة اثنتين وخمسين للهجرة الشريفة.(٣٤)

استقرار أمهات المؤمنين

لقد عاشت أمهات المؤمنين في المدينة أثناء حياة الرسول ﷺ وبعد وفاته ، فكانت سكناهن وإقامتهن الدائمة فيها ، وفي بيوتهن التي خصصها لهن رسول الله ﷺ في الغالب ، حيث كان قرارهن(وقرن في بيوتكن) وكان بعضهن يخرجن للحج إلى مكة برفقة بعض محارمهن.(٣٥) كما خرجت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها إلى العراق قبيل موقعة الجمل بصحبة عبد الله بن الزبير(٣٦) ابن أختها أسماء رضي الله عنهم- وكانت رضي الله عنها كلما ذكرت هذا الخروج استغفرت وبكت ، مما يدل على ندمها على هذا الخروج.(٣٧) وقد منع عبدالله بن عمر أخته أم المؤمنين حفصة من الخروج إلى العراق مع عائشة -رضي الله عنها ، كما أن أم حبيبة رضي الله ، عنها كانت أختا للخليفة

معاوية رضي الله عنه، ومع ذلك فإنها آثرت البقاء في المدينة وعدم الهجرة إلى دمشق مقر الخلافة آنذاك مع ما ذكر من زيارتها لدمشق وسرعة عودتها للمدينة.[٣٨] ولعل أمهات المؤمنين ببقائهن في المدينة يتذكرن قوله صلى الله عليه وسلم: تفتح الشام فيخرج من المدينة قوم بأهليهم يبسون والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون ثم تفتح اليمن فيخرج من المدينة قوم بأهليهم يبسون والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون ثم تفتح العراق فيخرج من المدينة قوم بأهليهم يبسون والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون.[٣٩]

وقد كان لأمهات المؤمنين مكانتهن المميزة بين أهل المدينة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، حيث يحرص أهل المدينة على لقياهن والتحدث إليهن والتعلم منهن، كما أن بعض من يزور المدينة من الأمصار الإسلامية يقدمون الهدايا لبيوت أمهات المؤمنين وكن من الزاهدات العابدات وبالتالي فإنهن يخرجن ما يأتيهن صدقة على أهل المدينة من الضعفاء والمحتاجين، ، كما كان رواة الحديث يقصدون المدينة للسماع منهن وأخذ علمهن.

وقد حرص معاوية -رضي الله عنه- على زيارة أمهات المؤمنين في المدينة والسماع منهن،[٤٠] وبالتالي فإن استقرارهن بالمدينة جعل لها ميزة خاصة في تلك الفترة ببقاء أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فيها.

وكن رضي الله عنهن ممن التزمن أمر الله وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم فقد روي "أن عائشة عليها السلام إذا قرأت هذه الآية وقرن في بيوتكن بكت حتى تبل خمارها.[٤١]

حياتهن الخاصة

لقد عاشت أمهات المؤمنين في حجراتهن بعد وفاة النبي ﷺ وكن يقمن بخدمة أنفسهن، كما يوجد من يقوم على خدمتهن من أقاربهن وجيرانهن ومواليهن، فالكل يريد أن يخدمهن، وخصوصا بعد أن تقدمت بهن السن، ومع ذلك فقد كن مضرب المثل للرجال والنساء بالعمل وخدمة النفس والآخرين، فكانت إحداهن تطبخ لنفسها وترقع ثوبها وتعمل بيدها رغم قدرتها على توفير من يخدمها ورغم مسارعة الناس للقيام بما تحتاجه أمهات المؤمنين، إلا أنهن كن يرين العمل عبادة وصلاحا، والزهد منهجا وطريقا فقد ورد" أن داخلا دخل على عائشة وهي تخيط نقبة[٤٢] لها فقال يا أم المؤمنين أليس قد أكثر الله الخير قالت: دعنا منك لا جديد لمن لا خلق له."[٤٣]

كما ورد حثهن على العمل ولو ليلة العرس حيث يضرب بأم سلمة رضي الله عنها المثل بأنها"دخلت على سيد المرسلين ﷺ أول العشاء عروسا وقامت من آخر الليل تطحن.[٤٤] "

وقد وردت نصوص مختلفة عن أثاثهن،[٤٥] وعن ملابسهن،[٤٦] وعن حليهن، بل وعن لباسهن في مواقف خاصة مثل الحج،[٤٧] أو الأعياد أو غيرها من المناسبات. كما وردت نصوص أخرى عن طعامهن ولباسهن، حيث كن يقتدين برسول الله صلى الله عليه وسلم فهذه أم المؤمنين حفصة رضي الله عنها تروي بنفسها

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يجعل يمينه لطعامه وشرابه وثيابه، ويجعل شماله لما سوى ذلك، [٤٨] ولا شك أن إيرادها لهذا الحديث كان بمناسبة معينة أرادت توجيه الناس خلالها لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في الطعام واللباس وغير ذلك.

أما عبادتهن وتقواهن فهي أكبر من أن يتحدث عنها، فقد اشتهر عن عائشة رضي الله عنها كثرة صيامها وقيامها وقراءتها للقرآن، وبكائها ودعائها وإلحاحها في الدعاء، وقد نقلت عنها روايات كثيرة في هذا الأمر يصعب حصرها.[٤٩] كما عرف عن حفصة رضي الله عنها كثرة صيامها وقيامها، وقد قيل إنها ماتت وهي صائمة رضي الله عنها.[٥٠]

كما اشتهر عن أم سلمة رضي الله عنه كثرة عبادتها ودعائها، حيث نقل عنها نصوص كثيرة في الدعاء.[٥١] كما كانت أم المؤمنين جويرية بنت الحارث رضي الله عنها تنقل للناس ما علمها رسول الله صلى الله عليه وسلم من حسن ذكر الله وتسبيحه.[٥٢] كما نقلت سنن النبي صلى الله عليه وسلم في الصيام وحافظت عليها.[٥٣] أما أم المؤمنين أم حبيبة فقد كانت من العابدات الورعات قل أن تفارق مصلاها.[٥٤]

كانت بيوت أمهات المؤمنين مجاورة لمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مركز المدينة وملتقى أهلها وزائريها ولذلك كان اتصالهن بالناس أيسر، وكن يوجههن بعض زوار المسجد من المصلين والقراء إذا لزم الأمر ورأين ما يحتاج لذلك.[٥٥] وكن قليلات الحديث إلا لحاجة، فقد روى الترمذي عن أم حبيبة رضي الله عنه أنها قالت: "كلام ابن آدم عليه لا له، إلا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذكر الله عز وجل."[٥٦]

علاقاتهن الاجتماعية

لم تكن أمهات المؤمنين غريبات عن المجتمع فالكل يرى أنهن أمهات لهم، كما أنهن يرتبطن بعلاقات عائلية وأسرية مع الكثير من أهل المدينة وغيرها، يقول تعالى مشيرا لهذه العلاقة والروابط الخاصة: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾﴾ (الأحزاب، آية ٥٥). وقد كان معظمهن من قريش، مثل عائشة، وحفصة، وأم سلمة، وأم حبيبة، كما أن بعضهن من العرب ومنهن جويرية بنت الحارث وميمونة بنت الحارث، وكانت منهن صفية من يهود العرب أصلا، والجميع تربطهن بالمجتمع علائق الإيمان، ويتميزن بقربهن من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبأمومتهن للمؤمنين، كما كان لبعضهن إخوة، مثل حفصة، وعائشة، وأم سلمة، وأم حبيبة، وغيرهن، وكان لهؤلاء الإخوة بنين وبنات وأحفاد وأخوات وزوجات وأرحام، وبالتالي كان لهن علاقاتهن الأسرية الخاصة، والممتدة بجذورها المختلفة في مجتمع المدينة، ومكة، والأمصار الإسلامية الأخرى، وكن رضي الله عنهن واصلات للرحم موصولات باستمرار، فكن يهدين للنساء الأقمشة وغيرها.[٥٧] كما يهدي

لهن أقاربهن من الرجال، فقد ثبت تقديم عبدالله بن الزبير للهدايا لخالته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.[٥٨] وقد حرمت أمهات المؤمنين في المدينة إجمالا من الذرية، عدا أم سلمة التي عاش أبناؤها من زوجها السابق، الذين تربوا في حجر رسول الله ﷺ[٥٩] فكانوا عونا لها وعونا للناس على تلقي علمها. وقد عاش أبناؤها سلمة وعمر طيلة خلافة معاوية وبقوا بعد ذلك عشرات السنين، وأما ابنتها زينب فقد كانت من أفقه النساء في زمانها وعاشت طيلة خلافة معاوية وبقيت بعده.[٦٠]

وامتازت علاقة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بأبناء أختها أسماء، حيث كانت تكنى بأم عبدالله ويقصدون به عبدالله بن الزبير،[٦١] وكانوا يصحبونها في كل سفرياتها كما كانوا يعتبرونها بمثابة الأم. وقد نالوا من علمها، فكانت معظم روايات الحديث عنها بواسطتهم، كان أبناء الزبير ينادونها بـ يا أماه، ويـ يا خالة، ويعجبون من غزير علمها،[٦٢] وكانت توجههم وتأدبهم عند الحاجة،[٦٣] كما كانت تدفع عنهم الأذى.[٦٤] كما كان اخوتها وأبناء إخوتها من الملازمين لها، وكانت تصلح بينهم عند الحاجة، فقد وردت أخبار عن إصلاح عائشة بين أخيها عبد الرحمن وبين زوجاته،[٦٥] وقد كان بعض أبناء أخيها عبد الرحمن عند موتها ملازمين لها،[٦٦] كما شهد وفاتها عبدالله بن الزبير رضي الله عنه وغيرهم من أقاربها.[٦٧]

كما كانت لحفصة علاقتها المميزة بأبناء عمر بن الخطاب رضي الله عنه وخصوصاً الصحابي الجليل عبدالله بن عمر رضي الله عنه، حيث كان يوجهها وتسمع منه وقد أوصت له عند موتها، وقد نزل في قبرها مع بعض أبنائه ومع عاصم بن عمر رضي الله عنهم.[٦٨]

وقد كانت أم حبيبة أختا للخليفة معاوية رضي الله عنه أدركت زمن خلافته، وكان يقدرها ويخصها بالزيارة والوصل، كما كانت لها علاقات حميمة بأبناء اخوتها، كما أن جمعاً من بني أمية يلتقون بها ويروون الأحاديث عنها.[٦٩]

كما اشتهر عن أم المؤمنين صفية رضي الله عنها صلتها لأرحامها ممن يخالف دينها حيث بقي بعض أرحامها على اليهودية ومع ذلك فقد كانت تصلهم.[٧٠] بل إنها أوصت عند موتها ببعض المال لابن أختها وكان يهودياً.[٧١]

كما كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يحرصون على زيارة أمهات المؤمنين وعدم الانقطاع عنهن، وكانوا يناقشونهن في بعض المسائل الفقهية والروايات وكن في بعض الأحيان يصححنهم عند الحاجة كما فعلت عائشة في حديث قطع الصلاة[٧٢] وفي غيره.[٧٣] والمتتبع لروايات الحديث يجد أمهات المؤمنين يروين عن الصحابة والصحابة يروون عنهن،[٧٤] وذلك كله مع الحفاظ على الحجاب والآداب الشرعية الصحيحة. وهذا يدل على العلاقات الخاصة بين الصحابة وبين بيت النبوة، وعلى استمرارها بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم مع من بقي من أمهات المؤمنين طيلة حياتهن.

كما تميزت العديد من الصحابيات والتابعيات بالرواية عن أمهات المؤمنين وأخذ العلم منهن والتردد عليهن.(٧٥) وقد اشتهر عدد من التلميذات لعائشة رضي الله عنها.(٧٦) منهن عمرة بنت عبد الرحمن،(٧٧) ومولاتها أم ذرة كانت تروي عن عائشة وعن غيرها من أمهات المؤمنين.(٧٨) كما اشتهر عدد من النساء الراويات عن أم المؤمنين حفصة رضي الله عنها.(٧٩) كما اشتهر رواية جماعة من النساء عن أم سلمة رضي الله عنها.(٨٠) كما روت جماعة من النساء عن أم حبيبة رضي الله عنها.(٨١) وقد كانت أمهات المؤمنين مرجعاً للناس في أحكام الزواج والطلاق والرضاع والمعاشرة وما يرتبط بها.(٨٢) وقد اشتهر عن عائشة رضي الله عنها عنايتها الخاصة بالمرأة، فقد كانت تعتني بالفتيات الصغيرات وبالنساء المتزوجات وتنصحهن وتوجههن كما كانت تنصح الرجال في كيفية التعامل مع النساء وخصوصاً حديثات السن منهن. وتروي في ذلك قصتها مع النبي صلى الله عليه وسلم التي رواها النسائي "عن عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْتُرُنِي بِرِدَائِهِ وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَى الْحَبَشَةِ يَلْعَبُونَ فِي الْمَسْجِدِ حَتَّى أَكُونَ أَنَا أَسْأَمُ فَاقْدُرُوا قَدْرَ الْجَارِيَةِ الْحَدِيثَةِ السِّنِّ الْحَرِيصَةِ عَلَى اللَّهْوِ." (٨٣) وكانت تحدث باستمرار عن حسن تعامل الرسول صلى الله عليه وسلم مع نسائه، وعن سمره معهن ومزاحه وملاعبته لهن، ومراعاته لأحوالهن في السفر والحج والعمرة.(٨٤) وكانت عائشة رضي الله عنها تنادي بنات حواء لإيجاد المودة وزرع المحبة في بيوتهن، وتقول في هذا المجال ناصحة النساء: "أميطي عنك الأذى وتصنعي لزوجك كما تتصنعين للزيارة وإذا أمرك فلتطيعيه وإذا أقسم عليك فأبريه ولا تأذني في بيته لمن يكره."(٨٥) كما كانت تؤكد على حسن التعامل مع الفتيات الصغيرات وتضرب المثل بفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم معها، فقد ورد عن"هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت كنت ألعب بالبنات ويجئن صواحبات فيلعبن معي فإذا رأين رسول الله انقمعن منه فكان رسول الله يدخلهم فيلعبن معي."(٨٦)

وقد اشتهرت أم المؤمنين حفصة بمعرفتها الكتابة،(٨٧) فلعل لها دوراً في تعليم بعض الفتيات ذلك.

كما كان لبعضهن موال وجوار، وكن يعاملنهم معاملة حسنة، وكانوا يشهدون العلم منهن ويرون بأنفسهم زهدهن وحسن تصرفهن، وخصوصاً الجواري اللآتي كن يقضين حوائجهن،(٨٨) وقد أعتقت أمهات المؤمنين عدداً من الموالي رجالاً ونساء.(٨٩)

وقد كانت العلاقة قائمة بين أمهات المؤمنين بعضهن مع بعض في زمن الخليفة معاوية رضي الله عنه، وتميزت علاقة عائشة بحفصة رضي الله عنهما بالقوة والخصوصية،(٩٠) ولعل من أسباب ذلك كون بيت عائشة ملاصقا لبيت حفصة رضي الله عنهما.(٩١) ولاشك أن من كان حيا في تلك الفترة من أمهات المؤمنين يتفقد بعضهن بعضا ويعطف بعضهن على بعض، حيث ذهبت الغيرة من بينهن بوفاة النبي صلى الله عليه وسلم.(٩٢) ووردت روايات مختلفة عن حضور بعضهن وفاة البعض، من ذلك ما ورد عن دعوة أم حبيبة لأم سلمة ولعائشة حين حضرتها الوفاة واستغفارهن لبعض وسرورهن بذلك.(٩٣)

كما تميزت علاقتهن بآل البيت رضي الله عنهم بالقوة ، فقد اشتهرت العلاقة الخاصة بين أم المؤمنين صفية رضي الله عنها وبين أبناء أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه.[٩٤] كما اشتهرت زيارات الحسن والحسين ابني علي بن أبي طالب رضي الله عنهم لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وترددهما عليها.[٩٥]

ولاشك أن مجتمع المدينة قد تغيرت تركيبته السكانية في عهد معاوية بل قبل ذلك منذ بداية الفتوح وانتشار الإسلام وامتداده لمواطن وشعوب جديدة، حيث رحل كثير من سكان المدينة إلى مناطق الفتح، كما قدم الكثير من العجم والموالي إلى المدينة، وعموماً فقد كانت أمهات المؤمنين على صلة بكافة شرائح المجتمع ويتمتعن بمكانة خاصة بينهم، وتزيد علاقتهن ببيوت المهاجرين والأنصار الذين بقوا في المدينة ولم يرحلوا منها. والمطلع على ما روي عن أمهات المؤمنين من أحاديث يدرك مقدار هذه الصلة، خصوصاً إذا علم مناسبات تلك الروايات وارتباط تلك المناسبات بحياة الناس العامة، فما روي عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها (٢٢١٠) أحاديث لكل حديث مناسبة وحادثة، بل ربما تكرر الحديث في أكثر من مناسبة . وقد كان معاوية بن أبي سفيان يحرص على زيارة أمهات المؤمنين عند قدومه للمدينة، فقد زار أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وسمع منها فلما خرج من عندها قال: "والله ما سمعت قط أبلغ من عائشة، ليس رسول الله صلى الله عليه وسلم."[٩٦]

وعموماً فإن أمهات المؤمنين كن رمزاً بقي بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم يحنو عليه الجميع ويحبه كل الناس وتهوى إليهن أفئدة المؤمنين كما تهوى إلى الأمهات فكن كما وصف الله (أمهات) حقيقيات لكل المؤمنين ينظر لهن بهذه النظرة بل كن أعظم من أمهات النسب في نظر المؤمنين.

المشاركة في المناسبات الاجتماعية

كانت أمهات المؤمنين من رواد المجتمع ولذلك كان لهن دورهن المميز في المناسبات المختلفة، فأمهات المؤمنين يشهدن الأفراح والمناسبات ويوجهن الرجال والنساء في هذه القضايا فهذه أم المؤمنين حفصة رضي الله عنها تنصح عبدالله بن عمر بالزواج بعد أن تردد في ذلك.[٩٧]

كانت النساء يستشرن أمهات المؤمنين في قضايا الزينة والجمال، فقد ورد أن امرأة دخلت على عائشة وهي جالسة فسألتها عن الحناء فقالت شجرة طيبة وماء طهور.[٩٨] واشتهر عن أمهات المؤمنين نصح النساء عند الزواج بما يضمن لهن النجاح في حياتهن الزوجية، فقد قالت عائشة رضي الله عنه لبعض النساء: "إن كان لك زوج فاستطعت أن تنزعي مقلتيك فتصنعيهما أحسن مما هما فافعلي."[٩٩] كما اعتادت أمهات المؤمنين الحث على الزواج واليسر فيه وفيما يرتبط به من مهر وعشرة ، حيث يرغبن في تيسير الصداق للنساء والوليمة المرتبطة بالزواج ويضربن المثل بما قدمه رسول الله صلى الله عليه وسلم لنسائه من مهور وما عمله من وليمة أو ولائم.[١٠٠]

وقد كن يزرن المرضى ويشاركن في وصف الدواء في بعض الأحيان، وقد عجب عروة بن الزبير رضي الله عنه من بعض وصفات عائشة العلاجية فسألها يا خالة : الطب من أين علمته؟فقالت كنت أمرض فينعت لي الشيء، ويمرض المريض فينعت له وأسمع الناس ينعت بعضهم لبعض فأحفظه.[١٠١]

كما حفظت لنا الراويات عن أم سلمة رضي الله عنها ما يدل على متابعتها لأمور الخليفة والأمراء والأئمة وتقويمها لأعمالهم، وما يتعلق بالإنكار عليهم، مع اتقاء الفتنة في وقت واحد،[١٠٢] وذلك مما يدل على متابعتها للأحوال السياسة العامة في أيام معاوية بن أبي سفيان ﷺ .وقد وردت روايات مماثلة عن أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث.[١٠٣] فيروى أنها كانت تحث الشباب من أقاربها وغيرهم على احترام أموال العامة من الناس وعدم الاعتداء على أملاكهم ومزارعهم دون وجه حق.[١٠٤] كما أمرت بتأديب شاب من أقاربها شمت منه رائحة شراب وأكدت على أن يكون هذا التأديب بين جموع من المسلمين.[١٠٥]

أمهات المؤمنين والأعمال الخيرية

اشتهرت أمهات المؤمنين بمحبتهن لعمل الخير، وتعليمهن الناس ذلك وكن يطبقن هذا الأمر في حياتهن، والأمثلة على أعمالهن الخيرية كثيرة، فمن ضمن ذلك تفريق الأموال بين الفقراء والمحتاجين حيث كانت تصلهن أموال كثيرة من معاوية رضي الله عنه ومن بعض أمرائه، فكن يفرقنها على الناس، فقد بعث معاوية رضي الله عنه إلى عائشة بمائة ألف درهم فما أمست حتى فرقتها كلها في المحتاجين والفقراء.[١٠٦] وقيل إن معاوية رضي الله عنه إنما بعث لها المال ثمناً لبيتها لكنها تصدقت به.[١٠٧] كما ورد "عن عروة عن عائشة قال: رأيتها تصدقت بسبعين ألفا وإنها لترقع جانب درعها.[١٠٨] وفي هذا النص يدل على زهدها رضي الله عنها مع قدرتها، حيث كانت تجد المال وتتصدق به في الوقت الذي ترقع ثيابها كما يفعل الفقراء والزهاد. وقد وردت رواية أخرى عن " هشام بن عروة عن محمد بن المنكدر عن أم ذرة قالت بعث ابن الزبير إلى عائشة بمال في غرارتين يكون مائة ألف فدعت بطبق وهي يومئذ صائمة فجعلت تقسم في الناس قال فلما أمست قالت يا جارية هاتي فطري فقالت أم ذرة يا أم المؤمنين أما استطعت فيما أنفقت أن تشتري بدرهم لحما تفطرين عليه فقالت لا تعنفيني لو كنت أذكرتني لفعلت.[١٠٩] وقد ذكر أن عائشة رضي الله عنها قد أعطت قماشاً لتلميذة لها.[١١٠]

وقد اشتهر أن عدداً منهن أوقفن بيوتهن في سبيل الله، منهن عائشة وأم سلمة وأم حبيبة وصفية.[١١١] وقد كانت حفصة رضي الله عنها مسؤولة عن أوقاف أبيها عمر رضي الله عنه بعد موته، رغم وجود الذكور من ذريته المؤهلين لذلك ممن لهم صحبة كعبدالله بن عمر رضي الله عنها فكانت تقوم بتفريق الواردات من ذلك الوقف على أعمال الخير التي حددها عمر رضي الله عنه.[١١٢] كما أنها رضي الله عنها أوصت بمال لها في المدينة في منطقة الغابة، لتكون صدقة جارية، وجعلت الوصي عليه عبدالله بن عمر رضي الله عنه.[١١٣]

كما عرف عنها الكتابة ، وأنها كانت تشرف على استنساخ بعض المصاحف بنفسها وتتابع من يقوم بذلك وتوجهه.(١١٤) كما كانت بعض أمهات المؤمنين يحرصن على تربية الأيتام والقيام بحقهم ورعايتهم ، خصوصاً إذا جمعوا يتماً وقرابة.(١١٥) كما اشتهر عن أمهات المؤمنين حبهن لعتق الرقيق فعائشة رضي الله عنها كانت تكثر من العتق فقد أعتقت عدة موالي عند وفاة أخيها عبدالرحمن بن أبي بكر ﷺ .(١١٦) كما أعتقت صفية رضي الله عنها جارية لها.(١١٧)

وكانت بعض أمهات المؤمنين يتعمدن إرضاع أبناء مواليهن من أخواتهن إن وجدن حتى يكن أخوالهم من الرضاعة فيجوز دخولهم عليهن بدون حجاب ، كما فعلت حفصة رضي الله عنها بإرضاع بعض أبناء مواليها من أختها فاطمة بنت عمر ﷺ .(١١٨) وكن يشفعن للمحتاجين فقد كتبت عائشة رضي الله عنها إلى زياد بن أبي سفيان وكان أميراً لمعاوية رضي الله عنه على العراق تستشفع لأحد موالي أخيها عبدالرحمن فأقطعه أرضاً بنواحي الموصل.(١١٩)

كما اشتهر عنهن ترددهن على مكة للحج ولعل مرد ذلك ما ورد عن عائشة أم المؤمنين عن النبي صلى الله عليه وسلم قالت : استأذنه نساؤه في جهاد فقال بحسبكن الجهاد أو جهادكن الحج.(١٢٠)

وقد كانت أمهات المؤمنين يمارسن الإصلاح الاجتماعي بكل أشكاله ، فأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تنهى باستمرار عن الاعتداء على حقوق الآخرين ، وقد وقفت موقفاً من حق يهودي قريب لصفية ، ولعل هذا الموقف كان من أسباب إسلامه فقد أورد ابن سعد في *الطبقات* قال : " ورثت صفية مائة ألف درهم بقيمة أرض وعرض فأوصت لابن أختها وهو يهودي بثلثها.. فأبوا أن يعطوه حتى كلمت عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم فأرسلت إليهم اتقوا الله وأعطوه وصيته فأخذ ثلثها وهو ثلاثة وثلاثون ألف درهم ونيف."(١٢١) كما كانت أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث تشارك في أعمال الخير المختلفة تبذل النصيحة للناس.(١٢٢) وتشددت في الوصية بعدم الإسراف ومراعاة النعمة فقد ورد أنها أبصرت حبة رمان في الأرض فأخذتها وقالت : إن الله لا يحب الفساد.(١٢٣)

كما كن يأمرن الناس بالرفق وحسن التعامل فقد ورد"عن عائشة أنها قالت : ما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة قط ولا ضرب خادما له قط ولا ضرب بيده شيئا إلا أن يجاهد في سبيل الله وما نيل منه شيء فانتقمه من صاحبه إلا أن تنتهك محارم الله فينتقم."(١٢٤)

وأما العلم والإفتاء فموضوع طويل يحتاج إلى بحوث مستقلة ، ويمكننا الإشارة إلى أنه من المشهور ممارسة أمهات المؤمنين لدورهن العلمي المميز في المجتمع الإسلامي والاطلاع على تلاميذ وتلميذات كل واحدة من أمهات المؤمنين يمكن أن يوضح دورهن العلمي في مجتمع المدينة ، حيث كن مرجعاً للإفتاء -رضي الله عنهن- ولعل مما يشهد بذلك ما ورد "عن مسلم عن مسروق أنه قيل له هل كانت عائشة تحسن الفرائض فقال : أي والذي نفسي

بيده لقد رأيت مشيخة أصحاب محمد ﷺ الأكابر يسألونها عن الفرائض." [١٢٥] بل إنهن حتى خارج المدينة وخصوصا في موسم الحج يرجع إليهن الناس في الإفتاء فيما يتعلق بالنساء من قضايا الحج. [١٢٦]

وقد اشتهر عن بعض أمهات المؤمنين شهادتهن للصلاة على جنائز بعض الصحابة مثل ما ورد من حضورهن الصلاة على سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في المدينة عند وفاته سنة خمس وخمسين بالمدينة. [١٢٧]

وفيات أمهات المؤمنين وأثرها على مجتمع المدينة

عند مرض بعض أمهات المؤمنين يصبحن محل عناية خاصة من المجتمع ككل ومن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم خصوصا ، فقد جاء ابن عباس يستأذن على عائشة رضي الله عنه في مرضها الذي ماتت فيه فلما دخل عليها قال لها : ابشري فما بينك وبين أن تلحقي بمحمد صلى الله عليه وسلم إلا أن تخرج الروح من الجسد كنت أحب نســــاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب إلا طيبا. [١٢٨] وقد نزل في قبرها عدد من أبناء الزبير أمهم أسماء أخت عائشة رضي الله عنهم وعدد من أبناء إخوتها. [١٢٩] وحينما توفيت أم المؤمنين حفصة رضي الله عنها اجتمع لجنازتها أهل المدينة وصلى عليها أمير المدينة من قبل معاوية رضي الله عنه مروان بن الحكم ، وحمل جنازتها جماعة من الصحابة رضي الله عنهم وتأثر أهل المدينة بموتها. [١٣٠] وأما أم حبيبة بنت أبي سفيان فقد مرضت في المدينة فدعت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ودعت لها واستسمحتها واستغفرت كل واحدة منهما للأخرى ، وكذلك فعلت مع أم سلمة رضي الله عنها ، [١٣١] وماتت سنة أربع وأربعين للهجرة النبوية. أما أم سلمة رضي الله عنها فكانت آخر أمهات المؤمنين وفاة ، وقد تجاوزت الثمانين من عمرها ، وقد عاشت طيلة خلافة معاوية وكانت وفاتها في أول خلافة يزيد ، وقد صلى عليها الصحابي الجليل أبو هريرة رضي الله عنه كما دخل في قبرها أبناؤها عمر وسلمة وبعض أبنائهم ، وكان لوفاتها وقع خاص على أهل المدينة نظرا لكونها آخر من مات من أمهات المؤمنين فحزن المسلمون لذلك حزنا عظيما. [١٣٢] أما أم المؤمنين جويرية بنت الحارث فقد مرضت وماتت سنة خمسين للهجرة ، وصلى عليها مروان بن الحكم أمير معاوية على المدينة. [١٣٣] كما مرضت أم المؤمنين صفية رضي الله عنها وماتت سنة خمسين للهجرة وشيع جثمانها عدد من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم. [١٣٤]

وقد ورد أن ابن عباس رضي الله عنه لما أبلغ بوفاة إحدى أمهات المؤمنين سجد لله وكان يرى أن وجودهن بركة وذهابهن آية من آيات الله. [١٣٥]

وأما ميمونة بنت الحارث فكانت في زيارة لمكة ، فمرضت فقالت أخرجوني ، من مكة ، فإني لا أموت بها ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرني أني لا أموت بمكة.فحملوها حتى أتوا بها سرف فماتت فدفنوها هناك وهو نفس الموضع الذي تزوجها فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد صلى عليها عبدالله بن عباس رضي الله

عنه مع عدد من أقاربها وبعض أهل مكة.[١٣٦] فلما بلغ خبر موتها عائشة -رضي الله عنها- قالت عنها" ذهبت والله ميمونة أما إنها كانت من أتقانا لله وأوصلنا للرحم."[١٣٧]

ولاشك أن مجتمع المدينة كان يتأثر أيما تأثر عند فقد أي من أمهات المؤمنين ويمكننا تصور ذلك من خلال ما ورد عند ابن سعد عن وفاة عائشة رضي الله عنها، "عن عبد الله بن عبيد بن عمير قال قدم رجل فسأله أبي كيف كان وجد الناس على عائشة فقال كان فيهم وكان قال أما إنه لا يحزن عليها إلا من كانت أمه."[١٣٨]

وقد دفنت أمهات المؤمنين في البقيع في المدينة عدا ميمونة بنت الحارث التي دفنت في موقع بين مكة والمدينة.[١٣٩]

الخاتمة

من خلال البحث تبين إدراك سبع من أمهات المؤمنين للحياة في خلافة معاوية بن أبي سفيان ﷺ ، واتضح أن منهن من عاشت خمس سنوات من خلافته، ومنهن من بقيت طيلة خلافته، والبقية عشن معظم فترة حكمه، كما تبين إقامتهن جميعاً في المدينة المنورة واستقرارهن بها، كما اتضح لنا أثرهن في القيادة الاجتماعية لذلك المجتمع، بحيث كان لهن ما لم يكن للأمراء والقواد من النفوذ والمكانة الاجتماعية. كما اشتهرن في تلك الفترة بعلاقاتهن المميزة بكل فئات المجتمع وشرائحه، وكن موضع احترام وتقدير العامة والخاصة في ذلك المجتمع ومن يصل للمدينة من مختلف الأمصار الإسلامية، وقد شاركن في تعليم المجتمع وتوجيهه، وفي خدمته، كما شاركن في مناسبات الناس الاجتماعية الخاصة والعامة، وكانت لهن علاقاتهن العائلية المميزة، وأثرن في جميع الفئات الاجتماعية وخصوصاً بين النساء، وقد تميزت حياتهن بحب الخير والعمل من أجله، واتضح من البحث أنهن نذرن حياتهن للمسلمين عامة ولأهل المدينة خاصة. وقد تناقص عددهن حتى لحقت أخراهن بالله ففقد المجتمع المدني بيت النبوة بفقد آخر زوجاته ﷺ ، فأحس الناس في المدينة بهذا الفراق وتبين لهم عظم خسارة مجتمع المدينة بفقدهن.

وهذا البحث يؤكد أهمية ما يتعلق برسول الله ﷺ من أخبار وما يرتبط بحياته وحياة أهل بيته ﷺ ، ويدعو لمزيد من البحث في حياة أمهات المؤمنين في حياة رسول الله ﷺ وبعد موته.

التعليقات

(١) الحافظ جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ)، *مسانيد أمهات المؤمنين*، تحقيق محمد غوث الندوي، ط١ (بمباي الهند: الدار السلفية، ١٤٠٣هـ)، ١٥.

(٢) محمد بن يوسف الصالحي الشامي (ت٩٤٢هـ)، *أزواج النبي صلى الله عليه وسلم*، تحقيق وتخريج محمد نظام الدين الفتيح (دمشق، دار ابن كثير، ١٤١٣هـ)، ٣٥.

(٣) الصالحي، *أزواج النبي*، ٣٥

(٤) أبو القاسم علي بن الحسن ابن عساكر (٤٩٩-٥٧١هـ)، *تاريخ دمشق، تراجم النساء*، تحقيق سكينة الشهابي، ط١ (دمشق، ١٩٨٢م)، ٨٩ ؛ الشامي، *أزواج النبي* ، ٢٥.

(٥) أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري (١٩٤-٢٥٦هـ)، *صحيح البخاري* (الرياض: دار إشبيلياء، ١٤١٨هـ)، كتاب التفسير، باب وإن كنتن تردن ، ٦: ٢٣ .

(٦) الشامي، *أزواج النبي*، ٢٥.

(٧) الإمام أبو الحسن مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري (ت٢٦١هـ)، *الجامع الصحيح، (صحيح مسلم)* (بيروت: دار الآفاق، د.ت)، *كتاب الطلاق*، باب أن تخيير امرأته لا يكون طلاقاً، ٤: ١٨٨.

(٨) أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (٢٠٩-٢٧٩هـ)، *الجامع الصحيح (سنن الترمذي)*، تحقيق أحمد محمد شاكر (بيروت: دار إحياء التراث العربي د.ت)، كتاب المناقب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب فضل أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، ٥: ٧٠٩.

(٩) انظر ترجمته بتوسع عند: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت٨٤٧هـ) ، *سير أعلام النبلاء*، ط١ (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥هـ)، ٣: ١٥١ .

(١٠) خليفة بن خياط بن أبي هبيرة العصفري، *تاريخه*، تحقيق أكرم العمري، ط٢ (بيروت: دار العلم، ١٢٩٧هـ)، ٢٠٣ ؛ أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ)، *تاريخ الأمم والملوك* (بيروت: دار الفكر، د.ت)، ٦: ٩٤ ؛ الذهبي، *سير أعلام النبلاء*، ٣: ١٣٧ ؛ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل ابن كثير (ت٧٧٤ هـ)، *البداية والنهاية*، ط٣ (بيروت: مكتبة المعارف، ١٩٧٨م)، ٨: ١٦.

(١١) خليفة بن خياط، *تاريخ*، ٢٠ ؛ أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري، *فتوح البلدان* (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٣٩٨هـ)، ١٨٩ ؛ الطبري، *تاريخه*، ٥: ١٣٠ ؛ الذهبي؛ *سير أعلام النبلاء*، ٣: ١٥١.

(١٢) الطبري، *تاريخه*، ٥: ١٣٠ ؛ عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم ابن الأثير الشيباني، *الكامل في التاريخ* (بيروت: دار صادر، ١٣٨٥هـ)، ٣: ٤٨٥ ؛ ابن كثير، *البداية والنهاية*، ٨: ٣٢.

(١٣) الذهبي، *سير أعلام النبلاء*، ٣: ١٣٧.

(١٤) الذهبي، *سير أعلام النبلاء*، ٢: ٢٣٢ .

(١٥) الشامي، *أزواج النبي*، ٢٦؛ السيوطي، *مسانيد*، ٧؛ ابن كثير، *البداية والنهاية*، ٥: ٢٥٥.

(١٦) السيوطي، *مسانيد*، ١٢٤ .

(١٧) محمد بن سعد بن منيع الهاشمي، مولاهم، كاتب الواقدي(ت٢٣٠هـ)، *الطبقات الكبرى* (بيروت: دار صادر، ب.ت.)، ٨: ٢٧٦.

(١٨) ابن سعد، *الطبقات*، ٨: ٦٣.

(١٩) البخاري، *صحيحه*، كتاب النكاح، باب (نكاح الأبكار)، ٦: ١١٩ .

(٢٠) الشامي، *أزواج النبي*، ٩٨ .

(٢١) انظر الرواة عن عائشة عند: أحمد خليل جمعة، *نساء أهل البيت*، ط٢ (دمشق: دار اليمامة، ١٩٩٦م)، ١٤٩ .

(٢٢) الذهبي، *سير أعلام النبلاء*، ٢: ١٩٢ ؛ الشامي، *أزواج النبي*، ١٣٥ .

(٢٣) الشامي، *أزواج النبي*، ١٣٧ .

(٢٤) الذهبي، *سير أعلام النبلاء*، ٣: ٢٧٧ ؛ الشامي، *أزواج النبي*، ١٣٩ .

(٢٥) ابن سعد، *الطبقات*، ٨: ٨٦ ؛ الذهبي، *سير أعلام النبلاء*، ٢: ٢٢٩ ؛ الشامي، *أزواج النبي*، ١٤٤ .

(٢٦) شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني(ت٨٥٢هـ)، *الإصابة في تمييز الصحابة*، ط١ (القاهرة: مطبعة السعادة، ١٣٢٨هـ)، ٤: ٤٥٨ ؛ الذهبي، *سير أعلام النبلاء*، ٢: ٢٠١ .

(٢٧) انظر إلى رأيها في صلح الحديبة عند البخاري، *صحيحه* (باب الشروط في الجهاد)، ٣: ١٨٢ ؛ أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري (ت٢١٣ هـ)، *السيرة النبوية*، تعليق طه عبد الرؤوف سعد (القاهرة: مكتبة شقرون، د.ت.)، ٣: ٣١٩ ؛ الشامي، *أزواج النبي*، ١٥٧ .

(٢٨) السيوطي، *مسند أمهات المؤمنين*، ٤٤ .

(٢٩) ابن حجر، *الإصابة*، ٤: ٢٦٠ ؛ الذهبي، *سير أعلام النبلاء*، ٢: ٢٦٣ ؛ الشامي، *أزواج النبي*، ١٥٨ .

(٣٠) ابن حجر، *الإصابة*، ٤: ٢٦٦ ؛ الذهبي، *سير أعلام النبلاء*، ٢: ٢٦٣ ، الشامي، *أزواج النبي*، ٢١٠ .

(٣١) الذهبي، *سير أعلام النبلاء*، ٢: ٢٢٢ .

(٣٢) ابن حجر، *الإصابة*، ٤: ٣٠٧ ؛ الذهبي، *سير أعلام النبلاء*، ٢: ٢٢٢ ، الشامي، *أزواج النبي*، ١٦٤ .

(٣٣) ابن حجر، *الإصابة*، ٤: ٤١٣ ؛ الذهبي، *سير أعلام النبلاء*، ٢: ٢٤٥ ؛ الشامي، *أزواج النبي*، ١٦٤ .

(٣٤) ابن حجر، *الإصابة*، ٤: ٣٤٨ ؛ الذهبي، *سير أعلام النبلاء*، ٢: ٢٣٥ ؛ الشامي، *أزواج النبي*، ٢١٣ .

(٣٥) الإمام أبو عبدالله أحمد بن محمد ابن حنبل (ت٢٤١هـ)، *المسند* (بيروت: المكتب الإسلامي، ١٣٩٨هـ)، ٦: ٣٢٤ .

(٣٦) الطبري، *تاريخه*، ٥: ١٧٣ ؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٣: ٢٠٩ ؛ ابن كثير، *البداية والنهاية*، ٧: ٢٣١ .

(٣٧) الذهبي، *سير أعلام النبلاء*، ٢: ١٧٧ .

(٣٨) ابن عساكر، *تاريخ دمشق*، *تراجم النساء*، ٧٠ ؛ جمعة، *نساء أهل البيت*، ٣٩٩ .

(٣٩) مسلم، *الصحيح*، كتاب الحج، باب(الترغيب في المدينة عند فتح الأمصار)، ٤: ١٢٢ .

(٤٠) الذهبي، *سير أعلام النبلاء*، ٢: ١٨٢ .

(٤١) ابن سعد، *الطبقات*، ٨: ٨١ .

(٤٢) النقبة: نوع من السراويل. مجموعة من العلماء، *المعجم الوسيط*، إعداد مجمع اللغة العربية بالقاهرة. طبعته (استانبول: المكتبة الإسلامية، د.ت.)، ٩٤٣ .

(٤٣) ابن سعد، *الطبقات*، ٨: ٧٣ .

(٤٤) ابن سعد، *الطبقات*، ٨: ٩٢ .

(٤٥) ابن سعد، *الطبقات*، ٨: ٨٦ .

(٤٦) ابن سعد، *الطبقات*، ٨: ٧٠، ٧١، ٧٢، ٧٣.

(٤٧) انظر: ابن سعد، *الطبقات*، ٨: ٧١ .

(٤٨) جمعة، *نساء أهل البيت*، ٢٠٠ .

(٤٩) انظر: أحمد بن عبدالله أبو نعيم الأصبهاني (ت٤٣٠هـ)، *حلية الأولياء وطبقات الأصفياء*، ط٤ (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٥هـ)، ٢: ٤٧ ؛ الذهبي، *سير أعلام النبلاء*، ٢: ١٩٨ ؛ جمعة، *نساء أهل البيت*، ١٥٥ .

(٥٠) ابن حجر، *الإصابة*، ٤: ٢٦٥ .

(٥١) جمعة، *نساء أهل البيت*، ٢٦٨ .

(٥٢) مسلم، *صحيحه*، باب (التسبيح أول النهار وعند النوم)، ٨: ٨٣ .

(٥٣) البخاري، *صحيحه*، كتاب الصوم، باب صوم يوم الجمعة، ٢: ٥٤٨ ؛ ابن حنبل، *المسند*، ٦: ٤٢٤ ؛ ابن سعد، *الطبقات*، ١: ١١٩.

(٥٤) ابن كثير، *البداية والنهاية*، ٨: ٢٨ .

(٥٥) أبو نعيم، *حلية الأولياء*، ٢: ٥٥ .

(٥٦) أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (٢٠٩-٢٧٩هـ)، *الجامع الصحيح (سنن الترمذي)*، تحقيق أحمد محمد شاكر (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت)، ٤: ٦٠٨؛ الحافظ أبو عبدالله محمد بن يزيد ابن ماجه القزويني (٢٠٧-٢٧٥هـ)، *سنن ابن ماجه*، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي (بيروت: دار الفكر، د.ت)، ٢: ١٣١٥.

(٥٧) انظر: ابن سعد، *الطبقات*، ٨: ٧١.

(٥٨) ابن سعد، *الطبقات*، ٨: ٧٢.

(٥٩) عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم بن الأثير: ، *أسد الغابة في معرفة الصحابة* (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت)، ٢: ٤٣٠؛ الشامي، *أزواج النبي*، ١٥١.

(٦٠) الذهبي، *سير أعلام النبلاء*، ٢: ٢٠٢، ٢٠٤، ٢٠٦؛ الشامي، *أزواج النبي*، ١٥٩-١٦٠

(٦١) انظر الرواة عن عائشة عند: الذهبي، *سير أعلام النبلاء*، ٢: ١٣٦؛ سعود بن عبدالله الفنيسان، *مرويات أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في التفسير* (الرياض: مكتبة التوبة، ١٤٠٣هـ)، ١٦١.

(٦٢) الذهبي، *سير أعلام النبلاء*، ٣: ١٨٢.

(٦٣) الذهبي، *سير أعلام النبلاء*، ٢: ١٨٤.

(٦٤) الشامي، *أزواج النبي*، ١٣١.

(٦٥) ابن كثير، *البداية والنهاية*، ٨: ٩٠.

(٦٦) الذهبي، *سير أعلام النبلاء*، ٣: ١٨١.

(٦٧) الشامي، *أزواج النبي*، ١٢٨.

(٦٨) ابن سعد، *الطبقات*، ٨: ٨٦؛ الشامي، *أزواج النبي*، ١٤٤.

(٦٩) الذهبي، *سير أعلام النبلاء*، ٢: ٢٢٢، الشامي، *أزواج النبي*، ١٦٢.

(٧٠) ابن سعد، *الطبقات*، ٨: ١٢٨؛ الذهبي، *سير أعلام النبلاء*، ٢: ٢٣٢؛ الشامي، *أزواج النبي*، ٢٢٤.

(٧١) ابن سعد *الطبقات*، ٨: ١٢٨؛ أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي (ت٢٥٥هـ)، *سنن الدارمي* (د.م: دار إحياء السنة، د.ت.)، كتاب الوصايا، باب(الوصايا لأهل الذمة)، ٢: ٤٢٧؛ ابن سيد الناس، *عيون الأثر*، ٢: ٣٨٧؛ الذهبي، *سير أعلام النبلاء*، ٢: ٢٣٢؛ الشامي، *أزواج النبي*، ٢٢٥.

(٧٢) انظر: البخاري، صحيحه، كتاب الصلاة، باب من قال (لا يقطع الصلاة شيء)، ١: ١٣٠.

(٧٣) انظر: الشامي، *أزواج النبي*، ١٣٢.

(٧٤) جمعة، *نساء أهل البيت*، ٣٣٤.

(٧٥) جمعة: *نساء أهل البيت*، ١٥٠.

(٧٦) ابن كثير، *البداية والنهاية*، ٨: ٩٢.

(٧٧) هي عمرة بنت عبدالرحمن بن أسعد بن زرارة الأنصارية، تربت في حجر عائشة رضي الله عنها، تابعية مدنية ثقة حجة، عدت من علماء زمانها، أمر عمر بن عبد العزيز بكتابة حديثها، توفيت سنة ١٠٦هـ، *الطبقات*؛ ٢: ٣٨٦؛ ابن كثير، *البداية والنهاية*، ٨: ٩٢؛ شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ)، *تهذيب التهذيب* (حيدر آباد، الهند، ١٣٢هـ)، ١٢: ٤٣٨.

(٧٨) ابن حجر، *تهذيب التهذيب*، ١٢: ٤٧٦.

(٧٩) ابن حجر، *تهذيب التهذيب*، ١٢: ٤١٠.

(٨٠) ابن حجر، *تهذيب التهذيب*، ١٢: ٢٥٦.

(٨١) جمعة، *نساء أهل البيت*، ٢٩٦.

(٨٢) جمعة، *نساء أهل البيت*، ٢٦٥.

(٨٣) أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي النسائي (٢١٤-٣٠٣هـ)، *السنن الكبرى*، تحقيق عبدالغفار البنداري وسيد حسن، ط١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١١هـ)، كتاب صلاة العيدين، باب اللعب في المسجد يوم العيد ونظر النساء إلى ذلك، ٣: ١٩٥؛ الذهبي، *سير أعلام النساء*، ٢: ١٥١.

(٨٤) انظر ما رواه مسلم في *صحيحه*، كتاب الحج، باب وجوه الإحرام، ٤: ٢٧؛ الصالحي، *أزواج النبي*، ٩٨، ٩٩، ١٠١.

(٨٥) عبد الرزاق أبو بكر بن همام الصنعاني (١٢٦-٢١١هـ)، *المصنف*، تحقيق حبيب عبد الرحمن الأعظمي (بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠٣هـ)، ٣: ١٤٦.

(٨٦) ابن سعد، *الطبقات*، ٨: ٦٦.

(٨٧) جمعة، *نساء أهل البيت*، ١٩٢.

(٨٨) الشامي، *أزواج النبي*، ١٧٠.

(٨٩) الذهبي، *سير أعلام النبلاء*، ٢: ٢٣٢؛ الشامي، *أزواج النبي*، ٩٦، ١٢٧.

(٩٠) الشامي، *أزواج النبي*، ١٤٣.

(٩١) محمد الياس عبدالغني، *بيوت الصحابة حول المسجد النبوي الشريف*، ط٢ (المدينة المنورة: مركز طيبة للطباعة، ١٤٠٧هـ)، ٢٦.

(٩٢) انظر: ابن سعد، *الطبقات*، ٨: ٩٤.

(٩٣) الشامي، *أزواج النبي*، ١٧٠.

(٩٤) ابن حجر، *الإصابة*، ٤: ٣٤٨.

(٩٥) ابن سعد، *الطبقات*، ٨: ٧٣.

(٩٦) الذهبي، *سير أعلام النبلاء*، ٢: ١٨٣.

(٩٧) السيوطي، *مسانيد أمهات المؤمنين*، ١١٠.

(٩٨) ابن سعد، *الطبقات*، ٨: ٧٠.

(٩٩) ابن سعد، *الطبقات*، ٨: ٧١.

(١٠٠) انظر: ابن سعد، *الطبقات*، ٨: ١٢٥.

(١٠١) الهيثمي، *مجمع الزوائد*، ٩: ٢٤٢؛ أبو نعيم، *حلية الأولياء*، ٢: ٩٢؛ الذهبي، *سير أعلام النبلاء*، ٢: ١٨٢؛ جمعة، *نساء أهل البيت*، ١٥٢.

(١٠٢) السيوطي، *مسانيد أمهات المؤمنين*، ٤٩.

(١٠٣) السيوطي، *مسانيد أمهات المؤمنين*، ٩٩.

(١٠٤) الذهبي، *سير أعلام النبلاء*، ٢: ٢٤٢.

(١٠٥) الذهبي، *سير أعلام النبلاء*، ٢: ٢٤٤.

(١٠٦) الذهبي، *سير أعلام النبلاء*، ٢: ١٨٣؛ جمعة، *نساء أهل البيت*، ١٥٥.

(١٠٧) عبد الغني، *بيوت الصحابة*، ٢٥.

(١٠٨) ابن سعد، *الطبقات*، ٨: ٦٦.

(١٠٩) ابن سعد، *الطبقات*، ٨: ٦٧.

(١١٠) ابن سعد، *الطبقات*، ٨: ٧١.

(١١١) أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي (ت ١٠٨٩هـ)، *شذرات الذهب في أخبار من ذهب*، ط٢ (بيروت: دار المسيرة، ١٣٩٩هـ، ٢: ٢٤٥؛ جمعة، *نساء أهل البيت*، ٣٦٣؛ "عبدالله بن محمد الحجيلي، "الأوقاف النبوية ووقفيات بعض الصحابة الكرام (دراسة فقهية تاريخية وثائقية)، بحث مقدم لندوة (المكتبات الوقفية في المملكة العربية السعودية)، المدينة المنورة، محرم ١٤٢٠هـ، ٣٩.

(١١٢) ابن سعد، *الطبقات*، ٣: ٣٥٧؛ الذهبي، *سير أعلام النبلاء*، ٢: ١٨٣؛ ابن حجر، *الإصابة*، ٤: ٢٧٣.

(١١٣) ابن حجر، *الإصابة*، ٤: ٢٧٣.

(١١٤) انظر: الهيثمي، *مجمع الزوائد*، ٦: ٣٢٠.

(١١٥) ابن سعد، *الطبقات*، ٨: ١٣٩.

(١١٦) ابن كثير، *البداية والنهاية*، ٨: ٨٨.

(١١٧) ابن حجر، *الإصابة*، ٤: ٣٤٧.

(١١٨) السيوطي، *مسانيد أمهات المؤمنين*، ١٠٨.

(١١٩) ياقوت الحموي، معجم *البلدان*، ٥: ٣٢٣.

(١٢٠) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١٢: ٣٨٨.

(١٢١) ابن سعد، *الطبقات*، ٨: ١٢٨، ١٢٩.

(١٢٢) ابن حجر، *الإصابة*، ٤: ٤١٢.

(١٢٣) ابن سعد، *الطبقات*، ٨: ١٣٩.

(١٢٤) الذهبي، *سير أعلام النبلاء*، ٢: ١٩٥.

(١٢٥) ابن سعد، *الطبقات*، ٨: ١١.

(١٢٦) ابن عساكر، *تاريخ دمشق*، *(تراجم النساء)*، ٧٠.

(١٢٧) ابن كثير، *البداية والنهاية*، ٨: ٧٨.

(١٢٨) ابن سعد، *الطبقات*، ٨: ٧٤؛ الإمام أبي عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل (ت٢٤١ هـ)، *فضائل الصحابة*، تحقيق وصي الله بن محمد عباس؛ ط١ (مكة المكرمة: مركز البحث العلمي، جامعة أم القرى، ١٤٠٣هـ)، ٨٧٤؛ الذهبي، *سير أعلام النبلاء*، ٢: ١٨٣؛ ابن كثير، *البداية والنهاية*، ٨: ٩٣؛ الشامي، *أزواج النبي*، ٩١.

(١٢٩) ابن سعد، *الطبقات*، ٨: ٨٠؛ ابن كثير، *البداية والنهاية*، ٨: ٩٤.

(١٣٠) ابن سعد، *الطبقات الكبرى*، ٨: ٨٦؛ الذهبي، *سير أعلام النبلاء*، ٢: ٢٢٩؛ جمعة، *نساء أهل البيت*، ٢٠٥.

(١٣١) ابن سعد، *الطبقات*، ٨: ١٠٠؛ الذهبي، *سير أعلام النبلاء*، ٢: ٢٠٢؛ ابن حجر، *الإصابة*، ٤: ٣٠٦؛ جمعة، *نساء أهل البيت*، ٣٦٦.

(١٣٢) ابن سعد، *الطبقات*، ٨: ٩٦؛ الذهبي، *سير أعلام النبلاء*، ٢: ٢٠٢؛ ابن حجر، *الإصابة*، ٤: ٤٦٠؛ جمعة، *نساء أهل البيت*، ٢٧.

(١٣٣) ابن سعد، *الطبقات*، ٨: ١٢٠، الذهبي، *سير أعلام النبلاء*، ٢: ٢٦٢؛ جمعة، *نساء أهل البيت*، ٢٣٨.

(١٣٤) ابن سعد، *الطبقات*، ٨: ١٢٨، ابن عساكر، *تاريخ دمشق (تراجم النساء)*، ٩٢؛ الذهبي، *سير أعلام النبلاء*، ٢: ٢٣٧؛ ابن حجر، *الإصابة*، ٤: ٣٤٨؛ جمعة، *نساء أهل البيت*، ٣٦٦.

(١٣٥) ابن سعد، *الطبقات*، ٨: ١٤٠؛ جمعة، *نساء أهل البيت*، ٣٩٩.

(١٣٦) ابن سعد، *الطبقات*، ٨: ١٤٠؛ الذهبي، *سير أعلام النبلاء*، ٢: ٢٤٥؛ جمعة، *نساء أهل البيت*، ٤١٨.

(١٣٧) ابن سعد، *الطبقات* ، ٨: ١٣٨ ؛ الذهبي، *سير أعلام النبلاء*، ٢: ٢٤٤ ؛ ابن حجر، *الإصابة*، ٤: ٢٦٦ ، الشامي، *أزواج النبي*، ٢٠٥ ؛ جمعة، *نساء أهل البيت*، ٤١٤ .

(١٣٨) ابن سعد، *الطبقات*، ٨: ٧٨ .

(١٣٩) ابن سعد ، *الطبقات* ، ٨: ١٤٠ ؛ الذهبي، *سير أعلام النبلاء*، ٢: ٢٤٥ .

علماء المدينة في العصر الأموي من خلال
طبقات خليفة بن خياط

عز الدين عمر موسى
قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة الملك سعود

I

يلحظ الناظر في دراسات التاريخ الإسلامي عند العرب المحدثين والمعاصرين أنها بدأت شاملة للتاريخ الإسلامي أو العربي كله، ثم انكفأ أغلبها منذ انتهاء الحرب الكونية الثانية على أعمال جزئية متخصصة، مكانا أو زمانا أو موضوعا أو بعض هذا أو كل هذا، ولقد تأثرت تلك الأعمال بصورة كبيرة، وبدرجات متفاوتة، بنمطين من التيارات: أولا، التيارات الاستشراقية الأكاديمية، بسلبياتها وإيجابياتها. ثانيا، تيارات النهضة الحديثة، إسلامية أو عربية أو وطنية قطرية.

وكان تأثير النمط الأول واضحا جليا في تجديد مناهج أولئك الدارسين، وطرائق بحثهم وأساليبها. وإنك لتبصر ذلك في أربع شعب: أولا، انفتاح مجال الدراسات التاريخية لتشمل كافة مناشط الحياة الإنسانية، ولم يعد منحصرا في جوانبها السياسية والعسكرية فحسب. ثانيا، انداح دائرة المصادر لتتناول ذلك الانفتاح الشامل. ثالثا، اتساع النظرة في دراسة أسباب الأحداث وعللها، فأصبحت التعددية المدرسة الغالبة، وتضاءل دور المدرسة الآحادية، وصارت الدراسات تتوجه نحو فهم الظاهرة التاريخية في مضمونها الاجتماعي بالمفهوم الشامل لذلك. رابعا، توسل التحليل والتعليل والنقد الصارم أساليبا لإثبات الحقائق الجزئية المفردة... ولا ريب إنك لتجد هذه السمات أوضح وأبرز في الدراسات الجزئية المتخصصة المعاصرة عنها في الدراسات الشاملة.

ويستبين تأثير النمط الثاني في مجالين متداخلين، هما الإطار المكاني والإطار الزماني. ومن الطبيعي القول بأنهما يتسعان إسلاميا ويضيقان عربيا، ويشتد ذلك الضيق إقليميا ثم وطنيا قطريا.[(١)] ومن ثمّ ظهرت الدراسات المتميزة بالشمولية من حيث الزمن والمكان مع التوجهين الإسلامي والعربي، وقلما تجدهما في التوجهين الإقليمي والوطني القطري. ولكن من اللافت للنظر أن الدراسات الشاملة جاءت وصفية في أغلبها، ومفتقرة إلى المنظومة الفكرية أو ما يطلق عليها "المنطلق" أو "المنظور" الذي به تستبصر وحدة ذلك التاريخ على اختلاف فتراته وتمايز

مناطقه، وبه تعلل مسيرته وتفسر أحداثه... وحسبك أحمد أمين في فجره وضحاه وظهره ويومه... وحتى هذا جاء صدى للدراسات الأدبية التي انطلقت مع جرجي زيدان وغيره والتي نظرت إلى ذلك الإنتاج من خلال فترات تكوينه وازدهاره واضمحلاله. ولعل المحاولة الوحيدة الجادة لاستصحاب المنظور المفسر المعلل هي محاولة عبدالعزيز الدوري، وفيها ما يحتاج للمراجعة وإعادة النظر.[٢]

بيد أن تلك الدراسات لم تخل من تحديد لبعض العوامل الفاعلة والمشكلة لأحداث التاريخ الإسلامي، على اختلاف في تقدير أهمية دورها وتحديد مداها. ويلاحظ أنها جاءت كلها في شكل ثنائية عجيبة غريبة؛ مثل النزاع القيسي اليمني، والعرب والموالي، والعروبة الثقافية والشعوبية، والتصادم بين التيارين الإسلامي والقبلي... وعلى الرغم من "تاريخانية" هذه العوامل إلاّ أن الناظر في ذلك التاريخ يشعر بأنها فاعلة في فترة دون غيرها، وفي منطقة دون أخرى، مما يدعو إلى إعادة دراستها وفق أساليب أخرى، وربما منطلقات مغايرة أيضا.

وقد عانت الدراسات الجزئية المتخصصة المعاصرة، إقليمية أو وطنية قطرية، من غياب "المنظومة الفكرية" معاناة أكبر، ذلك لأن أصحاب هذه الدراسات تقوقعوا في ميادين تخصصاتهم الدقيقة، على اختلاف في مدى اهتمامهم بما يربطها بما قبلها أو بعدها أو حولها... وكانت المحصلة النهائية تقطيع أوصال الحقبة التاريخية الواحدة أو المنطقة الواحدة بالتركيز على موضوع بذاته دون غيره، أو تجزئة الحقب المختلفة والمناطق المتباينة إلى جزر منعزلة بدراسة حقبة بعينها أو منطقة بذاتها... فغابت في مثل هذه الدراسات الصورة الشاملة لمسيرة التاريخ كوحدة مترابطة أو على الأقل أصبحت تلك الصورة غائمة.

ولهذا ربما يصح القول بأن جل هذه الدراسات "وصفية،" وإن اتشحت بثوب التحليل والتعليل في إثبات الحقائق المفردة، ذلك لأن الغالب عليها إعادة تركيب الظاهرة التاريخية المبحوثة دون النظر إليها من خلال الخط العام لمسيرة التاريخ الذي تنتمي إليه، فلا تجد كبير اهتمام بانفعالها به ولا فعلها فيه، خاصة وأن جذور الأحداث قد ترجع إلى فترات سابقة بعيدة. فأصبح مؤرخ التخصص الدقيق منعزلا عن التخصصات في فنه، فضلا عن الفنون الأخرى المتصلة به، في زمن أدرك العالم خطورة التخصص الدقيق والتقوقع فيه على تجزئة المعرفة ومسخها وتشويهها، فعادت الآن الدعوة إلى التخصصات المتداخلة في العلوم المتشاكلة... وهذا ما كان عليه علماء الإسلام في صدره.

من هذا يتبدى أن الدراسات التاريخية العربية المعاصرة في تناولها للتاريخ الإسلامي تمر بأزمة منهجية خطيرة، شاملة لكل جوانب المنهج، مفاهيمه ومصطلحاته وطرائقه وأساليبه. وتهدف هذه الورقة إلى إثارة هذا الموضوع من ناحية الأساليب. وللمرء أن يتساءل ما الذي يضير لو أخذ المؤرخ ما ابتكرته العلوم الأخرى من أساليب ناجحة، ودجنها لتناسب طبيعة التاريخ الإسلامي وموضوعاته ومصادره... مثل هذا فعله المؤرخون المسلمون الأول معدلين لمنهج المحدثين، مبتكرين لـ "الإسناد الجمعي" فأعطوا قصة متكاملة للخبر الواحد، فأحدث ذلك ثورة في الكتابة التاريخية عند المسلمين.[٣]

أليس من الممكن أن يأخذ مؤرخ التاريخ الإسلامي "المنهج الكمي" الذي ثبتت فائدته الكبرى في سائر العلوم التجريبية والتطبيقية والإنسانية نتيجة الثورة التقانية المتسارعة المتصاعدة؟ وماذا لو عدله إلى أسلوب إحصائي يتناسب مع الثروة العظيمة التي تزخر بها كتب التراث؟ أليس من الممكن أن تظهر نتيجة التطبيق حقائق جديدة قد تؤكد ما يعرف أو تعدله أو تبطله.[٤] لهذا تم اختيار "علماء المدينة في العصر الأموي: طبقات خليفة بن خياط نموذجا"[٥] موضوعا لتجربة هذا الأسلوب الإحصائي وما ينتج عنه في تأكيد معرفتنا السابقة أو تعديلها أو إثارة الغبار حول بعض مسلماتها، وما يمكن أن يفتحه ذلك من آفاق بحثية جديدة أو قديمة جديدة؟ فلماذا المدينة بالذات ولماذا طبقات خليفة دون غيرها؟

II

كانت نواة العلم في صدر الإسلام هي القرآن والسنة، ونتج عنهما الفقه، وتطور بهما الاهتمام باللغة وعلومها... والمصدر الرئيس في كل ذلك الأخذ عن النبي ﷺ؛ ومن ثم جرى بحث واسع في تمييز الصحابة ومن أخذ عنهم في سلاسل متصلة وطبقات متتابعة عبر الزمن.

فمن هنا فالمدينة أساس هذه الحركة العلمية ومنبعها، ومنها فاضت على الأمصار، ودراسة طبقات رجال العلم فيها تكشف عن الاستمرار والانقطاع والتطور والثبات في الحياة العلمية فيها، وتصلح مؤشرا لمعرفة درجة تأثير ما قيل عن العوامل الفاعلة في تشكيل المجتمع المسلم في صدر الإسلام.

ومن المعلوم أن النسب شكل أحد المحاور الرئيسة في تحديد تلك السلاسل والطبقات. ولا غرابة في ذلك فقد كان للنسب دور هام في حياة العرب في الجاهلية والإسلام وقد جاء الإسلام برابطة العقيدة أساسا لبناء الأمة، متجاوزا بها رابطة الدم، لكنه لم يغفل النسب القريب، فجعله العماد الديني في بناء الأسرة وحقوقها، واعترف به جزءا في تنظيم المجتمع الإسلامي الوليد، كما في الديات والعاقلة، وذلك واضح بجلاء في صحيفة المدينة.

وجعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه النسب ثاني الركيزتين اللتين قام عليهما سلم العطاء الذي وضعه على أساس السبق في الإسلام، ثم في كل طبقة جعل صلة القربى من رسول الله ﷺ أساسا للتفضيل. وإنك لتلحظ أن الأمصار التي بنيت بعيد الفتوح الإسلامية قد خططت على أسس قبلية في سكن المقاتلين فيها.

ويدلك على دور النسب أن البلاذري (ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م) أقام خطة كتابته للتاريخ عليه، ووسمه *أنساب الأشراف*. ومع أنه يراعى التسلسل التاريخي عادة، إلاّ أنه يراعي تسلسل النسب بصورة أكبر، فمثلا أورد كلامه عن يزيد بن معاوية قبل عثمان رضي الله عنه.[٦]

أما أقدم كتابين وصلا إلينا وخصصا لطبقات رجال العلم، من لدن الصحابة إلى التابعين ومن جاء بعدهم، هما *طبقات* ابن سعد (ت ٢٣٠هـ) *وطبقات* خليفة بن خياط (ت ٢٤٠هـ). وصاحباهما متعاصران وبلديان ولكنهما يختلفان في الأسس التي قامت عليها خطتي كتابيهما. لقد قسم ابن سعد تراجمه على أساسين مختلفين... الأول، ترتيب تراجم الصحابة على الزمن، وقوامه السبق في الإسلام مع تقديم صلة القربى من الرسول ﷺ في الطبقة

الواحدة. الثاني، ترتيب تراجم التابعين وفقا للتوزيع الجغرافي مبتدئا بالمدينة، لكنه راعى الترتيب الزماني في كل مدينة. ويلاحظ ترتيبه للطبقة الأولى من التابعين على أساس الرواية.(٧)

أما خليفة فقد رتب طبقاته في الصحابة والتابعين على النسب وحده مع مراعاة تقديم القرابة من النبي ﷺ في أنساب قريش، وعدم الاحتفال بذلك خاصة في أنساب اليمن، فلم يقدم الأنصار على غيرهم، ولا احتفل بتقديم بني النجار عند ذكر الأنصار. ويلاحظ أنه رتب الأسماء والقبائل وفقا لأربع فئات، قريش، بقية العدنانيين، الأنصار، بقية اليمن... وإن لم يلتزم هذا الهيكل في كل الأحوال... هذا إضافة إلى حرصه على ذكر الحلف والولاء.

إن كلف خليفة بترتيب سائر طبقاته على أساس من النسب يفيد كثيرا في تقدير دور القبائل والعشائر في الحياة العلمية، لا سيما في العصر الأموي والمدينة خاصة، كما أنه يسعف كثيرا في توضيح دور الموالي في تلك الحياة العلمية مقارنة بما للصليبة والحلفاء. وكلا الأمرين يصلحان لاستخراج مؤشرات تلقي شيئا من الضوء على ما دعوته بالثنائية في تفسير أحداث صدر الإسلام وتعليلها... وهذا وحده يكفي للدخول في مغامرات الأسلوب الإحصائي وتطبيقاته.

وهنا ينبغي الإشارة إلى أن للنسب قضاياه الشائكة ومزالقه المتعددة، فالنسب بحر لا يدرك قاعه، ومحيط لا يبصر ساحله... ذلك لأن فيه اختلافات كثيرة غير يسيرة مما يجعل التعامل معها إحصائيا قضية معقدة، لهذا ما اعتمد هنا إن هو إلاّ رؤية خليفة لأنساب الفترة المبحوثة... ولكن لطبقات خليفة في التعامل معها إحصائيا إشكالات خاصة، ويجب الإشارة إليها وتوضيح درجة تأثيرها على النتائج الإحصائية المستخلصة. وتتمثل هذه الإشكالات في ثمان مسائل.

المسألة الأولى

يبدو أن كتاب *الطبقات* المنشور لا يمثل إلاّ مسودة المؤلف التي لم ينقحها، وعلى هذا الرأي عدة أدلة:

١- يفرد خليفة عناوين لا يلتزم لها بدلالة واحدة في بعض الأحيان، ودون سبب مبرر، فمثلا تجده دائما حريصا على ذكر حلفاء القوم ومواليهم إن وجدوا، بيد أنه لا يتخذ لذلك عناوين خاصة إلاّ مع عشائر قريش وفي مرة واحدة مع بني مجدعة الأوسيين،(٨) ولعل لهذا ما يبرره لأن الصنفين يظهران بصورة غالبة مع قريش.(٩) وأما ما لا يجد المرء له سببا مقنعا أن يدرج موالي القوم مع حلفائهم تحت مصطلح واحد هو الحلفاء، مثل صنيعه مع بني عبد شمس وبني زهرة وبني مخزوم.(١٠) ويلاحظ أيضا أنه يتبع نسقا واحدا في مخططه، فيذكر قريشا ثم قبائلها، ولكنه في الطبقة الثالثة قال: "من أبناء المهاجرين من قريش"(١١) ولكنه ذكر بني هاشم وحدهم ثم جعل عنوانا آخر وقال "ومن قبائل قريش". واستعمل المصطلح ذاته مرة في طبقات التابعين ولم يذكر فيه غير مولى.(١٢)

٢- وردت ثلاثة ألوان من المعلومات في غير مكانها من المخطط، وهناك ما يوحي بأنها قد جمعت لتصنف أو ترتب ولم يتنبه المحقق فلم يشر إلى شيء من ذلك، وهي:

الأولى، في الطبقة الثانية بعد ذكر قبائل قريش، وقبل ذكر الأنصار، قال: "ومن سائر القبائل في هذه الطبقة،" ثم أورد ثلاثة وأربعين تابعيا... والمتوقع حسب نسق مخططه أن يكون هؤلاء جميعا من سائر القبائل العدنانية سوى قريش... ولكن التحليل الداخلي، وفقا لمعطيات خليفة نفسه، أوضح أن واحدا وعشرين منها فقط تندرج تحت هذه الفئة وثمانية مكررة، وأربعة لقريش وعشرة للأنصار واليمن.[١٣]

الثاني، جاءت أسماء اثنين من بني زريق، وواحد من بني ساعدة الخزرجيين وسط بني ضبيعة العوفيين الأوسيين.[١٤] ومثله ذكر أسماء بني مخزوم وسط بني زهرة[١٥]... وليس هناك ما يوحي بأن هذا وقع بفعل أخطاء النساخ أو بسبب مشاكل ترتيب الصفحات... خاصة وأنه في حالات أخر يضيف صلبية بعد الحلفاء والموالي،[١٦] بل في حالة واحدة جاء ذكر الصلبية بعد أن اتخذ للحلفاء عنوانا مستقلا مما قد يوهم بأن أولئك جزء من هؤلاء[١٧]... وفي حالة واحدة جاء ذكر ليثيين بعد الأنصار، وليث من عدنان[١٨]... فربما يشير هذا كله إلى أن أصل المطبوع مسودة لم تراجع من قبل المؤلف... فرويت كما دونت.

الثالث، وهو مشابه للأول فقد ذكر بني عدي ثم وصلهم بستة عشر اسما.[١٩] وعند تحليل معلوماتهم وفقا لضوابط خليفة نفسه وضح أن فيهم تسعة من قريش؛ منهم ثلاثة من كل من بني زهرة وبني عامر، وواحد من كل من بني جمح وبني سهم، وواحد نسب لقريش عامة. أما البقية ففيها واحد مكرر، وأربعة من سائر قبائل عدنان من غير قريش، واثنان من الأنصار واليمن... وواضح أن هذا يدل على تجميع معلومات لم تصنف ولم ترتب بعد، تماما كما هو في اللون الأول.

٣- ومما يدل على أن العمل الذي بين أيدينا إن هو إلاّ مسودة لم تنقح ما يذكره في الطبقة السادسة بعد أن عدّ صديق بن موسى بن عبدالله بن الزبير منها فقال: "يلحق في الطبقة الخامسة".[٢٠]

٤- لقد تكرر الاسم الواحد في غير موضع ثلاثين مرة. ويبدو أن العمل في قسم الصحابة كان أكثر اكتمالا عنه في قسم التابعين... فالتكرار في القسم الأخير ضعف ما في القسم الأول. ويغلب على الظن بأن هذا التكرار من إضافات المصنف نفسه لوجود قرائن دالة على ذلك باستثناء حالة واحدة تكرر فيها الاسم في موضع واحد،[٢١] الأمر الذي يوحي بأنه من سهو ناسخ.

ويلاحظ أنه في قسم الصحابة يذكر أحيانا الصحابي في موضع واحد ويشير إلى علاقته بالقبيلة الأخرى، حلفا أو ولاء في الموضع ذاته ولا يكرره.[٢٢] وإذا وقع التكرار قد ينبه عليه بقوله: "كتبنا نسبه في...".[٢٣] أما بقية الحالات السبع فهي تكرار واضح، وليس فيه ما يشير إلى أنه من سهو ناسخ... أو خطأ إملاء.[٢٤]

وذكر في قسم التابعين صحابيين، كل في ثلاثة مواضع،[٢٥] وتكررت اسماء ستة عشر صحابيا، ولكن هناك قرائن دالة على أنها أيضا من إضافاته... وأمكن حصرها جميعا وتبيانها[٢٦] وإسقاطها من العدد الكلي.

٥- ذكر عددا من القبائل، لم يورد فيها اسما واحدا،[٢٧] والراجح أنه تركها ليستدركها فيما بعد، ذلك لأن طريقته عندما يستيقن بعدم وجود أحد في قبيلة يقول صراحة: "ليس فيهم أحد".[٢٨]

٦- اتبع المؤلف ذكر الرجال مصنفين وفقا لقبائلهم أو عشائرهم على نسق واحد لم يتغير في سائر قسم الصحابة وطبقات التابعين الأربع الأول. وبعد ذلك لا النسق اتبع ولا وضعت عناوين لقبائلهم... فجاء رجال خزاعة في مبتدأ الطبقة الخامسة، فجهينة ثم سائر القبائل. وبدأ بالزبيريين في السادسة وأخَّر بني هاشم جدا... وتقدم بنو عدي الطبقة السابعة، فبنو تيم وأخيرا بنو هاشم... وفي النساء الصحابيات قدم الأنصاريات على سائر قبائل اليمن... إن الاضطراب في الجزء الأخير من التابعين والجزء الثاني من النساء مؤشر آخر على أن الكتاب لم يأخذ شكله النهائي.

وواضح من هذه الأدلة أننا أمام مسودة، ولكن هذه النتيجة لا تؤثر على المسألة الإحصائية، خاصة بعد رد ما جُمِّع ولم يصنف إلى مواضعه في المخطط وفقا لنسق المؤلف وترتيبه كما هو واضح في جداول الصحابة والتابعين في الملحقين I وII حيث جرى إسقاط المكررات وأعيد ترتيب المعلومات.

المسألة الثانية

هناك استشكالات في بعض من ذكر، وكيف يصنفون إحصائيا وفق تصنيفه هو ولكن هناك ما يمكن أن يوهم بغير ما يريد. من ذلك أنواع، هي:

١- لقد صنف رجال القبيلة إلى صليبة، ويستخدم لها عبارة من "أنفسهم،" وحلفاء ومولى، وفقا لهذا فقد يُذكر الشخص الواحد غير مرة. وهنا يلاحظ أن خليفة كان دقيقا جدا؛ فقد يذكره مرة واحدة، إما صليبة أو حليفا أو مولى. وهذا النوع أنزلناه حيث صنفه... من هذا ذكر حاطبة صليبة في لخم لا حليفا لبني أسد بن عبدالعزى،[٢٩] وأبي أهاب بن عزيز في تميم لا حليفا لبني نوفل،[٣٠] وشريك بن أبي العكر في بني راسب لا حليفا لبني عامر بن لؤي،[٣١] والفرات بن حيان في بني عجل لا حليفا لأبي سفيان.[٣٢]

وقد يذكر الشخص في موضعين مختلفين، ويشير إلى التصنيف المعتمد عنده، ودائما تجده للحلف مرجحا. مثاله ما يذكره عن محمد بن عبدالله من أسد خزيمة ومولاه أبي العلاء،[٣٣] وأبي بردة البلوي وعاصم بن عدي،[٣٤] ومعيقب الأصبحي[٣٥] وعمار بن ياسر[٣٦] وعامر بن ربيعة، من بني عَنْزَة ابن وائل، حليف عمر بن الخطاب وكذلك ابنه عبدالله بن عامر.[٣٧]

ولعل الحالة الوحيدة التي يذكر فيها شخصا في موضعين بصورة متساوية ولا يجد الناظر مشكلة هي حالة صهيب بن سنان لأنه في الموضعين ذكر ولاءه لتيم.[٣٨]

ومن الواضح أن جميع هذه الحالات لا تمثل مشكلة إحصائية في التصنيفات نسبيا، وحتى لو حدث ذلك فإن نسبتها من العدد الكلي لا تتجاوز ٠,٩٪ وهي نسبة لا يعتد بها إحصائيا.

المسألة الثالثة

هناك من قال خليفة عنهم: "لم يحفظ نسبه،" ولم يذكر لهم قبائل ولا فئات، ومنهم من ذكر له شيئا من ذلك ومنهم من خلط فيه النوعين فذكر في بعض وأغفل في آخر... فما أثر هذا التصنيف نسبيا وإحصائيا؟

إنك لتجد هذه الأنواع الثلاثة في ثمانية وتسعين شخصا، يمثلون ٧,٥٦٪ من العدد الكلي في القسمين، وهي نسبة مؤثرة إحصائيا. بيد أن توزيعهم في القسمين مختلف جدا، والتأثير إحصائيا متباين جدا... إذ فيهم ثمانون صحابيا وثمانية عشر تابعيا.

يمثل عدد الصحابة هذا ١٠,٢٥٪ من رجال قسمهم، و٦,١٧٪ من العدد الكلي للقسمين... ولكن توزيعهم الفئوي والقبلي يختلف اختلافا عظيما... فلم ترد هذه المشكلة في قريش، وما ورد من أسماء منهم في بقية عدنان، وهم ثلاثة وعشرون صحابيا، قبائلهم موضحة ولكن لم تتصل أنسابهم[٣٩] ... ولهذا ليس هناك مشكلة في هذه الفئة أيضا.

وهكذا تنحصر المسألة في قسم الصحابة في فئتي الأنصار وبقية اليمن حيث بلغ العدد سبعة وخمسين صحابيا، منهم ثلاثة فقط مبينة قبائلهم.[٤٠] أما البقية ففيها إثنان وعشرون من الأنصار، واثنان وثلاثون من بقية اليمن،[٤١] ويمثلون ١٥,٢٪ و١٦,٦٧٪ من فئتيهم على التوالي... فأصبحت المشكلة لا تتصل بالفئات وإنما بالقبائل فحسب... فضاق نطاقها... علاوة على أن قسم الصحابة كله لا يدخل في نطاق الدراسة إلا للاستئناس به، وليس بالضرورة أن تعلم قبائلهم في كل الأحوال... وحيثما أثر هذا الوضع على المقارنة جرى توضيحه إن وجد.

أما قسم التابعين الذي هو محور هذه الدراسة فقد بلغ العدد ثمانية عشر تابعيا، يمثلون ٣,٤٩٪ من قسمهم، و١,٣٩٪ من عدد القسمين ومع أن هذه النسبة متدنية مقارنة بقسم الصحابة إلاّ أنها لم تؤثر على التقسيم الفئوي ولا القبلي، لأنه من لم ينسب مطلقا بلغ خمسة تابعين فقط،[٤٢] ونسبتهم إلى عدد التابعين الكلي ٠,٩٧٪، وهي نسبة ليس لها دلالة إحصائيا.

المسألة الرابعة

إن عدد من أدرك الدولة الأموية من الصحابة بلغ ١٠٦ أشخاص، ولم يذكر خليفة صراحة وفاة أو استقرارا في المدينة إلا مع أحد عشر شخصا، يمثلون ١٠,٣٨٪... بينما ذكر تفرق ٥٧ صحابيا في الأمصار، محددا مناطقهم أو مدنهم ويمثلون ٥٣,٧٧٪، ولم يذكر أماكن إقامة أو وفاة ٣٨ صحابيا، يمثلون ٣٥,٨٥٪ فهل انجفل الصحابة عن المدينة بهذه الصورة الكبيرة جدا وغفلت المصادر عن ذكرها!؟ أم أن عدم ذكر الإقامة أو الوفاة له مدلول معين عند خليفة في طبقاته؟

يبدو أن هذه الظاهرة لها تفسيرها، ذلك لأن خليفة دقيق في استخدام مصطلحاته في هذا الباب، فهو يستخدم كلمة "أتى" مع كل من جاء إلى بلدة ولم يقم فيها... فتجده يقول إنه "أتى كذا، وأقام بكذا" أو "مات

بكذا"[٤٣]. ويستخدم "سكن" أو " من أهل..." دلالة على الإقامة الدائمة.[٤٤] ويستعمل كلمة "نزل" بمعنى الإقامة الدائمة أيضا،[٤٥] إلاّ إذا أشار إلى غير ذلك بقرينة دالة، مثل قوله: "نزل كذا" ثم "أقام بكذا حتى مات"،[٤٦] ومن هنا، فإن عبارة "له دار بكذا" لا تعني بالضرورة الإقامة فيه.[٤٧] ولهذا فهو دقيق جدا إذ نزل أحدهم مكانا ثم تحول عنه إلى آخر يحدد ذلك بوضوح،[٤٨] وإذ جهل مكان وفاته يذكر ذلك أيضا.[٤٩]

فهو يذكر أحد هذه المصطلحات أو بعضها مع كل من ذكر ممن خرج عن المدينة أو غيرها خروجا نهائيا أو خرج خروجا مؤقتا وعاد إليها ومات فيها، فلماذا أغفل ذلك في ٣٥,٥٨٪ من الحالات؟ وليس الظن بأنه جهل ذلك، فلو جهله لذكره، خاصة وأنه يعد أسماء رواة للحديث من الصحابة ووجودهم في المدينة هو الأصل، وغيره ينبغي الإشارة إليه. ولهذا فأغلب الظن أن هؤلاء الذين أدركوا الدولة الأموية، ولم يحدد مكان وفاتهم، إن هم إلاّ من أهل المدينة.

وإذا صح الاستنتاج يكون من أدرك الدولة الأموية من الصحابة وبقي في المدينة عددهم ٤٩ صحابيا، يمثلون ٤٦,٢٣٪ من هذه الشريحة، ومن ترك المدينة ٥٧ صحابيا، يمثلون ٥٣,٧٧٪. وحتى هذه النسبة الأخيرة عالية جدا، وتجعل المدينة طاردة للصحابة وغير جاذبة مما يحتاج إلى دراسة وعلى هذا يكون عدد الصحابة الذين ظلوا في المدينة ولهم دور في الرواية الحديثية البصرية التي يمثلها خليفة ٤٩ صحابيا فقط.

المسألة الخامسة

وهناك مشكلة إحصائية تتصل بدلالة العدد الكلي للصحابة والتابعين الذي ورد في الإحصاءات... وهنا يلاحظ أن لخليفة منهجا لم يحد عنه في سائر طبقاته، وهو قائم على ما حُفظ للشخص من حديث. فإذا ذكر أحد بسبب استطراد في نسبه أو غيره، ولا يُحفظ له حديث ذكر ذلك بجلاء ووضوح،[٥٠] مثل هؤلاء لم يدخلوا في هذا الإحصاء. ولا أدل على دقته في هذا الأمر من أنه في حالة واحدة ذكر أخوين وشك في من جاءت الرواية عنه... فحدد ذلك بصورة قاطعة.[٥١] وفي مثل هذه الحالة جرى اعتماد واحد منهما في هذا الإحصاء.

وبناء على هذا، فإن العدد الكلي في طبقات التابعين، موضوع هذا البحث، يمثل أهل العلم في المدينة عند البصريين برواية خليفة. وهذا ما يفسر قلة العدد الكلي من التابعين عنده، وهو ٥١٦ تابعيا، مقارنة لأمثالهم في *طبقات* ابن سعد على ما فيها من استشكالات.[٥٢] إن العدد الكلي في *طبقات* ابن سعد (طبعة صادر) بلغ ٤٧٩ تابعيا، يضاف إليه العدد الذي ورد في الجزء الذي كان مفقودا، وحققه زياد محمد منصور، وفيه ٤٠٧ تابعيا... فيصبح العدد الكلي للتابعين في المدينة عند ابن سعد ٨٨٦ شخصا. إذا ما عند خليفة لا يمثل إلاّ ٥٨,٢٤٪ مما عند ابن سعد.

لقد كان خليفة مدركا إلى أن من يذكرهم من الصحابة إنهم قلة قليلة جدا، فهو يقول في مقدمة كتابه: "وقبض رسول الله ﷺ وبالمدينة من أصحابه جمع كثير لا يُحاط بتسميتهم وعددهم، فتفرق بعده من أصحابه في

المغازي وغير ذلك، فمنهم من أتى الشامات ومصر والمغرب والبصرة والكوفة بعد أن مُصرتا وسكنتا، ومنهم من رجع إلى بلاده من أهل مكة والطائف واليمن واليمامة والبوادي وغير ذلك." ثم يتبع ذلك بقوله " فكان من حفظ عنه الحديث ممن أقام بالمدينة ومن شخص عنها." [٥٣] ويبدأ يعدد الأسماء وفقا لهيكل كتابه ومخططه على النسق الذي سار عليه.

ومن هنا فإن النتائج المستخلصة لا تصور إلاّ رؤية بصرية بعيون خليفة للحياة العلمية في المدينة في العصر الأموي من خلال رجال الحديث والفقه وهذا يثير سؤالا عما يمثله ابن سعد.

المسألة السادسة

ثم هناك استشكال مصدره الأسس التي بنى عليها خليفة طبقاته للتابعين... فإذا نظر المرء فيها على أساس سنوات الوفيات يخلص إلى الجدول رقم (١).

الجدول رقم (١). المدى الزمني لكل طبقة.

الطبقة	سنـــوات الوفيـــات	المدى الزمني بالسنوات
الأولى	٤٩هـ - ١٠١هـ [٥٤]	٥٣
الثانية	٦٥هـ - ١٢٦هـ [٥٥]	٦٢
الثالثة	١٠٦هـ - ١٢٦هـ [٥٦]	٢١
الرابعة	١٢١هـ - ١٤٠هـ [٥٧]	٢٠
الخامسة	خلافة أبي العباس (١٣٢-١٣٦هـ) - ١٤٤هـ [٥٨]	١٣
السادسة	١٢٦هـ - ١٥٧هـ [٥٩]	٣٢
السابعة	١٥٣هـ - ١٧٢هـ [٦٠]	٢٠
الثامنة	١٦٢هـ - ١٨٣هـ [٦١]	٢٢
التاسعة	١٧٨هـ - ١٩٩هـ [٦٢]	٢٢

من الواضح، من هذا الجدول، أن الوفاة لم تشكل أساسا، ولو ثانويا، لهذه الطبقات، إذ أن التداخل شديد في تواريخ وفيات رجال الطبقتين الأولى والثانية، وتجده أشد من ذلك بين أربع طبقات، من الثالثة إلى السادسة، وأيضا من السادسة إلى التاسعة. ومما يزيد مسألة التداخل تعقيدا أمران: المدى الزمني لكل طبقة وعدد الطبقات عند خليفة.

يلاحظ أن المدى الزمني في الطبقتين الأولى والثانية طويل طولا لا يتناسب مع بقية الطبقات، فهو يتراوح بين ٥٣ سنة و٦٢ سنة، بينما في الطبقات الباقية يتراوح بين ١٣ سنة و٣٢ سنة، والغالب أن يكون عشرين أو يزيد

قليلا. فهل هذا بسبب ما قد يكون أصاب الحياة العلمية في المدينة من ضمور، في الكم لا الكيف، نتيجة للتطورات السياسية التي بدأت بمذبحة قديد في سنة ١٣٠هـ، حيث أصاب أبوحمزة الخارجي خلقا من أهل المدينة، منهم ثلاثمائة رجل من قريش، وأصيب من آل الزبير وحدهم اثنا عشر رجلا،[٦٣] ثم ما تلا ذلك من تحولات كبيرة بقيام دولة بني العباس سنة ١٣٢هـ. ومثل هذه التحولات لم تعقب واقعة الحرة سنة ٦٣هـ، ولهذا لم تفرز في الحياة العلمية آثارا سلبية مشابهة!

ولو كان الأمر كذلك فلماذا لم يؤثر ذلك على تقسيمات *طبقات* ابن سعد الذي عالج الموضوع نفسه، وهو بصري مثله أيضا، وقد جاء عدد الطبقات عنده سبعا لا تسعا... والحالة هذه فربما لا يرجع الأمر إلى سلسلة البصريين في نقل روايات المدينة. وهذا أمر مناقشته تخرج البحث عن إطاره المرسوم، بيد أن فيه ملاحظة خليقة بالتسجيل... ألا وهي أن طول السلسلة في نقل العلم عند خليفة ليست مدنية أيضا... فالمحدثون يسمون رواية الشافعي عن مالك عن نافع عن ابن عمر سلسلة الذهب... وهي أربع طبقات فقط.

إذا التقسيم لا هو بالبصري ولا هو بالمدني، وبصورته الراهنة فيه قلق واضح، واضطراب عظيم... والراجح أنه لم يصبح نهائيا وقد سبق الإشارة إلى ذلك،[٦٤] وسيأتي فيه فضل بيان لاحقا.[٦٥] فربما أراد خليفة أن يضع أسسا مغايرة لما عرف فلم ينجزه. وكيفما كان الأمر، فإن أساس الطبقات عنده يثير في هذه الدراسة مشكلة سببها التداخل الشديد، فيمتد من عاشوا في العصر الأموي وبرزوا علميا أو لهم رواية إلى الطبقة الثامنة... ومن هنا فإن الطبقة التاسعة لا تدخل في الدراسة إلاّ بهدف النظر إلى الاستمرارية أو الانقطاع، تماما كما هو الحال مع قسم الصحابة.

المسألة السابعة

وبما أن القضية متصلة برواية الحديث بأوثق نسب... فما هو رأي المحدثين في خليفة نفسه؟[٦٦] وفي هذا ثلاث ملحوظات:

أولا: لقد نشأ خليفة في بيت علم بالحديث، وكان جده أبوهبيرة خليفة بن خياط الليثي (ت ١٦٠هـ) من أهل علم الحديث، ووثقه ابن أبي حاتم، وروى عنه محدثون كبار، منهم وكيع بن الجراح وأبو الوليد الطيالسي... وكان خياط والد خليفة مثل ذلك... وأخذ خليفة عن علماء الحديث في البصرة ومن دخلها. قلت لكن لا يعلم له رحلة. وروى عنه عدد غير قليل من أهل العلم بالحديث منهم البخاري في *صحيحه وتاريخه*، وعبدالله بن حنبل، والصنعاني، وبقي بن مخلد القرطبي الذي وصلنا تاريخ خليفة بروايته.

ثانيا: يبدو أن خليفة كان من أهل السنة ووقف ضد المعتزلة، فهو ممن أشخصوا من البصرة إلى المعتصم لمواقفهم العدائية للاعتزال.

ثالثا: إن في موقف أهل الجرح والتعديل منه مقال يحتاج إلى شيء من البيان. لقد روى البخاري عنه في ثمانية عشر موضعا، غير أن ابن حجر تتبع ذلك، وذكر ما يفيد عدم توثيق البخاري له، وإن كان من شيوخه، يقول ابن

حجر : " لم يحدِّث عنه البخاري إلاّ مقرونا ، وإذا حدَّث عنه بمفرده علَّق أحاديثه." ثم أورد قول علي بن المديني فيه بأن في داره "شجر يحمل الحديث ، " وأردف بأن العقيلي ضعفه واصفا قول ابن المديني بالغمز له. ويبدو أن ابن حجر لم يكن يرى هذا الرأي فذكر من تعقب الرواية وضعفها ، كما أنه أورد توثيق ابن حبان له ، وشهادة ابن عدي بأنه "مستقيم الحديث صدوق ، من متيقظي رواة الحديث".(٦٧) فلا عجب أن جاء من تأول قول ابن حجر في عدم توثيق البخاري له... ولعل ما انتهى إليه رأي المحدثين فيه هو قول الذهبي : "وثقه بعضهم ، ولينه بعضهم بلا حجة".(٦٨)

من هذا يتضح أن خليفة مع علمه بالتاريخ والأنساب فهو محدث ثقة ، ولهذا تكتسب تراجم طبقاته درجة عالية من الأهمية في توضيح صورة الحياة العلمية في المدينة في العصر الأموي ، ولكن من منظوره البصري من خلال شيوخه الذين أخذ عنهم.

المسألة الثامنة

هي موضوع النساء... لقد أفرد خليفة قسما في آخر كتابه للصحابيات ، واتبع فيه المخطط نفسه القائم على تقديم قريش بادئا بالأقرب نسبا برسول الله ﷺ. ولهذا جاءت أمهات المؤمنين مع قبائلهن ، ولكن ترتيب القبائل في قسم الصحابيات لم يلتزم فيه ما اتبعه في قسم الصحابة من الرجال ، مما يوحي بأن الصورة لم تكتمل بعد... ويلاحظ أن الصلبية من الأنصاريات أكثر من القرشيات ، ومجموع اليمن بينهن أكبر من العدنانيات. ولكن اللافت للنظر أنه لم يحفل بذكر الوفيات ، ولهذا لم تندرج الصحابيات في هذه الدراسة حتى وإن علم إدراكهن للعصر الأموي من مصادر أخرى لأن ذلك يخرج هذا البحث عن شرطه.

ثم ملحوظة أخيرة عن النساء... فمن الواضح أنه لم يحفل بذكرهن بعد جيل الصحابيات مع العلم بأن بعض الصحابيات أدركن العصر الأموي ولا ريب أنهن تركن أثرهن فيه ، وهل المدينة في العصر الأموي لم تنجب نساء روين العلم كما فعلت بعض الصحابيات؟ وهذه القضية سبق أن لاحظتها عن ابن سعد وطبقاته.(٦٩) فهل القضية ترجع إلى عصر خليفة وابن سعد واحتجاب المرأة!؟ إن هذا الموضوع مثير مستثير، يستحق دراسة منفردة معمقة.

والسؤال الآن كيف أثر المنظور البصري بعيون خليفة في تصوير العلم في المدينة من خلال رجاله في طبقاته؟ وما المستفاد من تطبيق الأسلوب الإحصائي في تبيان حقائق جديدة أو لفت النظر إلى تيارات قديمة وأخرى جديدة؟

III

إن الجداول الإحصائية المرفقة ، المستخلصة من طبقات خليفة وحدها ، غنية بالدلالات عن الحياة العلمية في المدينة في العصر الأموي. وربما تقرأ تلك الإحصاءات قراءات مختلفة فتتباين دلالاتها. والذي لا ريب فيه أن فيها مؤشرات ؛ بعضها عادي النتائج يؤكد بعض المقولات المتداولة ، إلاّ أن عددا آخر معتبرا من تلك المؤشرات ذو خطر عظيم ، فهو ينسف أو يعدل عددا من مقولات أُخر... استكنت في الذاكرة التاريخية الحديثة والمعاصرة مسلمات لا

يتطرق إليها الشك أو قل لم تُثر حولها تساؤلات. وفي حقيقة أمرها أخذ بمقولة كاتب إسلامي قديم منبثقة من منظوره المعلن أو الغير معلن والذي لم نحفل باستنباطه، أو أنها نتيجة تداول لانطباع راجح عند دارس حديث، أو أنها اتباع نتيجة منطقية لدارس آخر دون محاكمة لمقدمته، فقبلنا نتيجته.

وتثير قراءة البيانات الإحصائية المستخلصة من المعلومات التي يعرضها الهيكل النسبي لطبقات خليفة عدة قضايا حول دور القبيلة في الحياة العلمية في العصر الأموي، سواء اتسع الإطار القبلي ليكون عدنانيا قحطانيا، أو ضاق شيئا ما واتخذ مضمونا اجتماعيا علاوة على النسب، مثل الأنصار ومهاجرة قريش، أو ضاق جدا فتناول مفردات التجمع القبلي قبيلة قبيلة. كما أن البيانات نفسها تثير أيضا قضايا أخرى متصلة بالقبيلة، سيما الأحلاف والولاء، أو متصلة بالهجرة من المدينة وإليها، وتأثير كل ذلك في التركيبة الاجتماعية والمسألة السياسية في عصر الدراسة.

ولهذا لعل من الأنسب معالجة هذه الموضوعات من خلال محاور أربعة؛ عدد التابعين وطبقاتهم، وتوزعهم فئويا وقبليا، ومسألة الحلفاء ودلالاتها، وقضية الولاء وأبعادها. وجاء البحث في كل هذا من خلال منظور خليفة وحده فجاءت الصورة المستخرجة بصرية بعيون خليفة، فلا بد من معرفة مدى أثر ذلك على معلوماته وطريقة عرضها.

عدد التابعين وطبقاتهم

لقد بلغ العدد الكلي في قسمي الصحابة عامة والتابعين من أهل المدينة ١٢٩٦ شخصا، وذلك بعد استبعاد الأسماء المكررة أو التي لا رواية حديثية لها. ومن هذا العدد ٧٨٠ صحابيا، ونسبتهم ٦٠,١٩٪، و٥١٦ تابعيا نسبتهم ٣٩,٨١٪، وعلى هذا فإن عدد الصحابة يساوي مرة ونصف عدد التابعين. وهذا الانخفاض الكبير في عدد التابعين لا يعني، ضرورة، أن الرواية قد ضعفت في عصر التابعين، ولا أن أهل المدينة هاجروا منها بذات النسبة، أي ٢ : ٣؛ وذلك لسببين:

أولا: لقد جاءت رواية الصحابة للحديث وحده هي أساس تصنيفه، وفيهم من روى حديثا واحدا، وقد لا يكون عالما، وفيهم من رأى النبي ﷺ ولم يقم في المدينة؛ بينما في التابعين ظهر تخصص في العلم، يتسع مداه تدريجيا، ثم ينحصر في أهل الذكر في ذلك العلم، ولهذا يقل الكم ويعلو الكيف شيئا فشيئا. ويبدو أن خليفة لاحظ هذا فوضع شرطه في الصحابة رواية الحديث، وأما في التابعين فهو الحديث والفقه، وجعل ذلك في عنوان طبقات التابعين من أهل المدينة، فوسمه "تسمية الفقهاء والمحدثين".[٧٠]

ثانيا: إن كثيرا من الصحابة تفرقوا في الأمصار بعد حركة الفتوح، سيما بعد أن فتح عثمان بن عفان لهم الباب مشرعا... وقد يسعف النظر في اتجاهات هجرة من أدرك الدولة الأموية من الصحابة عند خليفة في توضيح تيارات تلك الهجرة بين من ذكر من الصحابة من أهل الرواية الحديثية.

وإذا استصحب المرء الاستنتاجات السابقة عمن أدرك الدولة الأموية وظل مقيما في المدينة.[٧١] ونظر في توزيع عددهم فئويا وفقا لما في ملحق III وهو ملخص إحصاءات الصحابة يحصل على الجدول رقم (٢).

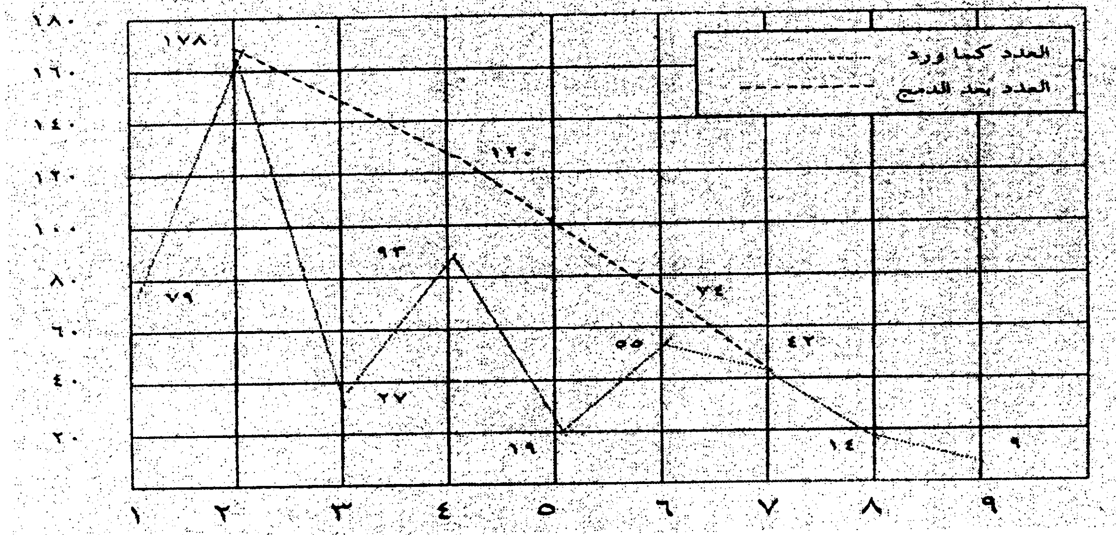
الجدول رقم (٢). التوزيع الفئوي لمن أدرك الدولة الأموية من الصحابة.

الشريحة / الفئة	قريش	بقية عدنان	الأنصار	بقية اليمن	المجموع
عدد من بقي	١٧	٧	١٧	٨	٤٩
عدد من خرج	١٨	١٧	٧	١٥	٥٧
المجموع	٣٥	٢٤	٢٤	٢٣	١٠٦

يتضح من الجدول رقم (٢) أن قريشا والأنصار من أهل الرواية عند خليفة أكثر بقاء في المدينة من سائر بقية القبائل العدنانية واليمانية، وذلك بنسبة ٦٩,٣٩٪ إلى ٣٠,٦١٪. ولكن الهجرة عن المدينة لا تطرد بالنسب ذاتها في المجموعتين. فنسبة قريش والأنصار بين العدد الكلي الذي خرج عن المدينة ٤٣,٨٦٪، ونسبة بقية القبائل ٥٦,٨٦٪. وترجع هذه الظاهرة إلى أن الأنصار منهم كانوا أكثر ميلا إلى البقاء في المدينة، فمن بقي منهم يمثلون ٧٠,٨٣٪ من عدد الأنصار الكلي في هذه الشريحة، بينما يمثل عدد قريش ٤٨,٥٧٪ من عدد شريحتهم، وهذه نتيجة تخالف كل النتائج التي سترد فيما بعد، ولا بد من وقفه معها في الخاتمة.

ويلاحظ المرء إذا ما نظر في ملحق III لملخص إحصاءات الصحابة أن توجه العدنانية نحو البصرة واضح، وتفضيل اليمانية للكوفة ظاهر. فمن توجهوا إلى البصرة من العدنانية ضعف من توجهوا منهم إلى الكوفة، ومن توجهوا إلى الكوفة من اليمانية أربعة أمثال من توجهوا إلى البصرة. ولا غرابة في غلبة العدنانية على البصرة، فالمصادر تؤكد ذلك، وتكفي الإشارة إلى أن أخماس البصرة في تقسيم زياد ابن أبي سفيان هي: العالية (أهل الحجاز) وبكر وتميم وعبدالقيس ثم الأزد.[٧٢] ألا يعني هذا أن الرواية الحديثية البصرية عن طريق خليفة هي رواية عدنانية بصورة غالبة!؟

ويبدو أن عامل التخصص الذي يتسع مع الزمن كان له تأثير غير يسير في تناقص العدد كلما تقدم الزمن. ومن المفيد في هذه الحالة فحص أعداد التابعين في المدينة موزعة على طبقاتهم. ويمكن تلخيص الجدول رقم (٤) الملحق بهذه الدراسة في الرسم البياني رقم (١).



الرسم البياني رقم (١). عدد التابعين من أهل المدينة موزعة على طبقاتهم عند خليفة.

يصور الرسم البياني رقم (١) انكسارين حادين غير مبررين في وصف الحياة العلمية، وذلك في الطبقتين الثالثة والخامسة... وهذه الظاهرة خير دليل على خطأ مرتكز خليفة في تقسيم طبقات تابعي المدينة، وهو الرواية دون استخدام محدد آخر هام معها، وهو سنة الوفاة، فتداخلت الطبقات من حيث الزمن تداخلا شديدا، وسبق التنبيه على ذلك... فما تفسير ظاهرة الانكسارين الحادين؟

لقد تشكل رجال الطبقة الأولى من صغار الصحابة وكبار أبناء كبار الصحابة، ففيها الحسن والحسين ابنا علي، وعبدالله بن الزبير، ومروان بن الحكم... إلخ. وذكر في الطبقة الثانية صغار أبناء كبار الصحابة، مثل أبان بن عثمان، وعروة بن الزبير، وحفدة أبناء الصحابة عن طريق كبارهم. أما الطبقة الثالثة فأورد فيها حفدة الصحابة وأبناء حفدتهم على النسق السابق. ولا تختلف الرابعة عنها في شيء... مما يجعلهما وكأنهما طبقة واحدة... فإذا صح هذا تتصل طبقة الزهري، الذي أورده في الرابعة، بطبقة عروة الذي في الثانية، ويكون فيها شبيه سلسلة الذهب.

وعلاوة على هذا فربما كان للتخصص دور في انخفاض العدد في طبقات التابعين، ذلك أنه بدأ يتخذ مساره ابتداء من الطبقة الثانية، فطبقة عروة هي طبقة فقهاء المدينة السبعة؛ عبيدالله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود، وعروة ابن الزبير، والقاسم بن محمد بن أبي بكر، وسعيد بن المسيب، وسليمان بن يسار، وخارجة بن زيد بن ثابت، وسالم بن عبدالله بن عمر، وبعضهم يضع بدله أبابكر بن عبدالرحمن بن الحارث المخزومي. وهكذا تشكلت منهم مدرسة[٧٣] ظهرت فيها تخصصات أكثر وأوضح مع تلاميذهم مثل الزهري (ت ١٢٤هـ) في الحديث والمغازي

والقارئ يزيد بن القعقاع (ت ١٣٢هـ) في القراءات. ولهذا من الجائز جمع رجال الطبقتين فيغدو العدد المجموع ١٢٠ تابعيا، ومن ثم يختفي الانكسار الحاد المشار إليه.

وهذا الرأي ليس بلين، فله ما يعضده من أن الكتاب كان مسودة لم تنقح... وهذا واضح بيِّن في عناوين بعض هذه الطبقات؛ منها قوله: "الخامسة وهو قريب من الرابعة"،[٧٤] وقوله: "السادسة وهم قريب من الخامسة."[٧٥] وهناك ما يشير إلى أنه ربما لم يستقر نهائيا على تقسيمات طبقاته، مثل قوله عن صديق بن موسى الزبيري: "يلحق في الطبقة الخامسة."[٧٦] وهنا يجوز أيضا جمع الطبقتين الخامسة والسادسة معا في طبقة واحدة، ويصبح عددها ٧٤، وأيضا يختفي الانكسار الحاد الآخر... وبهذا يصبح عدد طبقاته سبعا تماما كالذي عند ابن سعد مع اختلاف في مرتكزات المخطط الداخلي عند كليهما.

إن هذه الاستنتاجات تجعل الخط البياني أكثر وضوحا، فيبدأ متصاعدا في الطبقة الأولى، ويصل ذروته في الثانية، ثم ينحدر بعد ذلك شيئا فشيئا حتى يصبح الانحدار شديدا في الطبقتين الثامنة والتاسعة... اللتين تتراوح سني وفيات جلّ رجالهما بين ١٦٣هـ و١٩٩هـ. فتكون غالبيتهم العظمى خارج نطاق هذه الدراسة، ولئن عاشوا ردحا من بداية حياتهم في العصر الأموي فلم يبرزوا فيه كعلماء يؤخذ عنهم بعد، وذلك باستثناء عدد قليل جدا، مثل مالك بن أنس الذي عده من رجال الثامنة، فقد توفي سنة ١٧٩هـ ولكنه ولد عام ٩٣هـ أو ٩٧هـ. ويلاحظ أن متوسط رجال كل واحدة منهما دون المتوسط لسائر الطبقات بصورة كبيرة جدا ليس لها مثيل في سائر بقية الطبقات، والمتوسط هو ٦١ تابعيا، بينما في الطبقتين الأخيرتين ١٤ و٩ على التوالي.

وربما تشير الزيادة الكبرى في الثانية عن الأولى إلى ازدهار المدينة حديثيا وفقهيا، وما يتعلق بذلك من علوم... ولكن هذا العدد الكبير قد لا يشير إلى ازدهار كمي فحسب، وإنما نوعي أيضا، ذلك لأنه بعد وقعة الحرة والقضاء على حركة ابن الزبير ربما توجه صغار أبناء كبار الصحابة وأحفادهم من كبارهم إلى التبريز في العلم، وهذا الرأي سيتضح بصورة أكبر في تناول توزع التابعين فئويا وقبليا.

توزيعهم فئويا وقبليا

من المفيد في المبتدأ توضيح صورة الرواية الحديثية في قسم الصحابة في فئاتهم الأربع (قريش، بقية عدنان، الأنصار، بقية اليمن) وتصنيفاتهم الاجتماعية القبلية (صليبة، حلفاء، موال) حتى تتبين مواقع الفئات والقبائل في تلك الرواية، ولتظهر الاستمرارية أو يستبين الانقطاع فيها في طبقات التابعين من أهل المدينة.

يتبين من جداول ملحق رقم III المستخلص من إحصاءات الصحابة الواردة في الطبقات أن العدد الكلي ٧٨٠ صحابيا، منهم ١٥١ قرشيا ونسبتهم ١٩,٢٦٪، و١٥٢ أنصاريا ونسبتهم ١٩,٤٩٪ فأعداد الفئتين متساوية، بيد أن عدد العدنانيين الكلي ومقارنته بمثيله اليماني تكشف عن مفارقة عظيمة؛ فالأول- بما فيه قريش- ٤٣٦ صحابيا ونسبته ٥٥,٩٪، والثاني- بما فيه الأنصار- ٣٤٤ صحابيا، ونسبته ٤٤,١٪. وبما أن أعداد قريش والأنصار

متساوية، بل تكاد أن تتساوى، فإن هذه المفارقة تدعو إلى القول بأن حظ الرواية اليمانية الحديثية، من غير الأنصار، عند البصريين ضعيف نسبيا. ووجود الرواية العدنانية، من غير قريش، قوي نسبيا. فقد بلغ عدد رواتهم ٢٨٥ صحابيا، نسبتهم ٣٦,٥٣٪ من عدد الصحابة الكلي؛ بينما جاء عدد بقية اليمن ١٩٢ صحابيا، ونسبتهم ٢٤,٦٢٪، أي إن العدنانية تساوي مرة ونصف اليمانية.

ويلاحظ في هذا التقسيم الفئوي ثلاث ظواهر هامة:

١- هيمنة القبائل من غير المهاجرين والأنصار على هذه الرواية رقميا، فعددهم ٤٧٧ صحابيا، ونسبتهم من عدد الصحابة الكلي ٦١,١٥٪.

٢- طغيان الصليبة على الرواية، فعددهم ٧٢١ صحابيا بينما عدد الحلفاء والموالي جميعا ٥١ صحابيا فقط؛ أي أن نسبة الصليبة قد بلغت ٩٢,٤٤٪.

٣- تفاوت قوة القبائل رقميا في هذه الرواية، بغض النظر عن مراكز فئاتها وهذه مسألة جوهرية تستوجب وقفة متأنية.

فإذا نظرت في الملحق رقم I تجد أن خليفة قد وزع الرواة من الصحابة على ١٤٦ مفردة. وتثير المفردة المستخدمة عنده مشكلة إحصائية شائكة، فهو غالبا ما يجعل المفردة هي القبيلة، لكن في أحيان كثيرة يستخدم البطن أو العشيرة. فتوزعت روايات قريش على ١٥ مفردة، والأوس مثلها، والخزرج على إحدى عشرة مفردة، وتميم على عشرين مفردة. ويبدو أن هذه من المسائل التي لم ينته فيها خليفة إلى رأي واضح، حتى إنك لتجده يفتت عبد شمس إلى ثلاث أسر في قسم الصحابة مع الصليبة، ثم يعود ويجعلهم جميعا مفردة واحدة في الحلفاء والموالي والنساء من الصحابة وسائر طبقات التابعين.

لقد أثر تفتيت بعض القبائل إلى مفردات كثيرة على المقياس الذي يمكن اتخاذه لمعرفة قوة القبيلة في هذه الرواية الحديثية في قسم الصحابة، ذلك لأن الرواة توزعوا على مفردات كثيرة، مما جعل المتوسط Medium، وهو ٥٥ صحابيا، لا ينطبق على أي قبيلة فيمن ذكر في الملحق كله... وكذلك الوسط Mean، وهو ثلاثة رواة، لا يمكن الارتكان إليه وإلاّ لأصبحت ٧٦ مفردة كلها أكثر بروزا وقوة، وهي مغالطة منطقية.

لهذا نظرت إلى ثلاثة محددات أخرى؛ الأول مبنى على أن الرواية الحديثية بين الصحابة اعتمدت على القرب من النبي ﷺ مكانيا واجتماعيا وزمانيا، وهذا ينطبق على الأنصار وقريش. الثاني لا تكون الفئة قد فتتها خليفة إلى مفردات كثيرة، وهذا المحدد يتوافق مع قريش أكثر من الأنصار. الثالث اتخاذ الوسط Mean من بين الأرقام الأكثر ورودا مع المفردات وهو ١٢ صحابيا راويا وهذا أقرب إلى متوسط مفردات قريش الذي هو عشرة، بينما متوسط مفردات الأنصار ستة. وعلى هذه فمن المناسب اتخاذ "الوسط" من الأرقام التي ترددت كثيرا، وهو ١٢ صحابيا، وبناء عليه أمكن استخراج جدول رقم (٣) من ملحق رقم I:

الجدول رقم (٣). قبائل الصحابة الأكثر عددا من الرواة.

القبيلة	قريش						بقية عدنان						الأنصار		بقية اليمن		
الشريحة	بنو هاشم	عبد شمس	بنو زهرة	بنو تيم	بنو مخزوم	بنو عدي	بنو ليث	بنو غفار	مزينة	أشجع	بنو سليم	ثقيف	بنو النجار	بنو سلمة	خزاعة	أسلم	جهينة
الصلبية	١١	١٣	٩	٨	١٣	٨	١٦	٢٠	١٨	١٥	١٤	٢١	٢٩	١٤	١٦	٢٦	٢٤
الحلفاء	٥	٤	١	٠	١	٤	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠
الموالي	٢٠	٢	٣	٥	١	٠	١	١	٠	٠	٠	٠	١	٠	٠	١	٠
العدد الكلي	٣٦	١٩	١٣	١٣	١٥	١٢	١٧	٢١	١٨	١٥	١٤	٢١	٣٠	١٤	١٦	٢٧	٢٤

ومما يلفت النظر في هذا الجدول تأثير تفتيت استخدام خليفة لمفردات القبيلة في هيكل مخططه ومن ثم توزيع الرواة عليه، فاختفت من الجدول قبائل لها عدد كبير من الرواة. فرواة الأوس ٤٧ ولكنهم وزعوا على ١٥ مفردا، ولتميم ٣٦ راويا، توزعوا على عشرين مفردة، فجاء العدد للمفردة يتراوح بين واحد، وهو الغالب الأعظم، وخمسة، وهو النادر جدا. وقل مثل ذلك عن كندة التي لها ١٤ راويا قسموا على مفردتين.

كما أن استخدام "الوسط" بالمحددات المذكورة أبعد عددا من القبائل التي لها ثقل مقدر، مثل بني أسد وبني ثعلبة الخزرجيين وكندة (بما فيها تجيب)، ولكل واحد تسعة رواة، وبجيلة، ولها ثمانية. ولا يعني هذا أن ذلك "الوسط" غير دقيق. فالمفردات التي ظهرت في الجدول ١٥ فقط من ١٤٦ مفردة، ولكن مجموع رواتها ٣٢٥ يمثلون ٤١,٦٦٪ من مجموع الصحابة الكلي. وهو يؤكد عدة ظواهر سبقت عن الرواية الحديثية البصرية في قسم الصحابة:

أولا: رواة فئتي بقية عدنان وبقية اليمن أكثر من قريش والأنصار، فرواة المجموعة الأولى ١٧٣ بنسبة ٣,٢٣٪ ورواة المجموعة الثانية ١٥٢ بنسبة ٤٧,٧٧٪.

ثانيا: يرجع التقارب في النسبتين إلى ثقل وزن الرواية العدنانية في كل مجموعة. إن بقية عدنان في المجموعة الأولى نسبتها ٦١,٢٧٪ واليمانية منها ٣٨,٧٣٪. ونسبة قريش في المجموعة الثانية ٧١,٠٥٪ والأنصار ٢٨,٩٥٪. ولهذا لا يستغرب أن يكون أكثر من ثلثي القبائل ذات الوزن المقدر في هذه الرواية الحديثية من عدنان... فيها ستة من قريش، هم بنو هاشم وعبدشمس وزهرة وتيم ومخزوم وعدي... ستة من بقية عدنان، هم ليث وغفار ومزينة وأشجع وسليم وثقيف.. واللافت أن ثقلهم شبيه بثقل القرشية.

ثالثا: يلفت النظر أن الأنصار الذين قارب عددهم عدد قريش في رواة الصحابة لم تظهر لهم قبائل ذات وزن ثقيل في الرواية كما حدث مع قريش... بل لم تظهر من الأوس قبيلة، ولا حتى بني عبدالأشهل. وقد برزت فقط قبيلتان من الخزرج، هما بنو النجار وبنو سلمة. أما بقية القبائل اليمانية، فمع ما لوحظ من قبل عن ضعف

الرواية بينها إلاّ أن ثلاثا منها تظهر بصورة جلية، وهي خزاعة وأسلم وجهينة... بل إن بروز بني النجار وأسلم وجهينة، يفوق ما لقبائل قريش باستثناء بني هاشم.

وربما ساعدت هذه الملحوظة في تفسير دور أسلم وجهينة في المدينة في عصر الصحابة، ويقرن بهما غفار ومزينة وأشجع. وهناك حديث صحيح يشير إلى ذلك. فقد روى أن النبي ﷺ قال: "أرأيتم إن كان جهينة ومزينة وأسلم وغفار خيرا من بني تميم وبني أسد ومن بني عبدالله بن غطفان ومن بني عامر ابن صعصعة؟ "... إلى تتمة الحديث.(٧٧) وفي حديث صحيح آخر روى أنه ﷺ قال: "قريش والأنصار وجهينة ومزينة وأسلم وغفار موالي ليس لهم مولى دون الله ورسوله".(٧٨)

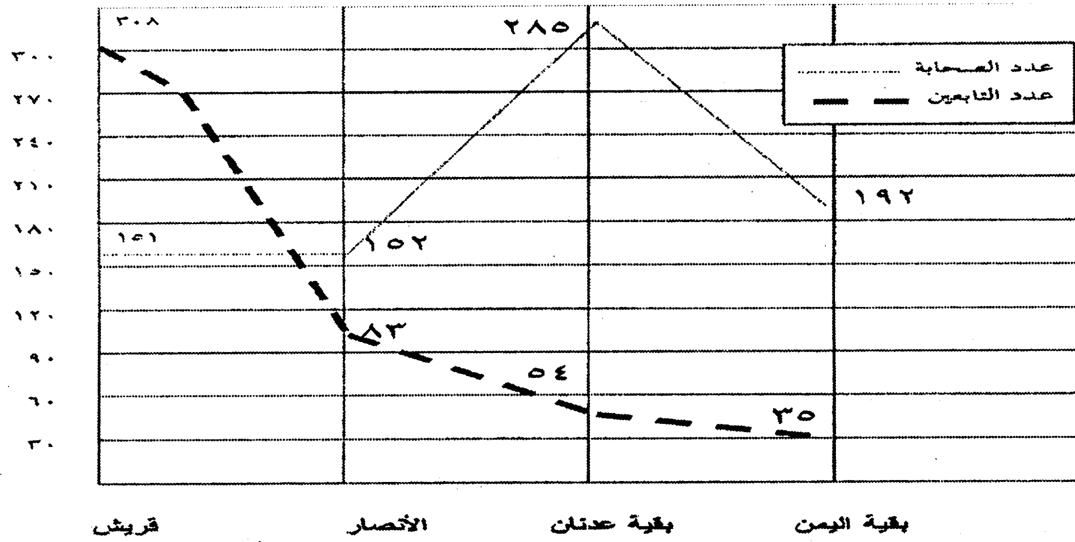
وتلفت هذه الملحوظات عن الرواية اليمانية النظر إلى مسألة تأثير المكان الذي يفوق تأثير الرابطة القبلية، كما تدعو إلى الربط بينها وبين ما لوحظ في قسم النساء الصحابيات من وجود أكبر لليمن عامة، بما فيهم الأنصار، مقارنة بما لعدنان عامة بما فيهم قريش. فالمجموعة الأولى فيها ٦٣ صحابية، وفي المجموعة الثانية ٥٦ فقط، أي بنسبة ٥٢,٩٤٪ و٤٧,٠٦٪ على التوالي، بل إن عدد بقية اليمن يقارب ما لقريش ويفوق ما لبقية عدنان، ونسبة كل من العدد الكلي للصحابيات ٢٧,٧٣٪ و٢٩,٤١٪ و١٧,٦٥٪. وهذا الأمر يدعو إلى دراسة تلاحم الجماعات في المكان الواحد وتمتين تمازجها بالمصاهرات... وهذا أمر مجهول وغير مبحوث.

رابعا: من الواضح أيضا هيمنة الصليبة على هذه الرواية الحديثية في عصر الصحابة بين القبائل ذات الثقل. لقد بلغ عدد الحلفاء والموالي معا خمسين صحابيا، وهكذا يمثل الصليبة ٨٤,٦١٪، وتصعد هذه النسبة إلى ٩٨,١٦٪ عند الفئات الثلاث غير قريش فتصبح هيمنة الصليبة طاغية عند بقية عدنان وبقية اليمن والأنصار.

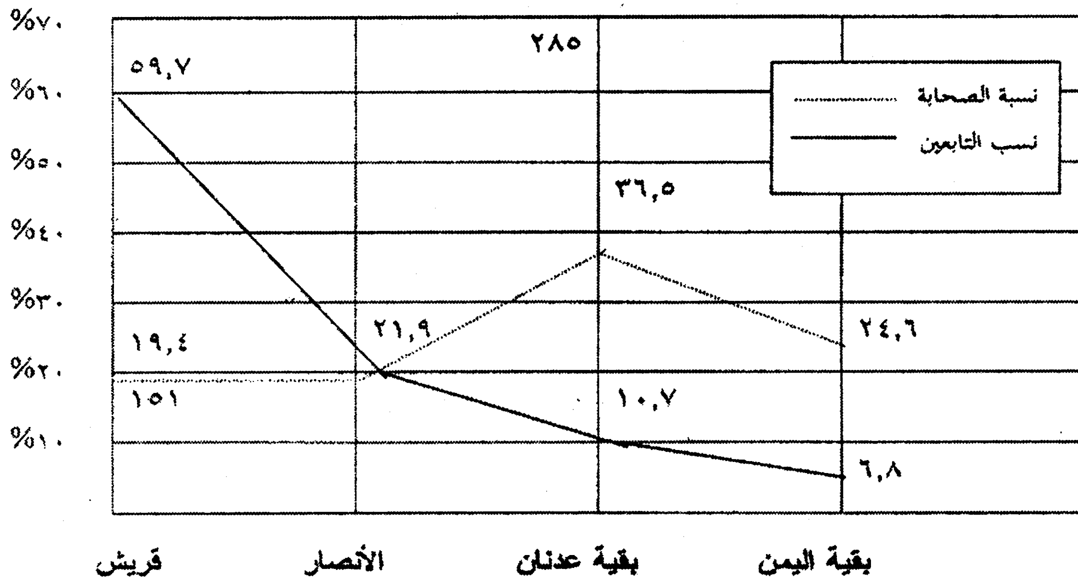
والسؤال الآن إلى أي مدى تأثرت هذه الخارطة للرواية الحديثية في المدينة بعد جيل الصحابة؟

إن عدد التابعين من أهل المدينة عند خليفة بلغ ٥١٦ تابعيا بما في ذلك تسعة هم رجال الطبقة التاسعة. وخمسة لم ينسبوا مطلقا. وأما توزيعهم على الفئات فتجد ٣٠٨ قرشيين ونسبتهم ٥٩,٦٩٪ من عدد التابعين الكلي، و٥٥ عدنانيا سوى قريش ونسبتهم ١٠,٦٦٪، و١١٣ أنصاريا ونسبتهم ٢١,٩٠٪، و٣٥ يمانيا سوى الأنصار ونسبتهم ٦,٧٨٪، وخمسة لم ينسبوا مطلقا ونسبتهم ٠,٩٧٪.

لقد حدثت تغيرات جذرية في الأعداد في عصر التابعين موزعة حسب الفئات الأربع عما كان عليه الحال في عصر الصحابة، ولعل المقارنة بين القسمين توضح ذلك أبلغ توضيح، وهذا ما يصوره الرسمان البيانيان ذوا الرقمين (٢ و٣).



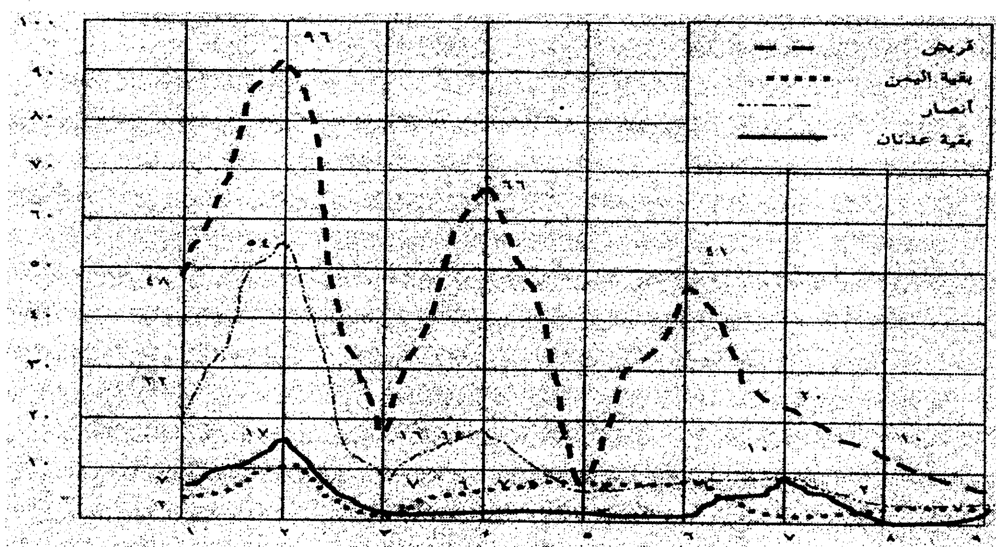
الرسم البياني رقم (٢). أعداد الصحابة والتابعين حسب فئاهم.



الرسم البياني رقم (٣). نسب الصحابة والتابعين حسب فئاهم.

يلاحظ الزيادة الكبرى في أعداد قريش في قسم التابعين ، وتصل إلى ضعفين ما كان عليه الحال في قسم الصحابة ، بينما نقصت أعداد الأنصار كثيرا ويبلغ النقص صورة مريعة مع بقية عدنان وبقية اليمن. أما من حيث النسب ، فقد زادت نسبة قريش ثلاثة أضعاف مقارنة بحالها في قسم الصحابة بحيث يجوز القول بأن الرواية في المدينة أصبحت قرشية. وهذا لا يستغرب نتيجة لما حدث في الفئات الأخرى ، فقد تدنت نسبة عدنان سوى قريش إلى درجة منخفضة جدا بعد أن كانت أعلى النسب ، وكذلك حال اليمن سوى الأنصار. أما الأنصار ، فعلى الرغم من أن النسبة قد زادت قليلا إلاّ أن نسبة القرشية تعادلها ثلاثة مرات. ومن هذا يتضح أن الرواية البصرية بعيون خليفة هيمنت عليها قريش في زمن التخصص ، عندما أصبحت الرواية عن أهل الذكر ، ولم يعد الكم مقياسا. فهل تصور طبقات التابعين وأسر أهل الرواية الهيمنة القرشية ذاتها؟

من الممكن استخراج صورة دقيقة للفئات موزعة على الطبقات استنادا لملخص جداول طبقات الفقهاء والمحدثين من أهل المدينة والمبينة في ملحق رقم IV في الرسم البياني رقم (٤).



الرسم البياني رقم (٤). فئات التابعين موزعة على الطبقات.

وواضح من الرسم البياني رقم (٤) سيطرة قريش سيطرة كاملة ، تبلغ الهيمنة على الرواية في كافة الطبقات ، واضح ذلك حتى فيما أطلقنا عليه فترتي الانكسار الحادثين ، فإذا ما دمجت الطبقتان الثالثة والرابعة والطبقتان الخامسة والسادسة تصبح نسبة قريش من مجموع كل طبقة I : ٦١٪ ، II : ٥١٪ ، IV+III : ٦٨٪ ، VI+V : ٦٦٪ ، VII : ٤٨٪ ، IIIV : ٧١٪ ، IX : ٣٣٪. وليس ذلك فحسب ، بل إن بقية الفئات لا تظهر ظهورا ضعيفا في سائر الطبقات فحسب ، وإنما أيضا لا تظهر في بعض الطبقات مطلقا ، مثل بقية عدنان في الثامنة ، والأنصار في التاسعة ،

وبقية اليمن في الثالثة. ولعل الاستثناء الوحيد لهذا الإطلاق هو دور الأنصار في الطبقة الثانية، وهي طبقة مؤثرة علميا تأثيرا بالغا. فربما دل هذا على أن الوجود الفعلي للأنصار أو على الأقل بعض هذا الوجود امتد إلى موقعة قديد. ولا ريب أن هذه كلها مؤشرات على التدني الكبير في روايات سائر القبائل في المدينة باستثناء قريش... فما الحال في دور الأسر في الرواية الحديثية والفقه؟

لا يخطئ البصر في نظرة متعجلة في التعليقات عن الصليبية في جداول التابعين عن ملاحظة ثلاث ظواهر بارزة عامة، ويضيف إليها نظر المتأمل ظاهرتين أخريين، يبدو أنهما هامتان جدا لأنهما عن الأسر ذات التقليد المتصل في الرواية والعلم. أما الظواهر الثلاث العامة فهي:

أولا: الغياب الكامل لفئتي بقية عدنان وبقية اليمن في الأسر ذات التقليد المتصل في الرواية والعلم. ولا يظهر فيهما عالم بارز مؤثر إلاّ في الطبقة الثامنة مع مالك بن أنس الأصبحي. وهذه ظاهرة هامة، ليس لأنها تشير إلى الهيمنة القرشية الرقمية فحسب، وإنما أيضا الهيمنة النوعية.

ثانيا: الانقطاع الذي وقع ابتداء من الطبقة الثامنة، فلا يستمر وجود ظاهر للأسر ذات التقليد المتصل إلاّ مع آل عبدالرحمن بن عوف من الزهريين وآل المنكدر التيميين من قريش، مما يؤكد أن الحياة العلمية في المدينة قد اعتراها نوع من الضمور.

ثالثا: لا وجود لتلك الأسر في طبقة خليفة الخامسة في سائر الفئات، مما يؤكد أن الخامسة والسادسة تمثلان طبقة واحدة. وهنا ينبغي الإشارة إلى أن الثالثة أيضا متداخلة بقدر كبير مع الرابعة، الأمر الذي يوحي بأنهما أيضا طبقة واحدة. وهذه الملاحظة تؤكد ما سبق ذكره في غير موضع من أن خليفة لم يضع كتابه بصورة نهائية.

أما الظاهرتان الأخيرتان اللتان تتعلقان بالأسر ذات التقليد المتصل في الرواية والعلم بين الأنصار والقرشيين فهما:

الأولى: هناك وجود لأسر الأنصار الخزرجيين من بني النجار ولكنه ضعيف جدا مقارنة بأسر قريش. ويلاحظ أيضا وجود بني عوف من الأوس، ولكنه بصورة أقل من بني النجار... هذا بينما تبرز أعداد غير قليلة من الأنصار عامة في الطبقتين الأولى والثانية، ولا يتصل هذا في بقية الطبقات إلى السابعة إلاّ مع آل محمد بن عمرو بن حزم من بني النجار، ثم إلى الطبقة الرابعة مع آل ثابت النجاريين عن طريق قيس وزيد وحسان جميعا. ويشبه آل رافع بن خديج العوفيين الأوسيين آل ثابت في الاستمرار ثم الانقطاع.

الثانية: الوجود الكثيف للأسر القرشية ذات التقليد المتصل في الرواية والعلم... وإنك لتجده علويا عباسيا في بني هاشم، ثم يصبح علويا ابتداء من الرابعة إلى السابعة، وهو عثماني في بني أمية. أما في بني أسد بن عبدالعزى، فهو زبيري عبدلي في الأولى، ثم عبدلي عروي من الثانية، مع غلبة عروية في السادسة حيث انتهاؤه، وهو عوفي في بني زهرة من مبتدئه إلى منتهاه. أما مع بني تيم، فهو بكري إلى السابعة، وطلحي إلى النهاية مع بروز آل المنكدر من السادسة. ويبرز آل عبدالرحمن بن الحارث في بني مخزوم بصورة واضحة إلى السادسة، وفي بني عدي عمري عبدلي من البداية، ثم عبدلي عاصمي من الثانية إلى السابعة. وتثير هذه الاستنتاجات عدة مسائل:

١- جاءت الأسر ذات التقليد المتصل في الرواية والعلم من بين قبائل قريش التي برزت في قسم الصحابة، وهي بنو هاشم، وبنو أمية، وبنو زهرة، وبنو تيم، وبنو مخزوم، وبنو عدي، والتي تأكد هيمنتها على الرواية في المدينة في عصر الصحابة، وذلك باستثناء بني أسد بن عبدالعزى. وهذا الاستثناء يفتح المجال لارتباط ازدهار العلم عند هذه الأسر وموقفهم المعارض للأمويين.

٢- يلمح الدارس في الأسر وزمان بروزها شيئا من ارتباط ذلك بالمعارضة القرشية السياسية، وانصراف أكثر أسر قادة حركة تلك المعارضة بعد فشلها إلى الحياة العلمية أو أن بعضهم من البداية آثر البعد، وكأنهم جميعا اتخذوا العلم دثارا لمعارضة صامتة. ودون الخوض في الانقطاع العباسي بعد الرابعة الذي قد يعني تحول هذا الرافد إلى مكة، أليس ذلك واضحا في بني أمية حيث الأخذ عن مروان في الطبقة الأولى، ثم لا يتصل ذلك ليصبح تقليدا في أسرة أموية إلاّ مع آل عثمان، والمعروف أن البصرة في الفتنة الكبرى كانت عثمانية وإليها توجه الزبير وطلحة وعائشة، وتحاماها العباسيون في بداية ثورتهم. فلا غرو إن أخذ أهل البصرة عن العثمانيين وتحاشوا بقية الأمويين. أليس ذلك التلازم بين ازدهار العلم والمعارضة الصامتة واضحا في العمريين الذين شاحوا بوجوههم عن السياسة واعتزلوها!؟ وقل مثل هذا في بني عوف الزهريين. وكيف يفسر تأصيل التقليد المتصل في الرواية عند الزبيريين والطلحيين التيميين دون ربطه بمحاولة أسرتيهما أو محاولاتهم السياسية المجهضة!؟

وهل جاءت بداية الطبقة الثانية، وهي الطبقة الأكبر حجما وأكثر أثرا في تشكيل مدرسة المدينة، في سنة ٦٥هـ ونهايتها في سنة ١٢٦هـ مصادفة؟ ألاّ يرمز التاريخان لشيء ذي دلالة، فالأول بعيد موقعه الحرة التي أزعم أنه بعدها، ثم بعد نهاية حركة ابن الزبير، جرى التوجه الغالب عند أسر أولئك المغلوبين نحو العلم.... أما التاريخ الثاني فقد كان قبل وقعة قديد (١٣٠هـ) التي أزعم أنها تمثل بداية فصول النهاية ويقول الطبري عنها وكانت المقتلة بقريش، وفيهم كانت الشوكة [٧٩] وهذه جوانب تحتاج إلى مزيد من الدراسة والتقصي.

وهذا لا يعني أن هذا هو العامل الوحيد، وإنما جرى التنبيه عليه لأنه شكل المناخ الذي فعلت فيه بقية العوامل فعلها. وإذا صدق هذا الاستنتاج ربما يكون المرء قد وضع يده على جذور انفصال الفقه عن الحكم، وتخلف الفكر عن العمل. وهذه إشكالية كبرى في الفكر الإسلامي والحضارة الإسلامية تستحق الدراسة المعمقة.

٣- ربما يقال إن التقليد المتصل في الرواية والعلم يرجع إلى ظهور علماء بارزين في تلك الأسر. والسؤال لماذا يظهر في تلك الأسر دون غيرها؟ وعلاوة على ما سبق ذكره ينبغي الإشارة إلى حقيقة هامة لها دور كبير في تشكيل الظاهرة موضوع البحث، ألا وهي أن هذه الأسر ينحدر أغلبها من العشرة المبشرين بالجنة، وتكفي الإشارة إلى ما يمثله هذا من رصيد روحي، ولكن أيضا هؤلاء هم أبناء كبار الصحابة الذين كانت لهم بعد الفتوحات، أموال ممدودة. كانت إحدى عوامل اشتعال الفتنة الأولى. ولولا هذه القاعدة الاقتصادية هل كان من الممكن للعلماء من تلك الأسر التفرغ للعلم والاستقلال عن السلطان؟ ولعل هذه الملاحظة من أهم ما وثقه الأسلوب الإحصائي من طبقات خليفة عن الحياة العلمية في المدينة.

٤- إن القول بقرشية الحياة العلمية يقود إلى إعادة النظر فيما هو معروف عن الحياة السياسية من ثنائيات سبقت الإشارة إليها، خاصة إذا ما استصحبت ذلك دراسة أخرى عن الحياة الاقتصادية والكشف عن التيارات الموجهة لها، لا وصفها وصفا وإن لبس ثوب العلمية.

٥- وأخيرا، إن القول بقرشية تلك الحياة العلمية لا يستقر إلاّ بالنظر في قضيتي الحلف والولاء.

مسألة الحلفاء ودلالاتها

إذا نظرت في الجدول رقم (٣) مشفوعا بملحق رقم III لا تجد حلفاء للقبائل البارزة في أهل الرواية من الصحابة إلاّ للقرشية منها. إن عدد الحلفاء الكلي ٢١ صحابيا، ونسبتهم ٢,٦٩٪ من عدد الصحابة الكلي، وهي نسبة ضعيفة جدا. وهذا العدد على قلته محصور في قريش والأنصار دون سائر القبائل، ولقريش نصيب الأسد منه، فحلفاؤها ١٧ صحابيا، أي بنسبة ٨٠,٩٥٪ من عدد الحلفاء الكلي. والقليل المنسوب إلى الأنصار جاء غالبا أوسيا... وهو نقيض ما اتضح من غلبة الخزرج في الرواية.

ولا تختلف هذه الصورة عما تظهره الإحصاءات لطبقات التابعين، بل تدل على أن ظاهرة الحلف من خلال ما تصوره سلسلة الرواية في الحديث والفقه كأنها إلى زوال، فالمستخلص في ملحق رقمIV ليس فيه أكثر من ثلاثة عشر تابعيا ذكر لهم حلف. وهذه تمثل ٢,٥٢٪ من عدد التابعين الكلي. وأيضا حصة قريش كبيرة، فقد ذكر تسعة لهم حلف في قريش وأربعة للأنصار. وهذا العدد على قلته يؤكد ما لاحظنا من قبل عن الهيمنة القرشية في الرواية الحديثية الفقهية في طبقات التابعين. فنسبة القرشية هنا ٦٩,٢٣٪. وقد ظهر ما يماثلها أو يقل عنها قليلا في أغلب الإحصاءات السابقة.

ولكن اللافت للنظر أن ذكر حلفاء قريش قد جاء في الطبقات الأربع الأولى فقط... مما يدعم القول بالتلاشي التدريجي للحلف كظاهرة، على الأقل من خلال طبقات خليفة في روايته الحديثية الفقهية البصرية. فلو كان الأمر فاشيا لذكره، سيما وأنه من بيئة البصرة التي كان مبدأ نشأتها قبليا. ثم إن أغلب الذين ذكروا مع الأنصار ورد ذكرهم في الطبقتين السادسة والسابعة، بعد أفول نجم الأنصار في الرواية. فهل القول بالحلف هنا إشارة إلى أمر قديم وليس بشيء مستمر؟ إن هذه قضية تلفت النظر في طبقات خليفة، فمثلا يذكر شداد بن الهاد حليفا لبني هاشم، ثم يذكره مع الليثيين دون إشارة إلى الحلف، وعندما ذكر حفيده يزيد بن عبدالله بن أسامة في التابعين قال "من أنفسهم" في موضع، ولم يشر إلى الحلف في موضع آخر، [٨٠] وخليفة نفسه ليثي.

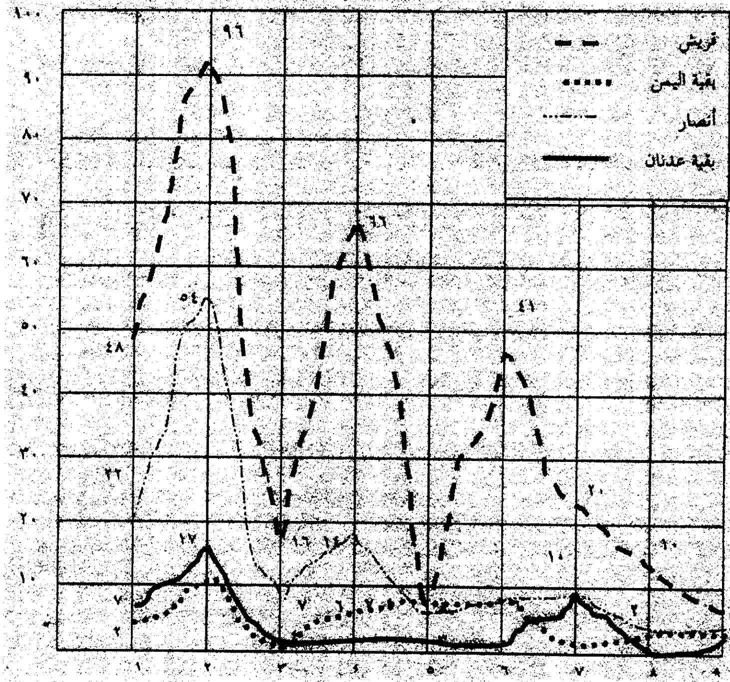
إن مثل هذا الترجيح يفتح مجالا واسعا لدراسات صدر الإسلام الجزئية وإعادة النظر في العوامل الفاعلة فيها على ضوء النتائج المستجدة، وذلك لأن موضوع الأحلاف موضوع شائك يحتاج إلى دراسات معمقة أيضا، ولكن أغلب الظن أن ما تشير إليه إحصاءات الرواية الحديثية ورواية الفقه يفتح بابا هاما في قضايا الأحلاف في صدر الإسلام عامة والعصر الأموي بصفة خاصة.

فربما كان تأثير ديوان العطاء كبيرا في عملية تفكيك ظاهرة الأحلاف في صدر الإسلام ورجوع الناس إلى قبائلهم. وهذا ميدان هام بكر، تفتقر الدراسات المعاصرة إليه. وفي المصادر ما يفيد بأن الناس تقبل بالحلف إن لم يجدوا طريقا ليكونوا صلبية.[٨١] وفي المصادر أيضا ما يشير إلى أن الحلف كان في الجاهلية للتناصر،[٨٢] ومع هذا يبدو أنه كان في الإسلام مستهجنا حتى في بيئة قبلية كالبصرة.[٨٣] وكيف ما كان الأمر فموضوع الأحلاف جدير بأن يعاد النظر فيه، ومن المهم هنا التأكيد بأن معلومات خليفة عنه تدور حول قريش بصورة غالبة أيضا.

قضية الولاء وأبعادها

إن الناظر في ملخص جداول الصحابة في الملحق رقم IV يلاحظ قلة عدد الموالي بينهم، فقد بلغ مجموعهم ٣٨ صحابيا، ٣٢ لقريش وإثنان لبقية عدنان وواحد للأنصار وثلاثة لبقية اليمن، ونسبتهم من عدد الموالي الكلي ٨٤,٢١٪ و٥,٢٦٪ و٢,٦٣٪ و٧,٨٩٪ على التوالي. وأيضا يلاحظ أن غالبيتهم العظمى قرشية، وهذا شيء منتظر لأن حوالي ٣١,٢٥٪ ممن يلحقون بقريش موال للرسول ﷺ. والذين ذكروا في هذا القسم هم أهل الرواية الحديثية، ولا يجمع أهله بين الحديث والفقه كما هو الحال في طبقات التابعين.

أما إذا فحص ملخص جداول التابعين فيمكن استخراج رسم بياني رقم (٥) للموالي موزعين على الفئات والطبقات.



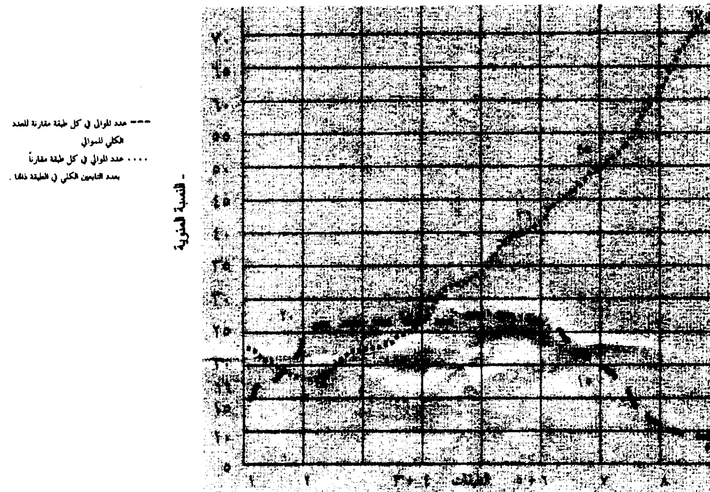
الرسم بياني رقم (٥). الموالي وفئاتهم حسب الطبقات.

يفرز التأمل في هذا الرسم البياني عدة ملحوظات تثير عددا من القضايا والمسائل تشابه إلى حد كبير ما سبق إثارته مع خصوصية في قضية الولاء.

أولا : تظهر الغلبة الظاهرة للقرشية في الولاء، فعدد موالي قريش ٧٨ تابعيا، ونسبتهم ٩١,٩٪ من العدد الكلي للموالي في طبقات التابعين، وفي بقية عدنان ٢٥، ونسبتهم ١٩,٨٤٪، وفي الأنصار ١٠، ونسبتهم ٧,٩٤٪، وفي بقية اليمن ١٣، ونسبتهم ١٠,٣٢٪. والعجيب أن نسبة القرشية تكاد أن تكون هي ذات النسبة التي ظهرت في سائر الإحصاءات.

لكن الشيء الجديد في هذا الرسم البياني هو العدد الكبير نسبيا من الموالي في فئة بقية عدنان. ويحتل هذا العدد المرتبة الثانية بعد قريش، بيد أنه لا يقاربها من حيث النسبة. وهو عدد أكبر مقارنة بمن يلحقون باليمن بمن فيهم من الأنصار. ويلاحظ أن ثلث عدد بقية عدنان قد جاء في الطبقة الثانية، ومثله في السابعة. ووضح من قبل في قراءة لرسم بياني رقم (٢)، أن عدد الصليبية من هذه الفئة قد انخفض في طبقات التابعين انخفاضا كبيرا، ويلاحظ هذا الانخفاض المستمر في عددهم في طبقات التابعين طبقة بعد طبقة. فكيف تحدث زيادة كبيرة في عدد مواليهم؟

ولعل الإجابة تحتاج إلى النظر في أعداد الموالي من التابعين في تدرجها حسب الطبقات. فإذا رجعت إلى رسم بياني رقم (٥) مستصحبا جمع الطبقات الذي سبقت الإشارة إليه لجاء عدد الموالي حسب طبقاتهم كالآتي: I : ١١، II : ٢٧، III+IV : ٢٧، V+VI : ١٩، VII : ١٩، VIII : ٨، IX : ٧، وهذه الأرقام لا قيمة لها في ذاتها إلاّ مقارنة بغيرها. فلا بد من مقارنة كل عدد بالمجموع الكلي لموالي طبقات التابعين لمعرفة التوزيع الزماني، ثم مقارنة موالي كل طبقة بعدد تابعي الطبقة ذاتها لتقدير الحجم الرقمي لا التأثير العلمي، لأن الواحد قد يكون تأثيره أبلغ من الكثرة، ولإجراء هذه المقارنات إليك رسم بياني رقم (٦) للنوعين من المقارنة.



الرسم البياني رقم (٦). مقارنة عدد الموالي في كل طبقة بعدد الموالي الكلي وعدد التابعين في الطبقة نفسها.

من الواضح من رسم بياني رقم (٦) أن نسبة عدد موالي كل طبقة إلى عددهم الكلي في التابعين كانت ضعيفة نسبيا في الأولى، ثم زادت إلى الضعف في الثانية، واستقرت على ذلك في الثالثة/الرابعة والخامسة/السادسة، وبعد ذلك هبطت في السابعة، وزاد الهبوط زيادة كبيرة في الثامنة والتاسعة.

أما إذا ما قورن عدد الموالي في كل طبقة بعدد التابعين الكلي في الطبقة ذاتها تجد نتيجة قريبة عما لوحظ عن قريش من قبل، وهذا يستدعي الوقفة المتأنية أو على الأقل إثارة التساؤلات حول تلك النتيجة.

يبتدىء من رسم بياني رقم (٦) هذا أن عدد الموالي في الأولى كان قليلا ونسبتهم إلى تابعي طبقتهم أكبر، ثم يزيد عددهم ونسبتهم في الثانية ولكن تقل نسبتهم في طبقتهم. ومن الضروري جدا التنبيه إلى أن الثانية هي طور تكوين مدرسة المدينة. ثم تستقر نسبتهم في صنفهم وتكاد أن تتساوى مع نسبتهم في طبقتهم في الثالثة/ الرابعة، ولكن النسبتين لا تزيدان على ٢٣٪. وهذه هي الطبقة التي تبلورت فيها مدرسة المدينة، واكتسبت فيها خصائصها، وتفرعت فيها العلوم وتخصصت، ثم ظل عددهم في الخامسة/ السادسة ثابتا، فثبتت نسبتهم إلى صنفهم بيد أن نسبتهم إلى طبقتهم قد زادت ٥٠٪ عما كانت عليه من قبل، ذلك لأن الصليبة عددهم نقص كثيرا.

ويزداد نقصان الصليبة تسارعا، وتزداد نسبة الموالي إليهم بسرعة خرافية في الطبقتين الأخيرتين، إلاّ أنه ينبغي الإشارة إلى أن عدد الموالي الفعلي كان يتناقص أيضا، الأمر الذي لا يشير إلى سيطرة الموالي على الحياة العملية في المدينة وإنما إلى دخول تلك الحياة في فترة ضعف أو ضمور مع نهاية العصر الأموي وبداية العصر العباسي، وهذا استنتاج من خلال محدد واحد هو عدد أهل الرواية والعلم في الرواية البصرية بعيون خليفة وحده.

والحالة هذه، فإن دور الموالي لم يكن كبيرا في فترة التكوين ولا فترة التشكيل ونشوء التخصص. وهذه الملاحظة تدعو إلي إعادة النظر في مقولة منذ أن أطلقت ظلت تردد كحقائق لا يتطرق إليها الشك مثل الذي ذهب إليه أحمد أمين حين يقول: "حتى إذا كان عصر التابعين وتابعيهم كان بعض حملة العلم عربا وأكثرهم من الموالي وأبناء الموالي." ثم يعود ويؤكد ذلك فيقول "كان في العصر الأموي عرب من أشهر العلماء... ولكن الأكثرين كانوا موالي أو في حكمهم".(٨٤)

ومثل هذا القول لا يمكن القول به تعميما على سائر مراكز العلم والمدينة بالذات كما وضح من صورة بصرية بعيون خليفة بن خياط. فأحمد أمين ريادته لا تنكر، وفضله في هذا الباب لا يجهل، وربما يجد المرء مبررا لقوله ما يولده الانطباع الذي يخرج به الناظر في *طبقات* ابن سعد. فالمطبوع قديما فيه من تابعي المدينة ٤٧٩ منهم ١٧٣ من الموالي، والزيادة المكتشفة فيها ٤٠٧ تابعين منهم ١١٩ مولى. وبهذا يصبح العدد الكلي ٨٨٦ تابعيا منهم ٢٩٢ من الموالي. فالعدد ضخم إذا ما قورن بما عند خليفة (١٢١ مولى تابعيا)، أي يزيد عليه مرة ونصف. وكذلك النسبة، فأعلى نسبة عند خليفة في عصري التكوين "والتخصص" بلغت ٢٢٪ وما عند ابن سعد ٣٣٪، أي تساوي ما عند خليفة مرة ونصف. أما إذا نظرت في المطبوع القديم وحده، وهو ما كان متيسرا على عهد أحمد أمين، فتصعد

النسبة إلى ٣٦٪، وإذا علمت هذا لعذرته. وأحسب أن ترجيح الصورة التي يعطيها خليفة هي الأولى، وذلك لعدة أسباب منها:

أولا: انطلق خليفة من محيط قبلي التكوين وهو البصرة، غير أن ذلك لم يؤثر في المعلومات التي أوردها. فعندما غلبت أعداد الموالي في الطبقتين الثامنة والتاسعة لم يجد حرجا في ذكرها. لهذا فلو أنه وجد غير من ذكر لما تردد ولا أحجم.

ثانيا: أحسب أن ما ورد عند ابن سعد ينبغي أن يؤخذ بحذر شديد... فقد سبقت الإشارة لما حدث فيه من إدخال ما ليس فيه. ولا ينسي أن عصره كان عصر حركة شعوبية نشطة، واستمر ذلك بعده. ومن الأهمية بمكان عدم المبالغة في دور تلك الحركة إلاّ أنه لابد من الاعتراف بأن عبثها في مسألة مثل مسألة الموالي للغض من العرب أمر وارد.

ثالثا: إن معلومات خليفة دقيقة عن الموالي الذين ذكرهم، وتصنيفها في جداول التابعين في الملحق رقمII على فئاتهم وقبائلهم، كما صنفت بقية الأصناف الاجتماعية من صليبة وحلفاء، كشف عن تطابق شديد بين بروز الرواية الحديثية والفقهية عند الصليبة ومواليهم، سواء أكان ذلك في الفئات أو الأسر، حتى ليجوز القول بأن لا علم لمولى إلاّ إذا وجد تقليد متصل في الرواية عند أهل ولائه. ولهذا ظهر الموالي في قريش عند بني هاشم والعثمانيين والزبيريين والزهريين والتيميين والعدويين وفي الأنصار عند بني النجار، وبدرجة أقل عند بني عوف وأخيرا أسلم. وعلى هذا ينظر إلى نافع استمرارا للتقليد المتصل في الرواية عند العمريين، وربيعة الرأي وآل الماجشون مع العوفيين وآل المنكدر مع التيميين... وأيضا محمد بن إسحاق مع الزهريين، وفقا لرواية خليفة المخالفة للمعروف من ولاء ابن إسحاق المطلبي. وعلى ضوء هذا يمكن فهم انقطاع اتصال الرواية المدنية الهاشمية عباسيا واستمرارها علويا، ذلك لأن ابن عباس انتقل إلى مكة وتحلق الناس حوله هناك، فلا تجد عند خليفة لمجاهد أو عكرمة أو عطاء ذكرا في طبقات المدنيين.

رابعا: إن قضية ذكر الولاء فيها نظر. والسؤال هل استمر الولاء بهذه الصورة التي تذكرها التراجم... ثم لماذا عندما يذكر نسب مولى من الحفدة أو أبناء الحفدة يشار إلى ولاء الجد الأعلى في طبقة الصحابة؟ وهذا السؤال هام لأن التغاضي عنه يفترض عدم تأثير التحول إلى التحضر واستمرار ذلك لعقود مع أن ذلك التحضر تصاحبه تفاعلات سياسية واقتصادية وفكرية جذرية تضعف رابطة النسب تدريجيا، ويحل محلها روابط أخرى مذهبية وإقليمية ومحلية وغيرها... فإذا كان الصليبة ليسوا بمنجاة من هذا فكيف بالموالي في أبناء الأحفاد وحفدة الأحفاد!! ولعل هذا الذي جرى مع ختام العصر الأموي وبداية العصر العباسي، وآية ذلك أنه لما أسقط العباسيون العرب من الديوان لم يحدث ذلك هزة اجتماعية سياسية لأن ظروف الروابط قد اختلفت. أليس هذا الموضوع بخليق بدراسات جادة تسبر غوره وتبين غوامضه.

IV

أثبت هذا النقد الداخلي لكتاب *طبقات خليفة بن خياط* المنشور وهو برواية أبي عمران موسى بن زكريا التستري، أنه مسودة المؤلف التي لم ينقحها بعد، ولا استقر هيكلها بصورة نهائية، وذلك من خلال تتبع مدى التزامه بالعناوين التي وضعها، وفحص أسس تقسيم طبقات التابعين من أهل الرواية والعلم من أهل المدينة، وبحث الفئات الأربع التي تناولها في كل طبقة؛ وهي قريش وبقية عدنان والأنصار وبقية اليمن، علاوة على النظر في المفردات القبلية أو العشائرية التي جعلها مرتكزا لذكر الصحابة والتابعين.

ومع هذا، فإن النقد الداخلي نفسه يسَّر رد الغالبية العظمى من المعلومات إلى أماكنها وفقا لمخطط خليفة نفسه ومنهجه. فلهذا لم تؤثر تلك المعلومات على الأسلوب الإحصائي المعتمد في هذه الدراسة، وجرت الإشارة إلى كل حالة في موضعها. وقد أفاد منهجه القائم على ذكر العلماء وفقا لشرائحهم الاجتماعية، صليبة وحلفاء وموال، في إعادة النظر في بعض المسلمات التي في الدراسات الحديثة، خاصة عن دور عرب الجنوب والموالي في الحياة العلمية والذي صور بمبالغات كبيرة فيما يبدو في الدراسات الحديثة خاصة.

وأظهر تطبيق الأسلوب الإحصائي مؤشرات عديدة جديدة في قضايا الحياة العلمية في المدينة من خلال العلماء في الرواية البصرية بعيون خليفة، مما يفتح الباب على مصراعيه لفحص تلك المسلمات المتداولة.

لقد أوضحت الإحصاءات بجلاء كبير هيمنة الرواية العدنانية في قسم الصحابة، ثم هيمنة قريش على الرواية والعلم في صورتها البصرية بعيون خليفة في قسم التابعين. وعلى المرء أن يتذكر أن الرواية في عصر الصحابة حديثية وفي عصر التابعين حديثية فقهية وفقا لما ذكره خليفة. ولهذا جاء عدد الصحابة (٦٠٪) مرة ونصف مقارنة بعدد الرواة والفقهاء من التابعين، وعصرهم عصر تخصص للعلوم. ومن هنا جاز القول بأن قريشا وفقا لرواية خليفة قد سيطرت على الحياة العلمية، على الأقل في صورتها البصرية، ويلاحظ ذلك في سائر الطبقات باستثناء الطبقة التاسعة وهي خارج الإطار الزمني لهذا البحث.

وعلاوة على هذا، وعلى غير المتداول، جاءت الغلبة القرشية للعرب الصليبة، ولم يكن للموالي ذلك البروز الذي ذهب إليه الدارسون المحدثون. بل إن الموالي الذين برزوا ينتمون إلى الأسر القرشية ذات التقليد المتصل في الرواية والعلم في عصر التابعين. وهذا الضعف لدور الموالي يشابه دور الحلفاء، مما يدعو إلى إعادة النظر في مسألتي الولاء والحلف وهل استمرتا كظاهرتين اجتماعيتين بعد قرن من الفتوحات وما رافق ذلك من تحولات اجتماعية واقتصادية. ويلحق بذلك الدور المتدني للنساء وتناقص عددهن بصورة لافتة.

ومن المهم الإشارة إلى أن الأسر القرشية ذات التقليد المتصل في الرواية والعلم في عصر التابعين هي تلك الأسر التي فقدت دورها السياسي اختياريا أو قسرا. وربما تفتح هذه الملاحظة النظر في فحص قضية الانفصال بين العلماء والسلطة في سياق جديد.

وأخيرا وضح من الإحصاءات التناقص الشديد في عدد الـرواة العلماء في المدينة في رواية خليفة بعد موقعة قديد وما جاء بعدها من تحولات مع العباسيين، الأمر الذي يثير سؤالا هاما عن دور المدينة في الحياة العلمية بعد قيام الدولة العباسية.

وفي الختام ينبغي ألاّ تؤخذ هذه النتائج كمسلمات جديدة لأنها تعبر عن الصورة البصرية بعيون خليفة بن خياط، فلابد من إجراء إحصاءات مشابهة من مصنفات أخرى ومدن مغايرة. ولكن بحسب هذا العمل أن أثار غبارا حول عدد من المسلمات المتداولة عن الحياة العلمية في العصر الأموي.

ملحق رقم I. الصحابة الذين حفظ عنهم الحديث ممن أقام بالمدينة أو شخص عنها

(١) قريش

القبيلة	القبيلة أو الفخذ أو العشيرة	الصحابة: تصنيفهم الاجتماعي: صلبية	حلفاء	موال	عددهم	من أدرك منهم جميعا الدولة الأموية: تصنيفهم الاجتماعي: صلبية	حلفاء	موال	عددهم	الأماكن التي نزلوها: المدينة	لم يذكر	مكة	الطائف	البصرة	الكوفة	الشام	مصر	الجزيرة	أخرى	ملحوظات
عبد مناف	بنو هاشم	١١*	٥	٢٠	٣٦	٤	١	٤	٩	٢	٤	-	١	-	-	١	١	-	-	* ذكر الحسين بن علي وهو على غير شرطه.
	بنو عبدالمطلب	٣	-	-	٣	١	-	-	١	-	١	-	-	-	-	-	-	-	-	
	بنو نوفل	٢	٢	١	٥	١	-	-	١	١	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
	عبد شمس: أمية	١٠	٤*	١	١٥	١	-	-	١	-	-	-	-	-	-	١	-	-	-	لبني عبد شمس مطلقا.
	حبيب	١	-	-	١	١	-	-	١	-	-	-	-	١	-	-	-	-	-	
	ربيعة	٢	-	١	٣	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
	أسد بن عبد العزى	٦	-	-	٦	٣	-	-	٣	-	٢	١	-	-	-	-	-	-	-	
	عبد الدار	٥	-	-	٥	٢	-	-	٢	-	-	٢	-	-	-	-	-	-	-	
	بنو زهرة	٩	١	٣	١٣	٢	-	-	٢	١	-	١	-	-	-	-	-	-	-	
	بنو تميم	٨	-	٥*	١٣	١	-	-	١	-	١	-	-	-	-	-	-	-	-	*لأبي بكر وحره
	بنو مخزوم	١٣	١	١	١٥	٣	-	-	٣	-	١	١	-	-	١	-	-	-	-	
	بنو عدي	٨	٤	-	١٢	٢	١	-	٣	-	٢	١	-	-	-	-	-	-	-	
	بنو جمح	٦*	-	-	٦	٢	-	-	٢	-	-	٢	-	-	-	-	-	-	-	*٤ رجحت أنه لا يحفظ لهم حديث.
	بنو سهم	٥	-	-	٥	٢	-	-	٢	-	-	-	١	-	-	-	١	-	-	
	بنو عامر بن لؤي	٧	-	-	٧	٢	-	-	٢	١	١	-	-	-	-	-	-	-	-	
	بنو الحارث بن فهر	٣	-	-	٣	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
	بنو محارب بن فهر	٣	-	-	٣	٢	-	-	٢	-	-	-	-	-	-	٢	-	-	-	

(٢) عدنان من غير قريش (أ)

القبيلة	القبيلة أو الفخذ أو العشيرة	الصحابة				من أدرك منهم جميعا الدولة الأموية														ملحوظات
		تصنيفهم الاجتماعي				تصنيفهم الاجتماعي				الأماكن التي نزلوها										
		صلبية	حلفاء	موال	عددهم	صلبية	حلفاء	موال	عددهم	المدينة	لم يذكر	مكة	الطائف	البصرة	الكوفة	الشام	مصر	الجزيرة	أخرى	
كنانة	بنو الليث	١٦	-	١	١٧	١	-	-	١	-	-	١	-	-	-	-	-	-	-	
	بنو ضمرة	٦	-	-	٦	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
	بنو غفار	٢٠	-	١	٢١	٢	-	-	٢	-	-	-	٢	-	-	-	-	-	-	
	الدائل	٥	-	-	٥	٢	-	-	٢	-	٢	-	-	-	-	-	-	-	-	
	مدلج	٢	-	-	٢	١	-	-	١	-	١	-	-	-	-	-	-	-	-	
	الهون : القارة	١	-	-	١	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
	بنو أسد	٩	-	-	٩	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
	هذيل : لحيان	٧	-	-	٧	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
	مزينة	١٨	-	-	١٨	٤	-	-	٤	-	-	-	-	٤	-	-	-	-	-	
	ضبة	٣	-	-	٣	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
	بنو عدي بن عبد مناة	٢	-	-	٢	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	

(٢) عدنان من غير قريش (ب)

القبيلة	القبيلة أو الفخذ أو العشيرة	الصحابة: تصنيفهم الاجتماعي: صلبية	حلفاء	موال	عددهم	من أدرك منهم جميعا الدولة الأموية: تصنيفهم الاجتماعي: صلبية	حلفاء	موال	عددهم	الأماكن التي نزلوها: المدينة	لم يذكر	مكة	الطائف	البصرة	الكوفة	الشام	مصر	الجزيرة	أخرى	ملحوظات
تميم	بنو عكل	١	-	١	١	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
	بنو مجاشع	٢	-	-	٢	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
	بنو نهشل	٢	-	-	٢	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
	عبد الله بن دارم	١	-	-	١	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
	بنو فقيم	١	-	-	١	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
	بنو عجيف	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
	بنو العنبر	٥	-	-	٥	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
	بنو الهجيم	٢	-	-	٢	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
	بنو أسيد	٢	-	-	٢	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
	بنو مازن	٢	-	-	٢	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
	بنو شقرة	١	-	-	١	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	

(٢) عدنان من غير قريش (ج)

القبيلة	القبيلة أو الفخذ أو العشيرة	الصحابة: تصنيفهم الاجتماعي: صلبية	حلفاء	موال	عددهم	من أدرك منهم جميعا الدولة الأموية: تصنيفهم الاجتماعي: صلبية	حلفاء	موال	عددهم	الأماكن التي نزلوها: المدينة	لم يذكر	مكة	الطائف	البصرة	الكوفة	الشام	مصر	الجزيرة	أخرى	ملحوظات
تميم	بنو سعد: بنو ربيعة	١	-	-	١	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
	بنو سعد: بلعرج	١	-	-	١	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
	بنو سعد: بنو عطار	١	-	-	١	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
	بنو سعد: بنو صريم	١	-	-	١	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
	بنو سعد: بنو مالك	١	-	-	١	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
	بنو سعد: بنو منقر	٤	-	-	٤	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
	بنو امرىء القيس	١	-	-	١	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
	بنو حنظلة: بنو سليط	١	-	-	١	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
	بلعدوية	١	-	-	١	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
	البراحم	١*	-	-	١	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	* واحد ذكره فيمن لم يحفظ نسبه.
	من لم يحفظ نسبه من تميم	٢	-	-	٢	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	

(٢) عدنان من غير قريش (د)

القبيلة	القبيلة أو الفخذ أو العشيرة	الصحابة: تصنيفهم الاجتماعي: صلبية	حلفاء	موال	عددهم	من أدرك منهم جميعا الدولة الأموية: تصنيفهم الاجتماعي: صلبية	حلفاء	موال	عددهم	الأماكن التي نزلوها: المدينة	لم يذكر	مكة	الطائف	البصرة	الكوفة	الشام	مصر	الجزيرة	أخرى	ملحوظات
قيس عيلان	بنو عدوان: بنو خارجة	١	-	-	١	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	ثلاثة ينتسبون إلى باهلة بالأم
	بنو أعصر	*٥	-	-	٥	١	-	-	١	-	-	-	-	-	-	١	-	-	-	
	بنو طقاوة	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
	بنو غني	١	-	-	١	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
غطفان	بنو أشجع	١٥	-	-	١٥	٢	-	-	٢	١	-	-	-	-	-	١	-	-	-	
	بنو ذبيان	١	-	-	١	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
	بنو ثعلبة	٢	-	-	٢	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
	بنو فزارة	١	-	-	١	١	-	-	١	-	-	-	-	١	-	-	-	-	-	
	بنو عبس	٢	-	-	٢	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
قيس	بنو محارب	٢	-	-	٢	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
	بنو سليم	١٣	-	-	١٣	١❖	-	-	١	-	١	-	-	-	-	-	-	-	-	ذكره فيمن لم يحفظ نسبهم
	بنو بجلة	٢	-	-	٢	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	

(٢) عدنان من غير قريش (هـ)

القبيلة	القبيلة أو الفخذ أو العشيرة	الصحابة: تصنيفهم الاجتماعي: صلبية	حلفاء	موال	عددهم	من أدرك منهم جميعا الدولة الأموية: تصنيفهم الاجتماعي: صلبية	حلفاء	موال	عددهم	الأماكن التي نزلوها: المدينة	لم يذكر	مكة	الطائف	البصرة	الكوفة	الشام	مصر	الجزيرة	أخرى	ملحوظات
عيلان	بنو مازن	٤	-	-	٤	١	-	-	١	-	-	-	-	-	-	١	-	-	-	
	من لم يحفظ نسبه	١٤*	-	-	١٤	٢	-	-	٢	-	١	-	-	-	١	-	-	-	-	* ذكر واحدا مع من لم ينسب من بني عامر ابن صعصعة.
هوازن	ثقيف	٢١	-	-	٢١	٣	-	-	٣	-	-	-	-	٢	١	-	-	-	-	
	بنو سعد	١	-	-	١	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
	بنو حشيم	٢	-	-	٢	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
	بنو نصر	٢	-	-	٢	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
	بنو سلول	٢	-	-	٢	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
هوازن: عامر بن صعصعة	بنو هلال	٤	-	-	٤	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
	بنو نمير	١	-	-	١	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
	بنو سواءة	٣	-	-	٣	٢	-	-	٢	-	-	-	-	-	٢	-	-	-	-	
	بنو ربيعة	٣	-	-	٣	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	

(٢) عدنان من غير قريش (و)

القبيلة	القبيلة أو الفخذ أو العشيرة	الصحابة – تصنيفهم الاجتماعي: صلبية	حلفاء	موال	عددهم	من أدرك منهم جميعا الدولة الأموية – تصنيفهم الاجتماعي: صلبية	حلفاء	موال	عددهم	الأماكن التي نزلوها: المدينة	لم يذكر	مكة	الطائف	البصرة	الكوفة	الشام	مصر	الجزيرة	أخرى	ملحوظات
صعصعة	بنو البكاء	١	-	-	١	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
	بنو عقيل	٣	-	-	٣	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
	بنو الحريش	١	-	-	١	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
	بنو قشير	٣	-	-	٣	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
	بنو جعدة	٢	-	-	٢	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
	بنو كلاب	٦*	-	-	٦	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	* ذكر واحدا مع من لم ينسب.
	من لم ينسب من بني عامر	٥	-	-	٥	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
ربيعة	بنو ضبيعة	١	-	-	١	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
	عنزة	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
	عبد القيس	٦	-	-	٦	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
	من لم ينسب من عبدالقيس	٥	-	-	٥	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	

(٢) عدنان من غير قريش (ز)

القبيلة	القبيلة أو الفخذ أو العشيرة	الصحابة: تصنيفهم الاجتماعي: صليبة	حلفاء	موال	عددهم	من أدرك منهم جميعا الدولة الأموية: تصنيفهم الاجتماعي: صليبة	حلفاء	موال	عددهم	الأماكن التي نزلوها: المدينة	لم يذكر	مكة	الطائف	البصرة	الكوفة	الشام	مصر	الجزيرة	أخرى	ملحوظات
ربيعة	النمر بن قاسط	١	-	-	١	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
	بنو عنز	٢	-	-	٢	١	-	-	١	-	١	-	-	-	-	-	-	-	-	
ربيعة: بكر بن وائل	بنو سدوس	٤	-	-	٤	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
	بنو قيس: بنو جرير	٢	-	-	٢	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
	بنو قيس: بنو رقاش (بنو شيبان)	١	-	-	١	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
	بنو يشكر	٢	-	-	٢	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
	بنو عجل	١	-	-	١	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
	بنو حنيفة	٦	-	-	٦	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
	من لم يحفظ نسبه من بكر بن وائل	٢	-	-	٢	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	

(٣) من اليمن وهم ولد قحطان (أ)

القبيلة	القبيلة أو الفخذ أو العشيرة	الصحابة				من أدرك منهم جميعا الدولة الأموية														ملحوظات
		تصنيفهم الاجتماعي				تصنيفهم الاجتماعي				الأماكن التي نزلوها										
		صلبية	حلفاء	موال	عددهم	صلبية	حلفاء	موال	عددهم	المدينة	لم يذكر	مكة	الطائف	البصرة	الكوفة	الشام	مصر	الجزيرة	أخرى	
	الأشعريون	٥	-	-	٥	٢	-	-	٢	-	-	-	-	-	٢	-	-	-	-	
	طيء	٥	-	-	٥	١	-	-	١	-	-	-	-	-	١	-	-	-	-	
	لخم : بنو الدار	٢	-	-	٢	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
	جذام (فهيم خولان)	٢	-	-	٢	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
	عاملة	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
	كندة (فيها تجيب)	٩	-	-	٩	١	-	-	١	-	-	-	-	-	-	١	-	-	-	
	كندة : حضرموت	٥	-	-	٥	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
	مذحج : أنمار	٢	-	-	٢	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
	سعد العشيرة	٦	-	-	٦	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
	مراد	٢	-	-	٢	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
	عنس	-*	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	ذكر عمار بن ياسر ولكنه عده من قبل في حلفاء بني مخزوم.

(٣) من اليمن وهم ولد قحطان (ب)

القبيلة	القبيلة أو الفخذ أو العشيرة	الصحابة: تصنيفهم الاجتماعي				من أدرك منهم جميعا الدولة الأموية: تصنيفهم الاجتماعي				الأماكن التي نزلوها										ملحوظات
		صلبية	حلفاء	موال	عددهم	صلبية	حلفاء	موال	عددهم	المدينة	لم يذكر	مكة	الطائف	البصرة	الكوفة	الشام	مصر	الجزيرة	أخرى	
	الرهاء	٢	-	-	٢	١	-	-	١	-	-	-	-	-	١	-	-	-	-	
	الصداء	١	-	-	١	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
	بنو الحارث	١	-	-	١	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
	همدان	٣	-	-	٣	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
الأوس	عبد الأشهل	٦	١	-	٧	١	-	-	١	-	١	-	-	-	-	-	-	-	-	
	زعوراء	١	-	-	١	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
	جشم بن حارثة	٥	-	-	٥	١	-	-	١	-	١	-	-	-	-	-	-	-	-	
	بنو مجدعة بن حارثة	٥	١	-	٦	٢	-	-	٢	-	١	-	-	-	١	-	-	-	-	
	بنو كعب	٢	-	-	٢	-	-	-	-	-	-	-	-	٤	-	-	-	-	-	
	بنو مرة	١	-	-	١	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
	بنو عوف	٤	-	-	٤	١	-	-	١	-	١	-	-	-	-	-	-	-	-	
	بنو السلم	٣	-	-	٣	١	-	-	١	-	١	-	-	-	-	-	-	-	-	

(٣) من اليمن وهم ولد قحطان (ج)

القبيلة	القبيلة أو الفخذ أو العشيرة	الصحابة – تصنيفهم الاجتماعي: صلبية	حلفاء	موال	عددهم	من أدرك منهم جميعا الدولة الأموية – تصنيفهم الاجتماعي: صلبية	حلفاء	موال	عددهم	الأماكن التي نزلوها: المدينة	لم يذكر	مكة	الطائف	البصرة	الكوفة	الشام	مصر	الجزيرة	أخرى	ملحوظات
الأوس	بنو خطمة	٤	-	-	٤	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
	بنو أمية بن زيد	٢	-	-	٢	١	-	-	١	-	١	-	-	-	-	-	-	-	-	
	بنو كلفة	٣	-	-	٣	١	-	-	١	-	-	-	-	-	-	١	-	-	-	
	بنو حنش	٢	-	-	٢	١	-	-	١	-	-	-	-	-	١	-	-	-	-	
	بنو ثعلبة	٣	-	-	٣	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
	بنو لوذان	٣	-	-	٣	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
	حلفاء بني عبيد بن زيد	-	١	-	١	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
الخزرج	بنو النجار	٢٩	-	١	٣٠	٨	-	-	٨	٢	٣	-	-	١	-	١	-	-	الروم	
	بنو ثعلبة	٩	-	-	٩	٢	-	-	٢	-	-	-	-	-	١	١	-	-	-	
	بنو عدي	١	-	-	١	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
	بنو جشم	٣	-	-	٣	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	

(٣) من اليمن وهم ولد قحطان (د)

القبيلة	القبيلة أو الفخذ أو العشيرة	الصحابة: تصنيفهم الاجتماعي: صلبية	حلفاء	موال	عددهم	من أدرك منهم جميعا الدولة الأموية: تصنيفهم الاجتماعي: صلبية	حلفاء	موال	عددهم	الأماكن التي نزلوها: المدينة	لم يذكر	مكة	الطائف	البصرة	الكوفة	الشام	مصر	الجزيرة	أخرى	ملحوظات
الخزرج	بنو عوف	٣	-	-	٣	١	-	-	١	١	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
	بنو ساعدة	٦	-	-	٦	١	-	-	١	١	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
	بنو سالم الحبلي	٦	١	-	٧	١	-	-	١	-	١	-	-	-	-	-	-	-	-	
	بنو زريق	٦❖	-	-	٦	١	-	-	١	-	١	-	-	-	-	-	-	-	-	❖ ذكر واحدا فيمن لم يحفظ نسبه.
	بنو حبيب	٣	-	-	٣	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
	بنو سلمة	١٤	-	-	١٤	١	-	-	١	-	١	-	-	-	-	-	-	-	-	
	بنو عدي	١	-	-	١	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
الأنصار	من لم يحفظ نسبه من الأنصار	٢٢	-	-	٢٢	١	-	-	١	-	١	-	-	-	-	-	-	-	-	
الأزد	خزاعة	١٦	-	-	١٦	٤	-	-	٤	-	١	-	-	١	٢	-	-	-	-	
	ملكان بن أقصى	١	-	-	١	٢	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
	مالك بن أقصى	١	-	-	١	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	

(٣) من اليمن وهم ولد قحطان (هـ)

القبيلة	القبيلة أو الفخذ أو العشيرة	الصحابة: تصنيفهم الاجتماعي				من أدرك منهم جميعا الدولة الأموية: تصنيفهم الاجتماعي				الأماكن التي نزلوها										ملحوظات
		صلبية	حلفاء	موال	عددهم	صلبية	حلفاء	موال	عددهم	المدينة	لم يذكر	مكة	الطائف	البصرة	الكوفة	الشام	مصر	الجزيرة	أخرى	
الأزد	أسلم	٢٦	-	١	٢٧	٧	-	-	٧	-	٤	-	-	١	٢	-	-	-	-	
	بارق	١	-	-	١	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
	غامد	٣	-	-	٣	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
	غافق	١	-	-	١	١	-	-	١	-	-	-	-	-	-	-	-	-	المغرب	
	ثمالة	٢	-	-	٢	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
	دوس	٥	-	-	٥	١	-	-	١	١	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
	من لم يحفظ نسبه من الأزد	٣	-	-	٣	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
	زهران	٢	-	-	٢	١	-	-	١	-	١	-	-	-	-	-	-	-	-	
	راسب	١*	-	-	١	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	* ذكر أنه حليف أوى بن عامر ولم يذكره فيهم.
	خثعم	٣	-	-	٣	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
	بجيلة	٨	-	-	٨	٣	-	-	٣	-	-	-	-	-	٢	-	-	-		

(٣) من اليمن وهم ولد قحطان (و)

القبيلة	القبيلة أو الفخذ أو العشيرة	الصحابة				من أدرك منهم جميعا الدولة الأموية														ملحوظات
		تصنيفهم الاجتماعي				تصنيفهم الاجتماعي				الأماكن التي نزلوها										
		صلبية	حلفاء	موال	عددهم	صلبية	حلفاء	موال	عددهم	المدينة	لم يذكر	مكة	الطائف	البصرة	الكوفة	الشام	مصر	الجزيرة	أخرى	
	خشين	٢	-	-	٢	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
	جرم	٤	-	-	٤	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
	بهراء	-*	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	* واحد وذكره مع بن زهرة.
	جهينة	٢٤*	-	-	٢٤	٢	-	-	٢	-	١	-	-	-	-	-	١	-	-	* ذكر أن البرك دخل في جهينة فنقلته إلى هنا.
	عذرة	٤*	١	-	٤	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	* قال عن أحدهم حليف بن زهرة ولم يذكره فيهم.
	الهميسع : بنو شيبان	١	-	-	١	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
	ذو أصبح	١	-	-	١	٢	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
	بنو بكال	١	-	-	١	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
	بنو قريظة	٢	-	-	٢	-	-	-	-	-	-	-	-	٤	-	-	-	-	-	
	من لم يحفظ نسبه	٣٢	-	-	٣٢	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	

ملحق رقم II. طبقات الفقهاء والمحدثين من أهل المدينة بعد الصحابة

(١) الطبقة الأولى: قريش

القبيلة	العشيرة	صليبية	حلفاء	موال	عددهم	تعليقات عن الصليبية	تعليق عن الموالي	ملحوظات
	بنو هاشم	١٣*	٢	١**	١٦	٤ أبناء علي* ٥ أبناء العباس ٤ حفدة وأبناء حفدة الحارث	** محمد بن أسامه بن زيد	*فيهم الحسن والحسين وقد ذكرا في الصحابة
	بنو نوفل	١	-	-	١		عبيد بن رافع مولى رسول الله ﷺ	
	بنوأمية	٢	-	١	٢	مروان بن الحكم	السائب بن خلاد	
	بنو أسد بن عبد العزى	٣	-	١	٤	عبدالله بن الزبير ابنا عبدالله بن زمعة	عبدالرحمن بن حاطب	
	بنو عبد بن قصي	١	-	-	١			
	بنوعبد الدار	-	-	-	-	ليس فيهم أحد		
	بنو زهرة	٢	-	-	٢	مصعب بن عبدالرحمن بن عوف		
	بنوتميم	٣	-	-	٣	٢ ابنا طلحة بن عبيدالله		
	بنومخزوم	٥	-	١	٦	عبدالرحمن بن الحارث	أبوفروة مولى عبدالرحمن بن الحارث	
	بنو عدي	٦	١*	٤**	١١	عاصم بن عمر بن الخطاب	**كلهم موالي عمر	*من عنزة ابن وائل
	بنوجمح	١	-	-	١			
	المجموع	٣٧	٣	٨	٤٨			

(٢) الطبقة الأولى: أخلاط القبائل العدنانية

القبيلة	العشيرة	صليبية	حلفاء	موال	عددهم	تعليقات عن الصليبية	تعليق عن الموالي	ملحوظات
	القارة	١	-	-	١			
	ليث	١	-	-	١			
	هذيل	٢	-	-	٢			
	قيس عيلان: هوازن	١	-	-	١			
	بلحارث	١	-	-	١			
	ثقيف	-	-	١	١		عبد الرحمن بن ثوبان مولى الأخنس بن شريق	
المجموع		٦	-	١	٧			

(٣) الطبقة الأولى: الأنصار وأفناء قبائل اليمن.

القبيلة	العشيرة	صليبية	حلفاء	موال	عددهم	تعليقات عن الصليبية	تعليق عن الموالي	ملحوظات
الأوس	بنوعوف: بنوضبيعة	*٦	-	-	٦	*كر فيهم اثنين من بطون الخزرج فألحقناهما هناك		
الخزرج	بنو النجار	١١	-	٢	٣١	- محمد بن عمرو بن حزم - محمد بن أبي بن كعب	-أفلح مولى أبي أيوب -كثير بن أفلح	
	بنو ساعدة	*١	-	-	١		-ذكر مع بني هاشم	
	بنو زريق	٢	-	-	٢	عبيد بن رفاعة بن رافع بن خديج		
أفناء قبائل اليمن	أسلم	١	-	-	١			
	لم ينسب	١	-	-	١			
	ما ذكر هنا ووضعناه في مكان آخر						ذكر كثير وزيد ابنا الصلت، وقال عدادهم في العباس بن عبدالمطلب	
المجموع		٢٢	-	٢	٢٤			

(٤) الطبقة الثانية: قريش

القبيلة	العشيرة	صليبية	حلفاء	موال	عددهم	تعليقات عن الصليبية	تعليق عن الموالي	ملحوظات
	بنو هاشم	٩	-	٢	١١	٥ حفدة علي ١ حفيد العباس ٣ حفدة نوفل بن الحارث	-عبدالرحمن بن هرمز الأعرج - لبني الحارث - أبومرة - لعقيل - عبيدالله بن رافع*	*ذكر في لطبقة السابقة
	بنوالمطلب	٢	-	-	٢			
	بنوأمية	٦	-	-	٦	٣ أبناء عثمان* ٢ أبناء مروان		*أبان
	بنوفل	٢	-	-	٢	٢ ابنا جبير بن مطعم		
	أسد بن عبدالعزى	٤	١*	٢**	٧	٢ أبنا الزبير***	*حفيد حاطب *نافع وتحنس للزبير	***عروة
	بنوعبدالدار	٢	-	-	٢			
	بنوزهرة	١٤*	١**	١***	١٦	٤ أبناء عبدالرحمن بن عوف، ٨ ابنا سعد بن مالك *ذكر واحداً ص٢٤٩	*حليف من هذيل ***أبو عبيد لابن أزهر	
	بنو تيم	٦	-	-	٦	٢ حفدة أبي بكر ٤ أبناء طلحة❖		*عمران وموسى نزلا الكوفة
	بنومخزوم	١٥	-	٢	١٧	* أبناء عبدالرحمن بن الحارث * أبناء خالد بن الوليد	عبدالله بن رافع- نبهان لأم سلمة	
	بنوعدي	١٨*	-	٣	٢١	١٢ حفدة عمر (منهم٧ لعبدالله ٢ لعاصم)	-عبيد بن حنين لعمر أخو نافع ذكره في سائر القبائل ٢٤٩ -أيضا ابن البيلماني	*ذكر اثنين في سائر القبائل ص٢٧٩
	بنوجمح	-	-	-	-			
	بنوسهم	-	-	-	-			
	بنو عامر بن لؤي	١	-	-	١			
	قريش عامة	-	-	٥	٥		- سعيد بن مرجانة - سليمان وعطاء وعبدالملك وعبدالله بنو يسار مولى ميمونة أم المؤمنين	
	المجموع	٧٩	٢	١٥	٩٦			

(٥) الطبقة الثانية: سائر القبائل العدنانية*

القبيلة	العشيرة	صليبية	حلفاء	موال	عددهم	تعليقات عن الصليبية	تعليق عن الموالي	ملحوظات
	ثقيف	١	-	١	٢		محمد بن عبدالرحمن ابن ثوبان مولى الأخنس بن شريق	
	بنوليث	٢	-	١	٣		أبو سعيد كيسان المقبري لبني ليث	
	بنوالدائل	١	-	-	١			
	بنوسليم	١	-	-	١			
	بنوهلال	-	-	١	١		عمير مولى أم الفضل أخت ميمونة أم المؤمنين	
	ضمرة	١	-	-	١			
	غفار	١	-	-	١			
	قيس مطلقاً	-	-	١	١		أبوصالح السمان اسمه ذكوان لجويرية من قيس	
	كنانة	١	-	-	١			
	بنونضر	-	-	١	١		سالم سبلان مولاهم	
	أسد	-	-	١	١		نافع مولى عبدالله بن أحمد الاسدي	
	مزينة	-	-	١	١		عبدالرحمن بن مهران مولاهم	
	لم ينسب	٢	-	-	٢			
	المجموع	١٠	-	٧	١٧			

*ذكر هنا ٤٣ شخصا منها ٨ مكررات لقريش و١٠ للأنصار واليمن فوضعتها في مواضعها (انظر: ص ص ٢٤٧-٢٥٠).

(٦) الطبقة الثانية: الأنصار

القبيلة	العشيرة	صليبية	حلفاء	موال	عددهم	تعليقات عن الصليبية	تعليق عن الموالي	ملحوظات
الأوس	بنوعوف	١٠❖	-	-	١٠	٢ ابنا سهل بن حنيف ٣ أبناء رافع بن خديج		*بإضافة عباس ابن سهل ذكر في قبائل عدنان ص٢٤٣
الخزرج	بنوالنجار	١٥	-	١*	١٦	٥ أبناء زيد بن ثابت ٣ محمد بن عمرو بن حزم	*ولكن ذكر معه أخاه كثير وسبق ذكره في الطبقة الأولى	
	بنوسلمة	٦	-	١	٧	٣ أبناء كعب بن مالك ٣ أبناء أبي قتادة	نافع مولى أبي قتادة	
	بنوزريق	٥	-	-	٥	٤ أبناء رفاعة بن رافع		
	بنوخدرة	٣	-	-	٣	٣ أبناء أبي سعيد الخدري		
	بنوساعدة	٦	-	-	٦	٣ أبناء أبي أسيد ٢ حفدة سعد بن مالك ١ ابن سعد بن عبادة		
	بنوسالم الحبلي	١	-	-	١	١ ابن عبادة بن الصامت		
	بنوامرئ القيس	٣	-	-	٣			
	من لم ينسب من الخزرج	٢	-	-	٢	ذكرهما في قبائل شتى من عدنان ص٢٤٩		
	من لم ينسب من الأنصار عامة	١	-	-	١	ذكره في قبائل شتى من عدنان ص٢٤٩		
	المجموع	٥٢	-	٢	٥٤			

(٧) الطبقة الثانية: أبناء قبائل اليمن

القبيلة	العشيرة	صليبية	حلفاء	موال	عددهم	تعليقات عن الصليبية	تعليق عن الموالي	ملحوظات
	كنده (حضرموت)	١	-	١	٢		بسر بن سعيد مولى الحضرميين كرره في المكان نفسه ص٢٥٥	
	بنومرة	١*	-	-	١	*ذكره في قبائل شتى من عدنان ص٢٥٠		
	بنوأسلم	١❖	-	-	١	*ذكره في قبائل شتى من عدنان ص٢٤٩		
	دوس	٢	-	١	٣	ذكر واحداً في قبائل شتى من عدنان ص٢٤٩ وذكر الآخر هنا إلا أنه قال من دوس وهو مولى نصر من الأزد ص ٢٥٥	يزيد بن هرمز مولى آل رئاب	
	جهينة	-	-	١	١		عبدالرحمن بن يعقوب مولى الحرقه والحرقة مولى جهينة ذكره في قبائل شتى من عدنان ٣٤٩	
	أصبح	١	-	-	١	مالك بن أنس (جد الإمام مالك)		
	قرظ	١	-	-	١			
	لم ينسب	١	-	-	١			
	المجموع	٨	-	٣	١١			

(٨) الطبقة الثالثة: قريش وقبائل مضر

القبيلة	العشيرة	صليبية	حلفاء	موال	عددهم	تعليقات عن الصليبية	تعليق عن الموالي	ملحوظات
قريش	بنو هاشم	٣	-	١	٤	١ ابن حفيد علي ١ حفيد العباس ١٢ حفيد نوفل	سعيد بن يسار مولى الحسن	
	بنوأسد بن عبدالعزى	٢	-	١	٣	١ حفيد للزبير ١ ابن عبدالله بن زمعة	نافع مولى الزبير	
	بنوزهرة	-	١*	-	١		* ليثي	
	بنوتيم	٢	-	-	٢	١حفيد طلحة		
	بنومخزوم	١	-	-	١			
	بنوعدي	٣	-	١	٤	٢ أبناء حفدة عمر	نافع مولى عبدالله بن عمر	
	بنوعامر بن لؤي	١	-	-	١			
	المجموع	١٢	١	٣	١٦			
قبائل مضر	بنوليث	-	-	١	١		سعيد بن أبي سعيد	
	غفار	١	-	-	١			
	أسدخزيمة	١	-	-	١			
	هذيل	١	-	-	١			
	المجموع	٣	-	١	٤			

(٩) الطبقة الثانية: الأنصار واليمن

القبيلة	العشيرة	صليبية	حلفاء	موال	عددهم	تعليقات عن الصليبية	تعليق عن الموالي	ملحوظات
الأوس	عبد الأشهل	١	-	-	١	حفيد سعد بن معاذ		
	بنو كعب	١	-	-	١	حفيد قتادة بن النعمان		
	بنو النجار	٢	-	-	٢	١- حفيد عمرو بن حزم		
	بنو زريق	٢	-	-	٢	١- حفيد رافع بن خديج		
	بنو سلمة	١	-	-	١			
	المجموع	٧	-	-	٧			
قبائل اليمن	لم يذكر شيئا							

(١٠) الطبقة الرابعة: قريش وقبائل عدنان

القبيلة	العشيرة	صليبية	حلفاء	موال	عددهم	تعليقات عن الصليبية	تعليق عن الموالي	ملحوظات
قريش	بنوهاشم	١٠	١*	-	١١	٩ أبناء حفدة علي	*عبدالله بن السائب	
	بنوأمية	٢	-	٣	٥	٢ حفدة عثمان لواحد عن طريق أبانا	-داود بن حصين مولى عبدالله بن عمرو بن عثمان - عبدالله بن ذكوان - محمد بن قيس مولى لأبي سفيان	
	أسد بن عبدالعزى	٧*	-	٤	١١	وردت أربعة أسماء مكررة فأسقطناها ص٢٥٩- ٢٦٠ حفدة الزبير (٦ عبدالله)	إسماعيل بن أبي حكيم وأخوه إسحاق ويزيد بن رومان ووهب بن كيسان موالي لآل الزبير	
	بنوزهرة	١١	٢**	٢*	١٥	٦ حفدة عبدالرحمن بن عوف ٣ أبناء حفدة سعد بن مالك ظهرت أسرة محمد بن مسلم الزهري وأخيه	- صفوان بن سليم مولى حمية بن عبدالرحمن بن عوف * بكير بن عبدالله مولى المسور (٢٦٣) ** سعيد القارظي حليف (٢٦٤) **ثقفي (٢٦٤)	

تابع (١٠) الطبقة الرابعة: قريش وقبائل عدنان

القبيلة	العشيرة	صليبية	حلفاء	موال	عددهم	تعليقات عن الصليبية	تعليق عن الموالي	ملحوظات
قريش	بنو مخزوم (جاءت أسماؤهم وسط بني زهرة)، ص٢٦١	٢*	-	٣	٥	حفيد عبدالرحمن ١ - ابن حفيد	- سمى مولى بني الحارث - شيبة مولى أم سلمة - أبو جعفر القاري	*ذكر عبدالله ابن عكرمة واعتمدنا واحداً ص٢٦١
	بني عدي	١٠	-	٢	١٢	أبناء حفدة عمر (٨ عبدالله)	- عبدالله بن دينار مولى عبدالله بن عمر -زيد بن أسلم مولى عمر	
	بنوجمح	-	-	١*	١		صالح بن التيهان	*ص٢٦٣
	بنو سهم	١	-	-	١*			*ص٢٦٣
	بنو عامر بن لؤي	٢*	-	٢*	٤*		- محمد بن عمر بن عطاء - صالح بن كيسان	* ص٢٦٢ - ٢٦٣
	لم ينسب	-	-	١	١		محمد بن عبدالرحمن ابن أبي لبيبة ٢٦٣	
	المجموع	٤٥	٣	١٨	٦٦			
غير قريش	فزارة	-	-	١	١		سعيد بن أبي هند مولى سمرة بن جندب	(ص٢٦٤)
	بنو ليث	٤*	-	١	٥		سلمة بن دينار	*ذكروا مع الأنصار ٢٥٦
	المجموع	٤	-	٢	٦			

(١١) الطبقة الرابعة: الأنصار واليمن

القبيلة	العشيرة	صليبية	حلفاء	موال	عددهم	تعليقات عن الصليبية	تعليق عن الموالي	ملحوظات
الأنصار	حلفاء الأوس	-	١	-	١		قرظي	
	الخزرج: بنوالنجار	١٠	-	١	١١	٣ حفدة عمرو بن حزم ١ حفيد حسان ٢ حفيدا زيد بن ثابت	عمر بن كثير مولى أبي أيوب	
	الخزرج: بنو زريق	١	-	-	١			
	مولى الأنصار			١	١		شرحبيل بن سعد	
	المجموع	١١	١	٢	١٤			
سائر اليمن	كندة	١	-	-	١	ذكر مختلطا مع بني عدي ص٢٦٤		
	أسلم	٢*	-	-	٢	* أحدهم ذكر مختلط مع بني عدي ص٢٦٤		
	جهينة	-	-	١	١		سلمان الاغر	
	الأزد	١	-	-	١			
	اليمن	١	-	-	١			
	لم ينسب	١	-	-	١			
	المجموع	٦	-	١	٧			

(١٢) الطبقة الخامسة: قريش وعدنان والأنصار واليمن

القبيلة	العشيرة	صليبية	حلفاء	موال	عددهم	تعليقات عن الصليبية	تعليق عن الموالي	ملحوظات
قريش	بنوأمية	-	-	١	١		إسحاق بن عبدالله بن أبي فروة مولى عثمان	
	أسد بن عبدالعزى	-	-	٣	٣		إبراهيم وموسى ومحمد بنو عقبة مولى الزبير	
	بنومخزوم	١	-	١	٢		عمرو بن أبي عمرو مولى المطلب بن عبدالله	
	بنوتيم	١	-	١	٢		عمر بن عبدالله مولى عفرة بنت خالد	
	المجموع	٢	-	٦	٨			
عدنان	بنوليث	١	-	-	١			
	قيس عيلان	-	-	٢	٢		سهل وعباد ابنا ذكوان السمان مولى جويرية امرأة من قيس	
	المجموع	١	-	٢	٣			
الأنصار	الأوس: بنوعوف	١	-	-	١			
	الخزرج: بنوالنجار	٢	-	-	٢			
	المجموع	٣	-	-	٣			
اليمن	خزاعة	-	-	١	١		سلمان بن سحيم	
	أسلم	١	-	-	١			
	دوس	١	-	-	١			
	جهينة	-	-	١	١		العلاء بن عبدالرحمن مولى الحرقة	
	المجموع	٢	-	٢	٤			
	من لم ينسب	-	-	١	١		مسلم بن أبي مريم مولى لبعض أهل المدينة	

(١٣) الطبقة السادسة: قريش وعدنان

القبيلة	العشيرة	صليبية	حلفاء	موال	عددهم	تعليقات عن الصليبية	تعليق عن الموالي	ملحوظات
قريش	بنوهاشم	٧	-	-	٧	٤ حفدة حفدة (علي) ٣ حفدة حفدة الحارث بن عبدالمطلب		
	بنو أمية	-	-	١	١		محمد بن عجلان مولى فاطمة بنت عتبة بن ربيعة	
	أسد بن عبدالعزى	١١	-	-	١١	٦ حفدة (من عروة) للزبير ٥ أبناء حفدة للزبير (من عبدالله)		
	بنو زهرة	-	-	٥	٥		-يعقوب وبكير ابنا عبدالله بن الأشج (المسور) - المهاجر بن مسمار وأخوه (سعد بن أبي وقاص) -محمد وعمر ابنا أسحاق بن يسار (مخرمة)	
	بنوتيم	٥	-	٥	١٠	١- حفيد أبي بكر ١ ابن حفيد (أبو بكر) ٣ آل المنكدر	ربيعة الراي وعبدالله وأخوه يعقوب الماجشون ابنا دينا (مولى أل المنكدر) - عمر بن عبدالله - سالم بردان	
	بنو مخزوم	١	-	-	١			
	بنوعدي	٥	-	-	٥	٥ حفدة أحفاد عمر خاصة من عاصم		
	بنوعامر بن لؤي	١	-	-	١			
	المجموع	٣٠	-	١١	٤١			
بقية عدنان	بنوليث	١	-	-	١			
	بنوالدائل	-	-	١	١			
	بنوفزارة	-	-	١	١		عبدالله بن سعيد بن أبي هند، مولى بني سمخ	
	المجموع	٢	-	١	٣			
	لم ينسب	١	-	-	-			

(١٤) الطبقة السادسة: الأنصار وبقية اليمن

القبيلة	العشيرة	صليبية	حلفاء	موال	عددهم	تعليقات عن الصليبية	تعليق عن الموالي	ملحوظات
الأوس	-	-	-	-	-			
الخزرج	بنوالنجار	٣	-	-	٣			
	لم ينسب	-	١	-	١		سعد بن إسحاق من بلى	
	المجموع	٣	١	-	٤			
بقية اليمن	أسلم	١	-	٤	٥		- يزيد بن أبي عبيدمولى سلمة بن الأكوع - محمد وأنيس وعبدالله بنو أبي يحيى مولى لعمرو بن عبد	
	دوس	١	-	-	١			
	المجموع	٢	-	٤	٦			

(١٥) الطبقة السابعة: قريش وعدنان

القبيلة	العشيرة	صليبية	حلفاء	موال	عددهم	تعليقات عن الصليبية	تعليق عن الموالي	ملحوظات
قريش	بنوهاشم	١	-	١	٢	١ حفيد حفدة علي	هشام بن سعد مولى لأبي لهب	
	بنو أمية	-	-	١	١		عبدالحكيم بن عبدالله ابن أبي فروة مولى عثمان	
	أسد بن عبدالعزى	١	-	-	١			
	بنوزهرة	١	-	١	٢	ابن أخي الزهري	مخرمة بن بكير بن عبدالله الأشج	
	بنوتيم	١	-	-	١	١ حفيد حفدة طلحة		
	بنو عدي	٦	-	٤	١٠	٢ حفدة حفدة عمر (عاصم) ١ حفيد حفيد عمر (عبدالله) ٣ أحفاد حفيد عاصم بن الخطاب		
	بنوعامر بن لؤي	١	-	١	٢	محمد بن عبدالرحمن بن المغيرة بن أبي ذئب		
	لم ينسب	-	-	١	١		داود بن قيس	
	المجموع	١١	-	٩	٢٠			
بقية عدنان	بنو ليث	-	-	٣	٣		- سلمة بن وردان - أسامة بن زيد - يعقوب بن محمد ابن طحلاء	
	بنوغفار	-	-	١	١		ثابت بن قيس	
	مزينة	-	-	٢	٢		إسماعيل بن رافع وأفلح بن سعيد	
	ثقيف	-	-	١	١		عثمان بن عبدالله بن مواهب الأعرج مولى للحكم بن أبي العاص	
	بنوأسلم	٢	-	١	٣		كثير بن زيد	
	المجموع	٢	-	٨	١٠			
	لم ينسب لا عدنان ولا اليمن	٥	-	-	٥			

(١٦) الطبقة السابعة: الأنصار واليمن

القبيلة	العشيرة	صليبية	حلفاء	موال	عددهم	تعليقات عن الصليبية	تعليق عن الموالي	ملحوظات
الأوس	عبدالأشهل	-	-	١	١		إبراهيم بن إسماعيل ابن أبي حبيبة مولى عبدالله بن سعيد الأشهلي	
	حليف للأوس عامة	-	٢	-	٢	- عبدالحميد بن جعفر - الحكم صالح بن حسان النضري		
الخزرج	بنوالنجار	١	-	١	٢	١ ابن حفيد عمرو بن حزم	أفلح بن عبيد بن ناصر مولى لأل أبي أيوب الأنصاري	
	أنصاري لم ينسب	١	-	-	١			
	اليمن ولم ينسب	١	-	-	١			
	المجموع	٣	٢	٢	٧			

(١٧) الطبقة الثامنة: قريش والأنصار واليمن

القبيلة	العشيرة	صليبية	حلفاء	موال	عددهم	تعليقات عن الصليبية	تعليق عن الموالي	ملحوظات
قريش	بنوهاشم	-	-	١	١		عبدالرحمن بن الموال مولى لأبي رافع مولى النبي ﷺ	
	بنوأمية	-	-	٢	٢		عبدالرحمن بن أبي الزناد مولى رملة بنت شيبة بن ربيعة بن عبدشمس - ابنه محمد	
	بنوأسد بن عبدالعزى	١	-	-	١			
	بنوزهرة	٢	-	-	٢	١حفيد حفيد عبدالرحمن بن عوف		
	بنو تيم	١	-	٢	٣	المنكدر	١ عبدالعزيز بن عبدالله الماجشون ١ سليمان بن بلال مولى محمد بن القاسم بن محمد بن أبي بكر	
	بنوعدي	-	-	١	١		عبدالرحمن بن زيد بن أسلم مولى عمر	
	المجموع	٤	-	٦	١٠			
الأنصار	الأوس: بنومرة	-	-	١	١		محمد بن مسلم الطائفي	
	الخزرج: بنوالنجار	١	-	-	١			
	المجموع	١	-	١	٢			
بقية اليمن	خزاعة	-	-	١	١		فيلح بن سليمان بن أبي المنيرة	
	أصبح	١	-	-	١	مالك بن أنس		
	المجموع	١	-	١	٢			

(١٨) الطبقة التاسعة: قريش وبقية عدنان واليمن

القبيلة	العشيرة	صليبية	حلفاء	موال	عددهم	تعليقات عن الصليبية	تعليق عن الموالي	ملحوظات
قريش	بنو أمية	-	-	١	١		حفيد عبدالله بن محمد بن أبي فروة مولى عثمان	
	بنو زهرة	١	-	-	١	ثابت بن أبي ثابت الأعرج حفيد حفيد عبدالرحمن بن عوف		
	بنومخزوم	-	-	١	١		عبدالله بن نافع الصائغ	
	المجموع	١	-	٢	٣			
عدنان	بنوليث	١	-	١	٢		عبد العزيز بن أبي حازم سلمة بن دينار	
	بنوالدائل	-	-	١	١		محمد بن إسماعيل بن أبي فديك	
	أشجع	-	-	١	١		معن بن عيسى بن معن	
	المجموع	١	-	٣	٤			
اليمن	قضاعة	-	-	١	١		ابن عبيد الدراوردي مولى للبرك بن وبرة	
	بنو الحارث	-	-	١	١		حاتم بن إسماعيل	
	المجموع	-	-	٢	٢			
	لم ينسب	١	-	-	١			

ملحق رقم III (أ). ملخص إحصاءات الصحابة كلهم

القبيلة	القبيلة أو الفخذ أو العشيرة	الصحابة				من أدرك منهم جميعا الدولة الأموية														ملحوظات
		تصنيفهم الاجتماعي				تصنيفهم الاجتماعي				الأماكن التي نزلوها										
		صلبية	حلفاء	موال	عددهم	صلبية	حلفاء	موال	عددهم	المدينة	لم يذكر	مكة	الطائف	البصرة	الكوفة	الشام	مصر	الجزيرة	أخرى	
عدنان كلها	قريش	١٠٢	١٧	٣٢	١٥١	٢٩	٢	٤	٣٥	٥	١٢	٨	٢	١	١	٤	٢	-	-	
	عدنان من غيرهم	٢٨٣	-	٢	٢٨٥	٢٣	-	-	٢٣	١	٥	١	-	٩	٤	٣	-	-	-	
	المجموع الكلي	٣٨٥	١٧	٣٤	٤٣٦	٥٢	٢	٤	٥٨	٦	١٧	٩	٢	١٠	٥	٧	٢	-	-	
اليمن كلها	الأنصار	١٤٧	٤	١	١٥٢	٢٤	-	-	٢٤	٤	١٣	-	-	١	٢	٣	-	-	١	
	اليمن من غيرهم	١٨٩	-	٣	١٩٢	٢٣	-	-	٢٣	١	٦	-	-	٢	١٠	١	١	-	٢	
	العدد الكلي	٣٣٦	٤	٤	٣٤٤	٤٧	-	-	٤٧	٥	١٩	-	-	٣	١٢	٤	١	-	٣	
	عدنان كلها	٣٨٥	١٧	٣٤	٤٣٦	٥٢	٢	٤	٥٨	٦	١٧	٩	٢	١٠	٥	٧	٢	-	-	
	اليمن كلها	٣٣٦	٤	٤	٣٤٤	٤٧	-	-	٤٧	٥	١٩	-	-	٣	١٢	٤	١	-	٣	
	المجموع الكلي	٧٢١	٢١	٣٨	٧٨٠	٩٩	٢	٤	١٠٥	١١	٣٦	٩	٢	١١	١٧	١١	٣	-	٣	

ملحق رقم III (أ). ملخص إحصاءات الصحابة من قريش والأنصار (ب)

القبيلة	القبيلة أو الفخذ أو العشيرة	الصحابة				من أدرك منهم جميعا الدولة الأموية														ملحوظات
		تصنيفهم الاجتماعي				تصنيفهم الاجتماعي				الأماكن التي نزلوها										
		صلبية	حلفاء	موال	عددهم	صلبية	حلفاء	موال	عددهم	المدينة	لم يذكر	مكة	الطائف	البصرة	الكوفة	الشام	مصر	الجزيرة	أخرى	
	قريش	١٠٢	١٧	٣٢	١٥١	٢٩	٢	٤	٣٥	٥	١٢	٨	٢	١	١	٤	٢	-	-	
	الأوس	٤٤	٣	-	٤٧	٨	-	-	٨	-	٦	-	-	-	١	١	-	-	-	
	الخزرج	٨٠	١	١	٨٢	١٥	-	-	١٥	٤	٦	-	-	١	١	٢	-	-	١	
	لم يتصل نسبه	٢٣	-	-	٢٣	١	-	-	١	-	١	-	-	-	-	-	-	-	-	
	المجموع	٢٤٩	٢١	٣٣	٣٠٣	٥٣	٢	٤	٥٩	٩	٢٥	٨	٢	٢	٣	٧	٢	-	١	

ملحق رقم IV. ملخص جداول طبقات الفقهاء والمحدثين من أهل المدينة بعد الصحابة (ز)

الطبقة	العدنانية								اليمن								مجموع العدنانية	مجموع اليمن	المجموع الكلي	ملحوظات
	قريش				بقية عدنان				الأنصار				بقية اليمن							
	صليبة	حلفاء	موال	عددهم	صليبة	حلفاء	موال	عددهم	صليبة	حلفاء	موال	عددهم	صليبة	حلفاء	موال	عددهم				
الأولى	٣٧	٣	٨	٤٨	٦	-	١	٧	٢٠	-	٢	٢٢	٢	-	-	٢	٥٥	٢٤	٧٩	
الثانية	٧٩	٢	١٥	٩٦	١٠	-	٧	١٧	٥٢	-	٢	٥٤	٨	-	٣	١١	١١٣	٦٥	١٧٨	
الثالثة	١٢	١	٣	١٦	٣	-	١	٤	٧	-	-	٧	-	-	-	-	٢٠	٧	٢٧	
الرابعة	٤٥	٣	١٨	٦٦	٤	-	٢	٦	١١	١	٢	١٤	٦	-	١	٧	٧٢	٢١	٩٣	
الخامسة	٢	-	٦	٨	١	-	٢	٣	٣	-	١	٤	٢	-	٢	٤	١١	٨	١٩	
السادسة	٣٠	-	١١	٤١	٣	-	١	٤	٣	١	-	٤	٢	-	٤	٦	٤٥	١٠	٥٥	
السابعة	١١	-	٩	٢٠	٢	-	٨	١٠	٢	٢	٢	٦	١	-	-	١	٣٠	٧	٤٢*	* لم ينتسبوا مطلقا
الثامنة	٤	-	٦	١٠	-	-	-	-	١	-	١	٢	١	-	١	٢	١٠	٤	١٤	
التاسعة	١	-	٢	٣	١	-	٣	٤	-	-	-	-	-	-	٢	٢	٧	٢	٩	
المجموع	٢٢١	٩	٧٨	٣٠٨	٣٠	-	٢٥	٥٥	٩٩	٤	١٠	١١٣	٢٢	-	١٣	٣٥	٣٦٣	١٤٨	٥١٦*	٥* لم ينتسبوا

التعليقات

(١) برزت كتابات التاريخ الوطني أولا مع الثورات الوطنية، ورسخته الجامعات الوطنية، ثم ظهر تيار إقليمي في دراسة التاريخ، تجده في المغرب قد جاء مبكرا، ثم ظهر الاهتمام به في المشرق بإقامة ندوات دورية لكتابة تاريخ إقليم بذاته... مثل ندوة تاريخ الشام، وهذه ندوة عن تاريخ الجزيرة. ولم تتجاوز إحداهما الحلقة الرابعة.

(٢) عن هذه الأفكار راجع ما حاولته أخيرا في ورقة قدمت في ندوة مؤسسة عبدالحميد شومان عن "الدوري إنسانا ومؤرخا ومفكرا" وعنوان مداخلتي موضع الشاهد "مساهمة الدوري في تفسير التاريخ العربي الإسلامي"، عمان ٢٠-٢١ أكتوبر ١٩٩٩م.

(٣) انظر: عبد العزيز الدوري، *بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب* (بيروت: دار المشرق، ١٩٨٣م)، ٢٤.

(٤) سبق أن حاولت شيئا من هذا قبل ثلاثة عقود عن ابن سعد *وطبقاته* ثم نشرته أخيرا دار الغرب الإسلامي (بيروت، ١٩٨٧م). وقد أجريت محاولة أخرى عن الموالي والإدارة وبني أمية في المغرب (انظر: عزالدين موسى، "قراءة في علاقة بني أمية: ولاتهم وعمالهم في المغرب، "*التاريخ العربي*، الرباط، ٥ (١٤١٨هـ/١٩٩٨م)، ٢٣١-٢٤٨.

والحق أنني لست سعيدا بعملي في ابن سعد *وطبقاته*، ليس لأنها المحاولة الأولى في مقتبل عمري الأكاديمي فحسب، بل لأن *طبقات* ابن سعد فيها مشاكل كثيرة بسبب ما في المطبوع من سقوط طويلة وكثيرة... (المطبوع هنا تعني طبعة دار صادر، بيروت). وقد اعتنى زياد محمد منصور بأطولها في طبقات بعض أهل المدينة ونشره... (سلسلة إحياء التراث، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م). كما أن هناك مشاكل أخرى نتيجة الزيادة أو الحذف، واعتنى عبد العزيز السلومي ومحمد بن صائل السلمي بطبقات الصحابة، فحقق نشر الأول الطبقة الرابعة (الطائف، مكتبة الصديق، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م)، وأصدر الثاني الطبقة الخامسة (الطائف، مكتبة الصديق، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م). وقد سبق أن نبه غير واحد على هذه الإشكالية منهم إبراهيم طرخان، "الجزيرة العربية في كتب السير أو التراجم مع دراسة تحليلية لكتاب الطبقات الكبرى لابن سعد وأهميته مصدرا لتاريخ الجزيرة العربية، "*مصادر تاريخ الجزيرة العربية* (الرياض: جامعة الملك سعود، سلسلة دراسات تاريخ الجزيرة العربية، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م)، ١: ١، ١٦٦. وقد كنت غافلا عن هذا العمل حتى ذكرني به الأخ الفاضل محمد الجميل من قسم التاريخ جامعة الملك سعود، الرياض.

وعلى ما في الأعمال التي حققت من فائدة علمية كبرى إلاّ أن الطبقات كله يحتاج إلى إعادة تحقيق قبل الاستفادة منه بأسلوب إحصائي.

وهنا تجدر الإشارة إلى أن هذا الأسلوب الإحصائي قد استخدم في عدد من رسائل الدراسات العليا في قسم التاريخ من جامعة الملك سعود في موضوعات مختلفة ومناطق متباينة، بإشرافي أو مساعدتي، وجاء بفوائد طيبة (انظر مثلا أعمال كل من سعاد جودت وريم العيدي ولطيفة البسام وإبراهيم العتيبي ومنيرة الراشد وعبد الوهاب شيرة).

(٥) خليفة بن خياط، *كتاب الطبقات*، تحقيق أكرم ضياء العمري (الرياض: دار طيبة، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م)، وهي الطبعة المستخدمة هنا.

(٦) اعتنت الجامعة العبرية في القدس بهذا الكتاب قديما، ونشرت منه جزئين، ثم اهتم المعهد الألماني للأبحاث الشرقية في بيروت بالكتاب، وكلف عددا من أهل الاختصاص بتحقيقه، وصدرت منه عدة أجزاء. وأخيرا نشرت دار الفكر (بيروت، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م) الكتاب كاملا، بعنوان *كتاب جمل من أنساب الأشراف*، وبتحقيق سهيل زكار ورياض زركلي. وما يرد هنا من إشارة فهي إلى هذه الطبعة الأخيرة.

(٧) انظر: عزالدين موسى، *ابن سعد وطبقاته*، ٣٠-٣١.

(٨) خليفة بن خياط، *الطبقات*، ٨٠.

(٩) انظر الملحقين III و ب IV.

(١٠) راجع: خليفة بن خياط، *الطبقات*، ١٢، ١٦-١٧، ٢١-٢٢.

(١١) خليفة بن خياط، *الطبقات*، ٢٥٥.

(١٢) خليفة بن خياط، *الطبقات*، ٢٣٢.

(١٣) خليفة بن خياط، *الطبقات*، ٢٤٧-٢٥٠ وأدناه الملحق II:4 الطبقة الثانية: سائر القبائل.

(١٤) خليفة بن خياط، *الطبقات*، ٢٣٧.

(١٥) خليفة بن خياط، *الطبقات*، ٢٦٠-٢٦٢.

(١٦) خليفة بن خياط، *الطبقات*، ٢٤٢، ٢٥٢، ٢٦٠.

(١٧) خليفة بن خياط، *الطبقات*، ٨٠-٨١.

(١٨) خليفة بن خياط، *الطبقات*، ٢٦٥.

(١٩) خليفة بن خياط، *الطبقات*، ٢٦٣-٢٦٤.

(٢٠) خليفة بن خياط، *الطبقات*، ٢٦٨.

(٢١) راجع: خليفة بن خياط، *الطبقات*، ٢٥٥.

(٢٢) انظر مثلا: ٤١، ٨٠، ١١٨، ١٤٤.

(٢٣) مثله ١١٨، ١٢٣. وانظر عن النساء الصحابيات، ٣٣٦.

(٢٤) قارن: ٨ و٣٠؛ ٣٢ و٣٤؛ ١٢-١٣ و٣٥؛ ٤٤ و٤٦؛ ١٩ و٦٢؛ ٢١ و١٧٥؛ ١٦-١٧ و١٢٠؛ ٣٣٩ و٣٤٠؛ ٣٣٩ و٣٤٠ و٣٤١.

(٢٥) قارن: ٢٣١ و٢٤٨ و٢٤٩؛ ٢٤٢ و٢٥٩ و٢٦٠.

(٢٦) قارن: ٢٣١ و٢٣٩؛ ٢٣٨ و٢٥٢؛ ٢٤٨ و٢٥٤؛ ٢٤٩ و٢٥٤؛ ٢٤٩ و٢٥٥؛ ٢٥٩ و٢٦٠؛ ٢٦٤ و٢٦٥؛ ٢٦٣ و٢٦٨، ٢٦٥ و٢٠٧.

(٢٧) انظر: ٤١، ٤٥، ٤٧.

(٢٨) خليفة بن خياط، *الطبقات*، ٢٣٢.

(٢٩) خليفة بن خياط، *الطبقات*، ٧٠.

(٣٠) خليفة بن خياط، *الطبقات*، ٤١.

(٣١) خليفة بن خياط، *الطبقات*، ١١٦.

(٣٢) خليفة بن خياط، *الطبقات*، ٦٥.

(٣٣) خليفة بن خياط، *الطبقات*، ١٢، ٣٥.

(٣٤) خليفة بن خياط، *الطبقات*، ٨٠، ١١٨.

(٣٥) خليفة بن خياط، *الطبقات*، ١٣، ١٢٣.

(٣٦) خليفة بن خياط، *الطبقات*، ٢١، ٧٥.

(٣٧) خليفة بن خياط، *الطبقات*، ٢٣، ٦٣.

(٣٨) خليفة بن خياط، *الطبقات*، ١٩، ٦٣.

(٣٩) خليفة بن خياط، *الطبقات*، ٤٤، ٤٦، ٥٢، ٦٢، ٦٦.

(٤٠) خليفة بن خياط، *الطبقات*، ١١٥.

(٤١) انظر: ١٠٤-١٠٦، ١٢٣-١٢٥.

(٤٢) انظر جداول التابعين في ملحق رقم IIII.

(٤٣) انظر مثلا: ٥، ٧، ٩، ١٠، ١١، ٢٢، ٢٦، ٢٧... إلخ.

(٤٤) ٣٣، ٣٤، ٤٥، ٤٦، ٤٧، ٤٨، ١٠٨، ١١٧.

(٤٥) مثلا: ٢٩، ٣٣، ٣٤، ٣٦.

(٤٦) انظر ٣٠.

(٤٧) انظر: ٢٧، ٣١، ٣٦.

(٤٨) مثاله ٣٠، ٣٢، ٣٣، ٣٥، ١١٧.

(٤٩) انظر: ٧.

(٥٠) انظر أمثلة: ٦، ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٣٨، ٤٤، ٤٦، ٥٤، ٦٤، ٨٧، ١١٠، ١١٣، ١١٨.

(٥١) ذكر عبد الله بن عكرمة وأخاه عبد الله الأصغر فقال "لا أدري عن أيهما رُوي الحديث" (خليفة بن خياط، *الطبقات*، ٢٦١).

(٥٢) انظر أعلاه تعليقة رقم٤.

(٥٣) خليفة بن خياط، *الطبقات*، ٤.

(٥٤) خليفة بن خياط، *الطبقات*، ٢٣٠-٢٣٦.

(٥٥) خليفة بن خياط، *الطبقات*، ٢٤٢-٢٤٣.

(٥٦) خليفة بن خياط، *الطبقات*، ٢٥٧.

(٥٧) خليفة بن خياط، *الطبقات*، ٢٥٨.

(٥٨) خليفة بن خياط، *الطبقات*، ٢٦٦.

(٥٩) خليفة بن خياط، *الطبقات*، ٢٦٨.

(٦٠) خليفة بن خياط، *الطبقات*، ٢٧٢-٢٧٤.

(٦١) خليفة بن خياط، *الطبقات*، ٢٧٤.

(٦٢) خليفة بن خياط، *الطبقات*، ٢٧٦.

(٦٣) خليفة بن خياط، *تاريخ خليفة*، تحقيق أكرم ضياء العمري (الرياض: دار طيبة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م)، ٣٩٢.

(٦٤) انظر: ٣٩٠ - ٣٩١.

(٦٥) انظر: أدناه ٣٩٧-٣٩٨.

(٦٦) ما يرد في هذه الفقرة دون توثيق فهو من مقدمة أكرم ضياء العمري في تحقيقه *لتاريخ* خليفة، وهي مختصرة وجامعة وقيمة (*تاريخ خليفة*، ٥-٣٠، وما هنا إشارة إلى ٥-١١). ولم أوثق منها إلاّ النقل المباشر من مصادر تلك الترجمة.

(٦٧) انظر ترجمته عند ابن حجر، *تهذيب التهذيب* (حيدر آباد الدكن، ١٣٢٥هـ)، ٣: ١٦١.

(٦٨) الذهبي، *سير أعلام النبلاء*، ١١: ٤٧٣.

(٦٩) انظر: موسى، *ابن سعد وطبقاته*، ٣٢-٣٣.

(٧٠) خليفة بن خياط، *الطبقات*، ٢٣٠.

(٧١) انظر: خليفة بن خياط، *الطبقات*، ٣٩٣-٣٩٤.

(٧٢) انظر عن هذه المسألة بحث صالح أحمد العلي في *خطط البصرة ومنطقتها* (بغداد: المجمع العلمي العراقي، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م)، ٥١-١٤٠.

(٧٣) انظر عنها: أحمد أمين، *ضحى الإسلام* (القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م)، ٢: ٢٠٨، وقارنها بسلسلة مدرسة الكوفة (المرجع نفسه، ١٨٠).

(٧٤) خليفة بن خياط، *الطبقات*، ٢٦٥.

(٧٥) خليفة بن خياط، *الطبقات*، ٢٦٧.

(٧٦) خليفة بن خياط، *الطبقات*، ٢٦٨.

(٧٧) *صحيح البخاري*، ٤: ٢١٢؛ ٨: ١٦١؛ *مسند الإمام أحمد*، ٥: ٣٦، ٣٩. وهناك روايات أخرى فيه (انظرها في *صحيح مسلم*، ٤: ١٩٥٥، ١٩٥٦؛ *مسند الإمام أحمد*، ٢: ٢٣٠، ٣٦٩، ٤٢٠؛ ٥: ٤١).

(٧٨) *صحيح مسلم*، ٤: ١٩٥٤؛ *مسند الإمام أحمد*، ٢: ٢٩١؛ ٥: ١٩٤.

(٧٩) انظر: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، *تاريخ الرسل والملوك*، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، سلسلة ذخائر العرب، رقم ٣٠ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٧م)، ٧: ٣٩٣؛ ابن الأثير، *الكامل في التاريخ* (بيروت: دار صادر، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م)، ٥: ٣٨٩.

(٨٠) انظر: خليفة بن خياط، *الطبقات*، ٨، ٣٠، ٢٦٤، ٢٦٥.

(٨١) انظر مثلا: ابن سعد، *الطبقات* (ط. دار صادر)، ٥: ٥٧.

(٨٢) انظر مثلا: ابن سعد، *الطبقات* (ط. زياد منصور)، ٣٠٢.

(٨٣) البلاذري، *أنساب الأشراف*، تحقيق رمزي بعلبكي (بيروت: ١٤١٧هـ/١٩٩٧م)، ٧:١: ١٢٤.

(٨٤) أحمد أمين، *فجر الإسلام*، ١٥٢-١٥٣.

نشاط المحدثين والفقهاء بمكة في العصر الأموي

أكرم ضياء العمري

كلية الشريعة، جامعة قطر ، الدوحة

تمهيد

لا بد من التعريف بالمحدثين و الفقهاء أولا قبل الحديث عن نشاطهم في مكة خلال العصر الأموي ، فالمحدثون هم الرواة الذين نقلوا الأحاديث النبوية من جيل إلى جيل بالاعتماد على الرواية الشفوية أولا ثم الكتابة ، ولكن الغلبة كانت للرواية الشفوية طيلة العصر الأموي وكانت الكتابة ، موضع تردد ومثار نقاش حتى استقر لها الرسوخ والثبات في نهاية العصر الأموي ، مع استمرار الرواية الشفوية ، وبذلك بدأت الثقافة الإسلامية تدخل مرحلة جديدة هي الكتابية بدل الشفاهية وهي نقلة عظيمة الأهمية في تاريخ الحضارات ، و قد مهدت إلى ظهور المصنفات في القرن الثاني للهجرة و ما بعده . و قد وضعوا قواعد أولية للتعامل مع الأحاديث ، فالصحابة رحلوا من الحجاز إلى الأمصار بأعداد كبيرة ، وتفرق العلم الذي كان مجتمعا في المدينة بصورة خاصة. ووقع الاختلاف في فهم الأحاديث و توجيهها في فترة مبكرة من تاريخ الإسلام ، و في جيل الصحابة أولا ، و يتضح ذلك في " ما استدركت عائشة على الصحابة رضي الله عنهم" مما صنف فيه الزركشي (ت٧٩٤هـ).

وكان لوقوع الفتن و الخلاف السياسي أثر في الظهور المبكر لحركة الوضع في الحديث إلى جانب العوامل الأخرى التي تمثلت بظهور الفرق الدينية و الاتجاهات العقدية خلال العصر الأموي ، مما جعل المحدثين يحتاطون في منهج البحث في السنة ، فاشترطوا شروطا لقبول الروايات في الراوي و المروي اتسعت فيما بعد وتبلورت في علم مصطلح الحديث.

والفقهاء هم الذين فسروا آيات الأحكام في القرآن و أحاديث الأحكام في السنة ، معتمدين على منهج بحث خاص يعتمد استقراء اللغة العربية ، و أحيانا يمتد الاستقراء إلى اللغات الخاصة بالكتل القبلية الكبرى ، كما

يعتمد المنهج على معرفة أسباب نزول آيات القرآن و أسباب ورود الأحاديث، والناسخ والمنسوخ من القرآن والحديث، و تعليل الأحكام سواء ذكرت العلة في النصوص أم لم تذكر، وهم يجمعون بين معرفة القرآن و السنة وأقوال الصحابة في المسائل الفقهية التي يبحثونها، و يفهمون السنة في ضوء القرآن، و يجمعون بين الروايات، فالقرآن و السنة يفسران بعضهما بعضا، وتقع زيادات في روايات الأحاديث التي ينقلها عدد من الصحابة توضح العلة و السبب و الظروف المحيطة بالتشريع. وقد يقع تعارض ظاهري بين الأحاديث فيجمعون بينها عن طريق التوفيق، فإن كان التعارض شديدا لا يقبل التوفيق فإنهم يلجؤون إلى الترجيح بين الروايات بتقديم الأصح على الصحيح و الصحيح على الحسن. أما إن تعارضت رواية صحيحة مع ضعيفة فإنهم يأخذون بالصحيح، لأن الضعيف لا ينهض لمعارضته، فلا حاجة للترجيح. وإن علموا تاريخ ورود الحديثين الصحيحين المتعارضين تعارضا شديدا بحيث لا يمكن التوفيق بينهما، فإنهم يعتمدون القول بنسخ الحديث المتقدم و بقاء الحكم للحديث المتأخر. وبذلك ظهرت بواكير المنهج الأصولي و المنهج الحديثي.

و هنا لا بد من بيان التداخل الكبير بين المحدثين و الفقهاء، في العصر الأموي و ما قبله، فالمحدث أحيانا يكون فقيها، و الفقيه غالبا ما يكون محدثا، و لم يحدث التمايز الدقيق بين الفئتين إلا في نهاية العصر الأموي عندما برزت مدرسة الرأي في الكوفة.

المصادر

إن هذا الموضوع يحتاج إلى استقراء تام للمصادر الأولية التي ترجمت للمحدثين و الفقهاء في القرنين الأولين، و يقف على رأسها كتاب *الطبقات الكبرى* لابن سعد (ت ٢٣٠هـ) بطبعاته المتأخرة والتي ضمت ما نشره الدكتور محمد صامل السلمي عن الطبقة الخامسة من الصحابة بمكة. وما نشره الدكتور محمد مطر الزهراني عن الطبقة الرابعة من الصحابة بمكة. فإن عددا من الصحابة المذكورين تأخرت وفاياتهم إلى العقود التي أعقبت قيام الدولة الأموية، وكان لهم أثر في الحركة الحديثية و الفقهية في الجزيرة العربية و الأمصار الجديدة. كما يتمثل ذلك في مدرسة عبدالله بن عباس و تلاميذه الذين أثروا بصورة واضحة في الحركة الفكرية، كما فعل قتادة بن دعامة السدوسي (ت ١١٨ هـ) و مجاهد بن جبر(ت ١٠٤ هـ) في البصرة، و كما فعل طاووس (ت ١٠٦هـ) في اليمن وعكرمة وعطاء في مكة. و قد تناول ابن سعد طبقات الصحابة في المدينة و مكة و الكوفة و البصرة و غيرها، في الأقسام التي طبعت قديما في ليدن، ولكن القطعة التي نشرها د. زياد منصور منه ذات أهمية خاصة لهذا البحث لأنها تتعلق كثيرا بتراجم أهل العلم في العصر الأموي. وعندما نتأمل في مصادر علم الحديث و الفقه في مدينة مهمة في الحياة الفكرية هي الكوفة، فإن البدايات ترجع إلى صحابي جليل هو عبدالله بن مسعود. كما أن انتعاش

الدراسات القرآنية في البصرة ترجع إلى أبي موسى الأشعري و هو أشهر صحابي تغنى بالقرآن منذ عصر السيرة، وإلى جانبه أنس بن مالك الذي عرف بغزارة معلوماته في السنة النبوية.

ولكن تراجم ابن سعد لم تقتصر على طبقات الصحابة بل امتدت إلى التابعين ومن بعدهم، وطبقة التابعين هي أهم طبقات أهل العلم من حيث معاصرتها للدولة الأموية، و تطويرها لعلوم الفقه والحديث في ذلك العصر، و نقلها لعلم الصحابة إلى الأجيال التالية.

و ينبغي هنا التنويه بأثر كتاب *الطبقات* لخليفة بن خياط (ت ٢٤٠ هـ) في حصر أسماء المحدثين و توزيعهم على الأنصار، وكتاب *التاريخ* لابن أبي خيثمة (ت٢٧٩ هـ) الذي يقدم معلومات غزيرة متناثرة، وكتاب *المعرفة* و *التاريخ* ليعقوب بن سفيان (ت ٢٧٧ هـ) الذي يركز - إذا قورن بابن سعد - على العلم أكثر من بقية جوانب الحضارة.

ومن هنا كان الجمع بين نشاط الفئتين أمرا لازما في هذا البحث الذي يهدف إلى إظهار نشاط المحدثين والفقهاء على مستوى الدولة و المجتمع و تطوير العلم الإسلامي ووضع تقاليده الأولى ورسم معالم مناهجه الأولية لأنها اتخذت تقليدا ومعالم عند المدونين في العصر العباسي الذي صنفت فيه العلوم الإسلامية على نطاق واسع. ولا أحد ينكر بالطبع قاعدة "الاتباع" ورفض "الابتداع" في الدين، مما أدى إلى رسوخ التقاليد و المعالم و الضوابط التي وضعها المحدثون و الفقهاء في العصر الأموي، وانتقلت منهم إلى الأجيال التالية في العصر العباسي.

الأفكار الأساسية المطروحة

إن المرجعية الدينية للسلطة الأموية و ربما المجتمع الإسلامي إلى حد كبير كانت تؤول إلى فقهاء ومحدثين في مكة و المدينة.[1] ولم تكن السلطة تثق بالمصادر العراقية لأسباب ترجع إلى وضع الحديث بكثرة في العراق بالإضافة إلى العامل السياسي حيث مثل العراق مركز معارضة للأمويين، ولا شك أن التنظيرات المتنوعة للحياة كانت تنبثق عن مصدرين أساسيين هما القرآن و الحديث، حيث لم تكن مدرسة الرأي قد اتسعت حتى أواخر العصر الأموي. وسوف نلاحظ أن مدرسة الصحابي عبدالله بن عباس تقف في مقدمة الحركة الفقهية، وهي مدرسة اتسمت بالتيسير وعدم التشدد، وكان ابن عباس يستقي مادته من القرآن و يقوم بتفسيره معتمدا على تحديد الدلالات للمفردات اللغوية على الشعر الجاهلي الذي كان واسع الاطلاع فيه، بالإضافة إلى شواهد من التراث الكتابي "الإسرائيليات" التي توضح بعض القصص القرآني التي وردت بصورة إشارات و تلخيصات وتصحيحات للتراث الإسرائيلي مما يتضح من مقارنة نصوص التوراة و القرآن .

وقد كان تلاميذ ابن عباس كثيرين ، واشتهر عدد منهم بالعلم ، وبعضهم عاش حياته في الجزيرة العربية ولم يغادرها مثل طاووس وبعضهم تجول في الأمصار رغم أن إقامته الدائمة كانت بمكة مثل عكرمة مولى ابن

عباس، كما أن بعضهم الآخر استقر بالأمصار مثل سعيد بن جبير الذي استقر بالبصرة وتضلع بالتفسير والفقه وكان له مواقف سياسية عنيفة عندما شارك في ثورة عبد الرحمن بن الأشعث ضمن القراء الذين كانوا محرضين على الثورة ولهم أثر كبير فيها وقد دفع حياته ثمناً لهذه المشاركة . أما الحسن البصري تلميذ ابن عباس الذي اشتهر بالعبادة والرقائق والوعظ والزهد، فقد جنح إلى اعتزال الثورة الأشعثية ، واستمر في إرشاد سكان البصرة دون التعرض لسخط الحجاج الثقفي . في حين اهتم تلميذ آخر لابن عباس هو قتادة بن دعامة السدوسي (ت ١١٨هـ) بتفسير القرآن ، ولم يؤثر عنه نشاط سياسي واضح حيث مستقره في البصرة وأما عطاء بن أبي رباح فقد كان اهتمامه منصباً على الفقه .

إن حملة الحديث النبوي الأوائل هم الصحابة رضوان الله عليهم ، وقد ذكرت المصادر أسماء المكثرين وهم :

أبو هريرة (ت ٥٧) ٥٣٧٤ حديثا.

عبد الله بن عمر (ت ٧٣ هـ) ٢٦٣٠ حديثا.

أنس بن مالك (ت ٩٣ هـ) ٢٢٨٦ حديثا.

عائشة (ت ٥٨ هـ) ٢٢١٠ حديث.

عبد الله بن عباس (ت ٦٨ هـ) ١٦٠٠ حديثا.

جابر بن عبدالله (- ٧٤) ١٥٤٠ حديث

أبو سعيد الخدري (ت ٧٤ هـ) ١١٧٠ حديثا.

عبد الله بن عمرو بن العاص (ت ٦٣هـ) ٧٠٠ حديثا.

ومجموع ذلك ١٧،٥١٠ أحاديث تحتوي معظم الأحاديث النبوية ، وكلهم عاشوا في العصر الأموي ردحاً من الزمان طال أم قصر ، وكان لهم تلاميذ نقلوا الأحاديث عنهم ولكن واحداً منهم هو عبد الله بن عباس استقر في مكة وكون مدرستها التفسيرية والحديثية والفقهية رغم أن تلاميذه أخذوا بعض معلوماتهم من بقية الصحابة الذين كانوا يقدمون مكة في موسم الحج أو عن طريق الرحلة في المدينة .

لقد ترجم ابن سعد لثمانية من فقهاء مكة خلال العصر الأموي، وهم عبد الله بن عباس ومولاه عكرمة ، وعطاء بن أبي رباح (ت ١١٥ هـ) ، ومجاهد بن جبر (ت ١٠٤ هـ) ، وعمرو بن دينار (ت ١٢٦ هـ) ، وقيس بن سعد (ت ١١٩ هـ)، وقتادة بن دعامة السدوسي (ت ١١٨ هـ) وطاووس (ت ١٠٦ هـ) .

وبالطبع ، فإن رأس المدرسة الفقهية هو عبد الله بن عباس الذي توسع في علوم العربية والشعر الجاهلي والحديث والتفسير إلى جانب الفقه ، فأخذ عنه تلاميذه هذا المنزع نحو التنوع المعرفي الثقافي ولم يقتصروا على الفقه ، وبعضهم أظهروا تقدماً على أقرانهم فخصهم ابن عباس بمجلس يقتصر عليهم ومنهم طاووس(ت

١٠٦هـ)، في حين كان عطاء بن أبي رباح (ت ١١٥هـ) وعبيدالله بن أبي يزيـد (ت١٢٦هـ) يحضـران المجلس الآخر المخصص لعامة الطلبة .

أما عطاء، فقد أثبت إتقانه للفقه وخاصة فقـه مناسـك الحـج ، فكـان المرجـع الأول للنـاس فيـها ، وعـرف عطاء بورعه في فقه البيوع ، وكان ابن عمر يزكـي علمـه ، وكـان يميز في فتاويـه بـين النـص - مـن قـرآن وحديـث - والرأي، ويحسن صياغتها، وكان إلى جانب ذلك يعلّم الكتابة، ويحض تلاميذه عليها : "فمن كـان منكـم لا يحسـن كتبنا له ، ومن لم يكن عنده قرطاس أعطيناه من عندنا." مما يوضـح توافـر القراطيـس في مكـة، ومعـروف أن ورق البردى القادم من مصر يسد المادة اللازمة للكتابة، وكان شعبة بن الحجـاج يـرى أن مجـاهداً وعطـاء يرويـان أحـاديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه من كتاب .[٢] واحتل قيس بن سعد (ت ١١٩هـ) مجلس عطاء بعد وفاته ، وأفتى بأقواله واستقل بها .

وصار عمرو بن دينـار : (ت ١٢٦ هـ) مفـتي أهـل مكـة ، وقـد رشـحه عطـاء أسـتاذاً لطلبـة العلـم ، وكـان يعتمد على ذاكرته ويحدث بالمعنى ، ويأبى أن يكتب عنه علمه حديثا وفقها : "يسألوننا عن رأينا فنخبرهم فيكتبونـه كأنه نقر في حجر ، ولعلنا أن نرجع عنه غداً !" وكان واضـح التمييز بـين الأدلـة الشرعية مـن قـرآن وحديـث وبـين آرائه الفقهية ، وقد طلب منه الخليفة هشام بن عبد الملك أن يجلس للفتوى مقابل مرتب ، فاعتذر عن قبول المال.[٣]

ولما مات أعقبه في الفتوى عبد الله بن أبي نجيح (ت ١٣١ هـ) وقد أظهر ميـولاً قدريـة اعتزاليـة كـان يدعـو إليها ، مما يشير إلى ظهور الانحراف عن وجهة ابن عباس.

وربما بفضل تشجيع ابن عباس حسم التنازع حول كتابة الحديث في وقت مبكر بمكة ، فقد كان ابـن عبـاس معه ألواح يكتب عليها .[٥] وقد قدرت كتب ابن عباس (ت٦٨ هـ) بحمل بعير، وكان يقرأ كتبه على الناس، فلما ضعف بصره طلب من الناس أن يقرؤوها عليه، فلا غرابة إذا ما دون تلاميذه العلم في وقت مبكر .

أما عبيدالله بن أبي يزيد (ت ١٢٦ هـ)، فقد صار مرجعاً للطلبة لتأخر وفاته.

المحدثون

وقد عد ابن سعد ستين محدثاً بمكة خلال العصر الأموي ممن تقبل مروياتهم ويحتج بعلمهم ، بالإضافة إلى بضعة رواة ضعفاء ، وهو عدد كبير نسبياً لولا أن معظمهم قليل البضاعة في الحديث ، وعشرة منهم فقط كـان لهـم أثر كبير على الحركة الفكرية بمكة وهم :

مجاهد بن جبر (ت ١٠٤ هـ)

عبيد بن عمير الليثي

عبد الرحمن بن عبدالله الجمحي (ت ١١٨ هـ)

أبو الزبير محمد بن مسلم بن تدرس (ت ١٢٦هـ)

عبيد الله بن أبي يزيد (ت ١٢٦ هـ)

عبد الله بن أبي نجيح (ت ١٣١هـ)

إبراهيم بن ميسرة (ت ١٣٢ هـ) تقريباً

إسماعيل بن كثير (من الطبقة السادسة في التقريب)

عثمان بن الأسود (ت ١٥٠ هـ)

عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج (ت ١٥٠ هـ)

زكريا بن إسحق (ت ؟)

وقد نقلت المصادر عنهم عدداً من التقاليد في الوسط العلمي ، فقد كان مجاهد بن جبر - في رأي النقاد - يأخذ أحاديث الصحابي جابر بن عبد الله الأنصاري من صحيفة دون سماع ،[٦] بينما كان أبو الزبير محمد بن مسلم ابن تدرس - حسب شهادة عطاء بن أبي رباح - أحفظهم لحديث جابر بن عبدالله .[٧]

وكان التنافس بين طلبة الحديث قائماً ، فكان ابن جريج برغب أن يكون مرجعاً لطلبة العلم في أحاديث عبيدالله بن أبي يزيد (ت ١٢٦ هـ) ، فكان لا يدلهم على مكانه حتى اكتشف سفيان بن عيينة أنه حي ودخل عليه فأخذ عنه مباشرة طلباً للسند العالي ،[٨] وطلب السند العالي تقليد مهم أدّى مع دوافع أخرى إلى نشاط الرحلة في طلب العلم خلال القرون التالية .

وكان ابن جريج (ت١٥٠ هـ) يرى رواية الأحاديث بالوجادة دون سماع فقد كتب له أبو بكر بن عبد الله ابن أبي سبرة ألف حديث دون أن يسمعها منه أو يقرأها عليه ، فكان يحدث بها بلفظ "حدثنا أبو بكر بن أبي سبرة."

وهذا تساهل منه إذ كان ينبغي أن يرويها بصيغة تحمل تدل على المناولة والإجازة وليس السماع ، مع أن ابن جريج أوضح أن الناس اختلفوا في الصحيفة يأخذها المحدث ويقول: " أحدث بما فيها ،" ولم يقرأها ، وكان من رأيه أيضاً أن العرض والسماع واحد.

ويظهر في هذه المرحلة الاعتماد الكبير على الكتابة عند بعض المحدثين ، مثل زكريا بن إسحق الذي كان ثقةً كثير الحديث ، وعنده أحاديث مكتوبة ، وقد نسي ما حفظه في مرحلة الطلب فكان يخرج الأحاديث المكتوبة عند الحاجة.

ولا شك أن هذه التقاليد تلقي ضوءاً على التقاليد العلمية قبل التصنيف في علم مصطلح الحديث بزمن طويل .

ويمكن أن نعلل قلة عدد المحدثين في مكة إذا تمت المقارنة بالمدينة بكراهة النبي صلى الله عليه وسلم لعودة الصحابة المهاجرين إلى مكة حيث رجع عدد قليل منهم إليها .[١١]

ويلاحظ أن الوسط العلمي بمكة لم ترج فيه أفكار القدرية والخوارج ولم يذكر إلا عن عبدالله بن أبي نجيح (ت١٣١هـ) أنه كان يقول بالقدر،[١٢] وعن صدقة بن يسار (توفي أول خلافة بني العباس) أنه كان خارجياً لكنه تاب، وكان أصله من أهل الجزيرة،[١٣] ويبدو أن قوة شخصية ابن عباس منعت طلبة العلم من التأثر بهذه الأفكار حيث كان ينهى عنها بشدة .

ولا بد في الختام من الإشارة إلى نشاط الدراسات القرآنية بمكة في وقت مبكر لتضلع ابن عباس به " اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل." وقد جمع تفسيره عدد من تلاميذه، واشتهر مجاهد بن جبر المكي بإملائه كتاب التفسير على طلبة العلم، وقد عرف الحكم بن عتيبة بروايته التفسير عن مجاهد، وكان مجاهد يوضح طبيعة اختصاصه العلمي " استفرغ علمي القرآن " وشهد له بذلك " كان أعلمهم بالتفسير مجاهدا."[١٤] وقد وصل إلينا تفسيره ، ويغلب عليه التفسير اللغوي.

وقد شاركه عدد من تلاميذ ابن عباس اهتمامه بالتفسير مثل سعيد بن جبير (ت ٩٥هـ) حيث يمكن أن يجمع له مجلدة في التفسير من خلال اقتباسات كتب التفسير بالمأثور عنه .

المواقف السياسية

يمكن ملاحظة الاختلاف الكبير في المستوى الاجتماعي والانتماء القبلي بين فقهاء مكة وفقهاء المدينة ، فجل تلاميذ ابن عباس من الموالي وليست لهم شوكة و عصبية تمكنهم من الحراك السياسي. وإذا استثنينا عبد الله بن عباس وتلميذه سعيد بن جبير ، فإن المشاركة في الأحداث السياسية الخطيرة تكاد تنعدم . وابن عباس نفسه قضى عمره في تعليم تلاميذه، وتبدو مشاركته السياسية محدودة، وتتمثل في اتخاذ مواقف محايدة في الغالب تجاه السلطة والمعارضة بعد أن كان مشاركاً بقوة في الأحداث في خلافة علي رضي الله عنه، فهو ينصحه، ويقف معه فيحاول إقناع الخوارج بالعودة إلى صفه بالحجة والبرهان قبل معركة النهروان ، حتى أرجع منهم أربعة آلاف، ويشارك معه - علي - في قتال الجمل وصفين ، وتولى له البصرة سنة ٣٦هـ .[١٥]

ويبدو أن اعتزاله العمل السياسي كان تجنباً للفتن ، وإلا فهو رجل محنك في السياسة والحياة إلى جانب وعيه العلمي العميق . كما أن شخصيته القوية كانت تمكنه من اتخاذ مواقف حاسمة من الخصومات القائمة حيث أن الحياد السياسي لم يكن مقبولاً عند ابن الزبير مما عرض ابن عباس للخطر .[١٦]

ورغم تعاطفه مع العلويين فلم يشارك في خروج الحسين بن علي رضي الله عنه ، بل كان ينصحه بعدم الخروج ، ولم يمتنع عن مبايعة يزيد بن معاوية كما فعل آخرون ، ولم يؤيد عبد الله بن الزبير في خروجه، بل كانت علاقة الاثنين فاترة ولم يعرف بمعارضة الأمويين بل كانت صلته بمعاوية حسنة ، ولم تصدر منه فتاوى في الشأن السياسي تدل على توجيهه للرأي العام في هذا الميدان ، واقتصرت فتاواه على قضايا العبادات والأحوال الشخصية

من زواج وطلاق وميراث والبيوع والمعاملات (المخابرة (١)، بيع الحاضر للبادي ، ثبوت حق الشفعة للجار) وهو يعتمد من أصول التشريع على القرآن والحديث وعمل الخلفاء الراشدين (أبو بكر ، عمر ، علي) رضي الله عنهم والرأي.[١٧]

أما عن مواقف سعيد بن جبير السياسية فمسرحها الكوفة ، وليس مكة ، حيث خاض الغمرات ضد الحجاج الثقفي .

التعليقات

(١) يعقوب بن سفيان، *المعرفة والتاريخ*، ٢: ٧٥٧.

(٢) ابن سعد، *الطبقات*، ٥: ٤٦٧-٤٧٠؛ ابن أبي خيثمة، *أخبار المكيين*، ٢٦٩، ٢٨٣.

(٣) ابن سعد، *الطبقات*، ٥: ٤٨٠؛ ابن أبي خيثمة، *أخبار المكيين*، ٣٢٢، ٣٢٣، ٣٢٥.

(٤) ابن أبي خيثمة، *أخبار المكيين*، ٣٣٣، ٣٣٥.

(٥) الخطيب، تقييد العلم، ٩٢.

(٦) ابن سعد، *الطبقات*، ٥: ٤٦٦-٤٦٧.

(٧) ابن سعد، *الطبقات*، ٥: ١٨٤.

(٨) ابن سعد، *الطبقات*، ٥: ٤٨١-٤٨٢.

(٩) ابن سعد، *الطبقات*، ٥: ٤٩٢.

(١٠) ابن سعد، *الطبقات*، ٥: ٤٩٣.

(١١) ابن سعد، *الطبقات*، ٥: ٤٤٣-٤٤٨.

(١٢) ابن سعد، *الطبقات*، ٥: ٤٨٣.

(١٣) ابن سعد، *الطبقات*، ٥: ٤٨٥.

(١٤) ابن أبي خيثمة، *أخبار المكيين*، ٢٦٢، ٢٦٣.

(١٥) ابن كثير، *البداية والنهاية*، ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٧٦، ٢٨١.

(١٦) ابن كثير، *البداية والنهاية*، ٨: ٣٠٥-٣٠٦.

(١٧) مصطفى سعيد، *الخن*، *عبدالله بن عباس*، ٧٤-١٠٩.

أحوال اليمن العلمية في عهد بني أمية

عبد الرحمن عبد الواحد الشجاع

قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة صنعاء

يُعد العهد الأموي بالنسبة لمنظومة التاريخ الإسلامي- في عمومه- عهدا متفردا بين العهود الإسلامية التالية. لا لشيء إلا لكونه وقع بعد عهد الخلافة الراشدة، فهو يستقي من نبعها، ويشم أريج ذلك العهد الذي وقف على قدميه بلا رسول وإنما على الكتاب الذي صار مستقرا بين يديه يتمثل نصوصه، ويرتشف من تعاليمه فأثبت ذلك الجيل أنه حقا جيل فريد.فجاء عهد بني أمية ليقتفي أثر ذلك الجيل، ويخرج أحسن ما عنده ليتمثل روح المنهج الذي سار عليه الجيل الذي سبقه، وكان العامل المشترك في كلا العهدين هو وجود العديد من الصحابة الذين تلقوا علومهم عن رسول الله ﷺ. جيل الصحابة هذا هو الذي تولى الإعداد والتربية والتعليم للجيل الذي يليه... جيل التابعين... وهذه مَيْزةٌ أخرى تميز بها عهد بني أمية... إنها احتضان جيل التابعين وإعدادهم، ورعايتهم... هذا الجيل الذي دخل ضمن من أشاد به الرسول ﷺ من الأجيال والقرون: "خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم."[1]

فهو من خيره القرون... لا لجنسه، وخصائصه البشرية من لون ومال وجاه وحسب ونسب، وإنما لأنه الجيل الذي تغذى على منهاج النبوة، وتربى عليه غضا طريا لم يدخله أي لبس من تلبسان البشر.ولأنه كان الوعاء الواقعي العملي والعلمي الذي حمل علم جيل الصحابة الذي تلقوه عن النبي صلى الله عليه وسلم فصار التابعون هؤلاء يشكلون حلقة مهمة جد خطيرة في حلقات التاريخ الإسلامي.وأي إسقاط لها يُعد إسقاطا لركن هام من أركان الحركة العلمية والتاريخية للتاريخ الإسلامي.

ولم تكتف أهمية العهد الأموي في احتوائه لقبيل من جيل الصحابة... ولجيل التابعين كله وإنما ضم في طياته طلائع جيل تابع التابعين الذين أشرفوا على مرحلة مفصلية من مراحل الحركة العلمية الإسلامية.

فقد تكفل هذا الجيل- جيل التابعين- بجمع تراث معلميهم من جميع العلوم فقعدوها وبوبوها وقدموها لمن بعدهم جاهزة، تؤتي أكلها كل حين.

وبما أننا نقصر حديثنا عن أهمية العهد الأموي العلمية ولا نبحث عن أهميته ودوره في المجالات الحربية الجهادية، ولا في المجالات الإدارية، ولا في المجالات الحضارية الأخرى فإننا نضيف معلومة أغفلها كثير من الباحثين، وهي أن تدوين العلوم كان أساسه في العصر الأموي وليس في العصر العباسي كما كان سائدا عند كثير من الباحثين.[٢]

ولقد تلقى اليمن الإسلام حتى صار ولاية من ولايات الدولة الإسلامية، مؤثرة في منظومة التاريخ الإسلامي. تلقى اليمن الإسلام الذي لا يقوم إلا بالعلم ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ (سورة محمد، الآية ١٩). ومعروف أن أول آية تلقاها رسول الله ﷺ من القرآن الكريم تصدرتها كلمة (اقرأ) وتخللتها كلمة (القلم) وكل منهما أداة التعلم. وفي السورة نفسها ذكرت كلمة (العلم) ثلاث مرات مما يؤكد أن العلم صار معلما بارزا في الإسلام.

وفي الوقت الذي كان اليمن قبل تلقيه الإسلام لم يحظ- مثله مثل بقية الجزيرة العربية- بحركة علمية، بل على العكس من ذلك فلم نجد ذكرا لأي نوع من أنواع العلوم إلا ما كان مشهورا في أوساط العرب من علم الكهان، أو ما يتداوله الأحبار اليهود بينهم، أو ما يتدارسه الرهبان في كنائسهم.[٣]

أما المعارف العلمية كالطب فهي مخصوصة بشخصيات يتيمة،[٤] وإن كان اليمن يأتيه من يتعلم الطب[٥] إلا أنه لم يصل إلى درجة الشهرة.فهذا الوضع يجعلنا نصف اليمن من الناحية العلمية في الوقت الذي تحول فيه إلى الإسلام أنه خامل الذكر مهملا ليس فيه حركة علمية بالمعنى المفهوم للحركة العلمية.

أما بعد الإسلام وفي الفترة الواقعة بين اكتمال تحوله إلى الإسلام في العام العاشر الهجري وبداية العصر الأموي فإنها فترة إعداد وتربية.

فقد خرج اليمانيون ليؤدوا واجبهم في الجهاد في ميادين الفتوح الإسلامية، وتعد هذه المشاركة في الفتوح جزءا من الإعداد والتربية والتعليم مصداقا للآية القرآنية التي تمثلت- من ضمن من تمثلت- في أهل اليمن الذين شاركوا في الفتوح ثم عادوا إلى قومهم يعلمونهم ويفقهونهم: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾، (سورة التوبة، الآية ١٢٢)، ومفهوم الآية واضح من أن القوم يقتسمون قسمين: قسم يقعد، وقسم يجاهد، فالمجاهد يتعلم ويتفقه ثم يعود ليفقه ويعلم القاعد ما تعلمه.[٦]

وقد خرج المعلمون الأول من اليمن ليشاركوا في الفتوح أمثال: أبي موسى الأشعري الذي قال عنه عمر: "أما إنه كيِّس"،[٧] ووصفه علي بن أبي طالب بقوله: "صبغ في العلم صبغة"،[٨] وهو الذي صار فقيه أهل البصرة وأقرأهم.[٩] ومعاذ بن جبل أعرف الأمة بالحلال و الحرام كما وصفه رسول الله[١٠] ﷺ، عاد تلامذتهم من أهل اليمن ليكونوا نواة علمية تكونت حولها مدرسة علمية كان لها شأن عظيم في العهد الأموي.

ويلاحظ القارئ أننا أشرنا إلى أن التلاميذ- أو بعضهم- عادوا إلى اليمن بعد المشاركة في الفتوحات الإسلامية والسبب في ذلك أن كثيرا من التابعين من أهل اليمن عاشوا خارجها بعد الفتوحات، سواء في العراق أو

في الشام أو في مصر حتى وصلوا الأندلس فكانوا نجوما ساطعة في هذه الأقطار لأنهم حينما خرجوا من اليمن كان يحدوهم الأمل في شرف الجهاد في الثغور الإسلامية، ولهذا سكنوا البلاد المفتوحة واستوطنوها، كان معظم انشغالهم بالغزوات والجهاد والعبادات ولم يرغبوا في الظهور والبروز العلمي.[١١]

وإلى جوار أولئك المعلمين الأول الذين شاركوا في الفتوحات بقي في اليمن معلمون أخر كان لهم دور في إيجاد نواة علمية أخرى أمثال: فيروز الديلمي، والمهاجر بن أبي أمية، ويعلى بن أمية،[١٢] وغيرهم، ولقد حصر ابن سعد[١٣] ثمانية وعشرين من أهل اليمن من عُدَّ من الصحابة- رغم دخول الشك في بعضهم- كانوا موجودين في اليمن، هؤلاء جميعا كونوا النواة الأولى لمدرسة اليمن العلمية.

ولم يأت العصر الأموي إلاَّ واليمن يتربع على كرسي من العلم يرحل إليه طلاب العلم ليتلقوا عن علمائه العلوم والمعارف.

ومن خلال تتبع المواقع والمواضع التي كان ينزلها العلماء نستطيع أن نعدها مراكز علمية نشأت داخل اليمن لأنها صارت مهوى أفئدة العلماء وطلاب العلم، يرحل إليها العلماء ويخرجون منها.

وسنذكر أشهر هذه المراكز لورود اسمها في المصادر:

أولا: مدينة الجند[١٤] التي كانت مقرا لطأووس بن كيسان (ت ١٠٦هـ/٧٢٤م)[١٥] صاحب المكانة العالية عند المسلمين عامة، ولا ننسى أن مدينة الجند كانت عاصمة ولاية اليمن في عهد رسول الله ﷺ، وكانت المنزل الدائم لمعاذ بن جبل، ومنها كان ينطلق للدعوة في ربوع اليمن، وصارت فيما بعد مركزا علميا ينسب إليه العديد من العلماء في العصور التالية.

ثانيا: مدينة ذمار،[١٦] وكان فيها أحد مشاهير العلم، وهو وهب بن منبه (ت ١١٠هـ/٧٢٨م)، وكان معاصرا لطأووس بن كيسان وتوفي في عهد هشام بن عبد الملك أيضا،[١٧] وتعد مدينة ذمار في العصر الأموي مدينة علم لان شيوخ وهب بن منبه وأتباعه يدلون دلالة كافية على أهمية ذمار العلمية.

ثالثا: أما أبرز المراكز فهو مدينة صنعاء حاضرة ولاية اليمن وعاصمتها التي ترتفع عن سطح البحر ٧٨٠٠ قدم، تحيط بها الجبال العالية من جهتيها الشرقية (نُقم)، و الغربية (عيبان).[١٨] فكان هذا المركز هو أول من يستقبل التلاميذ والعلماء الراحلين إلى اليمن لأنها كانت مقرا لمجموعة من التابعين من أهل اليمن.[١٩]

وقد رحل إليها مُعمَّر بن راشد البصري (ت ١٥٠هـ/٧٦٧م أو ١٥٣هـ/٧٧٠م) واستقر فيها، وإن كان- أحيانا- يذهب إلى البصرة لزيارة أمه هناك،[٢٠] إلاَّ أنه كان يعود إلى صنعاء إلى أن توفي فيها. ورغم أن وفاته كانت في العهد العباسي إلاَّ أن هجرته إلى صنعاء تدل على أهمية صنعاء العلمية وذكرها العلمي المتميز في أوساط علماء الأمصار الكبيرة كالكوفة والبصرة.

وقد تولاها من التابعين الضحاك بن فيروز الديلمي (لم يعرف تاريخ وفاته) الذي تولاها في عهد معاوية بن أبي سفيان وفي عهد عبد الله بن الزبير.[٢١]

رابعا : مدينة عدن... تلك المدينة الساحلية الشهيرة المُطلة على مضيق باب المندب (البوابة الجنوبية) للبحر الأحمر، هذه المدينة كانت مقرا للحكم بن إبان العدني (ت ١٥٤هـ/٧٧٠م) الذي كان يُلقي دروسه في مسجد أبيه المعروف بمسجد إبان المشهور في عدن.[٢٢] ورغم وفاة الحكم بن إبان المتأخرة عن عهد بني أمية إلاَّ أن الفرق الزمني ليس كبيرا فهو معاصر لهذا العصر لأنه توفي عن أربع وثمانين سنة، فقد عاش في العهد الأموي أكثر من ستين سنة من عمره.

خامسا : مدن حضرموت مثل شبام وتريم وإن لم تذكرهما المصادر بوصفهما مراكز علمية إلا أن كونهما كانتا منطلقا حيويا لفكر الخوارج من أيام عبد الله بن الزبير وعبد الملك بن مروان يعطينا مؤشرا عمليا عن وجود تفاعلات علمية في هذه المنطقة فقد خرجوا في سنة ٧٢ هـ/٦٩١م، وفي سنة ١٠٧هـ/٧٢٥م في عهد هشام بن عبدالملك، وفي سنة ١٣٠هـ/٧٤٧م في عهد مروان بن محمد.[٢٣]

سادسا : الهجر العلمية... هناك مصطلح علمي خاص بأهل اليمن وهو: (الهجرة) ويطلق على القرية التي يهاجر إليها العلماء الراغبون عن سكنى المدن.فتصير بإقامة العالم فيها مكانا ومركز ا لنشر العلم،[٢٤] وإن كان هذا المصطلح لم يظهر في نص إلاَّ في القرن الثالث الهجري[٢٥] إلاَّ أنه من المحتمل أنه كانت له جذور قديمة. ولعلها ترجع إلى الأصل الحميري للكلمة (هجرن) والتي معناها المدينة، فقد كان وهب بن منبه مثلا يتعلم في قرية بيت حنبص في ضواحي صنعاء.

وأحب أن ألفت النظر إلى أن المراكز العلمية هذه صارت تعنى بكثير مما يهم الدارسين حيث أصبحت توجد فيها أسواق الوراقة[٢٦] مما يعطينا دلالة قوية على انتشار الكتب في أوساطهم.

فتلك هي أهم المراكز العلمية في اليمن في العصر الأموي، وإن كنا لا نستطيع الجزم بأن ما وصلنا من المعلومات كانت كافية عن هذه المراكز، أو عن مراكز علمية أخرى؛ لأن عوامل الزمن نخرت في مصادرنا العلمية والتاريخية، ولم نعد نجد معلومات كافية، مع يقيننا أن هناك معلومات كثيرة لم تصلنا. ومع هذا فهذه المعلومات- رغم قلتها- تعطينا دلالات واسعة عن أهمية المراكز العلمية في اليمن.

وقد ينشأ سؤال هام وهو: هل للقيادة الإدارية والسياسية في اليمن أو قيادة الدولة دور في إنشاء هذه المراكز العلمية؟

لا يمكننا أن نجزم بأن القيادة الإدارية لليمن كان لها دور في إنشاء هذه المراكز تموينا أو إشرافا، ولكن من حقنا أن نؤكد على أن استقرار العالم في أي مدينة أو قرية يحولها من الخمول إلى الذكر والأهمية، ولعل تشجيع الأمراء للعلماء بالإغداق عليهم بالعطاء وتوليتهم مناصب في الدولة يُعد عاملا مساعدا لازدهار المراكز العلمية.

إن وجود العَالِم هو السبب في وجود المركز، وهو نفسه الذي يؤدي إلى وجود نتاج علمي، وهو الذي يتخذ المناهج العلمية المعتبرة، فالعلماء الذين وجدوا في هذا العصر- عصر بني أمية- كانوا هم المؤسسين للحركة العلمية

بكل أبعادها. والعلماء الذين وجدوا في اليمن في عصر بني أمية هم الذين أعطوا لليمن هذه الأهمية. ولا يسعنا هنا إلاّ أن نذكر كوكبة من العلماء ليس على سبيل الترجمة لهم وإنما لنبين مكانتهم العلمية التي هي نفسها أعطت مكانة لليمن.

أولا: الولاة

فقد تولى اليمن في عهد بني أمية مجموعة من الولاة عُدّوا ضمن صغار الصحابة أو من التابعين.

ومن هؤلاء عتبة بن أبي سفيان (ت ٤٤هـ/٦٦٤م) الذي عُرِفَ بأنه من أشهر الخطباء كما قال الأصمعي، [٢٧] وقد تولى إمارة اليمن في عهد أخيه معاوية.

ومنهم: النعمان بن بشير الأنصاري (ت ٦٥هـ/٦٨٤م) أحد صغار الصحابة، روى عن رسول الله ﷺ ١٢٤ حديثا، وهو من الخطباء المشهورين، تولى اليمن في عهد معاوية. [٢٨]

ومنهم: الضحاك بن فيروز الديلمي المذكور آنفا، والذي كان من تابعي أهل اليمن، وهو آخر من ولي اليمن لمعاوية و قد تولها مرتين لعبد الله بن الزبير، و لا يُعرف له تاريخ وفاة. [٢٩]

ومنهم: حنش بن عبد الله الصنعاني (ت ١٠٠هـ/٧١٨م) ولي اليمن لابن الزبير، ثم رحل من اليمن إلى الأقطار الإسلامية في طلب وإلقاء العلم، فوصل مصر ثم اتجه غربا إلى الأندلس فاتحا لها ضمن الفاتحين، وصار من علمائها، وأسس جامع مدينة سرقسطة، و توفي هناك، وقيل توفي بمصر. [٣٠]

ومنهم: عروة بن محمد بن عطية السعدي (توفي بعد ١٢٠هـ/٧٣٧م) تولى اليمن في عهد عمر بن عبدالعزيز، وهو من التابعين المقبولين عند رجال الحديث. [٣١]

وهكذا نجد الولاة الذين بلغوا حوالي الثلاثين واليا في اليمن لم يكونوا مجرد رجال إدارة، وإنما كان كل واحد منهم يتميز بجانب من العلم والمعرفة، وهذا بلا شك يجعله حلقة وصل علمية يوصل ما يعلمه إلى من حوله فيؤثر على شريحة لا أظنها قليلة.. حتى أولئك الولاة الجبابرة الذين كانت ذكراهم في اليمن سيئة كانوا يمثلون شريحة متعلمة لها مجالسها العلمية والأدبية والثقافية، ومن ثم لها تأثيرها في أوساطهم، حتى أن أولاد بعضهم صاروا من أهل العلم. [٣٢]

والجدول المرفق يبين مجموعة الولاة الذين تولوا ولاية اليمن في عهد خلفاء بني أمية، وكلهم قادة تربوا تربية خاصة، وتعلموا تعليما متميزا، ومن ثم لهم دورهم العلمي في المناطق التي حكموها، بل لاحظنا بعض الولاة الذين ينقصهم جانب من العلم كان لا يتوانى ولا يترفع عن أن يقعد للعلم أمام علماء اليمن يتلقى منهم ما ينقصه من علم مثل محمد بن يوسف الثقفي. [٣٣]

ثانيا: العلماء المتفرغون للعلم

لا نستطيع أن نحصي من نالوا حظا من التعليم، ولا حتى من صاروا روادا في العلم في مثل هذه الفترة التي ندرسها، لا لشيء إلا لأن المصادر التي دونت لهذه الفترة لم تعد موجودة. وما وجد في بطون الكتب المتوافرة بين أيدينا اليوم لا تُعد معيارا صحيحا لمدى ما كان في اليمن من العلماء لأنها دونت في وقت متأخر، ولم تضم كل ما دون من قبلها. لأن بعض رجال العلم أنفسهم كانوا يتولون إعدام ما كتبوه تحت أي مبرر مثل ما فعل طأووس بن كيسان الذي "كان إذا اجتمعت عنده الرسائل أمر بها فأُحرقت."[٣٤] فماذا كان في هذه الرسائل؟ لا نعلم عنها شيئا، وربما ما فعله طأووس فعله غيره، هذا إلى جانب ما فعلته نوازل الدهر بالإنتاج العلمي للعلماء المسلمين.

ولو عدنا إلى ما قام به المؤرخون من إحصاء لعلماء أهل اليمن في العصر الأموي لوجدنا الإحصاءات المذكورة لا تعبر عن حقيقة ما كان موجودا. فابن حبَّان البستي[٣٥] (المتوفى سنة ٣٥٤هـ/٩٦٥م) جمع خمسين عالما من التابعين وتابعيهم من أهل اليمن، بينما ذكر الشيرازي[٣٦] (ت ٤٣٦هـ/١٠٤٤م) خمسة فقط من فقهاء اليمن؛ أما ابن سمرة الجعدي[٣٧] (توفي بعد ٥٨٦هـ/١١٨٩م) فقد عد ثلاثين فقيها، ورغم أن الجندي[٣٨] (ت٧٣٢هـ/١٣٣١م) كان متأخرا إلا أنه لم يورد في كتابه أكثر من ستة عشر عالما.

وهكذا فإن هذا الإحصاء لا يُعد دقيقا، ولعل سبب عدم الدقة يرجع لما قلت إلى افتقاد الأصول الأولى، وإلى رغبة المؤلفين في الاختصار، وإلى تقدير كل مؤلف بأنه لا يضم في كتابه إلاَّ من يرى أنه يستحق الذكر أو من يخدم توجهه في الكتابة.

ونذكر من هؤلاء اثنين فقط، ويرجع ذلك إلى السبب نفسه الذي اعتمده بعض المؤرخين الأقدمين، وهو أن هذا البحث لا يعنى بالحصر والترجمة لكل عالم، وإنما يمثل تمثيلا لما يريد إثباته. والعلمان الأنموذجان هما طأووس بن كيسان و وهب بن منبه، فهما أنموذجان يدلان على ما قبلهما وعلى ما بعدهما لأنهما يقفان في وسط العصر الأموي ويعبران أشد التعبير عن الحالة العلمية في اليمن في هذا العصر فهما ثمرة جهود علمية سابقة ورصيد مزود للحركة العلمية القادمة بعدهما.

١- طأووس بن كيسان (ت ١٠٠هـ/٧١٨م) من أبناء الفرس، سكن الجند، وهو مولى بحير بن ريسان الوالي على اليمن في عهد يزيد بن معاوية،[٣٩] وهذا يؤكد ما قلناه من أن الولاة في هذا العصر كانوا منابع علمية استقى منها من حولهم.و قد تولى قضاء صنعاء والجند،[٤٠] وكلف على الصدقة أي جمع الزكاة في عهد الوالي محمد بن يوسف الثقفي،[٤١] فكان إمام وقته وفقيه مصره في عصره،[٤٢] وقد سئل ابن عباس عنه فقال: "ذلك عالم اليمن."[٤٣] وكان واثقا في نفسه إلى حد أنه كان يعلم تلاميذه بأنه لا يصح لهم أن يسألوا أحدا بعد أن يحدثهم الحديث ويثبته لهم.[٤٤]

روى طأووس عن العديد من كبار الصحابة، وروى عنه خلق كثير، ولهذا وردت أحاديثه في كتب السنن الصحيحة. و توفي في مكة المكرمة قبل يوم التروية، وتولى الصلاة عليه الخليفة هشام بن عبد الملك.[٤٥]

٢- وهب بن منبه الأنبأوي الذماري، وقيل الصنعاني (ت ١١٠هـ/٧٢٨م) التابعي الثقة[٤٦] الذي كان من سعة اطلاعه لم يترك كتابا من كتب اليهود والنصارى والديانات الأخرى إلاَّ قرأه،[٤٧] ولمكانته تولى القضاء على صنعاء،[٤٨] وكان كثيرا ما يرتاد مكة ويلتقي بالفقهاء هناك ويتناظرون فيما بينهم عن العلوم والمعارف المتداولة في عصرهم.[٤٩] وكان مهتما بقصص الأمم السابقة[٥٠] (التاريخ)، ولم يكن وهب وحيد أسرته في العلم، فأبوه منبه من تلامذة معاذ بن جبل،[٥١] مما يدل على أن وهبا كان نتاج المدرسة الأولى التي تربت على يد الصحابة وله إخوة ثلاثة كلهم علماء.

وتميز وهب بالفصاحة والبلاغة والموعظة النافذة والخطابة، بصيرا بالكتب قارئا لجميعها، مطَّلِعا على كتب لابن عباس (لم يعد لها وجود اليوم) وقرأ كتبا لعبد الله بن سلام وكعب الأحبار[٥٢] (ولا خبر لها ولا أثر اليوم).وإلى جانب تلك العلوم التي برع فيها برع في القراءات فكان إماما بصنعاء في قراءة القرآن، وممن يؤخذ عنهم علم القراءة.وصارت له مكانة خاصة عند والي اليمن محمد بن يوسف فعينه (قاصا للجماعة)، أي واعظا للناس في المسجد الجامع.[٥٣] وفي عهد سليمان بن عبد الملك عين وهب بن منبه قاضيا بصنعاء،[٥٤] وهو الذي كان يؤم الناس في الصلاة في شهر رمضان ويصلي بهم صلاة التراويح.[٥٥]

هذان أنموذجان أكثر الرواة من ذكر أخبارهما في الكتب المتأخرة بينما هناك العديد من أمثالهم لم يذكروا كما ذكر هذان العالمان (طأووس، ووهب) لا لقلة أهمية الآخرين ولكن كما يبدو لي لأن لهذين تلاميذ نقلوا عنهما ما عندهما من علم بينما الآخرون- حسب ظننا- لم يجدوا من ينقل عنهما العلم فنحن نرى مثلا: أسرة وهب، فإخوانه ثلاثة، وكل منهم من العلماء المعروفين بل قيل إن وهبا روى عن أخيه همام مما يدل على فضله.

والذي يهمنا في هذا الجانب أن العلماء في هذه الفترة الأولى لم يكونوا- كما حصل في العصر العباسي- عزوفين عن المشاركة في الإدارة والحكم بل نجدهم يتولون مناصب إدارية كولاية الصدقات، حيث ولي طأووس على ذلك،[٥٦] وولاية القضاء،[٥٧] ويحضرون مجالس الأمراء.[٥٨]

وتولى وهب بن منبه مهمة (القصص) أو وعظ الناس.[٥٩]

ولم تكن علاقتهم منزوية بعيدة عن الناس بل يعيشون معهم ويخالطونهم. ويوم أن جاءت الخوارج من حضرموت تصدى لها وهب بن منبه بعد أن تخلت الإمارة عن التصدي لهم.[٦٠] وبالتأكيد كان معه من المتعلمين ومن تلاميذه عدد لا نستطيع تحديده ولكن لابد أن يكون معه العدد المقبول.

ولأن هؤلاء العلماء كانت لهم مكانة خاصة عند الأمة فقد ينظر إليهم على أنهم الأمل الذي ينظر إليه الناس عندما تدلهم الأحوال. ولذلك يروي أن وهبا "كان إذا قدم مكة على ابن الزبير أجلسه معه على سريره،"[٦١] وذلك لمكانته وشهرته.

أما علاقة العلماء بتلاميذهم فلا توجد معلومات كافية ولكن الإشارات تعطي الكثير من الدلالات، فالرجل الذي جاء يشاور وهبا في زواج ابنته[٦٢] دليل على مدى الصلة العميقة المنفتحة بينه وبين تلاميذه.

وكان يمر طأووس مع تلاميذه في الطرقات فيدخل معهم سوق الوراقين. وكان يجلس معهم المجالس العلمية ويعلمهم كيف يتعلمون من غيرهم، فقد سمع لابنه عبد الله وهو يحكي ما سمعه من أحد القراء يعرف بابي خليفة القارئ الذي قرأ على علي بن أبي طالب رضى الله عنه القرآن فعلمه أن يسأل عما استشكل عليه.(٦٣)

وكان حرصهم على إدخال البهجة إلى من حولهم منهجا أصيلا عندهم.

فقد كان طأووس إذا جاء يوم عيد الفطر ويوم عيد الأضحى لا يدع جارية له سوداء ولا غيرها إلا أمرهن بخضاب أيديهن وأرجلهن ويقول: إنه يوم عيد.(٦٤)

أما مصادرهم المالية فهي تختلف من واحد إلى آخر فمنهم من كان يعمل في التجارة، ومنهم من كان معه أرض يعيش من خراجها، ومنهم من كان يتقاضى راتبا من الدولة نظير عمله فيها رغم تحرج بعضهم من ذلك. ورغم أننا لا نجد في مصادرنا معلومات تدلنا على الموارد المالية للعلماء بشكل واضح، إلا أن ما يأتي بين السطور يدلنا على ما وراءها فمثلا نصح أيوب السختياني معمر بن راشد عند عزمه الرحلة إلى اليمن فقال له: "إن كنت راحلا فإلى عبد الله بن طأووس أو فالزم تجارتك."(٦٥) فالتجارة هي الحرفة الشهيرة التي كان يمتهنها كثير من العلماء.

ولنأخذ مثالا على ذلك طأووسا، فقد كان حريصا على ألا يأخذ من الآخرين ويحب أن يكتفي بما عنده عما في أيدي الناس، وفي الوقت ذاته كان يدعو الله أن يحرمه كثرة المال والولد حتى لا يفتن بهما وأن يرزقه الإيمان والعمل.(٦٦) ومع هذا، كان يطيل السفر بين مكة واليمن للحج من شهر إلى شهرين(٦٧) حرصا على مزيد من الأجر ولا يفكر في الإنفاق.

وقد وصل به الحد إلى أنه مر عليه الناس بسارق قد قبضوا عليه فافتداه بدينار وأطلقه(٦٨) ولعله وجد أن السارق كان في حاجة إلى هذا المال.. وحرص على إطلاقه قبل أن يصل إلى السلطان لأنه إذا وصل إلى السلطان فلابد من إقامة العقوبة عليه.

أما العلوم والمعارف التي كان المسلمون يتعاطونها، ويعملون على التزود منها، فلا نكون مبالغين إذا قلنا: إنه لابد أن المسلمين كانوا يمارسون ويتلقون كل العلوم والمعارف السائدة في ذلك الوقت، وإن كانت العلوم التي أشار إليها العلماء هي العلوم الإسلامية، كعلوم الحديث وعلوم القرآن والقراءات.

ولابد أن تكون علوم اللغة التي بدأت تؤصل وتُقَعَّد في آخر عهد الخلافة الراشدة كعلم النحو، وجمع المادة اللغوية من مصادرها بين القبائل العربية.

ومن المحتمل أن العلوم الأخرى كالطب والفلك والعلوم الاجتماعية كالتاريخ والجغرافيا لابد أن يكون لها مكان بين ثقافة ذلك العصر، سواء تلقوها عن مسلمين أو غير مسلمين لأنه ثبت أن وهب بن منبه كان يتعلم الإنجيل على يد نصراني، وهو مازال صبيا.

فإذا كان التحرج منتفيا في تعلم كتب أديان الأمم من غير المسلمين فلابد أن يكون الإقبال لتعلم العلوم والمعارف المشتهرة في ذلك العصر غير عازفين عنها.

ومن المعروف أن المدرسة اليمنية في علم التاريخ كان يرأسها وهب بن منبه ولا نظنه كان وحيد عصره بل كان معه آخرون ممن يهتم بالتاريخ ويكونون شريحة متعلمة.

ولعل الإكثار من هذه العلوم يختلف من شخص إلى آخر ولدينا مثالان واضحان.فوهب بن منبه كان يروي ويقرأ بلا حدود بينما كان منهج طأووس المتثبت يؤكد على تلاميذه- بعد التثبت- ألا يسألوا أحدا عن الحديث الذي أثبته[٦٩] وفي الوقت ذاته كان حريصا على نص الحديث في توثيقه وتحرير نصه إلى أحد أنه كان يعده حرفا حرفا.[٧٠]

ولم تصلنا معلومات كافية عن المنهج المتبع في النظام التعليمي إلا أنه من المؤكد أن الأساس الذي كان يبدأ به الطالب للتعلم هو القرآن الكريم تطبيقا لقول رسول الله ﷺ: "خيركم من تعلم القرآن وعلمه."[٧١] وكان إلى جوار هذا يتعلمون الخط والشعر ومبادئ من الأحكام الفقهية.[٧٢]

أما أدواتهم التعليمية فلا شك أنها (القلم) و(الدواة) و(سكين خاص لبري الأقلام)[٧٣] ثم الأداة التي يكتبون عليها سواء أكانت من الورق والجلود أم أي شيء يتوافر لهم في الكتابة عليه ، وقد وجدت أسواق للوراقة من المحتمل أنها كانت توفر هذه الأدوات.

أما مدة التعلم فهي مستمرة وغير منقطعة إلا أن الطريقة كانت الإقامة مع الأستاذ للتعلم منه مدة تختلف طولا وقصرا على رغبة الطالب نفسه. فقد يمكث معه سنة أو شهرا[٧٤] أو ثلاث عشرة سنة.[٧٥]

وكان الصبي يتلقى تعليمه في عمر الست سنوات كما حصل مع وهب بن منبه فقد كان صبيا حينما كان يتلقى الإنجيل عن نصراني.[٧٦]

وهكذا نخلص إلى :

- أن اليمن قبل أن يتحول للإسلام لم يكن ذا أهمية علمية ولما صار دينهم الجديد- الإسلام- يدعوهم ويحثهم على العلم والتعلم ويقول لهم لا دين بلا علم وتعلم أقبلوا على التزود بالعلوم التي توسع مداركهم لمعرفة دينهم متخذين من الصحابة وكبار التابعين مصادر للتلقي فاختلطوا بهم وعاشوا معهم في ميادين الفتوحات الإسلامية وتلقوا منهم علومهم ومعارفهم فكانوا تلامذة نجباء.

- وعاد إلى اليمن من رغب منهم في العودة واتخذوا من ولاية اليمن مقرا ومركزا يلقون فيه علومهم ويتلقون منه مزيدا من العلوم.

- وكانت الرحلة لطلب العلم- وخاصة إلى مكة والمدينة- وسيلة فعالة للالتقاء بعلماء الأمة وفقهائها وأمرائها في موسم الحج من كل عام ، وبذلك كانت تشكل عقول العلماء والتلاميذ ، وتتلاقح الأفكار والآراء ، فتكون مدارس علمية مشهورة.

- وصارت هذه اللقاءات العلمية في مكة والمدينة ميدانا لنشر ما يدور في اليمن من حركة علمية، فأقبل عليها العلماء وطلاب العلم من خارجها يقصدونها في رحلات علمية، إما طلبا للعلم والعودة إلى بلدانهم، وإما لاتخاذها مقرا دائما يتحركون منه ويعودون إليه كما هي حال معمر بن راشد.

- ومما زاد من أهمية اليمن العلمية أن موقعه البعيد عن مركز الخلافة جعله مكانا آمنا لأصحاب المذاهب المناوئة للدولة كالخوارج حيث ظهر في اليمن في عصر بنى أمية أكثر من زعيم خارجي وبالتأكيد إن لهذا الفكر رجاله ومنافحين عنه.

- ولقد برزت مجموعة من المراكز العلمية في اليمن أهمها: مدينة الجند، ومدينة ذمار، ومدينة صنعاء، ومدينة عدن، ومدن حضرموت، والهجر العلمية (القرى) التي اتخذها العلماء مقرات بهجرتهم إليها.وكانت العوامل المؤثرة في وجود هذه المراكز تنحصر حول وجود علماء مؤثرين لهم جاذبية، بالإضافة إلى وجود قيادة تعطيهم متنفسا صالحا ليقوموا بدورهم العلمي.

- ورغم أن المصادر التي أرخت للعلماء فيما يعرف بالسير والطبقات لم تذكر تفصيلات عن حياتهم إلا أن ما ذكر في هذه المصادر رغم قلته واختصاره يدل على وجود حركة علمية موار، فقد وجد فيهم علماء لهم ذكر في الأمة الإسلامية كلها كطأووس ووهب اللذان كانت لهما مشاركات فعالة على مستوى الأمة الإسلامية وتولوا إدارات في الدولة، وجلسوا للتعليم والوعظ، وشاركوا في التصدي لما يهدد الأمة من خطر الفرقة. وتميزت علاقاتهم بمن حولهم بالمخالطة والمشاركة، وكما كان عطاؤهم العلمي متميزا كان عطاؤهم المادي أيضا متميزا في مجالات عدة، سواء في عطائهم لتلاميذهم أو للناس من حولهم مع ترفعهم عن الأخذ من الآخرين.

- وحيثما وجد العلماء وجدت العلوم. وكانت أشهر العلوم في هذا العصر هي علوم القرآن الكريم والحديث واللغة والشعر والتاريخ والجغرافيا، مع عدم إغفال العلوم الأخرى وإن لم يؤرخ لها لأن كبيعة الأشياء تدل على حصول مثل هذا الأمر ومما يؤكد هذا أن مصادر التعلم كانت متاحة على أوسع نطاق بحيث يمكن للمسلم أن يتعلم على يد اليهودي أو النصراني دون تحرج ما دام المسلم محتفظا بعزته وعلوه، وما دام في علوم عامة لا علاقة لها بدين الإسلام.

- وكانت مدة التعليم غير محدودة بزمن لان التعليم من المهد إلى اللحد ومن ثم فلا تجد غرابة حينما تشاهد أناسا كبارا في السن يتعلمون على أيدي من هم أصغر سنا منهم، أو تجد أميرا يجلس للعلم على يد عالم أقل سلطة منه، فالكل يتعلم، والكل يبحث عن مصدر للتعلم، وكانت البداية من سن الخامسة حيث يعكف الصبيان على تعلم القرآن الكريم والخط ومبادئ من أحكام الفقه، بل كان يتعلم ثقافة عصره من مصادرها المتاحة في ذلك الوقت كما عرفنا أن وهبا تعلم على يد نصراني وهو مازال صبيا، وقد يتطلب التعلم أن يقيم الطالب مع أستاذه الأيام أو السنين حتى يجيد ما تعلم ثم ينتقل إلى غيره من العلوم وهكذا.

- وبالتأكيد كانت لهم أدواتهم التعليمية المتاحة في ذلك الوقت ومنها (القلم) و(الدواة) و(سكين لبري الأقلام) و مادة يكتبون عليها سواء كانت من ورق- وهو نادر- أو جلود ولحى شجر وغيرها ووجود أسواق للوراقة يؤكد ذلك.

- ورغم هذه الصورة المصغرة عن الأحوال العلمية في اليمن في العصر الأموي إلا أنها مازالت قاصرة، ويدعو الباحث إلى مزيد من البحث عن مصادر جديدة وبعثها من قبور الخزائن الخاصة والعامة فإذا ما وجدت فقد تكون الصورة أكثر اتساعا وأعمق دقة.

المصـــــادر	الرازي (ت ٤٦٠ هـ)	ابن سمرة ت، بعد (٥٨٦ هـ)	الجندي (ت ٧٣٢ هـ)	ابن عبد المجيد (ت ٧٤٣ هـ)	الخزرجي (ت ٨١٢ هـ)	ابن الديبع (ت ٩٤٣ هـ)	يحيى بن الحسين (ت ١١٠٠ هـ)
الخلفاء	الـــــــــــــــــــولاة						
معاوية (ت ٦٠هـ)		- عثمان بن عفان الثقفي - عتبة (صنعاء والجند) (قاضي: صنعاء عبدالرحمن ابن حنبل - النعمان بن بشير سنة	- عثمان - عتبة (صنعاء والجند) سنتين. - فيروز (صنعاء) قيس الكاتب (الجند) استخلفها عتبة. - النعمان بن بشير بعد موت عتبة (سنة) - بشير بن سعيد الأعرج - سعيد بن داذوية ٩ شهور - الضحاك	- عثمان - عتبة (صنعاء والجند) سنتين. - فيروز (صنعاء) قيس الكاتب (الجند) استخلفها عتبة. - النعمان بن بشير بعد موت عتبة (سنة) - بشير بن سعيد الأعرج - سعيد بن داذوية ٩ شهور - الضحاك	- عثمان - عتبة (صنعاء والجند) سنتين وقيل ٣. - فيروز استخلفه عتبة ٨ سنين. - النعمان بعد وفاة عتبة سنة - بشير بن سعد (نقلا عن الجندي) - سعيد بن داذويه الفارسي ٩ شهور (مات) - الضحاك	- عثمان بن عفان الثقفي - عتبة بن أبي سفيان - فيروز الديلمي - النعمان بن بشير - بشير بن سعد الأعرج - الضحاك	- عثمان - عتبة (صنعاء والجند) سنتين. - فيروز استخلف عتبة ٨ سنين. - النعمان بعد موت عتبة استعمله معاوية - بشير بن سعد سبعه شهور - الضحاك
يزيد بن معاوية (ت ٦٤ هـ)			- بحير بن ريسان	- بحير بن ريسان	- بحير بن ريسان على المخلافين (بالضمان)	- بحير بن ريسان الحميري	- بحير بن ريسان (بالضمان)

المصـــــادر	الرازي (ت ٤٦٠ هـ)	ابن سمرة ت، بعد (٥٨٦ هـ)	الجندي (ت ٧٣٢ هـ)	ابن عبد المجيد (ت ٧٤٣ هـ)	الخزرجي (ت ٨١٢ هـ)	ابن الديبع (ت ٩٤٣ هـ)	يحيى بن الحسين (ت ١١٠٠ هـ)
الخلفاء	الـــــولاة						
عبد الله بن الزبير (ت ٧٣ هـ)		- الضحاك سنة - عبد الله - عبد الله سنة و٨ شهور - خالد بن الزبير سنتين - مغيث - حنش - أبو النجود - الضحاك (ثانية) - خلاد بن السائب وعلى الجند/ بحير بن ريسان	- الضحاك سنة - عبد الله - عبد الله سنة و٨ شهور - خالد بن الزبير - مغيث بن ذي الثوجم الأزراعي (خمسة أشهر) - حنش - قيس (سبعة شهور) - أبو النجود (خمسة شهور) - الضحاك مرة ثانية ستة شهور - خلاد بن السائب الأنصاري - أبو النجود (مرة أخرى)	- الضحاك سنة - عبد الله - عبد الله سنة و٨ شهور - خالد بن الزبي - مغيث بن ذي الثوجم الأزراعي (خمسة أشهر) - حنش - قيس (سبعة شهور) - أبوالنجود (خمسة شهور) - الضحاك مرة ثانية ستة شهور - خلاد بن السائب الأنصاري - أبو النجود (مرة أخرى)	- الضحاك سنة - عبد الله - عبد الله سنة و٨ شهور - عبيدة بن الزبير خمسة أشهر - حسن (هكذا) - قيس	- الضحاك بن فيروز - عبد الله بن عبدالرحمن بن خالد بن الوليد - عبد الله بن عبدالمطلب بن أبي وادعة السهمى - عبيدة بن الزبير - حنش بن عبد الله - قيس بن يزيد السعدي	- الضحاك سنة - عبد الله بن عبد الرحمن أياما - عبد الله سنة و٨ شهور - حسن بن عبد الله الفقية - قيس

المصادر	الرازي (ت ٤٦٠ هـ)	ابن سمرة ت، بعد (٥٨٦ هـ)	الجندي (ت ٧٣٢ هـ)	ابن عبد المجيد (ت ٧٤٣ هـ)	الخزرجي (ت ٨١٢ هـ)	ابن الديبع (ت ٩٤٣ هـ)	يحيى بن الحسين (ت ١١٠٠ هـ)
الخلفاء	الـــــــولاة						
عبد الملك بن مروان (ت ٨٦ هـ)			تابعة لمكة وتولاها الحجاج محمد أخوه (صنعاء) .واقد (الجند) الحكم (حضرموت)	تابعة لمكة وتولاها الحجاج محمد أخوه (صنعاء) .واقد (الجند) الحكم (حضرموت)	- الحجاج محمد أخوه (صنعاء) .واقد بن مسلمة (الجند) الحكم (حضرموت) (كلهم أقاموا سنه) ثم عزله واقد وجمع المخلافين لأخيه محمد استناب الحجاج بعد موت محمد أيوب بن يحي الثقفي	- تابعة لمكة وتولاها الحجاج فعين: .محمد أخوة على صنعاء .وواقد بن مسلمة الثقفي على الجند والحكم بن أيوب الثقفي على حضرموت أيوب بن يحي الثقفي بعد موت محمد	- تابعة لمكة وللحجاج .محمد بن يوسف (صنعاء) .واقد بن سلمة (الجند) ثم عزله وجمع المخلافين أيوب بن يحي الثقفي
الوليد بن عبد الملك (ت ٩٦هـ)	أيوب الثقفي (٨٥) (٨٧) ٥سنوات	محمد بن يوسف	لم يذكر شيئا	لم يذكر شيئا	-أيوب	-أيوب بن يحي الثقفي	-أيوب
سليمان بن عبد الملك (ت ٩٩هـ)			- عروة	- عروة	- عروة	-عروة بن محمد السعدي	-عروة بن محمد السعدي
عمر بن عبد العزيز (ت ١٠١هـ)			- عروة	- عروة	- عروة	- عروة بن محمد السعدي (القاضي: وهب)	- عروة (القاضي: وهب)
يزيد بن عبد الملك (ت ١٠٥هـ)			- مسعود	- مسعود	- مسعود	استمر عروة فترة ثم عزل .مسعود بن عوف الكلبي	- مسعود بن عوف

المصـــــادر	الرازي (ت ٤٦٠ هـ)	ابن سمرة ت، بعد (٥٨٦ هـ)	الجندي (ت ٧٣٢ هـ)	ابن عبد المجيد (ت ٧٤٣ هـ)	الخزرجي (ت ٨١٢ هـ)	ابن الديبع (ت ٩٤٣ هـ)	يحيى بن الحسين (ت ١١٠٠ هـ)
الخلفاء	الولاة						
هشام بن عبد الملك (ت ١٢٥هـ)	- يوسف بن عمر الثقفي (٨٨) على صنعاء	-يوسف ١٣سنة - الصلت ٥سنين - مروان بن كد بن يوسف الثقفي	- مسعود (سنة) -يوسف على المخاليف الثلاثة (١٣سنة) (فاطمة على صنعاء القطريف بن الضحاك بن فيروز) -الصلت (خمس سنين)	- مسعود (سنة) -يوسف على المخاليف الثلاثة (١٣سنة) (فاطمة على صنعاء القطريف بن الضحاك بن فيروز) -الصلت (خمس سنين)	- مسعود (سنة) -يوسف على اليمن كله (١٣سنة) (فاطمة القطريف) -الصلت نيابة عن أبيه (خمس سنين)	- مسعود بن عوف (سنة) -يوسف بن عمر الثقفي (١٣سنة) -الصلت بن يوسف (خمس سنين)	- مسعود -يوسف بن عمر الثقفي (١٣سنة) قاضي على صنعاء: الغطريف) -الصلت نيابة عن أبيه
الوليد بن يزيد بن عبد الملك (ت ١٢٦هـ)			- مروان	- مروان	- مروان	- مروان بن محمد بن يوسف الثقفي	- مروان بن محمد بن يوسف
يزيد بن الوليد بن عبد الملك (ت ١٢٦هـ)			- الضحاك (قاضي يحي بن شرحبيل)	- الضحاك (قاضي يحي بن شرحبيل)	- الضحاك بن واصل السكسكي (قاضي يحي)	- الضحاك بن وائل السكسكي	-الضحاك بن واصل
مروان بن محمد (ت ١٣٢هـ)			- عروة (هكذا) ولم يذكر غيره	- عروة (هكذا) ولم يذكر غيره	القاسم بن عمر عبد الملك الوليد	القاسم بن عمر الثقفي عبد الملك بن محمد بن عطية (ت ١٣هـ) الوليد بن عروة بن محمد السعدي (إلى أن قتل مروان بن محمد)	القاسم بن عمر الثقفي عبد الملك الوليد

التعليقات

(١) متفق عليه.

(٢) انظر: أمين مدني، *التاريخ العربي ومصادره* (الجزء الثاني من *العرب في أحقاب التاريخ*)، ٢٠٣-٢١٣؛ وشاكر مصطفى، *التاريخ العربي والمؤرخون*، ١: ٧٤-٨٣.

(٣) ابن حبيب، *المحبر*، ٣١٩.

(٤) مسلم، صحيح، ٦: ١٥٦-١٥٨؛ ابن حجر: *الإصابة*، ٢: ٢١٠، مثل ضماد بن ثعلبة الأزدي.

(٥) ابن جلجل، *طبقات الأطباء*، ٥٤.

(٦) انظر: ابن كثير، *تفسير القرآن العظيم*، ٢: ٤٠٠، ٤٠١؛ سيد قطب، *في ظلال القرآن*، طبعة الشروق، ٣: ١٧٣٤، ١٧٣٥.

(٧) ابن سمرة الجعدي، *طبقات فقهاء اليمن*، ٤٥.

(٨) ابن عبد البر، *الاستيعاب*، ٢: ٣٧٣ (بهامش *الإصابة*).

(٩) ابن حجر، *الإصابة*، ٢: ٣٦٠.

(١٠) ابن حجر، *الإصابة*، ٣: ٤٢٧، و الحديث رواه الترمذي.

(١١) ابن حبان البستي، *مشاهير علماء الأمصار*، ٢٠١.

(١٢) كان من أصحابه أي تلامذته: سعد الأعرج أحد القضاة المشهورين باليمن؛ ابن سعد، *الطبقات*، ٥: ٥٣٥.

(١٣) ابن سعد، *الطبقات الكبرى*، ٥: ٥٢٣-٥٣٥.

(١٤) الجند: مدينة سابقا وقرية حاليا.تقع في الشرق الشمالي من مدينة تعز، تبعد عنها بـ ٢٢ كيلو مترا؛ المقحفي، *معجم البلدان*، ١٤٦.

(١٥) ابن سعد، *الطبقات*، ٥: ٥٣٧-٥٤٢. وطأووس بن كيسان: هو أبو عبد الرحمن مولى بُحير بن ريسان الحميري الذي تولى إمارة اليمن في عهد الخليفة يزيد بن معاوية، وصار طأووس نفسه أميرا على الصدقة في عهد محمد بن يوسف الثقفي، ومع هذا كان يكره التقرب إلى الوالي محمد بن يوسف؛ انظر: ابن سمرة، *طبقات فقهاء اليمن*، ٥٦.

(١٦) ذمار: مدينة تقع جنوبي صنعاء بمسافة ٩٩ كيلومترا؛ المقحفي، *معجم البلدان*، ٢٥٩.

(١٧) ابن سعد، *الطبقات*، ٥: ٥٤٣؛ ابن سمرة الجعدي، *طبقات فقهاء اليمن*، ٥٧.

(١٨) المقحفي، *معجم البلدان*، ٣٩٦، ٣٩٧.

(١٩) انظر: ابن سعد، *الطبقات*، ٥: ٥٤٤، ٥٤٥.

(٢٠) ابن سعد، *الطبقات*، ٥: ٥٤٦.

(٢١) با مخرمة، *تاريخ ثغر عدن*، ٢: ٩٩، ١٠٠؛ ابن حجر، *تهذيب التهذيب*، ٤: ٣٩٤؛ ابن سمرة الجعدي، *طبقات فقهاء اليمن*، ٥١.

(٢٢) ابن سمرة، *طبقات فقهاء اليمن*، ٦٦؛ با مخرمة، *تاريخ ثغر عدن*، ٢: ٦٤.

(٢٣) انظر: الخزرجي، *العسجد المسبوك*، ٢٢، ٢٣؛ ابن عبد المجيد، *بهجة الزمن*، ٢٦؛ الخزرجي، *اليمن في عهد الولاة*، ٧٠؛ يحيى بن الحسين، *غاية الاماني*، ١: ١٠٧، ١١٩.

(٢٤) إسماعيل الأكوع، *هجر العلم ومعاقله*، ١: ٥.

(٢٥) الهمداني، *الإكليل*، ٢: ٣٠١؛ الرازي، *تاريخ مدينة صنعاء*، ٤٦٨؛ ابن سمرة الجعدي، *طبقات فقهاء اليمن*، ٦٤.

(٢٦) ابن سعد، *الطبقات*، ٥: ٥٤٠؛ مر طأووس على بياع مصاحف فاستاء من بيعها، ومن المرجح أن بجوارها كتبا تباع في سوق الوراقة.

(٢٧) ابن تغري بردي، *النجوم الزاهرة*، ١: ١٢٢-١٢٤.

(٢٨) ابن حجر، *الإصابة*، ٣: ٥٥٩.

(٢٩) ابن حجر، *التهذيب*، ٤ : ٣٩٤؛ با مخرمة، *تاريخ ثغر عدن*، ٢ : ٩٩.

(٣٠) ابن حجر، التهذيب، ٣: ٥٠، ٥١.

(٣١) ابن حجر، *التقريب*، ٣٨٩.

(٣٢) منهم صفوان بن يعلي بن أمية الذي كان من رواة الصحيح؛ ابن حجر، *التهذيب*، ٤ : ٣٧٩.

(٣٣) أمر الحجاج الثقفي أخاه محمدا- أمير اليمن- أن يقرأ القرآن على أفضل من يقرأ عليه في اليمن فقرأ على وهب بن منبه ؛ الرازي، *تاريخ مدينة صنعاء*، ٣٧٥.

(٣٤) ابن سعد، *الطبقات*، ٥ : ٥٣٩.

(٣٥) ابن حبان، *مشاهير علماء الأمصار*، ١٩٨ - ٢٠١، ٢٠٤ - ٢٠٦.

(٣٦) ابن حبان، *طبقات فقهاء*، ٦٥، ٦٦.

(٣٧) ابن سمرة، *طبقات فقهاء اليمن*، ٥٦-٦٦.

(٣٨) الجندي، *السلوك*، ١: ٩٣-١٢٨.

(٣٩) ابن حجر، *تهذيب*، ٥ : ٨.

(٤٠) ابن سمرة، *طبقات فقهاء اليمن*، ٥٦.

(٤١) ابن سعد، *الطبقات*، ٥ : ٥٤١، "فكان يقول للرجل: تزكى رحمك الله مما أعطاك الله، فإن أعطانا أخذناه وإن تولى لم نقل تعال."

(٤٢) الجندي، *السلوك*، ١ : ٩٤.

(٤٣) الجندي، *السلوك*، ١ : ٩٤.

(٤٤) ابن سعد، *الطبقات*، ٥ : ٥٣٩.

(٤٥) ابن سعد، *الطبقات*، ٥ : ٥٤٢.

(٤٦) ابن سعد، *الطبقات*، ١١ : ١٤٧.

(٤٧) ابن سعد، *الطبقات*، ٥ : ٥٤٣؛ ابن سمرة، *طبقات فقهاء اليمن*، ٥٦.

(٤٨) ابن حجر، *تهذيب*، ١١ : ١٤٧.

(٤٩) ابن حجر، *تهذيب*، ١١ : ١٤٨.

(٥٠) ابن سمرة، *طبقات فقهاء اليمن*، ٥٧.

(٥١) الرازي، *تاريخ مدينة صنعاء*، ٣٦٧، ٣٦٨.

(٥٢) الرازي، *تاريخ مدينة صنعاء*، ٣٧٤.

(٥٣) الرازي، *تاريخ مدينة صنعاء*، ٣٧٦.

(٥٤) الرازي، *تاريخ مدينة صنعاء*، ٣٧٦، ٣٧٧.

(٥٥) الرازي، *تاريخ مدينة صنعاء*، ٣٧٧.

(٥٦) ابن سعد، *الطبقات*، ٥ : ٥٤١.

(٥٧) ابن سمرة، *طبقات فقهاء اليمن*، ٥٧.

(٥٨) ابن سعد، *الطبقات*، ٥ : ٥٤١.

(٥٩) الرازي، *تاريخ مدينة صنعاء*، ٣٧٦.

(٦٠) الذهبي، سير، ٤ : ٥٥٣-٥٥٥؛ الخزرجي، *العسجد*، ٢٢؛ يحيى بن الحسين، *غاية الأماني*، ١ : ١٠٧.

(٦١) الرازي، *تاريخ مدينة صنعاء*، ٣٦٧.

(٦٢) الرازي، *تاريخ مدينة صنعاء*، ٣٩٢.

(٦٣) الرازي، *تاريخ مدينة صنعاء*، ٤٠٤.

(٦٤) ابن سعد، الطبقات، ٥: ٥٤٠.

(٦٥) الجندي، *السلوك*، ١: ١١٧.

(٦٦) الذهبي، سير، ٥: ٤٢؛ ابن سعد، *الطبقات*، ٥: ٥٤٠.

(٦٧) ابن سعد، *الطبقات*، ٥: ٥٤٢.

(٦٨) ابن سعد، *الطبقات*، ٥: ٥٤٠.

(٦٩) ابن سعد، *الطبقات*، ٥: ٥٣٩.

(٧٠) ابن سعد، *الطبقات*، ٥: ٥٤١.

(٧١) رواه البخاري والترمذي وأحمد وأبو داود وابن ماجه؛ انظر: العجلوني، *كشف الخفاء*، ١: ٣٩٢.

(٧٢) مجهول، *تاريخ اليمن*، ق ق ١٠٦ب، ١١٣أ؛ مسلم اللحجي، *تاريخ مسلم*، ق ١١٨؛ يحيى بن الحسين، *طبقات الزيدية الصغرى*، ٨١.

(٧٣) مجهول، *تاريخ اليمن*، ق ١١٣م.

(٧٤) يحيى بن الحسين، *طبقات الزيدية*، ١٨؛ مسلم اللحجي، *تاريخ مسلم*، ق ق ١٢، ١٣.

(٧٥) الرازي، *تاريخ مدينة صنعاء*، ٣٨٣. صحب وهب بن منبه عبد الله بن عباس ثلاث عشرة سنة.

(٧٦) الرازي، *تاريخ مدينة صنعاء*، ٣٨٥.

دور العلماء العُمَانيين في الحياة العلمية
في القرنين الأول والثاني الهجريين
داخل عُمَان وخارجها

حصة عبد الرحمن الجبر

قسم التاريخ، مركز الدراسات الجامعية للبنات، جامعة الملك سعود

المقدمـــــــــة

وضع الإسلام أسسا لحياة علمية جبارة ، إذ حث أتباعه على طلب العلم والإكثار منه ، ورفع الله الذين أوتوا العلم درجات ، ولا غرابة في ذلك ، وقد بدأ الوحي الإلهي بكلمة " اقرأ ." وغرست بذور تلك الحياة العلمية في العهد النبوي ، ونمت في عصر الخلفاء الراشدين حتى إذا حل العصر الأموي صارت نبته مستوية الساق متميزة الملامح ، وصار للمسلمين علماء برزوا في مختلف العلوم الإسلامية وما يتصل بها ، وقد كان لكل مصر نصيب من تلك الحياة العلمية ولكن بعض المراكز تميزت عن غيرها ، مثل مكة والمدينة والبصرة والكوفة .

وبما أن عمان قد كانت لها صلات متعددة مع البصرة فمن الطبيعي أن تؤثر وتتأثر بحياة البصرة العلمية ، فقد ظهر في عمان مجموعة من العلماء والفقهاء في شتى المجالات فمنهم من أقام بعمان ، ومنهم من نزح إلى البصرة دون غيرها ، ومن هؤلاء النازحين من أقام في البصرة ومنهم من عاد إلى عمان وقام بنشر العلم فيها . وقد برع منهم جماعة في علوم الدين ، واللغة وآدابها. وسوف يقتصر البحث على جماعة علوم الدين لبروز دورهم خلال فترة البحث .

ويعنى بالعُمَانيين في هذا البحث أربعة أصناف :

١ - كل عماني المولد والنشأة والوفاة .

٢- كل عماني المولد ، وإن نشأ خارجها .

٣ - كل عماني نشأ في عمان ، وإن ولد خارجها .

٤ - كل عماني الوفاة ، وإن ولد ونشأ خارجها .

وكل من ذكرت المصادر أنه عماني الجذور ، ولم ينطبق عليه أحد الشروط الأربعة هذه فلم أدخله في بحثي هذا .

ونعني بعمان المنطقة التي تقع في الجنوب الشرقي من شبه الجزيرة العربية ، وتطل على الخليج العربي من جهة والبحر العربي من جهة أخرى.(١) وقد ذكر الجغرافيون أن عمان تنقسم إلى منطقتين جغرافيتين :

١ - منطقة ساحلية سهلية وعاصمتها تُؤام .

٢ - منطقة داخلية جبلية وعاصمتها صُحار. (٢)

وكل منطقة تتبعها عدة مدن وأشهر مدن المنطقة الساحلية :

١ - تُؤام : وهي عاصمة المنطقة الساحلية ، وتتبعها قرى كثيرة (٣) وبها مغاص اللؤلؤ.(٤)

٢ - مسقط : وهي من مدن المنطقة الساحلية ، وتقع على البحر بين جبلين والطريق يمتد من عمان إلى مسقط على الساحل ، ثم منه إلى سقطرى(٥) ومن مسقط إلى صحار - وهما مدينتا عمان - أربعمائة وخمسون ميلاً .(٦)

وأشهر مدن المنطقة الداخلية :

١ - صحار : وهي عاصمة المنطقة الداخلية ، (٧) وهي أقدم مدن عمان ، وأعمرها وتتبعها قرى كثيرة ، وكان بها مجتمع التجار ، (٨) وقد استقبل ابن الجلندى صاحب عمان في صحار بعثة النبي ﷺإلى عمان.(٩)

٢ - نزوى : وهي من مدن المنطقة الداخلية ، وتشتمل على عدة قرى (١٠) أولها فرق ، وآخرها سمد الكندى ،(١١) وقد وردت لدى الإدريسي ،(١٢) وياقوت (١٣) بالهاء (نزوة) والصحيح (نزوى).

٣ - بهُلا : وهي من مدن المنطقة الداخلية ، وتقع غربي مدينة نزوى وهي مشهورة منذ القدم بصناعاتها الفخارية الجميلة (١٤) .

٤ - أزكى والحمرا (١٥) : وهما من مدن المنطقة الداخلية.(١٦)

٥ - الجبل الأخضر : لم تتكلم المصادر الجغرافية الإسلامية عن الجبل الأخضر ، ولكنه ورد في المصادر العُمَانية ، ولكنها غفلت عن ذكر موقعه من عمان فورد أن في عمان الجبل الأخضر ، ويقال له رضوى ، الجبل الأكبر و رضوان ، وهو جبل بني ريام ، وهو من عجائب الدنيا على حد قول بعض المؤرخين . (١٧)

عمان إدارياً

في عهد الرسول ﷺ حسن إسلام أهل عمان ، وأمّر عليهم الرسول ﷺ الأخوين جيفرا وعبدا ابني الجلندى العماني ، وظلا على أحسن سيرة حتى وفاة النبي ﷺ.(١٨) وفي عهد أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب (رضه)

كانت عمان تابعة إداريا للخلافة الإسلامية في المدينة ، ومنذ عهد عثمان بن عفان (رضه) ربطت عمان بالبصرة مع احتفاظ صاحب عمان عباد بن عبد بن الجلندى بمركزه وقد عزز هذا الارتباط صلة عمان بالبصرة ، وشجع ازد عمان على الهجرة إلى البصرة وكانت البصرة المركز الرئيس للجيوش الإسلامية المتجهة لفتح فارس منذ أمر الخليفة عمر بن الخطاب (رضه) بتأسيسها.[١٩]

وموضوع بحثنا هذا من حيث الزمان والمكان لم يلفت انتباه الدارسين بالقدر الذي يستحقه إذ لم يفرد له في حدود علمي أي بحث متكامل ، وكل ما استطعت الحصول عليه هو معلومات متفرقة غير متكاملة ، مما جعل جل اعتمادي على المصادر العمانية رغم كونها متأخرة ، وعلى المخطوطات التي قامت وزارة الثقافة والتراث القومي في عمان بتحقيقها وطبعها لحفظ تاريخ البلاد ، وهي في مجموعها مجهولة المؤلف . كذلك لم أجد بحثا متكاملا عن عمان في المؤلفات الحديثة سوى رسالة دكتوراه للدكتور عبد الرحمن العاني ، وعنوانها " عمان في العصور الإسلامية الأولى ، "[٢٠] ولكن يمكن القول إن المعلومات الواردة فيها موجزه للغاية ، لأن الرسالة تناولت دراسة جميع النواحي لمنطقة عمان في العصور الإسلامية الأولى .

وقد اعتمد المؤلف كثيرا على مخطوطة *كشف الغمة* والتي طبع جزء منها ،[٢١] وقد رجعت إليها في بحثي هذا كما سيرد ، ورسالة ماجستير بعنوان "عمان في العصر الأموي ، " وتختص بدراسة الأوضاع الجغرافية والسياسية والدينية والحربية لعمان خلال العصر الأموي.[٢٢] ولكن مخطوطة *كشف الغمة* وبقية المصادر العمانية ، وكذا مؤلف العاني ورسالة الماجستير "عمان في العصر الأموي" لم تتطرق للحياة العلمية في عمان اللهم إلا بعض التراجم لبعض الشخصيات العلمية التي برزت داخل عمان وخارجها . وقد أفردت بعض الأجزاء كحلقات خاصة لتراجم بعض العلماء ، وخاصة الإباضية في المصادر العمانية والإباضية المغربية . وقد استخلصت بعض المعلومات من مجريات الأحداث السياسية وتدخل العلماء فيها باعتبارهم من رجال الدولة . هذا وقد اعترف الباحثون بشح المعلومات الواردة في المصادر عن التاريخ المحلي لإقليم عمان . من ذلك أن الدكتور فاروق عمر فوزي[٢٣] الذي بحث موضوع المصادر خلص إلى القول " أن كتب التاريخ العربي الإسلامي الحولية العامة كتاريخ اليعقوبي والطبري ، وابن الأثير ، وغيرهم تظهر اهتماما بالأقاليم المركزية كالعراق والشام ولا تكترث كثيرا بمجريات الأحداث السياسية والتقلبات الاجتماعية في الأطراف البعيدة من الدول العربية ، ولا يتكلم المؤرخون العرب المسلمون عن عمان مثلا إلا حينما تعم فيها ثورة عارمة تهز الدولة ، وتؤثر على السلطة المركزية ، وهنا لا يتعدى هذا الكلام إلا أسطرا أو فقرات مقتضبة ، وما دام الأمر كذلك فلا بد من البحث عن تواريخ محلية لعمان علها تزودنا بمعلومات أكثر غنى ، وأوفر مادة وهنا لا بد لنا أن نلاحظ بأن مؤرخي العرب والإسلام اهتموا بغربي الجزيرة العربية وأهملوا شرقيها ، ولذلك فإن أخبارنا عن الحجاز واليمن أكثر نسبيا من أخبارنا عن البحرين واليمامة وعمان وسبب ذلك واضح يعود إلى عوامل دينية وحضارية وسياسية لا مجال للتفصيل فيه هنا."[٢٤]

وقد رجعت في إعداد هذا البحث إلى ثلاثة أنواع من المصادر هي :

مصادر التاريخ الإسلامي عامة.

- مصادر عمانية .
- مصادر إباضية غير عمانية .

مصادر التاريخ الإسلامي عامة

كان لا بد من الرجوع إلى مصادر عديدة ومتنوعة منها التاريخية والجغرافية وكتب الأنساب ، وكتب الطبقات والتراجم ، وكتب الحديث والفقه ، وكتب الفرق والعقائد وكتب السيرة ، وكتب الأدب . ولكن كتب التاريخ العام ضعيفة في موضوعنا والدليل :

١ - *كتاب التاريخ* (٢٥) لخليفة بن خياط ، وفيه معلومات عن بعثة النبي ﷺإلى عمان وخبر عن جابر ابن زيد.

٢ - *فتوح البلدان* (٢٦) للبلاذري ، وفيه معلومات عن بعثة النبي ﷺ إلى عمان ومقر عامل عمان .

٣ - *تاريخ اليعقوبي* (٢٧) لليعقوبي وفيه معلومات عن بعثة النبي ﷺ إلى عمان وبعض مناطق عمان .

٤ - *تاريخ الرسل والملوك* (٢٨) للطبري ، وفيه معلومات عن بعثة النبي ﷺ إلى عمان وأخبار جابر ابن زيد.

٥ - *البداية والنهاية* (٢٩) لابن كثير ، وفيه ترجمة لجابر بن زيد .

٦ - الروض الأنف (٣٠) للسهيلي ، وفيه أخبار عن جابر بن زيد .

٧ - الكتب الجغرافية ، وفيها معلومات عن موقع عمان ومناطقها ، وبعض مدنها ، وهي *مسالك الممالك* للإصطخري ، *والممالك والمسالك* ، *ومعجم ما استعجم* للبكري ، *ومعجم البلدان* لياقوت الحموي. (٣١) *والروض المعطار* (٣٢) للحميري ، *ونزهة المشتاق* للإدريسي . (٣٣)

أما كتب التراجم والطبقات ممثلة في الطبقات الكبرى (٣٤) لابن سعد ، وأبي نعيم الاصبهاني في *حلية الأولياء* ، (٣٥) وابن حجر في كتابيه *الإصابة* ، (٣٦) و*تهذيب التهذيب* ، (٣٧) فهي تحتوي على معلومات عن بعض الشخصيات العمانية والمراسلات التي دارت بين الرسول ﷺ وأهل عمان ولكنها شحيحة ، وخاصة بالنسبة لعلماء عمان ورجال الإباضية فيها ، بل إنها تكاد تقتصر على ذكر جابر بن زيد العماني ، وتنفي صلته بالإباضية . وبعض كتب الفرق مثل *مقالات الإسلاميين* (٣٨) للأشعري للتأكد من صلة جابر بن زيد بالإباضية .

المصادر العمانية

١ - *تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان* [٣٩] للسالمي المتوفى سنة ١٢٦٩هـ /١٩١٣م ، ومع أنه كتاب متأخر إلا أنه جمع مادته من مصادر قديمة ترجع إلى القرنين الثاني والثالث الهجريين . فقد اعتمد على كتب الأصمعي والجاحظ ، كما أنه استفاد من مصنفات ابن الأثير ، وابن خلدون ، واعتمد كذلك على مجموعة من السير العمانية التي ألفها علماء إباضية ، وقد رتبه في عدة أبواب تناولت انتقال الأزد إلى عمان ، ثم فضائل أهل عمان . وذكر سبب إسلام ملوك عمان ، ثم عمال عمان بعد رسول الله ﷺ، وذكر وقعة دَبَا ، ثم خروج الحجاج بن يوسف لعمان ، وعمال الحجاج ومن بعده على عمان، ثم باب في عقيدة أهل عمان ، وذكر من أخذ عنه أهل عمان دينهم الصحيح ، ثم الأئمة في عمان وما بعده خارج نطاق الموضوع .

٢ - *كتاب تاريخ عمان* [٤٠] المقتبس من كتاب *كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة* ، تأليف سرحان ابن سعيد الأزكوي العماني من أهل القرن ١١هـ، تحقيق عبد المجيد القيسي ، ويقتصر من كتاب *كشف الغمة* على أبواب ستة هي الباب الرابع ، والباب الثالث والثلاثون ، والباب الخامس والثلاثون ، والباب السادس والثلاثون والباب السابع والثلاثون ، والباب الثامن الثلاثون ، وهي الأبواب المخصصة لتاريخ عمان في الكتاب .

٣ - *الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين* [٤١] لابن رزيق المتوفى سنة ١٢٩١هـ وقد رتب ابن رزيق كتابه هذا في ثلاثة أبواب : أولها سلسلة نسب السادة البوسعيديين متصلة بقبيلة الأزد ، في تفصيل لأنساب الأزد ، مع ذكر المشاهير منهم ، وقصصهم ، ثم ذكر صحابة الرسول ﷺ ، من الازد الذين رووا عنه ، والنساء الصحابيات من الأزد ، ثم ذكر بعض العلماء من التابعين ، ومشاهير العلماء العمانيين ومجالسهم ، وأخبارهم ، وبعض أشعارهم ، ولم يذكر من أهل الفترة التي تهمني سوى جابر بن زيد ، وفي موضع آخر منير بن النير ، وموسى الأزكوي . أما البقية فهم أهل فترة لاحقة ، وفي الباب الثاني ذكر أئمة عمان من الجلندى بن مسعود إلى الإمام أحمد بن سعيد البوسعيدي ، ويتصل بموضوعي أول الأئمة الجلندى بن مسعود فقط ، والباب الثالث لا صلة له بموضوعي .

٤ - *كتاب الشعاع الشائع باللمعان في ذكر أئمة عمان* [٤٢] للمؤلف نفسه ، والكتاب عبارة عن قصيدة شعرية نظمها ابن رزيق في ثمانية وأربعين ومائة بيت من الشعر ، وضمنها أسماء أئمة عمان من قبل الإمام أحمد ابن سعيد، وعددهم خمسة وعشرون إماما ، أولهم الإمام الجلندى بن مسعود، وآخرهم الإمام سلطان بن مرشد وقد اتخذ من قصيدته كتابا بحيث يذكر البيت من الشعر ، ثم يشرح مفردات البيت شرحا لغويا مع بيان موقع كل كلمة فيه من الإعراب النحوي ، وما في البيت من بلاغة ، ثم يشرح المعنى الكلي للبيت ، ثم يذكر الجانب التاريخي الذي يتضمنه البيت وقد استفدت منه في ترجمة الإمام الجلندى ، والعلماء الذين كانوا في عهده ، وهم الإمام موسى بن أبي جابر الأزكاني ، وبشير النزواني ودورهما مع بقية العلماء في الإمامة بعد مقتل الجلندى ، واختيار خلفه .

٥ *كتاب قصص وأخبار جرت في عمان*، [٤٣] وهو لمؤلف مجهول ، وهو قريب الشبه بكتاب *تحفة الأعيا* في بعض مادته وأحداثه ، وقريب مما ورد في *كشف الغمة* .

٦ كتاب *تاريخ أهل عمان* [٤٤] لمؤلف مجهول أيضاً ، وهو قريب الشبه بكتاب *قصص وأخبار* ولكنه أكثر اختصاراً .

٧ *كتاب طلقات المعهد الرياضي ، في حلقات المذهب الإباضي* [٤٥] للسيابي ، وتحدث فيه المؤلف عم حلقة الصحابة والتابعين من أهل عمان ، ثم تحدث عن حملة العلم والمذهب الإباضي إلى عمان والمغرب واليمن .

٨ *كتاب إزالة الوعثاء عن أتباع أبي الشعثاء* [٤٦] للسيابي أيضا ، وتحدث فيه عن جابر بن زيد العالم العماني الملقب بأبي الشعثاء وأتباعه من أهل العلم والمذهب الإباضي .

٩ *كتاب إسعاف الأعيان في أنساب أهل عمان* [٤٧] للسيابي أيضا للقبائل العمانية وسلسلة نسبها ومشاهيرها ، وكذلك عمان عبر التاريخ [٤٨] للسيابي أيضا ، وفيه فصل عن علماء عمان في الصدر الأول للإسلام .

١٠ كتاب *عمان تاريخ يتكلم* [٤٩] لناجي عساف والسالمي ، وفيه قيام الإمامة في عمان وأئمة عمان ، وملحق فيه بحث بعنوان " نبذة عن تاريخ الخوارج " لابن اطفيش قارن فيه بين الخوارج والإباضية ، ودافع عن الإباضية .

١١ ومن كتب الفقه العمانية التي تحوي معلومات عن علماء عمان وبعض أقوالهم *كتاب الجامع* [٥٠] لابن جعفر الذي عاش في أواخر القرن الثالث الهجري ، وأوائل الرابع ، وهو من أهم مراجع الفقه الإسلامي الإباضي ، وفيه معلومات عن بعض علماء الإباضية أيضا من غير أهل عمان .

١٢ *منهج الطالبين* [٥١] للشقصي من أهل القرن الحادي عشر الهجري ، وهو كسابقه من كتب الفقه الإباضي ، ويحوي فصلا عن فضل العلم والعلماء ، وفيه معلومات عن بعض علماء عمان ، وأقوالهم ، وذكر علماء عمان الذين هاجروا إلى البصرة ، ونقلوا منها العلم إلى عمان .

١٣ *كتاب حاشية الجامع الصحيح* [٥٢] للسالمي وفيه تعريف بالمرتب أبي يعقوب بن إبراهيم ، والمصنف الربيع بن حبيب ، وأبي عبيدة ، وجابر بن زيد ، وابن عباس بالإضافة إلى الأصل ، وهو ترتيب الأحاديث بسندها ، كما وضعها المؤلف الربيع بن حبيب .

١٤ بالإضافة إلى بعض المراجع مثل *صحار عبر التاريخ*، [٥٣] لأندرو ويليامسون ، *و الخليج العربي و العصور الإسلامية* [٥٤] للدكتور محمد ارشيد العقيلي .

المصادر الإباضية

وأهمها *الإباضية في موكب التاريخ* (٥٥) لابن معمر، ويحتوي على تراجم الأئمة الإباضية في شمال أفريقيا والبصرة، ومنهم جابر بن زيد، وأبو عبيدة مسلم ؛ *والإباضية بين الفرق الإسلامية* (٥٦) للمؤلف نفسه، وفيه ترجمة لجابر بن زيد، والربيع بن حبيب ومؤلفاتهما ؛ *وكتاب الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية* (٥٧) للباروني، وفيه إشارات إلى إباضية البصرة وعمان عند الحديث عن الربيع بن حبيب وعلاقة إباضية الشمال الأفريقي به ؛ *واللمعة المرضية من أشعة الإباضية* (٥٨) للسالمي صاحب *تحفة الأعيان*، و فيه معلومات عن أئمة المذهب الإباضي وعلمائهم في عمان والمغرب وحضرموت ودافع عن المذهب الإباضي ؛ *والعقود الفضية في أصول الإباضية* (٥٩) للحارثي العماني، وقد استقى معلومات من مصادر قديمة مثل الدرجيني والشماخي والمبرد وابن الأثير، وفيه ترجمة لعلماء الإباضية ؛ *وطبقات المشائخ* (٦٠) للدرجيني، وفيه تراجم لبعض العلماء منهم جابر بن زيد والربيع بن حبيب، وعلاقة الربيع بإباضية الشمال الإفريقي ؛ *وتاريخ المغرب الكبير* (٦١) لدبوز، وقد تحدث عن بعثة عمان العلمية للبصرة، وأشار للحركة الإباضية في البصرة في مرحلتها السرية، ودور جابر بن زيد في ذلك ؛ *والجامع الصحيح* (٦٢) مسند الإمام الربيع بن حبيب.

وقد قسمت البحث إلى ثلاثة محاور سوى هذه المقدمة وهي : المحور الأول : دور علماء عمان في علوم القرآن ؛ المحور الثاني : دورهم في علم الحديث ؛ المحور الثالث : دورهم في علم الفقه .

المحور الأول : دور علماء عمان في علوم القرآن

الفترة الزمنية التي تعنى بها هذه الدراسة هي الفترة التي سادت فيها المجتمع الإسلامي العلوم النقلية ؛ وأم العلوم النقلية هي علوم القرآن، وقد كان إسهام علماء عمان فيه في ذلك الوقت ملحوظاً في كل فروع علوم القرآن من توحيد وتذكير فيه وعد ووعيد وجنة ونار وأحكام يتبين منها المنافع والمضار والأمر والنهي والنذر، (٦٣) وكل ذلك مبني على معرفة تامة بالتفسير وأسباب النزول والناسخ والمنسوخ بالإضافة إلى الإلمام باللغة وعلومها واختلاف القراءات. (٦٤)

ولعل من أبرز الذين ظهروا من علماء عمان في علوم القرآن هذه في القرن الأول الهجري جابر بن زيد الأزدي العماني، وهو علم بذاته يستحق أن يُدرس بمفرده، ولهذا غطت سمعة جابر على غيره فلا نجد في المصادر ذكراً لأحد من أضرابه العمانيين، لأن شهرته قد عمت الآفاق .

نشأة جابر

هو جابر بن زيد الأزدي العماني [٦٥] ويكنى أبو الشعثاء نسبة إلى ابنته ، [٦٦] وهو من قرية فرق من أعمال نزوى [٦٧] المدينة المشهورة في عمان وقضى شطرا من حياته الأولى في موطنه ، ولكن تعلقه بالعلم وشغفه به دفع به إلى شد الرحال إلى البصرة التي كانت إحدى المراكز العلمية الهامة في بلاد الإسلام في زمنه ، ومجتمع العلماء والأدباء طلبا للعلم وطاب له المقام فاستقر بها.[٦٨] ولا عجب في ذلك لأن عددا من أهل عمان كانوا يرحلون للبصرة منذ أن مصرها عمر بن الخطاب (رضه) ، وقويت الصلة التجارية والعلمية بين عمان والبصرة حتى شبه أهل عمان العلم بطائر باض في المدينة ، وفرخ بالبصرة ، وطار إلى عمان [٦٩] وتعددت رحلاته إلى مكة والمدينة ، ولهذا تلقى عن شيوخ كثر ، [٧٠] وقيل إنه كان من أعلم الناس في كتاب الله.[٧١]

شيوخه

أخذ جابر العلم عن جماعة من صحابة رسول الله ﷺويروى عنه أنه قال : إنه أدرك سبعين بدريا ، وأخذ عنهم ، [٧٢] ومن أبرز الصحابة الذين أخذ عنهم عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله ابن عمر ، وأنس بن مالك ، [٧٣] رضي الله عنهم أجمعين .

وكان لجابر منزلة عليا عند شيوخه ، [٧٤] وذكرت بعض المصادر العمانية أن جابر بن زيد دخل على عائشة (رضه) ، وأخذ يسألها عن مسائل لم يسألها عنها أحد من قبل وهي تقول سل يا بني ، ثم سألته ممن أنت؟ قال من أهل المشرق من بلد يقال لها عمان ، [٧٥] وهذا دليل على حرصه على أخذ السنة بدقة .

دوره في التعليم والإفتاء في البصرة

أخذ جابر ينشر العلم في البصرة بين الناس ، متخذا من المساجد مكانا لتدريسه ، ودعوة الناس للتمسك بالدين القويم ، ويفتي فيما يطرأ من مسائل للناس[٧٦] وله حلقة بجامع البصرة يفتي فيها ، وكان فقيها ورعا وتقيا ، ومن المجتهدين في العبادة ، ولم يكن أحد أعلم بالفتيا منه ، [٧٧] وقد شهد له بالعلم والفقه والدين وسماحة الخلق كثير من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين ، فقد قال عبد الله بن عباس (رضه) " عجبا لأهل العراق كيف يحتاجون إلينا ، وفيهم جابر ابن زيد." [٧٨] وتقول مصادرنا لما توفي جابر بن زيد قال أنس بن مالك صاحب الرسول ﷺ : "اليوم مات أعلم من على ظهر الأرض " [٧٩] ويروى انه قال أيضا " مات خير أهل الأرض."[٨٠] كما قال عنه الحسن البصري " هذا والله الفقيه العالم." [٨١]

قال صاحب *الإباضية في موكب التاريخ*: " إن هذه الشهادة التي يعطيها أخص أصحاب رسول الله ﷺ (عبد الله بن عباس ، وأنس بن مالك)، ويختمها سيد التابعين الحسن البصري تعتبر أعظم إجازة معتمدة تعطى عن درجة

علمية في ذلك الحين."[٨٢] ويكفي أن ابن عباس (رضه) كان يحيل السائل على جابر بن زيد بل كان يتعجب منهم كما مر معنا إذا جاءوا يسألونه وجابر عندهم .

تلاميـــــــذه

تتلمذ على يد جابر بن زيد عدد من طلبة العلم بعضهم من أهل عمان وبعضهم من غير أهل عمان منهم : قتادة شيخ البخاري ، وضمام بن السائب وحيان الأعرج ، وأبوعبيدة مسلم بن أبي كريمة ، وعبد الله بن إباض ، وأبو نوح صالح الدهان والعنبر جد أبي سفيان محبوب بن الرحيل.[٨٣]

نفيه إلى عمان

كان الحجاج بن يوسف يتتبع العلماء والدعاة من أهل الفرق الذين يتوجس فيهم معارضته وكان كثيرا ما يتخفى أولئك العلماء عنه ويفرون خوفا منه وكان الحجاج قد سجن جابر بن زيد ، وبعض أتباعه البارزين مثل ضمام بن السائب ، وأبي عبيدة مسلم ، وصحار العبدي ، وغيرهم.[٨٤] ثم أطلق الحجاج سراح جابر ونفاه إلى عمان فأتاح له ذلك الفرصة في نشر العلم في موطنه الأصلي عمان بين أهله وعشيرته.[٨٥] ولا يستبعد أن يكون سبب سجن الحجاج له هو انتشار علم جابر في عمان والبصرة ، وكثرة تلاميذه مما أدى إلى قوة نفوذه ، فلما فشلت حملة الحجاج للسيطرة على عمان قرر الانتقام من الأزد في عمان والعراق، فوضع زعماءهم في العراق ، ومن بينهم جابر تحت مراقبة شديدة ، ثم سجنه،[٨٦] وقد بقى مدة في عمان ، ثم عاد إلى البصرة ، وواصل نشر العلم بين تلاميذه بهدف إحياء سنة الخلفاء الراشدين ، وسياستهم ، والتسوية بين الناس ، والقضاء على التعصب الذي بدأ يستشري بين الناس.[٨٧]

دوره في التعليم والإفتاء في عمان

لا يوجد تاريخ محدد لنفي جابر بن زيد إلى عمان ، ولا مدة بقائه فيها ولكن المصادر تجمع على أنه عاد إلى البصرة ، ومات فيها [٨٨] سنة ٩٣هـ وقيل سنة ٩٦هـ [٨٩] وقيل سنة ١٠٣هـ.[٩٠] ولكنها لم تشر إلى دوره في عمان ، والمصدر الوحيد الذي نستطيع أن نتبين منه بعض دور جابر في التعليم والإفتاء في عمان هو ابن جعفر الأزكوي ، وهو من شيوخ عمان في القرن الثالث الهجري ، فقد ذكر بعض فتاوي جابر في كتابه/*الجامع*،[٩١] والذي جمع فيه فتاوي بعض شيوخ عمان وعلمائها. ومن الثابت أن أهل عمان يستفتونه كتابة ، ولا ندري أكان جابر موجودا في عمان أم في البصرة ، لأن صاحب/*الجامع* لا يشير إلى شيء من ذلك ، ويصدر بعض فتاويه بأنهم كتبوا إلى جابر والكتابة قد تكون وجابر في البصرة ، أو في عمان،[٩٢] ولا يستبعد أن يكون رحيل علماء عمان

الخمسة (الذين عرفوا بحملة العلم)[٩٣] إلى البصرة بتشجيع من المناخ العلمي الذي وفره جابر خلال وجوده في عمـان.[٩٤]

المحور الثاني : دورهم في علم الحديث

إن الاهتمام بعلوم القرآن دفع أولئك العلماء للاهتمام بالحديث ، وبسنة الرسول ﷺ عامة قولية وفعلية وتقريرية ، لأنها مفصلة لعلوم القرآن ، ومفيدة لعامه وعرف نقل هذا العلم بعلم الحديث مضافاً إلى ذلك ما ورد عن صحابة رسول الله ﷺ وكبار التابعين لأن الصحابة عاشروا الرسول ﷺ ، وسمعوا قوله ، وشاهدوا فعله ، وجاء كبار التابعين فعاشروا الصحابة وسمعوهم ورأوا فعلهم.[٩٥] ونتيجة لهذا كان الإسناد أساساً لعلم الحديث حتى قيل إن الإسناد من الدين ، [٩٦] ولهذا تمحور علم العمانيين للحديث في أول الأمر حول جابر بن زيد ، والربيع بن حبيب .

الإمام جابر بن زيد المحدث

إن اهتمام جابر بعلوم القرآن دفعه للاهتمام بعلوم الحديث والعناية بها أشد عناية فبرز فيها كما برز في علوم القرآن فوثقه الإباضية [٩٧] كما وثقه أهل السنة [٩٨] واتفقوا جميعاً على عدالته ،[٩٩] ولا غرو في ذلك فقد كان ابن عباس حبر الأمة ، وأم المؤمنين ع ائشة (رضه) يوثقانه [١٠٠] وعنهما أخذ كثيراً من علمه حسب ما ذكرنا في الحديث عنه في علوم القرآن.[١٠١]

وليس أدل على اهتمامه بالسنة من أن كتابه المعروف *بالديوان* كان مليئاً بالسنة النبوية ، وقيل إن ديوان جابر حمل خمسة جمال ، وقيل حمل أربعة جمال ، وقيل حمل جمل واحد.[١٠٢] وقد يكون الكتاب ضخماً ولكن لا يصل إلى حمل خمسة جمال ولكن ربما يعود ذلك إلى مواد الكتابة في ذلك الوقت ، حيث كانت من الحجارة والطين والجلود وأوراق البردي (وهي القراطيس) [١٠٣] مما زاد في ضخامة الكتاب. وكيفما كان الأمر فالثابت أن الكتاب في عشرة أجزاء ويُرجح بعضهم أنه أول كتاب ضخم ألف في الإسلام.[١٠٤] وكان هذا الكتاب ذا قيمة كبيرة لما فيه من علم وهدى لا سيما وأن جابراً كان قريباً من عصر النبوة ، فأخذ علمه عن الصحابة (رضه).[١٠٥]

الربيع بن حبيب المحدث

هو الربيع بن حبيب بن عمرو الأزدي الفراهيدي العماني البصري ، تابعي فقيه ، ومحدث مشهور[١٠٦] من أهل الباطنه [١٠٧] من عمان[١٠٨] ولم تذكر المصادر تاريخ ومكان ولادته ولا وفاته ، ولكن الحارثي ذكر أنه ثبت

وجوده في زمن جابر بن زيد المتوفى حوالي سنة ٩٣هـ حيث أدركه الربيع ، وهو شاب وأنه صلى عليه موسى بن أبي جابر المتوفى سنة ١١٨هـ ، فهو ما بين هذين التاريخين.[١٠٩]

رحلته في طلب العلم

خرج إلى البصرة لطلب العلم فتعلم وعلم وصحب أبا عبيدة مسلم بن أبي كريمة وصار من الأفاضل بعده ثم انتقل إلى عمان آخر زمانه ، وأقام في الباطنه من عمان [١١٠] وفي رحلته هذه أدرك جابر بن زيد ، وروى عنه حديثاً في المسند وقيل إن الربيع بن حبيب أدرك جابر بن زيد والربيع شاب ، وتتلمذ على يد أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة ، وعنه أخذ كثيراً من العلم [١١١] وكان الربيع يقول " أخذت الفقه من ثلاثة أبي عبيدة ، وأبي نوح وضمام بن السائب." [١١٢] وتنوع علمه ، وتعددت معارفه الإسلامية ، ويبدو أنه كان مهتماً بقضية أصول الدين ، وقد كتب فيها كتاباً هو (الدليل والبرهان) [١١٣] ولكن أكثر بروزه كان في الحديث وعلومه.[١١٤]

اهتمامه بالحديث

كان يضرب به المثل في العلم بالحديث.[١١٥] وله كتابه *الجامع الصحيح* [١١٦] "وهو مسند في الحديث ، واشتهر به ، [١١٧] وقد عكف على كتابته وهو في البصرة ،[١١٨] وكان الربيع عالي الإسناد.[١١٩]

ونتيجة لشهرة الربيع بالحديث اعتبر أهل المذهب الإباضي كتاب *الجامع الصحيح* أصح كتب الحديث ، وسنده في الغالب ثلاثي عن أبي عبيدة التميمي عن جابر بن ز يد عن الصحابي.[١٢٠]

ومعظم رواياته عن ضمام بن السائب العماني وأبي عبيدة مسلم ، فمن رواية الربيع عن أبي عبيدة ثمانية وثمانون حديثا وجملة ما في الجزئين الأولين من المسند ستمائة وأربعة وخمسون حديثا ، منها مائة وخمسون حديثا عن ابن عباس وستون عن أبي سعيد الخدري واثنان وسبعون عن أبي هريرة وثمانية وستون عن عائشة أم المؤمنين ، وروى مراسيل جابر بن زيد التي تبلغ أربعة وثمانين ومائة حديث. وهذا غير ما ورد عن أبي أيوب وعبادة بن الصامت وأبي مسعود وعلي بن أبي طالب. و هنا تجدر الإشارة إلى أن الجزئين الأول والثاني يحتويان على هذه الأحاديث ، وهي تدور حول أحكام الشريعة ،[١٢١] ويتناول الجزء الأول باب في النية ، وكتاب الطهارة ، وكتاب الصلاة وكتاب الصوم وكتاب الزكاة والصدقة ؛ أما الجزء الثاني فيتناول كتاب الحج والجهاد والجنائز والأذكار والنكاح والطلاق والبيوع والأحكام والأشربة والأيمان والنذور.[١٢٢]

تلاميذ الربيع

تتلمذ على يد الربيع عدد من طلبة العلم من مختلف البلدان وقد أخذوا العلم عنه ونقلوه إلى بلدانهم ، من أهل عمان وحضرموت وخراسان والعراق.[١٢٣]

١ أهل عمان : حمل عن الربيع من أهل عمان العلم من البصرة إلى عمان المشائخ الخمسة (حملة العلم) وهم: [١٢٤]

- أبو المنذر بشير بن المنذر النزواتي
- منير بن النير الجعلاني
- موسى بن أبي جابر الازكوي (الأزكاني)
- الجلندى بن مسعود
- محمد بن المعلى الفشحي الكندي [١٢٥]

وكان لهم دورهم في توجيه الحياة السياسية والإفتاء في المسائل الدينية .

٢ أهل حضرموت : حمل عنه العلم من أهل حضرموت أبو أيوب وائل بن أيوب وكان قد انتقل إلى البصرة وسكن فيها وكان أبو عبيدة الصغير عبد الله بن القاسم يقول إذا سئل: " عليكم بوائل فإنه أقرب عهدا بالربيع." [١٢٦]

٣ أهل خراسان : وحمل عنه العلم من أهل خراسان : هاشم بن عبد الله الخراساني. [١٢٧]

٤ أهل العراق : حمل عنه من أهل العراق عدد كبير . وذكر السالمي في حاشية *الجامع الصحيح* أن البدر الشماخي [١٢٨] ذكرهم في السير من أهل طبقة الربيع. [١٢٩]

علاقة الربيع بالإباضية

كان الربيع بن حبيب ملازما لأبي عبيدة ، ويحفظ عنه ، وبرز في العلوم التي أخذها عنه حتى إذا سأل أبا عبيدة سائل أحاله إلى الربيع [١٣٠] وهذا دليل ثقته بالربيع ، لم لا وهو الذي أثنى على قول (المثنى) وهو أحد رجال الإباضية " في الربيع كفاية عمن سواه ." [١٣١]

وكان الربيع في البصرة بمثابة إمام البيعة مع الإباضية بحيث لا يقدمون على عمل دون مشورته وكانوا يؤدون إليه زكاة أموالهم ليضعها حيث يشاء ، فكان يجتهد لايصالها لمستحقيها من المسلمين. ومن ذلك أنه يبعث محبوب ابن الرحيل [١٣٢] ليطوف في البصرة ليحصي المسلمين ويتعرف على اليتامى والمستحقين ليعطيهم. [١٣٣]

المحور الثالث: دورهم في علم الفقه

وعلم الفقه من حيث هو بحث عن الأحكام الشرعية الفرعية العملية ، من حيث استنباطها من الأدلة التفصيلية [١٣٤] فقد برز فيه مجموعة من رجال عمان منهم جابر بن زيد مفتي البصرة كما مر معنا في علوم القرآن والحديث ، والربيع بن حبيب الذي برز أكثر في علم الحديث ، ثم علماء عمان الخمسة الذين تتلمذوا على

يد الربيع بن حبيب وشيخه أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة في البصرة ثم عادوا إلى عمان ونشروا العلم من خلال دعوتهم الإباضية ، والعلماء الخمسة هم :

موسى بن أبي جابر الأزكاني - وبشير بن المنذر النزواني - ومنير بن النير الجعلاني - ومحمد بن المعلى الفشحي - والجلندى بن مسعود.[١٣٥] وقد اقتصرت شهرتهم على عمان وما حولها ، والمغرب ، ولعل ذلك يعود إلى بقائهم في عمان بعد عودتهم من البصرة . وعدم خروجهم منها . ونظراً لبعد المسافات وصعوبة المواصلات والوقت الذي يحتاجه المسافر من منطقة لأخرى أدى إلى عدم وصول أخبار هؤلاء العلماء إلى خارج عمان ، وخاصة البصرة . ولهذه الأسباب لم يرد ذكر لهؤلاء العلماء في مؤلفات العلماء المتقدمين في ذلك الوقت واقتصر ذكرهم على المصادر العُمَانية ، وبعض المصادر المغربية الإباضية ، أو من تناول تاريخ المغرب أو رجاله. وتجدر الإشارة إلى أن المصادر لا تتوسع في دورهم في الحياة العلمية ، ولكن يتضح دورهم ذلك من خلال ما تذكره المصادر من اشتراكهم في الحياة السياسية ، أو توجيههم للحياة الدينية لا سيما الإفتاء. وقد جمع الإمام ابن جعفر بعض فتاويهم في كتابه *الجامع* الذي سبق ذكره ،[١٣٦] ولعله من المفيد أن نترجم لكل واحد من هؤلاء العلماء الخمسة(حملة العلم) الذين اشتهروا بمجال الفقه والفتوى أكثر من اشتهارهم في مجال علوم القرآن والحديث .أما الإمام جابر بن زيد ، والربيع بن حبيب ، فسوف نكتفي بذكر بعض فتاويهم لصلتها بالفقه ، وفيما ذكرنا عنهم في علوم القرآن والحديث كفاية .

فتاوي الإمام جابر بن زيد (الفقيه والمفتي)

لم تكن فتاوى الإمام جابر محصورة على موطن مولده أو نشأته أو منفاه وإنما أيضاً كان يفتي في الحرمين الشريفين حيث كان يكثر تردداه على مكة والمدينة حاجاً وزائراً ، وقيل إنه حج أربعين حجة[١٣٧] وكانت فتاواه في الحرمين تُقَابل بكثير من القبول والرضا من معاصريه.[١٣٨] وكان حجة في الإفتاء ومن المعول عليهم ، ودليل ذلك أنه كان في سجن الحجاج وفرضت مسألة الخنثى في الميراث ، فلم يوجد من يفتي فيها ، فقيل للحجاج أن يستفتي جابراً فأتى به في أصفاده ، وقال : "أتستفتوني وقيودكم في رجلي " ؟[١٣٩] قالوا نعم فأفتاهم.[١٤٠]

علاقة جابر بن زيد بالإباضية

كان زعيم القعدة بالبصرة والذين عرفوا فيما بعد بالإباضية كان زعيمهم أبو بلال مرداس قد أدرك مدى علم جابر ولازمه وتردد عليه ليلاً ونهاراً ليغترف من علمه الواسع ، وكانا يخرجان سوياً إلى مكة.[١٤١] ونتيجة لذلك عرف القعدة علم جابر ، ووثقوا فيه لعلمه ، ودينه وصاروا يشاورونه في أمورهم من خلال زعيم جماعتهم أبي بلال مرداس ،[١٤٢] بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك فاعترفوا له بالزعامة العلمية ، لأن جابراً لم يشترك في أحداث

السياسة التي جرت في عهده وربما كان يخفي معتقده ، ويؤمن بالتقية إذ أنه كان يصلي الجمعة بالمسجد الجامع في البصرة خلف ابن زياد ، وعندما يعاتبه أصحابه . يرد عليهم بأنها صلاة جامعة وسنة متبعة [١٤٣] كما مر معنا في فتاويه - فإن لم يكن الأمر تقية فمعناه أنه يؤمن برأي أهل السنة والجماعة ، ولو أنه يعد إباضياً لكونه إمامهم الديني في الفقه والفتوى والتشريع والحديث والتفسير.[١٤٤] وكان الإباضية يردون مذهبهم إليه لأنه في اعتقادهم هو منشئ المذهب (مذهب الإباضية) وهذا مذهب ذهب إليه الأشعري في كتابه ولا تناقضه الروايات الإباضية نفسها وأثبتته الدراسات الحديثة.[١٤٥]

ولكن يبدو أن جابراً جعل مجاله مجال العلم دون السياسة ، ولكن أثره في تخريج زعامات الإباضية واضحاً في أبي بلال مرداس ، ثم مع عبد الله بن إباض التميمي الذي كان من تلامذة جابر ، وكان حريصاً على مشورته في الأمور ، وإلى عبد الله هذا نسبت قعدة البصرة فعرفوا بالإباضية.[١٤٦]

فتاوى الربيع

جمع أبو غانم بشر بن غانم الخراساني كتاباً سماه *المدونة* [١٤٧] عن فتاوي الربيع عن سبعة من تلاميذه ، وقد رتبها القطب بن يوسف وجعلها في جزئين كبيرين .[١٤٨]

العلماء الخمسة(حملة العلم)

١ - موسى بن أبي جابر الأزكاني: [١٤٩]

وهو من بني ضبة من بني سامة بن لؤي بن غالب ، وبنو سامة بن لؤي معروفون في إزكي في عمان.[١٥٠] وقد حمل العلم عن الربيع بن حبيب ، وكان أحد حملة العلم الخمسة الذين نقلوه من البصرة إلى عمان ،[١٥١] وكان يقيم بنزوى قلب عمان وكان مرجعاً ، وحجة لأهل العلم في الدين . ويعد من أقوى دعائم الحق في عمان ومتعمقاً في الدين ، ولهذا كان رئيس مشايخ علماء عمان وعميدهم منذ قيام الإمامة في عمان سنة ١٣٢هـ [١٥٢] وكان له وللعلماء الأربعة دور في نشر مبادئ الإباضية في أنحاء عمان .[١٥٣]

٢ - بشير النـــزواني [١٥٤]

هو أبو المنذر بشير بن المنذر النزواني من بني نافع من مدينة نزوى ، [١٥٥] وهو جد بني زياد من بني سامة ابن لؤي بن غالب الموجودين بعمان.[١٥٦] شاع عليه لفظ الشيخ دون غيره ، ثم سمي الشيخ الكبير، وكثيراً ما يوجد له ذكر في الآثار التي تروى عن "بشـــير الشيخ" وقد حمل العلم عن الربيع بن حـــبيب البصري الفراهيدي ،[١٥٧] وهو من أئمة عمان وفقهائها . وقد أشرت إلى سبب اقتصار شهرته وبقية العلمـاء الخمسة(حملة

العلم) على منطقة عمان والمغرب وحضرموت ، وقد ملأ الأثر العماني بفتاويه وكثر القادمون إليه لطلب العلم (ولعلهم من مناطق عمان)، وكان يروي فتاويه عن الربيع عن أشياخه في العلم : أبي عبيدة وجابر بن زيد وأبي نوح وضمام بن السائب ، وعاش على ذلك حتى توفي.[١٥٨]

٣ - منير بن النير الجعلاني[١٥٩]

وهو منير بن النير (بصفة التصغير لأبيه) بن عبد الملك بن وسار بن وهب بن عبيد بن صلت بن يحيى بن حضرمي بن ريّام ، وحضرمي هو جد الطائفة المعروفة ببني حضرمي في عمان.[١٦٠] وقد حمل العلم عن الربيع بن حبيب من البصرة إلى عمان،[١٦١] وهو من أئمة أهل مذهبه وفقهائهم ، ومن أجلة العلماء حجة على العباد ، وكان علاّمة جليلاً غاية في العلم ومعرفة الحلال والحرام[١٦٢] وكان من المجربين حيث عاش المدة المشحونة بالقضايا والحوادث في عمان في القرن الثاني الهجري. وكان من المعمرين وقد أقام في شرق عمان بجعلان وعاش في عهد الإمام الجلندى بن مسعود سنة ١٣٢-١٣٥هـ ، وكان من جملة رجال دولته ، وقد عمّر زمناً حتى سقط حاجباه وبقي لا يُنتفع إلا برأيه وقد كف نفسه عن الدخول في أمور الناس بعمان حتى مات قتيلاً.[١٦٣]

٤ - محمد بن المعلى الكندي الفشحي[١٦٤]

وهو من أهل فشح من قلب عمان وكان أحد حملة العلم من البصرة إلى عمان.[١٦٥] كان فقيهاً واسع الاطلاع ، وكان ضمن الشيوخ العلماء الذين اجتمعوا في نزوى للنظر في أمر اختلاف عمان، وإنهاء حكم الجبابرة، ومنهم محمد بن زائدة وراشد بن النظر، وهو أول من حكم بقتال راشد بن النظر .[١٦٦] وقد تتلمذ على يد الربيع بن حبيب، وأبي عبيدة ، في البصرة ثم عاد إلى عمان مع أصحابه الأربعة.[١٦٧]

٥ - الجُلندى بن مسعود بن جيفر[١٦٨]

وهو أحد أبناء الجلندى بن المستكبر من أبناء معولة بن شمس الذين ملكوا عمان بعد أبناء مالك بن فهم الأزدي.[١٦٩] وكان أحد العلماء الخمسة الذين نزحوا إلى البصرة للتتلمذ على يد الربيع بن حبيب الفراهيدي العماني ، وأستاذه أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة العالم الإباضي - في عهد عبد الملك بن مروان -[١٧٠] وكان فاضلاً عادلاً تقياً متواضعاً لله ، وكان أول أئمة العدل في عمان. وهو السبب في قوة المذهب الإباضي في عمان، فبعد سقوط دولة بني أمية سنة ١٣٢هـ عقد الإباضية في عمان الإمامة للجلندى بن مسعود ، ولكن لم تطل مدة إمامته حيث قتل على يد قائد الجيش العباسي بعد سنتين وشهر من إمامته .[١٧١]

الخاتمـــــة

الخلاصة في هذا البحث الـذي يدور موضوعـه حـول (دور العلمـاء العمـانيين في الحيـاة العلميـة في القرنـين الأول والثاني الهجريين داخل عمان وخارجها) أن العلماء العمـانيين بـرزوا في العلـوم النقليـة ، وهـي علـوم القـرآن والحديث والفقه وهي التي سادت المجتمع الإسلامي في ذلك الوقت . وقد كان إسهام العلماء العمـانيين إسـهاما جليلاً في كل فرع ، سواء كانوا موجودين في عمـان أو في البصـرة الـتي نـزح إليها عـدد مـن أهـل عمـان وكـان ذلـك النـزوح ، إما طلباً للعلم أو التجارة أو المشاركة في الفتوح وقويت الصلـة بين البصـرة وعمـان عندمـا ربطـت عمـان بالبصرة إدارياً منذ عهد الخليفة عثمان بن عفان (رضه) مما شجع نزوح بعـض العلمـاء العمـانيين إلى البصـرة لطلـب العلم لا سيما وأنها كانت إحدى المراكز العلمية في ذلك الوقت ، وقد برز العلماء العمانيون في كثير من العلوم التي عرض لها هذا البحث.

الهوامـــــــش

(١) صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي ، *مراصد الاطلاع* تحقيق على البجاوي، ط١ (دار إحياء الكتب العربية ، ١٣٧٣هـ)، ٢ : ٩٥٩ ؛ ناجي عساف ، ومحمد عبد الله السالمي، *عمان تاريخ يتكلم* (دمشق، ١٣٨٣هـ) ، ٤٩ ؛ الحبيب، الجنحاني، "دور عمان في نشاط التجارة العالمية خلال العصر الإسلامي الأول،" *مجلة المؤرخ العربي*، بغداد، ٢٢ (١٩٨٢م) ، ١٧ .

(٢) هذا التقسيم الجغرافي عند عبد الله بن عبد العزيز البكري ، *معجم ما استعجم* (القاهرة، ١٩٤٥م)، ١ : ٣٢٣ ؛ وله صدى عند أبي الفدا عماد الدين إسماعيل بن محمد، "*تقويم البلدان* " (باريس: دار الطباعة ، ١٨٥٠م) ، ٩٩ ؛ محمد عبد المنعم الحميري، *الروض المعطار في خبر الأقطار* ، تحقيق إحسان عباس (بيروت: مكتبة لبنان، د.ت.)، ٤١٣ ؛ أما اختيار العاصمة فقد اختلف فيه حيث ذكر البكري نقلاً عن ابن قتيبة ان عاصمة عمان تؤام (*معجم ما استعجم* ، ١ : ٣٢٣) وذكر الاصطخري أن صحار عاصمة عمان، إبراهيم بن محمد، *مسالك الممالك* (ليدن: بريل، ١٩٦٧م) ، ٢٧ ؛ ويوافقه ياقوت : شهاب الدين أبو عبد الله الحموي، *معجم البلدان* (بيروت: دار صادر، ١٣٩٧هـ)، ٣ : ٣٩٣ ؛ وكذا أبو الفدا، *تقويم*، ٩٩ ؛ وكذا الحميري، *الروض المعطاء*، ٣٥٤ .

(٣) ياقوت ، معجم، ٢ : ٥٤ ؛ أبو الفدا ، *تقويم*، ٩٩ .

(٤) البكري ، *معجم ما استعجم* ، ١ : ٣٢٣ .

(٥) الحميري ، *الروض المعطار*، ٣٣٩ .

(٦) الإدريسي ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله، *نزهة المشتاق في اختراق الآفاق* ١ : ١٥٦ .

(٧) الاصطخري ، *مسالك*، ٢٥ ؛ أبو الفدا ، *تقويم البلدان*، ٩٩ .

(٨) الاصطخري ، *مسالك الممالك*، ٢٧ ؛ الإدريسي ، *نزهة المشتاق*، ١٥٦ ؛ أبو الفدا ، *تقويم البلدان*، ٩٩ ؛ الحميري ، *الروض المعطار*، ٣٥٤ .

(٩) خليفة بن خياط ، *تاريخ*، ٩٧ ؛ البلاذري ، *فتوح*، ٧٦ ؛ اليعقوبي ، *تاريخ*، ٢ : ٧٨ . سوف يرد التعريف بهذه الكتب في دراسة المصادر ، اندرو ويليامسون ، *صحار عبر التاريخ* (سلطنة عمان ، ١٩٨٠م)، ١٦ .

(١٠) البكري ، *الممالك والمسالك* ، ١٤١ ؛ ابن رزيق ، *الفتح المبين* ، ٢٣٣ .

(١١) ابن رزيق ، *الشعاع الشائع* ، ٣٠ ، ٤١ .

(١٢) الإدريسي ، *نزهة المشتاق*، ١٥٨ .

(١٣) ياقوت ، معجم، ٥ : ٢٨١ .

(١٤) ابن رزيق ، *الشعاع الشائع* ، ٥٨ .

(١٥) هاتان المدينتان وكذلك مدينة بهلا السابقة لم اهتد إلى تعريفهما في المصادر الجغرافية .

(١٦) ابن رزيق ، *الشعاع الشائع* ، ٥٤ ؛ ابن رزيق، *الفتح المبين* ، ٢٣٣ .

(١٧) السالمي ، *تحفة الأعيان* ، ١ : ٦ ؛ ابن رزيق ، *الفتح المبين*، ٦٤ ، ٢١٥ .

(١٨) البلاذري ، *فتوح*، ٧٦-٧٧ ؛ اليعقوبي ، *تاريخ*، ٢ : ١٣٨ ؛ الطبري ، *تاريخ*، ٤ : ٧٧ (سوف يرد التعريف بهذه الكتب في المصادر).

(١٩) الأزكوي ، ٤٤ ؛ عساف والسالمي، *عمان تاريخ يتكلم* ، ١٠١ ؛ عبد الرحمن عبد الكريم النجم، *البحرين في صدر الإسلام وأثرها في حركة الخوارج* (بغداد: دار الحرية ، ١٩٧٣م)، ١١٩ .

(٢٠) عبد الرحمن عبد الكريم العاني، *عمان في العصور الإسلامية الأولى ودور أهلها في المنطقة الشرقية من الخليج العربي ، وفي الملاحة، والتجارة الإسلامية* (بغداد : ١٩٧٦م).

(٢١) سرحان بن سعيد الازكوى ، *كتاب تاريخ عمان المقتبس من كتاب كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة* ، تحقيق عبد المجيد حسيب القيسي (سلطنة عمان وزارة التراث القومي والثقافة : مطابع سجل العرب، ١٩٨٠م).

(٢٢) حصة الجبر، "عمان في العصر الأموي ،" رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة الملك سعود ، ١٤٠٣هـ .

(٢٣) *مجلة المورد* ، ٣، ع٤ (١٩٧٤م)، موضوع ببلوغرافيا في تاريخ عمان ، ٢٧٥ ، ٢٧٦.

(٢٤) المورد، ٣، ع ٤ (١٩٧٤م)، ٥٧٢، ٦٧٢ ؛ فاروق عمر فوزي، مصادر التاريخ المحلي لإقليم عمان، *دراسات تاريخ الجزيرة العربية* (الرياض ، ١٣٩٩هـ)، ٢ : ١٠٥ - ١٠٩ .

(٢٥) خليفة بن خياط ، *كتاب التاريخ* ، تحقيق أكرم العمري (دمشق : دار القلم ، ١٣٩٧هـ).

(٢٦) أحمد بن يحيى البلاذري ، *فتوح البلدان* (بيروت: مكتبة الهلال ، ١٣٩٨هـ) .

(٢٧) أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر اليعقوبي ، *تاريخ اليعقوبي* (بيروت: دار بيروت ، ١٤٠٠هـ) .

(٢٨) محمد بن جرير الطبري، *تاريخ الرسل والملوك* (بيروت: دار الفكر ، ١٣٩٩هـ) .

(٢٩) عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير، *البداية والنهاية* (القاهرة: مطبعة السعادة ، ١٣٥١هـ).

(٣٠) عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي، *الروض الأنف* (القاهرة : مكتبة الكليات الأزهرية ، ١٩٧٣م) .

(٣١) كل هذه الكتب سبق التعريف بها في المقدمة .

(٣٢) سبق التعريف به في المقدمة أيضاً .

(٣٣) سبق التعريف به في المقدمة أيضاً .

(٣٤) محمد بن سعد بن منيع بن سعد، *الطبقات الكبرى* (بيروت: دار صادر ، د.ت.) .

(٣٥) أحمد بن عبد الله أبو نعيم الاصبهاني ، *حلية الأولياء وطبقات الأصفياء* ، ط٣ (بيروت: دار الكتاب العربي ، ١٤٠٠هـ) .

(٣٦) أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، *الإصابة في تمييز الصحابة* (بيروت: دار الفكر، ١٣٩٨هـ) .

(٣٧) ابن حجر، *تهذيب التهذيب* (حيدر آباد الدكن: مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، ١٣٢٥هـ).

(٣٨) علي بن إسماعيل الأشعري، *مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين* ، تحقيق محمد محيي الدين (القاهرة: مكتبة النهضة، ١٣٨٩هـ).

(٣٩) نور الدين عبد الله بن حميد السالمي، *تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان* (القاهرة : دار الكتاب العربي ، ١٣٨٠هـ)، ج١ .

(٤٠) سبق التعريف به .

(٤١) حميد بن محمد بن رزيق ، *الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين* تحقيق محمد عامر ومحمد مرسي (سلطنة عمان: وزارة التراث القومي والثقافة ، ١٣٩٧هـ) .

(٤٢) ابن رزيق ، *الشعاع الشائع باللمعان في ذكر أئمة عمان* ، تحقيق عبد المنعم عامر (سلطنة عمان : وزارة التراث القومي والثقافة ، ١٣٩٨هـ) .

(٤٣) مؤلف مجهول، *قصص وأخبار جرت في عمان* ، تحقيق عبد المنعم عامر (سلطنة عمان: وزارة التراث القومي والثقافة، ١٤٠٠هـ).

(٤٤) مؤلف مجهول ، *تاريخ أهل عمان* ، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور (سلطنة عمان: وزارة التراث القومي والثقافة، ١٤٠٠هـ) .

(٤٥) سالم بن حمود السيابي، *طلقات المعهد الرياضي في حلقات المذهب الإباضي* (سلطنة عمان: وزارة التراث القومي والثقافة، ١٤٠٠هـ).

(٤٦) *إزالة الوعثاء عن اتباع أبي الشعثاء* ، تحقيق سيدة كاشف (سلطنة عمان: وزارة التراث القومي والثقافة، ١٩٧٩م) .

(٤٧) *إسعاف الأعيان في أنساب أهل عمان* (دمشق بيروت: المكتب الإسلامي، ١٩٦٥م) .

(٤٨) *عمان عبر التاريخ* (سلطنة عمان : وزارة التراث القومي والثقافة ، ١٤٠٢هـ) .

(٤٩) سبق التعريف به في هامش ص ١ .

(٥٠) أبو جابر محمد بن جعفر الأزكوي ،*الجامع* ، ج١ ، و ج٢ ، تحقيق عبد المنعم عامر (سلطنة عمان: وزارة التراث القومي والثقافة، ١٩٨١م) .

(٥١) خميس بن سعيد بن علي بن مسعود الشقصي، *منهج الطالبين وبلاغ الراغبين* ، تحقيق سالم الحارثي (سلطنة عمان : وزارة التراث القومي والثقافة، ١٩٨١م) .

(٥٢) السالمي ، *حاشية الجامع الصحيح* (مطبعة الأزهار البارونية، ١٣٢٦هـ) .

(٥٣) اندرو ويليامسون ، *صحار عبر التاريخ* ، ترجمة محمد أمين عبد الله (سلطنة عمان: وزارة التراث القومي والثقافة، ١٩٨٠م) .

(٥٤) محمد ارشيد العقيلي ، *الخليج العربي في العصور الإسلامية* ، ط١ (دبي : منطقة العين ، ١٩٨٣م) .

(٥٥) علي يحيى معمر ، *الإباضية في موكب التاريخ* ، ط١ (القاهرة: دار الكتاب العربي ، ١٣٨٤هـ) .

(٥٦) معمر ، *الإباضية بين الفرق الإسلامية* (القاهرة: مكتبة وهبة ، ١٣٩٦هـ) .

(٥٧) سليمان بن عبد الله الباروني، *الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية* (مطبعة الأزهار البارونية).

(٥٨) السالمي ، *اللمعة المرضية من أشعة الإباضية* (سلطنة عمان: وزارة التراث القومي والثقافة، ١٩٨١م) .

(٥٩) سالم بن حمد الحارثي، *العقود الفضية في أصول الإباضية* (سوريا و لبنان ، ١٣٩٤هـ) .

(٦٠) أحمد بن سعيد الدرجيني، *طبقات المشائخ بالمغرب* ، تحقيق إبراهيم طلالي (قسنطينة ، الجزائر ، ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م) .

(٦١) محمد علي دبوز، *تاريخ المغرب الكبير* ، ط١ (دار إحياء الكتب العربية ، ١٣٨٣هـ) .

(٦٢) الربيع بن حبيب بن عمر الأزدي ، *الجامع الصحيح* ، ترتيب يوسف بن إبراهيم (مكتبة الثقافة الدينية، د.ت.) .

(٦٣) عن تعريف علوم القرآن انظر : بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي *البرهان في علوم القرآن* ، تحقيق محمد إبراهيم ، ط٢، (القاهرة: عيسى البابي الحلبي ، ١٣٩١هـ) ، ١ : ١٧ .

(٦٤) عن تعريف علم التفسير ، انظر : الزركشي ، *البرهان*، ١ : ١٣ .

(٦٥) عن ترجمته انظر: ابن سعد، *الطبقات*، ٧ : ١٧٩ - ١٨٢ ؛ الطبري، *تاريخ*، ١٣ : ١٨٩ ؛ أبو نعيم، *حلية*، ٣ : ٨٥ ؛ الذهبي ، ٤ : ٤٨١ ؛ ابن كثير، *البداية*، ٩ : ٩٣ - ٩٥ ؛ الدرجيني، *طبقات*، ٣ : ٢٠٥ -٢١٤ ؛ السالمي، *حاشية الجامع*،

١ : ٧ - ٨ ؛ وأصله من ولد عمرو بن اليحمد الأزدي ولد سنة ١٨ وقيل ٢١ أو ٢٢ هـ في قرية فرق من أعمال نزوى في عمان : المصادر السابقة .

(٦٦) الطبري ، *تاريخ*، ١٣ : ١١٩ ؛ الذهبي ، ٤ : ٤٨١ ؛ محمد طاهر الهندي ، *المغني في ضبط أسماء الرجال* (بيروت : دار الكتب العربي ، ١٣٩٩هـ)، ١٤٣ ، ٢٩١ .

(٦٧) الشقصي ، *منهج*، ١ : ٦١٥ ٦٢٨ ؛ دبوز ، *تاريخ*، ٣ : ١٣٩ ؛ الحارثي ، *العقود*، ٩٤ ؛ السيابي ، *إزالة الوعثاء* ، ١٤ .

(٦٨) الشقصي ، *منهج*، ١ : ٦١٥ ؛ ابن رزيق ، *الفتح المبين* ، ١٢٩ ؛ السالمي ، *اللمعة المرضية* ، *تاريخ*، ٧؛ ابن معمر : *الإباضية* ، ١٤٣ - ١٤٤ ؛ دبوز ، *تاريخ*، ٣ : ١٤٠ ؛ الحارثي ، *العقود*، ٩٤ .

(٦٩) الشقصي ، *منهج*، ١ : ٣٣ ؛ السالمي ، *تحفة الأعيان* ، ١ : ٨٧ .

(٧٠) الشقصي ، *منهج*، ١ : ٦١٥ ؛ ابن رزيق ، *الفتح المبين* ، ١٢٩ ؛ السالمي ، *اللمعة المرضية* ، ٧ ؛ دبوز ، *تاريخ*، ٣ : ١٤٠ ؛ الحارثي ، *العقود*، ٩٤ .

(٧١) السيابي ، *إزالة الوعثاء* ، ٢٨ - ٣١ .

(٧٢) الشقصي ، *منهج*، ١ : ٦١٥ ؛ ابن رزيق ، *الفتح المبين* ، ١٢٩ ؛ السالمي ، *اللمعة المرضية* ، ٧ ؛ *حاشية الجامع*، ١ : ٨ ؛ السيابي ، *إزالة الوعثاء* ، ١٧ - ١٩ ؛ دبوز ، *تاريخ*، ٣ : ١٤٠ ؛ ابن معمر ، *الإباضية* ، ١٤٣ - ١٤٤ ؛ الحارثي ، *العقود*، ٩٤ .

(٧٣) الشقصي ، *العقود*، ١ : ٦١٥ ؛ ابن رزيق ، *الفتح المبين* ، ١٢٩ ؛ السالمي ، *اللمعة المرضية* ، ٧ ؛ *حاشية الجامع*، ١ : ٨ ؛ السيابي ، *إزالة الوعثاء* ، ١٧ ١٩ ؛ دبوز، *تاريخ*، ٣: ١٤٠ ؛ ابن معمر ، *الإباضية* ، ١٤٣ - ١٤٤ ؛ الحارثي ، *العقود*، ٩٤ .

(٧٤) الحارثي ، *العقود*، ٩٥ .

(٧٥) الدرجيني، *طبقات*، ٢ : ٢٠٦ - ٢٠٧ ؛ ابن رزيق، *الفتح المبين*، ١٢٩ ؛ السالمي ، *حاشية الجامع*، ١ : ٨ .

(٧٦) الشقصي ، *منهج*، ١ : ٦١٥ ؛ ابن رزيق ، *الفتح المبين* ، ١٢٩؛ السالمي ، *اللمعة المرضية* ، ٧؛ دبوز ، *تاريخ*، ٣ : ١٤٠ ؛ ابن معمر ، *الإباضية في موكب التاريخ* ، ١٤٣-١٤٤ ؛ الحارثي ، *العقود*، ٩٤ .

(٧٧) ابن سعد ، *الطبقات*، ٧ : ١٧٩ -١٨٠ ؛ يعقوب بن سفيان البسوي ، *المعرفة والتاريخ*، تحقيق أكرم العمري بغداد : مطبعة الارشاد، ١٩٧٥م)، ٢ : ١٣ ؛ الذهبي ، ٤ : ٤٨١ ؛ الشقصي ، *منهج*، ١ : ٦١٥ ؛ إبراهيم بن علي الشيرازي، *طبقات الفقهاء* (بيروت: دار العلم ، د.ت.) ، ٩٢ .

(٧٨) الذهبي ، ٤ : ٤٨١ ؛ الدرجيني ، *طبقات*، ٢ : ٢٠٥ ؛ دبوز ، *تاريخ*، ٣ : ١٤١ ؛ ابن معمر : *الإباضية*، ٤٣ .

(٧٩) الشقصي ، *منهج*، ١ : ٦١٦ ؛ السالمي ، *حاشية الجامع* ، ١ : ٧ ؛ ابن معمر ؛ *الإباضية في موكب التاريخ* ، ١٤٣ ؛ السيابي ، *إزالة الوعثاء* ، ١٧ .

(٨٠) الشقصي ، ١ : ٦١٦ ؛ السالمي ، *حاشية الجامع*، ١ : ٧ ؛ ابن معمر ، *الإباضية في موكب التاريخ* ، ١٤٣ ؛ السيابي ، *إزالة الوعثاء* ، ١٧ .

(٨١) السيابي ، *إزالة الوعثاء*، ١٨ ؛ دبوز ، *تاريخ*، ٣ : ١٤٣ - ١٤٤ ؛ ابن معمر ، *الإباضية في موكب التاريخ* ، ١٤٤ - ١٤٥ .

(٨٢) ابن معمر ، *الإباضية* في موكب التاريخ، ١٤٤ - ١٤٥ .

(٨٣) السيابي ، *إزالة الوعثاء* ، ١٨ - ١٩ ؛ دبوز ، *التاريخ*، ٣ : ١٤٣-١٤٤ ؛ ابن معمر ، *الإباضية في موكب التاريخ*، ١٤٤ - ١٤٥ .

(٨٤) ابن جعفر ، *الجامع*، ١ : ٢٢٤ ؛ دبوز ، *تاريخ*، ٣ : ١٤٨ - ١٤٩ ؛ الحارثي ، *العقود*، ١٠٢ ، *خليفات* ، *نشأة الحركة الإباضية* (عمان : مطابع دار الشعب)، ١٠١ .

(٨٥) السيابي ، *إزالة الوعثاء* ، ٣٨ ؛ *خليفات* ، *نشأة* ، ١٠١ – ١٠٢ ؛ *الأصول التاريخية* ، ٣٠ - ٣٢ ؛ الجبر ، "*عمان*،" ٣٧٣ .

(٨٦) خليفات ، *نشأة* ، ١٠٠ - ١٠١ ؛ *الأصول التاريخية* ، ٢٧ - ٣٠ ؛ الجبر ، "عمان،" ٣٧٢ - ٣٧٣ .

(٨٧) دبوز ، *تاريخ*، ٣ : ١٤٨ - ١٤٩ ؛ الحارثي ، *العقود*، ١٠٢ ؛ الجبر، "عمان،" ٣٧٤ .

(٨٨) ابن سعد ، ٧ : ١٨٢ ؛ الشيرازي ، *الطبقات*، ٩٢ ؛ الشقصي، *منهج*، ١ : ٦١٦ ؛ السيابي ، *إزالة الوعثاء* ، ١٧ ؛ الحارثي ، *العقود*، ٩٣ - ١٠٣ .

(٨٩) الشقصي ، *منهج*، ١ : ٦١٦ ؛ الشيرازي ، *الطبقات*، ٩٢ ؛ السيابي ، *إزالة الوعثاء* ، ١٧ ؛ الحارثي، *العقود*، ١٠٣ .

(٩٠) ابن سعد ، *الطبقات*، ٧ : ١٨٢ ؛ الشيرازي ، *الطبقات*، ٩٢ ؛ الحارثي ، *العقود*، ٩٣ .

(٩١) ابن جعفر ، *الجامع*، ٢ : ٤٠١ .

(٩٢) ابن جعفر ، *الجامع*، ٢ : ٤٠١ .

(٩٣) علماء عمان الخمسة هم موسى بن أبي جابر الأزكوي (الأزكاني) ، وبشير بن المنذر النزواني ، ومحمد بن المعلى الكندي الفشحي ، ومنير بن النير الجعلاني ، والجلندى بن مسعود ؛ (الشقصي، *منهج*، ١ : ٣٣ ؛ السيابي ، *إزالة الوعثاء*، ٤١ ؛ وسوف يرد التعريف بهم وبدورهم في علم الفقه ان شاء الله في المحور الثالث .

(٩٤) الشقصي، *منهج*، ١ : ٣٣ ؛ السيابي ، *إزالة الوعثاء* ، ٤١ ؛ دبوز ، *تاريخ*، ٣ : ١٨٩ .

(٩٥) عن تعريف علم الحديث انظر : محمد عجاج الخطيب، *السنة قبل التدوين* ، ط٢ (دار الفكر، ١٣٩١هـ) ، ١٦ – ١٩ ؛ حسن الشاعر ، *النحاة والحديث النبوي* (١٤٠٠هـ)، ٢٥ ؛ أحمد بن مصطفى طاش كبرى زاده (*مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم*) ، تحقيق كامل بكري وعبد الوهاب أبو النور (القاهرة : دار الكتب الحديثة، د.ت.)، ٦٠ .

(٩٦) عن عالي الإسناد وطلبه انظر : محمد بن عبد الله الحافظ النسيابوري، *معرفة علوم الحديث* ، ط٢ (بيروت: المكتب التجاري ، ١٩٧٧م)، ٥-٦ .

(٩٧) السيابي ، *إزالة الوعثاء* ، ١٧ ؛ ابن معمر ، *الإباضية بين الفرق* ، ١٣٥ - ١٣٦ .

(٩٨) محمد بن أبي الحسن إسماعيل البخاري، *صحيح البخاري* (بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠١هـ)، ١ : ٢٧٧ ؛ شمس الدين الذهبي، *تذكرة الحفاظ* (بيروت: دار إحياء التراث العربي)، ١ : ٧٢ ؛ ابن حجر ، *تهذيب التهذيب*، ٢ : ٣٨ .

(٩٩) البخاري ، *صحيح*، ١ : ٢٢٧ ؛ الذهبي ، *تذكرة*، ١ : ٧٢ ؛ ابن حجر ، *تهذيب التهذيب*، ٢ : ٣٨ ؛ السيابي : *إزالة الوعثاء* ، ٧ ؛ ابن معمر ، *الإباضية بين الفرق* ، ١٣٥ - ١٣٦ .

(١٠٠) ابن سعد ، *الطبقات*، ٧- ١٧٩ ؛ الشيرازي ، *الطبقات*، ٩٢ ؛ الدرجيني ، *طبقات*، ٢ : ٢٠٦- ٢٠٧ .

(١٠١) انظر الفصل الأول ، ١١ - ١٢ .

(١٠٢) السالمي ، *اللمعة المرضية* ، ١١-١٢ ، السيابي ، *إزالة الوعثاء* ، ١٤ ، ١٦ ، ٢٥ ، ٢٦ ؛ دبوز ، *تاريخ*، ٤٣ - ٤٤ .

(١٠٣) عن مواد الكتابة في هذا العصر انظر: صالح العلي، *تطور الحركة الفكرية في صدر الإسلام* ، ط١ (بيروت: مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٣هـ)، ٤٥ - ٦٠ .

(١٠٤) السالمي ، *اللمعة المرضية*، ١٢ ؛ السيابي ، *إزالة الوعثاء* ، ١٦- ٢٦ ؛ دبوز ، *تاريخ*، ٣ : ١٤٤ ؛ العقيلي ، *الخليج العربي*، ١٢١ .

(١٠٥) السالمي ، *اللمعة المرضية* ، ١١-١٢ ؛ السيابي ، *إزالة الوعثاء* ، ١٤ - ١٦ ؛ دبوز، *تاريخ*، ٣ : ١٤٣ - ١٤٤ .

(١٠٦) السالمي، *حاشية الجامع*، ١ : ٣-٤ ؛ الحارثي، *العقود*، ١٤٩ ؛ السيابي، *إزالة الوعثاء*، ٤٠ ؛ خير الدين الزركلي، *الأعلام* (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٧٩م)، ٢ : ١٤.

(١٠٧) الباطنة: وهو الساحل الشمالي من عمان وينزل في الباطنة عدد من مجموع القبائل العمانية ؛ السيابي، *إسعاف الأعيان*، ٢٥ ؛ عز الدين، *عمان في فجر الحضارة*، ٢٣.

(١٠٨) السالمي، *حاشية الجامع*، ١ : ٤ ؛ الشقصي، *منهج*، ١ : ٦٢٠-٦٢١ ؛ الحارثي، *العقود*، ١٤٩ ؛ السيابي، *عمان عبر التاريخ*، ١ : ١٥٩ ؛ السيابي، *إزالة الوعثاء*، ٤٠ ؛ العقيلي، *الخليج العربي*، ١٢٤.

(١٠٩) الحارثي، *العقود*، ١٤٩.

(١١٠) السالمي، *تحفه*، ١ : ١٦ ؛ الشقصي، *منهج*، ١ : ٦٢٠ - ٦٢١ ؛ الحارثي، *العقود*، ١٤٩ - ١٥٠ ؛ السيابي، *إزالة الوعثاء*، ٤٠-٤١ ؛ العقيلي، *الخليج العربي*، ١٢٤.

(١١١) السالمي، *حاشية الجامع*، ١ : ٣-٤ ؛ الحارثي، *العقود*، ١٤٩ - ١٥٠ ؛ السيابي، *طلقات*، ٢٩-٣٠ ؛ العقيلي، *الخليج العربي*، ١٢٤.

(١١٢) الدرجيني، *طبقات*، ٢ : ٢٧٦ ؛ السالمي، *حاشية الجامع*، ١ : ٤ ؛ الحارثي، *العقود*، ١٥٢ ؛ السيابي، *إزالة الوعثاء*، ٤١.

(١١٣) طبع هذا الكتاب في القاهرة وهو في ثلاثة أجزاء (ابن جعفر، *الجامع*، ١ : ٢٢٥) ولم أتمكن من العثور عليه في جميع المكتبات.

(١١٤) ابن جعفر، *الجامع*، ١ ٢٢٥.

(١١٥) السالمي، *تحفة الأعيان*، ١ : ١٦ ؛ الحارثي، *العقود*، ١٤٩ - ١٥٠ ؛ السيابي، *طلقات*، ٣٠.

(١١٦) وقد طبع هذا الكتاب مع شرحه للإمام عبد الله السالمي في ثلاثة مجلدات طبع اثنان منها في مصر والثالث في دمشق (ابن معمر، *الإباضية بين الفرق*، ١٣٤ - ١٣٦) والجزءان الأول والثاني موجودان ضمن الكتب النادرة في قاعة الزركلي في مكتبة جامعة الملك سعود بالرياض، وقيل إن أحد علماء جزيرة جربة التونسية ويدعى الشيخ أبو ستة قد شرح *المسند* قبل السالمي (الحارثي، *العقود*، ١٥٦).

(١١٧) السالمي، *حاشيه الجامع*، ١ : ٢ ؛ *اللمعة المرضية*، ١٧ ؛ ابن جعفر، *الجامع*، ١ : ٢٢٥ ؛ السيابي، *طلقات*، ٣٠ ؛ ابن معمر، *الإباضية بين الفرق*، ١٣٤ ؛ الزركلي، *الأعلام*، ٣ : ١٤.

(١١٨) العقيلي، *الخليج العربي*، ١٢٤.

(١١٩) العالي من الأسانيد التي تعرف بالفهم لأبعد الرجال: النيسابوري، ١١.

(١٢٠) السالمي، *حاشية الجامع*، ١ : ٢-٣ ؛ ابن معمر: *الإباضية بين الفرق*، ١٣٤.

(١٢١) السالمي، *اللمعة المرضية*، ١٧ ؛ الحارثي، *العقود*، ١٤٩ - ١٥٠.

(١٢٢) الربيع بن حبيب، *الجامع الصحيح*، جـ ١، جـ ٢ ؛ السالمي، *اللمعة المرضية*، ١٧.

(١٢٣) السالمي، *حاشية الجامع*، ١ : ٤.

(١٢٤) سوف ترد تراجمهم في الفصل الثالث (دور علماء عمان في الفقه).

(١٢٥) الشقصي، *منهج*، ١ : ٣٣ ؛ السالمي، *حاشية الجامع*، ١ : ٤ ؛ الحارثي، *العقود*، ١٥٤ ؛ السيابي، *إزالة الوعثاء*، ٤١.

(١٢٦) الدرجيني، *طبقات*، ٢ : ٢٧٨ ؛ السالمي، *حاشية الجامع*، ١ : ٤.

(١٢٧) السالمي، *حاشية الجامع*، ١ : ٤.

(١٢٨) *السير* للشماخي، مخطوط لم أتمكن من العثور عليه.

(١٢٩) السالمي، *حاشية الجامع*، ١ : ٤.

(١٣٠) السالمي ، *حاشية الجامع* ، ١ : ٣-٤ ؛ الباروني ، *الأزهار الرياضية* ، ١٤٠ - ١٤١ ؛ الحارثي ، *العقود*، ١٥٣ ؛ زغلول عبد الحميد ، *تاريخ المغرب* ، ٢ : ٣١٩ .

(١٣١) لدرجيني ، *بلغات*، ٢ : ٢٧٦ .

(١٣٢) هو محبوب بن الرحيل القرشي البصري ، حمل العلم عن الربيع بن حبيب ، وهو من أئمة المسلمين وفقهائهم ، ولم يكن عمانيا ولكنه جاء إلى عمان ونزل صحار واستوطنها مع أولاده ؛ الشقصي، *منهج*، ١ : ١٢٢ .

(١٣٣) الحارثي ، العقود، ١٥٥ - ١٥٦ .

(١٣٤) طاش كبرى زاده ، *مفتاح السعادة*، ٢ : ١٩٤ .

(١٣٥) الشقصي ، *منهج*، ١ : ٣٣ ؛ السيابي ، *إزالة الوعثاء* ، ٤١ .

(١٣٦) انظر ص ٨ .

(١٣٧) السيابي ، *إزالة الوعثاء* ، ٢٥ ؛ السيابي، *طلقات* ، ٢٢ - ٢٣ ؛ دبوز ، *تاريخ*، ٣ : ١٤٦ ؛ ابن معمر ، *الإباضية في موكب التاريخ* ، ١٤٨ ؛ العقيلي ، *العقود*، ١٢١ .

(١٣٨) الدرجيني ، *طبقات*، ٢ : ٢٠٦ ؛ السيابي ، *إزالة الوعثاء* ، ٢٥ .

(١٣٩) الدرجيني ، ٢ : ٢١٤ ؛ دبوز، *تاريخ*، ٣ : ١٤٥ - ١٤٦ ؛ ابن معمر، *الإباضية في موكب التاريخ* ، ١٤٨، الحارثي، *العقود*، ٩٦ - ٩٩ .

(١٤٠) الدرجيني ، *طبقات*، ٢: ٢١٤ ، دبوز ، *تاريخ*، ٣ : ١٤٥ - ١٤٦ ؛ ابن معمر، *الإباضية في موكب التاريخ* ، ١٤٨ ؛ الحارثي، *العقود*، ٩٦ - ٩٩ .

(١٤١) الشقصي ، ١ : ٦٢٧ - ٦٢٨ ؛ الحارثي، *العقود*، ١٠٧ ؛ خليفات ، *نشأة الحركة الإباضية* ، ٩١ - ٩٢ ؛ *الأصول التاريخية* ، ٢٠ - ٢١ .

(١٤٢) ابن جعفر، *الجامع*، ١ : ٤-٥ ، ٢١٩ ؛ الحارثي ، *العقود*، ١١٩ ؛ خليفات، *نشأة الحركة الإباضية* ، ٨٠-٨١ .

(١٤٣) الحارثي ، ١١٩ ؛ السيابي ، *إزالة الوعثاء* ، ١٩-٢١ ؛ خليفات، *نشأة الحركة الإباضية* ، ٩١ - ٩٢ .

(١٤٤) ابن جعفر ،*الجامع*، ١ : ٤-٥ ، ٢١٩ ؛ خليفات، *نشأة* ، ٩٤ ؛ *الأصول التاريخية* ، ٧-٩ .

(١٤٥) الأشعري، *مقالات الإسلاميين* ، ١٧٥ ؛ ابن جعفر ، *الجامع*، ١ : ٥ ؛ خليفات، *نشأة* ، ٩٤ .

(١٤٦) ابن جعفر ، *الجامع*، ١ : ٥ ، ٢١٩ ؛ دبوز ، *تاريخ*، ٢ : ٣٩٨ ؛ الحارثي ، *العقود*، ١٢١ ؛ السيابي ، *إزالة الوعثاء* ، ٥٠ ، ٥٤ - ٥٥ ؛ خليفات، *نشأة* ، ٧٩ - ٨٠.

(١٤٧) الكتاب غير موجود في المكتبات .

(١٤٨) السالمي ، *اللمعة المرضية* ، ١٦ - ١٧ ؛ الحارثي ، *العقود*، ١٥٣ - ١٥٤ .

(١٤٩) لم أتمكن من العثور على مكان ولادته ، أما وفاته فقد توفى سنة ١٨١هـ بنزوى وعمره أربعة وتسعون سنة ؛ الحارثي ، *العقود*، ١٥٤ ؛ السيابي ، *إزالة الوعثاء* ، ٤٥ .

(١٥٠) البكري ، معجم *ما استعجم* ، ٢ : ٤٠٦ ؛ الشقصي ، *منهج*، ١ : ٣٣ ، ٦٢١ ؛ السيابي ، *الطلقات* ، ٤٧ - ٥١ ؛ *إزالة الوعثاء* ، ٤٥ .

(١٥١) الشقصي ، *منهج*، ١ : ٣٣ ، ٦٢١ ؛ الحارثي ، *العقود*، ١٥٤ ؛ السيابي ، *طلقات* ، ٤٧ ، ٥١.

(١٥٢) ابن جعفر ، *الجامع*، ١ : ١٥٥ ؛ ابن رزيق ، *الفتح المبين* ، ٢٢٤ ؛ الحارثي ، ١٥٤ ؛ السيابي ، *إزالة الوعثاء* ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٤٨ ؛ *تاريخ أهل عمان* ، ٥٧ ؛ الأزكوي، *تاريخ عمان*، ٤٥ .

(١٥٣) العقيلي ، *الخليج العربي*، ١٢٤ .

(١٥٤) لم أتمكن من العثور على تاريخ ولادته ؛ أما مكانه فيبدو أنه ولد في مدينة نزوى. أما وفاته فقد توفي سنة ١٧٨هـ ؛ الحارثي ، *العقود* ، ١٥٤ .

(١٥٥) الشقصي ، *منهج*، ١ : ٣٣ ؛ الحارثي ، *العقود*، ١٥٤ ؛ السيابي ، *الطلقات*، ٤٣ .

(١٥٦) البكري : *معجم ما استعجم* ، ٢ : ٤٠٦ .

(١٥٧) البكري : *معجم ما استعجم* ، ٢ : ٤٠٦ .

(١٥٨) ابن جعفر ، *الجامع*، ١ : ٢٢٥ ؛ السيابي ، *إزالة الوعثاء* ، ٤١ ٤٢ ، *الطلقات* ، ٤٣

(١٥٩) لم أعثر على تاريخ ولادته ومكانها ولكن ذكر أنه رجل من بني ريام ؛ أما وفاته ، فقد ذكر السيابي أنه توفى سنة ٢٨٠هـ ، وهو ابن مائة وعشر سنين؛ *إزالة الوعثاء* ، ٤٧ ؛ السيابي، *الطلقات* ، ٤٥ وهذا مبالغ فيه وقد يكون الصحيح ١٨٠هـ وقد ذكر الحارثي إن تاريخ وفاته فيه اختلاف وتناقض، ١٥٤ .

(١٦٠) ابن رزيق ، *الفتح المبين* ، ٦٥ ؛ السيابي ، *إزالة الوعثاء* ، ٤٣ .

(١٦١) الشقصي ، ١ : ٣٣ ، ٦٢١ ؛ السيابي ، *إزالة الوعثاء* ، ٤٣ .

(١٦٢) ابن جعفر ، *الجامع*، ١ : ٢٢٥ ؛ السيابي ، *إزالة الوعثاء* ، ٤٤ ؛ السيابي، *الطلقات* ، ٤٥ .

(١٦٣) السيابي ، *إزالة الوعثاء* ، ٤٣ - ٤٤ ؛السيابي، *طلقات* ، ٤٥ ؛ الحارثي، *العقود*، ١٥٤ .

(١٦٤) لم أتمكن من العثور على تاريخ ولادته ووفاته ولكنه معاصر لموسى بن أبي جابر المتوفى سنة ١٨١هـ كما يظهر من الأحداث ؛ الأزكوى، *تاريخ عمان*، ٤٥ -٤٦ ؛ السيابي ، *إزالة الوعثاء* ، ٤٧-٤٨ .

(١٦٥) الشقصي ، *منهج*، ١ : ٣٣ ؛ دبور ، *تاريخ*، ٣ : ١٨٩ ، وقد ورد عند دبوز " الفسيحي" ولعله تصحيف، الحارثي، *العقود*، ١٥٤.

(١٦٦) السيابي ، *إزالة الوعثاء* ، ٤٧ - ٤٨ ؛ السيابي، *الطلقات* ، ٥١ ؛ الأزكوي ، *تاريخ عمان*، ٤٤ - ٤٦ ؛ مجهول، *تاريخ أهل عمان*، ٥٦ - ٥٨ .

(١٦٧) الشقصي ، *منهج*، ١ : ٣٣ ؛ السالمي ، *حاشية الجامع* ، ١ : ٤ ؛ العقيلي ، *الخليج العربي*، ١٢٤ .

(١٦٨) لم أتمكن من العثور على تاريخ ولادته ومكانها ، أما وفاته فقد توفى سنة ١٣٥هـ؛ ابن رزيق ، *الفتح* ، ٢٢٣ ؛ الأزكوي ، *تاريخ عمان*، ٤٤ .

(١٦٩) السالمي ، *تحفة*، ١ : ٨٨ ؛ السالمي و عساف ، *عمان تاريخ يتكلم* ، ١٣١ .

(١٧٠) السالمي : *تحفة* ، ١ : ٨٨ ؛ دبوز ، *تاريخ*، ٣ : ١٨٩ .

(١٧١) السالمي ، *تحفة* ، ١ : ٨٨ ؛ الأزكوي ، *تاريخ عمان*، ٤٣-٤٤ ؛ السالمي و عساف ، *عمان تاريخ يتكلم* ، ١٣١ - ١٣٣ ؛ مجهول، *الخليج العربي*، *تاريخ أهل عمان*، ٥٣-٥٥ ؛ *قصص وأخبار جرت في عمان* ، ٤٥ - ٤٩ ؛ العقيلي ، *الخليج العربي*، ١٢٥ .

خامسا: الآثار والعمران

الآثار الإسلامية في الجزيرة العربية في عصر بني أمية

سعد بن عبد العزيز الراشد

وكيل وزارة المعارف لشؤون الآثار، الرياض

مقدمة

تعتبر الفترة ما بين سنة ٤١هـ/٦٦١هـ وسنة ١٣٢هـ/٧٥٠م من أهم الفترات التاريخية في تاريخ جزيرة العرب بصفة خاصة والدولة الإسلامية بصفة عام. ففي هذه المرحلة من التاريخ الإسلامي ظهرت الخلافة الأموية في بلاد الشام واستمرت قرابة قرن من الزمان شهد فيها التاريخ الإسلامي ازدهارا حضاريا في مختلف المجالات. ومن أبرز ذلك تعريب الدواوين وسك العملة وتخطيط المدن، كما ازدهرت عمارة المساجد والقصور والحصون وإنشاء الطرق والمرافق العامة بالإضافة إلى الاهتمام بشؤون الزراعة والصناعة وتطور الحركة العلمية وفنون المعرفة.

وقد شكلت أقاليم الجزيرة العربية في ظل حكم بني أمية أهمية خاصة بالنسبة لباقي أجزاء الدولة الإسلامية. فقد شملت هذه المنطقة كافة التنظيمات الإدارية والسياسية التي تتولى دمشق توجيهها من حيث تعيين الولاة والقضاة وأمراء الحج وخلاف ذلك.

وعلى الرغم من الفتن التي شهدتها بعض أجزاء الجزيرة وبالأخص منطقة الحجاز، إلا أن الإنجازات الحضارية بدت واضحة بفضل اهتمام خلفاء بني أمية بمختلف أقاليم الجزيرة العربية. ونتلّمسُ ذلك من خلال المصادر التاريخية والجغرافية والأدبية، وإن كانت المعلومات جاءت مشتتة ومختصرة إلى درجة كبيرة.

ولعل من المناسب، في هذا البحث، الإشارة إلى بعض إنجازات خلفاء بني أمية الواردة في المصادر المكتوبة.

فقد وجه خلفاء بني أمية اهتماما خاصا في توسعة وعمارة الحرمين الشريفين. فقد تولى عبد الملك بن مروان عمارة المسجد الحرام حيث رفع جدرانه وسقفه بالساج وَوُصِفَتْ عمارته بأنها حسنة، غير أنه لم يزد في مساحة المسجد شيئا.[١] وأعاد الوليد بن عبد الملك عمارة الحرم المكي الشريف وكانت عمارته غاية في الإتقان، وأحضر له أساطين الرخام من الشام ومصر حتى أوصلها إلى جدة وتم نقلها إلى مكة بواسطة العجل، كما سقف المسجد بخشب الساج المزخرف وأدخل الفسيفساء لأول مرة في هذه العمارة وزود المسجد بشرفات.[٢]

وفي سنة ٩١هـ/٧٠٩م أمر الوليد بن عبد الملك عامله على المدينة المنورة، عمر بن عبد العزيز، بإعادة عمارة المسجد النبوي الشريف. فهدم المسجد وبناه بالحجارة المنقوشة والجص وجعل سقفه بالساج وماء الذهب، كما زخرفه بالفسيفساء والمرمر وأدخل في المسجد حجر أزواج الرسول ﷺ وجعل للمسجد أربع مآذن واستحدث عمر بن عبد العزيز لأول مرة الشرفات والمحراب في المسجد النبوي الشريف.[٣]

وتذكر المصادر أن عمر بن عبد العزيز بعد أن انتهي من عمارة المسجد أعاد عمارة المساجد التي عرف أن الرسول صلى الله عليه وسلم صلى فيها. يروي الشريف العباسي ما يلي: "قال لي غير واحد من أهل العلم، إن كل مسجد من مساجد المدينة ونواحيها مبني بالحجارة المنقوشة المطابقة، فقد صلى فيها النبي ﷺ وذلك أن عمر بن عبد العزيز حين بنى مسجد المدينة سأل الناس يؤمئذ عن المساجد التي صلى فيها النبي ﷺ ثم بناها بالحجارة المطابقة.[٤]

ومن أعمال الوليد بن عبد الملك أنه أمر عامله على صنعاء، أيوب بن يحيى الثقفي، "أن يزيد في مسجد صنعاء ويبنيه بناء جيدا محكما فبناه أيوب بن يحيى وزاد فيه من نحو قبلته الأولى إلى موضع قبلته اليوم."[٥] أي أن الزيادة التي استحدثها الوليد بقيت على حالها حتى النصف الثاني من القرن الخامس الهجري. وقد شملت عمارة المسجد إدخال الزخارف والنقوش في محراب المسجد والتي أزيلت فيما بعد في القرن الرابع الهجري.[٦] وتذكر بعض التقارير عن مسجد ذي أشرق باليمن أن على بابه نص مكتوب بالخط الكوفي يقول: "مما أمر به عمر بن عبد العزيز بن مروان"[٧]؛ هذا ولا يزال المسجد بحالة جيدة.[٨]

وقد أشارت المصادر إلى اهتمام الأمويين بطرق المواصلات في الجزيرة العربية وكافة أنحاء الدولة الإسلامية. فيذكر أن الوليد بن عبد الملك " كان محبوبا عند أهل الشام لأنه صاحب عمارة وبناء. عَمَر الضياع ووضع المنار في الطرقات".[٩] كما أنه "حفر المياه في طرق مكة، من الشام إلى مكة وهو أول من عمل البيمارستانات للمرضى في الإسلام."[١٠] ويروي القلقشندي أن الوليد بن عبد الملك "أول من بنى الأميال في الطرقات."[١١] ويروي الطبري أن الوليد بن عبد الملك كتب إلى عمر بن عبد العزيز واليه على المدينة " في تسهيل الثنايا وحفر الآبار بالمدينة وخرجت كتبه إلى البلدان بذلك."[١٢] كما أن عمر بن عبد العزيز بنى الجحفة، وهي محطة على طريق الحج من الشام إلى مكة.[١٣] ويذكر عن هشام بن عبدالملك بأنه: "اتخذ القِنىَ والبرك بطريق مكة."[١٤]

ويروي الجزيري أنه في سنة ١٠٤هـ "ضربت الأميال من الكوفة إلى مكة."[١٥]

وكان لخلفاء بني أمية أملاك زراعية خاصة وتجارات كثيرة في منطقة الحجاز. ويروى "أنه كان بالمدينة على زمن معاوية صوافي كثيرة، وأن معاوية كان يجد بالمدينة وأعراضها مائة ألف وَسْق وخمسين ألف وَسْق ويحصد مائة ألف وَسْق حنطة."[١٦]

وقد عرف عن الطائف بأنها أكثر بلاد الله عنبا: "وبها كرم الوهط كرم كان لعمرو بن العاص معروشا على ألف ألف خشبة، شرى كل خشبة درهم، فلما حج سليمان بن عبد الملك أحب أن ينظر إليه فلما رآه قال: ما

رأيت لأحد مثله لولا أن هذه الحرة في وسطه. قالوا: ليس بحرة بل مسطاح الزبيب. وكان زبيبه جمع في وسطه ليجف، فرآه من بعيد فظنه حرة."[١٧]

ويروى عن معاوية أنه كان يقول: "أغبط الناس عيشا عبدي أو قال مولاي سعد، وكان يلي أمواله بالحجاز، ويتربع جدة ويتقيظ الطائف ويشتو بمكة ولذلك وصف محمد بن عبد الله النميري زينب بنت يوسف أخت الحجاج بالنعمة والرفاهية فقال:

تشتو بمكة نعمة ومصيفها بالطائف[١٨]

لقد وجه خلفاء بني أمية عناية خاصة بالحجاز، وتعينهم الولاة الذين قاموا بالعديد من الإصلاحات. وعلى الرغم من الفتن الداخلية التي واجهت الدولة الإسلامية في هذه الفترة فإن مجهودات خلفاء بني أمية لا تُنْسى فيما يخص الفتوحات الإسلامية والإصلاحات الإدارية المهمة التي نهجها الخليفة عبد الملك بن مروان وأبناؤه من بعده. ومن أهم تلك الإصلاحات تعريب الدواوين وسك العملة،[١٩] كما أن خلفاء بني أمية كانوا يتعهدون الحجاز بأنفسهم. فقد حج معاوية بن أبي سفيان سنة ٤٤هـ. ويُرْوى أنه "قدم معه بمنبر صغير على ثلاث درجات فخطب عليه، وهو أول من خطب على منبر."[٢٠] كما حج معاوية سنة ٥١هـ واعتمر في رجب سنة ٥٦هـ. وفي سنة ٧٥هـ حج عبد الملك بن مروان وفي تلك السنة: "أمر بتجديد أنصاب الحرم."[٢١]

وفي سنة ٨٠هـ أصاب مكة المكرمة سيل عظيم جارف ذهب بالحجاج وممتلكاتهم ودخل مكة وخرب دورا كثيرة فلما علم عبد الملك بالأمر: "بعث بمال عظيم إلى عامل مكة يأمره بعمل ضفائر على الدور الشارعة على الوادي وضفائر المسجد الحرام فنقل الصخر على عَجَلْ وأصرف الأموال عنها وربما أنفق على المسكن الواحد الصغير لبعض الناس مثل ثمنه مرارا".[٢٢]

وحج الخليفة الوليد بن عبد الملك سنة ٩١هـ وسنة ٩٥هـ. بينما حج سليمان عبد الملك سنة ٩٧هـ. وحج بالناس في سنة ١٠٦هـ هشام بن عبد الملك.

ولا شك أن تمكن خلفاء بني أمية من المجيء إلى الأراضي المقدسة كان له مردود على منطقة الحجاز وبالأخص المدينة المنورة ومكة المكرمة.

وكان لبعض الولاة في الحجاز إصلاحات كثيرة خاصة في توفير مصادر المياه لمكة المكرمة من آبار وبرك. ومن الولاة المشهود له بذلك خالد بن عبد الله القسري الذي عمل واليا لمكة في عهود الخلفاء عبد الملك بن مروان وابنيه الوليد وسليمان.[٢٣]

ومن أعمال خلفاء بني أمية على سبيل المثال ما أورده الفاكهي من أن معاوية بن أبي سفيان "أجرى بمكة عيونا واتخذ لها أخيافا وكانت فيها النخيل والزروع."[٢٤] وأنشأ الحجاج بن يوسف الثقفي ثلاثة سدود في شعب عمرو بن عبد الله بن خالد.[٢٥]

وأنشأ خالد بن عبد الله القسري عين "الثقبة" حيث بنى عندها بركة تسمى بركة القسري أو بركة السروي عند جبل ثبير ويقول عنها الفاكهي : "فعملها بحجارة منقوشة طوال ، وأحكمها وأنبط ماءها في ذلك الموضع ، ثم شق لها فلجا يسكب فيها من الثقبة [وبنى سد الثقبة وأحكمها] والثقبه شعب يفرع فيه وجه ثبير، ثم شق من هذه البركة عينا تخرج إلى المسجد الحرام فأجراها في قصب من رصاص حتى أظهرها في فوارة تسكب في فسقية من رخام بين زمزم والركن والمقام".[٢٦]

وتشير المصادر إلى أن المناطق الزراعية والواحات والأودية المشهورة في الحجاز ونجد استثمرت زراعيا في العصر الأموي وصاحب ذلك بناء السدود وحفر العيون والآبار وإنشاء القنوات.[٢٧] ومن أهم تلك المناطق التي لازلنا نشاهد فيها المنشآت المائية القديمة ، المدينة المنورة وما جاورها من واحات وأودية ، وخيبر، وفدك ، وحاذه ، وصفينة ، والسوارقية ، وينبع ، ووادي القرى ، وبلاد اليمامة ، والفلج ، ومنطقة مكة المكرمة وما جاورها ، والطائف.

وعلى أي حال ، فإن دراسة مستفيضة للمصادر التاريخية والجغرافية والأدبية ستعطينا معلومات عن الإصلاحات التي تمت في الجزيرة العربية من قبل الخلفاء والأمراء وغيرهم في العصر الأموي ؛ كذلك تفيدنا في معرفة المدن والمنازل ومراكز الاستقرار في هذه الفترة وتكون خير معين للباحثين والآثاريين ودارسي العمارة والفنون الإسلامية في العصور المبكرة.

الدراسات الأثرية

على الصعيد الآثاري فقد شهدت الجزيرة العربية في السنوات القليلة الماضية مجهودات علمية ودراسات آثارية متفاوتة تجمع ما بين المسوحات والتقنيات الآثارية ودراسة الظواهر المعمارية. غير أن الكشوفات الآثارية في الفترة الأموية ظهرت بشكل ملحوظ في بعض المناطق بينما لم يتضح منها شيء في مناطق أخرى. فعلى سبيل المثال جاءت الدراسات عن الآثار والعمارة في جنوب الجزيرة العربية خالية من أي اكتشافات آثارية من الفترة الأموية ، ومن ذلك دراسات كل من البروفسور سارجنت ، ولوكوك ،[٢٨] وباولوكوستا ،[٢٩] وفيراندا فرندا ،[٣٠] وبعض المسوحات الآثارية المتفرقة.[٣١]

وشرعت سلطنة عمان في حصر ودراسة الآثار في مختلف أنحاء البلاد. اشتملت تلك الدراسة على أعمال المسح الأثري وحصر المعالم الآثارية الشاخصة من قلاع وحصون وأبراج وأسوار ومساجد ومواقع أثرية كثيرة ومناطق التعدين ووسائل الري وخلاف ذلك من الدراسات المتعلقة بالإنسان والبيئة.[٣٢] ومما يؤسف له ، فإنه على الرغم من هذا النشاط العلمي إلا أن الفترة الأموية تبقى غير واضحة في الإطار التاريخي لمنطقة عمان.[٣٣]

كما ظهر نشاط أثري في كل من الإمارات العربية المتحدة وقطر والبحرين والكويت. وجاءت الاكتشافات الأثرية في البحرين مشجعة بعض الشيء حيث برزت عناصر معمارية مبكرة جدا تربط بين الفترة الساسانية وعصر صدر الإسلام والفترة الأموية.[٣٤]

وعلى صعيد الدراسات الآثارية في المملكة العربية السعودية، فيمكن القول بأنها أسعد حظا من بقية الأقطار الأخرى في جزيرة العرب. فبإمكاننا الوقوف على بعض الملامح الأثرية التي تعود إلى الفترة الأموية. وجاءت معلوماتنا عن هذه الفترة من خلال المشاهدات الشخصية، والدراسات الآثارية الحديثة، ومن خلال أعمال المسح الأثري الشامل الذي بدأ عام ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.

ومع ما تحقق من اكتشافات ورصد لكثير من المواقع الأثرية في مختلف أنحاء المملكة، إلا أن التقارير الآثارية والبحوث لم توضح طبيعة الفترة "الأموية" في إطار المسح الأثري، ولم تسترشد الفرق العلمية للمسح الأثري بالمصادر التاريخية والجغرافية والأدبية وغيرها، والتي سجلت بعض الأحداث والأوضاع السائدة في جزيرة العرب إبان العصر الأموي. يضاف إلى ذلك أن المسح الأثري لم يضع في الحسبان إعطاء أولوية للمناطق الأكثر أهمية وبخاصة المدنية المنورة ومكة المكرمة والطائف وهي المناطق التي شهدت كثافة من الفعاليات والأنشطة في العصر الأموي، ولكن حسب علمنا فقد بقيت هذه المدن حتى وقتنا الحاضر خارج نطاق المسح الأثري اللهم إلا في بعض المواقع الخارجة عن النطاق السكاني. وهذا التأخير فوّت الفرصة في حصر المعالم والمواقع الأثرية المبكرة في هذه المدن والتي شهدت طفرة حضارية حديثة اشتملت على تمدد الأحياء السكنية وتطور معماري كبير وظهور طرق جديدة ومرافق حيوية مهمة.

وسنحاول استعراض أبرز المواقع والمعالم الأثرية الباقية في بعض مناطق المملكة العربية السعودية على النحو التالي:

المدينة المنورة

شهدت المدينة المنورة بناء القصور وحفر الآبار وتشييد السدود في العصر الأموي خاصة في وادي العقيق والجماوات والعرصة. وقد سجل السمهودي (ت ٩١١هـ) مجموع هذه القصور وما قيل في بعضها من شعر،[٣٥] كما رصد إبراهيم رفعت باشا في رحلته مجموعة من القصور التي كانت آثارها قائمة عند زيارته للمدينة (سنة ١٣١٩هـ) حيث يقول: "وبالجملة فقد كان العقيق صروحا شماء ورياضا فيحاء ومروجا خضراء ولا تزال معالم تلك القصور قائمة تنبئك عن مدينة واسعة ومجد تليد وعز منيع".[٣٦]

وأشار البتنوني في رحلته (سنة ١٣٢٧هـ) إلى بعض قصور وادي العقيق حيث قال: "وآثار هذه القصور يوجد منها إلى الآن شيء كثير يدل على عظمة وادي العقيق وفخامته".[٣٧]

ويعتبر الشيخ عبد القدوس الأنصاري- رحمه الله- أول باحث سعودي ينبه إلى آثار المدينة المنورة حيث وضع حصرا لبعض آثارها المشهورة وحاول تحقيق معالمها. ومن أبرز القصور الأثرية التي ذكرها بالوصف، قصر سعيد بن العاص، وقصر عاصم بن عمرو بن عمر بن عثمان بن عفان[٣٨] كما عدد القصور والدور التي حقق مواضعها في وادي العقيق والمنتشرة في طرف حرة الوبرة والعرصة الكبرى والصغرى والجماوات وسفح جبل عير.[٣٩]

وقد بلغ مجموع القصور التي حصر مواضعها في الأماكن المشار إليها اثنين وعشرين قصرا. ويقول عبدالقدوس الأنصاري: "هذا بيان إجمالي لمواضع قصور العقيق... أما تعيين مواضع كل واحد فيها بالتحقيق والتحديد فذلك عسير جدا... ناهيك عما تحملناه من البحث العلمي والتفكير والمقارنة بين نصوص التاريخ، وواقع وادي العقيق، مما كلفنا جهدا فكريا وحركيا حتى توصلنا إلى إيضاح مواقعها بالصفة المشروحة آنفا."(٤٠)

هذا ومن القصور الباقية من العصر الأموي قصر سعيد بن العاص الذي ولي المدينة المنورة سنة ٤٨هـ في عهد معاوية بن أبي سفيان وعزله عنها سنة ٥٤هـ.(٤١) ويقع القصر في ضاحية المدينة الشمالية الغربية. والمعالم الباقية من القصر يصل طولها حوالي ٣٦ مترا، وعرضها ٢٧ مترا؛ أما ارتفاع أطلال القصر الباقية فحوالي ٩ أمتار ويصل سمك جدرانه ٧٦ سم تقريبا.

ومن ملاحظاتنا على هذا القصر نجد أنه بني بالأحجار الجرانيتية غير المنحوتة، كما استخدم الجص بشكل واضح في بنائه. وتبدو العناصر المعمارية للقصر مشابهة للعمارة الإسلامية المبكرة في الشام حيث نلاحظ بقايا عقود نصف دائرية والطاقات الركنية وآثار الزخارف الجصية وزخارف من الطوب المحروق وضعت على شكل أفاريز علوية. ويبدو أن القصر تعرض للتدمير والتخريب في عصور مضت. وقد كان للقصر مرافق أخرى على ما يبدو وأنه كان أكبر مما هو عليه الآن. ويذكر عبد القدوس الأنصاري أن بمقربة القصر من الجهة الجنوبية والشمالية توجد سلسلة من الأكوام تعلوها تربة الوادي الحمراء هي عبارة عن آثار لدور قديمة.(٤٢)

وقد اكتسب القصر شهرة واسعة في القرن الهجري الأول حتى قال فيه أحد الشعراء:

القصر ذو النخل فالجماء بينهما ... أشهى إلى نفسي من أبواب جيرون(٤٣)

ولحسن الحظ فإن آثار هذا القصر لا زالت باقية في فناء قصر الضيافة الحالي (القصر الملكي سابقا).

ومن القصور التي وثقها عبد القدوس الأنصاري بالوصف قصر عاصم بن عمرو بن عثمان بن عفان.(٤٤) وهذا القصر يقع في شرق جماء تضارع ويذكر بأنه مربع الشكل وتصل مساحته إلى ٣٠×٣٠مترا، ودلت آثاره على وجود غرف ومرافق بداخل القصر وكذلك مرافق أخرى خارج القصر. وبجوار القصر من الناحية الغربية وعلى بعد ٨٠ مترا، يوجد سد طوله ٣٦ مترا وعرضه متران ونصف.(٤٥)

ومن المعالم المشاهدة حتى الآن آثار لقصر قديم تقع على مرتفع جبلي على يسار المتجه من المدينة إلى ذي الحليفة (أبيار علي). وعلى الرغم من أن الموقع الذي أقيم فيه هذا القصر قد تم إحياؤه بإعادة استخدام البئر القديمة فيه وإنشاء منزل سكني ومزرعة، إلا أنه يمكن مشاهدة بعض أطلال القصر الباقية. فالقصر مستطيل الشكل وله برج دائري في كل ركن من أركانه الأربعة وبرج نصف دائري في منتصف كل ضلع. وقد ضاعت معالم جدرانه الداخلية وما فيه من غرف. ويتوسط الموقع بئر ربما يعود تاريخها لبناء القصر. وجدران القصر الخارجية مبنية بالحجر الجرانيتي إلى ارتفاع يقارب المترين ثم أكمل بعد ذلك بمداميك من اللبن. كما يلاحظ أن المبنى الحديث في الموقع قد بني من أنقاض القصر القديم. ولم نجد اسما لهذا القصر لدى السمهودي الذي حصر معظم قصور وادي العقيق،

كذلك لم يذكره عبد القدوس الأنصاري. غير أن المحقق السيد أحمد الخياري يشير إلى أن هذا القصر هو: قصر هشام بن عبد الملك أو قصر مسلمة بن عبد الله بن عروة بن الزبير بن العوام ويستدل على ذلك من خلال نقش مكتوب بالخط الكوفي على صخرة كبيرة في الجانب الشمالي من الجبل. يقول النقش: "أنا مسلمة بن عبد الله بن عروة بن الزبير أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله على ذلك أحيا وأموت وأبعث إن شاء الله".(٤٦)

وعلى الرغم من أننا لم نشاهد هذا النقش عند زيارتنا للموقع لكننا لاحظنا مجموعة من النقوش الإسلامية المبكرة والمنتشرة على واجهة الجبل المطلة على مجرى الوادي وهي عبارة عن أدعية مختصرة لطلب المغفرة ومن أشكال الحروف وأسلوب الكتابة يمكن إرجاع هذه النقوش إلى القرن الأول وبداية القرن الثاني للهجرة.

على أي حال، فإن آثار المدينة المنورة، وبالأخص آثار وادي العقيق، وما جاورها من مناطق والواحات المحيطة بالمدينة بحاجة إلى مسح أثري شامل ودراسة متأنية معتمدة على المصادر التاريخية والجغرافية والأدبية.

مكة المكرمة

على الرغم من تعدد المصادر المختصة بمكة المكرمة ومن أبرزها ما كتبه الأزرقي (ت حوالي ٢٥٠هـ) في كتابه *أخبار مكة*، والفاسي (ت ٨٣٢هـ) في كتابه *شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام*، وكتب الجغرافيين المسلمين، إلا أن ما احتوته من معلومات حول إصلاحات الأمويين في هذه المدينة المقدسة لم يستفاد منها حتى الآن في الدراسات الأثرية وتحقيق المواقع والمعالم الأثرية التي ورد ذكرها في هذه المصادر. وقد اقتصرت أعمال المسح الأثري في مكة المكرمة حتى الآن على طرق الحج التي تصب بالقرب من مكة خاصة طريق الحج من العراق "درب زبيده" وطريق الحج الشامي والمصري.(٤٧)

ونظرا لتوسع الرقعة المعمارية في مكة وإدخال التحسينات والمرافق المهمة الحديثة خدمة للحجاج وزوار البيت الحرام والمقيمين، فقد أصبح من الصعوبة بمكان التعرف على المعالم الأثرية الباقية خاصة على أطراف مكة وما كانت تشتمل عليه من منشآت مائية، وهي عبارة عن سدود وعيون وآبار وبرك ونقوش إسلامية يعود معظمها إلى الفترة الأموية. ولعلنا نشير بهذا الصدد إلى محاولة مهمة قام بها الباحث عاتق بن غيث البلادي عندما جمع معلومات قيمة عن معالم مكة التاريخية والأثرية استنبطها من المصادر التاريخية والجغرافية والأدبية مصحوبة بالمشاهدة الشخصية لكثير من تلك المعالم.(٤٨) وهناك بعض الدراسات المحدودة عن النقوش الإسلامية في مكة المكرمة تعود للعصر الأموي سنشير إليها فيما بعد.

ومن أحدث المصادر المحققة عن تاريخ مكة ذلك المجهود الكبير الذي قام به فضيلة الشيخ عبد الملك بن عبدالله بن دهيش في تحقيقه لكتاب *أخبار مكة* للفاكهي (توفي بين سنة ٢٧٢هـ وسنة ٢٧٩هـ). فبالإضافة إلى جهد المحقق الذي انصب على التحقق من الروايات التاريخية وتخريج الأحاديث وتوضيح أسانيدها، فإنه عرّف بكثير من

المواضع والأماكن المذكورة في الكتاب بالرجوع إلى المراجع القديمة والحديثة. كما أن المحقق قدم لنا معلومات أثريه على درجة كبيرة من الأهمية تركزت في إخراج ملحق تصويري للمواضع المذكورة في كتاب الفاكهي. فقد اشتمل الملحق على صور فوتوغرافية لكثير من المواضع المشهورة في مكة المكرمة كالمساجد والطرق والمقابر والمنشآت المائية وما طرأ على تلك المواضع من تغييرات.

ولعل من أبرز الوثائق المصورة مناظر لسدود قديمة لازالت باقية على حالها- أو أساساتها- تعود للعصر الأموي المبكر ونقوش إسلامية مؤرخة من نفس الفترة. كما قام المحقق بوضع خرائط توضيحية لبعض المعالم الأثرية المذكورة في كتاب الفاكهي.[٤٩] إن مثل هذا العمل لا شك سيكون حافزا لوضع دراسة أثرية شاملة للمعالم الأثرية الباقية في مكة المكرمة وما حولها وتقديمها للدارسين لتكون مصدرا للتاريخ الحضاري في العصور الإسلامية المبكرة.

مواقع أثرية متفرقة من المملكة العربية السعودية

في ضوء ما كتب عن بعض آثار المملكة، سواء ما سجله بعض الرحالة، والبعثات الأجنبية، أو نتائج الدراسات الحديثة المبنية على الأبحاث الميدانية، وأعمال المسح الأثري الشامل يمكن وضع استنتاج مبدئي عن مراكز الاستيطان الحضري التي تعود إلى الفترة الأموية.

فهناك دلائل مادية تقودنا للتدليل على الآثار الأموية، ومنها الآثار البنائية والأطلال الباقية، التي عرفت في القرنين الأولين للهجرة، أو تلك الآثار التي يظهر عليها نقوش إسلامية مؤرخة وغير مؤرخة من نفس العصر، أو أننا نجد حول هذه الآثار أو على أسطح المواقع الأثرية أصنافا من الكسر الفخارية ذات الطابع الأموي وهذا في حد ذاته دليل على الاستيطان الحضري من جهة وحركة التبادل التجاري من جهة أخرى. أما الآثار المكتشفة من خلال التنقيات الأثرية، فهي على الرغم من محدوديتها فقد زودتنا بمعلومات ذات قيمة علمية كبيرة سنشير إليها فيما بعد.

وسوف نستعرض بإيجاز أبرز نتائج الأبحاث والمسوحات الأثرية في مناطق المملكة.

المنطقة الشرقية

شملت أعمال المسح الأثري للمنطقة الشرقية مناطق متعددة حيث جاء في تقارير المسح أن المواقع الإسلامية تتوزع في واحة الاحساء ويبرين والدمام والظهران ومنطقة ثاج، والقطيف وجاوان، وأبو علي وخرسانية، وعين دار وأبقيق. وقد تم حصر عدد من المواقع الأثرية في هذه المناطق ومنها المنشآت المائية للآبار والقنوات والتحصينات الدفاعية.[٥٠]

غير أننا لم نتبين أي اكتشافات أثرية لها صلة بالفترة الأموية بطريقة مباشرة، على الرغم من أن الساحل الشرقي للجزيرة العربية متميز منذ الفترة الإسلامية المبكرة بالنشاط الزراعي والتجاري واشتهر في هذه المنطقة عدد من المراكز الحضارية مثل: جواثى، والمشقر، وهجر، والعقير، وثاج، والقليعة، والقطيف، ودارين، ويبرين

وغيرها.[٥١] ولعل من الشواهد الأثرية الباقية من القرن الأول الهجري بقايا مسجد جواثى الذي لا تزال معالمه مشاهدة حتى الآن.

أما المعثورات الفخارية، فتشير تقارير المسح الأثري بأن غالبية الكسر الخزفية تعود إلى القرن الثالث الهجري وما بعده وهذه الشواهد الفخارية تشبه مثيلاتها في العراق خاصة خزف سامراء. وهناك نوع واحد من الفخار المطلي باللون الأخضر الذي اكتشف في بعض المواقع الأثرية وهو ما يسمى بالفخار الساساني- الإسلامي Sasino-Islamic والذي انتشر في بلاد فارس ومنطقة الخليج في الفترة الفارسية والساسانية واستمر انتشاره حتى بداية العصر الإسلامي.[٥٢]

ومن أحدث الدراسات في المنطقة تلك التي قام بها الدكتور عبد الله الدوسري، حيث تركز بحثه على دراسة ما يقارب خمسة وثلاثين موقعا أثريا موزعة على منطقة الخفجي وثاج والجبيل والقطيف والأحساء والعقير وواحة يبرين. وأجرى الدكتور الدوسري عددا من المجسات في مواقع أثرية مختارة أثمرت في إعطائنا صورة جلية تبشر بمستقبل كبير في طريق اكتشافات أثرية أكثر عمقا. فالكسر الفخارية التي قام بدراستها في هذه المواقع يعود بعضها إلى العصر العباسي المبكر، ولكن بعض الكسر الفخارية المكتشفة يمكن تصنيفها إلى القرن السابع وبداية القرن الثامن الميلاديين ونعني بذلك الفخار المطلي باللون الأخضر الذي يحمل صفات الفخار الساساني. كما أن الدكتور الدوسري تمكن من الكشف عن أساسات لما يبدو أنه آثار لقلعتين إسلاميتين في موقع (أبو خروف) في شمال الجبيل والمواقع الأخرى التي يمكن أن تعود إلى فترة سابقة للعصر العباسي هي مواقع عينين بالجبيل والقطيف وتاروت والعقير، ابرق الضلع وموقع قدام.[٥٣] وحتى الآن لم يعثر في المنطقة الشرقية على عملات إسلامية من العصر الأموي أو شواهد خطية مبكرة.

المنطقة الشمالية

تشكل المنطقة الشمالية من الجزيرة العربية أهمية خاصة بالنسبة للآثار الإسلامية المبكرة. فقد اشتهرت مواقع أثرية كثيرة في هذه المنطقة حيث نلاحظ استمرار النشاط الحضاري فيها منذ بداية ظهور الإسلام. ومن أبرز المواقع الأثرية المعروفة: دومة الجندل وما تشتمل عليه من آثار تتمثل في حصن مارد الذي ظل مستخدما حتى بداية هذا القرن، ومسجد عمر والمدينة الأثرية القديمة وقنواتها وآبارها. وهناك بعض المعالم الأثرية في مدينة سكاكة بالإضافة إلى موقع الطوير،[٥٤] كما تشكل منطقة القريات أهمية خاصة في وجود بعض المواقع والمعالم الأثرية خاصة في موقع (إثرا).[٥٥]

وعلى الرغم من الاستطلاعات الأثرية وأعمال المسح الأثري والدراسات الميدانية في هذه المنطقة إلا أن الفترة الأموية لم تأخذ وضعها الطبيعي. فالمصادر التاريخية والجغرافية المبكرة خالية من أي معلومات واضحة عن هذه المنطقة في العصر الإسلامي المبكر بالإضافة إلى ضآلة المعثورات التي تدلل على هذه الفترة من ناحية أخرى.

ومع ذلك، فإن وجود عينات من الكسر الفخارية التي تنتشر في بعض المواقع الأثرية، والمقتنيات الخاصة لبعض القطع الكاملة وانتشار الكتابات الإسلامية في أنحاء متفرقة من منطقة الجوف تعد مؤشرا قويا وتبعث الأمل بالنسبة للدراسات المستقبلية في المنطقة. أما في منطقة القريات، فإن وجود نقش أموي- غير مؤرخ- على قصر محمد السلطان في إثرا يؤكد على استمرار النشاط الحضاري في العصر الأموي. ويقرأ هذا النقش كما يلي:

١- بسم الله الرحمن الرحيم لا إله

٢- إلا الله وحده لا شريك له محمد

٣- رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره

٤- على الدين كله ولو كره المشركون.(٥٦)

منطقة الحجاز وشمال غرب الجزيرة

فيما يبدو لنا، من خلال المصادر التاريخية والجغرافية والدراسات الأثرية الحديثة فإن منطقة الحجاز وشمال غرب الجزيرة أكثر ثراء من غيرها من المناطق بالنسبة للمواقع الأثرية الباقية. ويتضح في هذه المواقع دلائل للاستيطان الحضري في فترة بني أمية. وفي كثير من المواقع الأثرية نلاحظ انتشار الكسر الفخارية التي يعود تصنيفها واستخدامها إلى القرنين الأول والثاني الهجريين. وهذا لا يبدو مستغربا، فقد ازدهرت منطقة الحجاز في العصر الأموي ونشطت طرق الحج والتجارة حيث كان لخلفاء بني أمية دور ملموس في بناء الطرق واستثمار الأراضي الزراعية واهتمام كبير بالمدينتين المقدستين (مكة والمدينة). ومن أهم المواقع الأثرية التي يمكن إعطاؤها كأمثلة هي: منطقة وادي القرى، وخاصة قرح (المابيات حاليا) والبدع والحوراء والجار. ومن المواقع الأثرية القريبة من الطائف موقع عكاظ وكذلك المواقع الأثرية المنتشرة في حرار الحجاز مثل فدك والسوارقية وحاذه وصفينة. وكثير من تلك المواقع استمر الاستيطان الحضري فيها فترة من الزمن بعد العصر الأموي. والأمل الوحيد لمعرفة مراحل الاستيطان هو من خلال الحفائر والتحليلات الأثرية والمعمارية للآثار الباقية على سطح الأرض خاصة تلك الآثار التي لا تزال قائمة على مسار طرق الحج.

وبهذا الخصوص يمكن الإشارة إلى دراسة الدكتور علي حامد غبان التي تناولت المواقع الأثرية الواقعة على طريق الحج الشامي والمصري، والتي تشتمل على عدد من المواقع الأثرية الساحلية والداخلية التي عرفت في العصر الأموي، حيث ظهر ذلك من خلال أنماط الفخار الأموي الذي عثر عليه في بعض المواقع مثل: الأخضر، والخشيبة، ووادي حرب، والجار، والملقطة، والمرّ، والسقيا.(٥٧) ويضاف إلى ذلك عدد من النقوش الإسلامية المؤرخة من العصر الأموي التي عثر عليها في موقعي الوجيريّة ووادي الرماميّة على طريق الحج الشامي.(٥٨) ومن الآثار الأموية الواضحة تلك السدود التي شيدت أو التي أعيد استخدامها في العصر الأموي، خاصة في منطقة خيبر والطائف، ولعل أبرز تلك السدود سد الزايديّة في خيبر وسد سيسد في الطائف والمنشآت المائية في مكة المكرمة.(٥٩)

وعلى صعيد التنقيات الأثرية في الحجاز فلعله من المناسب الإشارة إلى حفائر الربذة حيث تم الكشف عن شواهد أثرية معمارية ولقي أثرية متنوعة: فخارية وزجاجية ومسكوكات من العصر الأموي توضح عمق الاستيطان الحضري في الربذة.(٦٠)

كما أن الحفريات الأثرية التي بدأت في المابيات وعلى نطاق محدود ربما تكشف طبيعة الاستيطان الحضري في العصور الإسلامية المبكرة.(٦١)

جنوب الحجاز ومنطقة عسير وتهامة

أوضحت أعمال المسح والدراسات الأثرية أن جنوب الحجاز ومنطقة عسير وتهامة غنية بالمواقع الأثرية وعن طريقها كان الاتصال الحضاري والثقافي والتجاري للحجاز مع اليمن وأفريقيا والصين، وتمتد هذه المناطق عبر طرق التجارة والحج الساحلية والداخلية. ولعل وجود مواقع أثرية تميزت بأنها كانت مناطق للتعدين قد زاد من أهمية هذه المنطقة. ويقدر عدد مواقع التعدين ما يقارب من ٤٧ موقعا موزعة بين تبالة والمخواة والباحة. وقد تبين من خلال الآثار الباقية بأن عددا منها يعود تاريخه إلى العصور الإسلامية المبكرة وحتى العصور الإسلامية المتأخرة.(٦٢)

ولعل من أبرز المواقع الأثرية في كل من عسير وتهامة والتي كان لها شهرة واسعة جرش، وعثر وسهى،(٦٣) والسرين وعشم.(٦٤)

وعلى الرغم من وجود بعض القرائن التي تدل على مرحلة الاستيطان في الفترة الأموية في هذه المناطق، مثل الفخار والنقوش والكتابات الإسلامية وشواهد القبور، فإن الدراسات الأثرية لا تزال في مراحلها الأولى.

المنطقة الوسطى

ونقصد بذلك المنطقة الممتدة من وادي الدواسر مرورا بالأفلاج والخرج والعارض والوشم والمحمل والشعيب ومنطقة سدير والزلفي ومنطقة القصيم. وهذه المنطقة الشاسعة تشتمل على مواقع كثيرة توضح الاستيطان الحضري المبكر بسبب توافر المياه، من العيون والآبار والقنوات، خاصة في الخرج والأفلاج وليلى. وكانت اليمامة إحدى الولايات المهمة في العصور الإسلامية المبكرة، ارتبطت بطرق للمواصلات تؤدي إلى البصرة والكوفة ويبرين وعمان والبحرين والحجاز واليمن. كما ازدهرت فيها الأسواق التجارية،(٦٥) واشتهرت اليمامة باحتوائها على عدد من مناجم تعدين الذهب والفضة والنحاس والرصاص،(٦٦) وعدد الإمام الحربي منابر اليمامة بحوالي ٢٧ منبرا.(٦٧)

تم حصر عدد من المواقع الأثرية التي تظهر على أسطحها كسر فخارية وخزفية وزجاجية ومصنوعات حجرية ونحاسية، ومن هذه المواقع ما عثر عليه في وادي الدواسر، وشرق منطقة الشرفا، ومنطقة الأفلاج مثل مواقع: (البادي) و(الناهض) و(السيح) و(روضة) و(القادم) و(الواسط) و(الحمر).

أما في منطقة الخرج فهناك مواقع مثل: (راغب) و(اليمامة) و(نعام) و(الحوطة). وبلغ عدد المواقع الأثرية في كل من وادي الدواسر والأفلاج والخرج حوالي ٢٥ موقعا تقريبا والتي تقع جزئيا أو كليا في الفترة الإسلامية حيث تبين ذلك من خلال المعثورات الفخارية التي تشاهد على سطح كل موقع.

وبدون إجراء حفريات أثرية في هذه المواقع فإن الفترة الأموية الواقعة ما بين القرن (٧-٨م) تظل غير واضحة بشكل جلي. واعتمادا على نتائج المسوحات الأثرية نجد أن ظاهرة انتشار الفخار الهلنستي في بعض المواقع الأثرية بالإضافة إلى أنواع من الفخار والخزف الإسلامي من القرنين الثامن والتاسع الميلاديين وأنواع أخرى من العصر العباسي.(٦٨)

وبالإضافة إلى المواقع الأثرية المذكورة سابقا فقد تم رصد مزيد من المواقع الأثرية في كل من ضرماء ومرات والدوادمي والقويعية حيث تشاهد فيها كسر الفخار والخزف والزجاج والأساور والقطع المعدنية والتي تؤكد ازدهار هذه المواقع في العصر العباسي المبكر. وفي بعض المواقع تشاهد كسر لأوان ذات ألوان حمراء عليها زخارف مضلعة يرجح أن صناعتها تعود لصناعات العصور البيزنطية قبل الإسلام،(٦٩) فإذا كان الأمر كذلك فالمرجح أيضا أن الاستيطان الحضري استمر خلال العصور الإسلامية المبكرة واتصل بالفترة العباسية. وقد عثر في الدوادمي على أربعة مواقع للتعدين يستخرج منها الذهب والفضة. وفي القويعية عثر على مخلفات لمناجم النحاس.(٧٠) كذلك تنتشر النقوش الإسلامية في منطقة القويعية والدوادمي وهي نقوش غير مؤرخة ويمكن ترجيح كتابة تاريخها في الفترة ما بين القرنين الأول والثالث للهجرة(٧١) وتنتشر في منطقة القصيم بعض المعالم والمواقع الأثرية المهمة والتي تعود إلى العصور الإسلامية المبكرة وتقع معظم هذه المواقع على امتداد طريقي الحج من البصرة والكوفة. ومن أهم تلك المواقع النباج (الأسياح) وضرية والتي اشتهرت بكونها حمى لإبل الصدقة وأصبحت مدينة ذات شهرة منذ أوائل العصر الإسلامي المبكر. ومن المواقع الأخرى: موقع النقرة التي يلتقي فيها طريقا الكوفة وطريق البصرة ومنها يتفرع طريق إلى المدينة المنورة وآخر إلى مكة المكرمة.(٧٢) ويتميز النباج بوجود أنقاض لقصر كبير (يسمى قصر مارد) وآثار لمنشآت مائية من سدود وقنوات وبعض النقوش الإسلامية غير المؤرخة.(٧٣) أما ضرية فهي موقع أثري كبير تنتشر فيه مجموعة من التلول الأثرية وآثار لمنشآت مائية عبارة عن بقايا برك وسدود وآبار وعيون، ويلاحظ انتشار كميات كبيرة من كسر الفخار والخزف والزجاج على سطح الموقع. كما تنتشر في موقع ضرية النقوش الإسلامية المحفورة على الواجهات الصخرية.(٧٤)

ولا شك فإن الدراسات المستقبلية المتعمقة في منطقة القصيم ستوضح بشكل جلي الفترة الإسلامية المبكرة وبالأخص القرنين الأول والثاني الهجريين.

الكتابات والنقوش الإسلامية

إن الكتابات والنقوش الإسلامية من الآثار المهمة التي تساعد في تحديد معالم الاستيطان الحضري في العصور الإسلامية المبكرة.

وفي غياب الحفريات الأثرية فإن النقوش الإسلامية المنحوتة والمنقورة على الواجهات الصخرية تعتبر وثائق أثرية مهمة لدراسة الإطار التاريخي والحضاري للجزيرة العربية على مختلف العصور. وعلى الرغم من أن النقوش الإسلامية في الجزيرة العربية وبالتحديد في النطاق الجغرافي للمملكة العربية السعودية، لم يتم تسجيلها وحصرها إلا في نطاق ضيق ومحدود، فإن ما تم التعرف عليه من نقوش يعد مصدرا مهما يعطي بعدا جديدا للنشاط السكاني وبالأخص في العصر الأموي. وقد لا يتسع المجال لحصر كل النقوش ذات الصلة بهذه الفترة في هذا البحث.

وتنتشر النقوش الصخرية على امتداد طرق الحج والتجارة والواحات ونقاط تجمع المياه والمناطق الزراعية وبالقرب من مناطق التعدين. وفي ضوء ما نشر من أبحاث وأعمال المسح الأثري بالإضافة إلى مشاهداتنا الشخصية تبين لنا أن النقوش تتكاثر في منطقة المدينة المنورة والحرار المحيطة بها، في خيبر وفدك والصويدرة والحناكية والربذة وضرية وطريق الحج الشامي جنوب تبوك ومنطقة حسمي. كما تشتمل منطقة الطائف ومكة المكرمة وطريق درب زبيدة على نقوش إسلامية متفرقة بالإضافة إلى عدة مواقع في منطقة عسير، حيث نلاحظ انتشار النقوش على امتداد طريق الحج والتجارة الداخلي ومنطقة النماص وغيرها.

هذا فيما يخص النقوش الصخرية، أما شواهد القبور والكتابات التأسيسية للمنشاءات وخلاف ذلك فلن نتطرق لها في هذا البحث.[٧٥]

وحتى عهد قريب كان نقش معاوية بن أبي سفيان في الطائف هو النقش الوحيد الذي عرف عالميا كأقدم نقش مؤرخ في الجزيرة العربية. والذي نشره لأول مرة العالم جورج مايلز سنة ١٩٤٨م.[٧٦] ومن المعروف أن هذا النقش يؤرخ لبناء سد في الطائف بني للخليفة معاوية بن أبي سفيان سنة ٥٨هـ وسيظل هذا النقش وثيقة أثرية وتاريخية مهمة.

وقد تم التعرف على عدد كبير من النقوش المؤرخة في العصر الأموي في مواقع متفرقة من شمال وغرب الجزيرة العربية بالإضافة إلى منطقة الحجاز وعسير. وقد أمكن حصر ما يقارب من ١٦ نقشا تتراوح تواريخها بين سنة ٤٠هـ وسنة ١٢٨هـ،[٧٧] وتحتوي هذه النقوش على أدعية متنوعة لطلب المغفرة والرحمة لأصحاب تلك النقوش أو لمن كتبها. ومعظم الأدعية الواردة في النقوش مقتبسة من القرآن الكريم.

أما النقوش غير المؤرخة والتي يرجح أنها كتبت في العصر الأموي فهي كثيرة ويمكن تحديد تواريخها من خلال الأسماء الواردة فيها أو من أسلوب كتابتها.[٧٨]

إن دراسة هذه النقوش مجتمعة ومقارنتها مع النقوش والكتابات الإسلامية الأخرى ستثري معرفتنا بمعلومات تاريخية وثقافية وتفيد في مسيرة تطور الخط العربي وصنعته من بيئة إلى أخرى وكذلك تشكل سندا قويا في تحقيق المواقع والمعالم التاريخية والجغرافية.

وسوف نعطي أمثل لبعض النقوش المؤرخة على النحو التالي:

١- نقش مؤرخ سنة ٧٦هـ

(المدينة المنورة)[٧٩]

يتكون هذا النقش من ثمانية أسطر ويقرأ كما يلي:

١- اللهم عا
٢- في رباح بن
٣- حفص بن عاصم
٤- بن عمر بن الخطاب
٥- أوصي بالله وا
٦- لرحم وكتب
٧- في سنة ست
٨- وسبعين

٢- نقش مؤرخ سنة ٧٨هـ

(حدود مكة المكرمة/بالقرب من جبل عرفات)

يتكون هذا النقش من سبعة أسطر كتب بأسلوب يختلف عن بقية النقوش الإسلامية المعروفة لدينا. ثلاثة أسطر كتبت متتابعة ولما لم يجد الناقش- فيما يبدو- مساحة لتكملة النقش لجأ إلى كتابة ما تبقى من أسطر بطريقة دائرية بحيث تلتف للأعلى عند نهاية السطر الثالث، وكتب السطر بطريقة مقلوبة ويتجه فوق السطر الأول من اليمن إلى الشمال ثم كتب تاريخ النقش على طرف الثلاثة الأسطر الأولى من أعلى إلى أسفل. ويقرأ النقش كالتالي:

١- [واد] الجديد تقلب الشمس
٢- وطلوعها من حيث لا تمس
٣- وطلوعها بيضاء صافية
٤- وغروبها صفراء كالورس

٥- وكتب أبو جعفر بن حسين الهاشمي

٦- سنة ثمان

٧- وسبعين

يتضح من قراءة النص أنه يمثل بيتين من الشعر. وقد كفانا الشيخ عبد القدوس الأنصاري- رحمه الله- مؤنة شرح أسلوب كتابة هذا النقش وتحديد فترته التاريخية غير أن قراءة الأنصاري لأول كلمة من بيت الشعر جاءت هكذا [واد] وهذا لا يتفق مع رسم حروف الكلمة الأولى من النقش. يضاف إلى ذلك أن الكلمة الثانية من السطر الثالث قرأها الأنصاري [حمرا] بينما هي [بيضا] في النقش.

والواقع أن لهذين البيتين بيت ثالث ذكره الأنصاري وأشار إلى مصدره.[٨٠] وقد وردت هذه الأبيات الثلاثة في شرح شواهد القطر على النحو التالي:

منـــع البقــا تقلــب الشمـــس	وطلوعـــها مـــن حيــث لا تمـــس
وطلوعـــها حمـــراء صافيـــة	وغروبـــها صفـــراء كالـــورس
اليـــوم أعلـــم مـــا يجـــيء بـــه	ومضـــى بفضـــل قضائـــه أمســـى[٨١]

وفي الحقيقة أن هذا النص بحاجة إلى مزيد من التأمل والدراسة المتأنية لنعرف مدلول كتابته في ذلك المكان والزمان.

٣- نقش مؤرخ سنة ٩٨هـ

(وادي العسيلة/ثنية النقواء)[٨٢]

يتكون هذا النقش من أربعة أسطر تقرأ كما يلي:

١- من يتوكل على الله فالله حسبه والله

٢- بالغ أمره وقد جعل لكل شيء قدرا

٣- وكتب أمية ابن عبد الملك

٤- لسنة ثمان وتسعين وهو يسئل الله الجنة.

ويلاحظ أن السطرين الأولين يشتملان على كلمات قرآنية وردت في (الآية ٣، من سورة الطلاق) في قوله تعالى: ﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾.

أما تاريخ النقش فيتوافق مع فترة حكم الخليفة سليمان بن عبد الملك (٩٦-٩٩هـ/٧١٥-٧١٧م) بالإضافة إلى ورود اسم (أمية بن عبد الملك) كاتب النقش الذي لا يستبعد أن يكون من الأسرة المروانية.

٤- نقش مؤرخ في سنة ١٢٧هـ

(النماص/منطقة بادية بني عمرو)[٨٣]

يتكون هذا النقش من ثمانية أسطر تقرأ كما يلي:

١- شهد عبد الملك ابن

٢- عبد الرحمن ان

٣- الله حق لا إله إلا هو

٤- الحي القيوم وكتب

٥- في المحرم سنة سبع

٦- وعشرين ومائة لعن الله من

٧- محا هذا الكتاب

٨- أو غيره آمين

ويتوافق تاريخ هذا النقش مع خلافة إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك الذي مكث في الخلافة سبعين ليلة وخلع نفسه وهرب من دمشق في صفر سنة ١٢٧هـ عندما دخلها مروان بن محمد بن مروان بن الحكم.[٨٤]

٥- نقش مؤرخ سنة ١٢٨هـ

(منطقة الحرضيَّة/خيبر)

ويتكون هذا النقش من ثمانية أسطر تقرأ على النحو التالي:

١- أنا سليمن

٢- بن أسعد

٣- أسال الله

٤- الجنة وكتب

٥- في رجب سنة ثمان

٦- وعشرين ومائة.[٨٥]

يقع تاريخ هذا النقش في فترة حكم الخليفة مروان بن محمد[٨٦] (١٢٧-١٣٢هـ/٧٤٤-٧٥٠م) ويعزز النقش وغيره من النقوش والسدود الأثرية الباقية في خيبر بأن المنطقة كانت عامرة في العصر الأموي.

الخلاصــــة

بعد هذا الاستعراض الموجز عن الآثار الإسلامية في الجزيرة العربية، وبالأخص في النطاق الجغرافي للملكة العربية السعودية، فقد اتضح لنا أن السِّمة الحضارية للجزيرة العربية في العصر الأموي، بدأت تتشكل وتبرز. ويبقى أن نكرر ما ذكرناه سابقا من أنه لابد من تطويع كافة المعلومات التاريخية والجغرافية والأدبية لأعمال المسح والاستكشافات الأثرية بهدف الوصول إلى أقصى درجة من الدقة والاستكشافات الأثرية في تحقيق المعالم والمواقع الأثرية في العصر الأموي.

كما أن مزيد من الحفريات الأثرية في المواقع التي عرفت في العصر الأموي ستثري معرفتنا بمختلف أوجه الاستقرار من النواحي الاقتصادية والثقافية والاجتماعية.

وهناك نقطة مهمة لا تزال تبعث الحيرة وتستحق البحث والتأمل ألا وهي عدم وجود مسكوكات أموية مضروبة في مدن الجزيرة العربية بعكس ما لدينا من معلومات حول ضرب السكة في العصر العباسي.(٨٧) أما عن المسكوكات الأموية المضروبة في مدن خارج الجزيرة العربية فقد عثر على عدد من القطع في مواقع متفرقة من الجزيرة العربية.(٨٨)

كما أن الاكتشافات الأثرية الجارية على مشارف الجزيرة العربية والتي ظهرت فيها دلائل من الأنماط العمرانية في العصر الأموي ستكون مفيدة في الدراسات العلمية الموسّعة مستقبلا. ومن أهم الاكتشافات الحديثة ما أظهرته الحفريات الأثرية في العقبة الأردنية وغير ذلك من المواقع الأثرية في بلاد الشام.(٨٩)

التعليقات

(١) أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقي، *أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار*، تحقيق رشدي الصالح ملحس، جزءان، ط٢ (مكة المكرمة: مطابع دار الثقافة، ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م)، ٢: ٧١؛ وانظر: حسين عبد الله باسلامة، *تاريخ عمارة المسجد الحرام*، تحقيق عمر عبد الجبار، ط٢ (القاهرة: دار مصر للطباعة، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م)، ٤٥-٤٧.

(٢) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٧١-٧٢؛ باسلامة، *تاريخ*، ٤٨-٤٩.

(٣) إبراهيم بن إسحاق الحربي، *كتاب "المناسك" وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة*، تحقيق حمد الجاسر (الرياض: دار اليمامة، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م)، ٣٦٤-٣٧٠؛ الشيخ محمد بن محمود بن النجار، *أخبار مدينة الرسول (المعروف بالدرة الثمينة)*، تحقيق صالح محمد جمال، ط٣ (مكة المكرمة: مكتبة الثقافة، ١٤٠١هـ/١٩٨١م)، ٩٨-١٠٣؛ نور الدين علي بن أحمد السمهودي، *وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى*، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ٤ أجزاء (القاهرة: مطبعة السعادة، ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م)، ٢: ٥١٣-٥٢٥.

(٤) أحمد بن عبد الحميد العباسي، *كتاب عمدة الأخبار في مدينة المختار*، تحقيق الشيخ محمد الطيب الأنصاري، ط٥ (د.م: أسعد درابزوني الحسيني، د.ت.)، ١٦٦.

(٥) أحمد بن عبد الله محمد الرازي، *تاريخ مدينة صنعاء*، تحقيق حسين بن عبد الله العمري، ط٣ (بيروت ودمشق: دار الفكر، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م)، ١٣٥-١٣٦؛ وانظر: محمد بن أحمد الحجري، *مساجد صنعاء عامرها وموفيها*، ط٢ (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٣٩٨هـ)، ٢٤.

(٦) الرازي، *تاريخ*، ١٣٦؛ الحجري، *مساجد صنعاء*، ٢٤.

(٧) نجم الدين عمارة بن علي اليمني، *تاريخ اليمن*، تحقيق محمد بن علي الأكوع الحوالي، ط٢ (القاهرة: مطبعة السعادة، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م)، ٧٤؛ وانظر: *مجلة الإكليل*، ع ع ٣-٤ (١٤٠١هـ/١٩٨١م)، ٧٨.

(٨) *الآثار الإسلامية في الوطن العربي (المؤتمر التاسع للآثار في البلاد العربية)*، صنعاء، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، وتونس، ١٩٨٥م، ٣٩١.

(٩) مجهول المؤلف، *كتاب العيون والحدائق في معرفة الحقائق*، تحقيق دي جويه (ليدن: بريل، ١٨٨٩م)، ١١.

(١٠) مجهول، *العيون والحدائق*، ١٢.

(١١) أحمد بن عبد الله القلقشندي، *مآثر الإنافة في معالم الخلافة*، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، ٣ أجزاء (الكويت، ١٩٦٤م)، ١: ١٣٦.

(١٢) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، *تاريخ الرسل والملوك*، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ١٠ أجزاء (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٩م، ٦: ٤٣٧.

(١٣) مجهول، *العيون والحدائق*، ٦٣.

(١٤) أبو الحسن علي المسعودي، *مروج الذهب ومعادن الجوهر*، تحقيق وترجمة بابيو دي منيارد وبافييت دي كورتيل، ٩ أجزاء، (باريس، ١٩١٦-١٩٣٠م)، ٥: ٤٦٦.

(١٥) عبد القادر بن محمد الأنصاري الجزيري، *الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحج وطريق مكة المعظمة*، ٣ أجزاء، تحقيق حمد الجاسر (الرياض: دار اليمامة، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)، ١: ٤٥١. وقد تفرد الجزيري بذكر هذه المعلومة ولم نجدها لدى المؤرخين والجغرافيين المسلمين الأوائل.

(١٦) السمهودي، *وفاء الوفا*، ٣: ٩٨٨.

(١٧) زكريا بن محمد بن محمد القزويني، *آثار البلاد وأخبار العباد* (بيروت، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م)، ٩٨؛ وانظر: ياقوت الحموي، *معجم البلدان*، ٥ أجزاء (بيروت: دار صادر، ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م)، ٥: ٣٨٦.

(١٨) ياقوت، *معجم البلدان*، ٤: ١٢.

(١٩) يراجع بهذا الخصوص: نجدة خمّاش، *الإدارة في العصر الأموي* (دمشق: دار الفكر، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م)، ١٥٥-١٥٩، ٢٣٨-٢٤٥؛ عمر فروخ، *تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية* (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٧٦م)، ١٥٠.

(٢٠) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٩٩-١٠٠؛ وانظر: النجم عمر بن فهد، *إتحاف الورى بأخبار أم القرى*، تحقيق فهيم محمد شلتوت، ٤ أجزاء (مكة المكرمة: جامعة أم القرى، ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م)، ٢: ٣٤؛ باسلامة، *تاريخ*، ٢٣٧.

(٢١) ابن فهد، *إتحاف الورى*، ٢: ١٠٥.

(٢٢) انظر تفصيل ذلك في الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ١٦٩؛ ابن فهد، *إتحاف الورى*، ٢: ١٠٨-١١٠. ونلاحظ استخدام الأمويين (العَجَل) وهي على ما يبدو عربات ذات عجل تجر بواسطة الدواب وهذا في حد ذاته يُعَدُّ تطورا كبيرا في التقنية وأن الطرق التي تسير فيها العربات لابد أنها كانت مرصوفة.

(٢٣) السيد أحمد زيني دحلان، *أمراء البلد الحرام* (بيروت: الدار المتحدة للنشر، د.ت.)، ١٠.

(٢٤) أبو عبد الله محمد بن إسحاق الفاكهي، *أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه*، دراسة وتحقيق عبدالملك بن عبد الله بن دهيش، ٦ أجزاء، ط١ (مكة المكرمة: مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م)، ٤: ١٢١-١٢٨.

(٢٥) الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١٧٠؛ وانظر: حاشية (١) نفس الصفحة السابقة.

(٢٦) الفاكهي، *أخبار مكة*، ٣: ١٤٩-١٥٠.

(٢٧) انظر: صالح أحمد العلي، *الحجاز في صدر الإسلام* (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م)، ١٣١-١٥٦.

(٢٨) R.B. Serjeant and Ronald Lewcock, *San'a: An Arabic Islamic City* (London: World of Islam Festival Trust, 1983 Trust).

(٢٩) Paolo Costa and Ennio Vicario, *Yemen Land of Builders* (Venice, 1977).

(٣٠) Ferando Varanda, *Art of Building in Yemen* (London, 1982).

(٣١) على سبيل المثال انظر:

E.J. Keall,"Zabid and Its Hinter Land: 1982 Report" *PSAS*, 13 (1983), 53-69. وانظر: *أضواء على الآثار اليمنية* (تقرير للعالم السوفيتي سيرجي شيرنسكى عن الآثار في اليمن الديمقراطية، وزارة الثقافة والسياحة، جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية).

(٣٢) لا شك أن ما ظهر من دراسات علمية متنوعة عن التراث الحضاري لسلطنة عمُان سيكون له تأثير كبير في وضع الإطار التاريخي للتنوع الحضاري في المنطقة وباقي أنحاء الجزيرة العربية، ويعكس طبيعة الاتصال الحضاري فيها منذ أقدم العصور وحتى العصور الإسلامية المتأخرة. ولكن الذي يعنينا بالدرجة الأولى معرفة المرحلة الانتقالية بين فترة ما قبل الإسلام وما تلى ذلك من نشاط حضاري في منطقة عمان والخليج في العصر الأموي بالدرجة الأولى وهذا ما ننتظره من نتائج الدراسات الأثرية الجارية. وعلى سبيل المثال انظر الدراسات والبحوث التالية:

R. Boucharlat and J. F. Salles, "The History and Archaeology of the Gulf from the Fifth Century B.C. to the Seventh Century A. D.: A Review of the Evidence", *PSAS*, 11 (1981), 65-94.

وانظر سلسلة التقارير الأثرية في مجلة *الدراسات العمانية* التي بدأت تصدر من عام ١٩٧٥م وبالأخص: Donald S. Whitcomb, "The Archaeology of Oman: A Preliminary Discussion of the Islamic Period," *JOS* (1975), 123-57.

ويوضح هذا التقرير أن دلائل الاستطيان الحضري في العصور الإسلامية المبكرة تقع في وادي بني خروص في ساحل الباطنة، وهذه الدلائل لا تبنى على آثار لمبان وأطلال معمارية ولكن تعتمد على كسر الفخار والخزف التي تنتشر في هذه المنطقة. وانظر: ترجمة لهذه المقالة بعنوان: "دراسة لآثار عمان"، سلسلة تراثنا، ع٣٩ (سلطنة عمان: وزارة التراث القومي والثقافة، يناير ١٩٨٢م). وانظر: أبحاث منوعة عن تاريخ عمان في العصر الإسلامي والآثار العمانية المختلفة ضمن سلسلة البحوث التي ألقيت في ندوة الدراسات العمانية المنعقدة في عمان (ذي الحجة ١٤٠٠هـ/نوفمبر ١٩٨٠م)، المجلدات ١-١٠ (إصدار وزارة التراث القومي والثقافة، ١٩٨١م).

(٣٣) لعله من المناسب الإشارة إلى بعض ما كتب عن تاريخ عمان في العصر الإسلامي المبكر، فبالإضافة إلى ما ذكرته المصادر المبكرة مثل الطبري، وابن الأثير، وغيرهما انظر: أحمد شلبي، "عُمان في التاريخ من أقدم العصور حتى الآن، "*ندوة الدراسات العمانية*، ١: ١٣-٦٢؛ حبيب الجنحاني، "دور عمان في نشاط التجارة العالمية في العصر الإسلامي الأول، "*ندوة الدراسات العمانية*، ١: ٤٩-٧٤؛ فاروق عمر فوزي، *مقدمة في دراسة مصادر التاريخ العماني* (بغداد، ١٩٧٩م)؛ محمد أرشيد العقيلي، *الخليج العربي في العصور الإسلامية*، ط٢ (بيروت: دار الفكر اللبناني، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م).

(٣٤) Monik Kervran, "Qal'at al-Bahrain: A Strategic Position from the Hellenistic Period until Modern Times," *Bahrain through the Ages. The Archaeology*, ed. by Shaikha Ali Al-Kalifa and & Michael Rice (London, 1986), 462-469.

وانظر: *حفريات قلعة البحرين، الجزء الأول ١٩٧٧-١٩٧٩* م، إعداد مونيك كيرفرن، آرليت ينجر وميشيل بيرازولي (البحرين: وزارة الإعلام، ١٩٨٢م).

(٣٥) السمهودي، *وفاء الوفا*، ٣: ١٠٤٢-١٠٦٣.

(٣٦) إبراهيم رفعت باشا، *مرآة الحرمين*، جزءان (القاهرة: مكتبة دار الكتب المصرية، ١٣٤٤هـ/١٩٢٥م)، ١: ٤٣٨.

(٣٧) محمد لبيب البتنوني، *الرحلة الحجازية*، ط٣ (الطائف: مكتبة المعارف/محمد سعيد كمال، د.ت.)، ١٦٢-١٦٣.

(٣٨) عبد القدوس الأنصاري، *آثار المدينة المنورة*، ط٣ (المدينة المنورة: المكتبة السلفية، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م)، ٤٥-٦١.

(٣٩) عبد القدوس الأنصاري، *آثار المدينة المنورة*، ٢٢١-٢٢٤؛ وانظر لنفس المؤلف، *بين التاريخ والآثار*، ط٢ (بيروت، ١٩٧١م)، ٧٦-٨١.

(٤٠) الأنصاري، *آثار المدينة المنورة*، ٢٢٤. والواقع أن الشيخ عبد القدوس، رحمه الله، بذل جهدا كبيرا في توضيح معالم آثار المدينة المنورة ومواقعها منذ أمد بعيد وذلك عندما صدرت الطبعة الأولى من كتابه *آثار المدينة المنورة* في سنة ١٣٥٣هـ/١٩٣٥م، وهو بذلك يقدم معلومات على قدر كبير من الأهمية للمختصين في الحقل الأثري. وكان من المؤمل أن يُقْدِمْ الباحثون إلى الاستفادة منها في دراساتهم وبالأخص في أعمال المسح الأثري والتنقيب.

(٤١) هو سعيد بن العاص بن أبي أحيحه سعيد بن العاص بن أمية، من أهل المدينة، ولي الكوفة في عهد عثمان بن عفان، واستعمله معاوية بن أبي سفيان غير مرة على المدينة مات سعيد في قصره بالعرصة على ثلاثة أميال من المدينة ودفن بالبقيع وكانت وفاته سنة ٥٧ أو ٥٨هـ، انظر ترجمته في: صلاح الدين المنجد، *معجم بني أمية*، (بيروت: دار الكتاب الجديد، ١٩٧٠م)، ٥٧-٥٨هـ.

(٤٢) الأنصاري، *آثار المدينة المنورة*، ٤٨.

(٤٣) السمهودي، *وفاء الوفا*، ٣: ١٠٥٥.

(٤٤) انظر عنه: السمهودي، *وفاء الوفا*، ٣: ١٠٤٨-١٠٥٠.

(٤٥) الأنصاري، *آثار المدينة المنورة*، ٥١-٦١.

(٤٦) دخل هذا القصر في ملك قاضي المدينة الشيخ محمد الحافظ الذي أحيا كافة منطقة القصر وأعاد استخدام البئر القديمة للقصر وأنشأ مبنى حديثا من أنقاض القصر وقام بزراعة المناطق المحيطة به. أما النقش المذكور فلم نتمكن من مشاهدته عند زيارتنا للموقع. انظر نبذة مختصرة عن القصر في: أحمد ياسين أحمد الخياري، *تاريخ المدينة المنورة قديما وحديثا*، تحقيق عبيد الله محمد أمين كردى، ط٢ (١٤١١هـ/١٩٩٠م)، ١٧٣-١٧٤.

(٤٧) انظر: "مشروع درب زبيدة ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م: تقرير عن المرحلة الأولى لمسح درب زبيدة، "*أطلال*، ١ (١٣٩٧هـ/١٩٧٧م)، ٤٧-٧٢.

(٤٨) عاتق بن غيث البلادي، *معالم مكة التاريخية والأثرية*، ط١ (مكة المكرمة: دار مكة للنشر والتوزيع، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م).

(٤٩) سبق الإشارة لهذا المصدر في تعليقة (٢٤).

(٥٠) ونالد ويتكومب، "*الآثار الإسلامية بواحة الأحساء*، "*أطلال*، ٢ (١٣٩٨هـ/١٩٧٨م)، ١٠٩-١٣٢ (لوحة ٩-١٧).

(٥١) خالد بن جابر الغريب، *منطقة الأحساء عبر أطوار التاريخ*، ط٢ (الخبر: الدار الوطنية الجديدة للنشر والتوزيع، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م)؛ عبدالرحمن بن عثمان آل ملا، *تاريخ هجر*، جزءان (الهفوف: مكتبة التعاون الثقافي، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م).

(٥٢) "التقرير المبدئي عن المرحلة الثانية لمسح المنطقة الشرقية، "*أطلال*، ع٢ (١٣٩٨هـ/١٩٧٨م)، ٧-٢٩؛ وانظر: ١٤-١٥؛ وانظر: دونالد ويتكومب، *أطلال*، ع٢، ١١٣-١١٤.

(٥٣) Abdullah A. F. Al-Dosary, "Carte Archeologique Medievale de la Region D'al-Sargiyya en Arabie Saoudite, " These Doctorat, Universite Lumiere Lyon 2, 1990-1991.

انظر في هذه الأطروحة 148 282، وانظر اللوحات: 129, 132, 56, 51.

(٥٤) راجع ما ذكرناه في بحثنا "الآثار الإسلامية في الجزيرة العربية في عصر الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين (رضى الله عنهم)، "*دراسات تاريخ الجزيرة العربية*، الكتاب الثالث، ١٨٣-١٨٥؛ عبد الرحمن السديري، *الجوف- وادي النفاخ* (د..م.: مؤسسة عبد الرحمن السديري الخيرية، د.ت. إدارة الآثار والمتاحف، *مقدمة في آثار المملكة العربية السعودية* ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م، ٦٥، ٦٦، ٧٨، ٩٠. ومن الدراسات الحديثة عن منطقة الجوف انظر الأطروحة التي قدمها الدكتور خليل المعيقل: Khalil Ibrahim Al-Maikel, "A Critical Study of the Archaeology of the Jawf Region of Saudi Arabia with Additional Material on Its History and Early Arabic Epigraphy, " unpublished Ph. D. Thesis, University of Durham, 1988.

(٥٥) *أطلال*، ١ (١٣٩٧هـ/١٩٧٧م)، ٤٢.

(٥٦) لم يسبق دراسة نقش إثرا- المثبت على واجهة بوابة القصر وعند قراءتنا لهذا النقش على الطبيعة اتضح أنه مبكر يعود إلى القرن الأول الهجري، وذلك بناء على أسلوب كتابة الحروف التي تشبه أسلوب الكتابة في العصر الأموي.

(٥٧) Ali Ibrahim Hamid, "Introduction a l'Etude Archeologique des Deux Routes Syrienne et Egyptienne de Pelerinage au Nord -Quest de Avril, 1988..Ma l'Arabie Saoudite," These Doctorat (Universite de Provence Aix Marseille 1), Avril 1988, 403-10, plts. 196-67.

(٥٨) Hamid, "Introduction," 484-547, plts. 222-59.

(٥٩) عن سدود خيبر والطائف انظر: *أطلال*، ٦ (١٤٠٢هـ/١٩٨٢م)، ١٨-١٩ (لوحة ٢٣-٢٤)، ١٢٥-١٣٤ (لوحة ١٠٥-١٢٣)؛ وانظر: الراشد، " الآثار الإسلامية، " ١٦٥-١٦٧، حاشية (٥٧-٦٤)، ١٩١-١٩٣.

(٦٠) للمزيد من المعلومات عن الربذة انظر للمؤلف: الربذة: *صورة للحضارة الإسلامية المبكرة في المملكة العربية السعودية* (الرياض: جامعة الملك سعود، ١٤٠٦هـ/١٩٧٦م).

(٦١) المابيات موقع أثرى كبير يقع إلى الجنوب من مدينة العلا بحوالي ١٨ كيلا. ويعتقد أنها موضع قرح المذكورة في المصادر الجغرافية المبكرة. للمزيد من المعلومات عن المابيات وقرح انظر:

Abdullah Nasif, *Al-Ula: An Historical and Archaeological Survey with Special Reference to Its Irrigation System* (Riyadh: King Saud University Press, 1988), 111-25.

وعن التنقيبات الأثرية في المابيات انظر: " تقرير مبدئي عن نتائج الاستكشافات الأثرية في موقع المابيات الإسلامي الموسم الأول ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، "*أطلال*، ٩ (١٤٠٥هـ/١٩٨٥م)، ١١٣-١٢٣، اللوحات ٩٩-١١٧؛ "تقرير حفرية المابيات الموسم الثاني ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م."*أطلال*، ١٠ (١٤٠٦هـ/١٩٨٦م)، ٧١-٧٨، اللوحات ٦٥-٧٢.

(٦٢) "تقرير مبدئي عن مسح مناطق التعدين القديمة بجنوب غرب المملكة العربية السعودية، "*أطلال*، ٨ (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م)، ١٠٧-١٣٤، اللوحات ١٠١-١١٦.

(٦٣) *أطلال*، ٥ (١٤٠١هـ/١٩٨١م)، ٢٥-٢٨؛ وانظر: "الاستكشافات الأثرية الحديثة في سهل تهامة الجنوبي موقعي (عثر) و(سهى)، " *أطلال*، ٩ (١٤٠٥هـ/١٩٨٥م)، ٦٩-١١١، اللوحات ٦٩-٩٦؛ *أطلال*، ١٠ (١٤٠٦هـ/١٩٨٦م)، ٤٣، ٦٩، اللوحات ٥٧-٦٤.

(٦٤) Ahmad, Umar Al-Zayla'I, "The Southern Area of the Amirate of Makkah (3rd - 7th / 9th - 13th centuries)," Ph. D. Thesis, Faculty of Arts, Durham University, November, 1983.

(٦٥) صالح بن سليمان الناصر الوشمي (يرحمه الله)، "ولاية اليمامة الإسلامية: دراسة في الحياة الاقتصادية والاجتماعية حتى نهاية القرن الثالث الهجري،" رسالة دكتوراه، قسم التاريخ والحضارة، جامعة الإمام ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، انظر: ٢٧-٣٥.

(٦٦) الوشمي، "ولاية اليمامة،" ٢٣١-٢٤٢.

(٦٧) الوشمي، "ولاية اليمامة،" ١٤٢-١٤٤؛ وانظر: الحربي، *كتاب "المناسك"* ٦١٦-٦٢٠.

(٦٨) *أطلال*، ٣ (١٣٩٩هـ/١٩٧٩م)، ٣٦-٣٧.

(٦٩) *أطلال*، ٣ (١٣٩٩هـ/١٩٧٩م)، ٢٨-٣٢، ٣٣.

(٧٠) *أطلال*، ٤ (١٤٠٠هـ/١٩٨٠م)، ٢٨-٢٩.

(٧١) تنتشر الكتابات الإسلامية في الدوادمي في منطقة ماسل الجمح وبالقرب من الشعراء. وللأسف لم يتيسر حتى الآن جمع هذه الكتابات ونشرها. انظر مثال لهذه الكتابات: *مقدمة في آثار المملكة العربية السعودية*، ٢٢. وعن نقوش القويعية انظر: محمد بن سعود الصنراح، *تاريخ وآثار منطقة القويعية*، (الرياض: إصدار المهرجان الوطني للتراث والثقافة، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م)، ١٤٤-١٦١.

(٧٢) Saad A. Al-Rashid, *Darb Zubaydah The Pilgrim Road from Kufa to Mecca* (Riyadh: University Libraries, 1980).

انظر في هذا الكتاب معلومات مفصلة عن طريق الحج من الكوفة إلى مكة ومعلومات موجزة عن طرق الحج في الجزيرة العربية. وعن النقرة انظر، 25-124 ,87-98.

(٧٣) *مقدمة في آثار المملكة العربية السعودية*، ١٨، ٣٥؛ وانظر: صالح بن سليمان الناصر الوشمي، "الآثار الاجتماعية والاقتصادية لطريق الحج العراقي على منطقة القصيم،" رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، ١٤٠٢-١٤٠٣هـ، ١٦٤-١٧٧، وانظر: اللوحات ١-٥، ٣٢٢-٣٢٦.

(٧٤) صالح الوشمي، "الآثار الاجتماعية،" ١٩٥-٢٠٣.

(٧٥) بالنسبة لشواهد القبور فالأمثلة لدينا كثيرة ولكن المنشور منها محدود ومن أهم الدراسات الحديثة ما قدمه الدكتور أحمد عمر الزيلعي عن منطقة السرين وعشم حيث تناول بعض شواهد القبور انظر: Al-Zayla'I, "The Southern Area."

ولكن المؤرخ من شواهد القبور من عشم يقع في القرن الثالث الهجري وما بعده. وهناك دراسة أخرى عن شواهد قبور من مكة المكرمة قدمها محمد السلوك انظر Muhammad A. S. Al-Salook, "Analytical And Palaeographic Study of Some Early Kufic Inscriptions from Saudi Arabia," unpublished M. A. Thesis, Durham University, 1988.

وتضمن كتاب جروهمان عن النقوش العربية مجموعة من شواهد القبور ولكن ليس من بينها أي شاهد يعود للفترة الأموية، انظر: A. Grohmann, *Arabic Inscriptions* (Louvain, 1962), 4-41. ويقتني متحف جامعة الملك سعود مجموعة من شواهد القبور انظر عنها: حسن الباشا، "أهمية شواهد القبور كمصدر لتاريخ الجزيرة العربية في العصر الإسلامي" *دراسات تاريخ الجزيرة العربية*، الكتاب الأول، (الرياض: مطابع جامعة الملك سعود، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م)، ٨١- ١٢٦، اللوحات ٢٣-٥٤. واشتملت دراسة محمد فهد عبد الله الفعر على بعض شواهد القبور ولوحات تأسيسية من الحجاز، انظر: *تطور الكتابات والنقوش من الحجاز منذ فجر الإسلام حتى منتصف القرن السابع الهجري* (جدة: مطبوعات تهامة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م، ٢١٢-٢١٩، اللوحات: ٣٤، ٣٥، ٣٦، ٤٠٤-٤١٣. وحسب علمنا لا يوجد الآن في الجزيرة العربية أي شاهد قبر مؤرخ من الفترة الأموية ولكنه عثر في موقع الربذة على شواهد قبور غير مؤرخة ولكنها تعود إلى نهاية القرن الأول الهجري وبداية القرن الثاني حيث أمكن تحديد تاريخها من الأسماء الواردة عليها، انظر: *الربذة: صورة للحضارة*، ٧٧، ٧٩.

(٧٦) G.C.Miles, "Early Islamic Inscriptions near Taif in the Hijaz," *JNES* (1948), 236-242, pls.XVII-XVIII; *Grohmann, Arabic Inscriptions*, 56-58.

(٧٧) سبق التنويه في بحث سابق عن بعض النقوش الإسلامية ذات التواريخ المبكرة ومنها نقش الباثه المؤرخ سنة ٤٠هـ، ونقش وادي السبيل (شمال نجران) المؤرخ سنة ٤٦هـ، ونقش الخشنة (شمال مكة المكرمة) المؤرخ سنة ست وخمسين بالإضافة إلى إشارتنا لنقوش الجوف وخيبر؛ انظر: الراشد، "الآثار الإسلامية،" ١٧١، الحواشي ذات الأرقام ٨٤، ٨٥، ٨٦، ٨٨. وفيما يتعلق بنقش الخشنة فقد قمنا بتصحيح الاسم الوارد فيه وهو جهم بن علي بن هبيرة. أما تاريخ النقش، والذي اعتمدنا قراءة أحمد حسين شرف الدين على أن تاريخه ٥٦هـ، فقد أورد سامح عبد الرحمن فهمي تصحيحا لهذا التاريخ بأنه ٥٢هـ وسبب اللبس أن تقرير المسح الأثري من *الأطلال*، ١ (١٣٩٧هـ/١٩٧٧م)، ٧٣-٧٤، لوحة ٤٩-٥٠ جاء فيه تفريغ النقش (لوحة ٥٠/ب) مغاير لصورة النقش (لوحة ٥٠/أ) إذ أن كلمة (تنتين) في صورة النقش جاءت واضحة تماما ورسمت هكذا (سلا) وبذلك فنحن نوافق قراءة سامح عبد الرحمن فهمي بأن تاريخ نقش الخشنة هو ٥٢هـ وليس ٥٦هـ؛ انظر: سامي عبد الرحمن فهمي، "نقشان جديدان من مكة المكرمة مؤرخان سنة ثمانين هجرية"، *مجلة المنهل* (رمضان- شوال ١٤٠٧هـ/مايو- يونيو ١٩٨٧م)، ٣٤٦-٣٦١؛ انظر التصحيح في لوحة (٢)، ٣٤٧.

(٧٨) انظر دراسة الدكتور مشلح كميخ المريخي في أطروحته للدكتوراه من جامعة مانشستر عن نقوش إسلامية من منطقة المدينة المنورة من بينها عدد لا بأس به من النقوش المؤرخة من العصر الأموي.

(٧٩) ناقشنا هذا النص مع مجموعة أخرى من النقوش المؤرخة في كتابنا: *كتابات إسلامية غير منشورة من" رواوة، المدينة المنورة" : دراسة وتحقيق* (الرياض: دار العبيكان، ١٤١٩هـ).

(٨٠) عبد القدوس الأنصاري، "استكشاف آثار إسلامية عريقة على صخور قرب عرفة،" *المنهل*، (محرم ١٣٩٨هـ/ديسمبر- يناير ١٩٧٧/١٩٧٨م)، ٣٩٢-٤٠٠. هذا وقد بنى عبد القدوس الأنصاري دراسته هذه بناءا على صور فوتغرافية ومعلومات قدمها له أحد أبناء مكة وهو "محمد إلياس فالوده" عن نقوش إسلامية متفرقة منحوتة على جبل في منطقة تعرف (بالحرمان) لقربها من حدود الحرم. وتشتمل هذه النقوش على ثلاثة نصوص مؤرخة بالسنوات: ٧٨هـ، ٨٤هـ، ٨٧هـ.

(٨١) محمد الشربيني الخطيب، *شرح شواهد القطر* (القاهرة: ١٣٦٩هـ/١٩٥٠م)، ملحق بكتاب *متن القطر*، تأليف جمال الدين محمد بن يوسف بن هشام الأنصاري، ٣٢-٣٣.

(٨٢) تعرفنا على هذا النقش من خلال الملحق الخاص لكتاب *أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه*، للإمام أبي عبد الله محمد بن إسحاق الفاكهي، دراسة وتحقيق عبد الملك بن عبد الله بن دهيش. وقد أشرنا لذلك في حديثنا عن مكة المكرمة في هذا البحث؛ انظر ج ٥، الملحق الثاني، صورة ١١٠.

(٨٣) *آثار منطقة النماص: نبذة مختصرة عن أهم مكتشفات النماص الأثرية*، إعداد إدارة التعليم بمنطقة النماص- قسم الآثار، ١٤. وقد تفضل الأستاذ سالم مصطفى الحامدى مدير التعليم بالنماص بتزويدي بصور فوتغرافية لبعض النقوش الإسلامية من بينها هذا النقش المدرج في البحث.

(٨٤) المنجد، *معجم بني أمية*، ٩-١٠.

(٨٥) أشرنا إلى هذا النقش لأول مرة في بحثنا عن "الآثار الإسلامية في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين رضى الله عنهم،". انظر: حاشية ٨٤، ١٩٦.

(٨٦) المنجد، *معجم بني أمية*، ١٦١-١٦٢.

(٨٧) ما عرف حتى الآن من نقود إسلامية مضروبة في الجزيرة العربية من العصر الأموي، دينار معدن أمير المؤمنين المضروب سنة ٩١هـ وهو دينار وحيد. انظر: G. C. Miles, *Revue Numismatique*, Vie Serie, Tome XIV (1972).

وهناك أربعة دنانير في متحف الفن الإسلامي بالقاهرة ضربت سنة ١٠٥هـ عليها اسم (معدن أمير المؤمنين بالحجاز)؛ انظر: عبد الرحمن فهمي، *فجر السكة العربية* (القاهرة: مطبعة دار الكتب، ١٩٦٥م، ٣٠٥-٣٠٦، لوحة ٥، رقم ٢٤ و١٢٧-١٢٨-١٣١؛ وانظر:

M. Casanova, "Une Mine D'or au Hidjaz," Extrait du *Bulletin de la Section de Geographie*, Paris, 35 (1920).

وانظر : G.C.Miles, *Rare Islamic Coins*, (New York,1950), 20-21,.IV, 66. وللأستاذ سمير شما رأى حول معنى "معدن أمير المؤمنين ؛" انظر : سمير شما ، "المدينة معدن أمير المؤمنين ، "*مجلة المسكوكات* ، ٧ (١٩٧٦م) ، ١٠٦-١٠٩ . وبالإضافة إلى ذلك المثال من النقود الذهبية هناك بعض الأمثلة من الفلوس النحاسية التي يعتقد أنها من ضرب عمّان. من ذلك ثلاث قطع ضربت سنة ٨١هـ (٧٠٠-٧٠١م) وقطعتان ضربت سنة ٩٠هـ (٧٠٨-٧٠٩م) ؛ انظر : V. Tiesenhausen, *Monety Vostochnavo Chalifata* (St. Petersburg, 1973), no. 334

John Walker, A *Catalogue of the Arab-Byzantine And Post-Reform Umaiyad Coins* (London, 1956), 168, : وانظر .(pl. II no. 5). notice 16, Fig. 24.

(٨٨) عثر في عُمان على كنز فضي يشتمل على ما يزيد على ٩٠٠ قطعة وذلك بالقرب من مجرى مائي يسمى (سيل التهشيت) الذي يبعد حوالي الكيل من قرية سناو القريبة من المضيبي في عُمان الداخلة. ويتكون الكنز من (٦ قطع ساسانية ، ٢ عربية- ساسانية ، ٣٢٨ أموية ، ٥٩٧ عباسية ، ١٤ قطعة متنوعة). ويتراوح تواريخ قطع العملة الإسلامية ما بين سنة ٧٩هـ/٦٩٨م وسنة ٢٢٦هـ/٨٤١م. وتتوزع مجموع النقود الأموية على تسعة وعشرين دار ضرب ليس من بينها أي موضع في جزيرة العرب. ويقع تاريخ ضرب المجموعة الأموية ما بين ٧٩-١٣١هـ/٦٩٨-٧٤٩م) ؛ انظر : N. Lowick. "The Sinaw Hoard of Early Islamic Coins," *The Journal of Oman Studies*, 6: 2 (1983), 199-230, 1-8.

ومن الكنوز الأخرى المكتشفة في الجزيرة العربية كنز شبْرية الصفراء على طرق الحج من الكوفة إلى مكة والذي يتكون من ٤١٤ قطعة من الدراهم الفضية وقد درسها الدكتور سعود ذياب في رسالته للدكتوراه. ومن بين مجموعة الكنز سبع قطع أموية ضربت في واسط ما بين سنة ١٢٥هـ وسنة ١٣١هـ للمزيد من المعلومات انظر :

Saud Theyab, "Monnaies Islamiques des Musees d'Arabie Saoudite," Theses de doctorat, Universite de Paris-Sorbonne, Avril 1990, I: 25-54, I-XII.

وانظر : سعد عبد العزيز الراشد ، " نقود إسلامية مكتشفة في درب زبيدة ، "*اليرموك للمسكوكات* ، ٣ : ١ (١٩٩١م) ، ٤١-٥٦.

(٨٩) Donald Whitcomb, *Aqaba Port of Palestine on the China Sea* (Amman, 1988). وعن العقبة انظر : يوسف حسن درويش غوانمة ، *أيلة (العقبة) والبحر الأحمر* (إربد : دار هشام للنشر والتوزيع ، ١٩٨٤م).

المنشآت المائية في مكة منذ ما قبل الإسلام حتى نهاية العصر الأموي

إلهام أحمد البابطين

قسم التاريخ، مركز الدراسات الجامعية للبنات، جامعة الملك سعود

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

يمثل الماء الحاجة الأساسية لحياة الناس والحيوانات سواء للشرب أم للنظافة أم لأغراض منفعية أخرى، ولذا فتوفره في أية مدينة يعد أهم المرافق على الإطلاق. وللماء في مكة أهمية بالغة وذلك لقلة مصادره من ناحية، وتضاعف أعداد السكان في مواسم الحج من ناحية أخرى، مما يجعل تلبية احتياجاتهم ليست في كل المواسم أمرا ميسورا. ودأب أهل مكة منذ أن استقر فيها قصي بن كلاب وقومه من قريش على حل تلك المشكلة الدائمة عن طريق إنفاق الأموال على حفر الآبار. ولمواجهة تلك المشكلة في موسم الحج خاصة ابتدعت قريش ما يمكن أن يطلق عليه "مؤسسة السقاية"- إن جاز التعبير- وهي توفير الماء للحجاج أيام المواسم، وعادة ما يعهد بهذه المهمة، والتي تعد شرفا لصاحبها، إلى أحد أعيان مكة الأثرياء، فيضع أحواضا في الحرم، وفي أماكن تَجَمُّع الحجاج يملؤها بالماء، ويضيف إليها أحيانا الزبيب، أو العسل ليخفف من ملوحتها.(١) ولا ريب أن توفير الماء وتوفير الطعام (الرفادة) يجعل إقامة الوافدين سهلة ومريحة.

ونظرا لقلة المصادر المائية بمكة وأهميتها، فقد عنيت تواريخ مكة بتعداد الآبار فيها، وزمن حفرها، ومن حفرها، ومن يستفيد منها.(٢)

ومن أقدم الآبار المعروفة في تاريخ مكة، تلك التي حفرها قصي بن كلاب بالأبطح، لتكون سقاية يشربها الحاج والناس، غير زمزم، وسماها "العَجُول" وكان موضعها في دار أم هانيء بنت أبي طالب بالحَزْوَرَة".(٣)

بعد ذلك أخذ أحفاد قصي وأبناؤهم يتنافسون في حفر الآبار؛ فعبد شمس بن عبد مناف بن قصي حفر بئرا سماها "خُمّا"،(٤) وموقعها عند الردم الأعلى "السد" الذي عمل في عهد عمر بن الخطاب ﷺ،(٥) وبئرا أخرى سماها "الطَوِيّ" بأعلى مكة عند الدار البيضاء (دار محمد بن يوسف الثقفي).(٦) وقال فيها:(٧)

إنّ الطَوِيّ إذا ذَكَرتُم ماءَها ... صَوْبُ السماءِ عُذُوبةً وصفَاءَ

وأضافت بعض المصادر إلى الآبار التي حفرها عبد شمس، رُمّ (زُمّ) عند دار خديجة بنت خويلد.(٨)

وحفر ابنه أمية بئرا سماها "الجَفْر،" وهي بطرف أجياد الكبير، والتي أدخلها ياسر، خادم السيدة زبيدة، في المتوضئات التي عملها على باب أجياد،(٩) وقال أمية في الجفر مفتخرا:

أنا حَفَرتُ لِلْحجيجِ الجَفْرَا

ولبني عبد شمس بئران أخريان إحداهما تسمى "أُمّ جعلان،" دخلت في توسعة المسجد الحرام.(١٠) والثانية يقال لها "العَلُوق" بأعلى مكة عند دار أبان بن عثمان.(١١)

أما هاشم بن عبد مناف، فقد حفر بئرا سماها "بَذَّر" على فم شِعْب أبي طالب، ونَثَلَها(١٢) أبو لهب،(١٣) وقال عندما حفرها: "لأجعلنها بلاغا للناس"،(١٤)، ثم حفر بئرا أخرى أسماها "سَجْلَة" في أصل المسجد الحرام بين الصفا والمروة.(١٥)

ولما حفر أبناء عبد مناف آبارهم، وشربوا، وسقوا الناس شق ذلك على العشائر الأخرى، ورأوا أنهم لا ذكر لهم في تلك الآبار، وتداركوا وقوع الشر بينهم بأن حفرت العشائر آبارا مماثلة، يسقون عليها، ويشربون منها.(١٦)

فحفرت بنو عبد الدار بئر"أمّ أحْراد،"(١٧) وحفرت بنو أسد بن عبدالعزى "سُقْية- شُفَيّة"،(١٨) وموضعها في دار أم جعفر، ويقال لها بئر الأسود.(١٩) وحفرت بنو جمح "السُنْبُلَة"(٢٠) في خط الحزامية، بأسفل مكة قبالة دار الزبير بن العوام، ويقال لها بئر أُبَيّ،(٢١) ولهم أيضا بئر "أمّ حَرْدان" عند ردم بني جمح.(٢٢) وحفرت بنو سهم "الغَمْر"،(٢٣) و"مَرَمْرَم- رَمْرَم"، والتي دخلت في المسجد الحرام حين وسعه أبو جعفر المنصور في ناحية بني سهم.(٢٤) وحفرت بنو مخزوم "السُّقْيَا،"(٢٥) ولعلها هي نفسها البئر العظيمة التي عملها عبدالله بن الزبير في السُقْيَا عند مأزمي عرفة، ونَثَلَتْها خالصة، مولاة الخيزران،(٢٦) وحفرت بنو تيم "الثُرَيَّا"،(٢٧) و"الحَفِير"،(٢٨) وهما بئران عبدالله بن جدعان التيمي،(٢٩) وحفرت بنوعامر بن لؤي "النَّقْع".(٣٠)

وقد قام عبدالمطلب بإعادة حفر بئر زمزم،(٣١) واستخرج ماءها، وتتكون من ثلاثة عيون؛ عين حذاء الركن الأسود، وعين حذاء أبي قبيس والصفا، وعين حذاء المروة.(٣٢) وتذكر المصادر: "فلما حفر عبدالمطلب زمزم ترك الناس، أو عامتهم تلك الآبار، وأقبلوا على زمزم لمكانها من البيت؛ ولأنها بئر إسماعيل عليه السلام."(٣٣) ولا نظن أن الأمر كما ذكرت المصادر، فقد يكون الناس فعلا أقبلوا على زمزم لفضل مائها على سائر المياه، ولكن لعل بعض الذين تركوا آبارهم كانت إما غارت مياهها، أو يلاقون عنتا في استخراجه، أو كان لا يستساغ طعم مائها، ومما يؤيد ما نذهب إليه أن كلا من الأزرقي والفاكهي ذكرا تسعا من الآبار حفرت أو نُثِلَت بعد إعادة حفر بئر زمزم.(٣٤)

وكانت آخر بئر حفرت قبل ظهور الإسلام بئر ميمون بن الحضرمي (حليف بني أمية) بأعلى مكة، واستمرت حتى نهاية العهد الأموي.(٣٥)

وعلى الرغم من تفاخر القرشيين في أشعارهم بتوفير الماء للناس والحجاج من آبارهم، [٣٦] فإن الفاكهي أشار في أكثر من موضع بقوله: "وكان بعضهم- فيما ذكروا- يأخذ على بئره الأجر من بعض الناس". [٣٧]

وحفر الآبار كان دافعه في المقام الأول سد حاجة البيوتات والعشائر من الماء، ثم أصبح بعد ذلك يمثل جاها اجتماعيا يتباهى به أصحاب هذه الآبار، وذلك بتيسير ماء الشرب للحجاج.[٣٨] ومسألة المباهاة تلك لا يمكن نكرانها لكن يمكن أن يضاف إليها أغراض عملية أخرى، وهو اجتذاب الحجاج والوافدين إلى مكة، والحصول على فوائد من جراء المبادلات التجارية معهم.

ولا شك أن الازدياد المطرد في حفر الآبار منذ عهد قصي يعكس تزايد السكان من ناحية، وتزايد أعداد الوافدين إلى مكة حجاجا أو تجارا من ناحية أخرى.

وتجدر الملاحظة أن المصادر التي عنيت بتحديد مواقع تلك الآبار تشير إلى وجودها ملاصقة لدور أصحابها، كما ترد في بعض الأحيان عبارة "حفر بئرا في داره"، [٣٩] وهناك أكثر من احتمال في هذا الشأن. فإما أن أصحاب الآبار يشرعون في حفرها أولا، وعند نجاحهم في استخراج الماء يبدؤن في بناء الدور باستخدام ماء الآبار، أو أن البيوت كانت متباعدة بينها فراغات مما يسمح بحفر آبار فيها. وقد تكونان (الدار والبئر) معا في آن واحد. وكثرة افتخارهم في أشعارهم بأنهم يسقون الحجيج تجعلنا نعتقد أنهم كانوا يتركون جوانب من محلاتهم ساحات غير مشغولة بالبناء لتسمح للحجاج ليقيموا فيها، ومن ثم يستخدمون الآبار.

أما في العهد الإسلامي، فقد استمرت بعض مصادر الماء تمد سكان مكة كما كان عليه الحال قبل الإسلام، وأهم هذه المصادر على الإطلاق بئر زمزم. وكان أهل مكة قبل الإسلام يفضلونها على غيرها لارتباط حفرها بسيدنا إسماعيل عليه السلام. ولكن زادت أهميتها وفضلها في الإسلام[٤٠] لما روي عن النبي ﷺ من الأحاديث في فضلها وبركتها منها قوله ﷺ: "ماء زمزم لما شرب له"، [٤١] وقوله ﷺ: "خير ماء على وجه الأرض ماء زمزم، وفيه طعام من الطعم وشفاء من السقم". [٤٢]

ولا بد أن بعض الآبار استمرت تمد سكان مكة بالماء، وقد مَيَّزت بعض المصادر الآبار الإسلامية عن الآبار القديمة؛ فمن الآبار التي ذكرت أنها إسلامية، آبار الأسود بن سفيان بن عبدالأسد المخزومي في أصل ثنية أم قِرْدان.[٤٣] والأسود هذا هو ابن أخ الصحابي أبي سلمة بن سفيان، وقد قتل الأسود مع المشركين في غزوة بدر (٢هـ/٦٢٣م)، [٤٤] وهذا يدل دلالة كبيرة على أن بعض هذه الآبار كانت موجودة قبل الإسلام، ثم استمرت في الإسلام تحمل اسم صاحبها. ولم تكن هذه البئر هي البئر الوحيدة المنسوبة إلى بني مخزوم فهناك بئر أخرى في أجياد يقال لها "بئر الشركاء"، وهي لآل سلمة بن هشام بن المغيرة المخزومي(ت ١٤هـ)، [٤٥] وبئر لزهير بن أبي أمية بن المغيرة المخزومي (ابن عمة النبي عاتكة) بأجياد أيضا.[٤٦] أما بئر عكرمة التي في أجياد الصغير في الشعب الذي يقال له الأيسر، [٤٧] فقد نسبها البعض إلى عكرمة بن خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة المخزومي[٤٨] (ت بعد ١١٤هـ)؛ فإن صحت نسبتها إليه فهي تعود إلى العصر الأموي.

ومما تجدر ملاحظته هو شح المعلومات في المصادر المتاحة حول حفر الآبار في عهد الرسالة المحمدية أو في العهد الراشدي، فقد اتصف هذان العهدان بندرة المعلومات عن حفر الآبار، هذا في الوقت الذي قامت للمسلمين فيه دولة أخذت تعني بمصالحهم وترعى شؤونهم صغيرها وكبيرها، وتوفير المياه يأتي في مقدمتها. وتفسيرنا لذلك أنه ترتب على هجرة المسلمين من مكة إلى المدينة، ثم نزوح أهل مكة بعد ذلك في العهد الراشدي إلى المدينة والأمصار للمشاركة في الفتوحات والنشاطات، أن قل سكان مكة، ومن ثم فقد كانت مصادر المياه تفوق حاجة السكان باستثناء موسم الحج. ولم تسجل المصادر للخلفاء الراشدين حفر آبار جديدة في مكة رغم توافر الأموال والعمال سوى ما قام به أبو بكر الصديق ﷺ في خلافته (١١-١٣هـ/٦٣٢-٦٣٤م) من حفر بئر الياقوته في منى، [٤٩] ولم تكن في مكة نفسها.

وتشير الروايات إلى أن عبدالله بن عامر بن كريز (والي الخليفة عثمان على البصرة ت ٥٩هـ) قد حفر بمكة بئرا بالشعب المنسوب إليه (شعب ابن عامر). [٥٠] ولا نعرف إن كان ابن عامر حفرها في العهد الراشدي، أو في خلافة معاوية.

ويُذكر أن أبا موسى الأشعري (عبدالله بن قيس، حليف سعيد بن العاص من بني عبد شمس، (ت بين ٤٢ و٥٢هـ) هرب بعد فشل مهمته في التحكيم في الخلاف بين علي بن أبي طالب ﷺ، ومعاوية بن أبي سفيان إلى مكة، وذلك سنة ٣٨هـ/٦٥٨م، وأقام فيها، وحفر أثناء إقامته بها بئرا على باب شعب أبي دُبّ (دَخْلة الجِن اليوم) بالحجون، [٥١] ونرجح أن حفرها كان بين سنتي ٣٩ و٤٠هـ/ ٦٥٩و٦٦٠م.

وتسجل المصادر أن أكثر المنشآت المائية بمكة في العهد الأموي قام بها معاوية بن أبي سفيان؛ [٥٢] فقد أجرى عشر عيون في مواقع مختلفة من مكة، وقد ذكرت هذه المصادر أن هذه العيون كانت تسقي نخيلا، وكان له في كل عين مَشْرَعة[٥٣] يردها الناس، وقد جعل على كل عين منها قيما للعناية بها. [٥٤] ونعتقد أنه بعمله هذا كان يهدف إلى خدمة مكة وأهلها تقربا إلى الله، ووفاء للمدينة التي ولد فيها وعاش فيها كل شبابه، وأنه لو كان دافعه العائد الاقتصادي لاستثمر في أراض أكثر خصوبة، وأوفر ماء، وأكثر عمالة. وفي الوقت نفسه تنمية مكة، وإيجاد مصادر للماء، وهذا ليس بغريب على معاوية الذي نسب إليه بناء عدد من السدود في الطائف، والمدينة، وسواهما.

أما مواقع العيون العشر التي اتخذها معاوية[٥٥] فهي: عين في حائط الحمّام (خيف الآرين بالمعلاة)، [٥٦] وفي حائط مُقَيْصَرة، [٥٧] وفي حائط موَرَّش، [٥٨] وفي حائط خُرمان، [٥٩] وفي حائط حِراء، [٦٠] وفي حائط فَخّ، [٦١] وقد كان الناس ينتفعون به، ويشربه مارة الطريق. [٦٢] وفي حائط عوف، [٦٣] وفي حائط الصُفِيّ، [٦٤] وفي حائط ابن طارق بأسفل مكة، [٦٥] وفي حائط بَلْدَح، [٦٦] وفي حائط الرّحا[٦٧] الذي يُذكر أنه أول حائط أجري بمكة في أعراضها، أجراه رومي لمعاوية. [٦٨]

ورجح أحد الباحثين أن طريقة إيصال مياه هذه العيون إلى مكة كانت ببناء قنوات على غرار ما شاهده معاوية في دمشق ونفذه بالمدينة المنورة. [٦٩]

واستمرت هذه العيون تؤدي الغرض، وتخفف من الأزمات المائية التي تعرضت لها مكة حتى أمر الخليفة العباسي هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ/٧٨٦-٨٠٩م) بإصلاح عيون معاوية فعملت وجمعت وصرفت في عين واحدة يقال لها: الرشا، وتسكب في الماجلين اللذين أحدثهما هارون، ويعرفان: بماجلَي هارون بالمعلاة، ثم تسكب في البركة التي عند باب المسجد الحرام، ويذكر الفاكهي: "فتوسع الناس في ذلك بعض السعة، وكانوا إذا انقطع من هذه العيون شيءٌ في شدة من الماء".[٧٠]

وقد ساهم عدد من الميسورين المكيين في حفر الآبار وإجراء والعيون في العهد الأموي منهم طارق بن عبدالرحمن بن المرتفع الكناني[٧١] الذي كان له حائط بأسفل مكة، له عين تمر في بطن وادي مكة وتحت الأرض، وكانت له عين ومشرعة ابتاعها معاوية منه.[٧٢] وسعيد بن عمرو بن سعيد بن العاص الأموي (ت بعد ١٢٠هـ) الذي كانت له عين ببلدح، واستمرت قائمة إلى عهد الأزرقي[٧٣] (ت ٢٥٠هـ). وعين أخرى ببلدح في حائط سفيان، ولا ندري من هو سفيان، ويبدو من سياق الرواية أنه عاش في العهد الأموي.[٧٤]

وكان لآل شوذب (شوذب مولى لمعاوية) بئر على باب المسجد الحرام ودخلت في المسجد الحرام حين وسعه الخليفة العباسي المهدي في سنة ١٦١هـ/٧٧٨م.[٧٥]

كما حفر كثير بن الصلت الكندي (حليف بني جمح ت٧٠هـ) بئرا في داره التي بالثنية، وهي دار طاقة[٧٦]. وحفر عبدالله بن الزبير (ت ٧٣هـ) بئرا بقُعَيْقِعَان عند دوره ودور أقاربه،[٧٧] ومُجَاج ماء لبني عبدالله بن الزبير أسفل مكة.[٧٨] وحفر عبدالله بن صفوان الجمحي (ت ٧٣هـ) أو ابنه عمرو بن عبدالله بن صفوان (ت بعد ٩٦هـ) بئرا يقال لها الطَلوب بأسفل مكة في الشعب المنسوب إلى عمرو بالرَمَضة دون المَيْثِب.[٧٩]

ومن آبار العهد الأموي بئر في الدار البيضاء دار محمد بن يوسف الثقفي، أخي الحجاج، يقال لها الطَوِيّ- كما أسلفنا- درجت عليه بالشراء من عقيل بن أبي طالب، وهي في الأصل بئر لبني عبدشمس، قديمة مطمورة، نثلها عقيل.[٨٠] وبئر الأسود بن أبي البختري (بنو أسد بن عبد العزى ت ٤٠هـ) كانت على باب داره عند الحناطين (الخياطين)، واستمرت إلى العهد العباسي، وأدخلت فيما بعد في الدار الكبيرة للسيدة زبيدة، زوج الخليفة هارون الرشيد.[٨١] وبئر حويطب بن عبد العزى (ت ٥٤هـ) في بطن وادي مكة بين يدي داره في رباع قومه من بني عامر ابن لؤي.[٨٢] وبئر الهشامية عند بئر ميمون بن الحضرمي بأعلى مكة،[٨٣] ولعل ابن هشام الذي تنسب إليه، هو إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي، أو أخوه محمد بن هشام اللذان توليا مكة والمدينة للخليفة الأموي هشام ابن عبدالملك (١٠٥-١٢٥هـ/٧٢٤-٧٤٣م).[٨٤]

ولعل من أضخم مشاريع المياه في مكة في العهد الأموي ما قام بتنفيذه والي مكة، خالد بن عبدالله القسري (٨٦-٩٩هـ/ ٧٠٥-٧١٧م) حيث تذكر المصادر أنه لما حج الناس في سنة ٨٨هـ/٧٠٧م عانوا كثيرا من قلة المياه، وشكا بعض أهل مكة إلى أمير الحج، ووالي الحجاز عمر بن عبدالعزيز للوليد بن عبدالملك (٨٦-٩٦هـ/ ٧٠٥-٧١٥م)، فأخبروه أن مكة قليلة الماء[٨٥] وأنه يخشى على الحجاج من العطش.[٨٦] والمعروف أن الوليد بن عبدالملك

عزل عمر عن ولايته وعين بدلا منه خالد بن عبدالله القسري على مكة (٨٦-٩٦هـ/ ٧٠٥-٧١٥م). وقد أصبح عمر بعد ذلك مستشارا للخليفة في دمشق، ويظهر أنه أشار على الخليفة بمحاولة التقليل من حجم مشكلة الماء بمكة، واستخرج آبارا جديدة، فأمر الوليد بحفر بئر بين الثنيتين، ثنية ذي طوى، وثنية الحجون، وكان ينقل ماؤها فيوضع في حوض من أدم إلى جنب زمزم. وتضيف المصادر "ليعرف فضله على زمزم".[٨٧] والذي نميل إليه أن الغاية من إحضار الماء في حوض في الحرم كان لمواجهة الحاجة الشديدة للماء أكثر من كونها رغبة في مضاهاة ماء زمزم.

ويبدو أن مشكلة قلة الماء في مكة ظلت تشغل بال بعض الخلفاء في دمشق، وقد يعود سبب المشكلة إلى أن بعض الآبار غار ماؤها إضافة إلى زيادة السكان المطردة في مكة. وقد كلف الخليفة سليمان بن عبدالملك (٩٦-٩٩هـ/٧١٥-٧١٧م) واليه على مكة خالد بن عبدالله القسري سنة ٩٦هـ/٧٠٥م بأن يجري له عينا من الثَّقَبة (بين حراء وثبير) بأصل جبل ثُبَيْر فأنبط خالد الماء، وعمل بركة بحجارة منقوشة طوال، يقال لها بركة القسري، وبركة السَروي، وبركة البَرْدى، وأحكمها ثم شق لها فلجا يسكب فيها من الثقبة، ثم شق لها عينا تخرج إلى المسجد الحرام، فأجراها في قصب من رصاص حتى أظهرها من فوارة تسكب في فَسْقِيَّة من رخام بين زمزم والركن والمقام. ثم تفرغ الفسقيّة في سَرَب من رصاص يخرج إلى موضع وضوء كان عند باب المسجد، باب الصفا في بركة كانت في السوق.[٨٨] واستمر هذا المشروع يؤدي وظيفته حتى أوائل العهد العباسي، عندما قدم إلى مكة داود بن علي بن عبدالله بن عباس- والى مكة من قبل الخليفة أبي العباس السفاح- سنة ١٣٢هـ/٧٤٩م فرفع الفسقية، وهدم البركة التي جعلها خالد عند باب الصفا، وصرف العين إلى بركة كانت بباب المسجد.[٨٩]

وهناك عدد من الآبار كانت خارج مكة في المشاعر وغيرها، وإن أصبحت بعض هذه المناطق في الوقت الحاضر داخل مكة. ومن هذه الآبار: ثلاثة آبار في اللاحِجَة السلمات لآل خالد بن العاص،[٩٠] رَكَايا قدامة بن مظعون الجمحي (ت ٣٦هـ) حذاء أضاءة النَبَط (القبط) بعرنة في شقها الذي يلي مكة.[٩١] وعمل عبدالله بن الزبير بئر السُقْيَا عند مأزمي عرفة كما أسلفنا،[٩٢] وبئر خُـمّ، وهي لآل زُريق بن وهب الله المخزومي، ولعلهم أعادوا حفرها فهي تعود إلى العصر الجاهلي.[٩٣] وبئر البَرُود بفَخّ أسفل من شعب المبَيّضة حفرها خراش (محرّش) بن أمية الكعبي الخزاعي.[٩٤] وثلاثة آبار بذي طوي: بئر وردان، (مولى المطلب السائب بن أبي وداعة السهمي)،[٩٥] وبئر أم النعمان،[٩٦] وبئر بَكّار (رجل من أهل العراق سكن مكة).[٩٧]

أما مِنى ففيها من الآبار الياقوتة التي سبق أن ذكرنا أن الذي حفرها الخليفة أبو بكر الصديق ﷺ في خلافته (١١-١٣هـ/٦٣٢-٦٣٤م)، وعملها الحجاج بن يوسف الثقفي بعد مقتل ابن الزبير (٧٣هـ/٦٩٢م) وضرب فيها، وأحكمها.[٩٨] وحفر خالد القسري بئرا عند مأزمي منى على يسار الذاهب إلى مِنى من مكة، يقال لها القسرية،[٩٩] وبئر الصَلاصِل بفم شعب البيعة عند عقبة منى،[١٠٠] وآبار عمرو بن عثمان بن عفان ﷺ بمنى بالشعب الذي ينسب إليه (شعب عمرو)، وكانت في القرن الثالث الهجري يشرب منها الناس، وينقلون ماءها إلى مضاربهم.[١٠١]

وحفر محمد بن المرتفع بن النضر بن الحارث الكناني بئرا فوق الأنصاب إلى طريق العراق، وتعرف ببئر ابن المرتفع.[١٠٢]

ولم تقتصر المشاريع المائية على حفر الآبار، وإجراء مائها، بل تعدى ذلك إلى إنشاء مجامع للماء سواء، كانت تلك المجامع ملاصقة للآبار، أو بعيدة عنها وإنما يوصل إليها الماء عن طريق القنوات، وذلك من أجل تيسير الحصول على الماء في كل وقت تقريبا. وتعددت أسماء هذه المجامع فسميت حياضا، وبركا، وسقايات، ومشارب، ومشارع. ولا نعرف على وجه الدقة واليقين الاختلافات بين هذه المسميات التي من المؤكد أنها تشترك في وظيفة واحدة هي تقديم الماء للمستقين. ولعل الحياض من أبسط ما ذكر. والذين أنشأوا هذه المجامع هم أنفسهم الذين حفروا الآبار، وقد قاموا بذلك إما بحكم مسؤوليتهم عن شؤون المسلمين والحاج خاصة، مثل أبي بكر وعمر ومعاوية وعبدالله بن الزبير والوليد بن عبدالملك وسليمان بن عبدالملك، أو من الميسورين الذين قاموا بهذه الأعمال تقربا إلى الله، وطلبا للأجر.

قال الفاكهي عن السقايات: "وبمكة في فجاجها وشعابها من باب المسجد إلى منى ونواحيها ومسجد التنعيم نحوٌ من مائة سقاية"[١٠٣] يسقى منها الماء، ويشرب منها الناس. وحديث الفاكهي عن العهد العباسي؛ أما في العهد الأموي، فقد لا تكون السقايات بهذا العدد لكننا نعتقد أنها كانت كثيرة. نذكر منها سقاية معاوية بالُمحَصَّب وبمنى،[١٠٤] وسقاية أهيب بن ميمون،[١٠٥] ولعله ابن ميمون بن الحضرمي صاحب البئر السابق ذكرها.[١٠٦] وسقاية سراج بفخ، كانت لسراج (مولى بني هاشم).[١٠٧]

كان أهل مكة قبل الإسلام يتخذون الحياض، ونعتقد أنهم استمروا كذلك وذلك لسهولة نقل الجلد واستخدامه في أي مكان، لكن مع استمرار استخدام الجلد اتجهوا لبناء الحياض لأنها تتسع لأضعاف ما يتسع له الجلد، وتتحمل أكثر مما يتحمل، وقد مرت عملية البناء تصميما ومواد بتطورات متعاقبة.

ومن أوائل الأحواض التي أقيمت لسقاية الحاج والناس في الحرم عند بئر زمزم عندما نثلها عبدالمطلب. وكانت سقاية الحاج من أهم الوظائف في مكة. وقد ورث أبوطالب بن عبدالمطلب عن أبيه السقاية، ثم تنازل أبو طالب عن السقاية لأخيه العباس،[١٠٨] ثم أقره رسول الله ﷺ بعد فتح مكة[١٠٩]، وظلت في أبناء العباس بعد ذلك، وكان للعباس كرم بالطائف فيأتون بنبيذه ويضعونه إلى ماء زمزم لتحسين طعمه.[١١٠]

وكان لزمزم حوضان؛ حوض بينها وبين الركن يشرب منه الماء، وحوض من ورائها للوضوء له سرب يذهب فيه الماء إلى جهة الصَّفا.[١١١]

وقد جرت على حوض الماء، والمنشآت العمرانية الأخرى تحسينات مستمرة، فقد كان عرضه عندما جاء العهد العباسي طبقا لما يقرره الفاكهي: "من وسطه اثني عشر ذراعا، وتسع أصابع في مثله، وذرع تدوير الحوض من داخل تسعة وثلاثون ذراعا، وذرع تدويره من خارج أربعون ذراعا. وهو مفروش بالرخام".[١١٢]

ويأخذ غلمان زمزم الماء من الحوض، ويصبونه في جرار، جعلت في جوف قبة زمزم، فيُبَرّد الماء في هذه الجرار، ثم يسقى الناس غدوة وعشية في الكيزان. ويأخذ غلمان زمزم دلاء من أدم، فيملؤنها من هذا الماء المبرد، ثم يطوفون بها على الخلق في المسجد الحرام، فيشرب الناس منها.(١١٣)

وكان الناس بجانب شرب ماء زمزم يتوضؤن به- كما أسلفنا- فأخرج ابن الزبير في زمن إمارته (٦٤-٧٣ هـ/ ٦٨٤-٦٩٣م) الوضوء إلى الوادي إلى جنب المسجد.(١١٤)

وكان للمطعم بن عدي بن نوفل بئر (سَجْلَة) درجت عليه من عبد المطلب، وأذن عبد المطلب لعدي أن يضع حوضا عند زمزم من أدم يستقي منها، ويسقي الحاج. وظلت البئر حتى العهد العباسي،(١١٥) ولا نعرف إن كان الحوض ظل كذلك.

وكان الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ﷺ (١٣-٢٣هـ/٦٣٤-٦٤٤م) قد كلف أحد رجاله بإنشاء حياض في الحرم، وعندما قدم عمر ﷺ إلى مكة، ورأى الرجال والنساء يتوضؤن من حوض واحد فرَّق بينهم، وقال لذلك الرجل معاتبا: " ألم آمرك أن تتخذ حياضا للرجال، وحياضا للنساء!"(١١٦) ولا بد أنه تم بعد ذلك إنشاء تلك الحياض.

وكان خالد القسري قد أمر سنة ٨٩هـ/٧٠٧م بحفر بئر بين الثنيتين (ثنية ذي طوى، وثنية الحجون)- كما أسلفنا- فكان يُنْقل ماؤها ويوضع في حوض من أدم إلى جنب زمزم.(١١٧) وذكر الفاكهي في حائط عوف حوضين.(١١٨)

وكان عبدالله بن عامر بن كريز أول من اتخذ الحياض بعرفة، وأجرى إليها عينا،(١١٩) وتعرف سبعة حياض لعبدالله بن عامر، في سوق عرفة، يستقي الناس منها، ويغتسلون يوم عرفة وفي غيره، استمرت قائمة حتى نهاية العهد الأموي.(١٢٠) والمرجح أن إيصال الماء إلى حياض ابن عامر كان من حوائط ابن عامر عبر قنوات إلى عرفة.(١٢١) وعمل عبدالله بن الزبير الحياض بمزدلفة.(١٢٢) ولعله كان يمد الماء إليها من البئر الكبيرة المسماة بالسُقْيَا التي عملها ابن الزبير بعرفة كما أسلفنا.(١٢٣) بينما كان الناس قبل هذه المشاريع يتروون بذي المجاز إلى عرفة، لأنه لا ماء بعرفة ولا مزدلفة.(١٢٤)

وأنشأ والي مكة (إبراهيم أو محمد) ابن هشام المخزومي حياضا بمفضى مأزمي منى،(١٢٥) وربما أن المياه كانت تمد إليها من بئر نافع بن علقمة حيث تقع هناك.(١٢٦) أما حياض الياقوتة بمنى،(١٢٧) فلعلها أنشئت من قبل الحجاج ابن يوسف الثقفي حيث يُنسب إليه عمل بئر الياقوتة، كما أسلفنا.(١٢٨)

وحياض مَجَنّة عند قبور الشهداء بالحَصْحاص، من وراء المربع، تملأ من بئر البرود، وهي من أعذب ماء بمكة.(١٢٩)

وتفيد بعض الإشارات أن هناك أحواضا أو مشارع خاصة للوضوء، ولشرب الحيوانات، وغسيل الملابس والأواني ولا تختلط مع الأحواض الخاصة للشرب، ومما ذكر من هذه الأحواض حوض أسفل من الصفا لسقاية الحيوانات،(١٣٠) وحوض الحُمُر في حائط عوف.(١٣١)

واتخذ بعض المكيين أحواضا لسَقْي حيواناتهم الخاصة، وأحيانا لسَقْي الضالة من الحيوانات، مثلما فعل سراقة بن مالك بن جُعْشم الكناني المدلجي (ت ٢٤هـ) الذي كانت له حياض يملؤها لإبله، وتسقى فيها الإبل الضالة أيضا.[١٣٢] وجعل صدقة بن يسار الجزري (مولى لبعض أهل مكة ت حوالي ١٣٢هـ) لحمام مكة- الحرم- حوضا مصهرجا، ويصب لهن فيه الماء.[١٣٣]

وعمل الحجاج بن يوسف الثقفي سِدَادا تحبس الماء بالنِّصْع، وبطن الأفيعية، يقال لها: السداد الأعظم، وهي ثلاثة أ سِدّة، بشعب عمرو بن عبدالله بن خالد، وصدرها يقال له النِصْع؛ منها السد الكبير الذي يقال له: أثال في صدر شعب عمرو، وجعله على وادي مكة، وجعل مفيضه يسكب في سدرة خالد، وهو على يسار من أقبل من شعب عمرو. فأما السدان الآخران، فإنهما على يمين من أقبل من شعب عمرو، وهما يسكبان في أسفل مِنى لتسهم في توفير الماء لسكان مكة إبان ولايته عليها.[١٣٤] وسداد أبي جِرَاب (عبدالله بن محمد بن عبدالله بن الحارث بن أمية الأصغر/بني عبد شمس) أسفل من عَقبة مِني دون القبور، على يمين الذاهب إلى مِنى. عمله في ولاية إبراهيم بن هشام على مكة والمدينة، بغير إذنه فأمر إبراهيم بأن يغوروا تلك البئر، وبدفن سداده.[١٣٥]

وأشارت المصادر إلى وجود بعض البرك في أحياء مكة مثل بركة البطحاء عند شعب ابن يوسف، وبركة عند الخياطين (الحناطين) قرب السوق الصغير، وأخرى عند سوق الحطب بأسفل مكة.[١٣٦]

وهناك مصادر مياه مؤقتة، وهي الأماكن التي تتجمع فيها مياه الأمطار، يجتمع الناس حولها وتستخدم لسقي الحيوانات أو لاستخدامات الغسيل، فعندما يكثر تساقط الأمطار على مكة تسهم في توفير الماء من خلال ما يتجمع منها بكمية كبيرة في بعض المواقع. منها: النبعة، وهي ردهة تمسك الماء التي في جبل المَيْثب،[١٣٧] وفي الرَمَضَة موضع يقال له النبعة، وهي مياه يجتمع بعضها إلى بعض.[١٣٨] والجِفّة ردهة يجتمع فيها الماء من حنكة الحل إلى المضيق منها: الرماق[١٣٩]. وذات اللجب ردهة أسفل اللاحجَة تمسك الماء.[١٤٠] والأضاءة: في الوادي، وهي خبت يجتمع سيل وادي مكة فيه[١٤١]. منها: أضاءة لَبَن التي يطل عليها جبل لَبَن.[١٤٢] وأضاءة الحمام عند الجبل الذي يقال له الحُبْشي، يحبس الماء بين أضاءة لبن وبين الحُبْشَي.[١٤٣] وردهة بَشَام (بشائم) تصب فيها أضاءة لبن تمسك الماء فيها، بعضها في الحل وبعضها في الحرم.[١٤٤] والعَقْلة ردهة تمسك الماء في أقصى الشيق.[١٣٥] وهناك مواضع يجتمع فيها الماء في أيام الربيع والخريف منها: الأصْفى (المَصْافي) بالدحضة.[١٤٦] وهناك محبس للأمطار عند الجَرّ والميزاب بأجياد.[١٤٧] وفي قائد بين قرن ابن شهاب وبين ثنية آل زُرَيق الدنيا، يجتمع الماء إذا جاء المطر.[١٤٨]

وهناك من مصادر الماء الماجل، فسَّره أهل اللغة أنه ماء يستنقع في أصل جبل أو واد من النزّ لا من المطر. وبمكة في أصل جبل أبي قبيس ماجل يستنقع فيه الماء، وربما فاض حتى تغسل فيه الغسالات الثياب.[١٤٩] ولعله ماء سعد الذي ذكر ياقوت أنه يجري في أصل جبل أبي قبيس يغسل القصّارون فيه.[١٥٠] وعند حائط عوف ماجلان.[١٥١] وفي حائط ابن طارق ماجلان أيضا.[١٥٢]

وفي المزدلفة مسايل يسيل فيها الماء إذا كان المطر يقال لها الحِبَال، وهي ثلاثة أقصاها مما يلي الموقف.(١٥٣) وفي النِسْوة (أحجار في محجة مكة إلى عرفة)، يفرع سيل القفيلة من ثور.(١٥٤)

أما عن طرق صرف الماء فكانوا يجعلون لأحواض الوضوء سَرَبا يذهب فيه الماء إلى حفر، أو إلى برك، أو غير ذلك؛ مثل السَّرَب الذي اتخذ لحوض زمزم المخصص للوضوء، فكان يجري فيه الماء إلى بركة في السوق عند باب الصفا إلى الوادي.(١٥٥) وجعل الحجاج بن يوسف مغيض سداده في سدرة خالد.(١٥٦)

وفي أواسط العهد الأموي ظهر تطور واضح في طرق الصرف، فقد استخدم والي مكة، خالد القسري، سربا من رصاص يخرج إليه ماء الوضوء إلى البركة التي كانت عند باب الصفا في السوق.(١٥٧)

وتتخذ السرج والمصابيح على الآبار، وتشعل ليلا مثل المصباح الذي كان على بئر زمزم، وكان كبيرا.(١٥٨) ويقال إن خالد القسري أول من وضع مصباح زمزم يضيء لأهل الطواف مقابل الركن الأسود، وكان مصباح زمزم قبل ذلك على عمود طويل مقابل الركن.(١٥٩) وكان ذلك المصباح عبارة عن قبة من شبه (نحاس أصفر) فوق أسطوانة ساج يسرج بالقبة بالليل لأهل الطواف.(١٦٠)

وكان لا بد من تغطية الآبار، وتحصينها بالأسوار والحديد خشية أن يقع فيها أحد. ويذكر الأزرقي أن زمزم لم يكن عليها شباك في العهد الأموي حتى عمل ذلك الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور.(١٦١)

ويتم رفع الماء من الآبار إما بواسطة الرجال من السقاة، أو الخدم، أو العبيد، أو بواسطة الجمال، أو الحمير، أو البغال. والأدوات المستخدمة في هذه العملية هي الغروب، أو الدلاء التي ينزع بها الماء، وتربط بالحبال المسماة بالأرشية- مفردها رِشَاء-، ثم تصب الغروب أو الدِلاء في أحواض عند فوهة البئر(١٦٢).

وينقل الماء إلى المنازل إما بواسطة الرجال أو النساء من السقاة، أو يحمل فوق الجمال أو البغال أو الحمير ويستخدمون لذلك: الدلاء، السَجْال، القِرَب، الأدْواء، الشّنان، الرَاوية، المَزادة، الأنطاع، الجرار، القوارير.(١٦٣)

وأدخلت في العهد الأموي تقنية جديدة وهي نقل الماء عن طريق القنوات الأرضية كما فعل ابن طارق بن المرتفع الكناني، ومعاوية بن أبي سفيان، وخالد بن عبدالله القسري،(١٦٤) إلا أن القنوات تنقل الماء للاستخدام العام، وليس للاستخدام الخاص.

وفي ختام البحث نخلص إلى النتائج الآتية:

- مكة المكرمة بلد حُرِم من المياه الجارية على سطح الأرض، فكان طبيعيا أن يلجأ ساكنوها إلى استنباط حاجتهم من الماء من باطن الأرض بواسطة الآبار.

- كانت تغذي مكة والمشاعر قبيل الإسلام مجموعة من الآبار إلى جانب بئر زمزم.

- بعد فتح مكة ٨هـ، زاد عدد الوافدين إليها، لكون الحج ركنا من أركان الإسلام، وفضائل العمرة، الأمر الذي تطلب زيادة بذل جهود المسلمين في سبيل تأمين احتياجاتهم من الماء، وقد لاحظ رسول الله ﷺ أهمية بئر

زمزم، وسقاية الناس والحجاج، فأقر يوم فتح مكة مؤسسة السقاية وأقر عمه العباس عليها. وعلى نهج رسول الله سار الخلفاء الراشدون، ولم تقتصر عنايتهم عند حد بئر زمزم فحسب، وإنما شملت هذه العناية بقية الآبار في مكة والمشاعر.

- إذا كان عصر رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين - رضي الله عنهم - قد اقتصر في توفير الماء لأهل مكة وحجاج بيت الله الحرام على العناية بالآبار وتعميرها، فقد تطور الأمر مع بداية ظهور العصر الأموي إلى إنشاء قنوات خاصة تحمل مياه بعض العيون التي كانت تغذي مزارع في مواقع مختلفة من مكة فأجريت لمصلحة عموم المسلمين.

- لم يقتصر الاهتمام بأمر توفير المياه لأهل مكة، والوافدين إليها من حجاج، ومعتمرين، ومنتفعين على الخلفاء، والولاة، بل تعداه إلى الموسرين من أهل مكة وغيرهم، وقد تجلى ذلك الحرص في حفر آبار جديدة، وإصلاح الآبار القديمة، وتزويدها بالأحواض، والبرك، والسقايات، والمشارب وسواها. وإجراء العيون، وإقامة بعض السداد بغية إمداد المدينة المقدسة بكفايتها من المياه الصالحة للشرب.

- مشكلة نقص المياه استمرت قائمة بالرغم من هذه الأعمال الجليلة التي قام بها المسلمون، وهذا يعكس زيادة عدد السكان والحجاج. فقام المسؤولون بإصلاح وإقامة الكثير من المنشآت المائية لخدمة هذه المدينة المقدسة. واتجهوا إلى زيادة الاهتمام بجلب المياه من خارج منطقة الحرم، فوضعت المشروعات واعتمدت لها الأموال اللازمة لإنجاز مد القنوات منها إلى منطقة الحرم والمشاعر.

والله أسأل التوفيق والسداد.

مواقع الآبار والبرك والحياض والعيون بمكة حتى نهاية العصر الأموي.



الخريطة مستقاة من خرائط إبن دهيش: محقق أخبار مكة، جـ٥ خريطة رقم ٣، ٤ مع إدخال بعض التعديلات بما يوافق طبيعة الدراسة.

١- بئر خم
٢- بئر بذر
٣- بئر المطعم بن عدي
٤- بئر الطوى .
٥- بئر الجفر
٦- بئر العلوق .
٧- بئر شفية .
٨- بئر سنبلة
٩- بئر أم حردان
١٠- بئر ميمون بن الحضرمي
١١- بئر الأسود بن البختري
١٢- بئر حويطب بن عبد العزى
١٣- بئر الصلاصل .
١٤- بئر أجياد .
١٥- بئر خم السفلى
١٦- بئر أبي موسى الأشعري
١٧- بئر البرود .
١٨- بئر بكار .
١٩- بئر الهشامية .
٢٠- بئر كثير بن الصلت
٢١- بئر عبدالله بن الزبير .
٢٢- بئر الحمام .
٢٣- بئر ابن عامر .
٢٤- بئر الياقوتة .
٢٥- آبار عمرو بن عثمان
٢٦- بئر الشركاء .
٢٧- بئر عكرمة .
٢٨- بئر الطلوب .
٢٩- بئر السقيا .
٣٠- آبار الأسود بن سفيان المخزومي
٣١- بئر إبن المرتفع .
٣٢- بئر وردان .
٣٣- بئر أم النعمان .
٣٤- بركة القسري ١
٣٥- بركة الصفا .
٣٦- بركة الخياطين .
٣٧- بركة الثنية .
٣٨- بركة سوق الحطب .
٣٩- بركة الحصحاص .
٤٠- بركة القسري ٢ .
٤١- بركة القسري ٣ .
٤٢- بركة شعب علي .
٤٣- حياض مجنة
٤٤- حياض الياقوتة
٤٥- حياض إبن هشام (الهشامية)
٤٦- حياض زمزم .
٤٧- سقاية سراج .
٤٨- عين ومشرعة حائط فخ
٤٩- عين ومشرعة حائط عوف
٥٠- عين ومشرعة حائط الصفا
٥١- عين ومشرعة حائط خرمان
٥٢- عين ومشرعة حائط مقيصرة
٥٣- عين القسري
٥٤- عين ومشرعة حائط مورش .
٥٥- عين ومشرعة حائط حراء
٥٦- عين ومشرعة حائط إبن المرتفع .
٥٧- عيون ومشارع وادي بلدح .
٥٨- سداد أبي حراب .
٥٩- ركايا قدامة .
٦٠- السداد الأعظم .

التعليقات

(١) محمد بن إسحاق المطلبي (ت ١٥١هـ)، *السير والمغازي*، تحقيق سهيل زكار، ط١ (دمشق: دار الفكر، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م)، ٦٨-٦٩؛ عبدالملك بن هشام المعافري (ت ٢١٨هـ)، *السيرة النبوية*، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبدالحفيظ شلبي، ط٢ (بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت.)، ١: ١٧٨؛ محمد بن عبدالله الأزرقي (ت ٢٥٠هـ)، *أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار*، تحقيق رشدي ملحس، ط٣ (بيروت: دار الثقافة، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م)، ١: ١١٠، ١١٥، ٢٦٧؛ أحمد بن يحيى البلاذري (ت ٢٧٩هـ)، *أنساب الأشراف*، تحقيق سهيل زكار ورياض زركلي، ط١ (بيروت: دار الفكر، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م)، ٤: ٢٣؛ عبدالملك بن محمد الثعالبي النيسابوري (ت ٤٢٩هـ)، *ثمار القلوب في المضاف والمنسوب*، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٥م)، ٦٧٧؛ عبدالرحمن بن الجوزي (ت ٥٩٧هـ)، *مثير الغرام الساكن إلى أشرف الأماكن*، تحقيق مصطفى الذهبي، ط١ (القاهرة: دار الحديث، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م)، ٣٢٥؛ أبو السعادات المبارك بن محمد بن الأثير (ت ٦٠٦هـ)، *منال الطالب في شرح طوال الغرائب*، تحقيق محمود الطناحي (القاهرة: مطبعة المدني، ١٣٧٥هـ)، ١-٣؛ *النهاية في غريب الحديث والأثر*، تحقيق طاهرالزاوي ومحمود الطناحي (بيروت: المكتبة العلمية، د.ت.)، ٣: ٣٨١؛ محمد بن محمد ابن الضياء (ت ٨٨٥هـ)، *تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبر الشريف*، تحقيق عادل العدوي (مكة: المكتبة التجارية، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م)، ٧٢-٧٣؛ علي بن عبدالقادر الطبري (ت ١٠٧٠هـ)، *الأرج المسكي في التاريخ المكي وتراجم الملوك والخلفاء* (مكة: المكتبة التجارية، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م)، ٣٢٢.

(٢) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢١٤-٢٣٢؛ محمد بن إسحاق بن العباس الفاكهي المكي (ت ٢٧٩هـ)، *أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه*، تحقيق عبدالملك بن دهيش (مكة: مكتبة النهضة الحديثة، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م)، ٤: ٩٦-١٢٨؛ محمد بن أحمد الفاسي (ت ٨٣٢هـ)، *شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام*، تحقيق عمر تدمري (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م)، ٢: ١٤١-١٤٣؛ وانظر: ابن هشام، *السيرة*، ١: ١٤٧-١٥١؛ البلاذري، *فتوح البلدان*، لجنة تحقيق التراث، ط١ (بيروت: مكتبة الهلال، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)، ٥٦-٥٩.

(٣) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢١٥؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ٩٧؛ البلاذري، *فتوح*، ٥٦؛ عبدالله بن عبدالعزيز البكري (ت ٤٨٧هـ)، *معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع*، تحقيق مصطفى السقا، ط٣ (بيروت: عالم الكتب، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)، ٣: ٩٢٣؛ عبدالرحمن السهيلي (ت ٥٨١هـ)، *الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام*، تحقيق طه عبدالرءوف سعد (القاهرة: مؤسسة مختار، مكتبة الكليات الأزهرية، ١٩٧٢م)، ١: ١٧٢؛ محمد بن موسى الحازمي (ت ٥٨٤هـ)، *ما اتفق لفظه وافترق مسماه في الأماكن والبلدان* (استانبول: مكتبة السليمانية، ١٤٠٧هـ)، ٢٧١؛ شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الحموي (ت ٦٢٦ هـ)، *معجم البلدان* (بيروت: دار صادر، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م)، ٤: ٨٧؛ الفاسي، *شفاء*، ٢: ١٤٢؛ ابن الضياء، *تاريخ*، ٧٢. والحَزْوَرَة كانت سوق مكة، بفناء دار أم هانيء ابنة أبي طالب التي كانت عند الحناطين (الخياطين) ودخلت في المسجد الحرام. الأزرقي، *تاريخ*، ٢: ٢٩٤، الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ٢٠٦، ٢٠٧؛ ياقوت، *البلدان*، ٢: ٢٥٥. وذكر ابن دهيش (محقق كتاب *أخبار مكة* للفاكهي، ٤: ٦٠٢، هامش١) أنها جهة باب أم هانيء وجهة السوق الصغير.

(٤) وخُم بئر مرة بن كعب بن لؤي قريبة من الميثب وحفر كلاب بن مرة بئرا أسماها خُما خارجا من مكة وكان لآل زريق بن وهب الله المخزومي بئر خُم وهي جاهلية. الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ٩٨، ١٠٤، ١١٤؛ وانظر: السهيلي، *الروض الآنق*، ١: ١٧٤. وذكر عاتق ابن غيث البلادي، *معالم مكة التاريخية والأثرية*، ط٢ (مكة المكرمة: دار مكة، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)، ٩٦-٩٧؛ *معجم معالم الحجاز*، ط١ (مكة المكرمة: دار مكة، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م)، ٣: ٩٥١، أن خم اليوم شعبتان جنوب المسجد الحرام على قرابة خمسة أكيال، أحدهما تدعى خُما، والأخرى خميما، وعند اجتماع الشعبتين توجد بئر كان فيها الماء إلى عهد قريب، ربما هي بئر خم. وذكر ملحس (محقق كتاب *أخبار مكة* للأزرقي، ٢: ٢١٦، هامش ١) أن موقع بئر خُم اليوم بئر الدشيشة بالكمالية.

(٥) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢ : ٢١٥ (ولم يذكر أن اسمها خم)؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤ : ٩٨؛ البلاذري، *فتوح*، ٥٧؛ البكري، *معجم*، ٢ : ٥١٠؛ الحازمي، *ما اتفق لفظه*، ١٦٠؛ ياقوت، *البلدان*، ٢ : ٣٨٩.

(٦) ابن هشام، *السيرة*، ١ : ١٤٨، الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢ : ٢١٧، ٢٢١؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤ : ١٠٠-١٠١؛ البلاذري، *فتوح*، ٥٧؛ ياقوت، *البلدان*، ٤ : ٥١. ودار ابن يوسف هي دار المولد النبوي، التي هي الآن مكتبة مكة التابعة لوزارة المعارف، وبقرب هذه الدار بئر قديمة على يسار الداخل إلى شعب علي، فلعلها هي بئر الطوي. الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤ : ١٠٠، هامش٢ للمحقق.

(٧) الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤ : ١٠١؛ البلاذري، *فتوح*، ٥٧.

(٨) البلاذري، *فتوح*، ٥٧؛ البكري، *معجم*، ٢ : ٥١٠؛ ياقوت، *البلدان*، ٢ : ٣٨٩. ولم يذكر مؤرخا مكة الأزرقي والفاكهي أن عبدشمس حفر بئرا بهذا الاسم، بل ذكرا أن رُمّا بئرٌ حفرها كلاب بن مرة خارجا من مكة؛ الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢ : ٢٢٠- ٢٢١؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤ : ١٠٤؛ وانظر: السهيلي، *الروض الأنف*، ١ : ١٧٤. ودار خديجة هي بيت النبيﷺ وعنها انظر: الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤ : ٧-٨.

(٩) ابن هشام، *السيرة*، ١ : ١٤٩ (وقد سماها الحفر)؛ الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢ : ٢١٨؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤ : ١٠١؛ البلاذري، *فتوح*، ٥٧؛ الحازمي، *ما اتفق لفظه*، ١٤٣؛ ياقوت، *البلدان*، ٢ : ١٤٧. وذكر البلاذري أن الذي حفرها عبدشمس، بينما ذكر الحازمي وياقوت أنها بئر بني تيم بن مرة.

(١٠) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢ : ٢١٨؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤ : ١٠١.

(١١) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢ : ٢١٨؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤ : ١٠٢. ودار أبان بن عثمان بن عفان هذه على رأس ردم عمر عند مسجد الجودرية؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤ : ١٠٢، هامش ١ للمحقق.

(١٢) أي أخرج ترابها؛ ابن الأثير، *النهاية*، ٥ : ١٦؛ محمد بن مكرّم ابن منظور (ت ٧١١ هـ)، *لسان العرب المحيط*، تحقيق يوسف خياط (بيروت: دار لسان العرب، د.ت.)، ٣ : ٥٧٩.

(١٣) ابن هشام، *السيرة*، ١ : ١٤٨؛ الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢ : ٢١٦، ٢٢١؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤ : ٩٨، ٩٩، ١٠٨؛ البلاذري، *فتوح*، ٥٧؛ الفاسي، *شفاء*، ٢ : ١٤٢. وذكر ياقوت (*البلدان*، ١ : ٣٦١) أنها بئر لبني عبدالدار. وشعب أبي طالب هو الشعب الذي فيه مولد النبي ﷺ يعرف اليوم بشعب علي؛ الطبري، *الأرج*، ٩٦؛ البلادي، *معالم*، ٣٨، ١٤٥؛ البلادي، *معجم*، ٥ : ٥٦؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٣ : ٢٦٤، هامش ٢ للمحقق.

(١٤) ابن هشام، *السيرة*، ١ : ١٤٨؛ الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢ : ٢١٦؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤ : ٩٨؛ الفاسي، *شفاء*، ٢ : ١٤٢.

(١٥) ابن هشام، *السيرة*، ١ : ١٤٨؛ الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢ : ٢١٧، ٢٢١؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤ : ٩٩؛ البلاذري، *فتوح*، ٥٧؛ البكري، *معجم*، ٣ : ٧٢٤؛ السهيلي، *الروض الأنف*، ١ : ١٧٣؛ ياقوت، *البلدان*، ٣ : ١٩٣؛ الفاسي، *شفاء*، ١ : ٥٤٣، ٢ : ١٤٢؛ ابن الضياء، *تاريخ*، ٧٢، ٩٨. ويقال إن الذي حفر سَجْلَة قصي. وقد وهبها أسد بن هاشم لعدي بن نوفل، وهي بئر المطعم بن عدي (بنو نوفل). وقد دخلت بئر سَجْلَة اليوم في التوسعة؛ البكري، *معجم*، ٣ : ٧٢٤؛ السهيلي، *الروض الأنف*، ١ : ١٧٢؛ ياقوت، *البلدان*، ٣ : ١٩٣؛ البلادي، *معجم*، ٤ : ١٧٥.

(١٦) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢ : ٢٢٢-٢٢٣؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤ : ١٠٨-١٠٩.

(١٧) ابن هشام، *السيرة*، ١ : ١٤٩؛ الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢ : ٢٢٢؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤ : ١٠٧؛ البلاذري، *فتوح*، ٥٧؛ السهيلي، *الروض الأنف*، ١، ١٧٣؛ ياقوت، *البلدان*، ١ : ١١٠. ولم يذكروا موضع هذه البئر.

(١٨) ابن هشام، *السيرة*، ١ : ١٤٩؛ الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢ : ٢١٨-٢١٩، ٢٢٢؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤ : ١٠٢؛ البلاذري، *فتوح*، ٥٧؛ البكري، *معجم*، ٣ : ٧٢٤، ٧٢٥؛ السهيلي، *الروض الأنف*، ١ : ١٧٤؛ ياقوت، *البلدان*، ٣ : ٢٢٩، ٣٥٣. وموضع بئر سُقْيَة

عند باب الخياطين أي مقابل باب إبراهيم الآن وقد دخلت في توسعات المسجد الحرام ؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤ : ١٠٢، هامش ٢ للمحقق.

(١٩) الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤ : ١٠٢.

(٢٠) ابن هشام، السيرة، ١ : ١٤٩ ؛ الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢ : ٢١٩، ٢٢٢ ؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤ : ١٠٢، ١٠٣ ؛ البلاذري، *فتوح*، ٥٨ ؛ البكري، *معجم*، ٣ : ٧٢٥، ٧٥٩ ؛ السهيلي، *الروض الأنف*، ١ : ١٧٥. وذكر ابن دهيش (الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤ : ٣٠١، هامش ١) ولعل بئر السنبلة هي البئر التي دخلت في المسجد الحرام ويقال لها بئر الداودية وموضعها بين باب إبراهيم وبين باب الوداع ولا زالت قائمة في أقبية المسجد الحرام.

(٢١) الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤ : ١٠٣.

(٢٢) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢ : ٢١٩ ؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤ : ١٠٣. وذكرا أنه لا يدري من حفرها ثم صارت لبني جمح. ولا وجود لهذه البئر اليوم، إذ أن جانب بني جمح وهو الشق الغربي المطل على المسجد الحرام كله هدم وأصبح فضاء واسعا يلحق بالمسجد الحرام ؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤ : ١٠٣، هامش ٣ للمحقق.

(٢٣) ابن هشام، *السيرة*، ١ : ١٤٩ ؛ الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢ : ٢٢٠، ٢٢٢ ؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤ : ١٠٣ ؛ البلاذري، *فتوح*، ٥٧ ؛ البكري، *معجم*، ٣ : ٧٢٦، ١٠٠٣ ؛ السهيلي، *الروض الأنف*، ١ : ١٧٥ ؛ الحازمي، *ما اتفق لفظه*، ٢٩٦ ؛ ياقوت، *البلدان*، ٤ : ٢١١. ولم يذكروا موضع هذه البئر.

(٢٤) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢ : ٢١٩ ؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤ : ١٠٣.

(٢٥) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢ : ٢٢٣ ؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤ : ١٠٧ ؛ البلاذري، *فتوح*، ٥٨. ولم يذكروا موضع هذه البئر.

(٢٦) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢ : ٢٢٤، ٢٢٧ ؛ وانظر : ٢٢٣ ؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤ : ١١٦، ١٧٣. وموقع بئر السقيا اليوم عند بستان الخَمّاشية. وهو سقيا عبدالله بن الزبير الواقعة على يمين النازل من عرفات على الطريق رقم (٧)، وقد اندثر البستان وبقيت البئر وآثاره، الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤ : ١٠٧، هامش ٢ للمحقق ؛ ٤ : ١٧٣، هامش ١ للمحقق أيضا.

(٢٧) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢ : ٢٢٣ ؛ البلاذري، *فتوح*، ٥٨ ؛ الحازمي، *ما اتفق لفظه*، ٨٥ ؛ ياقوت، *البلدان*، ٢ : ٧٧. ولم يذكروا موضع هذه البئر.

(٢٨) الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤ : ١٠٨. وذكر البلاذري (*فتوح*، ٥٨) أن الحفير بئر حفرها بنو عدي بن كعب. ولم يذكرا موضع هذه البئر.

(٢٩) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢ : ٢٢٣ ؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤ : ١٠٨.

(٣٠) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢ : ٢٢٣، البلاذري، *فتوح*، ٥٨. ولم يذكرا موضع هذه البئر.

(٣١) لمزيد من التفاصيل انظر : ابن هشام، *السيرة*، ١ : ١٤٢-١٤٧، الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢ : ٤٢-٤٩ ؛ البلاذري، *أنساب*، ١ : ٨٦ ؛ الفاسي، *شفاء*، ١ : ٣٩٨، أحمد بن محمد الأسدي (ت ١٠٦٦هـ)، *إخبار الكرام بأخبار المسجد الحرام*، تحقيق غلام مصطفى، ط١ (الهند : الجامعة السلفية بنارس، إدارة البحوث الإسلامية، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م)، ١٣٥.

(٣٢) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢ : ٦١ ؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٢ : ٧٤ ؛ أحمد بن عمر بن رسته (ت ٢٩٠هـ)، *الأعلاق النفيسة* (ليدن : مطبعة بريل، ١٨٩١هـ)، ٣٦ ؛ الفاسي، *شفاء*، ١ : ٣٩٩ ؛ سعد الله بن عمر الأسفرائيني (ت ٧٨٦هـ)، *زبدة الأعمال*، ط١ (مكة : مكتبة نزار مصطفى الباز، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م)، ١٥٠.

(٣٣) ابن هشام، *السيرة*، ١ : ١٤٨، ١٥٠ ؛ الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢ : ٤٤، الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤ : ١١٢، أبو زكريا محيي الدين بن شرف النووي (ت ٦٧٦ هـ)، *تهذيب الأسماء واللغات* (بيروت : دار الكتب العلمية ؛ القاهرة : إدارة الطباعة المنيرية، د.ت)، ٣ : ١ : ١٣٩.

(٣٤) عن هذه الآبار انظر : الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢ : ٢٢٢، ٢٢٣-٢٢٤ ؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤ : ١١٢-١١٤.

(٣٥) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٢٢؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١٠٤-١٠٥؛ البلاذري، *فتوح*، ٥٧؛ البكري، *معجم*، ٤: ١٢٨٥؛ ياقوت، *البلدان*، ١: ٣٠٢؛ الفاسي، *شفاء*، ١: ٥٤٨؛ ابن الضياء، *تاريخ*، ٩٨. واسم الحضرمي عبدالله بن عباد (عماد- حماد) بن أكبر بن ربيعة بن مالك بن أكبر بن عويف بن مالك بن الخزرج بن أبي بن الصَّدِف الحضرمي، وكان عبدالله الحضرمي قد سكن مكة وحالف حرب بن أمية. يوسف بن عبدالله بن عبدالبر القرطبي (ت ٤٦٣هـ)، *الاستيعاب في معرفة الأصحاب*، ط١ (القاهرة: مطبعة السعادة، ١٣٢٨هـ)، طبع بهامش *كتاب الإصابة* لابن حجر، ٣: ١٤٦؛ علي بن محمد بن الأثير (ت ٦٣٠هـ)، *أسد الغابة في معرفة الصحابة*، تحقيق محمد البنا وآخرين (القاهرة: مطبعة دار الشعب، د.ت.)، ٤: ٧٤-٧٥؛ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، *الإصابة في تمييز الصحابة*، ط١ (القاهرة: مطبعة السعادة، ١٣٢٨هـ)، ٢: ٤٩٧-٤٩٨. وموضع بئر ميمون اليوم دخل في قصر الملك فيصل الذي هو مقر الإمارة اليوم في الحي المسمى الجعفرية بين أذاخر والحجون؛ البلادي، *معالم*، ٣٧؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١٠٦، هامش المحقق؛ ٤: ١١٦، هامش ٢ للمحقق.

(٣٦) الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ٩٧، ٩٩، ١٠١، ١٠٣.

(٣٧) الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١٠٩، ١١٠.

(٣٨) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢١٤-٢٣٢؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ٩٦-١١٩.

(٣٩) على سبيل المثال: كانت دار جبير بن مطعم (بنو نوفل ت٥٧-٥٩هـ) على بئره (دخلت في توسعة المهدي للمسجد الحرام)؛ وبئر الأسود بن أبي البختري (بنو أسد بن عبد العزى ت ٤٠ هـ) على باب داره (دخلت في دار زبيدة الكبرى عند الخياطين، واستمرت قائمة في أسفل الدار إلى زمن الفاكهي- ت ٢٧٩هـ)، وبئر حويطب بن عبدالعزى (بنو حسل بن عامر بن لؤي ت ٥٤هـ) بفناء داره (موضعها أول سوق الجودرية الآن)، وبئر زهير بن أبي أمية بن المغيرة المخزومي (ابن عمة النبي عاتكة) في داره يقال لها بئر أجياد، ولكثير بن الصلت الكندي (حليف بني جمح ت ٧٠هـ) بئر في داره التي بالثنية (كُدَى) السفلى بالشبيكة أو ربع الرّسام. الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٢٤؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٣: ٣٠٠؛ ٤: ١٠٠، ١١٣، ١١٤، ١١٦؛ ياقوت، *البلدان*، ١: ٢٩٨. وعن مواقع هذه الدور انظر: الفاكهي، *أخبار مكة*، ٣: ١٣٥، هامش ٥ للمحقق؛ ٤: ١١٦، هامش ٣ للمحقق، ١١٣؛ هامش ٤ للمحقق، ١١٦، هامش٣ للمحقق.

(٤٠) حول فضائل زمزم انظر: الفاكهي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٤-٥٨.

(٤١) محمد بن يزيد ابن ماجة (ت ٢٧٥هـ)، *سنن ابن ماجة*، تحقيق محمد عبدالباقي (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، د.ت.)، ٢: ١٠١٨؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٧.

(٤٢) الفاكهي، *أخبار مكة*، ٢: ٤٠، ٤١؛ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (ت ٣٦٠هـ)، *المعجم الكبير*، تحقيق حمدي السلفي، ط٢ (دهوك، ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م)، ١١: ٩٨؛ علي بن أبي بكر الهيثمي (ت ٨٠٧ هـ)، *مجمع الزوائد ومنبع الفوائد* (بيروت: منشورات مؤسسة المعارف، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م)، ٣: ٢٨٦.

(٤٣) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٢٥، ٢٩٣؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١١٨؛ البلاذري، *فتوح*، ٥٩؛ ياقوت، *البلدان*، ١: ٢٩٨. والثَّنِيَّة الطريق في الجبل كالنَّقْب، وكل عَقَبة مسلوكة في الجبل؛ ابن منظور، *اللسان*، ١: ٣٨١؛ الزبيدي، *تاج*، ١: ٦٢. أما ثنية أم قِرْدان فيوجد اليوم ربع خلف جبل بُشَيْم بـ (١كم) يقال له ربع القرادي، فلعله المقصود بها. وآبار الأسود يظهر أنها أكثر من بئر فهناك آبار الأسود بالقرب من بئر ابن الزبير بالخَمّاشية؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١١٨، هامش ٢ للمحقق؛ قارن: الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢١٩، هامش ١ للمحقق.

(٤٤) ابن هشام، *السيرة*، ٢: ٧١٢؛ محمد بن عمر الواقدي (ت ٢٠٧هـ)، *المغازي*، تحقيق مارسدن جونس، ط٣ (بيروت: عالم الكتب، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م)، ١: ١٥١؛ ابن الأثير، *أسد الغابة*، ١: ١٠٤.

(٤٥) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٢٤، ٢٥٨؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١١٧.

(٤٦) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٢٤؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١١٤.

(٤٧) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٢٥، الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١١٧؛ البلاذري، *فتوح*، ٥٨؛ ياقوت، *البلدان*، ١: ٣٠١. والشعب الأيسر يسمى في شق مسفلة مكة اليماني: شعب المتكأ، وهو بأقصى شعب أجياد الصغير؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١١٧، هامش ٤ للمحقق؛ ٢: ٢٥٢، هامش ١ للمحقق.

(٤٨) البلاذري، *فتوح*، ٥٨؛ ياقوت، *البلدان*، ١: ٣٠١.

(٤٩) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٢٤؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١١٧. وذكر ابن دهيش؛ الأزرقي، *أخبار مكة*، في هامش١) أن الياقوتة تبعد عن جمرة العَقَبة أقل من ثلاث كيلومترات، ولا تعرف اليوم.

(٥٠) الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١١٦؛ وانظر: الفاسي، *شفاء*، ١: ٥٤٥. وشعب ابن عامر يطلق عليه اليوم شعب عامر؛ البلادي، *معالم*، ١٤٦؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١١٦، هامش ٥ للمحقق. وذكر الأخير (الموضع نفسه) أنه كان في شعب عامر أكثر من بئر فقد كانت على فوهته بئر، وفي أقصاه بئر يقال لها بئر الحمام موضعها مقابل المسجد الكبير بهذا الشعب.

(٥١) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٢٥؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١١٤؛ البلاذري، *فتوح*، ٥٨؛ ياقوت، *البلدان*، ١: ٣٠٢. وعن أبي موسى الأشعري انظر: ابن الأثير، *أسد الغابة*، ٦: ٣٠٦-٣٠٧. وذكر ابن دهيش في الفاكهي، *أخبار مكة* (٤: ١١٤، هامش٣) أن هذه البئر هي التي كانت تسمى (بئر غَيْلَمَة) بفوهة دَحْلة الجن (شعب أبي دُبّ) وكانت العامة تسميها (حوض أبي طالب) وقد دثرا وأدخلا عندما وسع شارع المسجد الحرام. وذكر البلادي (*معجم*، ١: ١٦٨) أن كل الأرض التي يدفع عليها شعب أبي دب اليوم داخلة في مقبرة المعلاة الشرقية.

(٥٢) ويذكر الفاكهي، *أخبار مكة*، ٣: ٢٢٦ أن أول من أجرى عينا بمكة هو معاوية بن أبي سفيان.

(٥٣) مَشْرَعة الماء هي مورد الشاربة التي يشرعها الناس فيشربون منها ويستقون، وربما شرعوها دوابهم حتى تشرعها وتشرب منها؛ ابن منظور، *اللسان*، ٢: ٢٢٩.

(٥٤) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٢٩؛ ابن قتيبة، *عيون*، ١: ٢١٤؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٣: ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٩٠؛ ٤: ١٢١، ١٢٢-١٢٣، ١٢٨؛ البلاذري، *أنساب*، ٥: ٢٦؛ الفاسي، *شفاء*، ١: ٥٥٢؛ ابن الضياء، *تاريخ*، ١٠٠.

(٥٥) حدد بعض الباحثين مواقع العيون التي أنشأها معاوية في المعلاة والحجون والشهداء، وذكر بعضها في ضواحي مكة؛ أحمد السباعي، *تاريخ مكة: دراسات في السياسة والعلم والاجتماع والعمران*، ط٤ (مكة المكرمة: دار مكة، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م)، ١: ١٢٥.

(٥٦) محمد بن سعد بن منيع الزهري (ت ٢٣٠هـ)، "الطبقة الرابعة ممن أسلم عند فتح مكة ومن بعدهم،" تحقيق عبدالعزيز السلومي، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة أم القرى، قسم الحضارة والنظم الإسلامية، مكة المكرمة، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م، ١٢٠-١٢١؛ الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٢٨؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١٢٨. وموقع حائط الحمّام اليوم في سوق الجودرية؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١٢٧، هامش ٢ للمحقق؛ قارن: الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٢٧، هامش ٣ للمحقق.

(٥٧) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٢٩؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١٢٢. وموضع حائط مقيصرة اليوم أعلى مدخل الملاوي مقابل جبل سقر الذي يشرف على الخنساء من الغرب، ولا زالت بعض الآبار قائمة في ذلك المكان إلى اليوم؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١٢٢، هامش ٣ للمحقق؛ قارن: الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٢٩، هامش ٣ للمحقق.

(٥٨) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٢٩؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١٢٣. وموضع حائط مورش اليوم في البياضية دبر قصر السقاف، وآباره لم تدفن إلا سنة ١٤٠٣هـ؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١٢٣، هامش ٢ للمحقق.

(٥٩) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٢٩؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١٢٣-١٢٤. وموضع حائط خُرمان اليوم الخرمانية؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١٣٢، هامش ٣ للمحقق.

(٦٠) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٢٩؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١٢٤. وموضع حائط أسفل حراء ولا زالت بئره قائمة إلى اليوم؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ص١٢٤، هامش ١ للمحقق؛ وانظر: الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٣٠، هامش ١ للمحقق.

(٦١) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٣٠؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١٢٥. ولا يزال حائط ف خ قائما إلى اليوم، وموقعه في الشهداء؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١٢٥، هامش ٣؛ ٢: ٣٢٠، هامش ١ للمحقق.

(٦٢) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٣٠؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١٢٥.

(٦٣) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٢٨؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١٢١. وموضع حائط عوف اليوم في الكمالية مقابل بناية البريد المركزي غمره العمران؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١٢١، هامش ١ للمحقق.

(٦٤) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢، ٢٢٨-٢٢٩؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١٢٢. وموضع حائط الصُفَيّ في شعب الصفِيٌ وهو الجميزة الآن وكانت عينه جارية إلى عهد غير بعيد؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١٢٢، هامش ١ للمحقق.

(٦٥) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٢٩؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١٢٥. وكان موضع حائط ابن طارق بالمسفلة عند موقف السيارات المتعدد الأدوار الآن، وكان قرب موضع هذا الموقف بركة تسمى (بركة ماجل)؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١٢٥، هامش ١ للمحقق.

(٦٦) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٣٠؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١٢٦. وموضع حائط بلدح في وادي بلدح، والأخير اليوم يبدأ من حي الشهداء وينتهي بالحديبية (الشميسي). وأشهر حوائط وادي بلدح هي الحوائط القائمة في أم الدود (أم الجود)، وبستان القزّاز، وبستان أم الدرج؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١٢٦، هامش ٢ للمحقق.

(٦٧) الفاكهي، *أخبار مكة*، ٣: ٢٢٩. والرَّحا لم يتيسر لنا تحديد موضعها حاليا من خلال المراجع المتيسرة، وانظر عنها: البلادي، *معجم*، ٤: ٣٧.

(٦٨) الفاكهي، *أخبار مكة*، ٣: ٢٢٩.

(٦٩) عادل غباشي، "المنشآت المائية لخدمة مكة المكرمة والمشاعر المقدسة في العصر العثماني،" رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤١٠هـ، ٧٦.

(٧٠) الفاكهي، *أخبار مكة*، ٣: ١٥٢؛ الفاسي، *شفاء*، ١: ٥٥٣؛ ابن الضياء، *تاريخ*، ١٠٠. والماجل سيرد ذكره ضمن مصادر الماء. وذكر ابن دهيش في تحقيقه *لأخبار مكة* للأزرقي، ٣: ١٥٢، هامش٢؛ وموضع الماجلين يقابل بناية البريد المركزي الآن، وأنت نازل إلى مكة.

(٧١) لعله ابن طارق، حيث إن طارق توفي في خلافة عمر بن الخطاب، كما أن المصادر سمت الحائط باسم حائط ابن طارق، إلا إذا كان ابن طارق قد اشتراه ثانية وهذا مالم تشر إليه المصادر، بل أوضحت استمرار ملكيته لنبي أمية؛ الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٢٩؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١٢٥؛ وانظر: الفاسي، *العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين*، تحقيق محمد الفقي، ط٢ (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م)، ٥: ٥٥.

(٧٢) الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١٢٥؛ وانظر: الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٢٩. وموضع العين بالمسفلة، عند موقف السيارات المتعدد الأدوار الآن، وكان قرب موضع هذا الموقف بركة تسمى (بركة ماجل)؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١٢٥، هامش ١ للمحقق.

(٧٣) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٣٠.

(٧٤) الأزرقي، *أخبار مكة*، ، ٢: ٢٣٠.

(٧٥) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٢٥؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١١٥؛ البلاذري، *فتوح*، ٥٨؛ ياقوت، *البلدان*، ١: ٣٠٠. ويقال إن شوذبا كان مولى لطارق بن علقمة بن عويج بن جذيمة الكناني، أو أنه مولى لنافع بن علقمة بن صفوان بن أمية بن محرث بن خمل بن شق الكناني؛ البلاذري، *فتوح*، ٥٩؛ ياقوت، *البلدان*، ١: ٣٠٠.

(٧٦) الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١١٦؛ وانظر: تعليقة ٣٩ من هذا البحث.

(٧٧) الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١١٦.

(٧٨) البكري، *معجم*، ٤: ١١٦١؛ وانظر: ياقوت، *البلدان*، ٥: ٥٥.

(٧٩) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٢٥، الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١١٨؛ البلاذري، *فتوح*، ٨٥؛ البكري، *معجم*، ٣: ٨٩٣، وذكر في ص٩٥٥ أنها تقع على الطريق من المدينة إلى مكة؛ ياقوت، *البلدان*، ١: ٣٠١. والرَمَضة مايسمى اليوم بقُوز النَكّاسة والمَيْثِب مطل على قوز النكاسة من الشرق، وهذه البئر لازالت موجودة على اليسار عندما تتجه إلى أسفل مكة، وهي البئر الموجودة في بستان عبدالله كعكي وهي بئر قديمة كبيرة وقد خطط هذا البستان وأصبح منطقة سكنية؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١١٨، هامش٣ للمحقق.

(٨٠) الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١١٢-١١٣؛ البلاذري، *فتوح*، ٥٨؛ وانظر: تعليقة ٦ من هذا البحث.

(٨١) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٤٢٢؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١١٣؛ البلاذري، *فتوح*، ٥٨؛ ياقوت، *البلدان*، ١: ٢٩٨؛ وانظر: تعليقة ٣٩ من هذا البحث.

(٨٢) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٢٤؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١١٣؛ البلاذري، *فتوح*، ٥٨. وموضع بئر حويطب بن عبدالعزى في أول سوق الجَوْدرية الآن؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١١٣، هامش ٤ للمحقق؛ وانظر: تعليقة ٣٩ من هذا البحث.

(٨٣) الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١١٦؛ وانظر: تعليقة ٣٥ من هذا البحث.

(٨٤) إلهام البابطين، *الحياة الاجتماعية في مكة منذ ظهور الإسلام حتى نهاية العصر الأموي* (الرياض: مطابع الخالد، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م)، ٤٧٦.

(٨٥) الجدير بالذكر أن موسم سنة ٨٨هـ يوافق شهر نوفمبر ٧٠٧م، وهذا الوقت عادة ليس موسم قلة مياه في مكة بل هو موسم الأمطار الخريفية (الوسم)، إلا أن تكون تلك السنة سنة جفاف، وهو ما قد يحدث.

(٨٦) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠ هـ)، *تاريخ الرسل والملوك*، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٤ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٩م)، ٦: ٤٣٨؛ إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي (ت ٧٧٤هـ)، *البداية والنهاية في التاريخ*، ط٢ (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٣٨٧هـ)، ٩: ٨٣؛ النجم عمر بن فهد (ت ٨٨٥هـ)، *إتحاف الورى بأخبار أم القرى*، تحقيق فهيم شلتوت، ط١ (مكة: مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م)، ٢: ١١٣-١١٤.

(٨٧) الفاكهي، *أخبار مكة*، ٣: ٦٠؛ الطبري، *تاريخ*، ٦: ٤٠٤؛ ابن الأثير، *الكامل في التاريخ* (بيروت: دار صادر، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م)، ٤: ٥٣٦؛ ابن كثير، *البداية والنهاية*، ٩: ٨٤؛ النجم بن فهد، *إتحاف الورى*، ٢: ١١٤؛ الطبري، *الأرج المسكي*، ٣٣٧؛ وانظر: البلاذري، *أنساب*، ٩: ٥٨؛ وذي طوى هو ما يسمى اليوم بالعُتَيْبِيّة؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ٢١٥، هامش ٣ للمحقق؛ وانظر: البلادي، *أودية مكة المكرمة*، ط١ (مكة: دار مكة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م)، ٢٢؛ البلادي، *معجم*، ٥: ٢٣٧؛ مجهول، *كتاب في أحوال الحرمين الشريفين* (مكة: مكتبة نزار الباز، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م)، ٦٩، ١٣٦.

(٨٨) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ١٠٧، ١٠٨-١٠٩؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٢: ٨٢؛ ٣: ١٤٩-١٥٠، ١٥١؛ أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر اليعقوبي (ت ٢٨٤هـ)، *تاريخ اليعقوبي* (بيروت: دار صادر، د.ت.)، ٢: ٢٩٣-٢٩٤؛ محمد بن أحمد الذهبي (ت ٧٤٨هـ)، *تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام*، تحقيق حسام الدين القدسي (شبرا: مطبعة القدس، د.ت.)، ٥: ٤٢٩؛ الفاسي، *العقد*، ٤: ٢٧٣-٢٧٥، ٣٥٠؛ النجم بن فهد، *إتحاف الورى*، ٢: ١٢٣-١٢٥، ١٦٩؛ عز الدين عبدالعزيز بن عمر بن فهد (ت ٩٢٢هـ)، *غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام*، تحقيق فهيم شلتوت، ط١ (مكة المكرمة: مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م)، ١: ١٩٨-١٩٩، ٣٠٠. والثَقَبَة تعرف اليوم بالغَسّالة، ولا زال السد الذي أقامه خالد القسري قائماً إلى اليوم في مدخل حي الغسالة، وفي أقصى الشعب جدا بئر مطوية بصخور يغلب على الظن أنها بئر خالد القسري؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١٦٨-١٦٩، هامش ٢ للمحقق؛ وانظر: ٣: ١٤٩، هامش ١ للمحقق. وتسميتها ببركة السَرَوي نسبة إلى سَرَاة اليمن، وخالد القسري منهم؛

الفاكهي، *أخبار مكة*، ٣: ١٤٩، هامش ٢ للمحقق. والفلج الجدول، والبئر الكبيرة، والماء الجاري من العين، أو الساقية التي تجري إلى جميع الحائط؛ ابن منظور، *اللسان*، ٢: ١١٢٥؛ محمد مرتضى الزبيدي (ت ١٢٠٥هـ)، *تاج العروس من جواهر القاموس* (بيروت: منشورات مكتبة الحياة، د.ت.)، ٢: ٨٧. والقصب كل شيء مستدير أجوف، والمراد هنا الأنابيب الرصاص؛ ابن منظور، *اللسان*، ٣: ٩٥؛ الزبيدي، *تاج*، ١: ٤٣٠؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٣: ١٤٩، هامش ٤ للمحقق. والفوّارة منبع الماء، ويطلق عليه اليوم النافورة؛ ابن منظور، *اللسان*، ٢: ١١٤٣؛ الزبيدي، *تاج*، ٣: ٤٧٦؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٣: ١٤٩، هامش٥ للمحقق. والفَسْقيَّة المتوضأ والجمع الفساقي، الزبيدي، *تاج*، ٧: ٤٩؛ قارن: الفاكهي، *أخبار مكة*، ٣: ١٥٠، هامش ١ للمحقق. والسَّرْب الطريق، ابن منظور، *اللسان*، ٢: ١٢٦؛ الزبيدي، *تاج*، ١: ٢٩٥.

(٨٩) الفاكهي، *أخبار مكة*، ٢: ٨٢؛ ٣: ١٥١؛ الفاسي، *العقد*، ٤: ٢٧٥، ٣٥٠؛ النجم بن فهد، *إتحاف الورى*، ٢: ١٦٩؛ عز الدين بن فهد، *غاية المرام*، ١: ١٩٩، ٣٠٠؛ الطبري، *الأرج المسكي*، ٣٣٨.

(٩٠) الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١٩٦. واللاحِجة السلمات هي من كُدَيّ وهو ما يسمى الآن حي الهجرة؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١٩٦، هامش ٣ للمحقق. وخالد بن العاص لعله ابن هشام بن المغيرة المخزومي (ت بعد ٤٨هـ)؛ ابن الأثير، *أسد الغابة*، ٢: ١٠٠؛ الفاسي، *العقد*، ٤: ٢٦٨.

(٩١) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٢٤؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١١٣. وأضاءة النَبَط كان يعمل فيها نَبَط بعث بهم معاوية بن أبي سفيان يعملون الآجر لدوره بمكة فسميت بهم. لا تعرف بهذا الاسم اليوم بل تقوم عليها قرية تعرف باسم الهَمْدانية؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١٠٢؛ و هامش ١ للمحقق. والركايا جمع ركية وهي البئر؛ ابن منظور، *اللسان*، ١: ١٢٢٠؛ الزبيدي، *تاريخ*، ١: ١٥٥.

(٩٢) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٢٤، ٢٢٧؛ وانظر: ٢٢٣؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١١٦، ١٧٣؛ وانظر: ابن الأثير، *النهاية*، ٣: ١٩٥، وانظر: تعليقة ٢٦ من هذا البحث.

(٩٣) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢١٤؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ٩٧، ١٠٤، ١١٤. ويذكر ابن دهيش أنها لا زالت قائمة إلى اليوم وتقع على يسار الخارج من مكة بعد التقاء طرق ربع كدَيّ وربع بَخْش؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١١٤، هامش ٢ للمحقق.

(٩٤) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٢٦؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١١٥؛ البلاذري، *فتوح*، ٩٥. والبَرُود جبل يعرف اليوم بجبل الشهيد يشرف على حي الشهداء من الغرب، وهناك خمس آبار قديمة لا زالت قائمة على يسار الذاهب إلى التنعيم يشرف عليها جبل البرود اثنتان منها لا زالت أمانة العاصمة تضخ منهما المياه، وإحداهما يقال لها بئر الكردي، وثلاثة منها معطلة؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١١٥، هامش ٢ للمحقق.

(٩٥) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٢٦؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١١٦؛ البلاذري، *فتوح*، ٥٩.

(٩٦) الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١١٩. ورجح ابن دهيش محقق *أخبار مكة* للفاكهي، ٤: ١١٩، هامش ١، أنها بئر ذي طوى المشهورة اليوم بجرول.

(٩٧) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٢٦؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١١٥؛ البلاذري، *فتوح*، ٥٩. وموضع بئر بكّار اليوم في الحفاير، وثنية الحَزَنَة (ربع الحفاير)؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١١٥ هامش٣؛ وانظر: البلادي، *معجم*، ٨: ٢٦٦؛ قارن: الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٦٦، هامش ٢ للمحقق.

(٩٨) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٢٤؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١١٧؛ وانظر: ص ٤٣٠ من هذا البحث.

(٩٩) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٠٥.

(١٠٠) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٢٦؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١١٣؛ الفاسي، *شفاء*، ١: ٥٤٩-٥٥٠؛ ابن الضياء، *تاريخ*، ٩٩. ونسبتها إلى صلصل بن أوس بن محاسن بن معاوية بن شريف التميمي (بني عمرو بن تميم). وشعب البيعة لا زال معروفا بمنى، ويبعد عن

الجمرة أقل من ٥٠٠م. وبئر الصلاصل كانت قائمة قبل أعوام قليلة ثم غطيت حين وسع طريق الجمرات، فدخلت فيه؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١١٣، هامش ٥ للمحقق.

(١٠١) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٢٤؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١١٧؛ البلاذري، *فتوح*، ص٥٨. وشعب عمرو بن عثمان بن عفان في منى والراجح أنه ما يسمى الآن بحارة قريش بمنى، والآبار في حارة قريش خمس آبار، لكنها لا تعرف بهذا الاسم اليوم؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١١٧، هامش ٢ للمحقق.

(١٠٢) الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١١٧-١١٨. ويظن ابن دهيش (الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١١٧، هامش) أن بئر ابن المرتفع هي بئر البرود العظيمة؛ وانظر: تعليقة ٩٤.

(١٠٣) الفاكهي، *أخبار مكة*، ٣: ٩٧، الفاسي، *شفاء*، ١: ٥٤١؛ وانظر: أحمد بن محمد بن عبد ربه (ت ٣٢٨هـ)، *العقد الفريد*، تحقيق أحمد أمين وإبراهيم الأبياري (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م)، ٦: ٢٥٩.

(١٠٤) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٦٠؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٢: ٥٧. والمُحَصَّب يعرف اليوم بمجر الكبش، البلادي، *معجم*، ٨: ٤٣-٤٤.

(١٠٥) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٩٩؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ٢٢٠. ولم يحددوا موضعها.

(١٠٦) راجع: ص٥٦٨ تعليقة ٣٥ من هذا البحث.

(١٠٧) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٢٦؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١١٦؛ البلاذري، *فتوح*، ٥٩.

(١٠٨) انظر التفاصيل لدى: البلاذري، *أنساب*، ٤: ٢٣؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٢: ٢٢-٢٣.

(١٠٩) ابن إسحاق، *السير والمغازي*، ٦٨-٦٩؛ ابن هشام، *السيرة*، ١: ١٧٨-١٧٩؛ الأزرقي، *أخبار مكة*، ١: ١١٤؛ البلاذري، *أنساب*، ٤: ٢٣-٢٤؛ الفاسي، *شفاء*، ٢: ١٤٣؛ ابن الضياء، *تاريخ*، ٧٣.

(١١٠) ابن إسحاق، *السير والمغازي*، ٦٩؛ ابن هشام، *السيرة*، ١: ١٧٩؛ الأزرقي، *أخبار مكة*، ١: ١١٤، ١١٥؛ البلاذري، *أنساب*، ٤: ٢٤؛ الفاسي، *شفاء*، ٢: ١٤٣-١٤٤؛ ابن الضياء، *تاريخ*، ٧٣. وقد قام بالسقاية والرفادة بعد العباس ابنه عبدالله بن عباس، ثم علي بن عبدالله، ثم محمد بن علي، ثم داود بن علي، ثم سليمان بن علي، ثم عيسى بن علي، فلما استخلف أمير المؤمنين أبو جعفر المنصور قال: "إنكم تقلون هذا الأمر مواليكم فموالي أمير المؤمنين أحق بالقيام به، فولى السقاية ونفقات البيت مولى له يقال له زَربى، وجعلت الرفادة من بيت المال"؛ البلاذري، *أنساب*، ٤: ٢٤؛ وانظر: الأزرقي، *أخبار مكة*، ١: ١١٤-١١٥.

(١١١) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٥٩؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٢: ٥٦-٥٧، ٧٢؛ محب الدين أحمد بن عبدالله الطبري (ت ٦٩٤هـ)، *القرى لقاصد أم القرى*، تحقيق مصطفى السقا، ط٣ (مكة: المكتبة التجارية، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)، ٤٩٠؛ ابن الضياء، *تاريخ*، ٧٣.

(١١٢) *أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه*، ٢: ٧٩.

(١١٣) الفاكهي، *أخبار مكة*، ٢: ٨٢. والكوز الكوب بعروة؛ ابن منظور، اللسان، ٣: ٣١٣؛ الزبيدي، *تاج*، ٤: ٧٦.

(١١٤) الفاكهي، *أخبار مكة*، ٢: ٧٢؛ وانظر: الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٥٩؛ ابن الضياء، *تاريخ*، ٧٣.

(١١٥) ابن هشام، *السيرة*، ١: ١٤٨؛ الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢١٧؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ٩٩؛ البلاذري، *فتوح*، ٥٧؛ البكري، *معجم*، ٣: ٧٢٤؛ ياقوت، *البلدان*، ٣: ١٩٣؛ الفاسي، *شفاء*، ١: ٥٤٣؛ ٢: ١٤٢؛ ابن الضياء، *تاريخ*، ٧٢، ٩٨. ويقال وهبها أسد بن هاشم لعدي بن نوفل، وأصبحت بعد ذلك لجبير بن مطعم (نوفل)، وقيل إن جبير بن مطعم ابتاعها من ولد هاشم.المواضع نفسها.

(١١٦) عبدالرحمن بن علي بن الجوزي (ت ٥٩٧هـ)؛ *تاريخ عمر بن الخطاب*، تحقيق أحمد شوحان، (الطائف: مكتبة المؤيد، د.ت.)، ١٨٣؛ ابن الجوزي، *مناقب عمر بن الخطاب*، تحقيق زينب القاروط (بيروت: مكتبة الهلال، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م)، ١٦١.

(١١٧) الفاكهي، *أخبار مكة*، ٣: ٦٠؛ البلاذري، *أنساب*، ٩: ٥٨؛ الطبري، *تاريخ*، ٦: ٤٤٠؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٤: ٥٣٦؛ الطبري، *الأرج*، ٣٣٧؛ وانظر: ص ٤٣١ من هذا البحث.

(١١٨) الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ٥٩؛ وانظر: الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٧٣.

(١١٩) ابن سعد، *الطبقات الكبرى*، تحقيق محمد عطا، ط١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م)، ٥: ٣٥؛ أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة (ت ٢٧٦هـ)، *المعارف*، تحقيق ثروت عكاشة، ط٢ (القاهرة: د.ت.)، ٣٢١، ٣٢٢؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٥: ٤٢-٤٤؛ أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي (ت ٣٨٣هـ)، *مفيد العلوم ومبيد الهموم*، تحقيق عبدالله الأنصاري (بيروت: المكتبة العصرية، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م)، ٣٤٦؛ ابن عبدالبر، *الاستيعاب*، ٢: ٣٦٠؛ البكري، *معجم*، ٤: ١٣١٦؛ ياقوت، *البلدان*، ٥: ٤٠؛ ابن الأثير، *أسد*، ٣: ٢٨٩؛ الفاسي، *العقد*، ٥: ١٨٧.

(١٢٠) ابن سعد، *الطبقات*، ٥: ٣٥؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٥: ٤٢؛ أبو بكر الخوارزمي، *مفيد العلوم*، ٣٤٦؛ ابن الأثير، *النهاية*، ٥: ١٠٩؛ وانظر: الطبراني، *الكبير*، ٩: ٣٥٦.

(١٢١) الفاكهي، *أخبار مكة*، ٥: ٤٢، هامش ١ للمحقق؛ غباشي، *المنشآت*، ٧٦-٧٧.

(١٢٢) الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١٢٠. وذكر ابن دهيش (الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١٢٠، هامش ١ للمحقق) أن حياض المزدلفة لا وجود لها الآن.

(١٢٣) انظر: تعليقة ٢٦ من هذا البحث.

(١٢٤) الأزرقي، *أخبار مكة*، ١: ١٨٨؛ البكري، *معجم*، ٤: ١٣١٦. وذو المَجَاز على ٢٦ كم شرق مكة يسمى المجاز الآن؛ البلادي، *معالم*، ص٢٤٣؛ البلادي، *معجم*، ٨: ٢٤-٢٥.

(١٢٥) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٧٧؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١٥٦. ويذكر صالح أحمد العلي في *الحجاز في صدر الإسلام*، ط١ (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م)، ١٥٤: "ولعل هذه الحياض هي بئر القسرية التي حفرها خالد القسري بأمر من هشام بين مأزمي منى." أما ابن هشام الذي نسبت إليه هذه الحياض فهو إما إبراهيم بن هشام أو أخوه محمد بن هشام فكلاهما تولى مكة لهشام بن عبدالملك؛ انظر ص ٤٣١ من هذا البحث.

(١٢٦) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٧٧؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١٥٦.

(١٢٧) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ١٨٥؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ٣٠٩.

(١٢٨) انظر: ص ٤٣٢، وتعليقة ٩٨ من هذا البحث.

(١٢٩) الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ٢٢١. ويظن ابن دهيش (في الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ٢٢١، هامش ١ للمحقق) أن حياض مجنة كانت عند إحدى الآبار قرب جبل البرود.

(١٣٠) الفاكهي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٣٢.

(١٣١) الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١٢١.

(١٣٢) ابن هشام، *السيرة*، ٢: ٤٩٠؛ وانظر: ابن الأثير، *أسد*، ٢: ٣٣١-٣٣٣.

(١٣٣) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ١٤٥. قارن: الفاكهي، *أخبار مكة*، ٣: ٣٧٤. وصهرج الحوض: طلاه؛ ابن منظور، *اللسان*، ٢: ٤٨٧؛ الزبيدي، *تاج*، ٢: ٦٧.

(١٣٤) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٨١-٢٨٢؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١٢٠، ١٧٠؛ ياقوت، *البلدان*، ٥: ٢٨٨. تولى الحجاج مكة في خلافة عبدالملك بن مروان (٦٥-٨٦هـ/٦٨٥-٧٠٥م)، البابطين، *الحياة*، ٤٧٥. ويذكر ابن دهيش في الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١٢٠، هامش ٢ للمحقق) أن سداد الحجاج لا زالت قائمة إلى اليوم فيما يطلق عليه اليوم بالمُعَيْصِم. والأُفيعية على يسار من أقبل من طريق الطائف في منطقة المعيصم. وسِدْرة خالد أسفلها يسمى اليوم (العَدْل) وأعلاها المنطقة الموازية لحي الغَسّالة إلى الجسر الذي يمر عليه طريق المعيصم فوق طريق الطائف؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١٧٠، هامش ٢ للمحقق؛ وانظر: البلادي، *معجم*، ٤: ١٧٨.

(١٣٥) الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١٢٠؛ ياقوت، *البلدان*، ٣: ١٩٦-١٩٧. وذكر البلادي، *معجم*، ٤: ١٧٩ أن هذا السد هو فيما يعرف اليوم بالملاوي بينما ذكر ابن دهيش في الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١٢٠، هامش٣ للمحقق) أن القبور التي ذكرها الفاكهي لا زالت موجودة إلى الآن على اليمين من الصعود إلى منى، قبل الوصول إلى ما يقابل شعب البيعة، قرب بيت يعرف ببيت صدقي، آلت ملكيته للدولة الآن.

(١٣٦) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٣٢؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٣: ١٥٤؛ الفاسي، *العقد*، ٥: ٢٨؛ النجم بن فهد، *إتحاف*، ٢: ٢٨٤.

(١٣٧) الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١٩٦؛ وانظر: الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٩٢.

(١٣٨) الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١٩٧؛ وانظر: الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٩٢.

(١٣٩) الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ٢٢٩؛ ٥: ٨٧. والجِفَّة تطلق اليوم على جبل مشهور يقابل جبل الدومة الحمراء من الشمال. وحنكة الحل: حنك الغراب، أما المضيق فليس في هذا الموضع ما يسمى الآن بهذا الإسم، ولعله أراد ذلك الممر الذي يقع بين جبل الجفة من الشرق وبين جبل الدومة السوداء من الغرب، والرماق لم يعد هذا الاسم معروفا الآن بهذا الموضع؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ٢٢٩، هامش٤ للمحقق؛ ٥: ٨٧، هامش٢ للمحقق أيضا.

(١٤٠) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٩٣؛ الفاكهي، ٤: ٢٠٢. وذات اللُّجب تعرف اليوم باللُجْبَة وهي خلف بطحاء قريش جنوبا، وخلف جبل الطلوب؛. ٤: ٢٠٢، هامش ٣ للمحقق.

(١٤١) الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١٩٥.

(١٤٢) الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١٩٥. وجبل ل بن يقال له اليوم (لُبَيْن). وأضاءة لَبَن يقال لها اليوم العُقَيْشِيّة؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١٩٥، هامش ٤ للمحقق؛ وانظر: البلادي، *معجم*، ٧: ٢٤٥-٢٤٦.

(١٤٣) الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١٩٦. وجبل حُبْشِي يسمى اليوم جبل الرَّاقِد، يبعد عن مكة حوالي ١٣كم؛ البلادي، *أودية مكة*، ١٠١؛ البلادي، *معجم*، ٢: ٢١١؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١٩٦، هامش ٢ للمحقق.

(١٤٤) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٩٣؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٥: ٢٢٨. وردهة بشام (بشائم) يقال لها اليوم بُشَيْم؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٥: ٨٧، هامش ١ للمحقق.

(١٤٥) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٣٠١؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ٢٢٨. ويذكر ابن دهيش في الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ٢٢٨، هامش ١ للمحقق) أن هذه الردهة مازالت موجودة.ولم يحدد موضعها.

(١٤٦) الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١٩٣. لا زال هذا الموضع يعرف بالمصافي وغمره العمران، وعلى فوهته أقيم فندق أجياد مكة؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١٩٣، هامش ٦ للمحقق.

(١٤٧) الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١٩٣. ورجح ابن دهيش أن موضعه حاليا في ظهر أجياد الكبير؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١٩٣، هامش ٥ للمحقق.

(١٤٨) الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ٢٠٢. ويطلق اسم قائد على موضعين: الأول المنطقة المنخفضة بين بركة ماجل وبين ثنية كدي، والثاني يطلق على ثنية كدي نفسها؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ٢٠٢، هامش ١ للمحقق.

(١٤٩) محمد بن الحسن بن دريد (ت ٣٢١هـ)، *جمهرة اللغة*، تحقيق رمزي بعلبكي، ط١ (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٧م)، ١: ٤٩٢. عرَّف ابن دهيش في الفاكهي، *أخبار مكة*، ٣: ١٢٥، هامش ٢) الماجل بأنه الصهريج من الماء.

(١٥٠) ياقوت، *البلدان*، ٣: ٢٢١.

(١٥١) الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١٤٣؛ وانظر: ٤: ٥٩، حيث ذكر حوضين. وانظر: تعليقة ٦٣ من هذا البحث.

(١٥٢) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٣٢؛ وانظر: تعليقة ٦٥ و٧٢ من هذا البحث.

(١٥٣) البكري، معجم، ٤: ١١٩٠-١١٩١.

(١٥٤) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٩٣؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ٢٠٣. وجبل النِسْوَة يعرف اليوم بالمَسْخُوطة ولا زالت الأحجار قائمة على رأس الجبل إلى اليوم؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ٢٠٣، هامش ١ للمحقق.

(١٥٥) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٥٩، ١٠٤؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٢: ٥٧؛ محب الدين الطبري، *القرى*، ٤٩٠.

(١٥٦) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٢٨١-٢٨٢؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٤: ١٧٠؛ ياقوت، *البلدان*، ٥: ٢٨٨.

(١٥٧) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ١٠٨؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٣: ١٥١؛ الفاسي، *العقد*، ٤: ٢٧٥؛ النجم بن فهد، *إتحاف الورى*، ٢: ١٢٣-١٢٤.

(١٥٨) الأزرقي، *أخبار مكة*، ١: ٢٨٧؛ ٢: ١٠١؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٣: ٢٤٠؛ النجم بن فهد، *إتحاف الورى*، ٢: ١٢١.

(١٥٩) الأزرقي، *أخبار مكة*، ١: ٢٨٧؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٢: ٦٨.

(١٦٠) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ١٠١؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٢: ٧٨-٧٩؛ وانظر: الزبيدي، *تاج*، ٩: ٣٩٣.

(١٦١) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٦٠؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٢: ٥٧، ٧١.

(١٦٢) ابن سعد، *الطبقات*، ٤: ٣٣؛ الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٥٢، ٥٤، ٥٥، ٥٦، ٥٧؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٢: ٥٦، ٥٧؛ الطبراني، *الكبير*، ١١: ٩٧؛ محب الدين الطبري، *القرى*، ٤٨٣، ٤٨٥، ٤٨٧؛ جارالله بن فهد، محمد بن عبدالعزيز بن عمر (ت ٩٥٤هـ)، *تحفة اللطائف في فضائل الحبر بن عباس ووج والطائف*، تحقيق محمد سعيد كمال ومحمد الشقحاء (الطائف: نادي الطائف الأدبي، د.ت.)، ٩٥؛ الإسفرائيني، ١٠٢؛ الطبري، *الأرج*، ٨٧. ويرد ذكر العَرَاقي جمع عرقوة وهي الخشبة المعترضة على فم الدلو وهما عرقوتان كالصليب؛ محب الدين الطبري، *القرى*، ٤٨٥-٤٨٦. والغُروب جمع غَرْب وهي الدلو العظيمة تتخذ من جلد الثور، علي بن إسماعيل بن سيده (ت ٤٥٨هـ)، *المخصص* (بيروت: دار الآفاق الجديدة، د.ت.)، ٩: ١٦٤؛ ابن الأثير، *النهاية*، ٣: ٣٤٩.

(١٦٣) ابن هشام، *السيرة*، ٢: ٦٥٨، ٦١٨؛ الواقدي، *المغازي*؛ ٢: ٧٤٤؛ عبدالله بن محمد الكوفي بن أبي شيبة (ت ٢٣٥هـ)، *الكتاب المصنف في الحديث والآثار*، تحقيق كمال الحوت (الرياض: مكتبة الرشد، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م)، ٧: ٣٣٧؛ الأزرقي، *أخبار مكة*، ١: ١١٢؛ ٢: ٥٠، ٥١، ٥٢، ٥٤، ٥٥؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ١: ٣٣١ - ٣٣٢؛ ٢: ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٣٣، ٣٧، ٣٨، ٤٠، ٤٢، ٤٨، ٤٩، ٥٠، ٥١، ٥٢، ٥٣، ٥٤، ٥٥، ٥٦؛ البلاذري، *أنساب*، ١: ٩٧؛ الطبري، *تاريخ*، ٥: ٤٨٢؛ ابن الأثير، *النهاية*، ٢: ٢٧٩؛ ٣: ٣٤٩؛ النووي، *تهذيب*، ٣: ١: ١٣٩؛ محب الدين الطبري، *القرى*، ٤٨٣، ٤٩١؛ الفاسي، *شفاء*، ١: ١٤١، ٤١٥. والسَّجل الدلو الضخمة المملوءة ماء ولا يقال لها وهي فارغة سجل ولكن دلو، والجمع سِجال وسجول. والأَدْواء والأداوى مفردها الإداوَة إناء صغير من جلد يتخذ للماء. وقيل لا تكون إلا من جلدين قوبل أحدهما بالآخر والشنان الأسقية والقرب الخُلقان والرَّاوية المزادة فيها الماء والمزَادة الراوية وتكون من جلدين تُفْأم بجلد ثالث بينهما لتتسع، والنَّطْع من الأدم؛ ابن سيدة، *المخصص*، ٩: ١٦٤؛ ابن الأثير، *النهاية*، ١: ٣٢-٣٣؛ ٢: ٢٧٩؛ ابن منظور، *اللسان*، ١: ٣٦، ١٢٦١؛ ٢: ٦٩-١١٠، ٣٧١؛ ٣: ٦٦١؛ الزبيدي، *تاج*، ٢: ٣٦٧؛ ٥: ٥٢٦؛ ٧: ٦٩-٧٠؛ ٩: ٢٥٦؛ ١٠: ١٢-١٣، ١٥٨.

(١٦٤) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ١٠٧، ١٠٨-١٠٩، ٢٢٩؛ الفاكهي، *أخبار مكة*، ٢: ٨٢؛ ٣: ١٤٩-١٥٠، ١٥١؛ ٤: ١٢٥؛ اليعقوبي، *تاريخ*، ٢: ٢٩٣-٢٩٤؛ الذهبي، سير، ٥: ٤٢٩؛ الفاسي، *العقد*، ٤: ٢٧٣-٢٧٥، ٣٥٠؛ النجم بن فهد، *إتحاف الورى*، ٢: ١٢٣-١٢٥، ١٦٩؛ عزالدين بن فهد، *غاية المرام*، ١: ١٩٨-١٩٩، ٣٠٠؛ وانظر: تعليقة ٢ من هذا البحث.

توسعة المسجد النبوي الشريف في العهد الأموي

فرحات خورشيد الطاشكندي

قسم العمارة وعلوم البناء ، كلية العمارة والتخطيط،

جامعة الملك سعود

ملخص البحث

يتعرض البحث لأول توسعة قام بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في السنة السابعة من الهجرة مع إرفاق تصور معماري لمخططي المسجد الأصلي ثم للتوسعة. وفي توسعة عمر رضي الله عنه يذكر الباحث الزيادة التي عملها الخليفة عمر رضي الله عنه وينتهي بعمل مخطط لشكل تلك الزيادة ثم يتطرق البحث لتوسعة الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وتقديم مخطط معماري تقريبي.

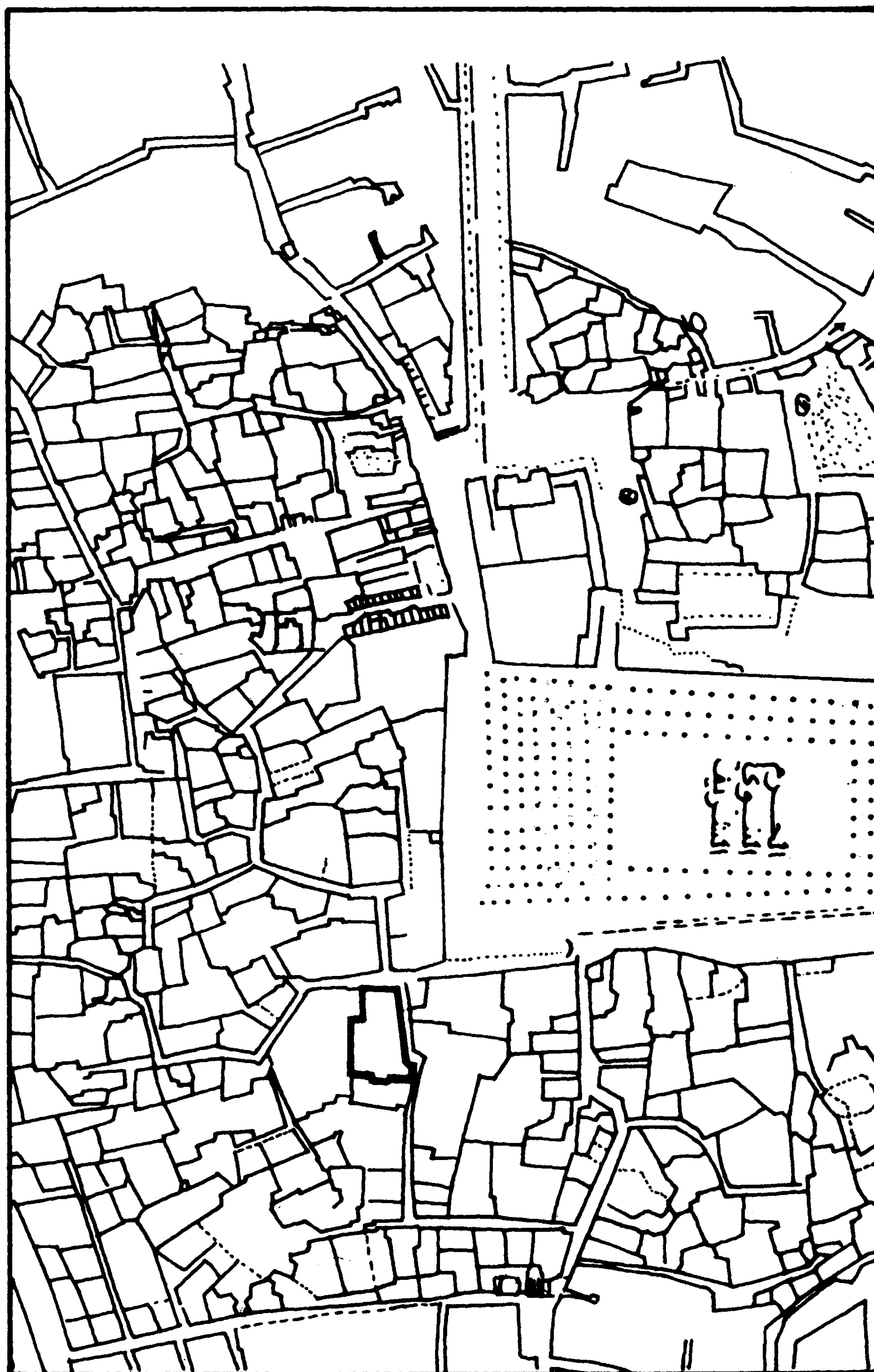
يذكر البحث توسعة الوليد بن عبد الملك وفي هذا الجزء سوف يذكر الباحث بالتفاصيل مراحل التوسعة وطريقة البناء وذلك اعتماداً على ما ذكره المحققون في تاريخ المسجد النبوي الشريف ، وعمل مخطط معماري لهذه التوسعة. وسوف يستعين الباحث بالحاسب الآلي في عمل هذا المخطط بتطبيق عدة مخططات قديمة للمسجد النبوي مع المخطط الشهير للحرم وما حوله في الرفع المساحي المصري وتكوين صورة تقريبية للتخطيط المعماري لما كانت عليه المنطقة حول الحرم قبل التوسعة وبعدها.

منهجية الدراسة

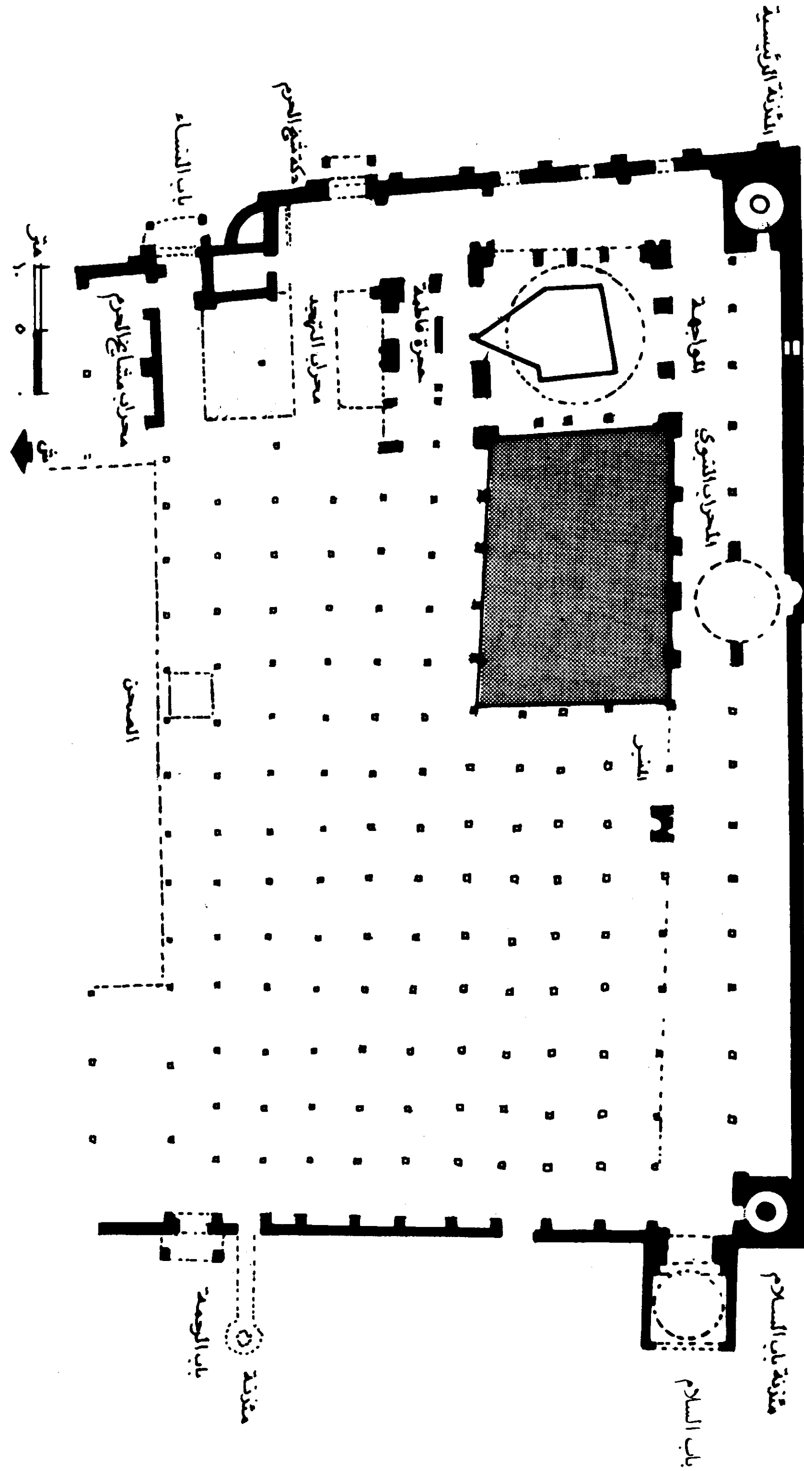
لقد اعتمدت على مصادر متعددة من كتب الصحاح والمساند والسنن وعلى من عنوا بالكتابة عن المسجد النبوي الشريف ، ولقد قررت الاعتماد بشكل رئيس على كتاب *وفاء الوفا* للسمهودي نظراً للدقة التي تميزت بها دراسته واعتماده على الدراسات الميدانية بالنسبة لقياس المسجد وروايات التوسعات. ولقد اعتمدت الرفع المساحي للمسجد النبوي الذي قدمه إبراهيم رفعت[١] (شكل رقم ١) كأساس لرسم المسجد النبوي الشريف للتوسعات وعلاقته بالحجرة النبوية ، حيث إن الحجرة الشريفة من الثوابت التي لم تتغير خلال مراحل التوسعات ، وكذلك موقع الصُّفَّة ، وجدار القبلة الحالي. والذي لم يتغير ، ولقد طابقت عدة مخططات كمرجع إضافي للحصول على

المخططات المرفقة واستخدمت الرفع المساحي لمصلحة المساحة المصرية ١٩٤٧م الذي عمل قبل التوسعة السعودية الأولى كمخطط أساس (شكل رقم ٢ ، ٣).

شكل رقم ١ . المسجد النبوي الشريف موضحاً عليه التوسعات



شكل رقم ٢ . الرفع المساحي لمصلحة المساحة المصرية ١٩٤٧م. يبين موقع دار أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه بالنسبة إلى الحرم الشريف



شكل رقم ٣ . يوضح الحجرة الشريفة وحجرة فاطمة بالنسبة إلى الروضة الشريفة والمحراب العثماني

بناء المسجد النبوي الشريف

ذكر ابن هشام أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما هاجر إلى المدينة المنورة قادماً من مكة نـزل قباء، حيث أقام فيها بضع عشر ليلة وصلى في مسجدهم ثم خرج إلى المدينة المنورة واعترضت القبائل له عند قدومه كل يريد أن ينزل عندها، وإذا أخذوا زمام ناقته كان يقول: خلوا سبيلها فإنها مأمورة. واختار الله له مكان المسجد في مربد لغلامين يتيمين من بني النجار واشترى رسول الله صلى الله عليه وسلم المربد بعشرة دنانير ذهباً ومن ثم أقام عند أبي أيوب الأنصاري رضى الله عنه حتى فرغ من بناء مسجده ومسكنه[٢] (شكل رقم ٢).

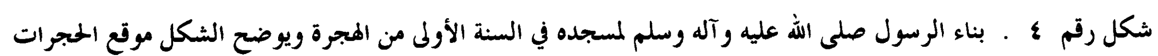
ولقد ثبت في *الصحيحين*[٣] أنه صلى الله عليه وآله وسلم قام بإعداد الموقع وتهيئته للبناء عليه من قطع النخيل ونبش قبور للمشركين فيها وبالخرب فسويت وروي أنه نقل مع أصحابه الكرام اللبن وما يحتاجون إليه وذلك تحت إشرافه صلى الله عليه وآله وسلم.

صفـــة المســـجد

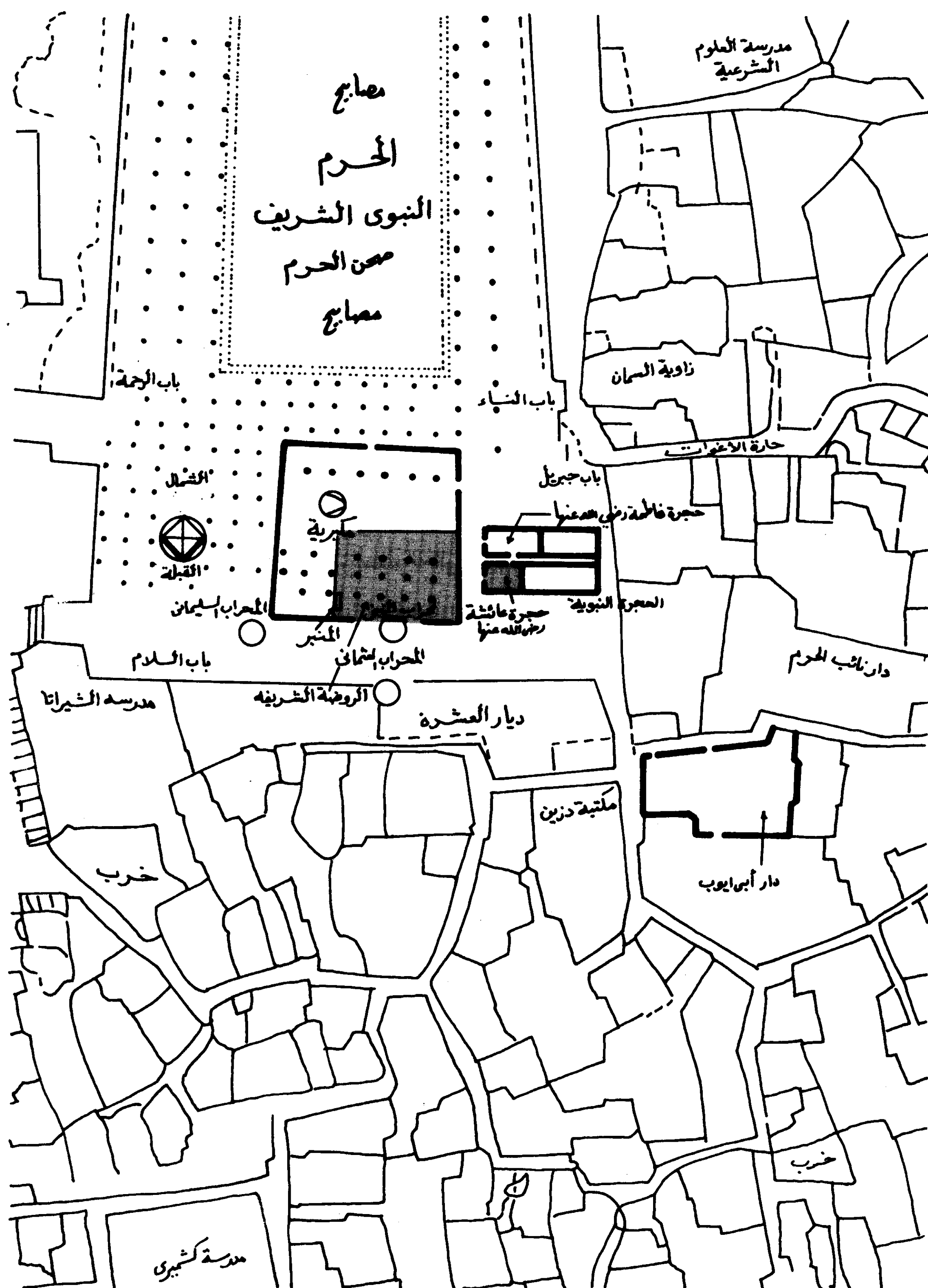
ذكر ابن سعد[٤] في *طبقاته* أن عمق أساس المسجد ثلاثة أذرع وهو ما يساوي المتر والنصف في زماننا هذا، ثم وضع النبي صلى الله عليه وآله وسلم جذوع النخيل وجعل للجزء المواجه للقبلة سقفاً للحماية من المطر وأشعة الشمس والذي كان موجهاً لبيت المقدس. وفي *الصحيحين* أنه صلى الله عليه وآله وسلم أمر أصحابه بصف النخيل في قبلة المسجد وجعل عضادتيه من الحجارة وفي بعض الروايات كان مبنياً باللبن وسقفه الجريد وعمده خشب النخيل. وكان طول المسجد سبعين ذراعاً أي ما يقارب ٣٥ م في عرض ٣٠ مترا وارتفاع سقفه خمسة أذرع وهو ما يقارب ٢,٥م وكانت القبلة آنذاك إلى بيت المقدس، وجعل للمسجد ثلاثة أبواب، شرقي وجنوبي وغربي[٥] (شكل رقم ٤).

وفي العام الثاني من الهجرة النبوية أمر الله نبيه بتغيير القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة،[٦] مما أدى إلى قفل الباب الجنوبي وبنيت في تلك الجهة ظلة لحماية المصلين جعلها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم مكاناً لفقراء المسلمين (أهل الصُّفَّة) وسُميت الصفة وبنى ظلة جديدة من الجهة الجنوبية (شكل رقم ٥) ويحتل مكان الصفة في الوقت الحاضر دكة.

مصابيح
الحرم
النبوى الشريف
صحن الحرم
مصابيح
مدرسة العلوم الشرعية
زاوية السمان
باب الرحمة
باب النساء
حارة الأغوات
باب جبريل
حجرة فاطمة رضي الله عنها
القبلة
مكبرية
المحراب السليماني
محراب النبي
حجرة عائشة رضي الله عنها
الحجرة النبوية
دار نائب الحرم
باب السلام
المحراب العثماني
ديار العشرة
دار ابي ايوب
خرب
خرب
مدرسة كشميرى



شكل رقم ٤ . بناء الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لمسجده في السنة الأولى من الهجرة ويوضح الشكل موقع الحجرات



شكل رقم ٥ . مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد تغير القبلة في السنة الثانية من الهجرة ويوضح موقع الحجرات

توسعة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لمسجده

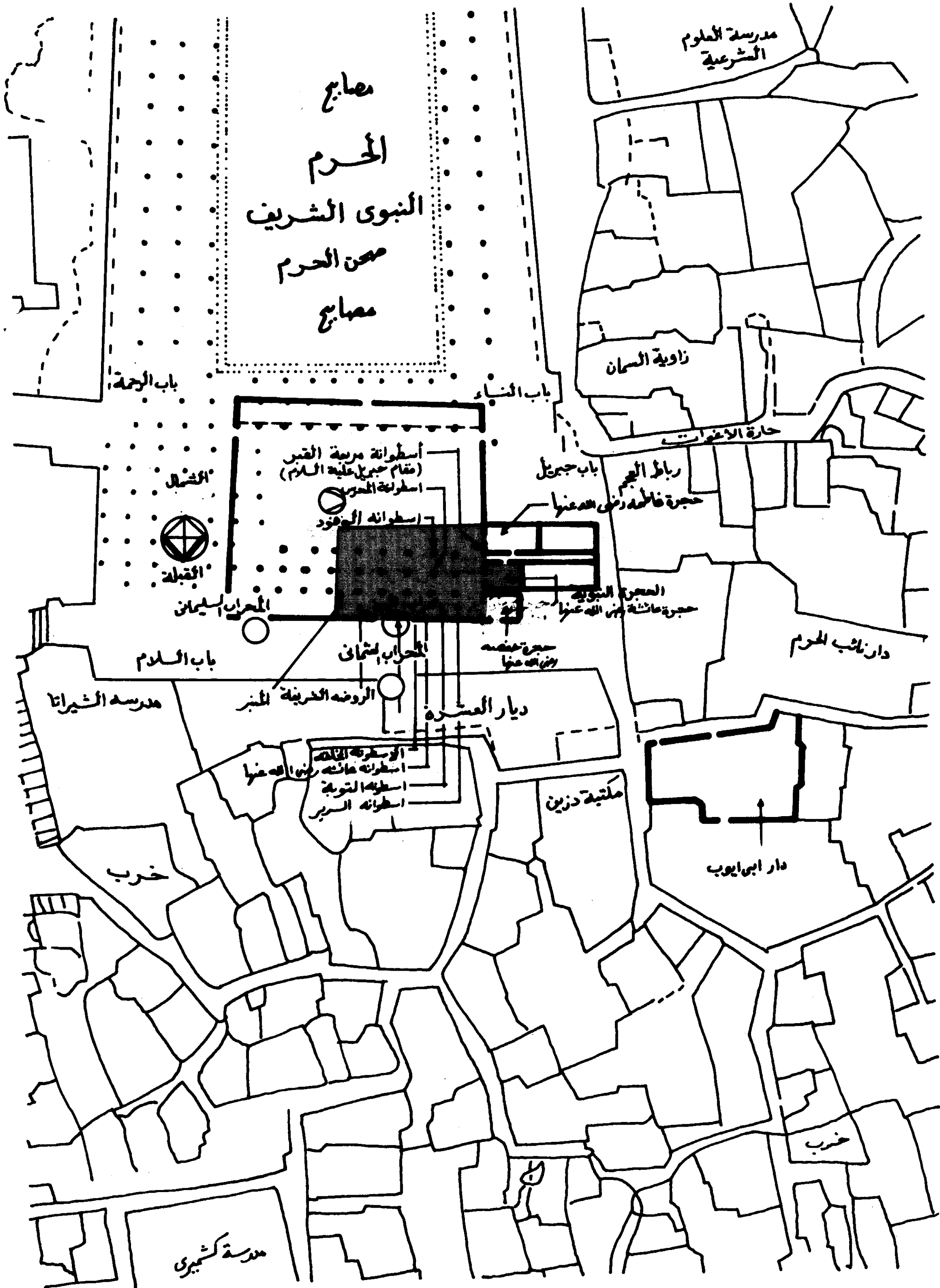
في السنة السابعة من الهجرة ضاق المسجد على المسلمين فزاد فيه صلى الله عليه وسلم من الجهة الشرقية حتى لاصق جدار المسجد بيوته الشريفة بمقدار أسطوانة وزاد من الجهة الغربية بمقدار أسطوانتين لتصبح الأسطوانات ٩ بدلاً من ٦ وبطول إجمالي ٥٠ متراً، وزاده من الجهة الشمالية وأبقى على جدار القبلة ليصل عرض المسجد بوضعه الجديد ٥٠ متراً.(٧)

وفي هذه التوسعة نلاحظ أن جدار المسجد النبوي الشريف أصبح ملاصقاً لدور الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، ولقد استعنت بالحديث "ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة، "(٨) وبمكان الروضة الحالي لكي أتمكن من تحديد بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم من الجهة الشمالية والذي هو امتداد للروضة الشريفة، وذلك لأن تحديد الروضة كان قبل هدم الحجرات وبالتالي فقد حدد الأوائل الروضة الشريفة من الجنوب بداية المسجد في عهده صلى الله عليه وآله وسلم، ومن الشرق حجراته، ومن الغرب المنبر الشريف، ومن الشمال حدود بيته صلى الله عليه وآله وسلم. ونلاحظ في المخطط الأسطوانات التي في الروضة وهي في نفس موقعها التي كانت على عهد رسول الله ولا تزال باقية إلى يومنا هذا، منها أسطوانة الوفود والأسطوانة المخلقة وأسطوانة عائشة رضي الله عنها وأسطوانة التوبة وأسطوانة السرير. ويلاحظ أن الفتحة التي في حجرة عائشة تطل مباشرة على الروضة الشريفة وكذلك خوخة علي رضي الله عنه تطل مباشرة على الروضة الشريفة.

ويبدو لي أن مكان الصفة في الوضع الجديد انتقل إلى مؤخرة المسجد حتى لا يقطع الصفوف أو يضيق على المصلين وهذا يتفق مع ما كتبه أهل السيرة النبوية أن الصفة كانت ظلة في مؤخرة المسجد جعلها رسول الله لفقراء المسلمين وسماها الصفة واستدل من رواية الإمام الحارث المحاسبي رحمه الله عن الأمام مالك رحمه الله أنه قال: مؤخر المسجد بحذا عضادة الباب الثاني من الباب الذي يقال له باب عثمان (بناء النساء) (شكل رقم ٦).

توسعة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه:

بعد انتقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى الرفيق الأعلى وتولي الخليفة الراشد أبى بكر رضي الله عنه الخلافة لم يزد في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شيئاً. وروى الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه عن نافع أن عمر رضي الله عنه زاد في المسجد وقول عمر: لولا أنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول "ينبغي أن نزيد في مسجدنا" ما زدت. وكذلك أسند يحيى عن ابن عمر وكذلك ابن زبالة عن مسلم بن حباب أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال يوماً وهو في مصلاه في المسجد "لو زدنا في مسجدنا، " وأشار بيده نحو القبلة. فأدخلوا رجلاً وأجلسوه في موضع مصلى النبي صلى الله عليه وسلم ثم رفعوا يد الرجل وخفضوها حتى رأوا أن ذلك نحو ما رأى النبي صلى الله عليه وسلم رفع يده ثم مدوا مقاطاً فوضعوا طرفه بيد الرجل ثم مدوه فلم يزالوا يقدمونه ويؤخرونه حتى رأوا أن ذلك فيه بما أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم من الزيادة فقدم عمر رضي الله عنه القبلة.

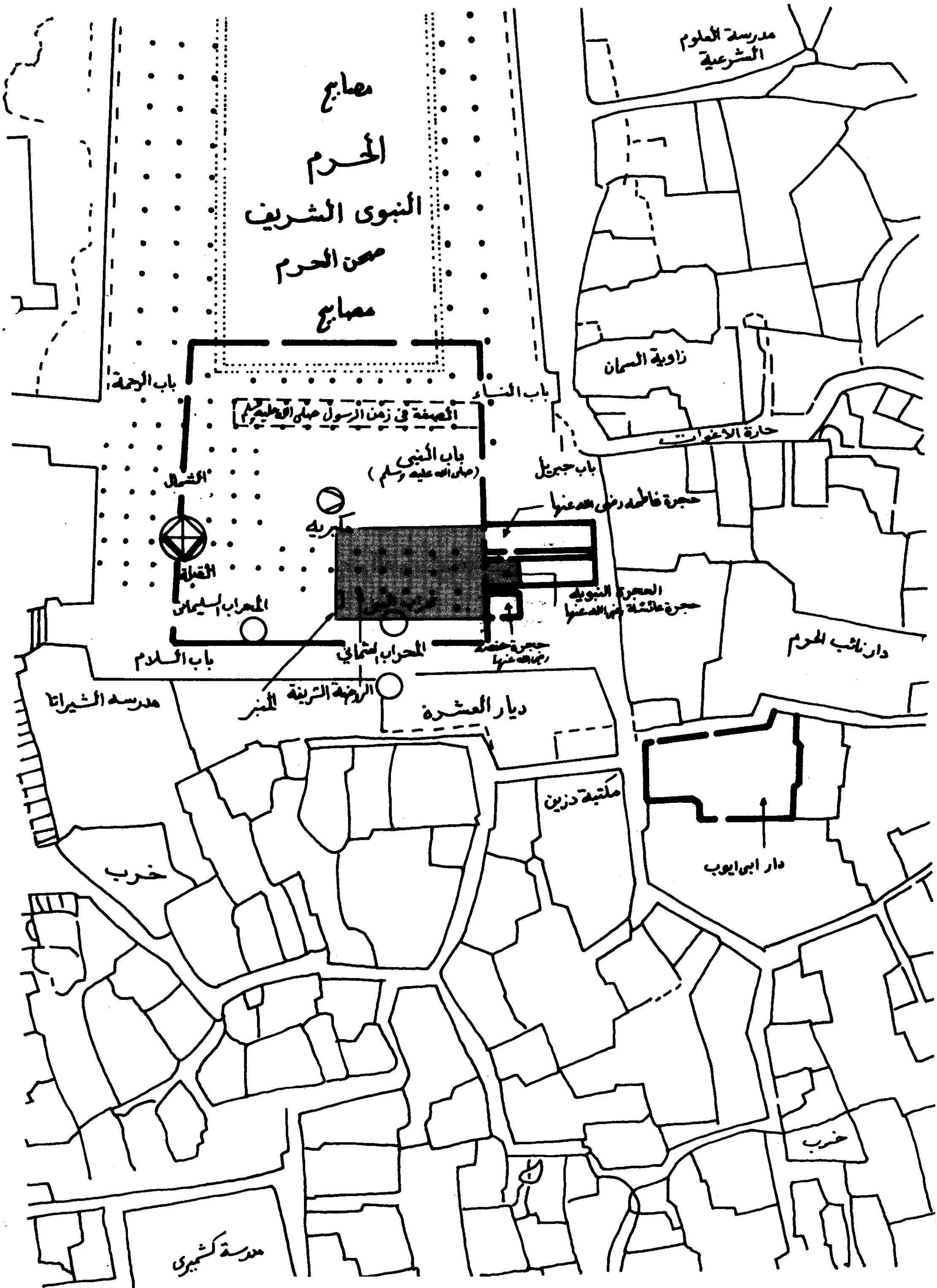


شكل رقم ٦. توسعة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في السنة السابعة من الهجرة

روى السمهودي[٩] عن ابن سعد عن سالم بن النضر قال: لما كثر المسلمون في عهد عمر رضي الله عنه وضاق بهم المسجد، اشترى عمر ما حول المسجد من الدور، إلا دار العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه وحجرات أمهات المؤمنين رضي الله عنهن فقال عمر للعباس: يا أبا الفضل إن مسجد المسلمين قد ضاق بهم وقد ابتعت ما حوله من المنازل نوسع به على المسلمين في مسجدهم ... فقال العباس: ما كنت لأفعل، قال: فقال له عمر: اختر مني إحدى ثلاث، إما أن تبيعها بما شئت من بيت المال، وإما أن أخطك حيث شئت من المدينة وأبنيها لك من بيت مال المسلمين، وإما أن تتصدق بها على المسلمين فتوسع في مسجدهم، فقال: لا، ولا واحدة منها. فقال عمر: اجعل بيني وبينك من شئت، فقال: أبي بن كعب، فانطلقا إلى أبي فقصّا عليه القصة، فقال أبي: إن شئتما حدثتكما بحديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالا: حدثنا، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن الله أوحى إلى داود أن ابن لي بيتاً أذكر فيه، فخط له هذه الخطة، خطة بيت المقدس، فإذا تربيعها بزاوية بيت رجل من بني إسرائيل، فسأله داود أن يبيعها إياها فأبى، فحدث داود نفسه أن يأخذه منه، فأوحى الله إليه: أن يا داود أمرتك أن تبنى لي بيتاً أذكر فيه، فأردت أن تدخل في بيتي الغصب وليس من شأني الغصب، وإن عقوبتك ألاّ تبنيه، قال: يا رب فمن ولدي، قال: فمن ولدك. "فأخذ عمر بمجامع أبيّ ابن كعب فقال: جئتك بشيء فجئت بما هو أشد منه، لتخرجَنَّ مما قلت، فجاء يقوده حتى دخل المسجد فأوقفه على حلقة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم أبو ذر، فقال أبيّ أنشدت الله رجلاً سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر حديث بيت المقدس حين أمر الله داود أن ينيه إلا ذكره فقال أبو ذر: أنا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال آخر: أنا سمعته، يعني من رسول الله صلى الله عليه، قال: فأرسل أبياً، قال: فأقبل أبيٌّ على عمر فقال يا عمر: أتتهمني على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال عمر: والله يا أبا المنذر ما اتهمتك عليه، ولكن أردت أن يكون الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ظاهراً. قال: وقال عمر للعباس: اذهب فلا أعرض لك في دارك، فقال العباس: أما إذا قلت ذلك فإني قد تصدقت بها على المسلمين أوسع عليهم في مسجدهم، فإما وأنت تخاصمني فلا.

فبعد أربعة أعوام من تولى أمير المؤمنين الخلافة وذلك في عام ١٧ من الهجرة زاد ١٠ أمتار من جهة الغرب فأصبح عرض المسجد ٦٠ مترا ولم يزد شيئا من جهة الشرق وهي جهة الحجرة الشريفة وزاد من جهة القبلة ٥ أمتار ومن جهة الشمال زاد ١٥ مترا ليصبح طول المسجد ٧٠ مترا[١٠] وفتح بابا من جهة الشرق الذي يقال له باب عثمان (باب النساء). وروى السمهودي[١١] أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما أراد البناء أمر باجتناب الزخرفة وإضافة الألوان اللافتة للنظر فقال: "أكن الناس من المطر وإياك أن تحمر أو تصفر فتفتن الناس." وكانت توسعته رضي الله عنه مراعية ما عليه المسجد في عمارة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من مواد البناء والشكل الخارجي والداخلي.

وبنى في ناحية المسجد من الجهة الشمالية الشرقية عن توسعته رحبة تدعى البطيحاء وقال رضى الله عنه: من أراد أن يلغط أو ينشد شعرا أو يرفع صوتا فليخرج إلى الرحبة[١٢] (شكل رقم ٧).



شكل رقم ٧ . توسعة الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه في السنة ١٧ من الهجرة والمحافظة على الحجرات

توسعة الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه

ذكر البخاري في صحيحه وأبو داود في سننه[١٣] عن نافع أن عبد الله بن عمر أخبره أن المسجد كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مبنياً باللبن وسقفه الجريد وعمده خشب النخل فلم يزد فيه أبو بكر شيئاً وزاد فيه عمر وبناه على بنائه في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم غيره عثمان فزاد فيه زيادة كبيرة وبنى جداره بالحجارة المنقوشة والقصة (الجص) وجعل عمده من حجارة منقوشة وسقفه بالساج.

وروى أبو داود عن عطية عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: إن مسجد النبي صلى الله عليه وسلم كانت سواريه على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من جذوع النخل أعلاه مظلل بجريد النخل ثم إنها نخرت في خلافة أبي بكر رضي الله عنه فبناه بجذوع النخل وجريد ا لنخل ثم إنها نخرت في خلافة عثمان رضي الله عنه فبناه. وفي هذا الخبر ما يقتضي أن السبب في بناء عثمان للمسجد كون الجذوع التي هي السواري نخرت.[١٤]

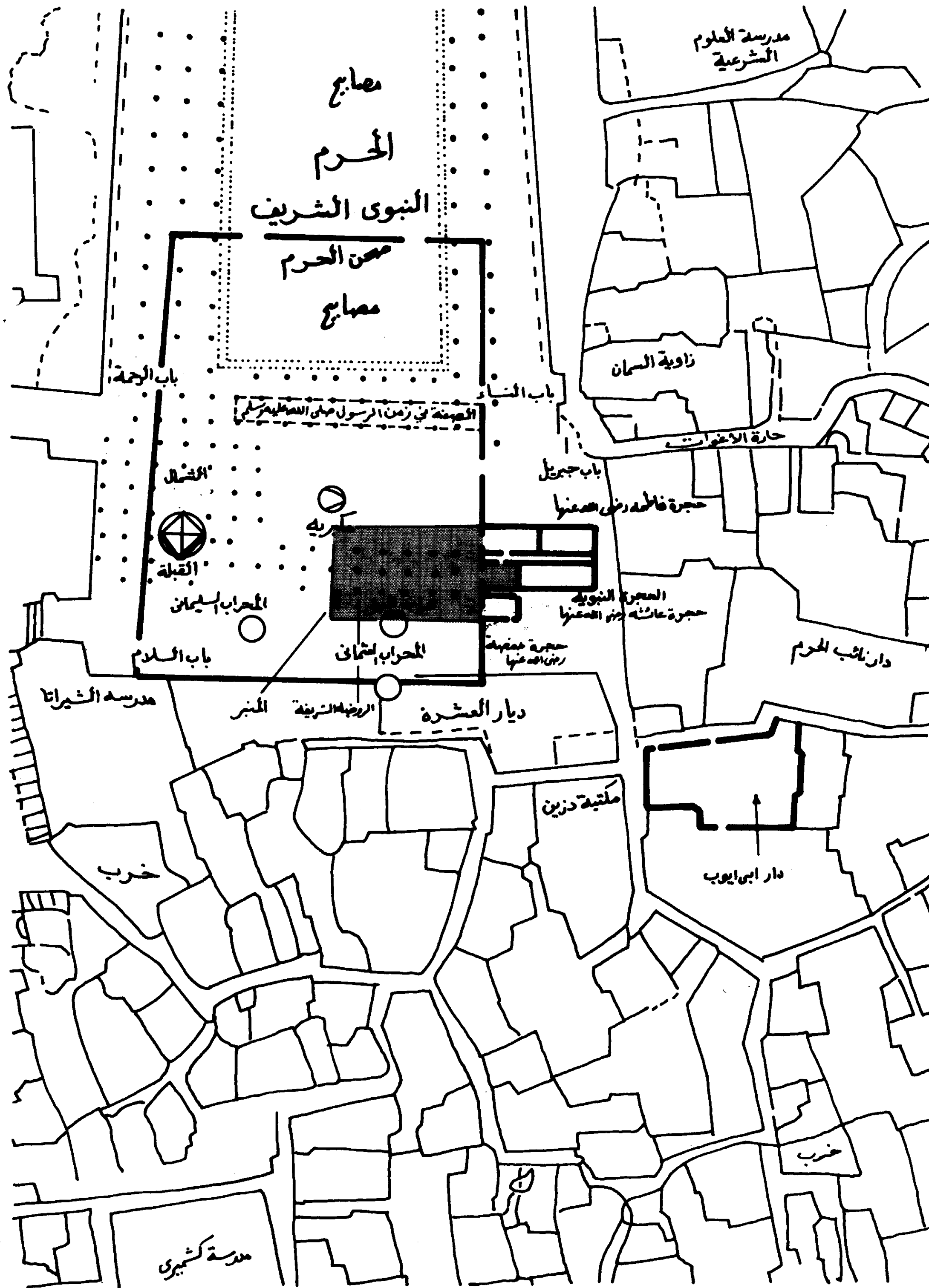
وروى يحيي عن المطلب بن عبد الله بن حنطب قال: لما ولي عثمان بن عفان سنة أربع وعشرين كلمه الناس أن يزيد في مسجدهم وشكوا إليه ضيقه يوم الجمعة حتى إنهم ليصلون في الرحاب فشاور فيه عثمان أهل الرأي من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأجمعوا على أن يهدمه ويزيد فيه وكان أول عمله في شهر ربيع الأول من سنة تسع وعشرين.[١٥]

وكانت زيادة عثمان رضي الله عنه من جهة القبلة ٥ أمتار عند محرابه الذي لا يزال مصلى إمام المسجد النبوي الشريف في وقتنا الحاضر ، ومن جهة الشمال ١٠ أمتار بعد زيادة عمر رضى الله عنه. أما الناحية الغربية ، فقد زاد فيه ٥ أمتار أي أسطوانة واحدة ، فأصبح طول المسجد من الشمال إلى الجنوب ٨٥ متراً ومن الشرق إلى الغرب ٦٥ متراً ولم يتعرض لزيادة المسجد من الجهة الشرقية لوجود الحجرات النبوية[١٦] (شكل رقم ٨).

توسعة الوليد بن عبد الملك

لم تعمل أي زيادة في العصر الأموي (قرابة ٤٤ سنة) إلى أن أمر الوليد بن عبد الملك عامله بالمدينة عمر بن عبد العزيز رحمه الله بالتوسعة في مسجد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في عام ٨٨ من الهجرة.[١٧]

في هذه التوسعة حصل حدث تاريخي هام بقي أثره إلى يومنا هذا وهو إدخال حجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى داخل المسجد النبوي الشريف والتي تضم قبره صلى الله عليه وآله وسلم وقبري صاحبيه وفي بعض الروايات أن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم مدفونة في حجرتها.[١٨]



شكل رقم ٨ . توسعة الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه في السنة ٢٩ من الهجرة والمحافظة على الحجرات

مما تقدم تعرفنا على أسباب التوسعات التي سبقت وحاجة المسلمين لها فلذلك سنذكر ونوضح سبب إدخال الحجرة الشريفة مع توقف خليفتي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الزيادة في الناحية الشرقية والتي كانت غير ضرورية. ويروى أن سبب التوسعة كان بغرض سياسي وهو إخراج الحسن بن الحسن بن علي وزوجه فاطمة بنت الحسين بن علي من منزلهما (حجرة فاطمة رضي الله عنها) حيث كان للحجرة خوخة يظهر منها على الروضة الشريفة وكان أهل المدينة يوقرونه ويقدمونه ويقومون له كلما خرج من الحجرة. ويروي السمهودي[١٩] عن ابن زبالة عن منصور مولى الحسن بن علي قال: كان الوليد بن عبد الملك يبعث كل عام رجلاً إلى المدينة يأتيه بأخبار الناس وما يحدث بها، قال: فأتاه في عام من ذلك، فسأله فقال: لقد رأيت أمراً لا والله مالك معه سلطان ولا رأيت مثله قط. قال وما هو؟ قال كنت في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم فإذا منزل عليه كلّه فلما أقيمت الصلاة رفعت الكلة وصلى صاحبه فيه بصلاة الإمام هو ومن معه ثم أرخيت الكلة وأتي بالغداء فتغدى هو وأصحابه فلما أقيمت الصلاة فعل مثل ذلك، وإذا يأخذ المرآة والكحل وأنا انظر فسألت، فقيل: إن هذا حسن بن حسن. قال: ويحك! فما أصنع هو في بيته وبيت أمه، فما الحيلة في ذلك؟ قال: تزيد في المسجد وتدخل هذا البيت فيه، قال فكتب إلى عمر بن عبد العزيز يأمر بالزيادة في المسجد ويشتري هذا المنزل. قال: فعرض عليهم أن يبتاع منهم فأبوا وقال حسن: والله لا نأكل له ثمناً أبداً قال: وأعطاهم به سبعة آلاف دينار أو ثمانية، فأبوا. فكتب إلى الوليد بن عبد الملك في ذلك فأمره بهدمه وإدخاله وطرح الثمن في بيت المال ففعل وانتقلت منه فاطمة بنت الحسين إلى موضع دارها بالحرة فابتنتها.

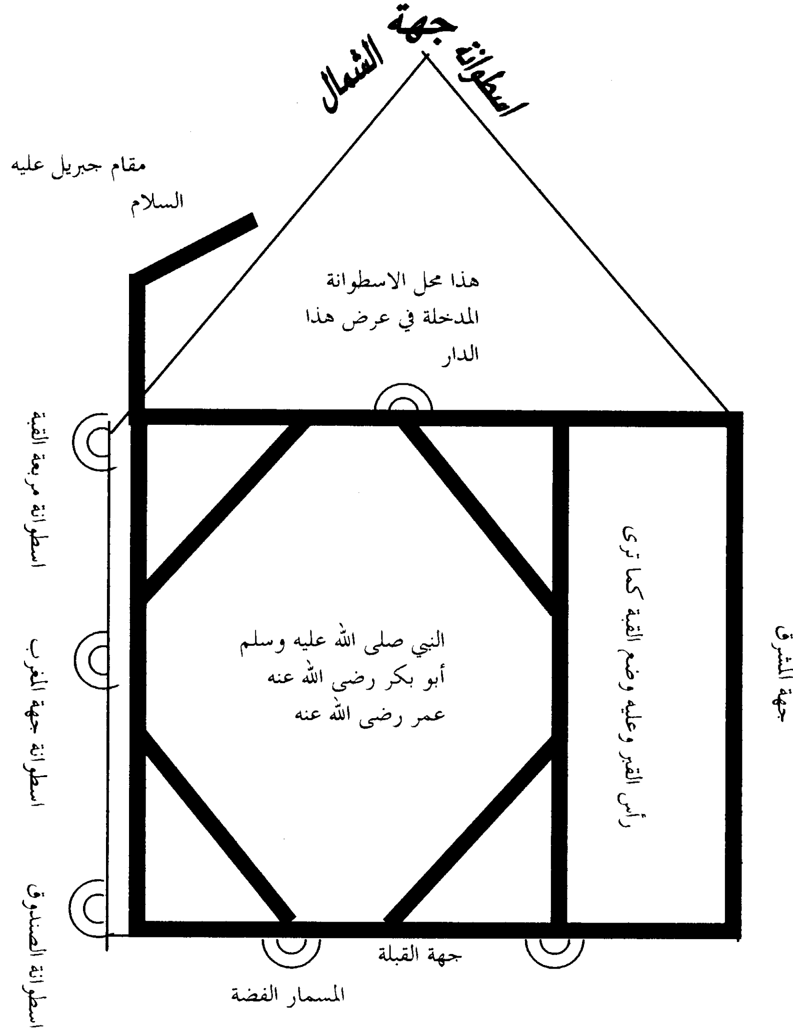
وكتب الوليد إلى ملك الروم يخبره بعزمه على توسعة المسجد النبوي الشريف ويطلب منه أن يعينه بالعمال والمال ومواد البناء فبعث إليه ملك الروم بمائة ألف مثقال ذهب ومائة عامل وأربعين حملاً من الفسيفساء.[٢٠]

ويروي معاذ بن محمد الأنصاري يقول: سمعت عطاء الخرساني في مجلس فيه عمران بن أبى أنس يقول وهو فيما بين القبر والمنبر: أدركت حجرات أزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم من جريد على أبوابها المسوح من شعر أسود فحضرت كتاب الوليد بن عبد الملك يقرأ يأمرنا بهدم حجر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فما رأيت يوماً كان أكثر باكياً من ذلك اليوم. قال عطاء: فسمعت سعيد بن المسيب يقول: والله لوددت أنهم تركوها على حالها ينشأ ناشئ من المدينة ويقدم قادم من الآفاق فيرى ما اكتفى به رسول الله صلى الله عليه وسلم في حياته ويكون ذلك مما يزهد الناس في التكاثر والتفاخر فيها.[٢١]

ولقد بلغت الزيادة في المسجد النبوي إلى أن أصبح عرض المسجد جهة القبلة ٨٣,٧٥ متر وطوله ١٠٠ متر. فكانت الزيادة محصورة على الجهة الشرقية (بغرض إزالة حجرة فاطمة) ومن الجهة الشمالية ومن الجهة الغربية، وتم المحافظة على جدار القبلة فهي باقية من توسعة ذي النورين الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه إلى يومنا هذا (شكل رقم ٩).

الشرفات

المراد بالشرفات ما برز من البناء على جدران صحن المسجد من جوانبه الأربعة، وكان بين الشرفات فتحات تشبه الشبابيك.



شكل رقم ٩ . روى سليمان بن مسلم أن باب السيدة فاطمة رضى الله عنها في المربعة وقد كان صلى الله عليه وسلم يأتيه حتى يأخذ بعضادتيه ويقول: السلام عليكم أهل البيت إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً .

(المصدر: محمد بن عبد الرحمن الحصين، *خصائص وسمات العمارة المجيدية عن السمهودي*)

المنـــــارات

روى السمهودي[٢٢] عن ابن زبالة ويحيي من طريقه عن محمد بن عمار عن جده قال: جعل عمر بن عبد العزيز لمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بناه أربع منارات في كل زاوية منه منارة، قال كثير بن حفص: وكانت المنارة الرابعة مطلة على دار مروان فلما حج سليمان بن عبد الملك أذن المؤذن فأطل عليه فأمر سليمان بتلك المنارة فهدمت وأصبح المسجد بثلاث منارات، طول المنارة الشرقية اليمانية في السماء خمس وخمسون ذراعاً، والمنارة الشرقية الشامية خمس وخمسون ذراعاً، والمنارة الغربية الشامية ثلاث وخمسون ذراعاً وعرض المنارات ثمان أذرع في ثمان أذرع.

الأبـــواب

جعل عمر بن عبد العزيز للمسجد عشرين باباً: ثمانية من جهة الشرق، الأول: القبلي منها ويسمى باب النبي صلى الله عليه وسلم لكونه مقابل بيت النبي صلى الله عليه وسلم لا لأمر آخر وقد سد عند تجديد الحائط وجعل مكانه شباكاً يقف الإنسان عنده من الخارج فيرى حجرة النبي صلى الله عليه وسلم؛ الثاني: باب علي رضي الله عنه كان مقابل بيته خلف بيت النبي صلى الله عليه وسلم وقد سد أيضاً عند تجديد الحائط؛ الثالث: باب علي رضي الله عنه وهو الباب الذي كان يدخل منه النبي صلى الله عليه وسلم (وهو المعروف اليوم بباب جبريل عليه السلام ولم يبق من الأبواب التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخل منها إلا هذا الباب مقابل لدار عثمان بن عفان رضى الله عنه)؛ الرابع: باب ريطة ابنة أبى العباس السفاح ويعرف بباب النساء؛ الخامس: مقابل دار أسماء بنت الحسين بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب وقد سد هذا الباب؛ السادس: باب مقابل دار خالد ابن الوليد رضي الله عنه؛ السابع: باب كان يقابل زقاق المناصع، الثامن: باب كان يقابل أبيات الصوافي؛ التاسع: باب كان في دبر المسجد مما يلي الشام؛ العاشر: وهو الثاني من الأبواب الأربعة التي كانت نافذة في هذا الجانب؛ الحادي عشر: وهو الباب الثالث من هذا الجانب؛ الثاني عشر: وهو الباب الرابع من أبواب هذا الجانب؛ الباب الثالث عشر: باب كان يقابل دار منبره من جهة المغرب؛ الباب الرابع عشر: باب كان يقابل دار شخص يقال له نصير؛ الخامس عشر: باب كان يقابل دار جعفر بن يحيى؛ السادس عشر: باب عاتكة بنت عبد الله بن يزيد بن معاوية وهو باب الرحمة كان مقابل دار عاتكة ثم صارت ليحيى البرمكي وزير الرشيد؛ السابع عشر: باب كان يعرف بباب زياد؛ الثامن عشر: باب آخر كان بين باب زياد وبين الخوخة التي تقابل خوخة الصديق وهذان البابان سدا جميعاً عند تجديد الحائط؛ التاسع عشر: الخوخة المنقولة المعمولة تجاه خوخة أبي بكر الصديق رضي الله عنه التي أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بإبقائها دون سائر الخوخ التي كانت في المسجد. قال أهل السير: إن باب أبى بكر كان غربي المسجد وكان قريب المنبر، ولما زيد في المسجد إلى حده من المغرب نقلوا الخوخة

مثل مكانها أو كما نقل عثمان رضي الله عنه - باب جبريل - إلى موضعه اليوم. العشرون: باب السلام وبه يعرف اليوم ويقال له باب الخشية، ويقال له باب الخشوع؛ وباب سويقة وهو باب مروان بن الحكم وكانت داره مقابلة له من جهة المغرب[٢٣] (شكل رقم ١٠).

التغيرات التي حدثت للمسجد النبوي في العصر الأموي

١ - الحجرة الشريفة: بني حول الحجرة التي تضم قبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وصاحبيه رضوان الله عليهما جدران بدون أبواب على شكل مخمس غير متساوي الأضلاع ولا تصل إلى سقف المسجد ولها شباك من خشب.

٢ - المنبر: زيد في عدد درجاته ست درجات حتى بلغ تسع درجات وكان ذلك على يد مروان بن الحكم.

٣ - المنارات: أحدثها الوليد بن عبد الملك في عمارة الوليد فجعل في كل ركن منارة.

٤ - المحراب المجوف: ولم يكن للمسجد محراب مجوف من قبل.

٥ - المقصورة بناها عمر بن عبد العزيز ليصلي فيها الإمام وجعلها من ساج وزخرف سقفها بالفسيفساء.

٦ - الشرفات وهي من جملة ما أخذت في توسعة الوليد.

ولقد اغفل كثير من الكتاب والمؤرخين تجاوز الوليد للتوسعة من الجهة الشرقية والذي أدى إلى أهم حدث تاريخي في تغيير معالم المسجد وهدم حجرات أمهات المؤمنين وإدخال الحجرة الشريفة في المسجد ومن ثم إعطاء أسباب غير مقنعة بدون سند تاريخي وفي هذا السياق أورد مقتطفات مما ألف حول هذا الموضوع:

- هاشم دفتر دار وجعفر فقيه[٢٤] في "توسعة الحرم النبوي الشريف ومشاريع جلالة الملك سعود،" ١٣٧٣هـ: في عام ٨٨ هجرية شيده الوليد وأضاف إليه حجرات أمهات المؤمنين.

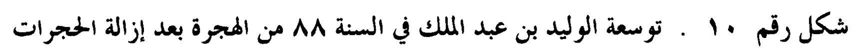
- يوسف عبد الرزاق[٢٥]، *معالم دار الهجرة*، ١٤٠١هـ: يروي أن سبب التوسعة ضيق المسجد.

- محمد السيد الوكيل[٢٦] في *المسجد النبوي عبر التاريخ*، ١٤٠٩هـ: يذكر أن زيادة الوليد نتيجة لازدحام المسجد والحاجة إلى التوسعة.

- مجدي المنصوري[٢٧] في توسعة وعمارة المسجد النبوي الشريف، ١٤١٢هـ: وكان زيادة الوليد بسبب ضيق المسجد على المصلين.

- ناجي محمد حسن الأنصاري[٢٨] في *عمارة وتوسعة المسجد النبوي الشريف عبر التاريخ*، ١٤١٦هـ: ويبدو لي أن رغبة الوليد في الزيادة بمسجد الرسول صلى الله عليه وسلم كانت بسبب ضيق المسجد في عهده.

- محمد بن صالح[٢٩] في الحرم النبوي ا لشريف نشؤه وتوسعاته،" ١٤١٩هـ: ويبدو لي أن رغبة الوليد في الزيادة لمسجد الرسول صلى الله عليه وسلم كانت بسبب ضيق المسجد في عهده.



شكل رقم ١٠ . توسعة الوليد بن عبد الملك في السنة ٨٨ من الهجرة بعد إزالة الحجرات

- محمد إلياس عبد الغني[٣٠] في *المساجد الأثرية في المدينة النبوية*، ١٤١٨هـ: أمر الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك عامله على المدينة المنورة عمر بن عبد العزيز رحمه الله بعمارة المسجد وتوسعته.

- سيد عبد المجيد بكر[٣١] في *أشهر المساجد في الإسلام*، ١٤٠٠هـ: وكانت الزيادة في الشرق والغرب والشمال وأدخل في هذه الزيادة بيوت زوجات النبي عليه الصلاة والسلام.

- الإمام أبو البقاء محمد بن أحمد ابن الضياء[٣٢] في *تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبر الشريف*، ١٤١٨هـ: وذلك أنه لما استعمل عمر بن عبد العزيز على المدينة الشريفة أمره بالزيادة في المسجد فاشترى عمر ما حوله من المشرق والغرب والشام ومن أبى أن يبيع هدم عليه ووضع له الثمن.

- على حافظ[٣٣] في *فصول من تاريخ المدينة المنورة*، ١٤١٧هـ: كتب الوليد بن عبد الملك لعمر بن عبد العزيز عامله على المدينة بعد أن اشترى حجرات أمهات المؤمنين رضي الله عنهن بهدمها وتوسيع المسجد بها.

- صالح لمعي مصطفى[٣٤] في *المدينة المنورة تطورها العمراني وتراثها المعماري*، ١٩٨١م: لم تعمل أية زيادة في المسجد النبوي في العصر الأموي إلى أن أمر الوليد بن عبد الملك عامله بالمدينة عمر بن عبد العزيز بإعادة بناء المسجد النبوي مع إدخال غرف أمهات المؤمنين ضمن مسطح المسجد.

وقد ذكر القصة بمغزاها السياسي كل من السيد جعفر البرزنجي[٣٥] في *نزهة الناظرين* وكذلك صاحب *الدر الثمين في معالم دار الرسول الأمين*، تأليف غالي محمد الأمين الشنقيطي.[٣٦]

الخلاصة والاستنتاجات

١ - أن التوسعة لم تكن ضرورية من الجهة الشرقية في عمارة الوليد مما تسبب في إدخال الحجرة الشريفة في المسجد.

٢ - أن توسعة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه لقبلة المسجد كان تنفيذا لرغبة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم.

٣ - أن توسعة الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه لقبلة المسجد كان بسبب أن سواري المسجد نخرت مثل ما حصل في خلافة أبى بكر فأراد الأجر والثواب من بناء المسجد.

٤ - أن جدار القبلة في زماننا هذا هو نفسه الذي عمله سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه.

٥ - أن الصفة والتي يقال لها خطأ دكة الأغوات هي التي كانت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد التوسعة في السنة السابعة ولا يجوز تغيير مسماها إلى دكة الأغوات أو مصلى الجنائز.

٦ - المحافظة على المباني التراثية أو النسيج العمراني للحفاظ على العمارة التقليدية ولا مانع من إعادة تشكيلها مع المحافظة على المضامين التي كانت تحويها بمواد عصرية ويستفاد ذلك من توسعة الرسول صلى الله عليه وسلم وصاحبيه رضوان الله عليهما للمسجد النبوي.

٧ - عدم الموافقة لمن يقوم بإزالة الآثار النبوية بحجج وليديه (نسبة إلى الوليد بن عبد الملك) والمحافظة على الآثار كشواهد مادية للسيرة النبوية.

٨ - مجموع التوسعات التي حصلت:

التوسعة	السنة	الزيادة	المساحة الإجمالية (متر مربع)
بناء الرسول (صلى الله عليه وسلم)	١	-	١٠٥٠
التوسعة الأولى في عهد رسول الله	٧	١٤٢٥	٢٤٧٥
التوسعة العمرية	١٧	١١٠٠	٣٥٧٥
التوسعة العثمانية	٢٩	٤٩٦	٤٠٧١
توسعة الوليد	٨٨	٢٣٦٩	٦٤٤٠

التعليقات

(١) إبراهيم رفعت، *مرآة الحرمين* (القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٣٤٤هـ)، ١: ٤٤٨.

(٢) على بن احمد السمهودي، *وفاء الوفا*، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط٣ (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٠١هـ)، ١: ٣٣٨.

(٣) مسلم بن الحجاج القشيري، *صحيح مسلم*، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي (استانبول: المكتبة الاسلامية)، ١: ٣٧٣ (حديث رقم ٥٢١)؛ محمد بن إسماعيل البخاري، *صحيح البخاري* (بيروت: دار الفكر، ١٤٠١هـ)، ١: ١١٥.

(٤) محمد بن سعد، *الطبقات الكبرى* (بيروت: دار صادر، د.ت.)، ١: ٢٣٩-٢٤١.

(٥) عبد الملك بن هشام، : *السيرة النبوية*، تحقيق مصطفى السَّقا وآخرين، (بيروت: مؤسسة علوم القرآن، د.ت.)، ٢: ٥٠٠؛ السمهودي، *وفاء الوفا*، ١: ٢٦٥.

(٦) مسلم، صحيح، ١: ٣٧٤.

(٧) ابن سعد، *الطبقات*، ١: ٢٥٥.

(٨) ابن سعد، *الطبقات*، ٢، ١٠١٠ (حديث رقم ٥٠٠).

(٩) السمهودي، *وفاء الوفا*، ١: ٤٨٢.

(١٠) السمهودي: *وفاء الوفا*، ٢: ٤٩٣.

(١١) السمهودي، *وفاء الوفا*، ٢: ٤٩٦.

(١٢) السمهودي: *وفاء الوفا*، ٢: ٤٩٨.

(١٣) البخاري، *صحيح*، ١: ١١٥؛ أبو داوود سلمان بن الأشعث الجستاني، *سنن أبي داوود* (حمص: دار الحديث، د.ت.)، ١: ٣١٠ (حديث رقم ٤٤٨).

(١٤) السمهودي، *وفاء الوفا*، ١: ٣٣٥-٣٤٠.

(١٥) السمهوري، *وفاء الوفا*، ١: ٣٥٦.

(١٦) ناجي محمد حسن الأنصاري، *عمارة وتوسعة المسجد النبوي الشريف عبر التاريخ* (المدينة المنورة: نادي المدينة المنورة الأدبي، ١٤١٦هـ).

(١٧) السمهودي، *وفاء الوفا*، ٢: ٥١٣.

(١٨) محمد بن عبد الرحمن الحصين، "خصائص وسمات العمارة المجيدية للمسجد النبوي،" *سجل بحوث ندوة عمارة المساجد* (الرياض: جامعة الملك سعود، ١٤١٩هـ)، ١:٢٣٥.

(١٩) السمهودي، *وفاء الوفا*، ٢: ٥١٤.

(٢٠) الانصاري، *عمارة وتوسعة*.

(٢١) السمهودي، *وفاء الوفا*، ، ٢: ٥١٧.

(٢٢) السمهودي، *وفاء الوفا*، ٢: ٥٢٦.

(٢٣) السمهودي: *وفاء الوفا*، ٢: ٦٨٦.

(٢٤) هاشم دفتر دار وجعفر فقيه، *توسعة الحرم النبوي الشريف ومشاريع جلالة الملك سعود* (بيروت: مطابع الإنصاف، ١٣٧٣هـ).

(٢٥) يوسف عبد الرزاق، *معالم دار الهجرة* (المدينة المنورة، المكتبة العلمية، ١٤٠١هـ).

(٢٦) محمد السيد الوكيل، *المسجد النبوي عبر التاريخ* (جدة، دار المجتمع، جده، ١٤٠٩هـ).

(٢٧) مجدي أحمد المنصوري، *توسعة وعمارة المسجد النبوي الشريف، رؤية حضارية* (جدة: مؤسسة عكاظ، ١٤١٢هـ).

(٢٨) الانصاري، *عمارة وتوسعة*.

(٢٩) محمد بن عبد الله بن صالح، "الحرم النبوي الشريف نشؤه وتوسعاته،" *ندوة عمارة المساجد* (جامعة الملك سعود، ١٤١٩هـ)، جـ١.

(٣٠) محمد الياس عبدالغني، *المساجد الأثرية في المدينة النبوية* (المدينة المنورة، مطابع الرشيد، ١٤١٨هـ).

(٣١) سيد عبد المجيد بكر، *أشهر المساجد في الإسلام* (جدة: مطابع سحر، ١٤٠٠هـ).

(٣٢) الإمام أبو البقاء محمد بن أحمد بن الضياء، *تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبر الشريف* (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٨هـ).

(٣٣) علي حافظ، *فصول من تاريخ المدينة المنورة* (شركة المدينة المنورة للطباعة والنشر، ١٤١٧هـ).

(٣٤) لمعي صالح مصطفى، *المدينة المنورة تطورها العمراني وتراثها المعماري* (بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٨١م).

(٣٥) جعفر إسماعيل البرزنجي، *نزهة الناظرين* (القاهرة: المطبعة الجمالية).

(٣٦) غالي محمد الأمين الشنقيطي، *الدر الثمين في معالم دار الرسول الأمين* (جدة، دار القبلة، ١٤١١هـ).

بلدة ضَرِيَّة في العصر الأموي

صالح بن سليمان الوشمي*

موقع ضَرِيَّة

تنطق ضَرِيَّة بفتح الضاد وكسر الراء، وتشديد الياء، وتقع ضرية في منطقة القصيم من المملكة العربية السعودية في جزيرة العرب عند الدرجة ٣٤/٤٥°، ٤٢/٢٩° تقريبا.[١]

وشهرة ضرية في كتب التاريخ ومدونات البلدانيين كبيرة، وخاصة في صدر الإسلام حيث كانت هي قطب الحِمى (حمى ضرية) ولعل الشهرة التي اكتسبتها تعود إلى أنها تقف على مشارف صحراء نجد من مدن الحجاز حيث مكة المكرمة منطلق الرسالة، والمدنية المنورة مقر الخلافة الإسلامية، فضلا عما اشتهرت به من طيب هواها وخصوبة تربتا ووفرة مياهها مما زاد في أهمية غطائها النباتي.

ضرية في كتب البلدانيين

نسبت ضرية في تسميتها إلى ضرية بنت ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان.[٢] ويخالف ياقوت هذا ويرى أن اسمها مشتق من الضراء وهو ما واراك من الشجر، وقيل الضراء أرض مستوية فيها شجر.[٣]

ويقول الهمداني: ضرية منازل وبلد يزرع فيه حصنان وسوق جامعة ويقع في الحمى حمى ضرية،[٤] والأصفهاني يقول: ضرية قرية عظيمة غناء يطؤها الطريق[٥] ويعنى بالطريق طريق حاج البصرة.

وقال نصر: ضرية صقع واسع في نجد ينسب إليه حمى ضرية[٦] ويرى الحربي: أنها بلد قديم وقرية عامرة على طول الدهر[٧] وتابعه ياقوت في التنبؤ لاستمرار عمارتها.[٨]

---

* انتقل إلى رحمة الله يوم الاثنين الموافق ١٤١٣/٥/١٥هـ بعد تقديمه هذا البحث للندوة قبل تأجيل موعد انعقادها، ووفاء له تم إدراج البحث ضمن بحوث الندوة وألقاه ابنه عبد الله بن صالح الوشمي المحاضر بقسم اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية (هيئة التحرير).

سكان ضرية حتى العصر الأموي

كانت ضرية في الجاهلية من مياه الضِّباب، والضِّباب[٩] بكسر الضاد ينسبون إلى معاوية بن كلاب بن ربيعة، وهم بطن من بني عامر بن صعصعة.[١٠]

ويقال: إن ذا الجوشن الضِّبابي، واسمه شرحبيل بن الأعور بن عمرو بن معاوية،[١١] أسلم على البئر المسماة "ضرية"[١٢] وهي تقع عند جبل وَسَط من جبال الحمى ويقول عنها:

دعوت الله إذ سغبت عيالي ... ليجعل لي لدى وسطٍ طعاما

فأعطاني ضرية خير بئر ... تثج الماء والحب التؤاما

وذكر الحربي: إن ذا الجوشن أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستقطعه جبل وَسَط فأقطعه إياه، وكان بحضرة هذا الجبل قاع يزدرع فيه.[١٣]

ولعل الضِّباب وفروع أخرى من بني كلاب ظلت تحتفظ بمياهها ومنازلها من ضرية وحماها، حتى العصر الأموي، كالجعفريين وهم بنو جعفر بن طلاب وبنو أبي بكر بن طلاب فكانت بطون بني كلاب أكثر الناس أملاكا في ضرية،[١٤] وقد أسهر بنو جعفر بن كلاب إلى البيت الأموي.[١٥]

وممن استوطن ضرية بطون من غَنيٍّ وفَزَارَة وأكثر مياههم عليها قرى ونخيل وقد يزرعون عليها.[١٦]

كما استوطنها رجال من بطون قريش من بني الأدْرَم وبني بُجَيْر وكثروا فيها وكانت لهم مياه في الحمى فوقع الشر بينهم واغتال بعضهم بعضا.[١٧]

ونزلها جعفر بن مصعب بن الزبير بولده حتى مات وقد استنبط فيها مياها.[١٨]

وكان للأنصار من أهل المدينة فيها مياه وقد اشتراها منهم جُرْش مولى لابن هشام.[١٩]

كما شارك في حيازة بعض المياه في ضرية وحماها بطون من بني عبس وبني أسد.[٢٠]

أهمية بلدة ضرية في العصر الأموي

لقد أصبحت بلدة ضرية في العصر الأموي من أكبر بلدان نجد لأمور منها:

١- وقوعها على مشارف صحراء نجد من الحجاز.

٢- اختيار مساحاتها المنبسطة حولها والغنية بمراعيها الخصبة وتعدد أوديتها موقعا للحمى.

٣- توافر مصادر المياه فيها.

وتأتي أهمية بلدة ضرية في الإدارة الإسلامية لكونها مركزا لإدارة الحمى حيث تقع في وسط الحمى حمى ضرية، ولا أريد أن أصرف الحديث عن ضرية إلى حماها إلا أنني أوضح أن حمى ضرية كان من أكبر الأحماء في صدر الإسلام وحين كانت الإدارة الإسلامية في المدينة المنورة، وكان أول من سن هذا العمل الإداري الخليفة عمر ابن الخطاب وهو أول من حمى بضرية ثم زاد فيه عثمان بن عفان رضى الله عنهما.[٢١]

والحِمى عمل إداري عسكري ألجأت إليه الضرورة، والحاجة إلى توفير مصدر غذاء لإبل الصدقة وماشيتها، وما تقوم به الإدارة الإسلامية من تزويد للجيوش المخصصة للفتوح الإسلامية حين ذاك، والإبل والخيل[٢٢] من أهم مصادر الحركة والنقل للجيوش في ذلك الزمن، وهي تحتاج إلى تغذية مستمرة ومساحات واسعة للرعي وموارد مياه وفيرة، وكل هذا يتوفر في ضرية وما يحيط بها من مساحات جيدة المراعى خصبة التربة عذبة الماء.

وقد وصفت بأنها " أرض مربَ منباتَ كثيرة العشب، سهلة الموطأ كثيرة الحموض تطول عنها لأوبار وتتفتق الخواصر.[٢٣]

وكلما زاد النعم في أرض حمى ضرية زاد والي ضرية في مساحته، استنادا إلى أمر عثمان رضي الله عنه الذي أمر أن يزاد في الحمى ما يحمل إبل الصدقة وظهر الغزاة فزاد فيها زيادة لم تحددها الرواة.[٢٤] وكان أشد ولاة الحمى انبساطا ومنعا الوالي الأموي إبراهيم بن هشام المخزومي[٢٥] وقد ربى فيه من كل أنواع الإبل.[٢٦]

وتوافر مصادر مياهها وسهولة استنباطها جعل الولاة يتسابقون إلى هذا العمل العمراني الذي من شأنه أن يزيد في دخل الدولة، ويسهم في توفير مصدر للغذاء. وأول من سارع إلى هذا الخليفة عثمان رضي الله عنه الذي اشترى فيها مياها، كما استنبط عماله على حدود الحمى الجنوبية الشرقية عينا وبنوا عندها قصرا يسكنونه[٢٧] وحفر فيها مروان بن الحكم حفيرة يقال لها (الضَّفْوة)،[٢٨] كما استنبط فيها إبراهيم بن هشام الوالي الأموي العديد من المياه، ولعله جعل عاملا خاصا على موارده في ضرية يقول[٢٩] فيه الشاعر:

يـا بـن هشـام أنـت عـالي الذِّكـرِ	جَلْـدُ القُـوىَ مُؤيـدُ بالنصـرِ
سـدتَ قريشـا بالنَّـدى والفخـرِ	كيـف تَـرى عـامِلكَ ابـن عَمْـرِو

ومثله الوالي الأموي أبو خليد العبسي،[٣٠] وغيرهم من سراة القوم ممن أقدموا على استغلال مواردها الطبيعية، فقد حفر فيها عبد الله بسن مطيع العدوي، وهو من رجال قريش في عهد عبد الله بن الزبير،[٣١] حفيرة عند جبل شعبي،[٣٢] وعثمان بن عنبسة السفياني الذي حفر عين ضرية وأقام سدها.[٣٣]

كما نزلها محمد بن جعفر بن مصعب بن الزبير بولده وهو من أشراف مكة وكان علما من أعلام العرب.[٣٤]

وقامت فيها بساتين،[٣٥] وقطائع خاصة للسلطان،[٣٦] وقد تدل هذه على أن تلك القطائع تعود لخزينة الدولة الإسلامية فيكون فيها مصدر دخل ثابت للخزينة العامة حين ذاك.

ومن موارد ضرية الطبيعية أيضا وجود بعض المعادن التي تستخرج من مناجمها التالية:

١ - *معدن حلِّيت:* وهو جبل أسود في أرض الضِّباب ليس بالحمى أعظم منه إلا جبل شعبي، وهو كثير معادن التبر، وكان يدعى معدنه بالنّجّادى نسبة إلى "نجاد بن موسى" من ولد سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وتقول الرواية إنه لم يعلم في الأرض معدن أكثر منه نيلا. وقد استخرج والذهب غال فأرخصه بالعراق والحجاز ثم قل نيله لغلبة الماء عليه[٣٧] لم تحدد الرواية فترة توقفه إلا أنها تؤكد أن أهله استغلوه دهرا قوما بعد قوم[٣٨] ويؤكد

السمهودي أن له عاملا خاصا يخرج من المدينة[٣٩] وفي هذا ما يؤكد أهمية هذا المعدن ودوره الاقتصادي في داخل المدينة في العصر الأموي.

٢- *معدن الزُّهلُولة (الذُّهلولة)*: ويقع في بلاد الضِّباب وسط الحمى ويقال لمعدنه معدن الشجرتين.[٤٠]

٣- *معدن مُوَزّر*: ذكر ياقوت أنه معدن ذهب بضرية من ديار كلاب[٤١] ويقع شرقي وادي الجِرِيب غرب بلدة ضرية.[٤٢]

٤- *معدن الأحْسَن أو الحَسَن*: وعدَّه ابن الفقيه من أعمال المدينة،[٤٣] وهو لبني أبي بكر بن كلاب،[٤٤] وهو معدن فضة،[٤٥] وقيل معدن ذهب.[٤٦] والأحسن أحد جبال ضرية المحيطة بها من الجنوب،[٤٧] وغيرها من المعادن.[٤٨]

وتأتي أهمية بلدة ضرية وحماها أن تجمع الناس بها، وصارت لهم موارد فيها أو قريبة، وكثرة الناس واجتماعهم أدى إلى تنازع البعض على المياه والمراعي مما يصل إلى الاشتباك وسقوط بعض القتلى. فقد تنازع محمد ابن جعفر بن مصعب حول ماء لبنى الأدرم من قريش، وكان محمد من أشد الرجال فأخذ أسرى ممن نازعوه حتى أقدمهم ضرية.[٤٩] كما تداعى بنو بكر بن كلاب، وبنو جعفر بعد خلافهم على (ماء قنبع) للصلح وتحكيم "سلمة ابن عمرو بن أنس" بعد ما سفرت بينهم السفراء من أهل ضرية، وكان سلمة شريفا قارئا لكتاب الله عز وجل حسن العمل به.[٥٠]

وكثرة المنازعات على موارد مياهها يثبت أن فيها جموعا كثيرة من رجال البادية مما يكلف حواط الحمى من الدخول كثيرا في فض المنازعات.[٥١] وتصف بعض النصوص أصحاب المياه ورجال القبيلة بأنه جمع منهم جمع كثيف[٥٢] وقد يأتي للشهادة منهم عند القاضي والحكم في ضرية أربعون من كل بطن.[٥٣]

إن تجمع الناس حول مياهها ومزارعها ومراعيها الخصبة، هو الذي دعى الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أن يكتب إلى أهلها "جَمِّعوا بضرية".[٥٤] وقد تعنى هذه الإشارة إلى تعدد أماكن إقامة صلاة الجمعة وقد ذكر الحربي أن بها منبرا.[٥٥]

إن وقوع بلدة ضرية في قلب الحمى، جعلها مقصدا لكثير من العرب منهم أغنياء وأشراف من كرام البيوتات.[٥٦]

كما ظهر فيهم رجال علم وفتيا، وأدب ولغة، يتضح هذا من استقراء لعبارات ونصوص بعض المؤرخين، فقد روى الهجري: عن شيخ من أهل ضرية.[٥٧] ووصف أحدهم من بنى أبي بكر بن كلاب: وهم أكثر الناس أملاكا في ضرية[٥٨] قائلا: إنه "أفقه من رأيتُ يشرح اللغة،"[٥٩] واستشهد بقول الشاعر:

ما قد قلت- ويحك- فارضوني ... إلى أهل اليمامة، أو ضرية

والمفارضة: المفاتاة، والفرّاض: جمع فارض: الفقيه.[٦٠]

وهذا يدل على أن ضربة كانت مرجعا لمريدي الفتوى والقضاء، كاليمامة في ذلك الوقت.[٦١]

أما البكري فيقول: وذكر مشايخ من أهل ضرية، ويقول: فيما زعمت علماء غَنِّى[٦٢] من أهل ضرية.

وقوعها على مشارف صحراء نجد من الحجاز جعلها ملتقى الطرق، وخاصة طريق حاج البصرة، فضرية هي المنزل السادس عشر في مراحل الطريق ما بين البصرة ومكة.[٦٣] والبصرة من أهم مدن العراق في القرن الأول الهجري، وطريق البصرة من أهم طرق الحج والتجارة التي تربط الحرمين بالعراق- حين ذاك- ولهذا أصبحت ضرية من أكبر البلدان التي تمون بمحطتها هذا الطريق الحيوي كما تنطلق منها وتأتي إليها الطرق التالية:

١- طريق أهل ضرية إلى الكوفة.[٦٤]

٢- طريق يربطها باليمامة.[٦٥]

٣- طريق أهل النباج إلى ضرية.[٦٦]

٤- طريق أهل أضَاخْ إلى ضرية.[٦٧]

٥- طريق أهل الفلج إلى ضرية،[٦٨] ويلتقي مع طريق حاج البصرة وحاج البحرين.[٦٩]

قصد ضرية بعض الناس للنزهة فأشاد بحسن هواها وطيب مرعاها وخفة مائها.[٧٠] يقول الشاعر الأموي جرير:[٧١]

أحــب الـــدُّور مـــن هضبـــات غَـــوْلٍ ولا أنســـــى ضريـــــة والرِّجــــــاما

ويقول أيضا:

أتنســـى دراتـــي هضبـــات غَـــوْلٍ وإذْ وادي (ضريّـــــة) خـــــيرُ وادى

وغَول، والرِّجام مواقع جنوب شرقي حمى ضرية.[٧٢]

وقال آخر:[٧٣]

ألا يـــا حبـــذا لـــبنُ الخلايـــا بمـــاء (ضريّـــة) العـــذبِ الـــزلالِ

وتذكَّر زياد بن حنظلة الغنوي دياره في ضرية وهو في العراق سواء في البعث (التجنيد) أو التجارة فقال:[٧٤]

ألا ليـت شـعري هـل أبيـتن ليلــة بميثــاء لا تــؤذى عيــالي بقوقُهـــا

وهـــل تـــأخُذنيِّ ليلـــة ذات لـــذّةٍ يَـدَ الدهــر ذاك رعدُهــا وبروقُهـــا

مـــن الواســقاتِ المــاء حــول (ضريــة) يمــج النــدى ليــل التمــام عروقُهـــا

وقال عنها أحد سكانها ومحبيها: إن منزله في "مساقط الحمى حمى ضرية بأرض لعمر الله مـا نريد بها بديلا عنها ولا حولا، قد نفختها العذوات، وحفتها الفلوات، فلا يملولح ترابها، ولا يمعر جنابها ليس فيها أذى، ولا قذى."[٧٥]

إدارة بلدة ضرية في العصر الأموي

أجمع أكثر أصحاب البلدانيات بأن ضرية تتبع في إدارتها والي المدينة المنورة في صدر الإسلام وحتى نهاية العصر الأموي.[٧٦]

ولعل تبعيتها الإدارية للمدينة المنورة بنيت على الاعتبارات التالية :

١- قربها إلى المدينة ، والمدينة هي العاصمة الأولى في الإدارة الإسلامية.

٢- ارتباط العاصمة (المدينة) بالحمى الذي هو مكان رعي ماشية إبل الصدقة وتدريب وتجميع الجيوش الإسلامية التي تستخدم في الفتوح وقد ظل نظام الحمى محافظا عليه حتى أبيحت الأحماء في العصر العباسي في خلافة المهدي.[٧٧]

٣- أكثر سكان ضرية من بنى كلاب ،[٧٨] وجبايتهم إلى والي المدينة.[٧٩]

وبما أن ولاة المدينة المنورة في العصر الأموي هم ولاة ضرية وحماها فإن ولاة المدينة ، حسب ما توضح بعض المصادر والحوليات هم[٨٠] التالية أسماؤهم :

١- أبو هريرة رضى الله تعالى عنه سنة ٤٠ هـ ، وقيل : أبو موسى الأنصاري.

٢- مروان بن الحكم سنة ٤١هـ.

٣- سعيد بن العاص بن سعيد بن سعيد بن العاص من ربيع الأول سنة ٤٩ إلى ٥٦هـ.

٤- مروان بن الحكم للمرة الثانية سنة ٥٦هـ.

٥- الوليد بن عتبة بن أبى سفيان في شهر القعدة سنة ٥٧هـ.

٦- عمرو بن سعيد بن العاص (الأشدق) سنة ٦٠هـ ومعها مكة المكرمة.

٧- الوليد بن عتبة للمرة الثانية سنة ٦١هـ.

٨- عثمان بن محمد بن أبى سفيان من قبل يزيد بن معاوية سنة ٦٢هـ.

٩- عبيد الله بن الزبير من قبل عبد الله بن الزبير سنة ٦٤هـ.

١٠- جابر بن الأسود بن عوف من قبل عبد الله بن الزبير سنة ٦٥ هـ.

١١- العباس بن سهل من قبل عبد الله بن الزبير سنة ٦٥هـ.

١٢- مصعب بن الزبير من قبل عبد الله بن الزبير سنة ٦٥هـ.

١٣- جابر بن الأسود للمرة الثانية من قبل عبد الله بن الزبير سنة ٦٨هـ.

١٤- طلحة بن عبيد الله بن عوف من قبل عبد الله بن الزبير سنة ٧٢هـ.

١٥- طارق بن عمرو مولى عثمان من قبل عبد الملك سنة ٧٢هـ.

١٦- الحجاج بن يوسف الثقفي سنة ٧٤هـ.

١٧- أبان بن عثمان سنة ٧٥هـ.

١٨- هشام بن إسماعيل المخزومي سنة ٨٢هـ.

١٩- عمر بن عبد العزيز سنة ٨٧هـ.

٢٠- عثمان بن حيان المرّي سنة ٩٣هـ.

٢١- أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم من قبل سليمان بن عبد الملك سنة ٩٦هـ.

٢٢- عبد الرحمن بن الضحاك بن قيس الفهري سنة ١٠١هـ ومعها مكة المكرمة.

٢٣- عبد الواحد بن عبد الله النضري سنة ١٠٤هـ ومعها مكة المكرمة.

٢٤- إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي سنة ١٠٦هـ ومعها مكة المكرمة.

٢٥- خالد بن عبد الملك بن الحارث بن الحكم سنة ١١٤هـ.

٢٦- محمد بن هشام بن إسماعيل المخزومي سنة ١١٧هـ ومعها مكة المكرمة.

٢٧- يوسف بن محمد بن يوسف الثقفي سنة ١٢٥هـ.

٢٨- عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز سنة ١٢٦هـ.

٢٩- عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك سنة ١٢٧هـ.

٣٠- محمد بن عبد الملك بن مروان سنة ١٣٠هـ.

٣١- الوليد بن عروة بن محمد بن عطية السعدي سنة ١٣١هـ.

٣٢- يوسف وقيل عيسى بن عروة سنة ١٣٢هـ وهو آخر ولاة بني أمية على المدينة المنورة.

ومن خلال تتبع للنصوص التي عثرت عليها، وجدت أن من عمال ولاة المدينة على ضرية في العصر الأموي ما يلي:

١- عثمان بن عنبسة بن أبي سفيان بن حرب بن أمية[٨١] ولعله من أشهر عمال ضرية لولاة عبد الله بن الزبير على المدينة حين استقلاله بالحجاز عن الأمويين (٦٤-٧٢هـ).[٨٢] وكانت تربط عثمان بن عنبسة صلة في بيت الزبير بن العوام،[٨٣] وقد استطاع استغلال بعض موارد ضرية فاستنبط بها عينا نسبت إليها، وأساحها وغرس على مياهها النخيل، وأقام على واديها سدا "ضفيرة" ليزيد من منسوب ماء العين،[٨٤] ولعل هذه العين وما سقت انتهت إلى بنى العباس فيما ورثوه من الأمويين.[٨٥]

٢- ابن خليد العبسي ذكره البكري عاملا على ضرية والحمى، وذكر أنه خال للوليد وسليمان إبنا عبد الملك ابن مروان، وإنه نزلها في دولتهم[٨٦] ولعله ظل واليا على ضرية وحماها فترة خلافة الوليد وسليمان (٨٦-٩٩هـ).[٨٧] ويظهر أنه حاول الاستفادة من مواردها فوهب سليمان بن عبد الملك له مكانا بين جبل سواج، ومتالع في الحمى فحفر فيه حفيرة.[٨٨] وخليد كان من المقربين في البيت الأموي فقد تولى الكتابة.

٣- لعل من عمال والي المدينة إبراهيم بن إسماعيل بن هشام المخزومي في عهد هشام بن عبد الملك (١٠٥-١٢٥هـ) على ضرية من اسمه (عمرو) الذي أشار إليه الشاعر بقوله مخاطبا إبراهيم بن هشام حيثما استنبط عماله

عينا في ضرية. سدت قريشا بالندى والفخرى.. كيف ترى عاملك ابن عمرو... إلخ.[٨٩] كما أشار البكري والي مولى لإبراهيم بن هشام اسمه "جُرْش" وأنه حفر في ضرية حفيرة عند شعبي سماها الجرشية،[٩٠] ولعله أيضا من عمال إبراهيم على ضرية فقد كان إبراهيم بن هشام من أشد ولاة المدينة انبساطا في الحمى وزيادة في مساحته واستغلالا لموارده[٩١] ولعل نفوذه وتوسعه في الحمى مستمد من خؤلته للخليفة هشام بن عبد الملك.[٩٢]

٤- ومن عمال ضرية في خلافة هشام بن عبد الملك- من اسمه "عثمان" فقد كان عاملا على ضرية لوالي المدينة خالد بن عبد الملك بن الحارث بن الحكم (١١٤-١١٧هـ).[٩٣] وقد أشار إليه ياقوت في نص نقله في حديثه عن بَتِيلْة "وبتيل ماء في داير بني كلاب." وقال: وعلى المدينة رجل من قريش يقال له خالد، واستعمل خالد على ضرية رجلا يقال له عثمان، وإن عبيد الله بن ربيع خاصمه قوم من بنى أبي بكر في ماء لهم يقال له "بتيل" فخاف عبيد الله أن يقضى عليه فارتحل إلى خالد بالمدينة وقال:

إلى الله أشكو أن عثمان جائر علـيّ ولم يعلم بذلك خالدُ.[٩٣]

ولا يخفى أهمية اقتصاديات (ضرية وحماها) لوالي المدينة المنورة، فقد كان ولاة المدينة يخصون معادنها بعامل خاص.[٩٥]

المخلفات الأثرية في ضرية

من خلال الزيارة الميدانية لضرية وللتعرف على مخلفاتها الحضارية تبين لي ما يلي:

١- عين ضرية

يذكر بعض المعاصرين من أهل ضرية الذين التقيت بهم حين زيارتي للموقع أنهم لا يعرفون أن هناك عين ماء قديمة ذات قنوات محكمة إلا في عام ١٣٩١هـ. حينما نزلت على المكان سيول غزيرة أجرت الوادي طويلا فأظهرت مياه الوادي إحدى قنوات العين القريبة من شقة الوادي، فظهرت للفلاح المجاور للمكان فدفعه فضوله إلى تعميقها والبحث عن قنواتها فتأكد أنها امتداد لعين عذبة قديمة تطمرها أركام من الرمال المحمولة والمخلفات القديمة. وعند تتبعي لطرق القناة المكشوفة بواسطة مياه الوادي تبين لي ما يلي:

١- تمتد القناة من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي ولعل منبع العين يكون في هذا الاتجاه.

٢- يقوم قرب مجرى العين واد يتجه إلى الشرق وتسير قناة العين أو المكتشف منها حاليا على جانبه الشمالي الشرقي ويقوم في شرقيه سد قديم.

٣- تظهر الفتحات الحالية بعمقها أن مجرى أو قناة العين غطيت بطبقة مكتسبة وكثيفة من الرمل والحصوة الصغيرة حسب طبيعة تلك الأرض وهذا يدل على أن العين وقناتها مطمورة منذ زمن طويل قد لا نعرف تحديده بالضبط إلا أنه يمكن ربطه بفترات الضعف التي مرت على الخلافة العباسية. ولعل هذه القناة تعود للعين التي استنبطها عثمان بن عنبسة السفياني في العهد الأموي ثم عادت لبني العباس فيما قبضوه بعد بني أمية.

٤- تظهر الفتحات قوة استحكام وتصميم قناة العين فقد وضعت فيها درجات منقورة على قدر قدم الرجل لاستخدامها حين النزول والصعود لعمليات التنظيف والصيانة.

٥- بعض الفتحات منقورة بالأرض إذا كانت شديدة التماسك، والبعض مطوي بالحجر الصخري بطريقة جيدة محكمة وكل فتحة مغطاة بألواح صخرية سميكة.

٦- لا أستبعد أن العين بقناتها هذه أو قنواتها تمتد حتى (منطقة تسمى حاليا بالجِرْوانِيّة) وتقع ما بين جبل الكُوَيْكِب وامتداد سِنَاف ضَرِيّة شرقا وهي مكان زراعي كما يتضح من معالم آثاره الباقية.

٧- هناك وادٍ آخر صغير يتجه إلى مكان (الجروانية من الشمال) ويلتقي مع الوادي الأول عند نقطة السد قريبا من امتداد قناة العين.

٢- سـد ضَرِيّة

١- يقع في شرقي جنوب بلدة ضرية الحالية وفي وسط ضرية القديمة.

٢- أقيم السد ما بين جبل الكُوَيْكب (أو ضِلَع ضرية) جنوبا ويمتد شمالا ببعد غير طويل ليحجز مجرى واد يتجه من الشمال الغربي إلى الشرق وينتهي السد بقرب ارتفاع الأرض التي قامت عليها أو قريب منها الأبنية القديمة لضرية الحالية وهذا المكان يقرب من جبل يسمى "سناف ضرية."

٣- جزء من السد كبير وهو طرفه الشمالي أعتقد أنه مردوم بالرمال والحصوة المتكونة والمكتسبة بواسطة الرياح ولم يبق إلا طرفه الجنوبي المتصل بجبل الكويكب.

٤- بعد امتداد حوالي ٢٥ مترا عمل له التفاف نصف دائري كبير ليكون دعما للمجرى.

٥- حجم المتبقي والظاهر من صخور السد كبير جدا وتبدو للمشاهد على الطبيعة وكأنها منقولة من الجبل الممتد منه وهو ما يسمى بجبل الكويكب حاليا. أو الربوضى ولعله ما كان يسمى بضلع ضرية سابقا.[٩٦]

٦- لعله هو السد الذي أقامه عثمان بن عنبسة بن سعيد بن أبي سفيان على العين التي حفرها أيضا كما تقول رواية السمهودي واغترس النخل وضفر بها ضفيرة بالصخر لينحبس الماء وهو سد يعترض الوادي فيقطع ماءه وينحبس زمانا ليكون أغزر للعين وإن أمر هذا السد والعين انتهى إلى بني العباس فيما انتهي إليهم في آخر ولاية أبي العباس.[٩٧]

٧- ارتفاع بقية السد الحالية تتراوح ما بين ١,٥ مترا إلى متر واحد وقد غطت الرمال جزءا منه ولابد أن أجزاء أخرى ساقطة أيضا منه على طول الزمن إذا عرفنا أنه أقيم إبان الدولة الأموية على أبعد تقدير.

٨- تهدد بقيته الحركة العمرانية الشاملة لأجزاء المملكة العربية السعودية مع عدم العناية من الأهالي هناك به، أنصح بالعناية والمحافظة عليه وترميمه علما أن الطريق الترابي الموصل إلى بلدة ضرية وعند الدخول إليها مما يلي طريق بريدة يطأ السد تماما.

٣- ملتقطات ضرية

تقوم ما بين مكان ضرية الحالي والسد- أكمات وأطلال لبقايا قصور ومساكن تدل عليها التلال المتراكمة هناك ومن هذه الأماكن يلتقط الأهالي بقايا ومخلفات من الفخار والزجاج الإسلامي الملون وقطع حجرية كبقايا أواني أو غيرها ولعل هذا هو مكان ضرية القديمة.

عمل حفر الوادي المتجه من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي والمار بمزرعة الفلاح الذي استنبط الماء من فتحات العين القريبة منه وعلى الضفة الشرقية للوادي عمل حفر هذا الوادي مجسا قد يبلغ عمقه أحيانا أكثر من مترين وقد حصلت منه على عدة أنواع من الفخار والزجاج والأحجار المنقوشة والعظام وقد ساعد على تعميقه أيضا رفع (الشيول) من قاعة البطحاء لاستخدامها في البناء الحديث.

يذكر أن الأهالي أحيانا وبنسبة قليلة قد يحصلون على قطع ذهبية ويسمونها مشخصا وكلما جاءت السيول وعملت حفرا (أو خسفا في الأرض) سارع البعض إلى البحث لعلهم يحصلون على شيء جديد.

٤- الجِرْوَانِيّة

وتقع جنوب شرقي ضرية الحالية ويعرفها الأهالي باسم الجروانية وهي مكان متسع افيح خلف جبل الكويكب (ضلع ضرية) يدعها الطريق الترابي المؤدي لضرية على شماله عند مدخل ضرية مع السد تماما، وتمتد ما بين الشمال والجنوب يحجزها في الغرب مرتفع جبل الكويكب وفي الشرق رابية ممتدة من سناف ضرية.

مخلفاتها الأثرية

يشاهد الناظر فيها بقايا أسوار وحيطان مستطيلة الشكل ظاهرة للعيان منها مستطيل يبلغ مسطحه ٣٠٠× ١٠٠ متر تقريبا وتظهر على سطحه قناوات للمياه مطمورة بالرمال وفي زاويته الجنوبية الشرقية آثار مبان مطمورة أيضا.

كما يوجد في طرفه الشمالي منخفض كبيرا إما أن يكون أساس بئر قديمة أو ركية أو بركة للماء نقلت حجارتها واستخدمت لأغراض البناء وقد أشار الحربي إلى وجود بركة في ضرية وآبار كثيرة ونخيل.[٩٨]

ولا أستبعد أن يكون هذا الشكل المستطيل أحد بساتين ضرية العامرة بالنخيل والفاكهة قديما آنذاك وأن العين قد تصل إليه أيضا،[٩٩] ولعل هذا المكان هو ما قصده البكري بقوله: إن معروف بن عبد الله بن حيان بن سلمى خال زوج أبي العباس السفاح استقطع عين ضرية وما سقت من أبي العباس السفاح حيث وقد عليه فاقطعه إياها.[١٠٠]

وبقايا أساسات المخلفات في الجروانية شكلها التخطيطي مستطيل وكأنها استخدمت كلها للزراعة وخاصة البساتين والنخيل كما يتضح من بقايا امتداد القنوات، انظر الرسم التقريبي رقم (٣).

٥- كتابات إسلامية بضرية

تنتشر هناك وعلى صخور جبل سناف ضرية الشمالي كتابات إسلامية قديمة كوفية الشكل بدون نقط (أغلبها مشجر الحروف) وكما تظهر لمتأملها أدعية وأغلبها تخص رجلا واحدا سواء كان هو كاتبها أو غيره ولا تزال تنطق بجمال خطها وروعته ولم تمتد إليها حتى الآن يد العبث لبعدها وارتفاع مكانها من الجبل.

ويظهر لي أن كاتبها واحد[١٠١] وأنها من رسم الخط المتبع في القرن الثالث الهجري.

التعليقات

(١) الحربي، *كتاب المناسك*، تحقيق حمد الجاسر، ٥٩٤ وهامشها.

(٢) الحميري، *الروض المعطار*، ٣٧٧.

(٣) *معجم البلدان*، ٣: ٤٥٧.

(٤) *صفة جزيرة العرب*، ٢٨٨.

(٥) *بلاد العرب*، ٣٩١؛ السمهودي، *وفاء الوفا*، ١٠٩٢.

(٦) السمهودي، *وفاء الوفا*، ٢: ١٠٩٢.

(٧) *كتاب المناسك*، ٥٩٤.

(٨) *معجم البلدان*، ٣: ٤٥٧.

(٩) سموا بالضِّباب لأن عمرو بن معاوية سما أولاده الأربعة: ضبًا ومضبا وضبابًا وحسيلا؛ انظر: ابن الكلبي، *جمهرة النسب*، ٣١٤-٣٢٩.

(١٠) الكلبي، *جمهرة النسب*، ٣١٤؛ ابن حزم، *جمهرة أنساب العرب*، ٢٨٢.

(١١) ابن حجر، *الإصابة*، ١: ٤٨٥.

(١٢) البكري، *معجم ما استعجم*، ٢: ٨٦٥.

(١٣) *كتاب المناسك*، ٥٩٤-٥٩٥.

(١٤) البكري، *معجم ما استعجم*، ٢: ٨٦٢، ٨٦٦.

(١٥) ابن حزم، *جمهرة أنساب العرب*، ٢٨٥.

(١٦) البكري، *معجم ما استعجم*، ٢: ٨٦٨-٨٧٠؛ حمد الجاسر، *أبو علي الهجري*، ٢٦٤.

(١٧) ابن حزم، *جمهرة أنساب العرب*، ١٢-١٢٨؛ البكري، *معجم ما استعجم*، ٢: ٨٦٣؛ السمهودي، *وفاء الوفا*، ٢: ١٠٩٦-١٠٩٧.

(١٨) السمهودي، *وفاء الوفا*، ٢: ١٠٩٧.

(١٩) البكري، *معجم ما استعجم*، ٢: ٢٦٤؛ السمهودي، *وفاء الوفا*، ٢: ١٠٩٧.

(٢٠) البكري، *معجم ما استعجم*، ٢: ٨٦٤-٨٦٨.

(٢١) السمهودي، وفاء الوفا، ٢: ١٠٨٧.

(٢٢) كان في الحمى في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه أربعون ألف رأس من الإبل، ومثلها من الخيل؛ انظر: السمهودي، *وفاء الوفا*، ٢: ١٠٨٩.

(٢٣) البكري، *معجم ما استعجم*، ٢: ٨٦٠.

(٢٤) البكري، *معجم ما استعجم*، ٢: ٨٦٠.

(٢٥) البكري، *معجم ما استعجم*، ٢: ٨٦٠.

(٢٦) السمهودي، *وفاء الوفا*، ٢: ١٠٩٣-١٠٩٤.

(٢٧) البكري، *معجم ما استعجم*، ٢: ٨٦٠-٨٦١.

(٢٨) البكري، *معجم ما استعجم*، ٢: ٨٦١.

(٢٩) البكري، *معجم ما استعجم*، ٢: ٨٦٤.

(٣٠) السمهودي، *وفاء الوفا*، ٢: ١٠٩٩.

(٣١) الزبيري، *كتاب نسب قريش*، ٣٨٤.

(٣٢) البكري، *معجم ما استعجم*، ٢: ٨٦١.

(٣٣) السمهودي، *وفاء الوفا*، ٢: ١٠٩٨.

(٣٤) السمهودي، *وفاء الوفا*، ٢: ١٠٩٧.

(٣٥) البكري، *معجم ما استعجم*، ٢: ٨٧٦.

(٣٦) البكري، *معجم ما استعجم*، ٢: ٨٦١؛ السمهودي، *وفاء الوفا*، ٢: ١٠٩٧.

(٣٧) البكري، *معجم ما استعجم*، ٢: ٨٧٥؛ السمهودي، *وفاء الوفا*، ٢: ١١٠٥.

(٣٨) البكري، *معجم ما استعجم*، ٢: ٨٧٥.

(٣٩) السمهودي، *وفاء الوفا*، ٢: ١١٠٥.

(٤٠) الأصفهاني، *بلاد العرب*، ٩٦؛ الهمداني، *كتاب الجوهرتين*، ٣٥٩-٣٦١.

(٤١) ياقوت، *معجم البلدان*، ٥: ٢٢١.

(٤٢) الهمداني، *كتاب الجوهرتين*، ٤١٣ (إضافات حمد الجاسر).

(٤٣) ابن الفقيه، *مختصر البلدان*، ٢٦.

(٤٤) الأصفهاني، *بلاد العرب*، ١٢٩، ١٥٩، ٣٧١، ٣٨٣.

(٤٥) الحربي، *كتاب المناسك*، ٥٩٥.

(٤٦) الأصفهاني، *بلاد العرب*، ٣٨٣.

(٤٧) الحربي، *كتاب المناسك*، ٥٩٥، هامش.

(٤٨) الهمداني، *كتاب الجوهرتين*، إضافات حمد الجاسر، ٤٠٣، ٤٠٤، ٤١٢.

(٤٩) السمهودي، *وفاء الوفا*، ٢: ١٠٩٧.

(٥٠) البكري، *معجم ما استعجم*، ٢: ٨٦٢.

(٥١) البكري، *معجم ما استعجم*، ٢: ١٠٩٤-١٠٩٧.

(٥٢) السمهودي، *وفاء الوفا*، ٢: ١٠٩٤.

(٥٣) السمهودي، *وفاء الوفا*، ٢: ١٠٩٥.

(٥٤) الحربي، *كتاب المناسك*، ٥٩٤.

(٥٥) الحربي، *كتاب المناسك*، ٦١٢.

(٥٦) العبودي، *بلاد القصيم*، ٤: ١٤٢٠.

(٥٧) حمد الجاسر، *أبو علي الهجري*، ٤١، ٣٤٣.

(٥٨) البكري، *معجم ما استعجم*، ٢: ٨٦٢-٨٦٦.

(٥٩) الجاسر، *أبو علي الهجري*، ٤٤.

(٦٠) الجاسر، *أبو علي الهجري*، ٣٣٥.

(٦١) العبودي، *بلاد القصيم*، ٤: ١٤٣١.

(٦٢) البكري، *معجم ما استعجم*، ٢: ٨٦٩، ٨٧٢، ٨٧٣.

(٦٣) الحربي، *كتاب المناسك*، ٦١٢.

(٦٤) البكري، *معجم ما استعجم*، ٢: ٨٧٦.

(٦٥) الأصفهاني، *بلاد العرب*، ١٥٩.

(٦٦) ياقوت، *معجم البلدان*، ٢: ١٧٢، ٢٧٧، ٢٧٨، والنباج يعرف الآن باسم الأسياح ويقع شرقي مدينة بريدة من منطقة القصيم.

(٦٧) البكري، *معجم ما استعجم*، ٢: ٨٧٧؛ وأضاخ: بلدة تقع على حدود منطقة القصيم الجنوبية وتبعد من مدينة الرس حوالي ٦٠ كيلا جنوبا.

(٦٨) الجاسر، *أبو علي الهجري*، ٣٩٢؛ والفَلْج: هي الأفلاج حاليا جنوب مدينة الرياض.

(٦٩) ابن رسته، *الأعلاق النفيسة*، ١٨٢.

(٧٠) الحربي، *المناسك*، ٥٩٧.

(٧١) العبودي، *بلاد القصيم*، ٤: ١٤٢٩، ١٤٣١.

(٧٢) ياقوت، *معجم البلدان*، ٣: ٢٨؛ ٤: ٢٢٠.

(٧٣) ياقوت، *معجم البلدان*، ٣: ٤٥٨.

(٧٤) ياقوت، *معجم البلدان*، ٣: ٤٥٨.

(٧٥) ياقوت، *معجم البلدان*، ٣: ٤٥٨.

(٧٦) الحربي، *المناسك*، ٥٩٥؛ الأصفهاني، *بلاد العرب*، ٣٨٣؛ ياقوت، *معجم البلدان*، ٣: ٤٥٧؛ السمهودي، *وفاء الوفا*، ٢: ١٠٩٣.

(٧٧) البكري، *معجم ما استعجم*، ١: ٦٣٣.

(٧٨) الهمداني، *صفة جزيرة العرب*، ٣١٩.

(٧٩) الأصفهاني، *بلاد العرب*، ٣٢٦.

(٨٠) خليفة بن خياط، *تاريخ خليفة*، ٢٠٤-٤٠٧؛ انظر ولاة الخلفاء على المدينة عند الطبري في *تاريخه*، الجزء ٥، ٦، ٧؛ *مجلة المنهل*، ٢٠ (محرم ١٣٧٩هـ) مقال "أمراء المدينة المنورة وحكامها من عهد النبوة حتى اليوم،" ١٥، ١٦ للسيد أحمد الخياري- رحمه الله-؛ وانظر: الطبري، *تاريخ*، ٥: ١٥٦ وما بعدها.

(٨١) الزبيري، *كتاب نسب قريش*، ١٣٤؛ السمهودي، *وفاء الوفا*، ٢: ١٠٩٨.

(٨٢) الطبري، *تاريخ الأمم والملوك*، ٥: ٥٨٢؛ ٦: ١١٦.

(٨٣) الزبيري، *كتاب نسب قريش*، ١٣٤.

(٨٤) السمهودي، *وفاء الوفا*، ٢: ١٠٩٨.

(٨٥) البكري، *معجم ما استعجم*، ٢: ٨٦٦؛ السمهودي، *وفاء الوفا*، ٢: ١٠٩٨-١٠٩٩.

(٨٦) البكري، *معجم ما استعجم*، ٢: ٨٦٨؛ وانظر: الطبري، *تاريخ*، ٦: ١٨٠.

(٨٧) الطبري، *تاريخ الأمم والملوك*، ٦: ٤٢٣-٥٤٦.

(٨٨) البكري، *معجم ما استعجم*، ٢: ٨٦٨.

(٨٩) البكري، *معجم ما استعجم*، ٢: ٧٦٣، ٨٦٤.

(٩٠) البكري، *معجم ما استعجم*، ٢: ٨٦٤.

(٩١) البكري، *معجم ما استعجم*، ٢: ٨٦٠-٨٦٣؛ السمهودي، *وفاء الوفا*، ٢: ١٠٩٣-١٠٩٤.

(٩٢) الزبيري، *كتاب نسب قريش*، ٢٤٦؛ ابن فهد، *غاية المرام*، ١: ٢٦٤.

(٩٣) الطبرى، *تاريخ الأمم والملوك*، ٧: ٩٠-٩١، ١٠٧-١١١.

(٩٤) ياقوت، *معجم البلدان*، ١: ٣٣٦-٣٣٧.

(٩٥) السمهودي، *وفاء الوفا*، ٢: ١١٠٥.

(٩٦) العبودي، *معجم بلاد القصيم*، ١٤٢٦.

(٩٧) السمهودي، *وفاء الوفا*، ٢: ١٠٩٨.

(٩٨) الحربي، *المناسك*، ٥٩٧.

(٩٩) العبودي، *معجم بلاد القصيم*، ٧٢٧.

(١٠٠) البكري، *معجم ما استعجم*، ٢: ٨٦٦؛ قارن: السمهودي، *وفاء الوفا*، ٢: ١٠٩٨-١٠٩٩.

(١٠١) قارن: *كتاب نصوص عربية في المتحف العراقي*، ٨: ١٠٦.

مع الشاعر أبي دَهْبَل الجُمَحي في مِيمِيَّته بين مكة المكرمة والبِرْك

أحمد بن عمر الزيلعي

قسم الآثار والمتاحف ، كلية الآداب، جامعة الملك سعود

الشاعر أبو دَهْـبَـل الجمحي:

هو: وَهْب بن زَمْعَة بن أسيد بن أُحَيْحة بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح ، كنيته أبو دهبل ، ونسبته الجمحي إلى بني جمح ، إحدى عشائر قبيلة قريش المشهورة.[١] ولد بعد وفاة النبي ﷺ بفترة قصيرة ، ومنهم من يقدر تاريخ ميلاده بحوالي مطلع العقد الثالث من القرن الأول الهجري. نظم الشعر في خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وهو في حدود سن السابعة عشرة.[٢]

عرف أبو دهبل بحسن الأخلاق ، والصلاح ، والالتزام الكامل بمبادئ الإسلام ، وكان جميلاً "له جُمَّة يرسلها فتضرب منكبيه."[٣] كما كان عفيفاً ديِّناً صريحاً في قول الحق ، لكل ذلك تتفق جميع الروايات التي وردت عن سيرته على أنه من الشعراء المتقين.[٤] وفوق هذا وذاك ، يبدو أن أبا دهبل كان من الشخصيات المتنفذة في مكة ، وممن لهم مكانة مرموقة في مجتمعه ، بدليل أن عبد الله بن الزبير (رضي الله عنهما) قلده في خلافته ولاية بعض البلدان اليمانية ،[٥] وبعد ذلك أقطعه سليمان بن عبد الملك ناحية جازان المعروفة اليوم في جنوب غرب المملكة العربية السعودية كما سيأتي.

لم تكن علاقة أبي دهبل مع بني أمية على خير ما يرام ، بل هو محسوب في معارضيهم على الرغم مما كان يناله من برِّهم وعطائهم ، ولين سياستهم معه ، وتألفهم له حتى إن الخليفة معاوية بن أبي سفيان (رضي الله عنه) زوجه زواجاً مكلفاً على ابنة عمه التي أمهرها معاوية ألفي دينار ، وأعطاه ألف دينار في الحال ، وجعل له مثلها جراية سنوية.[٦] وأقطعه الخليفة سليمان بن عبد الملك إقطاعاً بجازان بعد أن لقيه بمكة في إحدى جيئاته إليها ، وعدَّد عليه بعض المآخذ في شعره الذي تعرض فيه لبني أمية ، والذي لم يجد أبو دهبل بداً من الاعتراف لسليمان بما نسب إليه من شعر ، وأن يعتذر عنه ، ويطلب العفو ، فعفا عنه سليمان ، وأقطعه ناحية جازان.[٧]

وهذا الموقف من الخليفة سليمان بن عبد الملك تجاه الشاعر أبي دهبل الجمحي، يندرج تحت ما اتصف به بعض خلفاء بني أمية من الحلم، والدهاء في تألف خصومهم، وإسكاتهم بما يقدمونه لهم من بذل وعطاء، ومن ترغيب وترهيب. كما أن دهاء الخليفة سليمان بن عبد الملك، وبعد نظره في ما يتعلق بموقفه هذا من الشاعر أبي دهبل يتضح في رده على من قال له: "كيف أقطعته هذه القطيعة! قال: أردت أن أميته، وأميت ذكره بها."[٨]

ولئن كان سليمان بن عبد الملك أراد أن يميت ذكر أبي دهبل بإقطاعه جازان النائية القصية، حينذاك فإنه، من ناحية أخرى، كان سبباً في تخليد كثير من البلدان التهامية في شعره الذي جاء زاخراً بذكر الأمكنة، ومراحل طريق الحج اليمني بين مكة وجازان، خاصة أنه تردد على ذلك الطريق، وأكثر من ذكر مواقعه عندما كان والياً على بعض البلدان اليمانية في عهد عبد الله بن الزبير، وكذلك في زياراته لصديقه ابن الأزرق، عبد الله بن عبد الرحمن بن الوليد بن عبد شمس المخزومي الذي كان أيضاً والياً لابن الزبير على اليمن.[٩] ومن قصائد أبي دهبل المشهورة بذكر المواقع التهامية مِيْمِيَّته هذه التي بين أيدينا، والتي هي والأمكنة المذكورة فيها، موضوع هذه الورقة البحثية المتواضعة التي أشارك بها في هذه الندوة الموقرة. ومما جاء فيها:[١٠]

ألا علق القلبُ المتيمُ كلثُما ... لجاجاً ولم يلزَمْ من الحب مَلْزَمَا
خرجتُ بها من بطنِ مكةَ بعدما ... أصات المنادي بالصلاة فأعْتَما
فما نامَ من راعٍ ولا ارتدَّ سامرٌ ... من الحيِّ حتى جاوزتْ بي يَلَمْلَمَا
ومرَّت ببطنِ الليثِ تهويْ كأنَّما ... تبادرُ بالإدلاج نهباً مقسَّمَا
وجازتْ على البزواءِ والليلِ كاسرٌ ... جناحينِ بالبزواءِ وَرْداً وأدْهَمَا
فما ذرَّ قرنُ الشمسِ حتى تبينتْ ... بعليبَ نخلاً مشرفاً ومخيِّمَا
ومرَّتْ على أشطانِ دوقة بالضحى ... فما خرزت للماءِ عيناً ولا فَمَا
وما شربتْ حتى ثنيتُ زمَامَها ... وخفتُ عليها أن تُجَنَّ وتُكْلَمَا
فقلتُ لها قد تِعْتِ غيرَ ذميمةٍ ... وأصبحَ واديْ البركِ غَيْثاً مُدَيِّما

لقد بلغَت ميمية أبي دهبل هذه مبلغاً كبيراً من الشهرة في المصادر الأدبية ومنها *ديوان أبي دهبل* نفسه، *والأغاني* للأصفهاني، *والشعر والشعراء* لابن قتيبة، *وأمالي المرتضى*، *والفرائد الغوالي* لمحسن آل الشيخ، فضلاً عن معظم كتب البلدان التي كانت أيضاً سبباً في شهرتها لما فيها من حسن الاستشهاد بذكر المواقع التي ذكرت فيها.[١١] ومع ذلك فقد شابها كثير من التصحيف، والتحريف الذي عملت جاهداً على تحاشيه، وعلى إيرادها محققة قدر الإمكان على النحو سالف الذكر.

الأمكنة الواردة في القصيدة

وردت ستة من الأمكنة التي اجتازتها ناقة أبي دهبل في هذه القصيدة، وكلها تقع على طريق الحجاج والتجارة بين مكة المكرمة واليمن، وتمتد إلى الجنوب من مكة حتى البِرْك بمنطقة عسير في الوقت الراهن، ومعظمها لمسميات واسعة يصعب خلالها تحديد نقطة العبور، أو المرور، أو الدروب التي سلكتها واجتازتها هذه الناقة النجيبة حقاً. على أننا سنعرض لتحقيق هذه الأمكنة كما وردت بدءً من الشمال إلى الجنوب، وبحسب الترتيب الذي جاء في القصيدة على النحو الآتي:

يلملم

يلملم أو وادي يلملم معدود في المواضع التاريخية التابعة لإمارة مكة المكرمة، ويمتد إلى الجنوب عنها بحوالي مرحلتين، أو على بعد مائة كيلو متر تقريباً.[١٢] وهو ميقات أهل اليمن عند أكثر الجغرافيين، ولم يشذ عنهم إلا ابن رستة (ت ٣٦٠هـ/٩٧٠م) الذي يذكر أن ميقات أهل اليمن هو قرن المنازل.[١٣] ويفهم من كلام ابن رستة أنه يقصد أولئك الحجاج اليمنيين الذين يسلكون الطريق العليا التي تمر عبر الطائف. أما يلملم فهو ميقات أهل اليمن الذين يسافرون إلى مكة مع الطريق الداخلية والساحلية، وكلتاهما بين البحر والجبل، ولا بد من مرورهما بيلملم.[١٤] ويؤيد هذه الحقيقة ما يذكره مؤرخ اليمن الهمداني (ت حوالي ٣٤٤هـ/٩٥٥-٩٥٦م)، من أن يلملم هي ميقات أهل تهامة،[١٥] أي أنه استثنى أهل نجد اليمن من المرور بيلملم؛ لأن طريقهم الطبيعي إلى مكة هو الطريق العليا.[١٦] كما أن البكري (ت ٤٨٧هـ/١٠٩٤م) يورد شيئاً قريباً من ذلك حينما يذكر أن يلملم في طريق اليمن إلى مكة، وهو ميقات لمن حج من هناك.[١٧] ويذكر المقدسي (٣٨٠هـ/٩٩٠م) أن يلملم منزل عامر على طريق زبيد يهل منها أهل اليمن.[١٨]

إلا أن اسم يلملم لا يعني موقعاً محدداً بعينه، وإنما يطلق على واد كبير يستمد سيوله من جبال الطائف، وتنحدر في اتجاه الجنوب الغربي لتصب في البحر الأحمر.[١٩] وجميع الوادي ميقات لمن يسكن وراءه، أو يمر به من الحجاج في طريقهم إلى مكة، سواء كانوا من اليمن، أم من خلافه. غير أنه لا يعرف بالضبط، وعلى وجه التحقيق أين كان موقع يلملم القديم، أو المكان الذي كان محطة الحجاج قبل العصر الحاضر؟

وقبل الإجابة عن هذا السؤال لا بد من الإشارة إلى أن الموقع المعروف إلى قبيل نهاية القرن الهجري الماضي هو السَّعْدية، إحدى قرى وادي يلملم على الطريق البري غير المسفلت بين مكة وجازان،[٢٠] ثم حل محلها الموقع المعروف باسم "الميقات الجديد" الواقع إلى الجنوب من قهوة طفيل على الطريق المسفلت بين مكة وجازان.[٢١] وهذا الموقع الأخير هو — دون شك — موقع جديد، ولم يمض على قيامه إلا سنوات قليلة من إعداد هذا البحث. فماذا عن السَعْدية، وهل كانت هي نفسها موقع الميقات القديم، أم أنها موقع آخر نشأ في عصور متأخرة؟ وليس لدينا من دلالة ما ينفي ذلك أو يثبته، سوى أنها كانت معروفة في بعض المصادر التاريخية منذ القرن العاشر

الهجري/ السادس عشر الميلادي، [٢٢] وبها بئر روية مشهورة هي من أكثر آبار المنطقة اتساعاً، كما إن بالقرب منها بئراً روية أخرى تعرف باسم الغامدية، مما يحمل على الاعتقاد أن السعدية كانت إحدى المحطات بوادي يلملم التي تقع على فرع من فروع الحج اليمني إلى مكة المكرمة. إلا أن هناك من الأدلة الأثرية والطبيعية ما يرجح وجود مكان آخر، يقع إلى الشرق من السعدية بحوالي خمسين كيلو متراً، ويعرف تخصيصاً باسم يلملم، وأهم القرى المعروفة فيه، في الوقت الحاضر، قرية "وُدْيَان"، المركز الإداري لوادي يلملم من الشرق.[٢٣] وهي قرية صغيرة غالب سكانها قبيلة فَهْم المعروفة، يليها من الغرب الجَحَادلَة، وهي فرع من قبيلة بني شعبة من كنانة المعروفة أيضاً.[٢٤]

تقع وديان على الحافة الشمالية لوادي يلملم، وقليلاً إلى الغرب منها، ولمسافة يصل امتدادها إلى حوالي خمسة كيلو مترات — توجد على حافة الوادي من الأدلة ما يقوي الاعتقاد بأن هذا الموقع كان إحدى المحطات على طريق الحج والتجارة من اليمن إلى مكة المكرمة منذ ما قبل الإسلام وحتى العصور الحديثة. وتتمثل أهم هذه الأدلة في وجود غَيْل دائم في هذا الجزء الذي يشكله امتداد وادي يلملم، وكذلك وجود مظلات من الصخور الكبيرة (سقائف) تمتد تحت سفوح الجبال الواقعة على ضفتي الوادي، وتنتشر في مواقع متفرقة من هذا المكان. هذه المظلات التي تتسع لأعداد كبيرة من الناس، يعتقد بأنها كانت تتخذ للراحة، والاستظلال بظلها في أوقات الهواجر عندما تنيخ القوافل بتلك المحطة. يضاف إلى ذلك وجود أعداد كبيرة من الكتابات، والمخربشات، والرسومات القديمة فوق تلك الصخور التي تتكون منها المظلات، وكذلك في أعراض الجبال القريبة منها. بعض تلك الكتابات أو المخربشات يعود إلى عصور ما قبل الإسلام، وبعضها يعود إلى العصور الإسلامية، وقد وجدت جنباً إلى جنب مع بعض الكتابات الأقل حداثة، مما يدل على طول ارتياد القوافل لهذا الموقع.[٢٥]

ومن هنا يمكن القول بأن هذا الموقع هو أقدم محطة في وادي يلملم على الطريق اليمني إلى مكة المكرمة، وأنه ربما كان هو الميقات الرئيس للحجاج القادمين من اليمن، ومن غير اليمن من أهالي تلك الجهات، قبل السعدية، وأن السعدية قامت بعده بسبب تحول في طريق الحج والتجارة إلى الغرب من هذا المكان، ويؤيد هذا القول عدم ذكر السَّعدية في المصادر العربية قبل القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي — كما قدمنا. ومع ذلك، فليس من المستبعد أن موقع السعدية كان منذ زمن بعيد ممراً للركب الخفيف، ولأصحاب النجائب، والمشاة، والزوامل الخفيفة الحركة. وهي غير يلملم "الموقع" الذي هو بحذائها من الشرق،[٢٦] ولكنها مشمولة بهذه التسمية حينما يكون الحديث عن الوادي كله، أو عن الميقات بأجمعه.

اللّيث

وادي الليث: هو أحد الأودية التهامية الفحول التي تستمد سيولها من جبال السراة، وتصب في البحر الأحمر. وهو يتميز بسعة مسايله الممتدة في سراة بجيلة، وبعض ديار بلحارث، وبني سعد، وبكثرة روافده التي منها

وادي سَلِبَة، ووادي أَمْوَل، ووادي نَصْوى، ووادي تَانة، ووادي فِرْضَام، ووادي ذهب، ووادي فِلْح، ووادي المَطْرق، ووادي ذَرَا وغيرها.(٢٧) كما يتميز بسعة دلتاه التي تمتد عدة كيلو مترات إلى الشمال والجنوب من مدينة الليث التي تتوسط فوهة الوادي، والتي كثيراً ما تعرضت لسيوله الجارفة. وهو من الأودية التاريخية المذكورة في أخبار العرب وأشعارهم؛ من ذلك قول غاسل بن غُزَيَّة الجُرَبي الهذلي: (٢٨)

وقد أَنَالَ أميرُ القَوْمِ وَسْـطَهُم ... باللهِ يَمْطُو بـه حـقّاً ويجتـهد

تراجعاً فتشجّوا أو يشاج بكم ... أو تهبطوا الليثَ إن لم يعدُ باللدد

وقول أبي خراش الهذلي: (٢٩)

وسدَّتْ عليه دَوْلَجاً ثم يممت ... بني فالجٍ بالليثِ أهـلِ الحرائمِ

وقالت له: ذلّج مكانَك إنـني ... سألقاك إن وافيتَ أهلَ المواسمِ

وقول شاعر آخر يورده أبو عبيد البكري دون ذكر اسم قائله: (٣٠)

قتلتم سدادَ الليثِ وابنَ سدَادِهِ ... جهاراً فقد أمسـكتم بالخرائمِ

وهو إلى جانب كونه وادياً مشهوراً ومذكوراً في المصادر التاريخية، فهو كذلك موضع يذكر بهذا الاسم في ما وصل إلى أيدينا من مصادر، ومنها البكري في معجمه الذي يورده بلفظ "موضع،"(٣١) وكذلك ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م) في قوله: "وهو [أي الليث] واد بأسفل السراة يدفع في البحر، أو موضع بالحجاز."(٣٢)

كما ورد مسمى الليث في مواضع كثيرة في صراعات أشراف مكة المنحدرين من أبي نمي الأول وأحفاده في سبيل وصولهم إلى السلطة بمكة المكرمة.(٣٣)

أما عن ذكر الليث بوصفها مرحلة من مراحل طريق الحج والتجارة بين مكة المكرمة واليمن فذلك مشهور أيضاً في معظم المصادر التي تحدثت عن هذا الطريق، وأولها اليعقوبي (٢٨٤هـ/٨٩٧هـ) الذي يوردها على الطريق بين مكة وصنعاء، ويجعلها إلى الجنوب من يلملم، وإلى الشمال من عُلْيب الآتي ذكرها.(٣٤) أما معاصره الحربي (٢٨٥هـ/٨٩٨م) فيجعلها بين وادي السباع من الجنوب، ومركوب من الشمال.(٣٥) ومن جهة أخرى يتضمن كتاب الحربي خبراً في الحاشية يتحدث عن الطريق نفسه، وإنما من مكة إلى زبيد مبتدئاً إياه من مكة، وفيه يجعل الليث بين مركوب من الشمال، وعليب من الجنوب.(٣٦) ويعد هذا التقدير من أدق التقديرات في مراحل الطريق بين مكة واليمن؛ لأن المشهور إلى عهد قريب أن المسافة بين عليب والليث تقدر بمرحلة واحدة فقط على حين أن يلملم تبعد إلى الشمال من الليث بحوالي مرحلتين؛ فليس من المستبعد أن تكون مركوب إحدى محطات هاتين المرحلتين. وممن يذكر مراحل طريق الحج اليمني إلى مكة قدامة بن جعفر (ت ٣٢٠هـ/٩٣٢م) جاعلاً الليث إلى الشمال مباشرة من عليب.(٣٧) وهو يتفق مع الخبر الذي أشرنا إلى أنه من حاشية في كتاب الحربي من حيث ذكره الليث مباشرة إلى الشمال من عليب، ويتفق كذلك مع ما يورده الهمداني من أن مرحلة الليث هي إلى الجنوب من مركوب، ثم منها

شمالاً إلى يلملم.[٣٨] وعلى الرغم مما حظيت به مرحلة الليث على هذا الطريق من الذكر في كتابات الجغرافيين المسلمين فإن أحداً منهم لم يذكر موضعاً بعينه كانت تمر عليه القوافل، أو تتوقف فيه أثناء اجتيازها لهذا الوادي العريض.

أما في العصور الحديثة والمعاصرة فإن شهرة الليث موضعاً اتضحت في ما يسمى بمدينة الليث الواقعة على بعد حوالي ١٨٥ كيلو متراً إلى الجنوب من مكة المكرمة.[٣٩] وهي مدينة ساحلية، ومرسى معروف على ساحل البحر الأحمر، كانت له اتصالات تجارية مع المراسي والمرافئ البحرية الأخرى شماله وجنوبه ومنها الحديدة، وجازان، والبرك، والقنفذة، وجدة، وينبع، والسويس.[٤٠] بل لقد بلغ بندر الليث من الأهمية، والاتصالات التجارية أنه كان يفد إليه تجار من أمكنة أبعد من هذه المرافئ البحرية، ومنها صور وعمان وقطر، وذلك لشراء الحبوب، وبصورة خاصة الدخن الذي يشتهر به الظهير الجغرافي لمدينة الليث.[٤١]

وهي حالياً المقر الإداري لمحافظة مسماة باسمها (محافظة الليث)، ويتبعها عدد من المراكز الإدارية في كل من الصَّهْوَة (الشواق)، والجائزة، وأضَم، وسوق العَيْن في وادي العَرْج، وبني يزيد، وغُمَيْقة، ويلملم، ثم الغالة الواقعة إلى الشمال من مدينة الليث، وأقرب هذه المراكز الإدارية إليها.[٤٢]

ويتبع محافظة الليث من القبائل الأشراف ذووحسن، والأشراف الثعالبة، وبنو فَهْم، وعَضَل، وبنو يزيد، وبجالة، وذبيان، وعفيف، ومَتْعان وهتَّان، وبعض فروع قبائل زهران، وبني الحارث، وبني سعد، وبطون من كنانة، وحرب، وبني هلال والحَضَاريت.[٤٣]

البَزْوَاء

لعل موقع البزواء هو الوحيد من بين المواقع المذكورة في قصيدة أبي دهبل الذي لا يعرف بهذا الاسم في الوقت الحاضر، كما أن لفظ "البزواء،" نفسه غير معروف في أوساط السكان المحليين في حدود علمي، بل لعلهم لم يسمعوا بهذه التسمية حتى عهد ليس ببعيد حينما أخذ بعض مثقفيهم يتأولون تصحيفات للبزواء إلى مسمى معروف لديهم هو "البازم أو البزم،" ولكن دون الاستناد إلى أي دليل. لذلك، فمن الصعب تحديد موضع بعينه للبزواء على سبيل الدقة واليقين، وإنما يمكن الاكتفاء فقط بالإشارة إلى الجهة التي تقع فيها، وذلك بحسب سياق القصيدة، وبعض الدلائل الأخرى التي سنأتي إلى ذكرها. وأول هذه الدلائل وأقواها في تعيين جهة البزواء قول الهمداني: "وخبت البزواء بناحية عُلْيَب، وعليب واد بين الخَبْتَين: خَبْت البزواء وخبت أُذُن."[٤٤] فالهمداني، وهو العارف بهذا الطريق، يضع بين أيدينا حقيقتين؛ الحقيقة الأولى هي: القرب الجغرافي بين البزواء وعليب، فإذا عرفنا أن خبت أُذُن لا يزال معروفاً بهذا الاسم لدى السكان المحليين حتى اليوم، وأنه يقع إلى الجنوب من عليب،[٤٥] فمن الطبيعي أن خبت البزواء يقع إلى الشمال من عليب، بينها وبين الليث، وهو ما يتفق مع سياق

القصيدة، ومع ترتيب الأمكنة فيها من الشمال إلى الجنوب. والحقيقة الثانية هي: أن البزواء خبت أي أنها ليست وادياً، ومعروف أن الخبت تتخلله بعض المرتفعات والمنخفضات فضلاً عن الطبيعة الصحراوية التي تميزه عن الوادي ذي الطبيعة المستوية إلى حد ما.

وهذا ما حدا بياقوت — عند حديثه عن هذا الموضع — إلى إعطاء أهمية خاصة للمدلول اللغوي لكلمة البزواء التي تعني من النساء خروج الصدر ودخول الظهر.(٤٦) وفي هذا المعنى يقول ابن منظور كذلك: "البزواء: انحناء الظهر عند العجز في أصل القَطَن...وقيل خروج الصدر ودخول الظهر، وقيل: هو أن يتأخر العجز ويخرج،" ويقول أيضاً: "البزواء اسم أرض،" ويستشهد ببيت شعر لكثيِّر عَزَّة عن بزواء أخرى غير هذه.(٤٧) ولعل لفظ البزواء يطلق على الأرض الصحراوية، يقول الراجز:(٤٨)

لولا الأمَاضِيْحُ وحَبُّ العشرقِ لَمُتُّ بالبزواء مَوْتَ الخِرْنِقِ

ويقول أيضاً:(٤٩)

لا يقطع البزواءَ إلا المِقْحــَدُ أو نَاقَةٌ سَنَامُها مُسَـــرْهَـدُ

أما في العصر الحديث فقد مرَّ عاتق بن غيث البلادي على تلك الجهة، ووقف على ما يعتقده بأنه موقع البزواء، وذلك أثناء رحلته التي قام بها في عام ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م إلى مناطق الليث، والقنفذة، وجازان، وأفرد صفحة وبعض الصفحة للبزواء التي يرى أنها في موضع الوَسْقَة المعروفة اليوم، ومما يذكر بعد إيراده لبيت أبي دهبل الذي يشير فيه إلى مروره بها: "وتسمى اليوم الوَسْقَة؛ لأنه حزم مرتفع بين أعيار وحَلْيَة، له وسقة مستوية.... وهي صحراء واسعة تمتد غرباً إلى البحر، وشرقاً إلى سفوح جبل عَفَف. واسم الوسقة يطلق على ظهر هذه الصحراء والقرية التي قامت فيها. أما ما بين الطريق المزفت إلى سفوح جبل عفف فيسمى حَبْوَة، وهي صحراء تشبه صحراء رُكْبَة."(٥٠)

نخلص مما سبق أن البزواء خبت أو صحراء تمتد إلى الشمال من عليب، بينها وبين الليث، وأن طبيعة أرضها تجمع بين الارتفاع والانبساط إلى جانب بعض القيزان التي تميز طبيعتها الخبتية، ومع ذلك، فمن الصعب تحديدها أو حصرها في نقطة بعينها تخالف شمولية إطلاقها على ذلك الخبت الأفيح.

عُلْيَب(*)

وادي عليب مشهور أيضاً في أشعار العرب، وفي كتابات الجغرافيين المسلمين الذين ورد ذكره عند بعضهم تبعاً لموقعه من طريق الحج إلى مكة المكرمة، وورد عند آخرين لشهرته بوصفه وادياً من الأودية التهامية، ناهيك عن الشعراء الذين تغنَّوا به في شعرهم قبل الإسلام وبعده.

ولعل أول من عرض لذكر عُلَيْب من الجغرافيين المسلمين الذين وصلت أعمالهم إلى يديَّ، هو اليعقوبي الذي يورد عليب ضمن مراحل الطريق بين صنعاء ومكة المكرمة، ويشير إلى أنها تقع بين اللَّيْث وقَرْمَا.[٥١] يلي اليعقوبي معاصره الحربي الذي سبق أن أشرنا إلى أن كتابه يتضمن خبراً في الحاشية عن مراحل الطريق بين زَبِيْد ومكة المكرمة، ومنها عليب التي جاء ذكرها في تلك الحاشية بين اللَّيث وقرما أيضا.[٥٢] ثم يأتي بعدهما ابن خرداذبة الذي يعرض لذكر مراحل الطريق من خولان ذي سحيم إلى مكة المكرمة، جاعلاً موقع عليب إلى الشمال من دَوْقَة.[٥٣] وهو مُحِقٌ في ما يورده بالنسبة لموقع عليب من دوقة لولا أنه أورد بعدها يَبَة.[٥٤] وهذا في الواقع يخالف الحقيقة؛ لأن وادي يبة يقع إلى الجنوب من وادي عليب بمسافة كبيرة، ويفصل بين الواديين المذكورين خمسة أودية على الأقل هي: وادي قَرْما، ووادي نَاوَان، ووادي الَحْسَبَة (الأحْسَبَة)، ووادي لُوْمَة، ووادي قَنُونَا.[٥٥] يلي ابن خرداذبة قدامة بن جعفر في ذكره لموقع عليب على الطريق بين مكة المكرمة، وخولان ذي سحيم أيضاً، حيث لا نجد اختلافاً كبيراً بينه وبين سابقه، لولا أن الأخير يجعل اللَّيث إلى الشمال مباشرة من عليب.[٥٦]. وهو أمر ينطبق على الواقع؛ لأنه يتحدث عن مراحل ومحطات، وليس عن أودية، وإلا لما أغفل ذكر وادي حَلْيَة، ووادي أعْيَار اللذين يقعان على التوالي بين عليب واللَّيث.[٥٧] وآخر من نستدل برأيه من الجغرافيين المسلمين في ذكر موقع عليب على طريق الحج بين مكة واليمن، هو الإدريسي (ت ٥٦٠هـ/١١٦٤-١١٦٥م) الذي يورد موقع عليب مقترناً بموقع دوقة، ويصفهما بأنهما "قريتان عامرتان."[٥٨]

أما أولئك الذين يتحدثون عن عليب بوصفه وادياً، فيأتي في مقدمتهم الحسن الهمداني، حينما يقول: "وعليب واد بين الخبتين خبت أذن وخبت البزواء، وهو في مساقط بارق من غور السراة."[٥٩] والواقع أن تحديد الهمداني لموقع وادي عليب يعدّ دقيقاً إلى حد ما في ما يتعلق بموقعه في الخَبْت، أما موقعه في مساقط بارق من غور السراة فهو بعيد عن الواقع بُعْد بارق عن مساقط وادي عليب المعروفة في بلاد زهران في وقتنا الحاضر.[٦٠] يأتي بعد الهمداني أبو عبيد البكري، وهو أكثر تفصيلاً من سابقه في ذكره لعليب من حيث إيراده لوجهتي النظر المتعلقتين بكون اسم عليب يطلق على الوادي والقرية معاً، فضلاً عن أنه أول من ضبط اسم عليب من الجغرافيين المسلمين، في حدود ما وصل إلى علمي، وذلك حينما يقول: "عُلَيْب: بضم أوله وإسكان ثانيه بعده الياء مفتوحة... ثم باء معجمة بواحدة على وزن فُعْيَل هكذا ذكره سيبويه، وحكى فيه غيره عِليب بكسر أوله، وهو واد لهذيل بتهامة، وقيل: قرية."[٦١] ويقول الزمخشري: "عُلْيَب واد معروف ليس في الكلام فُعْيَل إلا هذا."[٦٢] ويذكر ياقوت الحموي وادي عليب على نحو ما يذكره سابقه أبو عُبيد البكري — في ما يتعلق بضبط الاسم ووزنه، إلا أنه يعطي تعليلاً لتلك التسمية من حيث كونها جاءت من العُلُوب أي الآثار، وعَلِبَ النبات إذا جسا، وعَلِبَ اللحم إذا غلظ، والعَلِب الوعل الضخم المسنّ، والعَلْب الأثر، والوادي لا يخلو من انخفاض وحزن. ويتفق ياقوت مع الزمخشري وغيره على أن صيغة لفظ وادي عليب، ووزنه لم يجئ عليهما بناء غير هذا.[٦٣]

وقد نال وادي عليب نصيباً غير وافر من الذكر في ما وصلنا من الشعر العربي، معظمه للاستشهاد، ومبثوث في كتابات الجغرافيين المسلمين، من ذلك قول دريد (لعله دريد بن الصِّمَّة، شاعر جاهلي أدرك الإسلام، ولم يسلم، وتوفي سنة ٨هـ/٦٣٠م):

أغَرْنا بصاراتٍ ورَقْدٍ وطَرَّفَتْ بنا يوم لاقى أهلُها البوسَ عُلْيَبُ(٦٤)

ويقول معاصره الشاعر الهذلي، ساعدة بن جؤية:

والدومُ من سَعْيَا وحَلْيَة منزلٌ والدومُ جاء به الشُّجُوْنُ فعليبُ(٦٥)

أما في العهد الأموي، فقد جاء ذكر عليب على لسان ثلاثة من شعراء ذلك العصر، أولهم عبد الله بن الأحوص (ت ١٠٥هـ/٧٢٣م) الذي يقول:

فقالت تَشَكَّى غُربةَ الدار بعدما أتى دونها من بطنِ عَكْوَةَ مَيْتَبُ

وقد شاقها من نظرةٍ طرَّحت بها ومن دونها بركُ الغمادِ فعُلْيَبُ(٦٦)

وثاني هؤلاء جرير بن عطية الخطفي (ت ١١٤هـ/٧٣٢م)، وفيه يقول:

غَضبت طُهيَّةُ أن سببت مجاشعاً عُضَّو بصُمّ حجارةٍ من عُلْيَبِ(٦٧)

أما الثالث فهو أبو دَهْبَل الجُمَحي، هذا الشاعر الذي بين أيدينا، والذي كانت تربطه بوادي عليب روابط قوية استمدها من صلته بصديقه وممدوحه عبد الله بن عبد الرحمن المعروف بابن الأزرق، الذي مات ودفن بعليب،(٦٨) حتى إن أبا دهبل نفسه أوصى إذا مات أن يدفن بعليب.(٦٩) ومع ذلك، لم يصرِّح بذكر عليب في ديوانه إلا في بيتين من الشعر، أحدهما سبق إيراده ضمن ميميته المشهورة التي هي موضوع هذا البحث. والثاني ورد في مطلع مرثية رثى بها صديقه ابن الأزرق، سابق الذكر، يقول فيها:

لقد غالَ هذا اللَّحِدُ من بطنِ عليب فتى كان من أهلِ النَّدى والتَّكَرُّمِ

سقى الله أرضاً أنت ساكنُ قبرَها سجيلُ الغوادِي من سحيلٍ ومُبْرمِ(٧٠)

أما في كتابات المحدثين فلعل شرف بن عبد المحسن البركاتي كان من أوائل من عرض لذكر وادي عليب في رحلته إلى تلك المناطق حيث يصفه بأنه كثير المياه، وأن ماءه الذي يأتيه من جبال نَخْرَة الواقعة إلى الشرق من الوادي في تخوم السراة، يتدفق على وجه الأرض. ويصفه أيضاً بأن مزروعاته وفيرة، وخيراته عظيمة، وأشجاره كثيرة.(٧١) يليه فيلبي الذي مر بالوادي في شهر ذي الحجة سنة ١٣٥٤هـ (فبراير سنة ١٩٣٦م)، ولم يطلق عليه اسم عليب، وإنما أطلق عليه اسم الشاقة اليمانية، وهو الاسم الذي يشتهر به في الوقت الحاضر، تمييزاً له عن الشَّاقَّة الشَّامِيَّة التي يشتهر بها حالياً وادي حَلْيَة الواقع قليلاً إلى الشمال من وادي عليب، أو ما يعرف بالشاقة اليمانية على نحو ما يذكر فيلبي. ويطلق على الواديين معاً اسم الشَّوَاق بصيغة الجمع. وقد استطاع فيلبي — على الرغم من مروره السريع — أن يقدم وصفاً لوادي عليب، ولمنابعه من جبال نَخْرَة ببلاد زهران، وعن عمق التربة الرسوبية

التي تشكل أراضيه الطينية والتي قدرها بحوالي خمسة أقدام. كما قدَّم وصفاً عن أشجاره، ومياهه، وزراعته، وعقد مقارنة بينه وبين جاره من الشمال، وادي حَلْيَة أو الشاقة الشاميَّة، وقدَّر المسافة بينهما بحوالي خمسين ميلاً عند منابعهما في الشرق، وبميلين فقط قرب مصبهما في البحر.(٧٢) يلي فيلبي الشيخ حمد الجاسر، الذي يذكر عليب في أربعة مواضع من كتابه *في سراة غامد وزهران*، أغلبها يتعلق بالجزء الواقع في السراة ذلك الجزء الذي يختص به موضوع الكتاب نفسه.(٧٣) أما الأستاذ علي السلوك فيذكر أن لفظ عليب يطلق على الوادي من نقطة تبدأ من جنوب بلدة الحَجْرَة، المعروفة في تلك الجهة، بحوالي عشرة كيلو مترات، ويذكر أن من روافده الشَّعْرَاء، ورَمَا، والجَرْدَاء، والحجرة، وأن سكانه في جهة الساحل هم الأشراف ذوو حسن.(٧٤) وممن عرض لذكر عليب من الكتاب المحدثين الأستاذ حسن الفقيه حين يورد معظم ما قيل عنه في المصادر العربية شعراً ونثراً، ويضيف إليها بعض التعليقات المفيدة في تحقيق المكان،(٧٥) إلا أن الأستاذ عاتق بن غيث البلادي يصف وادي عليب، كما هو عليه الآن، وتبعاً لما يقتضيه الحال من الكتابة لأهل زماننا؛ حيث يُفصّل كثيراً في ذكر ذلك الوادي، وتحديد موقعه، وذكر روافده، والقبائل التي تقطنه، والمواقع التي تنتشر على ضفتيه.(٧٦)

يتضح من الأقوال السابقة أن وادي عليب من الأودية التهامية المشهورة قديماً وحديثاً، وأنه يستمد سيوله من جبال السروات التي تقطنها قبائل زهران، ويصب في البحر الأحمر، وله دلتا عَريضة على الساحل، بها أرض زراعية خصبة تكثر فيها الأشجار والنباتات، وتجود فيها مختلف المحاصيل الزراعية المحلية، وأغلب سكانها من الأشراف الحسنيين. وأقرب الأودية لوادي عليب من الشمال وادي حلية سابق الذكر، والذي لا تقل شهرته عن شهرة وادي عليب في القديم والحديث، ويحف به من الجنوب سهل منبسط يسمى خَبْت حُفَار لكثرة حفائر الماء به. وأعلى وادي عليب من الشرق تقطنه قبائل زهران، وأسفله من الغرب للأشراف الحسنيين في الغالب. وهم يتبعون محافظة اللّيث بمنطقة مكة المكرمة، على حين تتبع الأجزاء العليا الواقعة منه في بلاد زهران، إما لمنطقة الباحة، أو لمحافظة الليث أيضاً.

ويخترق الخط المزفت، بين مكة المكرمة وجازان، وادي عليب من أسفله، وأقرب نقطة يمر بها من ذلك الوادي هي بلدة الصَّهْوَة، وهي المركز الإداري لتلك الجهة، ومقر الإمارة، والمرافق الحكومية الأخرى. وتقع على الحافة الشمالية للوادي، وتبعد عن مدينة الليث بحوالي أربعة وخمسين كيلو متراً تقريباً في اتجاه الجنوب الشرقي منها، وعن مكة المكرمة بحوالي ٢٧٩ كيلو متراً.(٧٧)

والصهوة بلدة حديثة النشأة، ربما يرتبط قيامها بوجود السيارات، وتحول الطريق إليها من حَمْدَانة الواقعة على بعد حوالي تسعة عشر كيلو متراً إلى الغرب من الصهوة. ومع ذلك، فإن موقعها قائم في منطقة حضرية، عثر فيه وبالقرب منه، على موقعين أثريين أحدهما يقع في بطن الصهوة نفسها، على يسار الطريق المتجه إلى جازان، وهو عبارة عن أسس لقصر عظيم، أو قلعة كبيرة ربما كانت للشريف راجح بن قتادة، أمير السرين، الذي انتقل

إلى هذا الموقع في حوالي منتصف القرن السابع الهجري/الثالث عشر للميلاد،[٧٨] والآخر يقع على بعد حوالي ثلاثة عشر كيلو متراً من الصهوة، على الطرف الشمالي لوادي عليب، وهو عبارة عن عشرة مواقع صغيرة تمتد لمسافة قدرها خمسة كيلومترات، وتتكون من تلال سكنية، لا يتضح منها إلا بعض الأساسات، وركام المنازل المتهدمة، وبعض كسر الفخار، والطوب الأحمر، بالإضافة إلى مقبرة قديمة مهجورة ليس بها شواهد منقوشة، تقع إلى الغرب من هذا الموقع، وإلى الغرب من المقبرة توجد آثار مصنع للطوب الأحمر.[٧٩] ويغلب على الظن أن هذه المواقع الأثرية في بلدة الصهوة، وحولها، تدلل على أن هذه البلدة قامت على أنقاض منطقة سكنية أقدم منها.

دَوْقَـــــة

اسم يطلق في ما يطلق على واد شهير من أودية تهامة التي تستمد سيولها من جبال السروات، وتصب في البحر الأحمر، وهو من فحول الأودية المشهورة قديماً في عدد من كتابات الجغرافيين والمؤرخين المسلمين بوصفه مرحلة من مراحل طريق الحج اليمني إلى مكة. وممن ذكره منهم في هذا الصدد ابن خرداذبه الذي يورده ضمن مراحل الطريق من خولان ذي سحيم إلى مكة، وتحديداً بين الأحسبة جنوباً، وعليب شمالاً.[٨٠] أما الهمداني فيجعل دوقة على محجة صنعاء القديمة بين قنونا من الجنوب والسرين من الشمال.[٨١] كما يرد اسم دوقة عند الهمداني أيضاً في قصيدة لأبي الجياش الحجري من بيت يقول فيه:

فَقَنُونَا فأرضُ دَوْقَةَ فاللِّيْثُ　　　فَعشْمُ السِّرِيْن فالسَّرَّاءُ[٨٢]

ويبدو الاختلاف واضحاً بين نصي ابن خرداذبه والهمداني؛ فالأول على جانب كبير من الدقة؛ لأن دوقة تأتي من حيث المسافة على بعد مرحلة بين كل من الأحسبة وعليب، على حين أن الثاني يجعلها مرحلة بين قنونا والسرين. فإذا قبلنا بوقوع السرين على مرحلة من دوقة إلى الشمال، لكون السرين وعليب يعطيان مفهوماً متقارباً إلى حد ما لمرحلة واحدة- فإن قنونا بعيدة نسبيّاً عن دوقة من الجنوب، إلا أن مضمون بيت أبي الجياش الحِجْري يعالج القصور الواضح في نص الهمداني ممن جهة المرحلة التي تسبق دوقة من الجنوب، وتأتي هذه المعالجة من ذكره لمدينة عشم الإسلامية الأثرية المعروفة في الوقت الحاضر؛ لأن موقع عشم قريب من الأحسبة، وبالتالي فهو يغني عن محطة الأحسبة لمن يسلك طريق الحج من تلك الجهة.

أما البكري فيذكر دوقة بشيء غير قليل من التصحيف، إذ يسميها "دومةالجندل" ويستشهد ببيت للأحوص مفاده:[٨٣]

فما جعلت ما بين مكةَ ناقتي　　　إلى البِرْكِ إلا نَوْمَةَ المتهــجِّدِ

وهذا البيت عليه ملاحظتان، الأولى من حيث نسبته إلى الأحوص؛ وتلك نسبة غير دقيقة؛ لأن البيت وسائر القصيدة الدالية منسوبة إلى أبي دهبل الجمحي في كل من *الأغاني*، وديوانه المنسوب إليه، ومطلعها:[٨٤]

سقَى اللهُ جازان ومن حَلَّ وليَهُ فكلُّ مسيلٍ من شهامٍ وسُرْدُدِ

والثانية من حيث مضمونه ؛ لأنه وحده لا يتضمن اسم دوقة لكي يستشهد به على ذكرها ، ولكي يستقيم المعنى المقصود ، ويتحقق الاستشهاد به لا بد من إيراده مع البيت الذي يليه هكذا(٨٥) :

فما جعلت ما بين مكة ناقتي إلى البِرْكِ إلا نَوْمَةَ المُتهجِّدِ

وكادت قبيلَ الصبح تَنْبِذُ رَحْلَها بُدوْقَةَ من لَغْطِ القطا المُتبدِّدِ

ويذكر ياقوت دوقة على أنها " واد على طريق الحاج من صنعاء إذا سلكوا تهامة بينه وبين يلملم ثلاثة أيام."(٨٦) ويورد في شأنها بيتين من الشعر لزهير الغامدي هما :

أعاذلُ منا المصلتون خلالَهم كأنا وإياهُم بدوقةَ لاعِبِ

أتيناهُمُ من أرضِنَا وسمائِنَا وأنى أتى للحجرِ أهلُ الأخاشِبِ(٨٧)

ومن الكتَّاب المحدثين الذين عرضوا لذكر دوقة ، شرف بن عبد المحسن البركاتي معتبراً إياها المرحلة السابقة من مراحل الطريق إلى مكة المكرمة ، فقد نزلها في غرة جمادى الأولى عام ١٣٢٩هـ (مايو ١٩١١م) أثناء مرافقته لجيش الشريف الحسين بن علي ، أمير مكة المكرمة ، المتجه إلى عسير في مهمة لفك الحصار الذي ضربه السيد الإدريسي على حامية أبها التركية ، حيث يذكر أنه نزل بمكان يقال له المَشْيَّة في الجهة الشرقية من دوقة ، بينه وبين مرسى دوقة على البحر ساعتان على الهجن ، ويذكر أنه وادٍ خصيب تجود فيه زراعة الذرة والدخن والسمسم والقطن ، "وأن جميع محصولاته ترسل إلى مدينة دوقة الساحلية ، ومنها ترسل إلى مرافئ الحرمين الشريفين بواسطة سفن شراعية."(٨٨) أما فيلبي فنزل بوادي دوقة قريباً من موسم حج سنة ١٣٥٤هـ (فبراير ١٩٣٦م) ، ولم يشر إلى أنه مرحلة من مراحل الطريق ، وإنما فصل كعادته في وصف الوادي ، وذكر منابعه ، وسيوله ، ونباتاته ، والمحاصيل الزراعية التي يجود بها ، وأهم القرى والحلل التي تقع على ضفافه ، والقبائل والعشائر التي تقطنه.(٨٩)

على أن خير من فصَّل في ذكر وادي دوقة من الكتاب المحدثين اثنان هما : علي بن صالح السلوك ، وعاتق بن غيث البلادي ؛ فالأول يذكر أن وادي دوقة يبدأ من نهاية أصدار بيضان ، وبني حسن الشرقية ، وينتهي في البحر الأحمر ، ويذكر من الأودية والشعاب التي ترفده وادي يَحَر ، ووادي سَبَّة ، ووادي مَحْلاً ، ووادي سَمَعه ، ووادي حِنْذِيَّة ، ووادي الحَضَن ، والشعب الشامي ، والشعب اليماني وغيرها.(٩٠) ويذكر أن طوله من الشرق إلى الغرب عند مصبه في البحر الأحمر ١٠٠كيلو متر. كما يذكر أنه بالقرب من ذلك المصب يوجد مرفأ صغير كانت البضائع ترد عن طريقه إلى المنطقة الداخلية إلى جانب مرفأ القنفدة الشهير.(٩١)

أما الثاني ، وهو البلادي ، فيفصل كثيراً في ذكر دوقة ، وادياً ، وموقعاً ، ومسلكاً لطريق الحج اليمني إلى مكة المكرمة حيث يذكر أن الطريق يقطع وادي دوقة على بعد ٢٨٣كيلو متراً من مكة المكرمة ، ويذكر كذلك منابع الوادي ، وروافده ، ومصبه عند البحر.(٩٢) ثم يعدد البلادي أهم القرى الواقعة على ضفافه ، ومنها في السهل

الساحلي: دوقة، ومُشْرِف، والمُسَيْليم، والقُدَيحْ (المركز الإداري لسهل دوقة الساحلي)، والشَّعيْرة. كما يذكر أهم قبائل الوادي، ومنهم في السهل الساحلي أيضاً: الخَيَرَة، والمشاييخ، والأشراف الشَّنَابرة، والأشراف ذوو حَرَاز، وبنو شهاب.[٩٣]

البـــــــــرْك

بِرْك الغماد أو البِرْك من المواقع التهامية المعروفة عند الجغرافيين العرب الذين أشاروا إلى موقعها، وإلى الأهمية التاريخية لذلك الموقع، فالبكري يذكر أن الصحابي الجليل أبا بكر الصديق (رضي الله عنه) خرج مهاجراً إلى الحبشة، فلما بلغ برك الغماد لقيه ابن الدغنّة، زعيم قبيلة القارة، وقال لأبي بكر: "إن مثلك لا يخرج ولا يخرج،" ارجع إلى بلدك فأنت في جواري، فعاد أبو بكر إلى مكة.[٩٤] ويذكر ياقوت موقع برك الغماد مرتبطاً بعبد الله بن جدعان، أحد زعماء قريش في الجاهلية، على أنه مات ودفن بها،[٩٥] مما يدل على أن البرك معروف منذ ما قبل الإسلام. أما الهمداني فيذكر أن البرك تقع في حرّة كنانة، ثم يورد حديث سعد بن معاذ الأنصاري، والمقداد بن الأسود الكندي رضي الله عنهما في غزوة خيبر حينما قالا للنبي صلى الله عليه وسلم: لو اعترضت بنا البحر لخضناه، أو قصدت بنا برك الغماد لقصدناه.[٩٦] كما ذُكر البرك في أشعار الهذليين مقترناً ببعض المواقع التهامية القريبة من مواطن هذيل من الجنوب.[٩٧]

ولم يكن البرك بعيداً جداً، كما تصوره المقداد أو غيره، فهو يقع إلى الجنوب من مكة المكرمة بحوالي ٤٥٠ كيلو متراً، وهو عبارة عن بلدة صغيرة تقع على ساحل البحر الأحمر في طرف الحرّة التي يسميها الهمداني حرّة كنانة، كما سبق بيانه. وقد أدى موقع البرك على ساحل البحر، وفي طرف الحرة إلى إضفاء منظر خلاّب على البلدة الواقعة على ربوة مرتفعة من الحرة التي تعانق البحر من طرفها الغربي، ولم يفك عناقهما الأزلي الطويل إلا طريق الإسفلت الساحلي المتجه من مكة المكرمة إلى جازان والذي تم رصفه في وقت متأخر جداً، وإلى الشمال من البرك يمتد خور تاريخي شهير يعرف بشَرْم الجارية نسبة إلى جارية غرقت فيه حينما زلت بها أقدام راحلتها، وهي في طريقها إلى الحج على حد قول ابن المجاور (توفي بعد ٦٢٦هـ/١٢٢٨-١٢٢٩م).[٩٨] وتطفو صخور الحرة البركانية التي يصعب السير فوقها، على سطح بلدة البرك، وحولها آخذة في الامتداد جنوباً وشرقاً وشمالاً مما قلل من فرص وجود أماكن صالحة للزراعة باستثناء بعض أشجار النخيل التي توجد في منخفض إلى الشمال من البلدة داخل سورها العتيق. ولكن توجد مساحات زراعية جيدة في مكان يقع إلى الشرق من البرك يعرف بالشُّرُفَات، وهو منتجع للأهالي في فصول الزراعة التي كانت إحدى مصادر المعيشة لأهل البرك،[٩٩] إلا أن صيد الأسماك وبيعه كان من أهم مصادر الدخل الذي عليه يعتمد غالبية الناس في البرك، يليه من حيث مدخول الأهالي، الاستفادة من طريق الحج والتجارة الساحلي الذي يمر بالبرك إلى مكة المكرمة جيئة وذهاباً.[١٠٠]

والبرك من المواقع التاريخية القديمة في تهامة، وكان لموقعها على الطريق بين مكة واليمن أهمية اقتصادية وحربية كبيرة، لذا أُعْتني بتحصينها وتسويرها منذ وقت مبكر، ولا تزال بقايا أسوارها شاخصة إلى اليوم، فقد كانت البرك محاطة بسورين ، أحدهما داخلي وحديث البناء نسبياً، وربما لا يزيد كثيراً في بنائه على مائتي سنة خلت. أما الآخر فخارجي قديم، ومن المحتمل أنه هو الذي بني في عهد السلطان الملك المنصور عمر بن علي بن رسول في سنة ٦٢٨هـ/١٢٤٠م حتى يحمي نفسه من غزوات الأيوبيين عن طريق الحجاز بعد أن أعلن استقلال دولته باليمن، وقطع ارتباطه بزعماء بني أيوب في مصر والحجاز،[١٠١] وربما أدخلت بعض التجديدات على هذا السور في أوقات متأخرة. ويبلغ طول ما تبقى من السور حوالي ٣٠٠ متر، وهو يمتد من البحر في الغرب، ويتجه نحو الشرق إلى منخفض يفصل بينه وبين الجبال الشرقية وادٍ عميق يبلغ عمقه حوالي خمسة عشر متراً. ويبلغ ارتفاع السور بوضعه الحالي أكثر من أربعة أمتار عند مدخله في الوسط، وحوالي أربعين سنتيمتراً في الطرف الغربي الذي لا يلبث أن يختفي تحت منشآت الطريق الجديد الذي يربط جازان بمكة المكرمة، وهو مبني من الحجر الخشن المجلوب من الحرة، ويُرى بين فجواته آثار لنورة وطين استخدمتا أثناء البناء. وإلى الشرق من السور توجد بقايا تحصينات دفاعية يظن أنها كانت أبراجاً تدعم السور من تلك الناحية، كما توجد على قمة الجبل الشرقي المطل على البلدة مما يلي ذلك الوادي العميق، قلعة صغيرة يظن أنها من بناء الأتراك.[١٠٢]

كان للبرك مرسى صغير لعب دوراً في النزاع بين الأتراك وأهل عسير في عهد آل عايض، وكذلك في عهد الأدارسة، إلا أن مكانه يصعب تحديده في الوقت الحاضر بسبب المنشآت الحديثة التي قامت في الجهة الغربية من البلدة، ولعله كان مكان مرساها الحالي الذي يستخدم من قبل صيادي الأسماك، ولم تعد له أهمية أخرى تتجاوز الدور الذي يلبي حاجة الصيادين والمتنزهين.[١٠٣] ويوجد في طرف الحرة من ناحية الجزء الشرقي للسور، مقابر قديمة خالية تماماً من أي شواهد منقوشة. وهي مبنية على هيئة قباب بدائية غير مرتفعة، ولا توجد حشوات بين الأحجار غير المشذبة التي تدخل في بنائها، وهي تنتشر على مساحة واسعة في تلك الناحية، ولعل ظروف الحرة، وصعوبة الحفر فيها، وتوافر الأحجار هي التي أدت إلى الدفن بهذه الطريقة في تلك المدينة الساحلية الجبلية في آن واحد، وهو ما لا يتوفر في كثير من المواقع الساحلية الجنوبية غير البرك.[١٠٤]

ولا تزال البرك عامرة حتى اليوم، وبها عدد من المرافق الحكومية، وهي تتبع إمارة عسير في الوقت الحاضر بعد أن كانت تابعة لإمارة مكة المكرمة على مدى تاريخها الطويل. كما أنها مركز لعدد من القرى أهمها ذَهْبَان إلى الجنوب، والدَّبْسَا وعَمِق إلى الشمال، وكلها من القرى المذكورة تاريخياً منذ القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، وبعضها أقدم من ذلك بكثير، وأغلب سكان البرك في الوقت الحاضر من بني هلال، وهم يعتقدون أنهم امتداد للقبيلة العربية المشهورة التي عرفت بهذا الاسم، وإليها ينتمون بجذورهم البعيدة، ومن أفخاذ أهل البرك الهلاليين: بنو جابر، وبنو صبيح، وبنو علي، وجميعهم يرجعون إلى جد واحد هو: خُتَارش.[١٠٥]

نخلص مما سبق إلى أن أبا دهبل الجمحي سلك طريقاً مباشراً وسريعاً في رحلته على ظهر ناقته من مكة المكرمة إلى البرك في اتجاه الجنوب. وأنه اجتاز عدداً من الأمكنة هي يلملم، والليث، والبزواء، وعليب، ودوقة، والبرك. وأن هذه الأمكنة كلها معروفة، وتقع إلى الجنوب من مكة المكرمة. وهي مشهورة في زمن الشاعر وبعده؛ أربعة منها مسميات لأودية هي: يلملم، والليث، وعليب، ودوقة، والخامس خبت هو: البزواء، والسادس والأخير اسم مكان معروف قديماً وحديثاً هو: البرك، أو برك الغماد على الرغم من أن الشاعر أورده مضافاً إلى وادٍ (وادي البرك)؛ لذلك، فمن الصعب تتبع خط سير ناقة أبي دهبل، أو رسم خريطة لذلك الخط ما لم يتأتى لكاتب هذه الأسطر، أو من يأتي بعده القيام برحلة برية على الطريق القديم، يكون هدفها منذ البداية الكشف عن خط سير الشاعر أبي دهبل، ومعرفة النقاط التي مر بها. ومع أنني سلكت هذا الطريق مراراً لأهداف علمية، وغير علمية فإنه لم يكن من بينها، ولو لمرة واحدة، تتبع رحلة أبي دهبل هذه، ومعرفة النقاط المحددة من المواضع التي اجتازها. ولكن لا بأس من الإشارة المبدئية إلى أقصر الطرق التي يمكن سلوكها من قبل النجائب بين مكة والبرك؛ وذلك في الظروف العادية التي تكون فيها الطرق سليمة وآمنة وخالية من الأوحال، ولا سيما تلك التي تقع في السباخ، وفي بعض الأطيان إلى الجنوب من الليث خاصة.

وفي محاولة أولية لمعرفة ذلك الطريق المباشر والسالك، وإلى حد ما الآمن، نرى أن السعدية من وادي يلملم هي الموقع المثالي لسلوك النجائب في مهمات تقتضي السرعة، والوصول إلى أهدافها في أوقات قياسية، ويغلب على الظن أن أبا دهبل سلك هذا المسار. أما من الليث، أو بطن الليث – كما ينعته الشاعر – فإن الأمر يزداد صعوبة، إذ لا يعرف منه – في حدود علمي – أي مسمى لمكان بعينه كانت تسلكه القوافل فضلاً عن النجائب، وكل ما نعرفه أن الطريق هنا يفترق من السرين إلى طريقين: إحداهما ساحلية، والأخرى داخلية. فإذا عُرف من منازل الطريق الساحلية القريبة من الليث، كل من الرِّيَاضَة إلى الجنوب من مدينة الليث الحالية، وسَبَخَة الغُرَاب إلى الشمال منها،[١٠٦] فإننا لم نعرف شيئاً حتى الآن عن منازل الطريق الداخلية التي تجتاز وادي الليث، على الرغم من أنها أقصر من الأولى، وأكثرها مباشرة إلى مكة، مما يعني أن أبا دهبل سلك هذا الطريق في رحلته هذه إلى البرك. فإذا عدنا إلى نص حديث نسبيّاً لشرف بن عبد المحسن البركاتي يذكر فيه أن الشريف الحسين بن علي، أمير مكة، حينما خرج منها على رأس جيش لفك الحصار الذي فرضه الإدريسي على مدينة أبها – نزل على بئر الكلابية (الكليبية) إلى الشرق من الليث (الشمال الشرقي)، مما يعد مؤشراً على وجود مسار للطريق القديم يقع قليلاً إلى الشرق من الليث، ولا يبعد كثيراً عنها إلى الداخل. وهو أكثر مباشرة من أي مكان آخر للمرور على البزواء طبقاً لتحديد البلادي، ثم على ساحل وادي عليب مما يلي مدينة السرين الأثرية المعروفة في تلك الجهة، كما أنه أقصر الطرق لمن يتجه جنوباً إلى المنازل الأخرى بعد عليب. لذلك، لا نستبعد أن هذا الطريق هو الذي تذكر المصادر أنه كان يمر على السرين، أو قريباً منها إلى الشرق،[١٠٧] وليس على الصهوة المعروفة في الوقت الحاضر.

أما إشارة أبي دهبل إلى وجود نخل في الموضع الذي مرَّ به من عليب فهذا ما لا يمكن الاستدلال به في الوقت الحاضر، لأنه لا يمكن بقاؤه صامداً حتى اليوم، إلا أن تكون ثقافة المكان، وتقاليد أهله، جيلاً بعد جيل، حافظت على عادة استنبات النخيل، ورعايته، والعناية به على مر القرون. ومع ذلك، فلم أشاهد نخلاً ذا بال في حدود ما رأيت من وادي عليب سوى القليل المتناثر هنا وهناك، ومنه نخلة أو أكثر ترى من بعد مشرفة من فوق الغطاء النباتي الأخضر إلى الشرق أو الجنوب الشرقي من السرين.

ومهما تكن وجاهة هذا الاحتمال وصوابه، فإننا إذا افترضنا أن مسار ناقة أبي دهبل كان على ساحل عليب، فمن الطبيعي أن يكون مرورها على ساحل دوقة كذلك، وبالتحديد على موضع فيه بئر روية، بدليل قول الشاعر نفسه: "ومرت على أشطان دوقة بالضحى،" والأشطان تعني البئر، أو الحبال التي تربط بها الدلاء التي ينزع بها الماء من البئر، وإن كنا غير متأكدين عما إذا كانت ناقة إبي دهبل قد شربت من هذه البئر أم لم تشرب، والظاهر أنها شربت، بل وأراحت، ثم استأنفت رحلتها إلى البرك – كما سيأتي.

أما المحطة الأخيرة لناقة أبي دهبل فإن أي عارف بالمنطقة حينما يحقق مرورها على البرك فإنه لن يدور بخلده أي موضع آخر غير موضع البرك الحالي على الرغم من إيرادها مضافة إلى كلمة واد، والدليل على ذلك أن البرك ليس لها واد مفرع، كما هو الحال بالنسبة لأودية يلملم، والليث، وعليب، ودوقة، يضاف إلى ذلك عدم وجود ممر آخر شرقي البرك، أو غربيها بسبب الظروف الطبيعية المتمثلة في حرتها الوعرة إلى الشرق، وفي البحر إلى الغرب. ولعل كلمة وادٍ هنا لم تأت لكون البرك يقع على واد ظاهر ومشهور، وإنما للضرورة الشعرية، أو لوجود منخفض إلى الشمال منها ربما يخيل للقادم إليها، لأول وهلة، أن ذلك المنخفض ما هو إلا مجرى لواد مثل غيره من الأودية المذكورة.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى، أثارت السرعة العجيبة التي سارت بها ناقة أبي دهبل بين مكة والبرك، وطول المسافة التي قطعتها بينهما في وقت قياسي – كثيراً من علامات الاستفهام لدى بعض الحاضرين عند إبقاء هذا البحث والذين رأوا أنه من غير المعقول أن تقطع ناقة، مهما أُوتيت من القوة والسرعة، في ليلة واحدة حتى ضحى اليوم التالي مسافة تقدر حالياً بحوالي ٤٥٠ كيلو متراً، وفسروا ذلك على أنه نوع من التهويل والمبالغة الشعرية. وفي الجانب الآخر في الحضور مَنْ قَبِل بواقعية الخبر، وذلك لما علموه وسمعوه في ديارهم من أخبار مماثلة لنجائب قطعت مسافات طويلة في أوقات قياسية. ومن تلك الأخبار ما علمه كاتب هذه الأسطر من رواة ثقات قريبين من الأحداث عن ذلول سبَّاق كان يملكه الشيخ عمر بن شيبة الناشري من مشايخ النواشرة بوادي يبة – محافظة القنفدة. وكان هذا الذلول يُرْسل مع صاحبه في مهمات رسمية من القنفدة إلى مكة في أواخر عهد الأشراف بها، وكان يقطع المسافة بين مكة والقنفدة في وقت قريب من هذا الوقت الذي قطعته ناقة أبي دهبل في زمانها. ومع ذلك، فلا نستبعد أن أبا دهبل كان قد توقف في مكان ما ربما في دوقة، أو في منزلة أخرى بعدها، ولم يصل إلى البرك إلا في صباح

اليوم التالي، وإلا فكيف نوفق بين قوله أنه مرَّ على دوقة في "الضحى" ووصل إلى البرك في "الصباح"؟ ! إلا أن يكون ذلك الوصول في صباح اليوم التالي. فإذا صحت هذه الفرضية فربما تكون بعض أبيات القصيدة قد فقدت منها، وفقد معها ذكر منازل أخرى بعد دوقة ومنها: قَرْما، والأَحْسَبَة، وقَنُونَا، ويَبَة، وَحِلِيْ.

ملاحظـــــــة

الأخ الأستاذ تركي بن شجاع بن تركي الخزيم من الدواسر، ويعمل موظفاً بإمارة المنطقة الشرقية، وله اهتمامات بحثية، واطلاع جم على التراث العربي الإسلامي - كان ممن حضر إلقاء البحث وأفادني بملاحظات جيدة عن شهرة بعض النجائب السريعة في ديرته (وادي الدواسر) انتفعت بها حقاً في باب المقارنة، فله الشكر.

وبعد حوالي ستة أشهر زارني الأستاذ تركي في مكتبي بقسم الآثار والمتاحف، وفي يده صورة لمقالة نشرها الأخ الزميل الأستاذ الدكتور عبد الله بن محمد أبو داهش، أستاذ الأدب العربي بجامعة الملك خالد بعسير، بعنوان: "مع أبي دَهْبَل الجمحي (٠٠٠-٦٣هـ) في رحلته الشعرية من: مكة المكرمة إلى البرك." (حوليات سوق حباشة، ع ٣، س ٣، النادي الأدبي بأبها ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، ص ٥٧ - ص ٦٠).

والحقيقة أنها كانت مفاجأة لي؛ لأنني لم يسبق لي الاطلاع على هذه المقالة قبل تقديمها إليَّ من الأستاذ تركي الخزيم، فعزمت للوهلة الأولى على العدول عن نشر ورقتي هذه التي تقترب في عنوانها من مقالة الدكتور أبي داهش لولا أنني بعد أن قرأت الأخيرة لاحظت عدم تشابه البتة بينهما لا في الموضوع، ولا في الطرح، ولا في طريقة التناول، واستخلاص النتائج؛ لكون الدكتور أبو داهش درس القصيدة من الناحية الأدبية، وفي المقابل تناولت ورقتي حياة الشاعر، وخط سير الرحلة، وتحقيق الأمكنة التي مر بها، ونحو ذلك، بل لعل نشر ورقتي هذه إلى جانب تلك التي نشرها الدكتور أبو داهش، يقدم صورة متكاملة عن موضوعهما. وأرجو ممن يقرأ ورقتي هذه أن يطلع على مقالة الدكتور أبي داهش في مكانها من *حوليات سوق حباشة* التي يحررها الدكتور أبو داهش نفسه.

تجدر الإشارة إلى أن عنوان بحثي هذا قدمته للجنة التحضيرية منذ ورود الموافقة السامية على عقد الندوة بتاريخ ١٤٠٩/٤/٢٧هـ، وأدرج عنوانه في محاضر جلسات اللجنة منذ زمن طويل، وظل كما هو حتى إعداد البحث للنشر، وكذلك البناء الموضوعي للبحث لم أغير فيه شيئاً نتيجة لاطلاعي على مقالة الأخ الدكتور أبي داهش، وكذلك تحقيق المواضع والتعريف بها ظل كما هو على حاله، وبعضها سبق لي نشره في مكان آخر، وأعيد نشره هنا بتصرف.

التعليقـــــات

(١) أبو عمرو الشيباني (الراوي)، *ديوان أبي دهبل الجحمي*، تحقيق عبدالعظيم عبد المحسن، النجف الأشرف (مطبعة القضاء، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م)، ١٠ ؛ أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة ، ؛ *الشعر والشعراء*، تحقيق أحمد محمد شاكر (القاهرة: دار المعارف، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م)، ٢: ١٤.

(٢) الشيباني، *ديوان أبي دهبل*، ١٣ ؛ أبو الفرج الأصفهاني، *الأغاني*، شرحه وكتب هوامشه عبد علي مهنا، ط ٢ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م)، ٧: ١٣٠.

(٣) الأصفهاني، *الأغاني*، ٧ :١٣٠.

(٤) الشيباني، *ديوان أبي دهبل*، ١٦.

(٥) الشيباني، *ديوان أبي دهبل*، ١٨.

(٦) الأصفهاني، *الأغاني*، ٧: ١٤١- ١٤٢.

(٧) الشيباني، *ديوان أبي دهبل*، ١٩.

(٨) الأصفهاني، *الأغاني*، ٧: ١٥١.

(٩) الأصفهاني، *الأغاني*، ٧، ١٤٣ وما بعدها؛ ابن قتيبة، *الشعر والشعراء*، ٢: ٦١٤- ٦١٥.

(١٠) الأصفهاني، *الأغاني*، ٧: ١٥٦-١٥٧؛ الشيباني، *ديوان أبي دهبل*، ١٠٦- ١٠٩.

(١١) الشيباني، *ديوان أبي دهبل*، ١٠٦-١٠٩ (انظر الحواشي).

(١٢) شرف بن عبدالمحسن البركاتي، *الرحلة اليمانية* (القاهرة: مطبعة السعادة، ١٣٣٠هـ/١٩١٢م)؛ عاتق بن غيث البلادي، *بين مكة واليمن*، ط ١ (مكة: دار مكة للنشر والتوزيع، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م)، ٢٦- ٢٧.

(١٣) أبو علي أحمد بن عمر بن رستة، *الأعلاق النفيسة* (ليدن: بريل، ١٨٩١م)، ١٨٤.

(١٤) Ahmad Umar Al-Zayla'i, "The Southern Area of the Amirate of Makkah (3rd-7th (A.H) /7th-13th (A.D) Centuries) its history, Archaeology and Epigraphy, unpublished PhD thesis, University of Durham, Durham, 1983, 488.

(١٥) الحسن بن أحمد بن أبي يعقوب الهمداني، *صفة جزيرة العرب*، تحقيق محمد بن علي الأكوع (الرياض: دار اليمامة، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م)، ٣٢٦.

(١٦) انظر : نجم الدين عمارة بن علي، *تاريخ اليمن*، تحقيق محمد بن علي الأكوع، ط ٣ (صنعاء: المكتبة اليمنية للنشر والتوزيع، د. ت.)، ٦٩- ٧٠.

(١٧) عبدالله بن عبدالعزيز البكري الأندلسي، *معجم ما استعجم*، تحقيق مصطفى السقا (بيروت: عالم الكتب، د. ت.)، ٤ : ١٣٩٨.

(١٨) أبو عبدالله محمد بن أحمد المقدسي، *أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم* (ليدن، ١٩٠٦م)، ٧٨.

(١٩) البلادي، *بين مكة واليمن*، ٢٧.

(٢٠) Al-Zayla'i, "The Southern Area of the Amirate of Makkah." 489.

(٢١) البلادي، *بين مكة واليمن*، ٢٦.

(٢٢) انظر على سبيل المثال: قطب الدين محمد بن أحمد النهروالي، *البرق اليماني في الفتح العثماني*، تحقيق حمد الجاسر، ط ١ (الرياض: دار اليمامة، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م)، ١٣٨- ١٣٩ ؛ علي صدر الدين بن أحمد بن معصوم، رحلة ابن معصوم المسماة *سلوة الغريب وأسوة الأريب*، تحقيق شاكر هادي شكر، ط ١ (بيروت: عالم الكتب، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م)، ٤١.

(٢٣) Al-Zayla'i, "The Southern Area of the Amirate of Makkah." 489.

(٢٤) البلادي، *بين مكة واليمن*، ٢٧.

(٢٥) Al-Zayla'i, "The Southern Area of the Amirate of Makkah", 489.

(٢٦) ابن معصوم، *سلوة الغريب*، ٤٠.

(٢٧) البلادي، *بين مكة واليمن*، ٣٣- ٣٦.

(٢٨) شهاب الدين ياقوت ابن عبدالله الحموي، *معجم البلدان* (بيروت: دار صادر، د.ت.)، ٥: ٢٨.

(٢٩) ياقوت، *معجم البلدان*، ٥: ٢٨.

(٣٠) البكري، *معجم ما استعجم*، ٤: ١١٦٦.

(٣١) البكري، *معجم ما استعجم*، ٤: ١١٦٦.

(٣٢) ياقوت: *معجم البلدان*، ٥: ٢٨.

(٣٣) انظر: عبدالعزيز بن عمر بن محمد بن فهد؛ *غاية المرام بأخبار البلد الحرام*، تحقيق فهيم شلتوت، ط ١ (مكة المكرمة: جامعة أم القرى ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م)، ٢: ٣٤٦، ٤٠٧، ٤٣٤، ٤٣٩؛ ٣: ١١٣.

(٣٤) أحمد بن يعقوب بن واضح اليقوبي، *كتاب البلدان* (ليدن: بريل، ١٨٩١م)، ٣١٧.

(٣٥) إبراهيم بن إسحق بن إبراهيم الحربي، *كتاب المناسك وأماكن طرق الحج*، تحقيق حمد الجاسر (الرياض: دار اليمامة، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م)، ٦٤٦.

(٣٦) الحربي، *كتاب المناسك*، ٦٤٦ - ٦٤٧.

(٣٧) أبو الفرج قدامة بن جعفر الكاتب، *نبذة من كتاب الخراج وصنعة الكتابة* (ليدن: بريل، ١٨٨٩م)، ١٩٢.

(٣٨) الهمداني، *صفة جزيرة العرب*، ٣٤١.

(٣٩) البلادي، *بين مكة واليمن*، ١٣٠.

(٤٠) عبدالرحمن الطيب الأنصاري وآخرون، *المواصلات والاتصالات في المملكة العربية السعودية* (الرياض: وزارة المواصلات، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م)، ١: ١٥٦، ٣١٢.

(٤١) البركاتي، *الرحلة اليمانية*، ١٣؛ الأنصاري وآخرون، *المواصلات والاتصالات*، ١: ١٥٦.

(٤٢) البلادي، *بين مكة واليمن*، ٣١.

(٤٣) البلادي، *بين مكة واليمن*، ٢٩، ٣١، ٣٧.

(٤٤) الهمداني، *صفة جزيرة العرب*، ٣٣٣.

(٤٥) انظر: حسن بن إبراهيم الفقيه، *مدينة السرين الأثرية*، ط ١ (الرياض: مطابع الفرزدق، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م)، ٢٧.

(٤٦) ياقوت، *معجم البلدان*، ٢: ٤١١.

(٤٧) ابن منظور، *لسان العرب*، أعاد بناءه على الحرف الأول من الكلمة يوسف خياط (بيروت: دار لسان العرب، د. ت.)، ٢: ٢١٠؛ ياقوت: *معجم البلدان*، ٢: ٤١١.

(٤٨) ابن منظور، *لسان العرب*، ٢: ٢١٠.

(٤٩) ابن منظور، *لسان العرب*، ٢: ٢١٠.

(٥٠) البلادي، *بين مكة واليمن*، ٥٤.

(❖) هذه الجزئية عن عليب سبق لي نشرها في كتابي المعنون: *نقوش إسلامية من حمدانة بوادي عليب* (الرياض: مكتبة الملك فهد، ١٤١٥هـ/١٩٩٥)، ١٣ - ١٩. وهنا أعيد نشرها مع تصرف طفيف.

(٥١) *كتاب البلدان*، ٣١٧.

(٥٢) الحربي، *كتاب المناسك*، ٦٤٦-٦٤٧.

(٥٣) ابن خرداذبه، *كتاب المسالك والممالك*، ١٤٩.

(٥٤) ابن خرداذبه، *كتاب المسالك والممالك*، ١٤٩.

(٥٥) انظر: البلادي، *بين مكة واليمن*، ٦٧-١٤٦.

(٥٦) قدامة، *نبذة*، ١٩٢.

(٥٧) انظر: البلادي، *بين مكة واليمن*، ٥٢، ٥٦.

(٥٨) الإداريسي، *نزهة المشتاق في اختراق الآفاق*، ط ١ (بيروت: عالم الكتب ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م)، ١: ١٤٧.

(٥٩) الهمداني، *صفة جزيرة العرب*، ٣٣٣.

(٦٠) انظر: حمد الجاسر، *في سراة غامد وزهران* (الرياض: دار اليمامة، ١٣٩١هـ/١٩٧١م)، ١٥٧؛ علي بن صالح السلوك، *المعجم الجغرافي لبلاد غامد وزهران*، ط ٣ (جدة: مطابع مؤسسة المدينة الصحفية، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م)، ٣١٨- ٣١٩.

(٦١) البكري، *معجم ما استعجم*، ٣: ٩٦٥.

(٦٢) محمود بن عمر، *الجبال والأمكنة والمياه*، تحقيق إبراهيم السامرائي (بغداد: مطبعة السعدون)، ١٦٤.

(٦٣) ياقوت، *معجم البلدان*، ٤: ١٤٨.

(٦٤) البكري، *معجم ما استعجم*، ٣: ٩٦٥.

(٦٥) الهمداني، *صفة جزيرة العرب*، ٣٩٩.

(٦٦) البكري، *معجم ما استعجم*، ٤: ١٢٨٢.

(٦٧) *ديوان جرير* (بيروت: دار صادر، د.ت.)، ٤٥.

(٦٨) ولي الجند ومخاليفها لعبدالله بنالزبير، انظر: المصعب بن عبدالله الزبيري، *كتاب نسب قريش*، تحقيق ليفي بروفنسال، ط٢ (القاهرة: دار المعارف، د.ت.)، ٣٣٠ - ٣٣٢.

(٦٩) الشيباني، *ديوان أبي دهبل الجمحي*، ٤٥، حاشية ٢.

(٧٠) الشيباني، *ديوان أبي دهبل الجمحي*، ٦٥.

(٧١) البركاتي، *الرحلة اليمانية*، ١٤.

(٧٢) St. J. B. Philby, *Arabian Highlands* (New York, 1976), 700-701.

لفظ الشاقة أو الشواق، وجد له أصل عند مرتضى الزبيدي الذي يطلق على موقع الواديين الشقان. انظر: *تاج العروس*، تحقيق حسين نصار (الكويت: وزارة الإرشاد والأنباء، ١٣٦٩هـ/١٩٦٩م)، ٦: ٣٥٤.

(٧٣) الجاسر، *في سراة غامد وزهران*، ١٢٢، ١٥٧، ٣٥٩، ٤٦٨.

(٧٤) *بلاد غامد وزهران*، ١٧٧-١٧٩.

(٧٥) الفقيه، *مدينة السرين الأثرية*، ٥٧٣-٥٧٥.

(٧٦) البلادي، *بين مكة واليمن*، ٦١-٦٦.

(٧٧) البلادي، *بين مكة واليمن*، ٦٥.

(٧٨) عبدالرحمن بن خلدون، *العبر وديوان المبتدأ والخبر* (بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٦٠م)، ٤: ٢٢١.

(٧٩) Al-Zayla'i. "The Southern Area of the Amirate of Makkah," 111-12. الزيلعي، *نقوش إسلامية من حمدانة*، ١٩.

(٨٠) ابن خرداذبه، *كتاب المسالك والممالك*، ١٤٩.

(٨١) الهمداني، *صفة جزيرة العرب*، ٣٤١.

(٨٢) الهمداني، صفة جزيرة العرب، ٣٨٢.

(٨٣) البكري، *معجم ما استعجم*، ١: ٥٦٤.

(٨٤) الأصفهاني، *الأغاني*، ٧: ١٥٦؛ الشيباني، *ديوان أبي دهبل*، ١١٤-١١٦.

(٨٥) الشيباني، *ديوان أبي دهبل*، ١١٥-١١٦.

(٨٦) ياقوت، *معجم البلدان*، ٢: ٤٨٥.

(٨٧) ياقوت، معجم البلدان، ٢: ٤٨٥.

(٨٨) البركاتي، *الرحلة اليمانية*، ١٦.

(٨٩) Philby, *Arabian Highlands*, 698-99.

(٩٠) السلوك، *المعجم الجغرافي*، ٢٢٦- ٢٢٧.

(٩١) السلوك، *المعجم الجغرافي*، ٢٢٧.

(٩٢) البلادي، *بين مكة واليمن*، ٦٧.

(٩٣) البلادي، *بين مكة ةاليمن*، ٦٩-٩٨، ٧٢-٧٣.

(٩٤) البكري، *معجم ما استعجم*، ١: ٢٤٤.

(٩٥) ياقوت، *معجم البلدان*، ١: ٣٩٩.

(٩٦) الهمداني، *صفة جزيرة العرب*، ٣٠٦.

(٩٧) أبو سعيد الحسن بن الحسين السكري، *كتاب شرح أشعار الهذليين*، تحقيق عبدالستار أحمد فراج و م. م. شاكر (القاهرة، ١٩٦٥م)، ٣: ١٠٤٣.

(٩٨) جمال الدين أبو الفتح يوسف بن يعقوب، *صفة بلاد اليمن (تاريخ المستبصر)*، تحقيق لوفجرين (ليدن: مطبعة بريل، ١٩٥١م)، ٥٤.

(٩٩) Al-Zayla'i, "The Southern Area of the Amirate of Makkah," 471.

(١٠٠) Ibid.

(١٠١) الأمير بدر الدين محمد بن حاتم *السمط الغالي الثمن في أخبار الملوك من الغز باليمن*، تحقيق ركس سميث (لندن، ١٩٧٤م)، ٢: ١٠٣.

(١٠٢) Al-Zayla'i ,"The Southern Area of the Amirate of Makkah," 471.

(١٠٣) Ibid.

(١٠٤) Ibid.

(١٠٥) فؤاد حمزة؛ *قلب جزيرة العرب* (القاهرة: المطبعة السلفية ومكتبتها، ١٩٣٣م)، ٢٠٣.

(١٠٦) عمارة، *تاريخ اليمن*، ٧٣.

(١٠٧) الحربي، *كتاب المناسك*، ٦٤٦؛ ابن خرداذبه، *كتاب المسالك والممالك*، ١٤٨؛ قدامة، *نبذة*، ١٩٢، ١٩٣؛ عمارة، *تاريخ اليمن*، ٧٢.